
تصوير ابو عبد الرحمن الكردي
ديك تشيني
مع ليز تشيني
في زماني
مذكرات شخصية وسياسية
ترجمة
فاضل جتكر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

لطالما كانت صورة ديك تشيني مشوبة بشيء من المفارقة والتناقض. ظل الناس يرونه أحد أقوى نواب رئيس الجمهورية- كتوماً، بل حتى لغزاً، وصاحب رأي، وبالغ الصراحة في الوقت نفسه. لم يقصّر الأقران، والإعلام، والجمهور، معه مدحاً وذماً. على امتداد المسيرة من ألفها إلى يائها، لم يغازل تشيني إلا المُثُل المحددة لشخصيته، إذ بقي صادقاً مع نفسه، ومع مبادئه، ومع عائلته، ومع وطنه. وهو يقوم الآن، عبر مذكرات مضيئة واستفزازية، زاخرة بلمعات من السخرية المباغتة والصراحة اللافتة، باصطحاب القراء إلى جولة في مسيرة تجاربه كربِّ عائلة، ومجترح سياسة، ورجل أعمال، وسياسي إبان سنوات تولّت صوغ تاريخنا الجماعي.

كان تشيني المولود في إحدى عائلات الصفقة الجديدة الديمقراطية بلنكولن النبراسكية، لأب في الحرب وأم مرحة واسعة الحيلة. بلغ سن الرشد في كاسبر في وايومنغ، منخرطاً في لعبتي البيسبول وكرة القدم، ومضطلعاً بدور عريق حتى تخرّج، مغازلاً ملكة حفل التخرج لين فنسنت، التي اقترن بها لاحقاً. دخلت القصة بمجملها في منعطف مفاجئ حين تسرب تشيني من جامعة ييل، والتحق بالعمل في ورشة تمديد خطوط الطاقة في الغرب، وبدأ يعيش حياة لا تقل قسوة عن عمله. يروي تشيني قصة عودته إلى السكة الصحيحة وشروعه في عملية صعود غير عادية أوصلته إلى قمم الحياة العامة الأمريكية، حيث بقي مدة تقرب من أربعة عقود:

- كان الموظف الأصغر سناً في جهاز عاملي البيت الأبيض، مع الرئيس جيرالد فورد أول المسؤولين التنفيذيين الرئيسيين الذين عرفهم عن كثب.
- أصبح عضواً في الكونغرس ممثلاً وايومنغ، ثم ما لبث، وبسرعة، أن صار عضواً في هيئة القيادة الكونغرسية حيث تعاون تعاوناً وثيقاً مع الرئيس رونالد ريغان.

(تابع على الطية الخلفية للغلاف)



في زماني

مذكرات شخصية وسياسية

ديك تشيني مع ليز تشيني

ترجمة

فاضل جتكر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

في زماني
مذكرات شخصية وسياسية

ISBN: 978-9953-27-966-4

Authorized Translation from the English Language Edition:

In My Time

by Dick Cheney with Liz Cheney

Published by arrangement with the original publisher, Threshold Editions, a Division of Simon & Shuster, Inc.

الناشر

DAR AL KITAB AL ARABI

دار الكتاب العربي

Verdun St., Byblos Bank Bldg.,
8th, floor, P.O. Box 11-5769
Beirut 1107 2200 Lebanon

شارع فردان، بناية بنك بيبلوس،
الطابق الثامن، ص. ب. 11-5769
بيروت 1107 2200 لبنان

Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178 هاتف
Fax (+961 1) 805478 فاكس

daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني
academia@dm.net.lb

www.kitabalarabi.com
www.academiainternational.com

**الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن فكر مؤلفها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر**

المحتويات

ديباجة: الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 9

الفصل الأول: بدايات 20

الفصل الثاني: هل ثمة شخص يدعى تشيني؟ 52

الفصل الثالث: مقعد خلفي 83

الفصل الرابع: حضرة السيد من وايومنغ 130

الفصل الخامس: سيادة الوزير 176

الفصل السادس: درع الصحراء 208

الفصل السابع: عاصفة الصحراء 239

الفصل الثامن: خارج الحلبة 273

الفصل التاسع: ذروة التفوق 304

الفصل العاشر: صياد 339

الفصل الحادي عشر: أمة في حالة حرب 370

الفصل الثاني عشر: تحرير العراق 409

الفصل الثالث عشر: الاستخبارات والسياسة 451

الفصل الرابع عشر: الطفرة 489

الفصل الخامس عشر: النكسة 523

الفصل السادس عشر: نهايات 556

خاتمة 584
شكر وعرفان 593
الهوامش 597

إلى

لين التي مكّنتني من كتابة سيرة حياتي!



ديباجة

الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، 2001

اندفع العميل الخاص جيمي سكوت عبر الباب وهو يقول لاهثاً: "سيادة نائب الرئيس، علينا أن نغادر الآن". وقبل أن أتمكن من الرد وجدته صار خلف طاولة مكتبي، واضعاً يداً على حزامي وأخرى على كتفي، مدحرجاً إياي إلى خارج مكتبي. طار بي عبر ممرات الجناح الغربي وأروقته وسُلَّم نازل باتجاه المركز الرئاسي لعمليات الطوارئ (PEOC)، الواقع تحت البيت الأبيض.

وقفنا عند قاع السلّم في قبو خارج المركز. تابعتُ العملاء السريين وهم يتخذون مواقعهم أعلى السلّم، ووسطه، وقاعه، مشكّلين خطوطاً دفاعية تحسباً لاحتمال تعرض البيت الأبيض نفسه لأي هجوم. قام العميل سكوت بتوزيع المزيد من الأسلحة النارية، والمصابيح، والأقنعة الواقية من الغازات. وقد قال إنه كان قد أجلاني من مكتبي لأنه كان قد تلقى عبر جهازه رسالة أفادت بأن طائرة غير محددة الهوية كانت متجهة نحو "التاج" (Crown)، الذي هو الاسم السري للبيت الأبيض.

وفي غضون لحظات وصلت رسالة ثانية. قال سكوت: "سيدي، الطائرة المتجهة نحونا نَطَحَتْ البنتاغون". أدركت الآن يقيناً أن واشنطن جنباً إلى جنب مع نيويورك كانت هدفاً لهجوم، وأن ذلك كان يعني أن الرئيس بوش الذي كان في إحدى المدارس الابتدائية بفلوريدا، تعيّن عليه أن يبقى بعيداً. التفتُّ نحو أحد العملاء في القبو قائلاً: "صلني بالرئيس!" رفع سماعة أحد الهواتف على الجدار لإجراء مكالمة.

هذه كانت المكالمة الثانية التي سبق لي أن أجريتها مع الرئيس بوش منذ ارتطام طائرتي الركاب المختطفتين ببرجَيْ التجارة العالمية، وكان هو أيضاً يحاول أن يتصل بي. ثمة خلل اتصالي كان قد فَصَلَنا من قبل، وكنت الآن، فيما أنتظر أن أتحدث معه، أشاهد صور البرجين المحترقين على شاشة جهاز تلفزيوني كبير موضوع في القبو. وعندما أصبح الرئيس على الخط أبلغته بأن البنتاغون كان قد ضُرب ورجوته بإلحاح أن يبقى بعيداً عن واشنطن. فالمدينة عرضة لهجوم، والبيت الأبيض هدف. أدركتُ أنه لم يكن راغباً في أن يبدو هارباً، غير أن من الضروري ألا يأتي إلى هنا حتى نطّلع على المزيد مما كان حاصلاً.

لين، زوجتي، كانت في مركز المدينة، العاصمة، لحظة وقوع حادثة اصطدام الطائرات، ورأت مرافِقَتُها الأمنية أن تجلبها إلى البيت الأبيض. وصلتْ إلى القبو بعيد الساعة العاشرة[1]، وعندما أنهيت كلامي مع الرئيس، رافقتني إلى المركز (PEOC). جلسْتُ على أحد كراسي طاولة المؤتمرات الكبيرة الشاغلة للجزء الأكبر من الغرفة ذات الجدران المبطنة بالخشب. تحت الطاولة جملة هواتف مستقرة في جوارير. على الجدار في مواجهتي شاشتا تلفزيون كبيرتان وكاميرا خاصة بالمؤتمر عن بعد. وثمة جدار جانبي كان مجهزاً بكاميرا أخرى وشاشتي تلفزيون إضافيتين. أما الجدار ورائي فلم يكن يحمل سوى خاتم رئاسي كبير.

لم نكن قد أمضينا وقتاً طويلاً في المركز (PEOC) حين قامت الشاشات التلفزيونية بعرض صورة البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمية في حالة انهيار. كلانا، لين وأنا، بتنا على يقين بأننا كنا للتو شاهدَيْن على موت المئات، بل ربما الآلاف، من الأبرياء.

وزير النقل: نورم مينيتا، أحد أوائل الواصلين إلى المركز (PEOC)، كان عاكفاً على وضع قوائم أرقام الرحلات الجوية، محاولاً اكتشاف هويات الطائرات المختطفة والمتحطمة، وتلك التي كان من شأنها أن تكون باقية في الجو مصدراً للتهديد والخطر. كان نورم هذا يتحدث عبر جهازي هاتف مع كل من وكالة الطيران الاتحادية من ناحية ورئيس أركان جهاز العاملين عنده من ناحية ثانية، محاولاً جلاء صورة الأجواء وصولاً إلى تمكيننا من معرفة الواقع الذي كنا بصدد التعامل معه. من المألوف أن ربان أي طائرة تجارية متمتع بهامش واسع

من حرية المناورة بطائرته في أي حالة طارئة، ومن الواضح أن أحدهم قال شيئاً لنورم عن طيارين يتخذون قرارات عن احتمال وتوقيت الهبوط بطائراتهم. سمعته يقول بعبارات لا لبس فيها إن من شأن هامش حرية تصرف الربان ألا يكون هو القاعدة اليوم. أصدر أمره الصريح: "انزلوا تلك الطائرات إلى الأرض الآن!"

في تلك الساعات الأولى كنا في أجواء الحرب الضبابية. وصلتنا تقارير عن احتمال تعرض ست رحلات جوية داخلية للاختطاف، وهو عدد ما لبث أن استقر لاحقاً على أربع. تلقينا تقارير متضاربة عن تعرض البنتاغون لضربة طائرة مروحية، أو سيارة مفخخة. بدأنا نحصل على تقارير عن تفجيرات حاصلة عبر واشنطن، عند نَصْب لنكولن التنكاري، ومبنى الكابيتول، ووزارة الخارجية. سمعنا عن وجود طائرة مجهولة الهوية، غير متجاوبة، متجهة نحو كامب ديفيد وأخرى نحو كروفورد، تكساس؛ كذلك أُبلغنا بوجود خطر على الطائرة الرئاسية، طائرة سلاح الجو رقم واحد.

نحو الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة دخل معاون عسكري في زي رسمي إلى الغرفة ليقول لي إن طائرة، يُعتقد أنها مختطفة، موجودة على مسافة ثمانين ميلاً ومتجهة نحو العاصمة. سألني عما إذا كانت دوريتنا القتالية الجوية مخوّلة بالتعامل مع تلك الطائرة. بعبارة أخرى: هل كان طيارو مقاتلاتنا متمتعين بحق إسقاط طائرة ركاب تجارية أمريكية مشتبه بأنها مختطفة؟ قلت "بلى" دون أي تردد. عاد الرجل بعد لحظة ليسأل: "إنها على مسافة ستين ميلاً، سيادة نائب الرئيس. هل يحق لهم الاشتباك؟" "نعم" مرة أخرى.

أي جواب آخر لم يكن وارداً. كما بات واضحاً من فترة الساعة والنصف البالغة القسوة فإن أي طائرة تغدو، لحظة اختطافها، سلاحاً بيد العدو. وفي واحدة من مكالماتنا السابقة كنا، الرئيس وأنا، قد ناقشنا أن من شأن دورياتنا القتالية الجوية ـ المقاتلات الأمريكية المحمولة جواً للدفاع عن البلد ـ أن تكون بحاجة إلى قواعد اشتباك. كان الرئيس قد وافق على اقتراحي القاضي بتمكين الطيارين من إطلاق النار على أي طائرة ركاب مدنية إذا كانت مختطفة ورفضَتْ تغيير الاتجاه. آلاف من الأمريكيين باتوا قتلى، وليس ثمة أي تردد حول ضرورة المبادرة إلى التحرك لإنقاذ آلاف أخرى. ومع ذلك فإن هول الأمر الذي كنت قد

أصدرته للتو صعق جميع من كانوا في مركز الطوارئ الرئاسي الذي خيم عليه الصمت. نائب رئيس جهاز العاملين جوش بولتن مال إلى الأمام في كرسيه واقترح الاتصال بالرئيس لإطلاعه على ما كان قد حصل للتو. وفي الساعة العاشرة والدقيقة الثامنة عشرة، رفعت سماعة الهاتف الآمن الموجود في الجارور القريب. واتصلت بطائرة سلاح الجو رقم واحد التي كانت قد غادرت فلوريدا وباتت متوجهة غرباً نظراً لأن مساعدي الرئيس كانوا يبحثون عن موقع آمن يستطيع منه أن يخاطب الشعب الأمريكي. حين أصبح الرئيس على الخط، أطلعتُه على أمر الإسقاط.

سرعان ما مرت لحظات متوترة لدى ورود نبأ سقوط طائرة، إلى الجنوب من جونزتاون، بنسلفانيا. هل تم إجبارها على الهبوط؟ هل تم إسقاطها من قبل أحد طيارينا تبعاً للتفويض الصادر عني؟ ثم ما لبثنا أن علمنا أن عملاً بطولياً كان قد تمخَّض عن إنزال رحلة خطوط يونايتد الجوية رقم 93 في الحقول القريبة من شانكسفيل. واقفين على مصائر الطائرات الأخرى المختطفة ذلك الصباح، بادر ركاب الرحلة رقم 93 إلى اقتحام قمرة القيادة. وعبر التضحية بحيواتهم نجح أولئك الرجال والنساء الشجعان في إنقاذ أرواح آخرين كُثُر بمن فيهم، ربما، نحن أنفسنا الموجودين في البيت الأبيض ذلك الصباح.

معاون مستشار الأمن القومي عندي، إريك إدلمان، وهو موظف سلك خارجية مخضرم، جاء إلى مركز الطوارئ الرئاسي حاملاً رسالة موجهة إليّ من ستيف هادلي، معاون مستشار الرئيس للأمن القومي. قال الرسول: "سيادة نائب الرئيس، يرى ستيف أن عليك أن تخلي المكان". قلت لإريك إنني لم أكن ذاهباً إلى أي مكان. علمت أن الرئيس كان بخير. وكنت على يقين بأن من واجبي أن أحافظ على قدرتي على التواصل، نظراً لمدى حراجة تحدياتنا التواصلية في ذلك اليوم. "اسْمَعْ يا إريك، إذا غادرنا هذا المكان على متن إحدى المروحيات للانتقال إلى مكان آخر، فإن ما لا يقل عن خمس وأربعين دقيقة ستنقضي قبل أن أتمكن من العودة إلى الاتصال بأي شخص. تلك الفترة الزمنية الثمينة لا نستطيع أن نضيعها. قل لهادلي إننا باقون حيثما نحن، نقطة على السطر".

لين التي كانت جالسة إلى طرف طاولة الاجتماعات، نقلت إلي أخباراً عن

عائلتنا. كانت قد سمعت أن إدارة الاستخبارات السرية كانت عاكفة على نقل الأولاد والأحفاد إلى مواقع أمينة. وفي الساعة العاشرة والدقيقة الثامنة العشرين، هوى البرج الثاني، وكانت ثمة شهقة جماعية في الغرفة. في ذلك المبنى كان هناك حشد من الأمهات والآباء، حشد من الأزواج الرجال والنساء، حشد من الأخوات والإخوة، وحشد من الأبناء والبنات. هؤلاء لم يكونوا مقاتلين في حرب، بل أناساً يتابعون حيواتهم. لقد قُتلوا، وتم إغراق أسرهم في بحار من الحزن والأسى، بأيدي إرهابيين لا يقيمون أي وزن للأرواح البريئة.

بعد دقائق من انهيار البرجين، أُبلغت بأن طائرة أخرى كانت متوجهة نحو واشنطن كانت قد اصطدمت بالأرض عند الحد الفاصل بين ولايتي أوهايو وكنتكي. ثم جاء نبأ عن طائرة مختطفة أخرى، على مسافة خمسة أميال فقط عن البيت الأبيض. قلت: "أجْهِزْ عليها! نعم، أجْهِزْ عليها إذا بدت منطوية على تهديد".

في الساعة العاشرة والدقيقة التاسعة والثلاثين توفرت لي فرصة إطلاع وزير الدفاع دون رامسفيلد، الذي كان في مركز القيادة العسكرية القومية في البنتاغون. ثمة تسجيل للمحادثة، إليكموها:

نائب الرئيس: كانت ثمة أقله ثلاثة تقارير عن اقتراب طائرات من واشنطن ـ اثنتان تأكد أنهما مختطفتان. واتباعاً لتوجيه الرئيس، فوَّضْتُ بالإجهاز عليها. ما رأيك؟

وزير الدفاع: نعم، أفهم. مَن الذي أعطيته الأمر؟

نائب الرئيس: جرى نقله من هنا عبر مركز العمليات في البيت الأبيض، من الملجأ.

وزير الدفاع: حسناً، دعني أسأل هنا. هل جرى إيصال ذلك التوجيه إلى الطائرة؟

نائب الرئيس: نعم، حصل.

وزير الدفاع: إذن، لدينا طائرتان في الجو وهناك توجيهات في هذا الوقت الحاضر؟

نائب الرئيس: صحيح. اعتقادي هو أن طائرتين قد تم الإجهاز عليهما.

وزير الدفاع: لا نستطيع تأكيد ذلك. قيل لنا إن طائرة واحدة باتت ساقطة ولكننا لم نتلق أي تقرير عن قيام طيار معين بعملية الإسقاط.

وكما كانت لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ستكتشف لاحقاً، فإن قطاع الدفاع الجوي الشمال - شرقي المعروف باسم (NORAD) لم يكن قد نقل أمر الإسقاط إلى طياري المقاتلات لدى انطلاق هؤلاء من قاعدة لانغلي الجوية، على الرغم من أن طياري قاعدة آندروز الجوية كانوا مخولين بإطلاق النار. وفقط طائرة واحدة كانت تحطمت على الأرض - طائرة الرحلة الجوية رقم 93، بالقرب من شانكسفيل البنسلفانية. هذه الطائرة كنا قد قدّرنا أنها ساقطة على الخط الفاصل بين أوهايو وكنتاكي كانت بالفعل طائرة ركاب الرحلة الأمريكية رقم 77 - تلك الطائرة التي كانت قد توجهت نحو البيت الأبيض. كانت قد دارت مبتعدة عنا ثم عادت فتوجهت نحو البيت الأبيض، حافزة على إخلائي. وبعد ذلك اندفعت في مسارها القاتل باتجاه البنتاغون.

فكرتان اثنتان كانتا شاغلتين المرتبة العليا من عقلي ذلك الصباح: الحؤول دون المزيد من الهجمات عن طريق إخراج الطائرات من الأجواء من جهة، وضمان استمرارية عمل حكومة الولايات المتحدة من جهة ثانية. على الفور بدأنا باتخاذ تدابير احتياطية لتأمين عدم تمكين أي هجوم على واشنطن من الإجهاز على رأس قيادة دولتنا. لقد بقي الرئيس بعيداً عن المدينة إلى أن تنجلي الأمور. أجْلينا قادة رئيسيين في كل من مجلسي النواب والشيوخ إلى موقع آمن بعيداً عن العاصمة. وجدتُ صعوبة في الإمساك برئيس المجلس دنيس هاسترت، إلا أنني ما لبثت أن التقطته في قاعدة آندروز الجوية، حيث كانت القوات الأمنية قد نقلته. أطلعتُه على آخر الأنباء وحفّزته على الانتقال إلى مكان آمن، وقد فعل. واتصلتُ معه أقله مرة ثانية في ذلك اليوم. كان حاسماً أن يكون مطلعاً على ما هو جارٍ لأنه كان المرشح الثاني لخلافة رئيس الجمهورية.

أما الرئيس المؤقت لمجلس الشيوخ، روبرت بيرد، الذي كان ثالثاً على خط خلافة الرئيس بعد رئيس مجلس النواب، فقد رفض الانتقال إلى أي مكان آمن. أصرّ على الذهاب إلى بيته. آخرون ممن قبلوا الجلاء كانوا تواقين للعودة إلى واشنطن بأقصى سرعة ممكنة. وفي إحدى اللحظات طرح صديقي السناتور الأوكلاهومي دون نيكلز سؤالاً عما جعل الفرع التنفيذي متمتعاً بحق تحديد موعد عودة أعضاء مجلس النواب، وهم أنداد لأعضاء الحكومة، إلى واشنطن. أجبتُه: "لأن لدينا الحوّامات، يا دون!"

مع إنزال سائر الطائرات المتحركة ذهاباً وإياباً عبر قارة الولايات المتحدة إلى الأرض، ثمة طلبات بدأت تصل من طائرات راغبة في نقل رسميين كبار كانوا قد باتوا محجوزين. فرئيس الاحتياطي الاتحادي: آلان غرينسبان كان عالقاً في زيوريخ السويسرية. وهَوْلُ التأثير الاقتصادي للهجوم كان من شأنه أن يكون ذا شأن، وكنا بحاجة لعودة آلان إلى الولايات المتحدة كي يساعدنا في تدبُّر الأمر. طلبنا من البنتاغون أن تزوده بطائرة.

وفيما كنا عاكفين على تدبر الأمور في مركز الطوارئ الرئاسي (PEOC)، ثمة اجتماع آخر كان جارياً على قدم وساق في غرفة العمليات في البيت الأبيض. حاول جهاز العاملين في المركز إقامة دارة مؤتمر عن بُعد عبر الفيديو لربط الغرفتين، فبتنا قادرين على رؤية صور اجتماع غرفة العمليات على إحدى شاشاتنا، إلا أننا لم نستطع أن نلتقط أي صوت من الاجتماع. أصبحنا نحصل على معلومات آنية أفضل من التقارير الإخبارية على التلفزيون، غير أنني لم أكن، بسبب نوع من الخلل التقني، قادراً على سماع تلك التقارير حين كان جهاز فيديو غرفة العمليات شغالاً. أخيراً طلبت وقف مؤتمر غرفة العمليات كي نصبح قادرين على متابعة التقارير المبثوثة عبر التلفزيون. طلبت من إريك أن يرفع سماعة الهاتف ويحاول الاستماع إلى اجتماع غرفة العمليات، إلا أنه بعد دقائق قام بوصف نوعية الاستماع على أنها "أسوأ من الاستماع إلى قرقرات قرض السناجب المخططة في قاع أي مسبح". طلبت منه أن يعيد السماعة إلى مكانها. إذا ما حصل أمر مهم في الطابق العلوي، فإنهم قادرون على إرسال شخص إلينا لدعوتنا مباشرة.

وفي هذه الأثناء كان الوزير رامسفيلد قد اتخذ قراراً يقضي برفع مستوى الاستنفار العسكري من حالة الدفاع الرابعة لزمن السلم إلى مستوى حالة الدفاع الثالثة، مستوى أعلى مما كنا عليه منذ حرب 1973 العربية ـ الإسرائيلية. أشار سكوتر ليبي، رئيس جهاز العاملين عندي، وإريك إيلمان إلى أن الحاجة داعية لأن يبادر أحدهم إلى إبلاغ الروس بأننا كنا عازمين على رفع مستوى الاستنفار. كان الروس في تلك الأثناء منخرطين في مناورات عسكرية رئيسية، ولم نكن راغبين في مباغتتهم أو جعلهم يظنون أن رفع مستوى استنفارنا كان قد حصل بسببهم هم. فنحن جميعاً كنا قد عايشنا الحرب الباردة وخبرنا ضرورة أخذ احتمال وقوع هجوم نووي خاطئ بنظر الاعتبار. قامت مستشارة الأمن القومي، كوندوليزا رايس بالاتصال، تحدثت مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتن، ونقلت عنه أنه عبّر عن التأييد. وافق الروس على وقف مناوراتهم العسكرية في ضوء الهجمات التي تعرضت لها الولايات المتحدة.

ثمة قرار كان قد اتخذ حول جعل طائرة سلاح الجو رقم واحد تحط على أرض قاعدة باركسديل الجوية في لويزيانا حيث كان الرئيس سيسجل خطاباً وجيزاً موجهاً إلى الشعب الأمريكي. وقبيل هبوط الرئيس إلى الأرض، بدأنا في مركز الطوارئ الرئاسي نتلقى أنباء عن حصول تعثر في الخطوط الجوية الدولية. كان خفر السواحل يتلقى نداءات استغاثة من طائرات تابعة للخطوط الجوية الاتحادية، والكندية، والقارية، في طول المحيط الأطلسي وعرضه. وفي غضون نصف ساعة أُبلغنا بأن تلك الرحلات الجوية كفّت عن أن تكون مصدر قلق، غير أنه كانت ثمة طائرة ركاب كورية فوق المحيط الهادئ ملزمة بالهبوط مع استمرار زعيق رمزها الدال على الاختطاف. جرى استنفار المقاتلات النفاثة المنطلقة من قاعدة إيلمندورف الآلاسكية الجوية لتظليلها.

سألتني كوندي رايس عن المكان الذي كان يتعين على الرئيس أن يذهب إليه من باركسديل. قلت لها: "إلى مقر القيادة الاستراتيجية في قاعدة أوفوت الجوية القريبة من أوماها". منذ كنت وزيراً للدفاع، كنت مطلعاً على حقيقة امتلاك المؤسسة العسكرية الأمريكية في طول البلاد وعرضها مرافق قادرة على توفير خليط جامع بين مستوى عالٍ من الأمن وآخر إنجازات تكنولوجيا

الاتصالات وفنونها. وقد كانت القيادة الاستراتيجية (STRATCOM) أحدها. كان من شأن الرئيس أن يبقى آمناً هناك مع استمرار قدرته، في يوم باتت فيه نقاط ضعف طاقتنا التواصلية مؤلمة الوضوح، على الارتباط الوثيق مع أركان حكمه الأساسيين في واشنطن العاصمة.

مع حلول ساعات بعد الظهر كنا قد أخرجنا أكثرية الطائرات من الأجواء. كنا قد علمنا أن عدداً كبيراً من تقارير الهجمات والطائرات المختطفة كانت زائفة. كان الوضع وتدفق المعلومات عنه موشكين على الاستقرار. كنت واثقاً من أن الرئيس كان تواقاً للعودة إلى واشنطن، وخلال مكالمة معه، وهو على الطريق إلى أوفوت، اقترحت عليه أن يبدأ بالتفكير حول موعد للعودة. كان الرئيس قد برمج لحلقة مؤتمر عن بعد عبر الفيديو في أوفوت كي يتمكن من التحدث مع مجلس الأمن القومي، غير أنني كنت على يقين بأنه كان سيتوجه بعد ذلك إلى العاصمة.

ومع تقدم ساعات النهار، بات واضحاً أن شخصاً من الفرع التنفيذي مطلعاً اطلاعاً كاملاً على ردودنا المبكرة على الهجوم يتعيّن عليه أن يخرج إلى الهواء ليطمئن الشعب الأمريكي والعالم إلى كون الرئيس بخير وحكومة الولايات المتحدة شغالة. لم يكن الهجوم قد نجح في شلّنا. ومن متابعتنا للتقارير التلفزيونية في مركز الطوارئ الرئاسي، بدا وكأن أياً من المراسلين لم يكن على اتصال مع أي شخص من الفرع التنفيذي، شخص مخول بالكلام الموثوق عما كنا دائبين على فعله. أعضاء كونغرس كثيرون كانوا في الجو، إلا أنهم كانوا جميعاً مفصولين عن آليات الإدارة الفعلية للبلاد.

كان لا بد لأحدهم من أن يدلي ببيان رسمي عن الوضع - ومن المعلوم أن احتمال كون ذلك هو أنا متعذر. فتجربتي السابقة في الحكم، بما فيها انخراطي في استمرارية الممارسات الحكومية في ظل الحرب الباردة، كانت قد أعدتني لتدبر أمر الأزمة خلال تلك الساعات الأولى من يوم الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، غير أنني كنت أعلم أنني لو خرجت إلى الصحافة وتحدثت مع الإعلاميين لشكّل ذلك مَسّاً برئيس الجمهورية، ولكان ذلك نوعاً من الإساءة إليه وإلى البلاد. كنا في حرب. وكان لا بد لقائدنا الأعلى من أن يبدو ممسكاً بزمام

الأمور، قوياً، وحازماً ـ تماماً كما كان جورج دبليو بوش. ومخاطبتي للجمهور لم يكن من شأنها أن تخدم تلك القضية.

أما المستشارة الرئاسية كارين هيوز فبدت لي الشخص المناسب للقيام بذلك. كانت كارين في إحدى إجازاتها النادرة ذلك اليوم، ولكنها كانت قد بادرت إلى الالتحاق بالبيت الأبيض وسارعت إلى الشروع في العمل مع مستشارة نائب الرئيس ماري ماتالين لصوغ مسودة بيان. لسلسلة من الأسباب الأمنية لم يرغب جهاز الاستخبارات في قيام كارين باستخدام غرفة الإيجاز الإعلامي في البيت الأبيض، ما جعله يرتب لها من ينقلها إلى مقر قيادة مكتب التحقيقات الاتحادية (FBI)، حيث أدلت ببيانها الموجز على مسامع المراسلين.

في تلك الأثناء كنت قد بدأت أفكر بردنا على هذا الفعل الحربي. كنت قد نجحت في استعادة مستشاري العام ديفيد آدينغتون إلى البيت الأبيض بعد أن كان قد أُجبر على الجلاء. ولحظة وصوله إلى مركز الطوارئ الرئاسي باشر التنسيق هاتفياً مع فريق من الجهاز الرئاسي كان في غرفة روزفلت عاكفاً على دراسة نوعية السلطات التشريعية التي كنا سنحتاج إليها في الأيام والأشهر القادمة.

مبكراً راودتنا الشكوك حول كون الأمر هجوماً شنته القاعدة. لم يكن هناك إلا القليل من المنظمات الأخرى القادرة على تنظيم وتنفيذ هجوم على هذا المستوى. من المؤكد أننا كنا سنلاحق المسؤولين، غير أن ذلك لم يكن كافياً. كانت ثمة منظمات دائبة على تمويل النشاط الإرهابي وتزويد الإرهابيين بالأسلحة والأسباب. كانت ثمة دول دائبة على توفير الملاذات الآمنة للإرهابيين. وأولئك الذين كانوا يدعمون الإرهاب كان لا بد من وضعهم في قفص الاتهام.

خلال اجتماع مجلس الأمن القومي الذي عقده عبر آلية الاتصالات البعيدة الآمنة من أوفوت، بدأت الخطوط العريضة لمبدأ بوش بالظهور. كنا سنلاحق الإرهابيين الذين كانوا قد ألحقوا الأذى بنا ـ كما كنا، في الوقت نفسه، سنلاحق أولئك الذين جعلوا هجماتهم الإجرامية ممكنة.

عاد الرئيس إلى البيت الأبيض، وفي تمام الساعة الثامنة والنصف مساء خاطب الأمة من المكتب البيضوي. قال: "لن نميز بين الإرهابيين الذين اقترفوا هذه الأفعال وأولئك الذين يؤوونهم". ثم تولى رئاسة اجتماع لمجلس الأمن

القومي داخل مركز الطوارئ الرئاسي. ولدى انتهاء الاجتماع غادرت برفقة لين الملجأ ومَشَيْنا عبر المدخل الدبلوماسي للبيت الأبيض باتجاه المرج الجنوبي حيث كانت حوامة بيضاء القمة تنتظر لتنقلنا إلى مكان لم يتم الكشف عنه. كانت المرة الأولى من مرات كثيرة كنت سأغادر فيها إلى مكان غير مكان الرئيس دون الإفصاح عنه. أردنا قطع الطريق على الإرهابيين إذا حاولوا قطع رأس حكومتنا عبر الإجهاز علينا، كلينا، دفعة واحدة.

مع كسب الحوامة مارين: 2 مزيداً من الارتفاع في الجو، بتنا قادرين على رؤية البنتاغون. كان المبنى مضاء تيسيراً لعمل فرق الإنقاذ التي كانت لا تزال مشغولة، وكانت أعمدة الدخان متصاعدة. طوال ساعات النهار كنت قد ظللت أشاهد برجي التجارة العالمية والبنتاغون على التلفزيون. إن رؤية الموقع المتعرض لإحدى الهجمات رؤية مباشرة سلّطت الضوء على مدى هشاشة الولايات المتحدة كما على الأخطار التي تواجهها أمريكا. تذكرت حقيقة أن مدينة واشنطن كانت قد تعرضت للهجوم عام 1814 من قبل البريطانيين. والآن، بعد مئة وسبعة وثمانين عاماً، كانت القاعدة قد بيّنت أنها قادرة على توجيه ضربة ساحقة إلى قلب قوة أمريكا على الصعيدين الاقتصادي والعسكري. في هذا اليوم بالذات كانت سائر افتراضاتنا عن أمننا الخاص قد تغيرت. كان ذلك تحولاً جذرياً.

طرنا باتجاه جبال كاتوكتين وكامب ديفيد، المنتجع الرئاسي الذي كان سيشكل مقرنا غير المعلن مساء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. حين وصلنا تم اقتيادنا إلى بيت آسبن، حيث سهرت حتى ساعات الصباح غارقاً في التفكير حول ما عناه الهجوم وحول الكيفية التي سيتعين علينا اعتمادها للرد. كنا في حقبة جديدة وبحاجة ماسة إلى استراتيجية جديدة كلياً لضمان بقاء أمريكا آمنة. فأولى حروب القرن الحادي والعشرين لم يكن من شأنها أن تكون صراع دولة ضد دولة، جيش ضد جيش، ببساطة. من شأنها أن تكون، أولاً وقبل كل شيء، حرباً ضد إرهابيين يعملون في الظلام، لا يخافون أي رادع، ومستعدين لاستخدام أي سلاح يستطيعون الحصول عليه من أجل تدميرنا.

الفصل الأول

بدايات

عندما وُلدت أراد جدي أن يبرق إلى رئيس الجمهورية. فرعا عائلتي، كلاهما، كانا من ديمقراطيي الصفقة الجديدة (New Deal) العُتاة، وكان جدي واثقاً من أن فرانكلن ديلانو روزفلت، (FDR)، كان سيرغب في معرفة "الغريب الصغير" الذي بات الآن مشاركاً إياه عيداً للميلاد. أبواي كانا قد اقترنا في لينكولن النبراسكية، وأنا وُلدت هناك، في مستشفى برايان التنكاري يوم الثلاثين من كانون الثاني/يناير، 1941 - في اليوم نفسه الذي بلغ فيه فرانكلن روزفلت التاسعة والخمسين من العمر. احتفظتْ أمي المولعة بالحفاظ على القصاصات الورقية بفاتورة عملية الولادة: فقط سبعة وثلاثون دولاراً وخمسون سنتاً لا غير.

أولى ذكرياتي هي ذكرى ركوب حافلة مزدحمة مع أمي. جالس أنا بجانبها، فيما أخي الأصغر بوب، نحو عامين، في حضنها. أيام حرب، حتى الممرات مزدحمة بالجنود. أحدهم ينحني ويقدم سيجارة لأمي. تأخذها وهو يشعلها لها؛ لعله المشهد الأكثر إثارة للدهشة الذي سبق لي أن رأيته. ربما لم أكن قد بلغت الرابعة تماماً بعد، ولم يكن قد سبق لي أن رأيتها وهي تدخن من قبل.

الوالدة وبوب وأنا قد غادرنا بيتنا في لينكولن للتو ومتوجهون إلى وسط نبراسكا للعيش مع أبوي والدي في سومنر. استلم أبي دعوته إلى الخدمة في 1944، وبعد التدرب في قاعدة البحيرات الكبرى البحرية، جرى سوقه إلى سان دييغو مع توقع نقله إلى عرض المحيط الهادي. إلا أنه أُبقي هناك وتم تعيينه

في إحدى الوحدات التجريبية، تلك الوحدات التي تولت مهمة التأكد من جدارة المراكب المبحرة وجاهزيتها القتالية. كنا سنذهب معه، إلا أن سان دييغو كان مكاناً شبه مستحيل على صعيد احتمال العثور على مسكن في زمن الحرب. كانت أمي قد حاولت البقاء في لينكولن، ولكنها، بعد التعرض لالتهاب الزائدة الدودية، رأت أنها عاجزة عن تدبر أمورها مع طفلين صغيرين وحدها.

لم نتمكن من الانتقال إلى بيت أهلها، إلى بيت ديفيد وكلاريس ديكي، لأن ديفيد كان، عندما بدأت الحرب، قد أغلق المطعم الصغير العائد له وعمل طباخاً لدى اتحاد السكك الحديدية الباسيفيكية. فبيته الآن مع جدتي كان عربة قطار مجاورة لتلك التي كانا يطبخان فيها لورشات الإصلاح المتحركة ذهاباً وإياباً على الخط في كنساس، ونبراسكا، ووايومنغ. بعد الحرب كنا، بوب وأنا، نعشق زيارتهما. كان الجد ديكي متقناً فن قلب أكثر الأيام رتابة إلى مغامرة مثيرة. كان سيأخذنا معه إلى صيد سمك السلور باستخدام خليط خاص من الدم وكبد الدجاج طُعْماً. وللعشاء كان سيقلي صيدنا أو سيقدم لنا، في مناسبات نادرة حين يكون طعم الدم وكبد الدجاج قد فشل، طبقاً كبيراً من السباغيتي. وبعد ذلك كان هو وجدتي سيجعلاننا ننام على الطاولة المغطاة بالمشمع، تلك الطاولة التي تناولنا عليها طعامنا للتو، وكنا سنغط في النوم على وقع الصوت الأجش لقهقهات الوالدين والجدين المنهمكين في لعب الورق على ضوء الفانوس في عربة القطار المجاورة.

غير أن تلك الأزمان السعيدة كانت طي المستقبل. أما الآن فكنا متوجهين نحو سومنر ذات الكتلة السكانية البالغة 296 نسمة، للعيش مع الجدَّيْن تشيني، ومن المؤكد أن الوالدة كانت على يقين من أن السيجارة التي كانت تستمتع بها - تلك التي كانت قد أدهشتني- كانت ستشكل السيجارة الأخيرة لفترة طويلة من الوقت.

كانت أمي قد نشأت وكبرت في عائلة مولعة بالضحك ولعب الورق مع أب يشرب خمر البوربون، ويدخن سجائر الكامل، ولديه خزان لانهائي من الطرائف والنوادر. أما الجدان تشيني: توماس ومارغرت، بالمقابل، فقد كانا رصينين حتى في أيام الشباب. لقد كان توماس معلم مدرسة قبل الانتقال إلى العمل في أحد

البنوك. أما مارغرت فكانت نتاج تربية معمدانية صارمة غير مقتنعة بأي جدوى لتعاطي التبغ، والكحول، والقمار. أضف إلى ذلك أنها لم تكن، كما كنا موشكين على الاكتشاف، مقتنعة بفائدة الكتب الساخرة بالنسبة إلى حفيديها. الجدة تشيني ذات الشعر الملموم إلى الخلف كانت في الثامنة والستين من العمر، في حين كان جدي ذو الشعر الأبيض والظهر المشدود في الخامسة والسبعين. كانا مستمتعين بالهدوء الذي جلبته لهما الأعوام إلى أن وصلت أمي مصحوبة بصبيين صغيرين مشاكسين.

أساساً كانت عائلة تشيني قد جاءت إلى أمريكا من إنكلترا بوصفها جزءاً من الهجرة البيوريتانية الكبرى لثلاثينيات القرن السابع عشر. وعلى امتداد سبعة أجيال كانت العائلة قد عاشت في ماساتشوستس وحولها، إلا أن صمويل فلتشر تشيني أقدم، في منتصف القرن التاسع عشر، على كسر القالب، إذ انتقل غرباً إلى ديفيانس الأوهايوية. بعد قلعة سومنر مباشرة تطوع للدفاع عن الوحدة، وبقي مشاركاً في الحرب الأهلية خلال سنواتها الأربع كلها. كان في معارك نهر ستونز وتشيكاماوغا وفي الحملة لتحرير أتلانتا. زحف مع شيرمان إلى البحر. وفي أيار/مايو 1863 عسكر مع فرقته الأوهايوية الحادية والعشرين في الضواحي القريبة من واشنطن العاصمة، في ألكسندريا الفيرجينية، كما كان أحد الجنود المئة والخمسين ألفاً الذين شاركوا في الاستعراض العظيم للجيوش. مشى أمام البيت الأبيض حيث قام الرئيس آندرو جاكسون وأعضاء حكومته جنباً إلى جنب مع الجنرالين غرانت وشيرمان بتحية الرجال الشجعان الذين كانوا قد انتصروا في الحرب للتو.

بقي صمويل سليماً دون أي خدش رغم مشاركته في أربع وثلاثين معركة، كما كان قد نجح في تجنب الأمراض المرعبة التي أصابت أكثر رفاقه وقتلت كثيرين منهم. غير أنه ما لبث، بعيد عودته إلى زوجته وابنتيه في ديفيانس الأوهايوية، أن تعثر بمنشار دوار وفقد جميع أصابع يده اليسرى.

في العام 1883، فيما كانت البلاد تمر بركود اقتصادي طويل، اضطر لبيع مصنع الأبواب وأطر الشبابيك الذي كان يملكه تسديداً لما ترتب على المنجرة من ديون. وفي عامه الرابع والخمسين تعين على صمويل تشيني أن يبدأ من

الصفر. قام بلم زوجته إلى أولاده الأربعة الصغار، وجميعهم ذكور، وتحرك غرباً قاطعاً مسافة ثمان مئة ميل وصولاً إلى مقاطعة بوفالو النبراسكية.

قامت عائلة تشيني ببناء مأوى، وبغرس الأشجار، وباستنبات المحاصيل، إلى أنْ بدأت، ولو ببطء، باجتراح حياة جديدة فوق السهول العظيمة. في غضون عامين اثنين كانت قد أثبتت جدارتها بحيازة مساحة الـ 160 فداناً المخصصة لها وحصلت على أرض مجاورة لغرس الأشجار. بقيت الأرض مزدهرة حتى أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، حين حل الجفاف وضرب ضربته. ذبلت المحاصيل وماتت الأشجار فوجد صمويل أنه بات، أخيراً، تحت وطأة ظروف اقتصادية أشد قسوة حتى من تلك التي كانت قد هجّرته من قبل، عاجزاً عن تسديد ديونه. ومما قيل له حرفياً إن "البنوك غير مستعدة لإقراض أحد حالياً" رغم سجله الممتاز. في 1896 كان شاهداً على بيع كل حيازاته على درجات مدخل محكمة مقاطعة كيرني.

وفي 1904، بعد صرف عدد من السنوات الحافلة بالقلق وعدم الاستقرار مسجوناً في أوماها تقدم بطلب للحصول على مزرعة عائلية ثانية في تلال الرمل بنبراسكا. كان صديق قاتل بجانب صمويل في معركة نهر ستونز قد كتب يقول "إن تشيني أنموذج للثبات والصمود"، وقد ظل يؤكد صحة كلام ذلك الصديق حتى النهاية، إذ نجح في استصلاح مزرعة تلال الرمل العائلية قبل موته عام 1911 وهو في الثانية والثمانين من العمر.

أطلق صمويل على ابنه الثاني اسم شيرمان، تيمناً بالجنرال الذي كان قد زحف معه حتى البحر، أما ابنه الثالث، جدي أنا، فكان توماس، تيمناً بجنرال الحرب الأهلية العظيم جورج توماس - "صخرة تشيكاماوغا" - الذي كان قد خدم تحت قيادته. كان هيربرت هو الاسم الثاني لجدي، وكان الجميع ينادونه بيرت اختصاراً. كان مراهقاً لدى حصول أبيه على المزرعة العائلية الأولى. ساهم بيرت الشاب في نحت أحجار البوادي اللازمة لبناء البيت. وقد ساعد في عمليات غرس أشجار الحور التي ماتت عندما انحبس المطر. قرر بيرت أن يعيش نوعية مختلفة من الحياة - حياة لن يكون فيها مضطراً للاستيقاظ كل صباح للمسارعة بقلق إلى معاينة السماء والأجواء استكشافاً لمصيره.

وفي سومنر حقق ازدهاراً، إذ أصبح أمين صندوق وشريكاً في بنك المزارعين والتجار. وبعد موت زوجته الأولى نتيجة الإصابة بالسل، تزوج مدرِّسة ومرشدة كنيسة كانت، مثله، إحدى ركائز المجتمع. في السادس والعشرين من حزيران/يونيو، 1915، صار كل من بيرت تشيني ذي الأعوام الستة والأربعين ومارغريت تايلر تشيني ذات الأعوام الثمانية والثلاثين أبوين لوالدي أنا: ريتشارد هيربرت تشيني.

رغم جميع خططه ونجاحاته ما لبث بيرت تشيني أن اكتشف أنه أخفق، مثل أبيه، في أن ينجو من السطوة المرعبة للطبيعة. فحين ضرب الجفاف ضربته في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين عجز المزارعون عن سداد قروضهم، وتعين على أصحاب المخازن إغلاق أبوابهم، وانهار بنك المزارعين والتجار. وبعد سنوات كان الوالد سيحدثني عن يوم انهيار البنك. كان في مركز بلدة سومنر ووجد نفسه في مواجهة مفتش البنوك. كانت الساعة الواحدة بعد الظهر ولم يكن البنك قد فتح أبوابه بعد. سأل المفتش والدي عن مكان وجود أبيه. كان الناس قد بدؤوا يتحدثون، قال المفتش، ومن الأفضل أن يبادر أحدهم إلى فعل شيء بسرعة. هرع أبي إلى البيت ووجد أباه ومجلس البنك في غرفة الجلوس، عاكفين على اتخاذ القرار المؤلم القاضي بإغلاق البنك. خسر جَدّاي كل شيء باستثناء البيت الذي كانا يعيشان فيه.

كان ريتشارد صبياً لامعاً تعلم النسخ على الآلة الكاتبة ذاتياً ثم شق طريقه في دار معلمي الولاية عبر أعمال النسخ وتشغيل آلات الطباعة. تخصص بالتجارة وفاز بدرجات عالية، ولكن اضطراره للعمل مع مواصلته الدراسة كان يعني تطلب تخرجه خمس سنوات. وبسبب نفاد صبره وحاجته الماسة إلى المال دخل مسابقة الخدمة المدنية فعُرضت عليه وظيفة ضارب آلة كاتبة رئيسي في إدارة قدماء المحاربين في لينكولن، عاصمة الولاية. بعد تلك المجاهدات الطويلة، رأى احتمال الحصول على 120 دولاراً راتباً شهرياً مع أمان وظيفة حكومية فرصة أغلى من أن يتم العزوف عنها.

وبعد فترة غير طويلة عُرضت عليه وظيفة لدى وكالة اتحادية أخرى، لدى جهاز الحفاظ على التربة. كان هذا الجهاز يتولى إرشاد المزارعين في مجالات

مناوبة المحاصيل، وزراعة المدرّجات، والفلاحة الكفافية، واستخدام "أحزمة واقية" من الأشجار كمصدات للرياح - تقنيات للحؤول دون تطاير التربة، كما كان قد حصل في أثناء أعاصير الكساد الكبير الغبارية. وكان أبي قد بقي مع هذا الجهاز لمدة زادت على ثلاثين سنة، مضطلعاً بمهمة كان بالغ الاعتزاز بها.

كذلك كان والدي فخوراً بالمعاش التقاعدي المصاحب للاستخدام الاتحادي - وهو فخر لم أفهمه فهماً حقيقياً إلى أن أصبحت، بعد بلوغ سن الرشد، مطلعاً على جملة الكوارث الاقتصادية التي كانت قد حلّت بأبويه وجَدَّيْه كما ألقت بظلها على شبابه هو بالذات. كثيراً ما تأملت مدى اختلاف البيئة المستقرّة كُلّياً التي وفرها لأسرته وتساءلت عما إذا كان ذلك هو السبب الكامن وراء قدرتي على المخاطرة، وعلى تغيير التوجهات، وعلى الانتقال من اختصاص إلى آخر دون لحظة تردد.

قام جهاز الحفاظ على التربة بنقل أبي من لينكولن إلى سيراكوز (سيراقوسه)، بلدة صغيرة في الجزء الجنوبي - الشرقي لنبراسكا. وبوصفه شاباً أعزب مقيماً في غرفة مستأجرة، كان يتناول أكثرية وجباته في مقهى آل ديكي حيث كانت إحدى النادلات مارجوري لورين ديكي، ابنة صاحب المقهى. ومثل أبويه، كان والدي أميل إلى التحفظ وقلة الكلام. لم يكن يبوح بالشيء الكثير من اللقاء الأول - بل الثاني وحتى العاشر - غير أن ذلك لم يكن من شأنه أن يؤثر سلباً على أمي، الشخصية المنفتحة، والاجتماعية، التي ربما اشتبكت مع أبي في حوار وحديث من المرة الأولى التي تجاوز فيها عتبة باب مقهى آل ديكي. من السهل تصور أسلوبها في تلقي مطالبته بصلصة الفلفل والانخراط معه في الحديث كما لو كانت تعرفه منذ زمن طويل.

كانت ماما أشبه بنجم في بلدتها الصغيرة. كانت إحدى عناصر فريق البلوبيردز السيراكوزي، وهو فريق كرة لينة نسائي ظل بطل الولاية لعامين متعاقبين وكان قد قطع الشوط كله حتى وصل إلى الدوري نصف النهائي في شيكاغو. كانت بلدة سيراكوز شديدة الولع بفريق البلوبيردز (الطيور الزرق). فهذا الفريق كان يوفر للناس بصيص أمل ومناسبة مفرحة في ظل الكآبة المتطاولة للكساد الكبير.

أمي الجميلة المحبة للمرح وأبي الهادئ الأنيق وقعا في أسر الحب وتزوجا في الأول من حزيران/يونيو، 1940. وُلدت في العام التالي، ثم تبعني أخي بوب بعد أربعة عشر شهراً. أما أختي سوزان فلم تلتحق بركبنا إلا في 1955.

عندما وصلنا إلى سومنر في 1944، حصلت أمي على غرفة النوم التي كان جَدّاي قد درجا على تأجيرها لأحد المعلمين، أما بوب وأنا فصرنا ننام على سريرين للأطفال في غرفة "المونة". كان البيت صغيراً، ولا بد أن تبدو الأسابيع لانهائية بالنسبة إلى الكبار لولا أيام الآحاد التي كان الطرفان يحظيان فيها بنوع من الاستراحة. بنوع من التدبير من جانب جدتي، كان جدي يبدأ النهار بقراءة طرائف يوم الأحد على مسامع بوب ومسامعي. ومن ثم، بعد الكنيسة كانت عمتي (أخت أبي غير الشقيقة) ملدرد وزوجها إلمر إريكسون يقومان بالتقاطنا وأخْذنا إلى مزرعتهما عند أطراف البلدة. ثمة كان حشد من الخيل والأبقار - بقرات هولشتاين حلابة كبيرة - مع كوليين (كلبين سكوتلنديين) أبيضين إضافة إلى عدد من القطط. كان ثمة أيضاً موائد طعام أتذكرها إلى اليوم. اختصاص ملدرد المتمثل بالفروج المقلي كان يبدأ في الباحة الخلفية حيث كانت تطارد أحد الفراريج حتى تمسك به، ثم تقطع رأسه بموس جزار مغروز في جذع شجرة لهذا الغرض. بعد سويعات كان الفروج سيظهر مقلياً على الطاولة، جنباً إلى جنب مع البسكويت والصلصة وقد جُلّل كل ذلك بفطائر الراوند.

في نهاية شهر كانون الثاني/يناير، 1945، مُنح أبي إجازة أسبوع، ووصل إلى سومنر في الوقت المناسب لحضور عيد ميلادي الرابع، لم يكن قد سبق لي أن رأيته في زيه العسكري، وحين سألته عن سبب غيابه لفت نظري إلى رقعة على ذراعه - نسر أبيض مطرز على شارة حمراء - وقال إنه الآن أصبح ضابط صف أو معاوناً. ما زلت أتذكر كيف حاولت تركيب المعلومة المحيّرة عن أن أبي كان على ما بدا قد أمضى عدداً من الأشهر وهو طائر.

وبعد بضعة أشهر قررت أمي أن تزور أبي في سان دييغو. العمة ملدرد والعم إلمر، ذانك الشخصان الطيبان الكريمان بلا أولاد تبرعا بتولي رعايتنا، بوب وأنا. قضينا وقتاً رائعاً، مطاردين أسراب الدجاج، ومعوِّمين زوارق العرانيس في

حوض سقاية الخيل، ومتابعين إلمر حيثما ذهب. لم تكن المزرعة ممكننة، وتوفرت لنا، بوب وأنا، فرصة ركوب العربة المجرورة بالخيل إلى مختلف أرجاء المزرعة. درج العم إلمر على أخذ قسط من نوم القيلولة بعد الظهر، وكنت أستلقي بجانبه، داساً أحد أصابعي في حزامه لأتنبه إلى نهوضه. وكل بعد ظهر كنت أستيقظ لأجده قد ذهب فأهرع خارجاً من البيت بحثاً عنه. كنت أجده في المزرعة معتمراً قبعة القش الكبيرة، مبتسماً، ناشراً ذراعيه، مستعداً لرفعي في الهواء.

كانت أمي تعشق سان دييغو. وقد درجت على عادة رؤية زوجها وعيش مغامرة عظيمة إذ كانت تقطع مسافات أطول مما سبق لها أن فعلت، ترى المحيط للمرة الأولى، وتتابع أداء قساوسة سان دييغو. ألبوم قصاصاتها مليء ببرامج قساوسة حمراء وبيضاء كانت حريصة على الالتزام بها.

ما كان قد خُطط لها على أنها زيارة أسبوعين اثنين انقلبت إلى إقامة دامت شهرين، ومع أن الحياة عند ملدرد وإلمر كانت بالغة الروعة فإننا، بوب وأنا، افتقدنا الماما. وفي أحد أيام آب/أغسطس اللهّاب قررنا أنها كانت قد بالغت في الغياب كثيراً وعزمنا على الذهاب إلى كاليفورنيا مستخدمين السيارات العابرة لرؤيتها. نجحنا في الوصول إلى الشارع الرئيسي غير أننا ما لبثنا أن أُوقِفْنا قبل أن نتمكن من أي ركوب. في الحقيقة تعرضت مغامرتنا للبتر تماماً في الوقت الذي عزمتْ فيه هي على الانطلاق عائدة إلى البيت. وفيما كانت تبدِّل القطار في أوغدن الأوتاهية سمعت الأنباء المتحدثة عن استسلام اليابان. انتهت الحرب، وشمل عائلة تشيني كان سيلتئم من جديد.

سارت عمليات التسريح من منطلق المجند آخراً يُسرّح آخراً، مما أدى إلى تأخر تسريح والدي حتى شهر نيسان/أبريل، 1946. وحين عاد إلى لينكولن اكتشف نقصاً شديداً في المساكن خلال فترة ما بعد الحرب، وكنا محظوظين إذ كان لنا أصدقاء عرضوا علينا قبواً غير ناجز لنأوي إليه. كانت أمي تطهو على طبق ساخن، وكنا نتقاسم حماماً واحداً مع الجيران في الطابق الأول إلى أن تمكن أهلي من الاهتداء إلى بيت ريفي مؤلف من خمس غرف كان قيد البناء في

ضاحية كولج فيو. كنا سنذهب مستقلين سيارة البويك موديل الـ 37 التي كان أبي قد ورثها من أحد الأعمام لمتابعة عملية بناء بيتنا وقد نفد صبرنا.

شارعنا في كولج فيو كان مقطوعاً بغابة يخترقها ما أطلقنا عليه اسم الجدول أو التيار. لم يكن "تيار"نا في الحقيقة سوى قناة تصريف البواليع في أعقاب هجمات الأمطار العاصفة، غير أنه كان يوفر فرصة ممتازة لصيد السمك بالنسبة إلى عدد كبير من صبية الحي. كذلك كانت الغابة توفر فرصاً للاستكشاف والتسلق، مع الاستمتاع بساعات من قطع مسافات طويلة سيراً أو قفزاً من شجرة إلى أخرى دون ملامسة الأرض. أما في فصل الشتاء فإن شارعاً طويلاً، عريضاً، منحدراً في كولج فيو كان يوفر لنا تلة رائعة للتزلج.

كان الجد ديكي يزورنا، وفي إحدى الزيارات قام بسوق كلب سائب عثر عليه إلى داخل غرفة جلوسنا جاعلاً أمي تعتاد على الفكرة قبل أن يكون هو نفسه قد دخل. أطلقنا على الكلب اسم بَتْش، أما سبب اكتساب هذا الكلب للشهرة فكان متمثلاً بقدرته على الجلوس في أماكن مختلفة بدءاً بمقعد الدراجة الهوائية وانتهاءً براحة اليد. جاد علينا جيراننا بهر كان يضاهي بتش من حيث الحجم، غير أن الطرفين ما لبثا أن طورا علاقة مشحونة باليقظة والحذر. ثمة كانت رقعة بساط على أرض الصالون، وما إن كان بتش يرى الهر متخذاً موقعاً حتى كان يسارع إلى البساط ليقف عليه كي ينزلق بالبساط مصطدماً بالهر.

لا أتذكر الكثير عن سنواتي الأولى في المدرسة، إلا أن تقرير الحضانة الذي احتفظت به أمي يلاحظ أنني كنت أبدو "ميالاً إلى الوعي الذاتي لدى الكلام أمام الجماعة". ومع تقدم العام الدراسي صرت "أتكلم بقدر أكبر من الثقة"، طارحاً "أسئلة ذات شأن"، ومبدياً بوضوح قدراً من المثابرة. كتبت الآنسة كوربل تقول: "لا يسلّم ريتشارد بسهولة". لاحظت أيضاً أنني كنت متمتعاً بعادات صحية جيدة. "يحاول دائماً أن يجلس ويقف على نحو سليم وصحيح وأن يستخدم محرمته بالطريقة المناسبة". أما آنستي في الصف الثالث، الآنسة دفيلد، فقد تكرمت علي بأعلى الدرجات في مواد اللغة الإنجليزية، والحساب، والمطالعة، والدراسات الاجتماعية، وعلى الرغم من أنها لاحظت أن عملي في الفن والموسيقى لم يصل إلى المستوى الذي ينبغي أن يصل إليه، فإنها توصلت إلى

استنتاج يقول: "لقد استمتعت بالعمل مع ديكي هذه السنة. إنه يمتلك المواصفات اللازمة لأي قائد جيد".

جميع الصبية في كولج فيو كانوا يمتطون الدراجات الهوائية في سائر الأمكنة. درجتُ على عادة المجيء إلى البيت ظهراً لتناول طعام الغداء على الدراجة. حتى بعدما باشرتْ أمي العمل بوزارة الصحة في الولاية في برلمان ولاية نبراسكا الكائن في مركز المدينة، كنت أقطع مسافة كتل المباني العشرة إلى البيت وأعدّ لنفسي سندويشة هامبورغر. بوب وأنا انتسبنا إلى الفرقة 54 من كشافة الأشبال. كانت الماما أم العرين رقم 2 الخاضع لرعاية كنيسة شارع شريدان المعمدانية، الذي كان يعقد اجتماعاته في قبونا غير المنجز. وحين أصبحنا أكبر سناً كان الفتى الكشاف قائد فرقتنا يجلب معه أحياناً علبة سجائر وبعد الاجتماع كنا نخرج ونشعل السجائر.

كنت أكمل منحتي عن طريق حش المروج في الصيف. كذلك كنت أتولى إيصال جريدة "لينكولن ستار" إلى المشتركين فأكسب ثلاثين دولاراً في الشهر، وهو مبلغ جيد جداً بالنسبة إلى من هو في الثانية عشرة من العمر في تلك الأيام. وما لبث مشروعي أن أفضى إلى باكورتي في الصحف متمثلة بمقالة موجزة تحت عنوان "ناقل ستار: ديك تشيني". قلت للمراسل إنني اشتريت كلارينيت بجزء من مكسبي، إلا أنني كنت أدخر من أجل تسديد نفقات الكلية حيث كنت أخطط لأصبح مهندساً معمارياً. خلال الجزء الأكبر من العام، كنت أستمتع بتلك الجولات على الدراجة في الصباح الباكر فور بزوغ الشمس والأشياء كلها ساكنة. غير أن بعض الصباحات الباردة، التي كانت تجعل حتى قفازاتي السميكة غير كافية، كانت واردة، فاشتريت أداة تدفئة يد صغيرة من أحد مخازن فوائض الجيش. كانت الأداة بحجم علبة السجائر تقريباً، ذات ثقوف حولها. كُنْتَ تسحب العبوات الداخلية، وتملؤها بسائل ولاعات ثم تعيدها إلى العلبة المعدنية. وعند القدح كان الفتيل يحترق ببطء دون أي لهب. كنت أقود بيد واحدة عبر شوارع ما بعد الفجر المتجمدة مبقياً يدي الأخرى في الجيب مع أداة التدفئة.

في الصيف كنا جميعاً نمارس لعبة البيسبول، وفي الخريف نوعاً من

رياضة كرة القدم. ربما كنت في السابعة أو الثامنة عندما بدأ أبي يصطحبني إلى بعض البرك الحقلية والجداول البطيئة على أطراف لينكولن مباشرة. كنا نصيد سمك رأس الثور والكارب بمصائد خيزرانية مستخدمين الديدان طعماً. أتذكر رحلة قمنا بها لزيارة شقيق الوالدة وارد في شلالات إيداهو، رحلة كانت المرة الأولى التي أستخدم فيها الطعم الدوار.

كنت كثير المطالعة. "عجائب السماوات" تأليف آرثر دريبر سلطت الضوء على النجوم المندفعة كالقذائف التي نراها في سماء نبراسكا الرحبة. كُتُب أخرى قدمت أبطالاً مثل جورج واشنطن، وكيت كارسون، ولو غيريغ. العائلة كلها كانت تستمع إلى الراديو، وفي وقت مبكر جداً من الخمسينيات امتلكنا أحد أوائل أجهزة التلفزيون في الحي. وحين جرى تنصيب الرئيس آيزنهاور في العشرين من كانون الثاني/يناير، 1953، احتشد تلاميذ الصف السادس في ابتدائية كولج فيو جميعاً في غرفة جلوسنا لمشاهدة الحدث باللونين الأبيض والأسود على شاشتنا الصغيرة.

في 1952 كان أبواي، كلاهما، قد صوّتا لصالح المرشح الديمقراطي: إدلاي ستيفنسون، بيد أن الرئيس الجمهوري الجديد كان هو المسؤول عن حصول تغيير كبير في حياة عائلة تشيني. فإحدى مبادرات آيزنهاور الباكرة جاءت منطوية على إعادة تنظيم وزارة الزراعة الشاملة لجهاز الحفاظ على التربة. خُيِّر أبي بين موقعين جديدين فاختار كاسبر الوايومنغية بدلاً من غريت فولز المونتاناوية. وكاسبر التي كانت معروفة بكونها "عاصمة النفط في الروكيز" كانت مركز القلب من وايومنغ. بكتلتها السكانية البالغة نحو خمس وعشرين ألفاً كانت الثانية بعد أكبر مدينة في الولاية. وحدها العاصمة تشيين كانت أكبر - ولو قليلاً. كان قد سبق لنا وعبرنا وايومنغ بالسيارة بضع مرات لدى السفر غرباً. كنا قد رأينا الجبال واصطدنا السمك في جداول السلمون. وما زلنا نتذكر هواء الصباح المنعش للسهول العالية وبعده ساعات بعد الظهر المشمسة. ورغم تعلقها الشديد بكولج فيو، فإن عائلة تشيني لم تطق انتظار الانتقال إلى كاسبر.

في فصل الربيع الذي كان قبل انتقالنا، بدأتُ متابعةَ معركة ديان بيان فو في

فيتنام. كنت أجلس على أرض غرفة جلوسنا والجريدة منشورة أمامي، فأغوص في خرائط المعركة المتطورة أسبوعاً بعد أسبوع. كنت أشاهد النشرات الإخبارية المسائية عن قيام منظمة الفييت مينه الشيوعية بمحاصرة قوات فرنسية ومبادرة الفرنسيين إلى ردها على أعقابها وصولاً في آخر المطاف إلى سيطرة الفييت مينه على الحامية، ملحقة هزيمة رهيبة بالفرنسيين.

لدى وصولنا الأول إلى كاسبر في 1954، قرأت كثيراً عن الحرب العالمية الثانية. قمتُ باستعارة "يوميات قناة غوادال وأولئك الشياطين في السراويل الفضفاضة" من مكتبة كارنيغي، ذلك المبنى الآجري الأحمر ذي القبة البيضاء في الشارع الثاني. لم أكن أعرف أحداً بعد فبقيت زبوناً منتظماً.

كان بيتنا هو الأخير على الطرف الشرقي من البلدة، وكنا، بوب وأنا، مولعين بالخروج إلى البراري. ربما كان من شأن المشهد أن يبدو قاحلاً وباعثاً على السأم، إلا أننا، أخي وأنا، كنا ونحن هناك نعرف تفاصيل أعشابها المختلفة: فرشاة الحكيم وصنوبر الحك، مع جميع الحيوانات التي تعيش فيها - الظباء، والغزلان، والأرانب البرية، والثعبان المجلجل بين الحين والآخر. كنا نصطحب بنادقنا ونعود عادة، أقله، بزوجين من الأرانب، اللذين كانت الماما تقليهما لتضعهما في حقيبتي زوادتينا لغداء اليوم التالي.

في كاسبر كنا نعيش في قلب الغرب القديم، في بلدة فوق سلسلة أوريغون الممتدة إلى معبر أسسته الطائفة المورمونية لنقل الرواد عبر نهر بلات. ومع تزايد أعداد قطارات الشحن النازلة من السلسلة، تزايدت الصراعات والنزاعات مع هنود السهول، وما لبثت كتائب الفرسان الأمريكية أن جاءت وتوغلت في الغرب - مخاطرة بنفسها في الغالب. ففي 1865، وفي مكان غير بعيد عن موقع المعبر على البيت، نشبت معركة تمخضت عن إزهاق روح الملازم الأول كاسبار كولينز الذي أُعطي اسمه للبلدة مع تغيير طفيف للتهجئة. وفي العام التالي تمكن مقاتلو سيو وتشيين، على بعد بضع ساعات إلى الشمال عند أسفل جبال بيغهورن، من الإجهاز على رتل من الجيش مؤلف من نحو ثمانين رجلاً، بمن فيهم قائدهم، النقيب دبليو جي فترمان. وبعد عشر سنوات، قتل مقاتلو سيتنغ بول، عبر الحدود مباشرة في مونتانا، الجنرال جورج

آرمسترونغ كستر مع ما يزيد على مئتي رجل من كتيبة الفرسان السابعة في المعركة التي جرت بالقرب من نهر بيغهورن.

أصبحت مبهوراً بقصص الرجال الذين جاؤوا قبل الرواد، من أمثال جون كولتر، الذي انفصل عن حملة لويس وكلارك وتمكن في شتاء 1808 - 1807 من شق طريقه إلى الموقع الذي نطلق عليه الآن اسم حديقة يلوستون الوطنية. اتهمه الناس بالكذب حين راح يتحدث عن الينابيع الحارة والبرك التي هي في حالة الغليان التي كان قد رآها، وعلى الرغم من أنه لم يكن يروي حكايات طويلة، فإن المبالغة كانت جزءاً من تراث الجبليين - مثلها مثل الاستقلالية ونزعة الاعتماد على الذات. كذلك كان الويسكي والتجديف جزءاً من ذلك التراث - إذا استثنينا قصة جديديا سميث، رجل الدين، الذي جال على قطاعات واسعة من الغرب متأبطاً إنجيله ومتمتعاً بطاقة غير قابلة للتصديق على صعيد تحمل الألم. فحين تمخض اشتباك له مع دب أغبر عن تدلي أذنه مع جزء من جلدة رأسه طلب من أحد زملائه الجبليين أن يخيط الجرح ويعيد الأذن إلى مكانها وما لبث في غضون بضعة أسابيع أن عاد إلى الخطوط الملتهبة. قصة هيوغلاس كانت قصة عظيمة أخرى. في أحد اشتباكاته مع الدب أُصيب بجرح بليغ جداً إلى درجة أن رفاق طريقه تركوه ظناً منهم أنه مات. زحف وهو مكسور الساق، ومهروس الجسم ممزقه، مسافة مئة ميل حتى وصل إلى نهر حيث صنع طوفاً وعبر به إلى قلعة كيوا. ولدى تماثله للشفاء انطلق بحثاً عن الرجال الذين كانوا قد تركوه ليقتلهم.

أما رواية إيه بي غوتري: "السماء الكبرى" فأعادت خلق لا حقبة الجبليين وحسب، بل والأراضي اللافتة للسهول العالية والجبال الأعلى التي باتت الآن حديقتي الخلفية، مكاناً متوفراً "على سماء أرحب مما يمكن لأي إنسان أن يتصوره، سماء حانية بعمق وبعيدة وخالية، إلا، ربما، بالنسبة إلى صقر أو نسر مبحرين". كتاب غوتري كان أحد الكتب المفضلة عندي في سني المراهقة، ولم يكن يفوقه سوى كتاب بيرنارد دي فوتو الذي يسرد قصة الجبليين في "عبر الميسوري العريض". كان دي فوتو خبيراً بالأراضي التي عبرها الرواد لدى اقترابهم من معبر نهر بلات، وامتدادات فسيحة منها ما زالت موجودة؛ ثمة

"الأخاديد، وشفرات السكين، وشجيرات القصعين والشحمية إضافة إلى القلويات، ... مغطاة بالأزهار في حزيران/يونيو، محررة بجداول صغيرة عذبة متدفقة بين أشجار غابة الحور". لقد أعدت قراءة "عبر الميسوري العريض" مرات ومرات منذ شبابي. إنه من تلك الكتب التي لم يسبق لي بالفعل أن أهملتها.

خلال صيفنا الأول في كاسبر، انتسبت إلى نادي بوني ليغ للبيسبول، وفي نهاية الموسم تم اختياري لاعباً في فريق النجوم المرشح للسفر في حافلة مستأجرة إلى ريتشموند، في ولاية واشنطن، للاشتراك في مباريات دوري إقليمي. ومع أن هَزْلنا كان أكثر من نجاحنا، فقد كسبتُ عدداً من الأصدقاء الجيدين بمن فيهم توم فيك الذي غدا أفضل أصدقائي طوال سني الدراسة الثانوية. حين عدت واطّلَعْت على التقارير الصحفية عن الرحلة، تلك التي كانت أمي قد قصتها من الجرائد المحلية، بدأت أكون فكرة غامضة عن الدعم الذي توفره أي بلدة صغيرة لفرقها الرياضية. كثيرون من البالغين كانوا راغبين في تمكين ثلة من الفتية من النجاح وحين أخفقنا في الارتقاء إلى مستوى آمالهم، لم يكفوا عن تأييدنا، وظلوا واثقين بأن الحظ في السنة القادمة سيكون من نصيبنا.

بدأت الحياة في وايومنغ تتحول إلى جميع الأشياء التي سبق لنا أن توقعناها وأكثر. ففي 1954 جاءنا الجد ديكي لمرافقتنا في رحلة صيد سمك عائلية في دوبوا. أقمنا في نزل مجهز بمطبخ صغير توفيراً للمال عن طريق إعداد وجباتنا بأنفسنا، غير أن ميزة النزل الرئيسية كانت متمثلة بوقوعه على كتف نهر وِنْد مباشرة. يا لروعة القدرة على الخروج من الغرفة في قلب البلدة والبدء بالصيد! درجنا على استخدام ديدان الأَرض طُعْماً أحياناً، إلا أننا في تلك الأيام كنا صيادي خرذوات في الغالب معتمدين على الدوامات والشراك المعدنية.

كان الجد ديكي روح فريقنا الصغير، غير أنه كان قد تعرض لاثنتين من الأزمات القلبية وراح يبدو أكثر وهناً مع كل زيارة. وحين جاء لزيارتنا من جديد في ربيع 1955 كان تدهور صحته واضحاً. ذات صباح فيما أنا في غرفة الجلوس وأبواي في الخارج مشغولان، سمعته ينادي من غرفة نومه ويقول:

"تعال يا ديكي، أنا بحاجة إليك!" وجدته جالساً على طرف سريره، في ألم واضح. عَبَّر لي عن اعتقاده بانه عرضة لأزمة قلبية أخرى. هرعت إلى الفناء لاستدعاء أهلي، فسارعوا إلى استدعاء الإسعاف. قفزت إلى منعطف الشارع لإيقاف سيارة الإسعاف وطمأنتها إلى أنها أتت إلى المكان المطلوب. في تلك الأيام لم يكن السائقون يستطيعون أن يفعلوا ما هو أكثر من مجرد إعطاء الجد بعض الأوكسجين ونقله بسرعة إلى المستشفى. بقيت ممسكاً بالباب لدى قيامهم بإخراجه على النقالة. تبع أهلي سيارة الإسعاف إلى المستشفى، غير أنهم عادوا في غضون ساعة واحدة وأخبرونا، بوب وأنا، أن الجد كان قد مات.

تم دفنه بجانب الجدة ديكي في لينكولن، غير أننا لم نستطع الذهاب إلى نبراسكا لحضور الجنازة لأن الوالدة كانت حاملاً في الشهر التاسع وغير قادرة على السفر. بعد أسبوع واحد وُلدت أختي سوزان.

مع أن كاسبر كانت بلدة صغيرة، فإنها كانت متوفرة على ثانوية كبيرة. والمدينة التالية ذات الحجم المعقول إلى الجنوب كانت على مسافة مئة وعشرين ميلاً. وكان يتعين على المرء أن يقطع مسافة مئة ميل باتجاه الغرب دون مصادفة أي شيء أكبر من محطة وقود. أما البلدات في جهتي الشرق والشمال فكانت صغيرة جداً. لذا فإن ثانوية مقاطعة ناترونا كانت تجتذب الطلاب من سائر أرجاء وايومنغ، وكان ثمة نحو خمس مئة طفل في صفي الأول الثانوي. فعندما كانت فرق كاسبر الرياضية تريد منافسة مدارس موازية حجماً، كان لا بد من قطع مسافات طويلة. ما أكثر ما كنا نستخف بركوب حافلة مدرسية والسفر مسافة مئتين أو ثلاث مئة ميل إلى رابيدسيتي الساوثداكوتية؛ وسكوتسبلف النبراسكية؛ أو جنكشن العظيمة الكولورادوية.

لعبتُ كرة القدم في الخريف وبيسبول منتخب أمريكا في الصيف. حاولتُ لعب كرة السلة في السنة الثانوية الأولى، غير أنني ما لبثتُ أن تركتها حين أطلعني مدربنا سويد أريكسون على واقع معاناتي من مشكلتين: عجزي عن التسديد من ناحية وعجزي عن القفز من ناحية ثانية. كذلك قام سويد مرة بإطراء قابليتي في مجال كرة القدم قائلاً: "أنت يا تشيني "خائض الوحل"

الأروع في الفريق". بيد أن المشكلة تمثلت بعدم هطول أي أمطار في وايومنغ خلال موسم كرة القدم.

كان لمدربينا تأثير كبير علينا. كانوا ينشغلون بنا في الملعب ويتأكدون من بقائنا ملتزمين في غرفة الصف. اثنان من مدربي: بوب لاهتي ودون وايشهار، كانا أيضاً من المدرسين الجيدين جداً لمادتي الكيمياء وحساب التكامل والتفاضل. أما هاري غلدين فكان يدرس مادة البيولوجيا إلى أن تولى مهام كبير مدربي كرة القدم في 1957. كان هاري هذا نجم دفاع في جامعة وايومنغ، وظلت البلدة كلها تعده منتشل فريقنا من مأزقه. لم يكن يخذلنا. ارتبط مع شريدان في بطولة الولاية لذلك العام، ما أدى إلى تألقنا في كاسبر كما إلى إبراز غلدين. لم يكن حب المجتمع له أقل من حبنا نحن الذين كان يتولى تدريبنا. دأب على تثقيفنا في ميادين التنافس، والتركيز، والانضباط.

حين كنت نائباً لرئيس الجمهورية، دُعيت إلى مخاطبة مجلس وايومنغ التشريعي، وقام صديقي جو مير، أمين صندوق الولاية، الذي كان أيضاً من تلاميذ غلدين، بتنظيم حفلة إعادة جمع شمل صغيرة مع كل من الأخير ولاعب آخر في فريقنا هو مايك غولدن، قاضي المحكمة العليا في وايومنغ. تمثل أفضل أجزاء لقائنا برؤية مدى نجاحنا في إشعار مدربنا بالاعتزاز.

باستثناء مواسم كرة القدم كنتُ على الدوام أعمل بالساعة، أقوم بأي عمل من إيصال الجرائد إلى حش المروج، إلى الحجابة في مخزن بيع السلع الرخيصة لبن فرانكلن ومحل دونل لبيع السكاكر في مركز تسوق هيلتوب. وفي إحدى العطل الصيفية عملت عتال تحميل عربات القطارات أكياساً بوزن مئة رطل في ورشة إلى الغرب من البلدة، وفي عطلة أخرى اشتغلت عاملاً في ورشات فير ورديو الوايومنغية المركزية. تلك الوظيفة الأخيرة انتهت قبل بدء موسم كرة القدم بنحو أسبوع، حيث التحقت بركب ثلاثة من الأصدقاء وأعضاء فريقي لكرة القدم هم: توم فيك، تي جي كلاونتش، وبروك هايلمان، في رحلة صيد سمك في أعالي المنعطف الأوسط لنهر باودر.

حتى هذا التاريخ كنت قد راكمت قدراً عادلاً من الخبرة في الصيد. أحياناً مع أمي وأبي وأخرى مع أصدقائي، كنت قد مارست الصيد في سد آلكوفا الواقع

على مسافة نحو ثلاثين ميلاً إلى جنوب ـ غرب البلدة. كذلك كنت على اطلاع فيما يخص مسافة من النهر بعد باثفايندر، ذلك السد الواقع على مسافة نحو خمسين ميلاً إلى الجهة الجنوبية ـ الغربية، الذي كان دائم السخاء على صعيد وفرة سمك السلمون. يُعْرَفُ الامتدادُ باسم "الميل المعجزة" وهو المكان الذي مارست فيه الصيد باستخدام الشباك بدلاً من الطعوم للمرة الأولى، على الرغم من أنني كنت لا أزال أستخدم عصا القنف بدلاً من القضيب الطيار.

والآن، مع كل من توم، وتي جي، وبروك، كنت متوجهاً نحو أعالي المنعطف الأوسط. القطاع الذي أردنا الصيد فيه كان وادياً عميقاً شديد الوعورة، لذا خيمنا في الأعالي وصرنا ننزل إلى تيار النهر في العمق كل يوم. مستخدماً قضيباً مستعملاً من الفيبر غلاس مع حفنة من النبابات الصنعية التي كنت قد اشتريتها من أحد مخازن الهاردوير المحلية، حاولت الصيد بالنبابات للمرة الأولى في حياتي. كانت رحلة بالغة الروعة، كما شكلت مناسبة تعرفي على رياضة ساهمت منذ ذلك التاريخ في إيصالي إلى سائر أرجاء العالم.

لعل الشيء الأكثر أهمية الذي تعرضت له في المرحلة الثانوية من التعليم هو أنني وقعت في شباك الحب. كنت قد عرفت أصل لين فانسنت وفصلها منذ وصولي إلى كاسبر وأنا فتى الأعوام الثلاثة عشر في الصف الثامن. كانت شقراء، شديدة الأناقة، وبالغة الجاذبية، إضافة إلى كونها حاملة صولجان بطولة الولاية. لم أستجمع ما يكفي من الجرأة لدعوتها إلى الخروج حتى أصبحنا في الصف الأول الثانوي، في نهاية شهر كانون الثاني/يناير، 1958، قبيل عيد ميلادي السابع عشر. وافقت لين على مرافقتي إلى حفلة رقص رسمية، فكانت تلك بداية الطريق دونما التفات إلى الخلف.

في ذلك الصيف اختارني المدرسون الثانويون للالتحاق بدورة مدتها خمسة أسابيع للطلاب الواعدين في جامعة نورثوَسْتَرْن. جمع أحد نوادي الخدمة المحلية ما يكفي من المال لتسديد قيمة بطاقة الرحلة، وقام الوالد بإيصالي إلى راولنز لركوب قطار الباسيفيك يونيون. ذهبت إلى نورثوسترن حالماً بأنني سأصبح مهندساً، ومع أنني كنت معجباً بالدورة الصيفية، ما لبثتُ أن اكتشفتُ عزوفي عن

الهندسة. شاهدت لعبة أشبال شيكاغو للبيسبول للمرة الأولى في ملعب ريغلي ذلك الصيف، إلا أن أفضل أيامي كان هو يوم مجيء لين من وسكونسن حيث كانت تشارك في مباراة اللعب بالصولجان، لقضاء فترة بعد الظهر معي.

كان عام تخرجنا أشبه بأحد أفلام الخمسينيات الكلاسيكية. كنت رئيس صف، ولين ملكة حفلة التخرج، وبوصفي الكابتن الثاني لفريق كرة القدم في الحفلة، تعين علي أن أتوجها. بدا كل شيء ممكناً خلال ذلك الخريف الحافل بحشد من مباريات كرة القدم، والمواعيد السينمائية، ومناسبات ارتياد الندوة، تلك المؤسسة لرعاية البلدية والتي توفر فرصة لقاء المراهقين المتبطلين والاستماع عبر جهاز الحاكي إلى ألحان وأغاني الإخوة إيفرلي، وفاتس دومينو، وإلفيس بريسلي. ومع حلول أشهر 1959 الأولى كانت لين قد قررت أنها ستلتحق بكلية كولورادو في كولورادو سبرينغز. ومع أنني كنت على يقين بأنني سأذهب إلى مكان ما، فإنني لم أكن قد أطلت التفكير بالتفاصيل حين بادر أحد العاملين المستقلين في مجال تجارة الزيوت بكاسبر يدعى توم ستروك إلى الاتصال بي وبتوم فيك عارضاً علينا الالتحاق بكليته الأم في ييل. كان ستروك مقتنعاً، بالاستناد إلى علاماتنا وسجلينا الرياضيين، إضافة إلى كوننا، كلينا، ضابطي صف، بأننا سنُقبل. وأضاف إن المجيء من وايومنغ كان هو الآخر سيساعد لأن ييل كانت حريصة على التنويع الجغرافي. لم تكن أي من عائلتي فيك وتشيني قادرة على الشروع في تسديد رسوم أربع سنوات في الآيفي ليغ، إلا أننا، توم وأنا، قُبلنا وكوفئنا بزمالتين غطتا أجور التعليم، والسكن، ووجبات الطعام. كان سيتعين علينا أن نعمل كجزء من الترتيب، أما فيما عدا ذلك فلم يكن مطلوباً إلا الوصول إلى هناك.

لم يكن قد سبق لي أن رأيت ييل قبل ذهابي إلى هناك في خريف 1959 لمباشرة سنتي الجامعية الأولى. في الواقع، لم يكن قد سبق لي أن ذهبت شرقاً إلى ما هو أبعد من شيكاغو، وحين نزلت من القطار في نيوهيفن الكنتاكية، شعرت كما لو كنت واصلاً إلى بلد آخر. في ولايتي الأم وايومنغ كنت مولعاً بالفضاءات الرحبة المفتوحة. كان بوسع المرء أن يرى مسافة أميال في أي

اتجاه. أما في نيوهيفن فجميع الأشياء كانت متزاحمة - زحمة بشر، مباني، أشجار. لم يكن أبعد الآفاق أكثر من مسافة بضع بنايات.

كثيرون من زملائي الطلاب كانوا قد تخرجوا في مدارس إعدادية. كانوا متمتعين بخبرات شديدة الاختلاف عن خبراتي وكانوا يعرفون أشياء كنت أنا أجهلها. أحياناً كان يراودني شعور بأنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى - ومن المؤكد أنهم كانوا يلعبون أقله لعبة واحدة وجدتها غريبة. كان الطلاب الملتحقون بييل يقدمون سلسلة من الاختبارات البدنية، منها دخول باب صغير لا بد من الانحناء لعبوره. في الطرف المقابل ناولني زميل مضرباً مثل الذي بقي معه وبدأ مباشرة ضرب كرة مطاطية صلبة صغيرة بالجدار. لم تكن لدي أي فكرة عما كان يُفترض أن أفعل وكيف أقوم بتسجيل النقاط. تلك كانت تجربتي الأولى مع لعبة السكواش.

لم أعد سمكة كبيرة في بركة صغيرة. بدلاً من كوني رئيساً لصفي، آخذاً راحتي في مكتب مجلس الطلاب، وجدتُني خادماً لزملائي في قاعة الطعام. افتقادي للين كان طاغياً على كل شيء. كنت أمضي أكثر الوقت وأنا أفكر بالمرة التالية التي سأراها فيها دائباً على تجميع دولارين يمكّنانني من تغطية تكاليف اتصال هاتفي مع كولورادو سبرنغز.

كثيرون من طلاب الزمالات يبادرون، إذ يجدون أنفسهم في بيئة مختلفة كلياً، إلى لملمة أنفسهم، وإلى الانشغال بدروسهم فينجحون. بدلاً من ذلك، اهتديتُ إلى عدد من الشباب مثلي، ممن لم يكونوا جيدي التكيف والمقتنعين بأن البيرة واحدة من جوهريات الحياة. في بداية سنتنا الثانية، ثمة اثنا عشر منا أقمنا معاً في كلية بيركلي، ولم تكن الفكرة، كما تبين لي لاحقاً، فكرة عظيمة. شكلنا كتلة انتقادية ما لبثت أن انجرت إلى سلسلة من الاشتباكات مع العميد. صار أبواي يتلقيان شكاوى؛ كانت إحدى الرسائل تقول: "لقد التحق ديك بجماعة شباب كثيرَي الحيوية والحركة".

لم أكن غافلاً كلياً عن ميزات ييل الثقافية والفكرية. ثمة أستاذ كان استثنائي التميز: أعني اتش برادفور وسترفيلد الذي كان يلقي سلسلة محاضرات علوم سياسية حول التاريخ السياسي الدبلوماسي للحرب الباردة. كانت

المحاضرات تغطي موضوعات تأسيس الناتو ومشروع مارشال، والحرب في كوريا، واجتراح السياسة الخارجية لما بعد الحرب العالمية الثانية. كانت المادة شديدة المراوغة والخداع المطلقين ـ ربما كانت تاريخاً أكثر منها علوماً سياسية، وإن لم أدرك الأمر في ذلك الوقت. غير أنني لم أحاول أن أُجهد نفسي للحصول على ما هو أكثر من مستوى "مقبول"، على الرغم من أن المادة كانت مدهشة.

حاولت الجامعة حَفْزي عن طريق تعديل شروط زمالتي عبر جعلي مسؤولاً مالياً عن تعليمي. بدءاً من السنة الدراسية الثانية كان سيتعين علي أن أعتبر جميع المساعدات المالية المستقبلية ديناً. وحين أخفق ذلك في تنبيهي طلب مني العميد أن أنقطع عاماً ولا أعود إلا إذا كنت مستعداً لتسديد الدين. تمكنت من فعل ذلك لفصل دراسي واحد، واصلت خلاله مراكمة حشد من الدرجات السيئة والملاحظات الانضباطية. في ربيع 1962، افترق طريقي أخيراً عن طريق جامعة ييل.

عند عودتي إلى وايومنغ في 1962 رجعت إلى ما كنت أمارسه بين الحين والآخر منذ أيام المدرسة الثانوية ـ "عاملاً صناعياً" بصفتي عضواً في اتحاد الأعمال في ولايات وايومنغ، ويوتا، وكولورادو. كنت أعمل في تمديد خطوط النقل الكهربائي وبناء محطات التوليد العاملة على الفحم. ساهمت في إيصال الطاقة إلى حقول النفط. تمثلت إحدى مهماتي بالعمل في مواقع صواريخ مينوتمان حول قاعدة فرانسيس إي وارن الجوية في تشيين، إذ قمت بتمديد كبل الاتصالات بين الصوامع في منتصف أحد الشتاءات في جبال روكي.

بوصفي عضواً في الوحدة المحلية رقم 322 من رابطة عمال الكهرباء الدولية، بدأت "عاملاً عادياً"، ثم ما لبثتُ أن أصبحت، بعد اكتساب المزيد من الخبرة، "سائق آلية". في أحد المنعطفات فكرت جدياً بسحب أوراق التدرب على الآلية والانتقال إلى مستوى "اختصاصي خطوط". اختصاصيو الخطوط هم أولئك الذين يتسلقون الأبراج الخشبية أو الفولاذية لربط خطوط الطاقة.

أحياناً كان عملنا خطراً، وكان لدى الجميع حكايات عن حوادث مثيرة. في أثناء العمل لزيادة الطاقة في محطة ديف جونستون خارج غلنروك، رأيت سائقاً

اندفع بشاحنته المجهزة برافعة ذات ذراع طويلة صارت قريبة من خط التوتر العالي ما أدى إلى تحريض الطاقة وإحداث كرة نار عملاقة على الخط الممدود نحو كاسبر مع قلبي الشاحنة. تجمد السائق خوفاً وتسمر في مكانه، وحسناً فعل. فلو كان قد حاول النزول من الشاحنة، لأدى ذلك إلى الإجهاز عليه.

في مهمة أخرى كنا نستخدم الديناميت، وبعد أن أصبحت العبوات في أمكنتها وتم تثبيت قبعة التفجير الكهربائي، شاهدت رئيس الورشة يفر بكرة كبل من العبوة إلى شاحنته. رفع الكبسولة إلى شاحنته، وانحنى فوق الواقية، وحك السلك ببطارية الشاحنة لتفجير العبوة. أدى التفجير إلى نسف صخرة كبيرة ورفعها عالياً في الجو، ثم هوت فوق غطاء الشاحنة، ضاغطة به على رئيس الورشة، ومتسببة له بجروح خطرة. كنا في الوادي الأسود بمنطقة الغنيسون الجبلية الوعرة في كولورادو الغربية، وقد استغرق إيصالنا له إلى المستشفى عدداً غير قليل من الساعات.

شكلت القصص الشبيهة بهذه عامل تذكير بما كان يمكن أن يحصل في حال عدم التحلي باليقظة والحذر، كما سلطت الضوء على السبب الكامن وراء كون المزاج السائد لدى العاملين في تمديد الخطوط الكهربائية - مزاج التحلي بالكفاءة والاعتزاز بمستوى الأداء الرفيع - أمراً جوهرياً. إذا كنت عاملاً أرضياً وقمت بعقد عقدتك على نحو صحيح فإن العارضة التي قمت برفعها إلى عامل الأسلاك سترتفع بأمان وسيتمكن هو من تحريرها من الحبل دون عناء، أما إذا كنت قد بالغت في شد العقدة إلى حد جعله يرتبك في حلها، فإنك تكون قد عقّدت عمله كثيراً، وإذا لم تجعل عقدتك على درجة كافية من المتانة وتعرضت عارضة أو بكرة للسقوط فإن من شأنك أن تتسبب بمقتل أحد الأشخاص.

ثقافة أعمال مد الأسلاك وتقاليدها واردة في كتاب بعنوان "سْليم" كانت الورشات التي عملت معها تتداوله. وهو الكتاب الذي ألفه وليام ويسترهاينس في أوائل الثلاثينيات وقد جرى تحويله إلى فيلم سينمائي اضطلع بدور البطولة فيه الممثل هنري فوندا، وهو يروي قصة شاب التحق بورشة تمديد أسلاك واكتشف مدى عظمة القيام بعمل متقن وباعث على الاعتزاز ومدى الانشراح الحاصل لدى

وضع المبلغ الذي جرى كسبه في الجيب. كان سْليم فخوراً بالإشارة إلى اللوحة المثبتة على سيارته عند سؤاله عن عنوانه.

كنت أحصل على مبلغ ثلاث دولارات وعشرة سنتات في الساعة، وهو مبلغ جيد في تلك الأيام، إضافة إلى التقاط كميات كبيرة من الأوقات الإضافية المضروبة بواحد ونصف. تنقلت من وظيفة إلى أخرى مصطحباً حقيبة كبيرة ومستقلاً سيارة شيفروليه موديل 1949 لبعض الوقت. وبعد اهترائها صرت أتنقل بالسيارات العابرة أو حافلات الخطوط إلى أن تمكنت من شراء فورد موديل 58. لم تكن أماكن السكن رائعة في أي من الأوقات، لم يكن المأوى عادة أكثر من غرفة في فندق قديم أو فندق عابرين على قارعة الطريق. مقابل عشرة أو خمسة عشر دولاراً في الأسبوع لم تكن هذه الأمكنة توفر أي وسائل راحة أو تفرض أي التزامات. لم أكن مرتبطاً بأي موقع أو بأي وظيفة أو توقعات أي شخص. كنت قادراً على لمّ حوائجي والرحيل لحظة أشاء.

بعد العمل كان شباب الورشة يصرفون وقتاً غير قليل في إحدى الحانات المحلية، بشكل مثالي في مكان يمكّننا من صرف شيكاتنا أو حمل جدول حتى أول يوم دفع. كنا نستهلك كميات هائلة من البيرة. وإذا تطلب الأمر شيئاً أقوى كنا نطعّم أقداح البيرة بجرعات من البوربون - وهو الكوكتيل الذي يساعد على شرح السبب الذي مكّنني من التعرض للسجن مرتين خلال عام واحد من جراء القيادة تحت تأثير الكحول.

كانت المرة الأولى في تشيين، وقد نجحت في تجاوزها. أما الثانية، في صيف 1963 في روك سبرنغز فكانت قضية مختلفة. كان عدد كبير من أصدقائي قد تخرجوا للتو في ييل. وكانت لين، بعد قضاء فصل دراسي في أوروبا، قد تخرجت بامتياز وإطراء في كلية كولورادو. أما أنا فكنت نائماً لطرد عقابيل السكر في سجن روك سبرنغز.

صحيح أن إدراك مدى خطورة الأمر تطلب وقتاً، غير أنني أيقنت صباح اليوم الذي استيقظت فيه في السجن أن نهايتي ستكون وخيمة إذا لم أبادر إلى إحداث تغيير جذري في سلوكي. أتذكر أنني أمضيت الجزء الأفضل من أحد الأيام على جبل كاسبر، قريباً من القمة حيث تكون رؤية الطريق كلها حتى

بيغهورنز ممكنة. كان ذلك مكاناً مثالياً لامتلاك صورة عن الحياة والتفكير بما كان سيتعين علي فعله لنبذ مسار التدمير الذاتي الذي كنت عليه. تحدثت مع لين وأهلي، ورغم امتلاكهم الحق كله في مخاصمتي والامتناع الفوري عن التكلم معي، بدوا مقتنعين بأنني كنت جاداً هذه المرة بشأن إحداث انقلاب في حياتي ولو بعد سلسلة من البدايات الخائبة.

عدت إلى روك سبرنغز، إلى الشقة التي كنت أتقاسمها مع عامل أسلاك ورئيس ورشة يدعى توم ريدي كان يشرب معي ليلة تعرضي للسجن. المشروع الذي كنا ننفذه ـ مشروع مد خط بطاقة 115 ألف فولط من روك سبرنغز إلى سد فليمنغ جورج الجديد على نهر غرين ـ كان المشروع الثالث الذي ننفذه معاً. كان توم شاباً لطيفاً، متمتعاً بفروسية كافية لتمكينه من المشاركة في مباريات رعاة البقر خلال العطل الأسبوعية. كنت أراه صديقاً ولكنني أبلغته بأنه كان سيضطر لاختيار شريك سكن جديد. كنت سأنتقل وأخيِّم في موقع الورشة. وحين سألني عن السبب أفدته برغبتي في الحصول على اللاحكم عليه والعودة إلى مقاعد الدراسة في الخريف قائلاً: "سأصنع شيئاً من نفسي". وجاء رده: "ومن تظن نفسك!؟ لست أفضل من أي منا". وتلك كانت المرة الأخيرة التي تبادلنا فيها الكلام.

انتقلت إلى موقع المشروع حيث كنت مع زميلي في الورشة بوب ليبرنس مكلفين بسبق الورشات الأخرى في عمليات الثقب وحشو الثقوب بالديناميت إعداداً لمتطلبات الهياكل الخشبية التي كانت الورشات ستتبع وتتولى إنشاءها. كان لبوب تاريخ مدهش ومعقد. فحسب الرواية التي سردها، كان، بعد تورطه في مشكلة في تنيسي في أواخر الثلاثينيات، قد انتقل إلى كندا، وحين بدأت الحرب في أوروبا، كان قد التحق بسلاح الجو الملكي وشارك في حملات إغارة جوية ضد هتلر. وبعد بيرل هاربور كان قد نُقل إلى القوة الجوية الثامنة في الولايات المتحدة وأصيب بجرح بليغ في إحدى غاراته. وحين تعرفتُ عليه كان شخصاً وحيداً أميل إلى الانعزال. خلال الجزء الأكبر من السنة كان يتولى الاضطلاع بمهام "سعدان البارود" (لقب يطلق على محترف نقل المتفجرات ووضعها) الذي

كان مسؤولاً عن التعامل مع جميع المواد المتفجرة في الموقع، أما في الشتاء فكان يغادر الورشة ويلوذ بأحد الجحور في الجبال.

عاش بوب حياته في موقع العمل، في الورشة، ينام في سرير نقال على شاحنته الرباعية الدفع، ويركن عدته في خيمة جدارية كبيرة كان يستخدمها للطبخ. ثمة كلب سائب سبق له أن صادفه، كان يراه الأفضل بين أصدقائه الذين لم يكونوا كثيرين، إلا أن علاقتي معه كانت جيدة. بعد أن أمضيت ليلة في كيس النوم في العراء، أبلغني بأن بوسعي أن أنصب سريراً صغيراً في خيمة الطبخ العائدة له.

باستثناء سفرات أواخر الأسبوع إلى البلدة لشراء الخضار، والاستحمام، والمرور بالغسالة الكهربائية، كنت أقضي باقي فصل الصيف في موقع العمل وبعيداً عن الحانات والبارات. كنا، بوب وأنا، نعمل بجد وتعب طوال النهار ونتعاون على الطبخ في الليل. بعد وجبات العشاء بدأت بقراءة تاريخ تشرشل للحرب العالمية الثانية المؤلف من ستة مجلدات على ضوء مصباح كولمان.

في الخريف انتقلت إلى لارامي وانتسبت إلى جامعة وايومنغ. هذه الجامعة المعروفة باسم يو دبليو (UW) مؤسسة تعليمية ذات فضائل عديدة، لعل أولاها في تلك الأيام هي أنها كانت ملزمة، بصرف النظر عن سجلي الأكاديمي السابق، بالموافقة على قبولي لكوني قد تخرجت في إحدى مدارس وايومنغ الثانوية. كان رسم التعليم لكل فصل 96 دولاراً، وانتقلت إلى شقة ذات غرفة نوم واحدة في مواجهة أحد الأزقة مقابل 45 دولاراً في الشهر. رحت أوفر من الإنفاق عن طريق إشراك صديقي من المرحلة الثانوية جو مير الذي كان يتابع التعليم في معهد بالمسكن. لاحقاً كان جو هذا سيغدو صاحب أحد أميز الأدوار السياسية في تاريخ وايومنغ، متولياً مناصب المدعي العام، ووزير الخارجية، وأمين صندوق الولاية، أما عندما كنا ساكنين معاً فقد كان ذائع الصيت بوصفه أحد عازفي كلارينت الجاز المهووسين وعشيق ملكة جمال وايومنغ.

تدبرت عملاً إضافياً قارئاً لعقيد جوي متقاعد كان قد فقد بصره. كان يحصل على السلف المطلوبة كي يصبح مستشاراً للمكفوفين، وصرت أقرأ له كتبه المقررة أربع أماسي في الأسبوع مقابل 1.75 دولاراً في الساعة، أحصل

عليه من إدارة قدماء المحاربين. كذلك كنت أنفق قدراً منصفاً من الوقت على الدراسة فأحصل على الدرجات البالغة الجودة، جلها جيدة جداً (A's) - كما كنت سأفعل في سائر السنوات الباقية من دراستي العليا.

في أواخر أيلول/سبتمبر 1963، بعيد عودتي إلى الدراسة، قام رئيس الجمهورية كنيدي بزيارة لارامي لإلقاء خطاب في بيت إحياء ذكريات ميادين الحرب لدى الجامعة. وقفت بين حشد مؤلف من الآلاف واستمعت إليه وهو يطلق دعوة بليغة إلى الخدمة العامة. تحدث عن التعريف الإغريقي للسعادة - الاستفادة الكاملة من طاقات المرء على نحو ممتاز - وقال إن العمل لصالح الخير العام كان من شأنه أن يوفر ذلك النوع من الرضا والاقتناع. كما تحدث عن أهمية توظيف ما كنا نتعلمه لبناء دولة أفضل وعالم أروع. وحين أنهى خطابه غادرت المكان من الباب الخلفي وشاهدت موكبه مغادراً. كان يستقل سيارة مكشوفة وكان مئات الطلاب يركضون خلفه، حريصين على إلقاء النظرة الأخيرة عليه وهو يغادر المدينة الجامعية. كان قد ألهمنا جميعاً، وفيما كنت عاكفاً على محاولة إعادة لملمة حياتي، وجدتني شديد الامتنان إزاء الشعور بآفاق الإمكانيات والاحتمالات النبيلة والمشرقة التي وصفها. وحين قُتل بعد ما لا يزيد عن شهرين خيّمت على الجامعة أجواء استثنائية التجهم. تذكر الجميع أنه كان معنا قبل فترة زمنية قصيرة جداً.

خلال سنتي الأولى في جامعة وايومنغ، درجت على قضاء جل عُطلي الأسبوعية في باولدر حيث كانت لين عاكفة على كتابة رسالتها للماجستير بجامعة كولورادو. في عيد الفصح عدنا إلى الأهل لإبلاغهم بأننا كنا عازمين على الزواج وحددنا يوم 29 آب/أغسطس، 1964 موعداً لذلك.

وفيما انشغلت لين وأمها بالورود والزينات الفضية، عدت أنا للعمل في تمديد خطوط الطاقة. كان أحد الأشياء التي حرصت على الادخار من أجلها هو شهر العسل الذي كنا، لين وأنا، نخطط لقضائه في منتجع جاكسون ليك بحديقة غراند تيتون الوطنية. إلا أنني تعرضت لحادثة تسمم بالطعام وتعين علي أن أبقى سجين المستشفى أسبوعاً كاملاً. لم أكن مؤمَّناً صحياً فصرفت كل المبلغ الذي

كنت قد ادخرته على الفواتير الطبية إضافة إلى فقدان سبعة عشر رطلاً من وزني. ومع ذلك فإننا أقمنا زفافاً جميلاً، كاملاً بالوصيفات والإشبين، مع أختي الصغيرة سوزي، التي اضطلعت بمهمة فتاة الورد، وشقيق لين، مارك، الذي تولّى وظيفة حمل الخاتمين. أما شهر عسلنا بعد ذلك فبقي مقتصراً على ليلة واحدة في الهوليداي إن بلارامي الوايومنغية.

كان بيتنا الأول شقة في بناية بركانية صفراء عند أطراف الحرم الجامعي. كان البيت صفقة حقيقية مقابل 53.65 دولاراً في الشهر مع الأثاث، ولكن دون أي نوع من أنواع العزل - وهو أمر سلبي إذ كانت درجات الحرارة تنخفض إلى ما دون الثلاثين. فعلى ارتفاع أكثر من سبعة آلاف قدم، كانت لارامي معروفة بشتاءاتها القارسة. إذا كنت تملك سيارة فقد كنت ملزماً بالتسخين الكهربائي في الليل وإلا فكنت ستجد المحرك متجمداً. غير أن المناظر الطبيعية كانت، رغم ذلك، جميلة مع السلسلة المكللة بالثلوج وبعض جداول سمك السلمون القريبة. مع بدء موسم صيد السمك كان من الممكن الاستيقاظ في ساعة مبكرة والتوغل بين الجبال لصيد عدد من فراخ السلمون والعودة قبل الحصص الصباحية.

مع اقتراب موعد التخرج، قررت البقاء والحصول على شهادة الماجستير، وقد كان تذوقي الأول للسياسة عبر العمل في مجلس ولاية وايومنغ التشريعي بوصفي أحد طلاب الدراسات العليا. نصف معاشي كان يسدده المركز الوطني للتربية السياسية، وهو تنظيم يعود إلى الأربعينيات كما إلى نوع من الإيمان لدى القاضي آرثر فاندربلت، عميد كلية الحقوق في جامعة نيويورك، بأن من الضروري تشجيع انخراط الطلاب في السياسة. أما النصف الثاني فكان يدفعه الحزب الجمهوري، الذي كان آنذاك تحت القيادة المتنورة لستان هاثاواي الذي كان سيصبح أحد أكثر حكام ولاية وايومنغ شعبية ونفوذاً. كنت أستيقظ في الصباح الباكر وأقطع مسافة خمسين ميلاً من لارامي إلى تشيين حيث كان مقر المجلس التشريعي. وبعد عمل النهار كله كنت أقلب الاتجاه وأنطلق بالسيارة لقطع مسافة الخمسين ميلاً من جديد في الليل، عبر أجواء أقرب إلى القسوة في الغالب.

كانت الدورة التشريعية تدوم أربعين يوماً، وشكل الأمر تجربة مدهشة

بالنسبة إلي. كان الجمهوريون، وهم مهيمنون عادة على السياسة الوايومنغية، يواجهون بكثير من الاعتراضات والانتقادات الصادرة عن الديمقراطيين في أعقاب هزيمة الـ 1964 الكارثية لغولدووتر، ما أدى إلى جعل الدورة استثنائية الحيوية. فاز التقرير الذي كتبته عن عملي بجائزة بوردن من المركز الوطني لتعليم السياسة واستلمت شيكاً بمبلغ مئة دولار ـ مبلغ لا يستهان به إذ كان يوازي أجرة سكن شهرين.

أحد أساتذتي زودني بطلب لبرنامج آخر لدى المركز. وهذا البرنامج الذي كانت مؤسسة فورد تموله كان يقضي بتشغيل طلاب الدراسات العليا في اختصاص العلوم السياسية لدى مكاتب رؤساء البلدات والحكام (المحافظين أو الولاة) في طول البلاد وعرضها. ملأت الاستمارة وكدت أنساها غير أنني ما لبثت، ذات مساء يوم أحد في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر لدى عودتنا، لين وأنا، من عطلة نهاية الأسبوع إلى كاسبر، أن وجدت برقية تنتظرني. حملتِ البرقية نبأ اختياري من أجل العمل في البرنامج وكوني منتظراً لشغل وظيفة شاغرة في كولومبوس الأوهايوية صباح يوم الأربعاء. كان لا بد من الاستعجال، غير أنني وصلت في الوقت المناسب إلى فندق ستوفر، مكان الاجتماع. التقيت طلاب دراسات عليا من جامعات ييل، وكولومبيا، وكورنيل، وولاية أوهايو، وولاية بول، وولاية بن، عازمين جميعاً على شغل وظائف مقررة أن تبدأ بعد اليوم الأول من العام.

كانت معاونة مدير المركز الوطني للتربية السياسية، مورين نْرَمّي إحدى أهم الشخصيات التي التقيتها في الوظيفة. كانت ستضطلع بدور حاسم في حياتي خلال السنوات القليلة التالية، وقد أصبحنا صديقين حميمين. أقنعتني مورين بأن من شأن أفضل الأمور بالنسبة إلي أن يكون العمل في ماديسون الوسكونسنية، في مكتب حاكم الولاية وارن نولز. حظيتْ الفكرة بإعجاب لين لأن المدينة الجامعية الرئيسية لجامعة وسكونسن كانت في ماديسون وفيها قسم رائع لمادة اللغة الإنجليزية، حيث يمكنها البدء بالعمل والشروع في كتابة رسالتها لنيل الدكتوراه. راكمنا حوائجنا في سيارة الفولكسفاغن ـ 65 الخنفسة التي كنا قد امتلكناها وانطلقنا نحو وسكونسن في أجواء كانون الثاني/يناير الباردة غير

القابلة للنسيان. مع الوصول إلى نواحي دوبوك الآيوية صارت السيارة صعبة القيادة لأن الزيت في عامود المقود كان قد تجمد من البرد وقد تعين علينا أن نركن الفولكسفاغن في المرآب لدى إحدى محطات الوقود للإذابة والتدفئة. وعلى الرغم من الطقس المتجمد، كنا راضين عن إيقاف السيارة كل بضع ساعات حتى تتمكن لين من النزول وتتمشى امتثالاً لتوصيات الطبيب. كانت حاملاً بمولودتنا الأولى إليزابيث التي كانت ستولد في ماديسون في أحد أيام أواخر شهر تموز/ يوليو الدافئة.

بدا وارن نولز حاكم ولاية حقيقياً. كان هذا الرجل الطويل القامة، ذو الشعر الفضي المتماوج قد انتُخب على الرغم من الكسح الديمقراطي لعام 1964. أصبحت معاوناً متعدد الاختصاصات، مسافراً معه إلى سائر أرجاء الولاية. كانت جيوبي ملأى بأزرار الزينة المتوجة بعبارة "نحبها هنا" التي كانت شعار حَمْلة كان قد أطلقها من أجل تنمية الولاية ورفع مستواها. زرنا جميع المعارض المحلية وكانت مهمتي متمثلة بتعقب المحافظ ذهاباً وإياباً دائباً على توزيع الأزرار. كذلك كنت أحمل آلة تصوير بالارويد فورية، وألتقط الصور على الطريق. وكلما كانت الصورة تنزلق كنت أنزع عنها الغلاف وأقدمها إلى العارض الذي كان المحافظ قد صافحه للتو.

في حال عدم السفر مع المحافظ، كنت في أكثر الأحيان أعكف على العمل وراء مكتبي الذي كان أحدهم قد تحلى بالحكمة إذ وضعه وسط غرفة جهاز العاملين فأتمكن من رؤية سير الأمور كلها. كنت أشارك في اجتماعات الجهاز وقد تعلمت درساً قيِّماً في وقت مبكر. لا أتذكر المشكلة التي كنا بصدد مناقشتها، ولكنني لا ولن أنسى قط أنني رأيت الحل بوضوح شديد وطرحته مباشرة، بلهجة توحي بقدر من المرجعية والسلطة على ما أتذكر. ساد نوع من الصمت، ثم تابع الفريق الكلام، متوصلاً في النهاية إلى الحل الذي كنت قد اقترحته، وإن على نحو لم يكن قد سبق لي أن طرحته مطلقاً. ولدى تأملي لما حدث، أدركت أن من الأفضل دائماً أن يستمع المرء بدلاً من أن يتكلم، لا سيما إذا كان ما يزال شخصاً صغير السن مبتدئاً. يضاف إلى ذلك أن أي جماعة

تكون بحاجة عادة، حين تجد نفسها أمام مشكلة، إلى الاشتباك والتصارع مع تلك المشكلة لبعض الوقت. وإذا كنت متوفراً على نوع من الحل، فما عليك إلا أن تنتظر صيرورة الناس مستعدين لقبوله، ثم تبادر إلى طرحه بأسلوب بارد وملموم بما يضمن بقاء حل المشكلة عن الحل ـ لا عن شخصك أنت.

ذات ليلة فيما نحن في الجزء الشمالي من الولاية، قام الوالي باصطحاب مل ليرد إلى شيكاغو في إحدى طائرات الولاية الرسمية من ذوات المحركين. كان مل هذا عضو الكونغرس النائب عن مقاطعة وسكونسن السابعة وكان سيغدو وزير دفاع ريتشارد نيكسون خلال حمى الحرب في فيتنام. وفيما نحن الثلاثة: المحافظ، عضو الكونغرس، وأنا طائرون عبر الليل، سمعت ليرد محذراً صديقه القديم طالباً منه التحلي بالحرص الشديد إزاء ما يتفوه به عن الحرب في جنوب ـ شرق آسيا. كان ذلك في العام 1966، وكان الوجود الأمريكي قد بدأ للتو بالتوسع. لم تكن حركة مناوأة الحرب قد اكتسبت بعد ذلك القدر الكبير من الزخم، غير أن ليرد كان قلقاً إزاء عدم امتلاك الإدارة الجونسونية خطة متماسكة حول الحرب وإزاء احتمال تدهور الأحوال أكثر قبل أن تشهد أي قدر من التحسن. أتذكر كم تأثرت بالطريقة التي اعتمدها ليرد في النظر إلى ما بعد اللحظة، وقد نجح، كما تبين لاحقاً، في تقديم نصيحة صائبة.

كنت معجباً بالحاكم، وحين انتهت زمالتي طلب مني أن أبقى وأواصل العمل. بل وعرض علي شيك راتب. في الوقت نفسه كنت قد قررت الشروع في التحضير لنيل الدكتوراه في وسكونسن. لين وأنا، كلانا، كنا راغبين في أن نصبح أستاذين جامعيين، ومع أننا كنا نعاين أمكنة أخرى بحثاً عن فرص عمل لطلاب دراسات عليا فقد تبين لنا أن الجامعات المتوفرة على قسمَيْ العلوم السياسية واللغة الإنجليزية بجودة جامعة وسكونسن كانت نادرة. كذلك كنا قد طلبنا وحصلنا على وظيفتي تعليم وبحث في وسكونسن، ما أدى إلى توفير احتمال تدعيم راتبي من العمل الإضافي الذي كنت سأحصل عليه من مكتب المحافظ، فنصبح قادرين على شق طريقنا.

بعيد شروعي في الإعداد لرسالة الدكتوراه، بلغت السادسة والعشرين من العمر فتجاوزت سن التجنيد الإجباري. أما حين كنت لا أزال خاضعاً للتجنيد

فكنت قد حصلت على التأجيل بسبب الدراسة والأبوة. من قبل، حين كنت أعمل في تمديد خطوط الطاقة كان قد جرى تصنيفي في خانة واحد ـ ايه [A-1]، إلا أن أرقام التجنيد كانت منخفضة ولم تتم دعوتي. لو كنت قد دعيت، لكان الالتحاق بالخدمة مصدر سعادة بالنسبة إلي.

كان آيغه كلاوسن العاكف على دراسة التصويت بالمناداة على الأسماء في مجلس الشيوخ والنواب الأمريكيين أستاذي الرئيسي في وسكونسن. كان العمل مفرط الإحصائية، وقضيت كثيراً من الوقت مع حاسوب الجامعة الذي كان في تلك الأيام يشغل الجزء الأكبر من غرفة كبيرة، عاقداً عمليات حسابية لبيان جملة العوامل المختلفة المؤثرة في صوت أي عضو. كان افتراضنا ـ افتراض أن من شأن السلوك السياسي أن يُفهم علمياً ـ تجسيداً حياً للتوجه السائد في تلك الأيام، وقامت مجلة أكاديمية وجيهة بعنوان "مجلة العلوم السياسية الأمريكية" بنشر مقالة طويلة كتبناها عن بحثنا. تكرم الأستاذ كلاوسن، وهو رجل كريم حقاً، وتقاسم تأليف المقالة معي.

غير أن أياماً غير قليلة في 1967 شكلت تذكيراً بسياسة أكثر التباساً بما لا يقاس. ففي شهر تشرين الأول/أكتوبر أدى حضور محرضين من شركة داو الكيميائية الصانعة للنابالم المستخدم في فيتنام إلى استثارة ما بات يعرف باسم حوادث داو للشغب. وحين بادر الطلاب إلى سد مدخل المبنى حيث كان المحرضون قد استقروا، جرى استدعاء الشرطة لإزاحتهم بالقوة. في أثناء الفوضى الناجمة، جرى إطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع، ونال طرفا الطلاب والشرطة، على حد سواء، قسطه من الإصابات والجروح. ثمة فرقة مسرحية هزلية من سان فرانسيسكو كانت دائبة على حفز المتظاهرين عبر ممارسة سلسلة من الرقصات والحركات التهريجية. اشتبكت لين مع المهرجين الأغرار، الذين كانوا يحملون أحشاء الحيوانات على رؤوسهم، إذ حاولت عبثاً، أن تصل إلى غرفة صف كانت ستلقي فيها درساً في الإنشاء أمام طلاب السنة الأولى.

كنت شديد المعارضة لسعي المحتجين إلى إغلاق الجامعة وتصوير هوشي

مينه بطلاً. وكطرح عام كنت مؤيداً لقواتنا في فيتنام ولحق إدارتي كنيدي وجونسون في اتخاذ القرار القاضي بالانخراط.

في أوائل عام 1968 حصلت على عرض عمل لإدارة حملة برلمانية (كونغرسية). كان عند الجمهوريين مرشح بحاجة إلى بعض المساعدة للترشح في المقاطعة الثانية ضد النائب الديمقراطي المتمتع بشعبية قوية منذ خمس دورات، وبادر صديق في مكتب المحافظ إلى الاتصال بي طالباً معرفة ما إذا كنت مهتماً بشغل الوظيفة. بدا وكأنه أمر كان من شأن القيام به أن يكون ممتعاً بالنسبة إلي إضافة إلى أن الراتب كان جيداً، ألف دولار في الشهر على ما أتذكر. كان الانخراط بالعمل سيؤدي إلى تأجيل امتحاناتي الأولية - تلك الاختبارات الشاملة التي كان لا بد من اجتيازها قبل الشروع في كتابة رسالة الدكتوراه - إلا أنني لم أر أي بأس في ذلك. وحين راجعت مراكز القوة في قسم العلوم السياسية، اكتشفت أنها لم تكن متحمسة. لم يقف الأمر عند مجرد تأجيل امتحاناتي الأولية، كما قال أحد الأساتذة، بل إن العمل في إحدى الحملات كان من شأنه أن ينطوي على إشارة مهنية خاطئة. وأضاف الأستاذ: "إذا انخرطت في السياسة فإن أساتذة العلوم السياسية لن يأخذوك مأخذ الجد". جعلني ذلك أفكر طويلاً، إذ كنت واثقاً تماماً من أن من شأن تجربة الحياة الواقعية أن تشكل ذخراً حقيقياً سواء أكنت أقوم ببحث ميداني أو أُجْري دراسة في غرفة الصف، ولكن ما الذي كنت أنا أعرفه عن نمط عمل عالم البحث الأكاديمي؟

قررت العزوف عن وظيفة الحملة والتفرغ للدراسة. غير أن فرصة مثيرة أخرى ما لبثت أن لاحت، بعد قليل، في الأفق، فرصة حظيت هذه المرة باستحسان قسم العلوم السياسية. كان عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي المريلاندي جو تايدنغز قد تعاقد مع الجامعة حول استحداث زمالة على شرف جده: جوزف إي ديفيس، الذي كان قد وُلد في وسكونسن وعمل سفيراً لرئيس الجمهورية فرانكلن روزفلت لدى الاتحاد السوفييتي. أراد تايدنغز أن يجعل الزمالة جزءاً من برنامج الزمالة البرلمانية لرابطة العلوم السياسية الأمريكية، وبادر قسم العلوم السياسية إلى ترشيحي لأكون أول المستفيدين.

بعد أعوام، في اعقاب تولي منصب نائب رئيس الجمهورية، قام أحد أمناء

مؤسسة ديفيس بموافاتي برسالة التوصية التي كان رئيس قسم العلوم السياسية قد وجهها إلى تايدنغز، تلك الرسالة التي أشارت إلى أني متزوج وأب لابنة في الثانية من العمر ووصَفَتْني بعبارة "شاب ذكي جداً، مجتهد، صاحب شخصية قوية، وجذاب في السابعة والعشرين من العمر". اقتبس الرئيس كلام آيغه كلاوسن عني قائلاً إنه "المساعد الأكثر تعاوناً، والأقدر، والأوفر جدوى" الذي سبق له أن عمل معه. عندما قرأت تلك الرسالة بعد سبعة وثلاثين عاماً، تمثل ما كان الأكثر إثارة للدهشة بالنسبة إليّ هو تذكر أنني كنت في 1963، قبل ما لا يزيد عن خمس سنوات، قابعاً في إحدى زنزانات السجن وقد باتت حياتي مدمرة تماماً من حولي. كنت قد حصلت على فرصة ثانية، وقد حققت قدراً كبيراً من النجاح في الإفادة منها.

كان من المبرمج أن يأتي عضو مجلس الشيوخ تايدنغز إلى ماديسون في نيسان/أبريل للتحدث مع حشد نيابة عن بوبي كنيدي الذي كان قد انخرط في الانتخابات الرئاسية الأولية وكان يتنافس فيها مع كل من هيوبرت همفري وجين مكارثي. حضرت الاجتماع الجماهيري ثم التقيت الشيخ في بار على شارع الولاية، حيث كرعنا البيرة وتبادلنا الكثير من الكلام. قام هو بعرض الزمالة البرلمانية [الكونغرسية] التي كانت ستأخذني إلى واشنطن العاصمة لمدة سنة وقبلت أنا العرض.

وبعد ما يزيد عن ثلاثين سنة، وأنا نائب لرئيس الجمهورية، حضرت حفل عشاء في جامعة مريلاند، حيث كان عضو مجلس الشيوخ السابق تايدنغز، أحد الأمناء الآن، أحد المدعوين. تقصدت الذهاب إليه لأشكره على ما كان قد فعله في كل تلك الأعوام الغابرة. كان لبقاً، إلا أنه بدا مربكاً قليلاً. لاحقاً أبلغ أحد الكُتّاب بأنه لم تكن لديه أي فكرة بسيطة عن سبب شكري له. لم يتذكر لقاءنا في تلك الليلة الربيعية المنعشة بماديسون ـ على الرغم من أنني لم أنسه قط.

الفصل الثاني

هل ثمة شخص يدعى تشيني؟

ذات أصيل يوم جمعة حار ورطب في آخر شهر تموز/يوليو، 1968، جلست خلف مقود سيارتنا الفولكسفاغن السوداء وانطلقت جنوباً خارجاً من ماديسون. كنت عازماً على الذهاب إلى واشنطن واستئجار شقة لنا: لين، ولين، وأنا، تؤوينا حين تبدأ زمالتي الممنوحة من رابطة العلوم السياسية الأمريكية البرلمانية في أيلول/سبتمبر. ولأنني كنت مشغولاً بحشو رأسي بالمعلومات استعداداً لامتحاناتي الأولية، عزمت على إنجاز العملية كلها بما فيها قطع مسافة 1700 ميل بالسيارة والعثور على شقة أجرة خلال عطلة نهاية الأسبوع والعودة إلى متابعة الدراسة مع حلول صباح يوم الاثنين.

سبق لي أن قمت بأسفار مسافات طويلة بالسيارة وقد استمتعت بها. استمعت إلى الراديو وأنا أعبر ولايات إيلينوي، وإنديانا، وأوهايو، وبنسلفانيا، ومريلاند، متوقفاً بين الحين والآخر لتناول الطعام وملء خزان الوقود، ومرة للنوم بضع ساعات. حين وصلت أخيراً إلى نقطة 495 لحدود الولاية، حيث حزام العاصمة الذي يحيط بواشنطن، تعيّن علي أن أختار الجهة التي سأسير فيها. انعطفت يميناً وواصلت السير جنوباً إلى أن رأيت لافتة تحمل كلمة "آنانديل" التي تصورتها مناسبة تماماً، دلفت إلى جادة ليتل ريفر الرئيسية، وهي جادة كبرى لم تكن، رغم وجود حشد من المشروعات التنموية ومجمعات مباني الشقق السكنية، قد فقدت طابعها الريفي. انعطفت إلى الشارع المفضي إلى أحد مجمعات

الشقق - مجمع أمريكانا فيرفاكس - ووجدتني أمام مكتب للإيجار. بعد ما هو أقل من ساعة، كنت قد وقعت عقد إيجار لمدة سنة لشقة ذات غرفتي نوم غير ناجزة مقابل 130 دولاراً في الشهر.

قبل الانطلاق عائداً إلى ماديسون، قررت أن أرى العاصمة، وهي مدينة كانت لا تزال مستمرة في التعافي من أحداث الشغب والحرائق التي أعقبت اغتيال مارتن لوثر كنغ، الابن، قبل ما لا يزيد عن أربعة أشهر فقط. اثنا عشر شخصاً كانوا قد قُتلوا، والمئات جُرحوا، ورئيس الجمهورية جونسون كان قد استدعى قوة اتحادية مؤلفة من أربعة عشر ألف عنصر لاستعادة النظام. إلا أن الفوضى التي كنت قد شاهدتها خلال النشرات الإخبارية المسائية غاصت في الخلفية لحظة التقاطي الأولى لصورة واشنطن لدى عبور البوتوماك على جسر تيودور روزفلت. ثمة إلى يميني آبدة واشنطن ونُصْب لنكولن التذكاري، بيضاوين ساطعين في السديم الصيفي. شكلا مشهداً لافتاً، مثل البيت الأبيض حين مررت به، كما بالكابيتول المتألق على قمة التلة (الهيل). درت ببطء حول مبنى الكابيتول، محاولاً استيعابه بمجمله، ثم تابعت طريقي على جادة الاستقلال الموازية للمول خارجاً من المدينة. وصلت إلى ماديسون مع حلول موعد غداء يوم الأحد.

نجحنا كلانا، لين وأنا، في اجتياز امتحاناتنا الأولية، متمكنين من الاقتراب خطوة في شهادتينا للدكتوراه، ومع حلول منتصف أيلول/سبتمبر كنا مشغولين بنشر كتبنا وأوراقنا، مع قليل من الملابس، إضافة إلى سرير ليز الصغير في الشقة الأنانديلية. بُعَيْد وصولنا، كانت لي مقابلة مبرمجة في الكابيتول هيل. ارتديت الطقم الوحيد الذي كان عندي، وهو طقم كحلي جذّاب كان قد لفت نظري في مخزن جون - إن - جاكس للملابس الرجالية في لارامي، قبّلت لين وليز مودعاً، وركبت الحافلة على شارع ليتل ريفر الرئيسي. بعد خمس وأربعين دقيقة، كنت في مركز المدينة أمام البريد القديم في الشارع الحادي عشر وجادة بنسلفانيا.

كنت لا أزال بعيداً عن الكابيتول، إلا أنني قررت، نظراً لعدم امتلاكي لأي

فكرة عن كيفية الانتقال من حافلة إلى أخرى، أن أمشي. بعد تجاوز بضع بنايات، اكتشفت أن طقمي الذي كان ممتازاً أيام الشتاء في وايومنغ ووسكونسن، لم يكن مناسباً مطلقاً في يوم أيلولي/سبتمبري قائظ بواشنطن العاصمة. كنت أيضاً منتعلاً حذاء مصنوعاً من الجلد الاصطناعي، ما لبث أن بدأ يتمخض عن مناخه المستنقعي الخاص.

بعد نصف ساعة من التسلُّق لطريق بطول ميل أو نحوه، غارقاً تماماً في العرق، كنت في مكتب عضو الكونغرس الوسكونسني بيل ستايغر في مبنى الكونغرس "لونغوورث". كنت هناك لمقابلة رئيسة جهاز العاملين لديه، مورين درمي التي كنت قد التقيتها عندما كانت تعمل في المركز الوطني للتربية السياسية. كانت أحد معارفي القليلين في واشنطن، وكنت قد جئت التماساً لمشورتها حول برنامج الزملاء الكونغرسي الذي كانت قد تابعته قيد التنفيذ من موقعها في مكتب ستايغر. لطيفة وكريمة كما هي دائماً، تغافلت عن حالتي البائسة وزودتني بأفضل نصائحها. خلال أسابيع التوجيه العشرة التي شكلت بداية البرنامج، أُتيحت لي فرصة المشاركة في جملة من الحلقات الدراسية والاستماع إلى عدد من محاضرات النواب والشيوخ. لم تكن الفكرة مقتصرة على البحث عن الأعضاء الذين يمكن أن أكون ميالاً إلى العمل لصالحهم أو ترتيب اللقاءات مع مكاتبهم وحسب، بل تجاوزت ذلك أيضاً لاكتشاف ما كانوا يتوقعونه من الزملاء ورؤية ما إذا كان الأمر متطابقاً مع ما كنت راغباً القيام به.

كان نائب جمهوري شاب يدعى دون رامسفيلد، من إيلينوي، أحد أكثر محاضري التوجيه إثارة. لم يكن قد سبق لي أن سمعته من قبل، إلا أنني ما لبثت أن علمت أنه كان ذائع الصيت على صعيد السماح للزملاء بالانخراط في عمل المكتب، بل مطالبتهم بذلك، في الحقيقة. لحظة انتهائه من التحدث إلينا كنت قد قررت أن هذا هو الرجل الذي أريد العمل معه.

وصلت مبكراً لإجراء المقابلة مع رامسفيلد في مبنى الكونغرس "كانّون" فتم إدخالي إليه في الموعد المحدد بدقة، ثم أُخرجت بعد خمس عشرة دقيقة تماماً. استجابة لدعوته إياي إلى قول شيء عن نفسي، كنت قد تحدثت عن انشغالي برسالة الدكتوراه عن أنماط التصويت في الكونغرس وعن اعتزامي

العودة إلى جامعة وسكونسن بعد انتهاء زمالتي من أجل مواصلة العمل كأستاذ لمادة العلوم السياسية. قام هو بوصف هيكلية مكتبه وأتى على ذكر الحاجة إلى شخص قادر على كتابة التصريحات الصحفية. وبعد قليل من الأخذ والعطاء، انتصب واقفاً، مد يده، وقال: "شكراً على المجيء وإن لم يكن هذا مناسباً".

ثم لم أجد نفسي إلا واقفاً في الممر خارج مكتبه. صحيح أنني لم أكن مبتلياً بعلة الغرور، غير أنني كنت قد أصبحت، بعد استجماع تفاصيل أدائي، قاضياً عادلاً للحكم على ما كان سيناسبني وما لم يكن كذلك، كما على حقيقة أن هذه المقابلة كانت قد انتهت على نحو مباغت. متذكراً ذلك الآن، أدرك أنني لم تكن لديّ أي فكرة ولو شديدة الضبابية عما كان أي عضو كونغرس بحاجة إليه، وربما كان رامسفيلد على صواب إذ رآني أكاديمياً مشوَّشاً. كان قد قدّر الوضع خلال الدقائق القليلة الأولى واكتشف أنه كان يبدّد وقته. لم يكن ثمة أي شيء شخصي حول الأمر. لم أكن الشخص الذي كان يبحث عنه، لا أكثر ولا أقل. من شأن بعض الناس أن يكونوا ميالين إلى إنفاق بعض الوقت محاولين تدوير الزوايا وترطيب الأجواء، غير أن ذلك لم يكن أسلوب دون رامسفيلد في تدبير الأمور.

لم أكن مزهواً لدى عودتي إلى مكتب بيل ستايغر في لونغوورث. رويت قصتي لمورين درمي التي ابتسمت بتعاطف ثم اقترحت الحل الأنموذجي. رأت أن أتعاقد مع بيل ستايغر عند بدء الزمالات في كانون الثاني/يناير.

كان العمل لصالح بيل ستايغر فكرة ممتازة قابعة وراء قَشَّة. كنت قد تعرفت به في أثناء عملي لدى المحافظ (الوالي) نولز. كان قد انتُخب لعضوية مجلس الولاية التشريعي بُعَيْد تخرجه في جامعة وسكونسن، والمرة الأولى التي رأيته فيها فهمت القصص التي تعتبر عضو المجلس الجديد عن خطأ موظفاً متفرغاً. كان شاباً ويبدو أصغر من سنّه، وكان متوفراً على قدر هائل من المهارات السياسية. راقبته ناشطاً في الدعاية للمحافظ (الوالي) نولز، وأنا الذي رأيت مدى حبه للناس ومدى قوة ذاكرته على صعيد حفظ أسمائهم وهمومهم لم أُفاجأ حين انتُخب عضواً في مجلس نواب الولايات المتحدة عام 1966. وعلى الرغم من أنه

كان لا يزال في دورته الأولى، فإن حصافة بيل الواضحة، وشخصيته السهلة، واستقامته العميقة كانت قد تركت انطباعاً قوياً لدى زملائه. كان معروفاً في برنامج الرابطة الأمريكية للعلوم السياسية (APSA) أنه يضع مكتب زميله في غرفته الخاصة. كانت الأشهُر التي قضيتُها وأنا أعمل عند بيل ستايغر أفضل تعريف ممكن لي على كونغرس الولايات المتحدة.

أفراد عائلتي كانوا ديمقراطيين منذ زمن بعيد. جدي تشيني كان عضو إحدى اللجان الديمقراطية في سومنر النبراسكية. وجدي ديكي كان يرى ولادتي يوم ميلاد فرانكلين ديلانو روزفلت مصدر فخر واعتزاز. أما أنا فكنت موشكاً على الانتقال إلى الصفوف الجمهورية ومتلقياً ردود عشيرتي على استفزازي بفعلتي هذه. راسلتهم في 28 تشرين الأول/أكتوبر 1968، قائلاً: "من المؤكد أنكم ستكونون آسفين وأنتم ترون نيكسون فائزاً في الانتخاب". جاء الرد: "من يدري، قد ينجح همفري في إزاحته". في الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر تبين أن نيكسون كان متفوقاً بنصف مليون صوت، وبنسبة 43.4 مقابل 42.7 بالمئة، فأصبح الرئيس السابع والثلاثين للولايات المتحدة.

وبعد بضعة أسابيع فيما كان ليندون جونسون لا يزال رئيساً ونيكسون رئيساً منتخباً، تمت دعوة زملاء الرابطة الأمريكية للعلوم السياسية إلى جولة في البيت الأبيض. بعد المرور بالغرف العامة والقصر السكني، وصلنا إلى الجناح الغربي (West Wing). كان المكان مهيباً حقاً، وما زلت أذكر كيف نظرت إلى داخل المكتب البيضوي - لم يكن الحراس يسمحون بتجاوز العتبة - وعاينت مكتب الرئيس جونسون. كان المكتب أمام النوافذ في أحد الأطراف، وإلى يساره كان ثمة منضدة طويلة منخفضة مدهونة باللون الأبيض وعليها ثلاثة أجهزة تلفزيونية لتمكين الرئيس من متابعة كل الشبكات الإخبارية الوطنية. ثمة كان أيضاً طابعتان إخباريتان عليهما غطاءان زجاجيان لكتم طقطقعة النسخ البعيد ورنين النشرات، بما يمكّن الرئيس من معرفة كل شيء فوراً من كل من الأسوشيتد برس واليونايتد برس أنترناشيونال. كانت هذه أمثلة مثيرة للتكنولوجيا الحديثة، إلا أن تأثري الأبلغ كان بالعلبة الصغيرة ذات الأزرار الصغيرة الموجودة بجانب الهاتف الكبير على طاولة الرئيس. أفاد الحارس بأن

الأزرار كانت لطلب القهوة، أو الكوك، أو الفريسكا (مشروب ليندون جونسون المفضل) للرئيس وضيوفه.

بعد رأس السنة مباشرة بدأت العمل في ـ حرفياً في ـ مكتب بيل ستايغر. وإذ كانت طاولتي هناك فقد كنت إما متابعاً أو مشاركاً في جميع لقاءاته وأحاديثه الهاتفية. كذلك بقي حريصاً على ضمي إلى أعضاء جهاز العاملين عنده في العديد من اجتماعات اللجان الخاصة.

في الرابع عشر من كانون الثاني/يناير، 1969، جاء الرئيس جونسون إلى الكابيتول هيل، في منطلق صعوده إلى مواقع السلطة والكثير جداً من انتصاراته، ليلقي خطاب حالة الاتحاد الأخير. نجح ستايغر في تمكيني من الوصول إلى قاعة المجلس، فوقفت في المؤخرة وتابعت تكشف هذا الطقس المثير ولكن المحزن بعض الشيء. بدا الرئيس الواثق والديناميكي عادة متحفظاً ومجتراً وهو يتحدث عما كان قد حاول إنجازه وعن الحلم الذي يراوده حول الطريقة التي كان التاريخ سيعتمدها في النظر إليه. تشكل لدي انطباع قوي بأنه كان، في عقله، قد بات عائداً إلى مزرعة ليندون بينز جونسون في مدينة جونسون التكساسية.

وبعد يومين كنت أتابع اجتماعاً للجنة التعليم والعمل في المجلس حيث كان أحد رسميي إدارة جونسون يدلي بشهادته. لاحظت أن جزءاً من شهادته كان متناقضاً تناقضاً مباشراً مع شيء كان الرئيس قد قاله في خطابه. لم يكن بيل ستايغر حاضراً في تلك اللحظة، فبادرت إلى استحصال نسخة من نص جونسون، رسمت دائرة حول الاختلاف، وأبرزته لأحد موظفي اللجنة. طلب مني عرض الأمر على آل كوي المينيزوتوي، كبير الجمهوريين في لقاء ذلك اليوم. تقدمتُ وأسقطتُ الورقة على الطاولة أمام كوي. رفع رأسه وبادر، رغم أنه لم يكن يعرفني، إلى حمل الورقة وقراءتها، فتوظيفها ليطرح عدداً من الأسئلة المحرجة جداً على الشاهد. كانت لحظة ثمينة. كانت المرة الأولى التي كنت فيها منخرطاً بالفعل، وإن على نحو هامشي وثانوي، في العملية الكبرى التي كنت أتابعها.

بعض أعمال مكتب الكونغرس أقل إثارة ومسرحية بما لا يقاس بطبيعة

الحال. إحدى مهماتي الرئيسية تمثلت بمرض شجر الدردار الهولندي، ذلك المرض الذي كان قد أصاب مناطق واسعة من البلاد وأجهز على شجر الدردار الذي ظل إحدى العلامات المميزة للمشهد الأمريكي قروناً من الزمن. ومع حلول أواخر عقد الستينيات كان الوباء قد وصل إلى وسكونسن، فجرى إغراق مكتب ستايغر بطوفان من الرسائل والمكالمات، التي توليت بنفسي الرد على الكثير منها.

في 21 نيسان/أبريل قام الرئيس نيكسون بتسمية دون رامسفيلد مديراً لمكتب الفرص الاقتصادية. كان ليندون جونسون قد استحدث هذا المكتب كجزء من برنامجه المعروف باسم المجتمع العظيم، ذلك البرنامج القائم على تقديم المنح ومعونات التنمية الاقتصادية إلى مناطق الدخل الأقل من البلاد. الإعلان عن تسمية رامسفيلد أثار الريبة والدهشة. كان نيكسون قد هاجم مكتب الفرص الاقتصادية في الحملة وكان رامسفيلد قد صوّت ضده. كثيرون ظنوا أن نيكسون أراد تعيين شخص مناسب للإشراف على عملية تفكيك المكتب، غير أن ذلك الظن كان خاطئاً.

مباشرة طلب رامسفيلد من ستايغر أن يلتحق بركب الفريق الدماغي غير الرسمي الذي كان عاكفاً على استنفاره لمساعدته في الاستعداد لخوض معركة التثبيت في مجلس الشيوخ. بسبب ما كنت غارقاً فيه من قراءات وأعمال لصالح ستايغر حول لجنة التعليم والعمل كنت أول المرشحين للاشتغال بشؤون مكتب الفرص الاقتصادية. خلال إحدى العطل الأسبوعية كتبت مذكرة طويلة عن قناعتي حول الأسلوب الذي يتعين على رامسفيلد أن يتعامل به مع جلسات تثبيته كما حول الطريقة التي يمكنه أن يعتمدها في تنظيم المكتب وإدارته إذا أصبح مسؤولاً. بالغ ستايغر في إطراء المذكرة وطلب موافقتي على تزويد رامسفيلد بها. لاحقاً لم أسمع عن الأمر شيئاً.

كما كنا، لين وأنا، على يقين تام استناداً إلى تجربتنا مع جامعة وسكونسن، كانت المظاهرات تُحْدِث زلازل في المدن الجامعية الأمريكية. في 1969 بدأ النواب

والشيوخ المحاصرون - من قبل ناخبيهم الراغبين في دفعهم إلى أن يفعلوا شيئاً - يدرسون اقتراحات من شأنها قطع التمويل الاتحادي عن الكليات والجامعات الممتنعة عن التصدي للمتظاهرين. ثمة نائب شاب (شيخ ووزير مستقبلاً)، بيل بروك، من تنيسي، تخوف من احتمال إفضاء قطع التمويل الاتحادي إلى تخريب التعليم الأمريكي جدياً، وقام بتنظيم فريق مؤلف من اثنين وعشرين نائباً جمهورياً، منهم ستايغر، لزيارة مدن جامعية في طول البلاد وعرضها بهدف التوصل إلى فهم أفضل لما كان يجري. اصطحبني ستايغر إلى أحد اجتماعات الفريق التنظيمية، حيث التقيت جورج اتش دبليو بوش التكساسي الذي كان سيضطلع بدور كبير في حياتي. كان ذكياً، وودوداً، وبَطَلَ حرب؛ شخصاً بالغ الجاذبية باختصار.

كان ستايغر من المجموعة المرشحة لزيارة جامعة وسكونسن، وتم اختياري لاستباق الرحلة. كنت في الجامعة مؤخراً ومطلعاً على الوضع في ماديسون. كانت ثمة مظاهرات احتجاج في شباط/فبراير تأييداً لمطالبة الطلاب الزنوج باستحداث قسم للدراسات الزنجية. وحين أخفقت الشرطة في مجاراة تكتيكات المتظاهرين القائمة على أسلوب اضرب واهرب، بادر المحافظ نولز إلى طلب قوة مؤلفة من ألفي عنصر من الحرس الوطني. تمخض ظهور القوة عن تضخّم صفوف المحتجين وصولاً إلى نحو عشرة آلاف شخص. استخدمت قوات الحرس قنابل الغاز والدخان. ثار الطلاب في المدينة الجامعية، وراحوا يخربون الممتلكات. ومع أن الاحتجاج هدأ أخيراً، فإن الاضطراب الكامن وراءه لم يفعل، إذ أقدم الطلاب، قبل الزيارة البرلمانية في أيار/مايو 1969، ببضعة أسابيع، على رشق الشرطة التي كانت تحاول حظر أحد الأحزاب في شارع مِفْلِن بالحجارة والقوارير. ردت الشرطة بالهراوات وقنابل الغاز المسيل للدمع، وتطلبت استعادة الهدوء مدة ثلاثة أيام.

ليلة وصول النواب كان تنظيم "طلاب في سبيل مجتمع ديمقراطي" يعقد اجتماعاً جماهيرياً في المدينة الجامعية مع دعوة محرّض الفهود السود الإشكالي المتشدد المعروف فرد هامبتون إلى إلقاء كلمة ضيف الحفل. أحد أصدقائي من صفوفي في العلوم السياسية كان من منظمي "طلاب في سبيل مجتمع

ديمقراطي"، وكنت قد سألته عن مدى قدرته على تمكيننا من الحضور. أستطيع أن أقول دون تردد إننا كنا الوحيدين مرتديي السترات وربطات العنق. جوبهنا ببعض النظرات الغاضبة وبقدر من الشتائم، ولكن أحداً لم يبال بنا كثيراً بعد أن جلسنا على كراسينا. كان الجميع شديدي الانشغال بالصراخ تأييداً للخطابات المتزايدة لهيباً للمتكلمين وصولاً إلى خطاب ضيف الشرف الذروة.

تبين أن هامبتون خطيب مفوّه وشخص كاريزمي حتى العظم. نأى بنفسه عن الطلاب الراغبين في استحداث قسم للدراسات الزنجية، معلناً وجوب بقاء الغاية هي الثورة والوسيلة هي العنف. ألهب الجمهور عن طريق الصراخ حول متعة "قتل الخنازير" وتعاظم المتعة مع تزايد العدد. لاحظت، بيني وبين نفسي، أن خطابة هامبتون كانت فاتنة - شرط إغفال مضمون الرسالة.

قام الفريق البرلماني بعقد مقابلات مع طلاب تدرجوا من رئيس تحرير "الديلي كوردينال"، جريدة المدينة الجامعية، الدائبة على تحريض المتظاهرين، إلى جماعة معروفة باسم الهاياكاوا الذين كانوا يحتجون على الاحتجاجات بعد أن تبنوا اسم أستاذ اللغة الإنجليزية اس آي هاياكاوا الذي كان قد اشتهر بالتصدي للمتظاهرين في كلية ولاية سان فرانسيسكو (جامعة ولاية فرانسيسكو اليوم) عنواناً لهم. كذلك حضر الفريق اجتماعاً للأساتذة كان يُعقد أسبوعياً في المدينة الجامعية. كان ذلك اجتماعاً لأساتذة كبار حاولوا إبقاء اجتماعاتهم خاصة وكانوا قد نجحوا إلى حد كبير. وعلى الرغم من أنني كنت من طلاب الجامعة لثلاث سنوات، لم أكن قد عرفت شيئاً عن الجماعة قط. حين أتيت إلى المدينة الجامعية مع النواب الضيوف، قام رئيس قسم العلوم السياسية بتمكيننا من حضور إحدى الجلسات.

تم وضع بعض القواعد الأساسية: لم يكن مسموحاً لنا أن نسأل أو نقول شيئاً؛ كنا قادرين فقط على الملاحظة. مجلس الأساتذة في الغرفة ذلك اليوم كان في مواجهة قائمة طويلة من الهموم - حول الطلاب، والإدارة، والفوضى - إلا أن أحداً لم يتطرق إلى الإطار الأوسع. لدى اجتماعنا كانت المدن الجامعية في طول البلاد وعرضها منتفضة، وكانت السياسة الأمريكية تعيش أياماً صعبة زاخرة بالرضوض. كان مارتن لوثر كنغ، الابن، وبوبي كنيدي قد اغتيلا قبل عام؛ كانت

الحرب في فيتنام في حالة غليان. كنا قد خرجنا للتو من هجوم التيت، وانتخابات 1968 الرئاسية، وعزوف ليندون جونسون عن الترشح، وانتخاب ريتشارد نيكسون. ثمة كان عدد كبير من الأنكياء نكاء لا يصدق في تلك الغرفة، من أولئك الذين كانت إنجازاتهم البحثية - الأكاديمية قد أضفت على جامعة وسكونسن شهرتها الذهبية الاستثنائية. غير أن الاجتماع لم يكن بعيداً عن التجربة التي كنت أعيشها في واشنطن، وقد وجدتُني على طريق إدراك حقيقة أن الحياة السياسية هي المفضلة عندي.

بعد العودة إلى العاصمة، قام النواب بإطلاع الرئيس على فحوى زياراتهم إلى المدن الجامعية وأصدروا تقريراً عاماً عرض عدداً من الآراء، منها خفض سن الاقتراع إلى الثماني عشرة. ومع شجبه للعنف في المدن الجامعية، كان الفريق موحداً ومجمعاً على الوقوف خلف فكرة "لا تشريعات قمعية"، وبدت مراكز القوة ممتثلة، لأن اقتراح قطع المساعدات الاتحادية تلاشى.

كان ثمة بعض هوامش لزيارتنا إلى مدينة وسكونسن الجامعية. بعد ستة أشهر من رؤيتنا لفرد هامبتون في اجتماع "طلاب في سبيل مجتمع ديمقراطي"، قُتل الرجل في حملة شنتها الشرطة على شقة شيكاغو الغربية. في الصيف التالي شهدت ماديسون قيام شاحنة ملأى بالمتفجرات بنسف مركز الجيش للبحوث الرياضية في ستيرلنغ هول، حيث كنت أيام الدراسة أُكْثِرُ من استخدام الحاسوب في ساعات الفراغ حين كان الوقت رخيصاً. كان عناصر التفجير الأربعة من الطلاب قد اختاروا منتصف الليل ظانين أن المبنى سيكون مهجوراً، إلا أن طالب دراسات عليا مع زوجته إضافة إلى ثلاثة أطفال كان يعمل هناك. قُتل الرجل وأصيب الآخرون إصابات بليغة.

بعد عمل لم يدم سوى شهرين فقط مع ستايغر، حل، حسب قواعد الرابطة الأمريكية للعلوم السياسية، وقت الشروع في التخطيط للانتقال إلى المجلس الآخر والحزب الآخر. وبما أنني بدأت زمالتي مع نائب جمهوري، لم يكن متوقعاً مني إلا أن أستكملها مع شيخ ديمقراطي. وفيما يخصني كان من شأن الأمر أن يكون أي شيخ ديمقراطي لأن مركزاً شاغراً كان ينتظرني في مكتب تيد كنيدي.

كان هذا التوزع على نصفين منطوياً، عادة، على مغزى عظيم. أكثر الزملاء كانوا يحالون على أحد عناصر الجهاز ويكلفون بأنواع المشروعات القابلة للإنجاز في غضون شهرين؛ قليلون هم أولئك الذين كانت لهم صلات مباشرة مع المسؤول إلا إذا حصلت اجتماعات طارئة لجهاز العاملين. أما ستايغر فكان قد أبقاني قريباً منه في العمل منذ اليوم الأول لالتحاقي. لم أكن راغباً في ترك مثل هذا الموقع الفريد لحظة شروعي في الارتقاء إلى المستوى المطلوب من المهارة بالتحديد.

كنت على علاقة جيدة مع بوب بيتس، زميل الرابطة الأمريكية للعلوم السياسية المفروز إلى مكتب الشيخ [السيناتور] كنيدي، وكنت أعرف أنه كان يحمل الشعور نفسه بشأن العمل هناك. كان قد عُين لدى السكرتير الصحفي وكُلف بعدد من المسؤوليات المهمة. تناولنا طعام الغداء معاً وتآمرنا لإبقاء النقل على الورق ولا نظهر في عملينا "الجديدين" إلا يوماً واحداً قبل أن نعود إلى عملينا السابقين.

تطلب إقناع مدير برنامج الرابطة الأمريكية للعلوم السياسية بأن نوايانا كانت صافية ومنطقنا كان سليماً غداء آخر (مع زوجين من أقداح المارتيني). وبعد لقاء وجيز مع الشيخ كنيدي الذي كان لبقاً، ولو مع شرود، ولقاء بوب بيتس مع ستايغر، عاد كل منا إلى المكتب الذي كان قد بدأ فيه زمالته. لم يسبق لي قط أن عملت مع الشيخ كنيدي، مع أنني بقيت على امتداد حياتي الوظيفية متوقعاً أن يبادر أحدهم إلى إبراز وثائق ورقية تؤكد أنني فعلت لمدة أربعة أشهر.

جرى تثبيت دون رامسفيلد مديراً لمكتب الفرص الاقتصادية في 26 أيار/مايو، 1969. بعد ظهر اليوم نفسه اتصل بي فرانك كارلوتشي وقال إن رامسفيلد قد طلب منه أن يساهم في انتشال المكتب وتمكينه من العمل. أراد فرانك أن يعرف مدى استعدادي لأكون عضواً في فريق العمل الذي كانا يشكلانه. قلت له إنني سأكون سعيداً، وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى مبنى مكتب الفرص الاقتصادية عند تقاطع شارع إم (M) مع الشارع التاسع عشر، حيث استقبلني كارلوتشي ثم انضممنا إلى نحو خمسين آخرين محشورين في إحدى القاعات.

كان كارلوتشي، الذي سيغدو بسرعة صديقاً (وسلفاً لي في وزارة الدفاع بعد سنوات) رجلاً متماسكاً ومشدوداً. كان رامسفيلد قد التقاه حين كانا، كلاهما، في منتخب المصارعة بجامعة برنستون. وعلى الرغم من أنه لم يكن قد بلغ الأربعين من العمر، فإنه كان قد أصبح في السلك الخارجي صاحب تاريخ جدير بأن يُروى بما فيه مهمة في الكونغو تعرض خلالها للطعن. كان في طريقه إلى سنته السابعة في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا حين طلب منه رامسفيلد أن يساعده في أعمال مكتب الفرص الاقتصادية.

جاء رامسفيلد إلى الاجتماع وتحدث مدة نصف ساعة، متحمساً بشكل كامل بشأن شروع مكتب الفرص الاقتصادية في إحداث تغيير حقيقي في حياة الفقراء. لم يكن هذا هو الرجل الذي أرسل لتفكيك الوكالة. وما إن غادر المكان حتى دخلت شابة، وسألت: "هل ثمة شخص يدعى تشيني؟" رفعت يدي فأومأتْ إليّ بالخروج والسير عبر عدة ممرات. فتحت باباً ودعتني إلى الدخول قائلة: "السيد رامسفيلد يريد أن يراك".

كان رامسفيلد جالساً خلف طاولة وغارقاً في أحد الملفات السميكة. لم يرفع رأسه، فتوفرت لي فرصة معاينة مكتبه. كان للمكتب نوافذ على جانبين، لم يكن أي منها نظيفاً جداً، على ما أذكر. كان ثمة طاولة، ومقعد وطاولة صغيرة أكل الدهر عليها وشرب. وكان يوجد بضع علب معدنية مثبتة بشكل مدروس تحت بقع داكنة في السقف.

أخيراً رفع رأسه وأشار إلي قائلاً: "أنت، أنت زبون العلاقات البرلمانية بالذات، هيا انقلع من هنا إلى الجحيم!"

بعد العودة إلى الممر، استغرق فهمي لما كان قد حصل للتو دقيقة من الوقت. كان هذا أقسى من اشتباكي الأول مع رامسفيلد، غير أنني كنت هذه المرة مدعواً لشغل وظيفة. كان من شأن قبولها أن يعني تأجيل عودتي إلى وسكونسن ومواصلة العمل لإعداد رسالة الدكتوراه، إلا أنني قلت لنفسي إن الأمر لن يستغرق سوى عام واحد، وسوف تتوفر لي فرصة الوجود حيث العمل والحركة، حيث القرارات كانت تُتخذ. انطلقت إلى القاعة باحثاً عن مكتب العلاقات البرلمانية غير مدرك لطابع القرار القالب للحياة الذي كنت آتخذه. لم أدرك أنني

كنت أقول وداعاً للحياة الاكاديمية إلى الأبد وأني سأنخرط في حياة قائمة على السياسة والحكم ستدوم أربعين سنة ـ غير أن ذلك كان هو القرار الصحيح تماماً.

كانت غرفة العلاقات البرلمانية الخاصة بمكتب الفرص الاقتصادية صغيرة وبلا قيادة، وعلى الرغم من أنني كنتُ لا أزال زميلاً برلمانياً، وجدتني منخرطاً في العمل مع مجلسي النواب والشيوخ في واشنطن كما مع محافظين ومجالس تشريعية في طول البلاد وعرضها. مرة بعد مرة بدت علاقات مستوى الولاية أكثر تعقيداً ـ وأوفر نزقاً بما لا يقاس ـ لأن محافظين (ولاة) كثراً كانوا يشعرون بأن سبب وجود مكتب الفرص الاقتصادية هو جعل الأمور صعبة بالنسبة إليهم. كان المحافظون (الولاة ـ حكام الولايات) متمتعين بحق الاعتراض على برنامج المكتب، وكان لمدير المكتب حق فسخ تلك الاعتراضات. وهذا الوضع شكل ضماناً لأوقات زاخرة بالحيوية والنزاعات.

ذات صباح بُعَيْد وصولي، تلقيت مكالمة حانقة من مكتب المحافظ في جونو بألاسكا، حول منحة مقدمة من مكتب الفرص الاقتصادية كانت قيد الدرس. تم تحذيري من أنه إذا ما تقرر الأمر فإن المحافظ سيعترض وسنجد أنفسنا في ورطة حقيقية. أكدت للمتصل أنني سأعاين الوضع، وبعد عدد من المكالمات، اهتديت إلى الشخص المسؤول عن المنحة في دائرتنا. طلبت منه موافاتي بالملف لأدرسه. بعد نصف ساعة، تسلمت الملف باليد ووضعته في درج طاولتي، حيث عزمت على إبقائه إلى أن أتمكن من حل العُقَد.

بعد يومين عاد الاتصال من جونو. كانت المنحة، تلك التي كانت لا تزال حبيسة درج طاولتي، قد أُعلنت للتو، وكان المحافظ موشكاً على عقد مؤتمر صحفي لشجب المشروع وإعلان اعتراضه. علمت بوجود نسخ كثيرة عن ملف المنحة وبأن مطالبتي بواحدة أثارت ذعراً أفضى إلى التعجيل بالإعلان. وهكذا وجدتني في أيامي الأولى أتعلّم درساً ثميناً حول التعامل مع الأجهزة البيروقراطية: ثمة، على الدوام، أكثر من نسخة.

ذات صباح تلقيت مكالمة من بيل برادلي، الذي قال إن رامسفيلد طلب منه

أن يقابلني. كان وصول برادلي، وهو مثال آخر لعلاقات رامسفيلد البرنستونية، إلى مكتب الفرص الاقتصادية قد أحدث قدراً ولو قليلاً من اللغط. على الرغم من أنه لم يكن إلا في موسمه الثاني لاعباً متقدماً في مباريات نيويورك، فإن تاريخ برادلي بوصفه بطلاً أولمبياً وأكاديمياً رودسياً كان قد جعل منه شخصية وطنية، وباتت اهتماماته السياسية معروفة على نطاق واسع.

كان رامسفيلد قد كلف برادلي بمهمة العثور على معاون لكافة الأغراض، وظيفة كنتُ مهتماً بها بالتأكيد، وحريصاً على الاضطلاع بها. فمنذ استخدامي النهائي كانت قد توفرت لي فرصة قضاء بعض الوقت مع رامسفيلد، وتبين أن اختلاف شخصيتينا ومزاجينا شكل بالفعل ثنائياً ناجحاً. لا شك أنه كان رئيساً قاسياً ومتطلباً، دون أن يكون أقل قسوة وتطلباً مع نفسه، وتلك ميزة احترمتها كثيراً. خلف المظهر الخارجي الفظ كان عميق التفكير وشديد التركيز، وكان قد عمل على تطوير فريق موال بقوة، أصبحتُ سلفاً أعد نفسي واحداً من أعضائه.

عقد برادلي مقابلات مع عدد من الأشخاص، وفي نهاية تلك العملية حصلت أنا على المنصب. ونظراً لأن رامسفيلد لم يكن مدير مكتب الفرص الاقتصادية فقط، بل كان أيضاً أحد معاوني رئيس الجمهورية، ما أدى إلى أن أصبح صاحب مكتب في الجناح الغربي من البيت الأبيض. لم يكن مكتبي هذا استثنائي الروعة على الإطلاق. كان أشبه بزنزانة وكنت أتقاسمه مع معاون آخر لرامسفيلد يدعى دون مردوخ. إلا أن أي مكتب في الجناح الغربي كان ذا امتياز استثنائي بين العقارات في واشنطن، وأقر بأنني كنت فخوراً به إلى حد كبير.

صرت أبدأ كل صباح مع رامسفيلد في البيت الأبيض. لدى حضوره اجتماع كبار العاملين، كنت أتولى إطلاق بداية يومه. ثم كان يجري نقلنا إلى مبنى مكتب الفرص الاقتصادية، حيث كنا نعمل حتى الساعات الأولى من المساء. وبعد ذلك كنا نعود إلى البيت الأبيض للعمل بضع ساعات أخرى قبل التوجه إلى البيت، هو إلى أصغر فيلات جورجتاون المتسلسلة وأنا إلى الشقة في آنانديل.

لدى انتقال اسمي إلى جدول رواتب مكتب الفرص الاقتصادية، تعين علي ملء عدد من الاستمارات الشاملة جداً. تضمنت إحداها سؤالاً عن أي توقيفات سابقة، فلم أتردد في إيراد حادثتي توقيفي بسبب قيادة السيارة تحت تأثير

الكحول في عامي 1962 و1963. من الواضح أن الأمر لم يؤد إلى إثارة أي رعب في المكتب، إلا أن خطوطاً حمراء ما لبثت أن رُسمت حين تولى مكتب التحقيقات الاتحادي (FBI)، الاستقصاء الميداني المعهود بالنسبة إلى جميع العاملين في الجناح الغربي.

استدعاني رامسفيلد إلى مكتبه وسألني عما إذا كانت قصة توقيفي مرتين صحيحة. أفدته بأنها صحيحة. ثم طلب من سكرتيرته جلب الملف، وعاين الاستمارة بدقة. أغلق الملف قائلاً: "موافق، لا اعتراض لي على ذلك". ثمة عدد كبير من الشباب المميزين الذين ربما كان رامسفيلد سيتوجه إليهم بعد اطلاعه على هفوتَيّ. ولكنه وقف إلى جانبي ولم أنس له ذلك قط.

في أيلول/سبتمبر اعترض حاكم كنتاكي لوي نان على تمويل مكتب الفرص الاقتصادية الجديد لأحد برامج مكافحة الفقر في الجزء الجبلي الشرقي من ولايته، متهماً إياه بالفساد وزاعماً توظيف الأموال الاتحادية لتعزيز مكانة الحزب الديمقراطي محلياً مع دعم عائلة تورنر المهيمنة على فرع الحزب. كان نان، وهو حاكم جمهوري، أحد أوائل المؤيدين الأقوياء لنيكسون، ومن الطبيعي أن البيت الأبيض كان راغباً في أن يكون متجاوباً. إلا أن البرنامج كان في مقاطعة النائب الديمقراطي كارل بيركنز، أحد أقوى الشخصيات في واشنطن ورئيس لجنة التعليم والعمل التي أقرت موازنة مكتب الفرص الاقتصادية. يضاف إلى ذلك أن عائلة تورنر لم تكن ممن ينحنون أمام العواصف والضغوط، كما اكتشفت حين أوفدني رامسفيلد إلى ناحية بريثت لمحاولة اكتشاف ما كان يجري.

رافقتني تريفا تورنر هاول، التي كان أبواها هما مؤسسي الإمبراطورية التورنرية في جولة لإطلاعي على سائر الأعمال الخيرية الجيدة التي كان مكتب الفرص الاقتصادية يمولها. وفي آخر النهار عادت بي إلى منزلها، أجلستني إلى مائدة المطبخ، وصبت قدحين من البوربون الثقيل لكلينا. بقدر كبير من السحر مع قدر حتى أكبر من الإصرار، أعادت طرح قضيتها، ذكّرَتْني بأن الرئيس (رئيس لجنة التعليم والعمل في المجلس) بيركنز كان مهتماً بعملها، وأشارت إلى أنها كانت أفضل بدرجات من لوي نان فيما يخص الفساد.

كانت أموال مكتب الفرص الاقتصادية، دون شك، تقوي القبضة السياسية لآلة الحزب الديمقراطي في ناحية بريثيت، تلك الآلة التي كانت برئاسة جيف ديفيس هاول، زوج تريفا وتمثلت مهمتي باكتشاف ما إذا كان الأمر غير مشروع، على الرغم من إمكانية القول بأن مثل هذا التصرف لم يكن سليماً. وبعد أن عدت إلى واشنطن وأراد رامسفيلد أن يعرف ما إذا كان البرنامج فاسداً أجبته قائلاً: ربما، غير أن الأدلة المؤيدة لتهمة اللاشرعية ليست كافية على ما يبدو. كان ذلك كافياً بالنسبة إليه. وقام بإبطال اعتراض المحافظ نان.

سارع لوي نان إلى ركوب أعلى ما في خيله، وما لبث رامسفيلد أن وجد نفسه في اجتماع مع جون إيرليخمان، رئيس شؤون التخطيط الداخلي لدى نيكسون، الذي كان قد تلقى مخابرة نان. قام إيرليخمان بنقل الامتعاض الاستثنائي للمحافظ إزاء قيام متطفل يدعى تشيني بالاعتداء على صلاحيته، واقترح إيفاد فريق من البيت الأبيض لتقصي الحقائق، خطوة تصدى لها رامسفيلد. فبما أن المسألة كانت حول مدى مشروعية العملية لا بد من إيفاد مكتب التحقيقات الاتحادي حسب اقتراح رامسفيلد. فوجئت حين سمعت أن مكتب التحقيقات توصل إلى الاستنتاج الذي كنت قد توصلتُ إليه بالذات، فبقي إلغاء الاعتراض سارياً.

في الثلاثين من نيسان/أبريل 1970، أعلن نيكسون اعتزامه إرسال قوات إلى داخل كمبوديا، حيث كان الفيتناميون الشماليون يخزّنون الذخائر ويحشدون الوحدات القتالية دعماً للحرب في فيتنام الجنوبية. بُعَيْد ذلك، في الرابع من أيار/مايو، قام عناصر من حرس أوهايو الوطني، أُرسلوا إلى داخل جامعة ولاية كنت (kent) لمطاردة محتجين أحرقوا مبنى وحدات تدريب ضباط الاحتياط، بإطلاق النار وقتل أربعة طلاب مع جرح آخرين. مئة ألف محتج، أكثرهم من الطلاب، نزلوا إلى شوارع واشنطن محدثين قدراً من الخوف كان كافياً لدفع الجهاز السري إلى ضرب طوق أمني حول مجمع البيت الأبيض بحافلات النقل الداخلي في العاصمة، تلك الحافلات صُفّت بحيث لا يستطيع أحد أن يتسلل بين الواحدة والأخرى. رأى أحدهم أن من شأن قيام بعض الشباب من جهاز العاملين في

البيت الأبيض بتجاوز سور الحافلات، والتحدث مع بعض المحتجين، والحكم على مزاج هؤلاء، أن تكون فكرة صائبة.

تلك هي الظروف التي جعلتنا، رامسفيلد وأنا، ذات عصر لطيف من أيار/ مايو، نخلع سترتينا وربطتي العنق، ونمشي متجاوزين بضع بنايات وصولاً إلى "الناشيونال مول". أجرينا بضعة نقاشات حادة مع عدد من المحتجين على الطريق، غير أن هذا لم يكن حشداً خطراً. مع اقترابنا من "الحوض العاكس" الطويل، لاحظنا هرجاً ومرجاً كما لو كان أحدهم قد سقط في الحوض. وبعد المزيد من التدقيق استطعنا أن نرى بضع فتيات عاريات الصدور يتقافزن في المياه الضحلة ويُثرن عاصفة من صرخات الاستحسان الصادرة عن جمهور سريع التعاظم.

سرعان ما اكتشفنا أن إحدى المتقافزات كانت من العاملات لدينا في مكتب الفرص الاقتصادية. كانت قد أحيلت إلينا من المكتب الصحفي، وكانت قد تركت انطباعاً بأنها ذات روح متحررة حتى قبل قيامها بتصوير الحفل الذي كافأ فيه رامسفيلد مجلس نافاجو القبلي بمنحة. جاءت مرتدية زياً هندياً أحمر [خاصاً بسكان أمريكا الأصليين] من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، موروثاً مباشرة عن أفلام هوليود في الثلاثينيات، بما في ذلك ثوباً مكشكشاً مزيناً بالخرز وشعراً مكللاً بالريش.

وها هي ذي الآن، بلا صدرية في الحوض العاكس. في تلك الأيام كان ثمة مهووسو تحرر في كل مكان، وحتى في جهاز بيروقراطي مثل مكتب الفرص الاقتصادية على ما يبدو.

في أيلول/سبتمبر من عام 1970 توفي رئيس جمهورية مصر جمال عبد الناصر نتيجة أزمة قلبية فيما كان يستضيف إحدى قمم الجامعة العربية. عيّن الرئيس نيكسون وفداً رسمياً لحضور جنازته، ضم كلاً من رامسفيلد، ووزير الصحة والتعليم والشؤون الاجتماعية إليوت ريتشاردسون، والدبلوماسي المخضرم روبرت مورفي، والمحامي والمصرفي المميز جون ماكلوي.

اتصل رامسفيلد بي وسألني عما إذا كنت راغباً في مرافقته كعضو في

جهازه. كان سيتعين علي أن أحزم حقيبة وأنطلق إلى قاعدة آندروز الجوية، وذلك أمر يسهل القيام به، إلا أن عدم حيازتي لجواز سفر أحدث نوعاً من الارتباك. تمثل الحل بالحصول على رسالة على ورقة رسمية صادرة عن وزارة الخارجية موقعة من قبل مدير الشؤون المصرية في الوزارة. كانت الوثيقة المؤرخة في الثلاثين من أيلول/سبتمبر، 1970، تشهد بأنني موظف لدى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وقد ولدت في لنكولن النبراسكية. كانت الرسالة تقول أيضاً إنه "حامل لبطاقة موظف في مكتب الفرص الاقتصادية برقم 6427، عليها صورة فوتوغرافية". طويتُ الرسالة بعناية ودسستها في جيب معطفي وأنا غير مطمئن إلى مدى جدواها عند الاختبار الفعلي، ولكنْ أكثر من مستعد للمخاطرة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أخرج فيها من الولايات المتحدة. كان النزول من طائرة على خاصرتها عبارة "الولايات المتحدة الأمريكية" في مطار القاهرة والانتقال بالسيارة إلى قلب الشوارع المزدحمة لهذه المدينة القديمة مختلفين عن أي تجربة سبق لي أن عشتُها. كانت القاهرة، وهي شديدة الازدحام في الأيام العادية، تفيض بأعداد غفيرة تفوق حدود التصور من المعزِّين الحزانى الذين جاؤوا من سائر أرجاء البلاد للمشاركة في الجنازة. نزلنا في جناح في الطبقة العليا من فندق شبرد على النيل، وبعد مغادرة رؤسائنا للمشاركة بالطقوس الرسمية، اجتمعنا نحن أعضاء المرافقة على الشرفة. ثمة حوامة في الجو نقلت جثمان عبد الناصر إلى مقر مجلس قيادة الثورة في الجزيرة الواقعة وسط النهر. لدى مرور الحوامة حدثت موجة من الضجيج هي عبارة عن جدار من النحب المتصاعد من حشد لم يسبق لي أن سمعت مثله من قبل. ومع وضع الجثمان على عربة المدفع وشروع الموكب الجنائزي في عبور جسر قصر النيل، فَقَدَت الشرطة سيطرتها على الحشد النادب. راقبنا أناساً يقفزون نحو التابوت، ويجثون حُزْناً. لاحقاً علمنا أن عدداً من الأشخاص قُتلوا.

علمتُ أيضاً، فيما بعد، أن رامسفيلد كان قد نزل إلى حيث الحشد. وسار غير مبال بالتحذيرات الرسمية خلف تابوت عبد الناصر عبر الجسر. لم يتمكن من العودة شاقاً طريقه إلى شبرد إلا بصعوبة بالغة، وفي الليلة التالية انتقل فريقنا إلى فندق ميناهاوس. بادرنا، رامسفيلد وإليوت ريتشاردسون وأنا، إلى

استئجار ثلاثة جمال وانطلقنا ممتطين إياها ونحن في بدلاتنا الرسمية الغامقة نحو الأهرامات.

لم تكن رحلة العودة الجوية أقل جدارة بالتذكر من تلك الأيام القليلة في مصر. توفرت لي فرصة قضاء عدد غير قليل من الساعات مستمعاً إلى روبرت مورفي وجون ماكلوي وهما يجودان بالكلام ويتذكران، وقد تأكد لي أنني كنت أسمع تاريخاً. كان مورفي سفيراً في عدد من المواقع الرئيسية الهامة، وكان على معرفة جيدة بعبد الناصر. كانت ذكرياته، ورؤاه، وآراؤه حول مدى تأثير هذه الوفاة في جملة العلاقات الأمريكية عبر الشرق الأوسط مدهشة. أما ماكلوي، الذي كان معاون وزير حرب خلال الحرب العالمية الثانية، فكان قد ساهم في صوغ عالم ما بعد الحرب بوصفه رئيساً للبنك الدولي ومفوضاً أمريكياً سامياً في ألمانيا. كان أحد "الحكماء"، بضعة من المستشارين المشهورين الذين درج رؤساء الجمهورية من ترومان إلى نيكسون على التماس مشورتهم ونصائحهم.

فيما بينهما كانا متوفِّرَيْن على نحو مئة عام من التاريخ والخبرة الدبلوماسيين والعسكريين. قَدَّم مورفي وصفاً لوجوده في الغرفة حين اتصل الجنرال عمر برادلي طالباً طرد الجنرال جورج باتون وإعفاءه من قيادة الجيش الثالث. تحدث ماكلوي عن الوقت الذي أمضاه في وحدات الفرسان خلال الأيام التي سبقت الحرب العالمية الأولى. بدا الإصغاء إليهما كما لو كان كتاب التاريخ الذي تعكف على قراءته قد بات حياً وراح يروي لك قصته.

في كانون الأول/ديسمبر 1970، سلّم رامسفيلد زمام الأمر لفرانك كارلوتشي وترك مكتب الفرص الاقتصادية. وخلال أشهره التسعة عشر في المكتب، كان رامسفيلد قد فرض جملة معايير إدارية وموازين فكرية، واضعاً حداً لبرامج كانت فاشلة ومشجِّعاً أخرى بدت واعدة من منطلق احتمال تمكينها من الانطلاق في آخر المطاف. أبقى المكتب على قيد الحياة ونجح في إعادة تفويضه، مع دأبه القوي، هو والفريق الذي حوله، على تنفيذ أمر الرئيس المتمثل بـ "طرح أسئلة جديدة والاهتداء إلى أجوبة جديدة". أحد الآراء التي حاول المكتب غرسها تمثل بمنح مدرسية من شأنها إدخال عنصر المنافسة في التعليم. كانت المعارضة

الشرسة من جانب اتحادات المعلمين ولو لمجرد اختبار مثل هذا البرنامج ذات مغزى. غالباً ما يكون أصحاب المصالح المتجذرة ميالين إلى تفضيل بقاء الأمور على حالها، تفضيل الأمر الواقع. قد يتمكن المرء من الاهتداء إلى أفكار جيدة غير أنه لا يكون، بالضرورة، قادراً على وضعها موضع التطبيق.

في مكتب الفرص الاقتصادية أدركت أيضاً العواقب غير المقصودة لعملية تدخل الحكومة في السوق. مثلاً، أتذكر اقتراحاً من مكتب الفرص الاقتصادية تضمن وعداً بمساعدة عمال مهاجرين بنقلهم من فلوريدا إلى ساوث كارولاينا وتعليمهم استنبات الأزالية الصحراوية. بدت الفكرة عظيمة إلى أن بادر أحدهم بطرح سؤال: كم عدد زراع الأزاليّة الذين تستطيع ولاية ساوث كارولاينا إعالتهم واقعياً. جاء الجواب متمثلاً بأن عجلة السوق دائرة بكفاءة وبكامل طاقتها. كان من شأن الخطة المقترحة أن تجهز على كل صناعة الأزالية في الولاية.

حققنا قدراً أكبر من النجاح في برنامج بآلاسكا تولينا، رامسفيلد وأنا، مهمة تفتيشه. طرنا على متن طائرة أجرة ذات محركين، آيرو كوماندر، إلى قرية تانانا، قرب نهر يوكون، حيث كان لدى سكان آلاسكا الأصليين كمية وافرة من سمك السلمون ولكن بلا أسواق. بفضل منحة من مكتب الفرص الاقتصادية بات صيادو تانانا وجملة من القرى الأخرى قادرين على الاستفادة من الطلب المتزايد على السلمون في اليابان عبر إيصال صيدهم إلى سفينة مصنع حيث يتم تجميد السمك بسرعة وشحنه بعد ذلك.

مع إقلاع طائرتنا ذات المحركين من مدرج تانانا الرملي سمعنا صوت دوي مرتفع ثم وجدنا أن محرك الجناح الأيسر لم يعد موجوداً. لم يرغب طيارنا، وهو شاب في العشرينيات محاولة الطيران إلى موقع نوم (Nome) حيث كان من المفترض أن نمضي الليل، غير أنه كان واثقاً من قدرتنا على الوصول إلى كوتزبو، فوق الدائرة القطبية. كنت قد سمعت عدداً غير قليل من الرحلات الجوية الخائبة والوعرة، إلا أن طيراناً بمحرك واحد في ذلك اليوم مسافة أميال فوق البراري الآلاسكية الموحشة ما زال بارزاً في ذاكرتي.

بعد أن ترك رامسفيلد مكتب الفرص الاقتصادية، أمضينا النهار كله في البيت

الأبيض حيث كان منهمكاً في تقديم المشورة بشأن السياسة الداخلية وإصلاح بعض المشكلات في مشروعات محددة. كانت حياتي منتظمة أكثر بعض الشيء، إلا أنني ظللت أتأخر عن وجبات العشاء أكثر الليالي، بما فيها سهرة الاحتفال بعيد ميلادي الثلاثين التي كانتْ لين قد أَعَدَّتْها. ومع أن مكتب الفرص الاقتصادية صار من الماضي، فإن أزمة هناك بتاريخ الثلاثين من كانون الثاني/يناير 1971، حول برنامج الخدمات الحقوقية في كاليفورنيا، شغلتني من جديد وأدت إلى تأخير أكثر الضيوف الذين كانت لين قد دعتهم. فأولئك الذين كان يفترض أن يصلوا في السابعة مساءً بدؤوا يدلفون نحو العاشرة والنصف. ردت لين على التأخر الجماعي بالتصريح علناً بأن أيامها مضيفة في واشنطن انتهت دون لبس. يا له من تصريح استثار كثيراً من الضحك والقهقهة لأن لين لم تكن، كما كان أصدقاؤنا يعرفون جيداً، تضع الاستضافة والاستقبالات في مرتبة عالية من سلم أولوياتها.

كانت لين موشكة على إنجاز رسالتها، وهو إنجاز عَكَس قُدْرَتَها الفائقة على الاجتهاد والتركيز. كانت أسرتنا قد كبرت. وُلدت ماري كلير يوم 14 آذار/مارس 1969، وكانت، مثل أختها، حسنة الطبع، جميلة، وذكية. غير أننا الآن كنا مع طفلتين صغيرتين وكنتُ أعمل ساعات طويلة. خصوصاً خلال هذه السنوات الأولى كنت أعمل من منطلق أنك تضطلع بمسؤولياتك على نحو أفضل وتحقق طاقتك كلما زدت من الوقت الذي تكرسه. لم أكن قد اكتشفت أهمية قياس السرعة والتسليم بحقيقة أن ما هو أقل يؤدي أحياناً إلى إنتاج ما هو أكثر.

لم يكن هذا الغياب الطويل من جانبي مثالياً، غير أنني لدى قيامنا، لين وأنا، بمناقشة آرائنا، وجدنا أن لدينا كلينا موقفاً قائماً على: "ومن يستطيع أن يستغني عن شيء كهذا؟" كنت أعيش أياماً بالغة الروعة، وكنت أفعل ما أستطيعه لإقحام لين في التجربة. في ليالي كثيرة لدى عودتي متأخراً، كنا نسهر ساعات وأنا أروي لها قصص الأحداث التي جرت في النهار.

كذلكَ كنت أحاول أن أُبْقي أيام الآحاد فارغة. صحيح أنني لم أكن أنجح دائماً، إلا أنني حين كنت أفعل كنت أحرص على منح لين إجازة عن طريق قضاء الوقت مع ابنتينا. كنت أصطحبهما في رحلات تدوم النهار كله، ذاهباً

تكراراً إلى ميادين قتال الحرب الأهلية، مع مرة أو اثنتين إلى مشاهد إعادة التمثيل. كنا نعيش في بقعة غنية تاريخياً، وقد ذهبنا إلى كل من آنتيتام، ومانساس، وغيتسبورغ، وتشانسلورزفيل، وفريدريكسبورغ، وهاربرز فري. بعد زيارتنا لهذا المكان وبقائنا فيه لبعض الوقت، بدأت ليز وماري استقبال أيام الآحاد بهمهمات شاكية: "بابا، هل سيتعين علينا زيارة ساحة قتال أخرى؟" غير أن الدرس كان مفيداً، وقد فعل فعله. فكلتاهما اليوم رائدتان نشيطتان في مادة التاريخ، بل وباتتا مشهورتين بحرصهما على اصطحاب أولادهما إلى مواقع معارك الحرب الأهلية.

بعد ولادة ماري صارت شقتنا في أنانديل ضيقة علينا فاستأجرنا بيتاً ريفياً قريباً في بلدة فولزتشيرتش. ذات ليلة، عند عودتي متأخراً من إحدى السفرات، تعثرت بشيء على أرض الصالون. كان ذلك جرواً حصلت عليه لين في غيابي، كان ذا بوز طويل من نوع كلاب صيد الباسيت، أطلقت عليه اسم سيرانو.

منذ ذلك اللقاء، حين أيقظته بدوسي عليه، أصبحنا، سيرانو وأنا، صديقين حميمين. ومع أننا كنا قد امتلكنا عدداً غير قليل من الكلاب العظيمة منذ ذلك التاريخ، ورغم قيام كلبينا اللابرادوريين جاكسون ونلسن بمرافقتي وأنا أكتب هذا، فإن التفاهم بين سيرانو وبيني كان استثنائياً على ما أرى. كنت أصطحبه مع البنتين في رحلاتنا إلى مواقع الحرب الأهلية. كان سيرانو يمد رأسه من شباك السيارة وأذناه ترفرفان في الهواء، وعند وصولنا إلى المكان، كان هو، خلافاً للآخرين، يقفز بحماسة وفرح من الفولكسفاغن، لانطلاقه في أرجاء الريف.

مع بقاء ما يقل عن عامين لانتخابات 1972 الرئاسية، بدأت أشتغل قليلاً بمشروعات ذات علاقة بالحملة مع بارت بورتر الذي كان، مع جيب ماغرودر، قد انتقل من جهاز العاملين في البيت الأبيض إلى لجنة إعادة انتخاب نيكسون. كانت استراتيجية الحملة قائمة على إبقاء الرئيس فوق السجالات، مع دأب آخرين على تغطية البلاد رافعين رايته وممتدحين إياه. طلب بورتر مساعدتي في عمليات تجنيد وبرمجة هؤلاء الوكلاء الرئاسيين، الذين كانوا سيتألفون من قادة الكونغرس، وموظفي الحكومة، ورسميي الإدارة.

كنت مستمتعاً بأجواء السياسة الانتخابية، وكان العمل مع هذا العدد الكبير من الناس المختلفين مثيراً. بدت قائمة وكلائنا السياسيين أشبه بقوائم الأعلام من ذوي العبارات الثقيلة. إلا أن صفوف المشاهير كانت أقل شأناً بعض الشيء. وفيما كانت حملة ماكغفرن قائمة على بول نيومان، ووارن بيتي، وجولي كريستي، وشيرلي مادلين، وكارول كنغ، وبرباره سترايسند، وجيمس تيلور، وكوينسي جونز، كنا نحن عاكفين على جدولة نجوم ذوي مواهب هائلة ولكن أقل شهرة مثل بادي إبسن، وتشاد إيفارت، وروتا لي.

ومع تعاظم زخم العملية الانتخابية واكتسابها وتيرة أعلى، كنت قد تحدثت مع بورتر عن إمكانية انتقالي إلى جهاز الحملة. كانت الفكرة مثيرة. كانت الحملة مرشحة لأن تشكل بؤرة الحركة كلها في السنة المقبلة.

في تلك الأيام تقريباً أعلن الرئيس برنامجاً لمكافحة التضخم وسمّى رامسفيلد لقيادة مجلس كلفة المعيشة، التنظيم الذي كان سيتولى المسؤولية. وحين طلب رامسفيلد مني أن أكون معاوناً للمدير، أكد أن القرار عائد لي، وأنه على استعداد لتفهم اختياري العمل مع الحملة.

أحياناً أفكر بالفرق الذي كان من شأنه أن يحصل في الأمور لو لم أذهب معه إلى مجلس كلفة المعيشة. على الرغم من أن لجنة إعادة انتخاب الرئيس نجحت في جمع مبالغ غير مسبوقة من التبرعات وحققت فوزاً كاسحاً، فإن اللجنة كانت بؤرة مرتبكة ومربكة. ما لبث أن تبين أن تلك الأموال كلها كانت سبب عدد كبير من الشرور، وانتهى كل من بورتر وماغرودر إلى السجن. لا شيء من هذا شكل مساساً بالنسبة لعمليات التوكيل والبرمجة، إلا أن أي ارتباط بلجنة إعادة انتخاب الرئيس كان من شأنه أن يتحول، في غضون سنوات قليلة، إلى نقطة سوداء في سِجِلّ أي شخص.

لم تكن إعادة انتخاب نيكسون مؤكدة على الإطلاق. كان يبدو بقوة أن من شأن الحرب في فيتنام – تلك التي كان قد قال في أثناء حملته عام 1968 إنه يعرف كيف ينهيها – أن تكون قضية مرة أخرى في 1972. وفي هذه الأثناء كانت الفواتير الباهظة لتصميم ليندون جونسون على خوض الحرب في فيتنام

وتمويل مجتمعه العظيم داخلياً قد باتت مستحقة. معدل التضخم الذي كان قد بقي متأرجحاً دون إزعاج حول 1.5 بالمئة في بداية الستينيات كان قد قفز إلى 5 بالمئة. أما معدلات البطالة فكانت قد تضاعفت تقريباً واصلة إلى 6 بالمئة.

كانت الأكثرية الديمقراطية في الكونغرس تلح على الرئيس مطالبة إياه باستخدام الصلاحيات التي كانت قد وفرتها له حين أقرت قانون الاستقرار الاقتصادي، وهو تشريع كان يمكّنه من الإمساك بزمام الاقتصاد عبر فرض القيود على الأجور، والأسعار، والرواتب، والريوع. صوّت الديمقراطيون لصالح هذه الصلاحيات غير العادية واثقين من أن أي رئيس جمهوري، ولو أقل حماسة لمبدأ حرية السوق ممن يُعرف باسم ريتشارد نيكسون، لن يكون قادراً على توظيفها على الإطلاق، وفي هذه الأثناء يكونون هم قادرين على انتقاد عزوفه عن التحرك. غير أن نيكسون اشترى بضاعتهم، وفي ليلة الأحد في 15 آب/أغسطس 1971، أعلن تجميد جميع الأجور والأسعار لمدة تسعين يوماً. جرى استحداث مجلس كلفة المعيشة للإشراف على التجميد وصولاً إلى نوع من العودة المنتظمة إلى حرية السوق مع انقضاء الأيام التسعين.

لم يكن التجميد معقداً. تعيّن على الجميع ألا يرفعوا الأجور أو الأسعار. أما عملية المتابعة، التي عُرفت باسم المرحلة الثانية فكان من شأنها أن تنطوي على جملة من القواعد المغطية لسائر الأمور، بدءاً بزيادات مسموحة في عقود اتحادية وانتهاء بأسعار مخلّلات اللفت، خلال الفترة الممتدة إلى حين سيادة قوى السوق من جديد. الموعد النهائي للانتقال من الجمود إلى المرحلة الثانية حل سريعاً، والكيانان اللذان كانا مطالبان بوضع الضوابط: مجلس الأجور ولجنة الأسعار، غرقا في بحر من السجال والتردد. وحين بدا الطرفان موشكين على التخلف عن موعد نشر الضوابط في "الفدرال رجستر"، قرر رامسفيلد أن يمسك بزمام الأمور. قام بجمع جاك غاريسون رئيس لجنة الأسعار، مع ما يزيد على عشرة من جهاز العاملين في مجلسنا، مجلس كلفة المعيشة، وقال إن الاجتماع لن ينفض إلى أن تكون الضوابط قد أصبحت جاهزة للطبع. اجتمعنا في مكتب رامسفيلد الخارجي، وفيما كان آخرون يتمشون ويُملون، كنت جالساً إلى طاولة السكرتيرة أنسخ كل شيء على آلة الآي بي إم السلكترية الكاتبة. في

التاسعة من صباح اليوم التالي، حين وصلت السكرتيرات وأفرغن منافض السجائر وجدَّدْنَ القهوة، كنا قد كتبنا الضوابط التي كانت ستحكم جزءاً رئيسياً من اقتصاد الولايات المتحدة. إن مستوى التفصيل الذي بلغناه خلال السهرة التي دامت حتى الصباح كان مثيراً حقاً. ميزنا التفاح عن عصير التفاح؛ الذرة المشوية عن غير المشوية؛ الملفوف الطازج عن المفروم المعلب؛ البرتقال الطازج عن الحمضيات الملمعة القشور؛ نباتات الحدائق عن الأزهار المقطوعة وباقات الورود. وضعنا ضوابط لمنتوجات البحر "بما فيها المقوقعة، والمبشورة، والمجمدة، والمسلوخة، والمدرَّجة، والمفرغة من الأحشاء، أو المقطوعة الرؤوس". قمنا بتغطية منتجات موصى عليها من قبل الأفراد، بما فيها السلع الجلدية، وملابس الفرو، والمجوهرات، والشعور المستعارة مع الخصلات[2].

كان ضبط أسعار الطاقة أحد أعقد وأصعب المهمات التي تصدى لها مجلس كلفة المعيشة. في أحد المنعطفات، حين كنا في مواجهة موعد نهائي لتحديد أسعار الزيوت في الأسبوع التالي، اكتشفنا أنه لم يكن لدينا أي صاحب خبرة في ذلك المجال. ثم بادر أحدهم إلى الإفادة بأن تشاتشي أونز من تكساس خبير بذلك، وبأن تكساس غنية بالزيوت والنفط، فاتصلنا بتشاتشي وطلبنا منه الحضور. في ذلك الوقت كان يعمل لدى مكتب الشؤون العامة. إذا كان مجلس كلفة المعيشة مستعداً للسماح لسعر الخبز بالارتفاع سَنْتَيْن اثنين في الأسبوع التالي، فإن تشاتشي أونز كان هو الشخص الذي سيبشركم بذلك.

إضافة إلى صوته الرنان، كانت شهرته قائمة على كونه قد لعب ظهيراً خلفياً لداريل رويال بجامعة تكساس. اكتشفنا أنه شاب لامع ونكي جداً. لم يبدِ تشاتشي أي قدر من التردد، إما لثقته التكساسية بالذات أو نتيجة التدريب الذي حصل عليه، بل جلس وراح يكتب قائمة الضوابط النفطية التي كنا بحاجة إليها.

بوصفي معاون مدير للعمليات، كنت أشرف على نحو ثلاثة آلاف عميل لمصلحة تحصيل الضرائب مكلفين بفرض ضوابط على الأجور والأسعار. في إحدى المحطات أوفدت فريقاً لزيارة سلاسل محلات أطعمة رئيسية مثل سيف واي وجايانت، والإفادة عن مدى الالتزام بضوابطنا. كتب العملاء قائلين إن من

شأن أي واحد من جملة أسعار مختلفة أن يتمخض، تبعاً لأسلوب تطبيق أحد الضوابط، من سعر على درجة من الارتفاع كافية لتمكين السلسلة من تحقيق أرباح لافتة، إلى سعر على درجة كافية من الانخفاض لتكبيدها خسائر فادحة. ما كانت السلاسل ستختاره كان واضحاً بجلاء - ومن يستطيع أن يلومها؟ كانت تتعامل عقلانياً مع قواعد تعسفية كنا نحاول فرضها.

بوصفي موظفاً صغيراً في البيت الأبيض، لم أكن أرى الرئيس كثيراً، إلا أنني كنت، بين الحين والآخر، أحضر اجتماعات تتم برئاسته، متمكناً عادة من تمرير جداول وبيانات في أثناء قيام رامسفيلد بتقديم مداخلته. وذات يوم في غرفة مجلس الوزراء، كنت جالساً على أحد الكراسي الملاصقة للجدار فيما كان مستشارو الرئيس الاقتصاديون يتحاورون حول إعادة فرض التجميد على أسعار الغذاء. بعد ترك النقاش يتواصل لبعض الوقت، بادر نيكسون إلى الكلام. استحضر حديثاً كان قد أجراه مع نيكيتا خروتشوف في منتجع الزعيم السوفييتي عام 1959. بعد وجبة غداء طويلة، أصبح خروتشوف صريحاً بعيداً عن التحفظ. قال الرجل إن على المرء أحياناً أن يكون سياسياً كي يكون رجل دولة. إذا كان الجمهور يرى نهراً خيالياً أمامه، فإن السياسي لا يقول له: ليس ثمة أي نهر. يقوم السياسي، بدلاً من ذلك، ببناء جسر خيالي فوق النهر الخيالي. لم يرو نيكسون القصة إلا للإيحاء بمغزى له، وقد فهمتُ منه أنه كان يعني: إذا كان الجمهور يرى أسعار الغذاء مشكلة، فإن على السياسي أن يقدم حلاً، إذا أراد أن يحافظ على قابليته لاتخاذ قرارات تليق برجل الدولة في يوم آخر.

بعد سماعي للقصة الخروتشوفية من فم الرئيس نيكسون بعام واحد، أقدم الأخير على فرض تجميد آخر للأسعار، أملاً، على ما يبدو، في تحقيق قدر من الكسب السياسي في زحمة ووترغيت. إلا أن ذلك لم يحصل. بين أشياء أخرى أدى التجميد إلى جعل تربية الحيوانات للسوق عملية غير مربحة. ثمة مدجنة تكساسية قامت بإغراق ثلاثة وأربعين ألف صوص. وجرى ذبح أعداد كبيرة من الخنازير والأبقار، فسارع الرئيس إلى إعلان إلغاء مبكر لمحاولته الرامية إلى تجميد الأسعار في 1973[3].

كنت قد أصبحت متوجساً من تحكُّم الحكومة بالاقتصاد. في بداية عملي

في مجلس كلفة المعيشة، حين كنت منغمساً في تسيير الأمور، لم يكن قد توفر لي ما يكفي من الوقت للتفكير بالأمر، أما الآن فقد أدركت أن ملايين الناس يتخذون يومياً ملايين القرارات الاقتصادية، بصرف النظر عن مدى نكائنا وعن أعداد الضوابط التي ندبجها. ليس ثمة أي أسلوب للتدخل دون التسبب بالأذى أكثر من الإفادة.

هذه الأفكار أكدت شكوكي العميقة المتأصلة بشأن ما تستطيع الحكومة وما لا تستطيع فعله. نحن قادرون على كتابة الشيكات، وعلى جباية الضرائب والرسوم. نحن قادرون على إدارة مجمل الجوانب العسكرية والدفاعية للأمور. أما عندما تحاول هيئة ضخمة عديمة الرشاقة مثل الحكومة الفدرالية إدارة أمر بالغ التعقيد والحركية الديناميكية مثل الاقتصاد الأمريكي، فإن النتيجة ستكون، بالتأكيد، كارثية، دخولاً بالحائط.

واصل رامسفيلد إيقاعه المألوف في مجلس كلفة المعيشة، في المجيء باكراً، والذهاب متأخراً، وحاشراً في يومه العادي ما هو أكثر مما يستطيع كثيرون تدبُّره خلال أسبوع من العمل. كان يطلق مئات الملاحظات الصغيرة، أو طلبات المعلومات أو مطالبات التحرك التي كانت كثيرة جداً حتى أطلقنا عليها اسم "ندف الثلج". كانت سكرتيرته برندا وليامز تنسخها على شكل منكرات لموافاة الوزارات أو الشخصيات ذات العلاقة بها. إلا أنها كانت تبادر، دفعاً لفرط امتلاء المكان كله، إلى جلب منكرات ندف الثلج إلي لأتمكن من وضعها في نوع من أنواع الأولوية الواقعية، استناداً إلى معرفتي بما كان رامسفيلد يريده ويحتاج إليه. كنت أقرر ما ينبغي إرساله وما يمكن تجاهله دون خوف. كانت برندا تحتفظ بهذا وذاك في مصنفين منفصلين.

ذات صباح رن خطي المباشر مع رامسفيلد. "انزل إلى هنا!" قال رامسفيلد. حين اقتحمت مكتبه، كانت برندا قد سبقتني إليه. كان رامسفيلد يحدق في كومتين كبيرتين من الورق على طاولته. استطعت أن أرى أنهما كانتا النسخ الكربونية لندف الثلج وتمكنت من تقدير سبب كونها في كومتين: تلك التي كنا قد أرسلناها وتلك التي لم نكن قد أرسلناها.

بعد لحظة صمت قال بهدوء: "أريد فقط أن تعرفا أنني أعرف ما تفعلانه". تلك كانت القصة، القصة كلها، نقطة على السطر. صُرفنا وعدنا خانعين إلى طاولتينا - وتابعنا ما كنا نفعله تماماً كما من قبل. إلا أننا كنا قد تقاسمنا ما أظنها لحظة دون رامسفيلدية كلاسيكية. بطريقة ما كان قد اكتشف ما كنا نفعله. لم يقل إننا قد أخطأنا. كما لم يأمرنا بعدم التكرار. غير أنه أراد أن نعرف أنه كان يعرف. أطلعنا على الأمر وتركنا نستخلص استنتاجاتنا الخاصة.

في 12 حزيران/يونيو 1972، تم تثبيت جورج شولتز، الذي كان مديراً لمكتب الإدارة والموازنة، وزيراً للخزانة. في يومه الأول بمكتبه الجديد، برمج الوزير شولتز لاجتماع كبار موظفي جهاز مجلس كلفة المعيشة. أغلق الباب، ثم جلس، وقال: "حسناً، حضرات السادة، الشيء الأول الذي سنفعله هو الخروج من هذه القيود".

وذلك هو ما فعلناه. ركّبْنا خطة استراتيجية للانتقال إلى المرحلة الثالثة (التي كانت ستعتمد الضبط الطوعي من جانب المؤسسات التجارية والعُمّال فيما يخص الزيادات في الأسعار والأجور، ومن ثم، أخيراً، إلى المرحلة الرابعة (التي كانت تعني العودة إلى السوق الحرة). تركنا، رامسفيلد وأنا، مجلس كلفة المعيشة قبل تطبيق هاتين الاستراتيجيتين تطبيقاً كاملاً. ثمة آخرون كانوا سيشرفون على العملية التي من خلالها انتهى التدخل الهائل في شؤون الاقتصاد الأمريكي بعد بدئه بنحو ثلاث سنوات. أو لعله انتهى تقريباً. ففي الصناعة النفطية لم تتزحزح قيود الأسعار التي فُرضت في 1971 إلى أن ألغاها الرئيس ريغان في 1981. على امتداد نحو عقد من الأعوام، ظلت قيود الأسعار المفروضة على النفط والغاز تشكل إحدى ميزات بلوغ الكفاية الوقودية التي بتنا نعترف بأنها بالغة الأهمية.

في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 1972، أعيد انتخاب ريتشارد نيكسون في أحد أكبر الانتصارات في تاريخ رئاسة الجمهورية. كنا، لين وأنا، قريبين من الحشد الذي تجمع للاحتفال بفوزه في قاعة الرقص بفندق شورهام. كان الناس منفعلين - أقله إلى أن اعتلى الرئيس خشبة المسرح. كان منكسراً، غير شبيه إطلاقاً

برجل كان لتوه قد أعيد انتخابه للرئاسة في 49 ولاية من أصل 50. كاد يبدو كما لو كان متوجساً من الفضيحة والمأساة اللتين كانتا لن تلبثا أن تلفا إدارته.

خلال الأشهر الأخيرة في البيت الأبيض وفي أثناء الحملة، كان رامسفيلد قد تزايد عزوفاً عن الرئيس وكبار العاملين في جهازه باطراد، أظن أن الشعور كان متبادلاً. كانوا يرونه طائراً يغرد وحده، في حين كان هو يراهم منفصلين عن الواقع وموشكين على السقوط. اعتذر عن قبول المناصب الداخلية التي عرضوها عليه، بما فيها زعامة الحزب الجمهوري، ووافق على تعيينه سفيراً لدى الناتو (حلف شمالي الأطلسي)، الذي كان مقر قيادته في بلجيكا.

سألني رامسفيلد عما إذا كنتُ راغباً في الذهاب معه إلى بروكسل، غير أن ذلك لم يبد مناسباً بالنسبة إلي وإلى عائلتي، وقد توفرتْ لي فرصة أخرى. مجموعة من الأصدقاء: آلان وودز، وبروس برادلي، وتوني برش، وبول ريب كانت قد أسست مؤسسة استشارية للاستثمارات في واشنطن. كان آلان يستعد للرحيل، وطُلب مني أن ألتحق بالمؤسسة شريكاً. في برادلي وودز كنا نقدم مشورة سياسية وتخطيطية للزبائن، الذين كانوا أكثر الأحيان ممثلي بنوك كبيرة، وشركات تأمين ضخمة، وصناديق مالية مشتركة. كنا نفكك رموز التشريعات ونشرح احتمالات تأثيرها في المحافظ واستراتيجيات الاستثمار. نظراً لكوني من العاملين وراء الكواليس مدة طويلة، وجدتُني مستمتعاً فعلاً بالوقوف أمام الجماعات والتحدث عما أعرفه وأفكر به وصولاً إلى الإجابة على الأسئلة.

اعتدت سريعاً على أيام عمل عادية نسبياً، والتعطيل في أواخر الأسابيع، وتجاوز، أي راتب حكومي. اشترينا، لين وأنا، بيتنا الأول، وهو بيت بثلاث غرف نوم في بيتسدا في مريلاند مع فناء مسور للطفلتين والكلب.

مثل سائر الآخرين فوجئت أولاً وصُعقت بعد ذلك مع وصول تفاصيل فضيحة ووترغيت إلى مستوى خطير من الضخامة في ربيع 1973. كنت أعرف بعض المتورطين. كنت قد حضرت اجتماعات معهم وتناولت وجبات الغداء معهم حول مائدة جهاز العاملين في مطعم البيت الأبيض.

كانت تعاملاتي المباشرة مع هالدمان وإيرلخمان على المستوى اليومي عندما كنت أعمل لدى رامسفيلد قليلة جداً. إلا أن حدثاً واحداً ربما كان مؤشراً على الموقف الذي أفضى إلى بعض المشكلات. في شباط/فبراير 1970، أخذ رامسفيلد إجازة بضعة أيام للتزلج مع عائلته في كولورادو. وحين دُعي إلى اجتماع طارئ في واشنطن، قررنا أن أستقل الطائرة العسكرية المكلفة بإحضاره، لأتمكن من اصطحاب جميع الوثائق والخلاصات الضرورية فنتمكن من العمل معاً على طريق العودة جواً إلى العاصمة. ثم تلقيت اتصالاً طُلب فيه مني أن أغادر مبكراً فيتوفر لي ما يكفي من الوقت للتعريج على إيرلخمان الذي كان يتزلج في صنّ فالي (وادي الشمس) في إيداهو وتسليمه طرداً مهماً.

إحدى سيارات البيت الأبيض البيضاء أقلتني من البيت إلى الجناح الغربي، حيث كان الطرد ينتظرني، وهو ظرف من ورق المانيلا مغلق بإحكام. تابعنا الطريق إلى قاعدة آندروز الجوية، حيث امتطيت نفاثة حكومية صغيرة. حين هبطنا في آيداهو، اندفعت إحدى السيارات بسرعة إلى المدرج . برز منها عنصرا شرطة عسكرية مسلحان وصعدا إلى الطائرة. أحدهما قدم نفسه بوصفه المراسل الذي كان سيوصل الطرد إلى إيرلخمان. سلمته الطرد وقدّرت أن مهمتي أُنجزت.

سأل الرجل: "هل تعرف طبيعة المحتويات أيها السيد؟" أجبته بالنفي. سألني عما إذا كنت موافقاً على فتحه، فقلت له أن يفعل إذا كان يرى ذلك مهماً. شق الشريط اللاصق، ورفع الغطاء، وأخرج نسخاً من أحدث أعداد "التايم"، و"النيوزويك"، و"اليو إس نيوز آند وورلد ريبورت". أخفيت امتعاضي فيما عكف الشرطيان العسكريان على إعادة المجلات بعناية إلى المغلف، قدما التحية، ونزلا من الطائرة. فقد أدار رامسفيلد عملية أخلاقية وغير مكلفة على نحو يشغل البال لدرجة أنه كان يصعب عليّ الاعتقاد بأن أحداً سيرسل طائرة حكومية ويحرفها عن طريقها مسافة ثمانمئة ميل لإيصال عدد من المجلات. لاحقاً رحت أتساءل عما إذا لم تكن هذه الحادثة قد أماطت اللثام عن بعض الغطرسة التي ما لبثت أن أفضت إلى ووترغيت.

منذ افتتاح جلسات استماع لجنة ووترغيت بمجلس الشيوخ في أيار/مايو

1973 إلى أن صَوَّتَتْ لجنةُ مجلس النواب القضائية ضد ثلاثة بنود اتهام في تموز/يوليو 1974، ظل طوفان القصص والتسريبات والاتهامات متواصلاً يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد آخر، وشهراً بعد شهر. تكشفت الفضيحة مثل رواية، تقدم بوحاً صاعقاً بعد آخر، جُلُّها على صفحات "الواشنطن بوست". في صباحات كثيرة لم نكن، لين وأنا، مستعدين لانتظار وصولها إلى بابنا، فكان أحدنا يغادر بيتنا في بيتسدا في ساعات ما قبل الفجر ويمشي إلى المنعطف القريب حيث كانت شاحنة بريد تفرغ حزماً من جريدة "البوست". كنا نستل نسخة ونترك رسالة لصبي التوزيع طالبين منه ألا يزودنا بنسخة أخرى ثم نعود إلى البيت للقراءة عن عملية فضح إدارة نيكسون. كان ذلك مشهداً حزيناً ومذهلاً، وقد راودني، وأنا أتابع تفكك خيوط القصة، شعور بالارتياح لبقائي بعيداً عن القضية بعُجَرِها وبُجَرها.

لقد اتضح لي أن قرار الخروج من الحكومة حين غادر رامسفيلد إلى بروكسل كان أحد أكثر خياراتي اتصافاً بالحكمة في الحياة. لم يكن يخطر ببالي أنني سأنجرّ بعد قليل من جديد.

شكّلت إحدى المكالمات الهاتفية الإشارة الأولى. كانت في 8 آب/أغسطس، بعد أن كنت قد تناولت طعام العشاء في بيت صديقينا بيل وجانيت ووكر الكائن شمال غرب واشنطن. كانت عائلتي في وايومنغ، ما جعل الزوجان ووكر يدعوانني، وقد شاهدنا الرئيس نيكسون وهو يعلن اعتزامه الاستقالة في اليوم التالي. لدى وصولي إلى بيتنا المهجور في بيتسدا، كان جرس الهاتف يرن. كانت المتصلة هي لي غودل، مساعدة دون، وكانت تعلمني بأن نائب الرئيس جيرالد فورد كان قد طلب منه أن يعود إلى واشنطن. سألتْني عما إذا كنت راغباً في استقباله في المطار؟

في اليوم التالي تابعتُ خطبة وداع الرئيس نيكسون على شاشة التلفزيون في مكتبي الكائن بشارع اتش (H). وتابعت الزوجين فورد يسيران معه إلى الحوامة، ورأيت حفل تنصيب جيرالد فورد. ثم توجهت نحو مطار دالاس الدولي، حيث كانت طائرة رامسفيلد ستحط بعد قليل.

الفصل الثالث

مقعد خلفي

وأنا بانتظار طائرة رامسفيلد، جاءني أحد سائقي البيت الأبيض حاملاً رسالة موجهة إلى دون. كان الرئيس الجديد يريد من رامسفيلد أن يتولى رئاسة فريقه الانتقالي. وبعد الخروج من المطار والتوجه إلى العاصمة في سيارة البيت الأبيض، أطلعني دون على الرسالة وسألني عما إذا كنت قادراً على التغيب عن عملي بضعة أسابيع لمساعدته في إنجاز المهمة. لم يكن ذلك سؤالاً يتعين علي أن أتردد بشأنه. ثمة رئيس للجمهورية كان قد استقال للتو في ظل أكثر الظروف غرابة، وآخر كان قد جرى تنصيبه، وتوفرت لي فرصة المساهمة في العملية الانتقالية.

لم أستطع، ونحن ندلف إلى مجمع البيت الأبيض عبر البوابة الجنوبية الغربية، إلا أن أتأمل مندهشاً حقيقة أنني كنت قد تركت الحكومة قبل ثمانية عشر شهراً، وها أنا ذا الآن أجدني عائداً. كنت على يقين تام بأن واقع تركي قبل تفجُّر ووترغيت كان أحد أسباب وجودي هنا الآن، وكان الشيء نفسه صحيحاً بالنسبة إلى دون. كلانا كان متمتعاً بميزة أخرى. كلانا كان متصفاً بما يكفي من الشباب والحماقة لنتوهم عدم وجود أي شيء لا نستطيع فعله.

كان مكتب شؤون الانتقال في قبو مبنى الدائرة التنفيذية القديمة، وقد أمضيت الأيام العشرة التالية هناك، عاكفاً على كتابة ومراجعة أقسام من تقرير الانتقال. كنت أدنى مرتبة من مستوى حضور الاجتماعات مع الرئيس، غير أن الأوامر التي حصلتُ عليها بالواسطة كانت واضحة غير قابلة للبس: كان علينا أن

نتمسك بالقضايا التنظيمية والداخلية. لم يكن الرئيس فورد يريد أي توصيات بإحداث تغيير في السياسة الخارجية. كان مؤمناً بجوهرية الاستمرارية في هذا المجال. وبالفعل فإنه، كان، في الليلة التي سبقت تنصيبه رئيساً، قد خرج من منزله في فيرجينيا ليعلن بقاء وزير الخارجية ومستشار الأمن القومي هنري كيسنجر في منصبه.

ربما كان أكثر قرارات الرئيس الجديد إلحاحاً منطوياً على اختيار نائبه ـ ذلك أيضاً كان من شأنه أن يبقى خارج صلاحيات اللجنة الانتقالية. كان واشنطني عريق موثوق من الجميع هو برايس هارلو عاملاً مساعداً في العملية. وهارلو هذا أعد ورقة مسطَّرة في دفتر أصفر، أورد فيها قائمة بأسماء جميع الخيارات المحتملة لنيابة الرئيس في جانب ومواصفاتهم في الجانب الآخر. أخبرني فورد فيما بعد أن خياره كان سلفاً قد انحصر بثلاثة أشخاص: نلسون روكفلر، وجورج اتش دبليو بوش، ودون رامسفيلد.

أفاد فورد بأنه كان يرى مستقبل الحزب متمثلاً ببوش ورامسفيلد، ومرشح المؤسسة بروكفلر. وقع اختياره على روكفلر لا لشيء إلا لأن الظروف الفريدة لتولي فورد المفاجئ للرئاسة كانت تستدعي وجود نائب رئيس في غنى عن تعريف العالم عليه.

مساء 19 آب/أغسطس 1974، صادف وجود دون في منزلنا ببيتسدا. كنا نستمع إلى راديو المطبخ فيما كانت التقارير الإخبارية تصف المشهد في مزرعة روكفلر النيويوركية، حيث كان المعاونون وأفراد العائلة يتجمعون. أسطول من السيدانات (سيارات صالون) كان مصطفاً، كما كانت نفاثات عائلة روكفلر مستعدة لنقل الحاشية كلها جواً إلى واشنطن. ضحك دون من الموارد المتفوقة التي كان روكفلر يضفيها على المنافسة. "هاكم نلسون روكفلر مع حمولة طائرات من الناس آتية من نيويورك، أما أنا فليس عندي سواك يا تشيني". قال رامسفيلد.

بعيد إعلان روكفلر، سارع الفريق الانتقالي إلى تقديم تقرير إلى رئيس الجمهورية. خرجنا، رامسفيلد وأنا، إلى جهتين منفصلتين، هو عاد إلى منصبه في الناتو في بروكسل وأنا إلى برادلي وودز. وهكذا فإنني فوجئت، مثل أكثرية

الأمريكيين حين أقدم الرئيس فورد يوم 8 أيلول/سبتمبر على إعلان منحه ريتشارد نيكسون "عفواً كاملاً، مجانياً، ومطلقاً". وصف تحركه بالسبيل الأفضل لـ "إغلاق وختم" قضية ووترغيت والتخفيف من معاناة ريتشارد نيكسون وعائلته.

ظلت حكمة وكرم دوافع جيرالد فورد، على مدى الأعوام الماضية، حية في الأذهان لتحليها بالجرأة ومقدَّرة تقديراً عالياً لاتصافها بالعدل. غير أن العفو بقي ملتبساً وغير شعبي. كنتُ أحد الأمريكيين الكثر الذين رأوا آنذاك أنه كان خطأ. ومع أنني كنت مستعداً لتصديق أن من شأن الأمر أن يغدو مبرراً مع الزمن، فقد كنت متأكداً من أنه كان سيكلف فورد جزءاً كبيراً جداً من تأييده على المدى القريب.

وبالفعل فإن النتيجة المباشرة تمثلت بعاصفة لاهبة من السجال والنقد. فوفقاً لاستطلاعات غالوب هوى مستوى تأييد فورد من 71 إلى 49 بالمئة. بادر جيش الإعلام إلى إعلان أن العفو إجراء يتعذر الدفاع عنه. دأب الإعلاميون على شجب الرئيس وإضفاء صفة البطولة على زميلهم السابق جيرالد تيرهورست، الذي كان فورد قد عينه للتو سكرتيراً صحفياً للبيت الأبيض. حين تم إبلاغ تيرهورست بالعفو، بادر هذا إلى الاستقالة احتجاجاً لحظة كان الرئيس موشكاً على الوقوف أمام الكاميرا. في طول البلاد وعرضها، أولئك الذين كانوا قد ارتاحوا إلى تولي فورد لمنصب الرئاسة صاروا سلبيين. على نطاق واسع، انتشرت شائعات حول حصول صفقة سرية قائمة على رفع فورد إلى منصب الرئاسة مقابل الوعد بإصدار عفو عن سلفه. والأنباء عن كل هذه الأمور كانت مصحوبة بقصص عن شجار وصراع مريرين بين جماعتي نيكسون وفورد في البيت الأبيض ـ كان بعضها صحيحاً على الأقل.

إضافة إلى تأثيره السلبي في مستوى تأييد الرئيس بالذات، من الواضح أن العفو ألحق بنا الضرر في انتخابات 1974، التي كانت بعد أقل من شهرين عقب صدور العفو. معلقون كثر يعتقدون أنه أدى إلى خسارة فورد لفرصة إعادة الانتخاب. وما لبث تأثير العفو أن تكثف جراء كونه مفاجئاً تماماً للجميع. أعلنه فورد صباح يوم أحد حين لم يكن متابعو التلفزيون كثيرين، لذا فإن قلة من

الأمريكيين سمعت تفسيره على نحو مباشر. يضاف إلى ذلك أن الإعلان تم دون أي إبلاغ للكونغرس أو مناقشة في الصحافة. بقيتُ على الدوام مقتنعاً بأن التأثير السلبي كان قابلاً للتخفيف لو جرى إعمال التفكير أكثر بالطريقة التي اعتُمدت في إعلان العفو.

ومع أنني كنت، للأسف، على صواب في تقويمي للتأثير السياسي السلبي، فقد كنت مخطئاً بشأن حكمة العفو بالذات. من الواضح أنه كان القرار الصحيح، وكنت، طوال السنوات القليلة اللاحقة في البيت الأبيض، شاعراً بالسعادة لأن قضية ووترغيت صارت وراءنا بدلاً من أن تبقى سيفاً مسلطاً فوق رؤوسنا مع رئيس سابق مواجهٍ للمحاكمة.

بعد أسبوع أو نحوه من العفو، كنت في رحلة عمل بفلوريدا حين تلقيت مكالمة من رامسفيلد. مرة أخرى، كان رئيس الجمهورية قد طلب منه أن يعود من أوروبا، ومن جديد أراد رامسفيلد أن يجتمع معي قبل الذهاب إلى البيت الأبيض. ليل السبت الواقع في 21 أيلول/سبتمبر، اجتمعنا في غرفته بماريوت الكي بريج، عبر نهر البوتوماك من جورجتاون، وعبّر عن اعتقاده بأن الرئيس فورد كان سيطلب منه تولي رئاسة جهاز العاملين في البيت الأبيض. وإذا قبل بتولي المنصب - مع التشديد على "إذا"، نظراً للفوضى الجدية المتمادية في جادة بنسلفانيا 1600 - فإنه أراد أن يعرف ما إذا كنت سأوافق على الانخراط في العمل معه. قلت سأفعل. وحين اتصل صباح اليوم التالي كان قد قبل بالمهمة وطلب مني أن أكون نائبه.

بعد أسبوع واحد، يوم الأحد الواقع في 29 أيلول/سبتمبر، قابلت الرئيس فورد للمرة الأولى. كان لرامسفيلد اجتماع في البيت الأبيض، وذهبت معه لمعاينة مكتب (شقة) رئيس جهاز العاملين في الجناح الغربي، الذي كان قيد الإعداد للاستقبال. أذكر أنني أُصبت بقدر استثنائي من الانبهار أمام الطاولة التي كان رئيس جهاز العاملين لدى نيكسون، بوب هالدمان، قد صممها خصيصاً لتلبية حاجاته. كانت الطاولة بالغة الضخامة، مغطية جداراً كاملاً، وكانت تُحفة إلكترونية مشتملة على قابلية تسجيل الأحاديث الجارية في المكتب. كانت أجهزة الهاتف جميعها مجهزة بأزرار "قطع" كانت تتيح لأي

وزير أو مساعد فرصة رفع سماعة خط فرعي والاستماع دون أن يسمع الطرف الخارجي أي طقطقات.

حين عاد دون من اجتماعه في المكتب البيضوي، جاء مصطحباً رئيس الجمهورية معه. كان فورد بالغ السعادة والانشراح، الأمر الذي تطلب بعض الجهد حسب علمي لأنه كان واضح الانشغال بوضع زوجته، بتّي، التي كانت قد أجرت عملية جراحية لاستئصال سرطان الثدي قبل يوم واحد. ما أتذكره أكثر من أي شيء آخر عن ذلك اللقاء الأول تمثّل بمدى سرعة قبول جيري فورد لي. كنت في الثالثة والثلاثين من العمر، خريج دراسات عليا منذ ست سنوات فقط، مع سجل ليس من شأنه أن يرقى بالضرورة إلى أقصى ما يراكمه أي شخص. كل ما كنت متوفراً عليه من ذخر هو رأي دون رامسفيلد الإيجابي. فجأة صرت حائزاً على ثقة رئيس جمهورية الولايات المتحدة. شعرتُ بأنني محظوظ جداً وممتنّ للرجلين كليهما، ولم يتغير الشعور قط.

عندما بدأنا العمل، دون وأنا، صباح يوم الاثنين، تبين أن المهمة الماثلة أمامنا كانت بالغة الضخامة. قررنا بداية ألا نغرق في أي مشروعات كانت سلفاً قيد الإنجاز أو في أي حروب مصلحية أو مشكلات شخصية يمكن أن تكتسب أبعاداً خطرة وحساسة في الجناح الغربي. تمثلت مهمتنا بالتركيز على إرساء الأساس السليم لجهود مقبلة عبر إعادة تنظيم البيت الأبيض وملء الشواغر في جهاز العاملين. كان واضحاً أن عدداً غير قليل ممن بقوا بعد نيكسون تعين عليهم أن يرحلوا كي نتمكن من إضفاء وجه جديد على الإدارة الجديدة.

كان جيري فورد شديد الاختلاف عن ريتشارد نيكسون - كي لا نقول أكثر - وكان مهماً أن تقوم الإدارة بإظهار صورة الرجل الذي تخدمه. في الوقت نفسه كان مهماً ألا يكون المرء مشوشاً، أو ظالماً، أو انتقامياً. كان نيكسون قد اجتنب عدداً كبيراً من الرجال والنساء البارعين والاستثنائيين، ومن شأن جعلهم يدفعون الثمن أن يكون ظلماً لهم وإجحافاً بحق الوطن. أحدهم: بات بوكانان كاتب الخطب وخبير التواصل، اختار الرحيل، وكنا آسفين لخسارتنا إياه. آخرون مثل رد كافاني، وجيري جونز، وتيري أودونيل وافقوا على البقاء في مناصب حساسة. كانت المسألة مسألة اتخاذ قرارات نسبة إلى الأفراد والميزات. آخر

المطاف، كان من شأننا، دون وأنا، أن نكون من أوائل الراحلين، إذا كان المطلوب إنهاء عمل كل من سبق له أن عمل مع نيكسون آلياً.

كنا نعرف أن عدداً كبيراً من الناس الجدد الآتين مع فورد كانوا قليلي الخبرة أو عديميها في الفرع التنفيذي، ولم نكن نرى فكرة التدرب في أثناء العمل في البيت الأبيض فكرة وجيهة. تمثل أحد الاستثناءات اللامعة بجاك مارش الذي كان فورد قد سماه مستشاراً للرئيس بمرتبة وزير. كان جاك قد شغل مقعداً في الكونغرس مدة ثمانية أعوام ممثلاً ديمقراطياً لفرجينيا. كان نيكسون قد عينه معاوناً لوزير الدفاع للشؤون التشريعية، وحين سُمي فورد نائباً للرئيس، اصطحب جاك معه بوصفه مستشاره للأمن القومي. في رئاسة فورد، كان جاك سيضطلع بعدد من المهمات الصعبة وسيتعامل معها بمهارة. كان ركن قوة بالنسبة إلى الرئيس - وبالنسبة إليّ.

غير أن الجدد كانوا، بأكثريتهم، أغراراً. ومن شأن أن يكون المرء غراً في واشنطن أن يثير مشكلات؛ كما كنت قد اكتشفت حين توهمت أنني كنت قد حللت مشكلة منحة مجلس الفرص الاقتصادية الالاسكية عن طريق احتجاز الأوراق في درج طاولتي. وعلى سبيل المثال فإن الآلية التي كانت معتمدة لتداول المواد والمذكرات طلباً للتعليق والمراجعة قبل الإرسال إلى رئيس الجمهورية كانت لا تزال كلياً بأيدي موظفي نيكسون الباقين. أما موظفو فورد الجدد، وكثير منهم كانوا لا يزالون معزولين عبر الشارع عن البيت الأبيض في مبنى الدائرة التنفيذية القديمة، فلم يكونوا حتى يدركون أنهم كانوا خارج الدارة المعلوماتية.

كانت إحدى العقبات الواقفة في طريق جلب النظام إلى البيت الأبيض في الأشهر الأولى متمثلة بصيغة الرئيس فورد المفضلة لتنظيم البيت الأبيض، صيغة أطلق عليها اسم "برامق الدولاب"، وهي صيغة قائمة على الطريقة التي كان قد ركبها في أجهزته البرلمانية والهيئاتية. تمثلت الفكرة باعتماد ثمانية أو تسعة مستشارين يتولى كل منهم تقديم تقاريره إليه، دون أن يكون لأي منهم سلطة على الآخرين. كان ذلك أسلوباً أكاديمياً في العمل، كان قد وفر له خدمات جيدة لمدة خمس وعشرين سنة على الهيل [الكونغرس] ممثلاً لميتشيغان، وافترض أن من شأنه أن يكون ناجحاً في البيت الأبيض. كان ثمة أيضاً اعتقاد سائد بأن

قضية ووترغيت كانت قد نجمت جزئياً عن هيمنة بوب هالدمان على جهاز العاملين، وكان فورد يرى صيغة "برامق الدولاب" قطيعة سليمة مع الماضي. كانت المشكلة تكمن في أن الصيغة أثبتت إخفاقها بسرعة. دامت لبعض الوقت، ولكن الرئيس سلّم أخيراً بحاجته إلى شخص فوق الجهاز قادر على فرض مرجعية حقيقية، وهو استنتاج صادق عليه جميع خلفائه.

في الأيام الأخيرة من إدارة فورد، كان بين الهدايا التي قدمها الجهاز لي دولاب دراجة هوائية كُسرت جميع برامقها باستثناء واحد عليه لوحة: "صيغة 'برامق الدولاب'، صيغة إدارة نادرة البراعة كما اجترحها جيرالد فورد وعدّلها ديك تشيني". وحين حلّت جماعة كارتر محلّنا، قدّمت الهدية إلى خليفتي: هاملتون جوردان.

كان مكتبي في البيت الأبيض جُحْراً ضيقاً خارج دائرة دون، لا يلفت أنظار الزوار، إلا أنه لم يكن لديّ الوقت اللازم للاهتمام بالأمر. كان دون المدير الأكثر قساوة وصلابة الذي سبق لي أن عملت معه ـ أو كنت سأعمل معه. كان يطلب مستوى رفيعاً من الأداء، ولم تكن المكافأة عند النجاح إلا المزيد من العمل. كان يتوقع الولاء، غير أنه كان يدرك أيضاً أن الأمر شارع ذو اتجاهين. كان المرء يستطيع أن يعوّل على كلامه. عند قبولي بالمنصب نائباً له، كان دون أكد لي أنه كان سيفعل كل ما يستطيع لإعطائي دوراً فعلياً، لضمان وصولي المنتظم إلى الرئيس، ولتقاسم أكبر قدر ممكن من مسؤولياته الخاصة. ذلك بالضبط هو ما حصل. من البداية كنت أتردد على المكتب البيضوي يومياً تقريباً، أحياناً مع دون وأخرى وحدي. لمسرحة تغيير القيادات من جهة ولمجرد تقديم نفسه إلى الشعب الأمريكي من جهة ثانية، قام فورد بعدد غير قليل من الزيارات إلى أنحاء البلاد. قدرنا، دون وأنا، أن لا معنى لقيام كلينا بمرافقة الرئيس، نظراً لوجود أعمال كثيرة أخرى معلقة. خلال أسابيع أصبحْتُ أسافر مع الرئيس وحدي.

إحدى المشكلات التي واجهتنا تمثلت بتوزيع أوقات الرئيس وجعلها في حدها الأمثل. سكرتيرته التنفيذية المخضرمة، مايلدرد ليونارد، كانت قد تولت إدارة مكتب فورد البرلماني مدة ربع قرن من الزمن، وكانت لا تزال تشعر بأن

من حقها إلزامه بمقابلة أي شخص يتصل بها أو ينجح في اختبارها. ذات مرة، فيما كنت خارجاً من المكتب البيضوي مع موظف أجنبي رفيع المستوى، تعين علينا أن نشق طريقنا عبر حشد من روتاريي غراند رابيدز المنتظرين بشغف مقابلة صاحبهم "جيري". مثل هذه الزيارات العابرة غير الرسمية كانت روتينية في الكابيتول هيل [الكونغرس]، ولم تر مايلدرد أي سبب يدعو للتغيير الآن. أدرك الرئيس استحالة استمرار الأمر وقمنا، بطلب منه، بتنظيم جناح مكاتب لمايلدرد على الطبقة الثانية، حيث واصلت معالجة البريد الآتي من مقاطعتها البرلمانية السابقة.

ثمة مشكلة جهازية أكثر جدية طرحها بوب هارتمان. كان بوب هذا أقرب سناً إلى الرئيس منا نحن الاثنين، دون وأنا، بكثير، وكان قد بدأ العمل معه في 1966، بعد خمس وعشرين سنة من العمل مراسلاً "للوس أنجلس تايمز". كان فظاً أيام السعد وعدوانياً أيام النحس، وأن يجده الآخرون صعب المراس كان رائعاً بالنسبة إلى بوب. كان سعيداً بذلك الدور بل ودائباً على تعزيزه. كان بوب مستشار فورد الرئيسي وكاتب خطبه في مكتب نائب الرئيس، وكان قد حقق، خصوصاً على صعيد الموقع الثاني [موقع كاتب الخطب] بعض الإنجازات الرائعة. فتعليقات فورد الجديرة حقاً بالتذكر في حفل التنصيب وبيانه المفسِّر للعفو عن نيكسون كانا أنموذجين لهارتمان في أبهى تجلياته.

من المؤسف أن مساهمات بوب، بعيداً عن كتابة الخطب، في المشروع الإجمالي كانت ملتبسة في أفضل الأحوال. يقينه بأنه كان الرجل المؤهل لإدارة المشهد بعد التاسع من آب/أغسطس أقحمه في تحرك لم يكن مثار إعجاب إلا بطيشه المتهور. في زحمة الاضطراب الذي أعقب الخروج المباغت لنيكسون، أقدم بوب، ببساطة، على نقل أشيائه إلى المكتب المجاور مباشرة للمكتب البيضوي. كان المكان، المشتمل على باب يفتح مباشرة على المكتب البيضوي، قد احتلته قبل سويعات سكرتيرة نيكسون الشخصية، روز ماري وودز. ومع ضمان ذلك المعبر، كان هارتمان صعب الإدارة. تبنى أسلوب التسلل من بابه إلى داخل المكتب البيضوي في غياب الرئيس. كان يقوم باستعراض البريد الوارد ويسمح لنفسه بالاطلاع على جميع الشؤون الرئاسية مع إضافة مواد جديدة حسب مزاجه.

تمثل أحد أهدافنا الإدارية الرئيسية بضمان مرور جميع الأوراق الصاعدة إلى مكتب الرئيس والنازلة منه عبر مكتب سكرتير الجهاز. كان من شأن هذا أن يمكننا من تسجيل كل الأشياء التي كان الرئيس قد اطلع عليها ووقعها والتأكد من أن الوثائق المرفوعة إليه تم تداولها ومعاينتها من قبل كبار الموظفين. إضافة إلى ذلك، كنت أقوم، توفيراً لعملية ضبط أخرى، بمراجعة كل الأشياء الداخلة إلى المكتب البيضوي والخارجة منه. إلا أن باب بوب المباشر مكّنه من الالتفاف على النظام. اكتشفنا ذلك حين وجدنا بين الوثائق التي أعادها الرئيس إلى سكرتيرة الجهاز أوراقاً لم يسبق لأحد أن كان قد رآها من قبل. كذلك كان من الممكن تخمين عمليات تسلل بوب إلى المكتب البيضوي من ظهور بعض المعلومات المسربة استراتيجياً في مادة صحفية بقلم رولاند إيفانس وروبرت نوفاك. عندما وجد بوب مذكرة داخلية لم يكن مهتما بمضمونها، بادر إلى إيصال محتواها مباشرة من مكتب رئيس الجمهورية إلى عهدة أكثر المعلّقين الصحفيين مقرونية في واشنطن.

كان الرئيس فورد مشغولاً بأمور كثيرة في أواخر 1974، بما فيها السجال المستمر حول العفو، الذي حاول إخماده عبر الشهادة أمام لجنة المجلس القضائية. رافقته إلى الهيل [الكونغرس] وجلست في غرفة الاستماع مع جاك مارش بمبنى ريبورن لدى قيام الرئيس بإبلاغ أعضاء اللجنة والأمة أنه "لم يكن ثمة أي صفقة. نقطة على السطر. في ظل أي ظروف". لم أكن قد شاركت في الحوار أو المناقشات المفضية إلى العفو، غير أن قناعتي الراسخة كانت - وستبقى - أنه أصدر العفو لاقتناعه بأنه الشيء الصحيح بالنسبة إلى البلاد.

كذلك كانت أمامه مسائل: تثبيت نائب جديد للرئيس، واقتصاد سيّئ، وتعثر الجهد الأمريكي في فيتنام. ولتمكينه من السير قدماً على هذه الجبهات الكثيرة، كان يتعين على رئيس الجهاز، كما اتضح لي، أن يضع يده على جملة العمليات اليومية الخاصة بالبيت الأبيض، ولم يكن ذلك ممكناً مع بقاء بوب هارتمان على مسافة بضع خطوات يسيرة من المكتب البيضوي.

طالبت دون مشدداً بأن يوحي للرئيس بأنه بحاجة إلى مكتب خاص يستطيع فيه أن يعمل ويفكر في أجواء مريحة بعيدة عن التوتر بدلاً من المكتب

البيضوي الفاخر ولكن المفرط في رسميته. كان الرئيس نيكسون قد استخدم مخبأ خاصاً فسيحاً في مبنى المكتب التنفيذي القديم. غير أننا، رامسفيلد وأنا، رأينا أن لا حاجة إلى الذهاب بعيداً مع وجود مكان مثالي على بعد خطوات وعبر باب داخلي مناسب. مباشرة تعاطف فورد مع الفكرة. لم يبق الآن سوى تحديد هوية الشخص الذي كان سيفاتح هارتمان بالموضوع، وما لبث فورد أن وافق على توصيتنا المتضمنة بأنه هو بالذات القادر على إنجاز المهمة بنجاح، رغم أن أياً منا كان يستطيع أن يحاول. تلك هي الطريقة التي حُلَّتْ المشكلة بها. فحين يسألك رئيس جمهورية الولايات المتحدة عما إذا كنت مستعداً للابتعاد عن طريقه، يبقى الجواب الوحيد هو ذلك الذي قدمه بوب. أخلى ما يمكن عده الثاني بعد أهم قطع العقارات في نصف الكرة الغربي بالسرعة والكفاءة اللتين رافقتا وضع يده عليها. وبكل المعايير كانت عملية الهبوط بالغة النعومة، بعد القاعة مباشرة في المكتب الفسيح الكائن بين رامسفيلد وكيسنجر. وبعد بضع سنوات ما لبثت غرفة بوب هارتمان الجديدة أن أصبحت مكتب الجناح الغربي لنائب الرئيس، وبقيت كذلك منذ ذلك التاريخ.

شكل انتقال هارتمان تحسناً مباشراً في عمل نظام الجهاز الذي كنا، رامسفيلد وأنا، نحاول ترسيخه. توفرت لنا الآن سيطرة أفضل على تدفق الورق وحركة الأقدام. بات مدخل الجهاز الوحيد إلى المكتب البيضوي متمثلاً بالباب الرئيسي، حيث كان جميع الزوار ملزمين بمقابلة نل ييتس، الذي كان في خدمة البيت الأبيض منذ عهد آيزنهاور، وتيري أودونيل، مساعد الرئيس الشخصي، الذي كان يبلّغني ويبلّغ رامسفيلد بما حصل. على الفور سلم فورد بالعملية الجارية بقدر أكبر من النعومة، مع أنه استمر في المحافظة على مسرب منفصل معدّل لمعاونين مثل مايلدرد وبوب. في الحقيقة، ظل، حتى نهاية عهده، محتفظاً بعلبة منفصلة فوق مكتبة الكريدنزا خلف مكتبه للمواد التي كانوا يزودونه بها. كان قد قضى مدة خمسة وعشرين عاماً غارقاً في رعاية مصالح ناحية ميتشيغان البرلمانية الخامسة، ولم يحاول قط أن ينفض عن كاهله تلك العادة حتى عندما أصبح مشغولاً بأمور أكبر. كانت ممارسته مثالاً لولائه وجديرة بالتفهم بل ومثيرة حتى للإعجاب.

* * *

قبل انتقالنا، دون وأنا، إلى مكاتب رئيس الجهاز في الجناح الغربي، كان الرئيس قد تولى رئاسة قمة اقتصادية لمناقشة طرق مكافحة التضخم الذي وصل إلى نسبة 12 بالمئة. والبرنامج الذي تمخضت القمة عنه انطوى على نوع من زيادة الضرائب وتقليص الموازنة، غير أن أحداً لا يتذكر شيئاً عن الأمرين لأن بوب هارتمان وجهازه أقنعوا الرئيس بحاجته إلى نوع من المناشدة لشد اهتمام الشعب الأمريكي ودفعه إلى النضال من أجل إبقاء كلفة المعيشة متدنية. اجترحوا أطروحة وتوجوها بشعار: "اصفع التضخم الآن" (Whip Inflation Now)، اختُصر بكلمة مؤلفة من أحرفه الأولى "وين" [WIN] زينت أزراراً شبيهة بأزرار الحملات الانتخابية، توقعوا أن نعلقها جميعاً - وصولاً إلى الرئيس بالذات - على ياقات ستراتنا. تمت التوصية على المزيد من أزرار الـ "وين" [WIN] استباقاً لتصاعد الحملة في خطاب متلفز أمام جلسة مشتركة لمجلسي الشيوخ والنواب.

في السابع من تشرين الأول/أكتوبر، بعد أسبوع من وصولنا، رامسفيلد وأنا، وقبل يوم من قيام الرئيس بإطلاق برنامج WIN [برنامج "اصفع التضخم الآن"]، زارني آلان غرينسبان، الرئيس الجديد لمجلس المستشارين الاقتصاديين، للتعبير عن قلقه العميق. اصطحبته إلى دون الذي بادر، وهو الجريء دائماً، إلى مطالبة الرئيس بتأجيل رحلته إلى الكابيتول هيل.

تدخُلُ اللحظة الأخيرة لم ينجح، وبعد أربع وعشرين ساعة ألقى الرئيس، مزيناً ياقته بزر الـ "وين" خطاب إعطاء التضخم اسم "عدو الشعب رقم واحد"، ودعا إلى زيادة الضرائب والرسوم معطوفة على نوع من تقليص الإنفاق الاتحادي والخدمات الحكومية. كان من شأن ذلك أن يشكل دواءً مراً في أي وقت. غير أن إدارته دون أي غلاف سكّري قبل الانتخابات النصفية بأقل من شهر - حين يكون جميع النواب وثلث الشيوخ مشغولين بتقديم أنفسهم إلى ناخبيهم - لم تكن إلا دعوة إلى إثارة مشكلة.

ركز الإعلام والديمقراطيون على الرزم ورفضوا المشروع كله بوصفه مشروع علاقات عامة وغير ناضج. ثار غضب الرئيس وبادر، بدلاً من إعادة

صوغ المداخلة والاستغناء عن الأزرار، إلى تأكيد موقفه بعد بضعة أيام أمام مؤتمر مزارعي المستقبل في أمريكا بكنساس سيتي. وفي هذا الخطاب الذي بثته القنوات التلفزيونية أيضاً على المستوى القومي، حض الشباب على أن يكونوا قناصي صفقات لـ "ادخار أكبر قدر ممكن" والحرص على "مسح صحنك تماماً قبل مغادرتك للمائدة" لدى تناول الوجبة الرئيسية. ظل هذا الخطاب منذ ذلك التاريخ يعرف في البيت الأبيض باسم خطاب "نظِّف صحنك لَحْساً!"

في غياب أي زخم سياسي أو تأييد شعبي، ما لبثت حملة الـ "وين" أن ماتت بهدوء. ولم تعش الأزرار وشعارات "نظِّف صحنك لحساً" إلا في طرائف عناصر الجهاز والإعلاميين. بعد وقت غير طويل أبدى الرئيس قدراً من رحابة الصدر كان كافياً لتقبل قليل من الاستفزاز حولها. بقيت ناسياً حملة الـ "وين" تقريباً حتى يوم التنصيب في 1977. كان الرئيس قد جاء للوداع وإلقاء نظرة على المكتب البيضوي. وقبل عودته إلى المسكن، حيث كانت عائلة كارتر ستصل لتناول القهوة قبل التوجه إلى الكابيتول، تخلفت عن الركب لأساعد في لملمة آخر حوائجه. فتحت أحد أدراج مكتبه فوجدته مملوءاً بأزرار "وين" ذات اللونين الأحمر والأبيض وهي جديدة كما كانت يوم سكها في الأيام الأولى من إدارته.

لم يكن ارتباك الـ "وين" إلا واحداً من الأعباء التي حملناها إلى انتخابات 1974 البرلمانية. فالارتباك الأكبر بما لا يقاس تمثل بووترغيت وعفو فورد عن ريتشارد نيكسون. كذلك كان ثمة رأي متعاظم في الإعلام مفاده أن جيري فورد، لم يكن، رغم احتمال كونه إنساناً مستقيماً حسن النية، على مستوى منصب رئيس الجمهورية، لا أكثر ولا أقل.

ومما يدعو للأسف، أن أسلوب فورد المستهتر وسلوكه القائم على اللامبادرة وفّرا بعض الذخيرة لهذا الموقف. فبعد إحدى محطات الحملة بغراند جنكشن في كولورادو، اكتسبت الهجمات الإعلامية على قضية الكفاءة زخماً جديداً. في نهاية رحلة انتخابية طويلة وشاقة، قام الرئيس بتتويج ملكة متخرجات كلية لاميزا الجامعية وإغداق وابل من القبلات الرئاسية على الملكة ووصيفتها. وحين وجد المهمة ممتعة، قبّل جميع الفتيات مرة أخرى ثم ألقى خطاباً مشتتاً.

تمخض هذا الأداء المهزوز عن الإيحاء بمادة لئيمة في مجلة "نيويورك"، التي حمل غلافها صورة فورد بوصفه بوزو المهرج.

أذاقتنا انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر طعم نكسة كبرى. نجح الديمقراطيون، في آخر المطاف، في الفوز بتسعة وأربعين مقعداً نيابياً وبأربعة مقاعد في مجلس الشيوخ، مضخِّمين أكثريتيهم الموجودتين سلفاً في المجلسين كليهما. أدى هذا إلى شل الرئيس. وبوصفه رجلاً تمتد خبرته في الكابيتول هيل إلى عام 1949، كان يعرف أكثر من أي منا أن النجاحات التشريعية ستكون قليلة ومتباعدة.

غداة خسارتنا كان لنا، رامسفيلد وأنا، عشاء ذات مساء في مطعم Two Continents (القارّتين) بفندق واشنطن مع الاقتصادي آرت لافر، وهو شاب مبدع سيطر على خيالي بقوس رسمه على ظهر محرمتي. ما أظهره القوس هو أنك لا تستطيع رفع الضرائب إلى هذا المستوى العالي قبل أن يصبح الناس عازفين عن العمل (لن يؤدي رفع الضرائب إلى هذا المستوى العالي إلا إلى نفور الناس من العمل). بالمقابل، من الممكن خلق الحوافز - والنمو الاقتصادي - عبر تقليص الضرائب. ما لبث قوس لافّر أن أصبح فيما بعد أحد شعارات النظرية الاقتصادية الداعية إلى خفض الضرائب. ليتني كنت قد عرفت أن محرمتي كانت ستصبح تاريخية! لكنت، إذن، قد احتفظت بها.

من المؤكد أن فكرة خفض الضرائب تجاوبت مع ذلك العصر، لأن البلاد كانت في ذلك الوقت منزلقة إلى نوع من الركود. قام الرئيس بجمع فريقه الاقتصادي لعقد مؤتمر يدوم يومين في فيل الكولورادوية، حيث كان يقضي عطلة عيد الميلاد مع أسرته. كان الفريق في ذلك الوقت يضم معاون الشؤون الاقتصادية بيل سيدمان، ووزير الخزانة وليام إي سايمون، ورئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين آلان غرينسبان، الذي كان موشكاً على أن يصبح، بسرعة، الأول بين أولئك الأنداد المتساوين. كان آلان يزاوج بين خبرة اقتصادية من ناحية ونوع من التقويم للسياسة العملية. وما ليس أقل أهمية هو أنه كان متوفراً على براعة حقيقية في مجال التعبير عن أفكار كبيرة ومعقدة بكلمات قليلة جيدة الاختيار. كان الرئيس معجباً به وكثير المراهنة على آرائه

واستنتاجاته. وبعد أن أصبحت رئيساً للجهاز كنت سأوصل آلان إلى المكتب البيضوي كما كان دون قد فعل قبلي، لإجراء مناقشة مطولة عن التخطيط الاقتصادي.

أفرز اجتماع فيل عدداً كبيراً من الخطط والسياسات التي أعلنها فورد في خطابه الاتحادي إلى الأمة يوم 15 كانون الثاني/يناير، 1975. وقد كان من بينها خفض للضرائب بمبلغ 16 ملياراً من الدولارات. كذلك كان سيؤيد إعفاء ضريبياً آخر في نهاية عام 1975، مصراً على الانضباط المالي في الوقت نفسه. لم يأت ذلك طبيعياً إلى الليبراليين الديمقراطيين المهيمنين على مجلس النواب، غير أن هؤلاء كانوا يتعاملون مع رئيس كان مؤخراً من فريقهم. كان جيري فورد قد خدم في لجنة التخصيصات في المجلس بدءاً من إدارة ترومان وكان يعرف الموازنة جيداً مثل أي رئيس جمهورية حديث قبله وبعده. مرة سمعته يصوّب أحد أعضاء الجهاز حول عدد الحراس الذين توظفهم إدارة الناشيونال بارك. وفي أواخر عهده، حين آن أوان الكلام مع الإعلاميين حول الموازنة الجديدة - وتلك مهمة تقع عادة على كاهل قيادات في مكتب الإدارة والموازنة - قرر الرئيس تناول الأمر بنفسه. تحدث عن أولوياته، وأورد أرقامه، وفصّل حججه، ثم أفسح في المجال لاستجواب حشد الإعلاميين. كان مساعدو التخطيط وأعضاء الحكومة ذوو العلاقة موجودين جميعاً ومستعدين لتقديم أي تفاصيل يطلبها. لاحقاً، أخبرني نائب مدير مكتب الإدارة والموازنة بول أونيل أنه، بعد حضوره اثنتين من هذه المسرحيات، بات عدد كبير من الخبراء يصابون بالذعر لدى تلقيهم الدعوة إليها. باتوا يدركون أن جيري فورد لم يكن يعرف الجواب الذي ربما كان لغزاً بالنسبة إليهم هم أيضاً.

لبقائه في الطرف المتلقي سنوات وسنوات، كان الرئيس فورد جيد الاطلاع على المادة الأولى، البند السابع من الدستور، المتعلقة بحق النقض. قليلون هم الرؤساء الذين وظفوها خيراً منه. أعاد ما مجموعه ستاً وستين نصاً تشريعياً إلى الكونغرس، حاجباً مليارات الدولارات عن مشروعات غير ضرورية ومساهماً في الإجهاز على أي أوهام في الكابيتول هيل حول إمكانية إركاع الفرع التنفيذي عن طريق أزمة اتهام ريتشارد نيكسون.

كذلك قام الرئيس باعتماد قاعدة للفرع التنفيذي تقول بعدم جواز إطلاق أي مبادرات إنفاقية جديدة باستثناءات نادرة. أطلقنا على الفرمان اسم "لا بدايات جديدة"، وكانت مهمة التطبيق من نصيبي أنا. تعيّن علي أن أدافع عن هذه السياسة أو الخطة عدداً من المرات، وضد نائب الرئيس بالذات لا غيره في الغالب.

بعيداً تماماً عن ميزاته الشخصية، التي غرست فيه شيئاً من الخوف فيما يخص بطاقات الأسعار الكبيرة، كان نلسون روكفلر حاكم نيويورك بين عامي 1959 و1973. ومن ذلك الموقع، كان قد ابتكر ونفذ سلسلة من المشروعات الكبرى. وحين عينه الرئيس فورد مسؤولاً عن السياسة الداخلية، باتت أي مبادرات اتحادية جديدة تبدو لنائب الرئيس أشبه بالوضع الطبيعي للأمور.

كان فورد يعقد اجتماعاً أسبوعياً مع نائبه، وكثيراً ما كان روكفلر يوظف الوقت لترويج آخر آرائه. وبعد الاستماع إلى حفنة من تلك الجواهر شخصياً، تمكّنتُ من فهم السبب الكامن وراء إعجاب فورد بهذا الرجل المتمتع بسحر طبيعي وشخصية قوية. وبعد اجتماعاته مع نائب الرئيس، كثيراً ما كان فورد يطلبني إلى المكتب البيضوي، ويسلمني آخر اقتراحات روكفلر، ويقول: "ماذا نفعل بهذا، يا ديك؟" وفي المرات كلها كنت أجيب: "حسناً، سيادة الرئيس، سنقوم بعرضه". كان هذا يعني أن الرأي كان سيجري تدويره للمراجعة العامة، بما فيها نوع من حساب التكلفة من قبل مكتب الإدارة والموازنة، وأنه كان سيعود حكماً مع رد يفيد بأن الاقتراح قد وُجد متضارباً مع سياستنا القائمة على شعار "لا بدايات جديدة".

كان ذلك يضع حداً للمسألة، إلا أن روكفلر ما لبث أن بات يشعر بالإحباط بسبب قيود أبرزتْه شخصاً متعسفاً ضيق الأفق. على الرغم من المهمات الجدية التي أحالها فورد عليه في قضايا مثل إعادة تقويم برنامج وكالة الاستخبارات المركزية، السي آي إيه، وأساليبها، فإن روكفلر ما لبث أن بات، أخيراً، يشعر، مثل نواب رئيس آخرين قبله، بأن عمل المنصب لم يكن قد ارتقى إلى مستوى العنوان.

ظل فورد دائم الحساسية إزاء وضع روكفلر، إذ كان قد وضع أشهره

كنائب للرئيس في خانة تجربة بائسة عموماً. إلا أن روكفلر لم يحاول قط أن يحمّل فورد مسؤولية إخفاقاته في المنصب. قرر أن سبب مشكلاته كان كامناً في مكان آخر - متمثلاً بدون رامسفيلد وبذلك الشخص الذي هو نائبه. وفيما يخصني، إن ترحيل الرجل أفكاره العظيمة محصّنة من قبل مساعد رئيس جهاز بعمر لا يزيد عن نصف عمره ولم يكن قد سبق له أن انتُخب لأي منصب، مثير للسخط والغيظ حقاً.

لم يأت روكفلر على ذكري إلا مرة واحدة، لاحقاً في مؤتمر 1976 القومي للحزب الجمهوري، بعد أن تعرضت الشبكة الصوتية للتعطيل على نحو عجيب في منتصف خطابه. في وقت سابق من الأسبوع كانت قضايا بروتوكولية - نقاشات حول ما إذا كان روكي نائب الرئيس الراهن أو بوب دول شريك الحملة هو الذي سيلتحق بفورد على خشبة المسرح بعد خطاب القبول - قد جعلته يشعر بتعرضه للإهمال بشكل مفرط. في الليلة الأخيرة حدد مكاني في الممر تحت المنصة ووجدني هدفاً مناسباً لجميع خيباته. انحنى بقوة ومكّنني من سماع سبابه بالفعل، بل واتهمني بالتخريب على خطابه. تحمّلت شتيمتي اللفظية، وأكدت لنائب الرئيس براءتي، وخرجت من المكان بأقصى سرعة ممكنة.

قبل عيد الميلاد في 1974 ببضعة أيام، نشرت "النيويورك تايمز" على صفحتها الأولى مادة تحدثت عن أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت قد تورطت في عمليات غير مشروعة داخل الولايات المتحدة، بما فيها تثبيت أجهزة على خطوط اتصالات مواطنين وصحفيين أمريكيين. وفي غضون أسابيع كانت لجنة من مجلس الشيوخ (لجنة تشيرتش)، ولجنة من مجلس النواب (لجنة بايك)، وهيئة من البيت الأبيض (هيئة روكفلر) قد بادرت جميعها إلى إطلاق عمليات تحقيق بهدف الغوص في نشاطات السي آي إيه.

كان جاك مارش يبقيني مطلعاً على سير عمل هيئة روكفلر كما على عمل اللجنتين في الهيل (في مجلسي البرلمان). كثيراً ما كان الرئيس غاضباً من مجلسي البرلمان - ولأسباب وجيهة. أحياناً كانت إجراءاتهما المثيرة تبدو شالة بالتأكيد، إن لم تكن مدمِّرة، لقدرات أمريكا الاستخباراتية. في النهاية، تمثلت

نتيجة التحقيقات المختلفة التي تناولت السي آي إيه بإماطة اللثام عن عدد كبير من النشاطات غير الحميدة التي كانت قد تمت في الماضي، بتصويب بعض المخالفات البالغة الجدية التي كانت لا تزال تُرتكب، واتخاذ نوع من التدبير المنتظم للإشراف البرلماني الذي كنت سأجد نفسي جزءاً منه بعد عشر سنوات.

مع تولي الرئيس فورد للمنصب، كانت الولايات المتحدة عاكفة على حلحلة التزامها في فيتنام. كانت اتفاقات باريس السلمية قد وُقّعت في كانون الثاني/ يناير 1973، وكانت قوات أمريكا القتالية قد سُحبت. كانت حكومة فيتنام الجنوبية قد وُعدت بمساعدات اقتصادية لتتمكن من بناء قواتها الدفاعية، كما بعمل عسكري أمريكي جديد إذا ما أقدم الفيتناميون الشماليون على انتهاك شروط السلام.

بدأت الانتهاكات قبل أن يجف الحبر وتواصلت ببطء، إلى أن بادر الفيتناميون الشماليون في بداية العام 1975 إلى إدخال نحو ثلاثمئة ألف جندي إلى فيتنام الجنوبية وفرض السيطرة على أربع عشرة مقاطعة، ومع بداية نيسان/أبريل، كانوا في وضع يمكنهم من الزحف على سايغون. كان الرئيس نيكسون قد أكد أن الولايات المتحدة كانت ستساعد الفيتناميين الجنوبيين في مقاومة أي هجوم عدواني جديد، إلا ان قوى مناوأة الحرب في مجلسي الكونغرس كانت قادرة على وقف التمويل الذي كان من شانه أن يبقى ضرورياً لدعم - أو إنقاذ - حليفنا الفيتنامي الجنوبي.

في مواجهة غياب التمويل، لم يستطع فورد أن يفعل شيئاً إلا الجلاء، عن كمبوديا أولاً في 17 نيسان/أبريل 1975، وعن سايغون بعد ذلك. في ليلة 28 نيسان/أبريل، حين أمر الرئيس فورد بالجلاء الأخير عن سايغون، كنت في البيت الأبيض. ومع أن جملة التعليقات الإخبارية الدرامية المثيرة بقيت متركزة على آلاف الأمريكيين والفيتناميين الذين كانوا يُنتشلون بالحوامات عن سطح السفارة الأمريكية، وجدت أن من المتعذر إغفال حقيقة أننا كنا نتخلى عن آلاف من الفيتناميين الذين كانوا قد راهنوا علينا وربطوا مصائرهم بمصيرنا.

بعد نلك الانحلال الأخير، كان ثمة نقاش في البيت الأبيض حول ما بقي مما يمكن قوله حول الصراع، فجاءت غريزة فورد، كما في قصة العفو بعد

ووترغيت، داعية إلى طي صفحة الماضي والتطلع مع الشعب والوطن إلى المستقبل. في خطاب له بجامعة تولين في شهر نيسان/أبريل، أعلن فورد أن الحرب "انتهت بالنسبة إلى أمريكا". كنت معه في نيوأورلينز في تلك المساء. أتذكر بوضوح أن بعض الجمهور أراد، لدى تفوهه بتلك العبارة، أن يبكي، وبعضه الآخر أن يهتف ابتهاجاً، غير أن الجو ساده شعور بالارتياح يتعذر اللبس حوله، شعور تعالى على النظرة إلى الحرب بالنسبة إلينا جميعاً. وبالفعل، فإن سماع الرئيس وهو يطلق تلك الكلمات كان، حتى بالنسبة إلي أنا، وكنت من عتاة المؤيدين للجهد، موضع ترحيب على نحو يصعب وصفه. كنا قد فقدنا أكثر من ثمانية وخمسين ألف شاب أمريكي في تلك الحرب، وكانت فيتنام قد مزقت أمتنا إلى نصفين مدة طويلة. كانت الحرب في جنوب شرق آسيا قد انتهت نهاية مرعبة، إلا أنها كانت، أقله، قد انتهت. نعم انتهت الحرب في جنوب - شرق آسيا.

من تلك النقطة المنخفضة وصاعداً، تمثل تحدي السياسة الخارجية الكبير لرئاسة فورد بنفض آثار هزيمة ماحقة. ثمة الرئيس الأمريكي الأول الذي لم يسبق له أن انتخب لأي منصب قومي، تولّى الإشراف على الانسحاب النهائي لقوات أمريكية من ساحة حرب أجنبية مهزومة. طُلب من فورد أن يتعامل مع عواقب هذه النكسة المدمرة لمصالح أمريكا ومعنوياتها. تعرض لاختبار حاسم بعد أسابيع قليلة، حين أقدمت قوات شيوعية في كمبوديا على احتجاز سفينة "ماياغويز" التجارية الأمريكية في المياه الدولية واعتقلت طاقمها المؤلف من تسعة وثلاثين عنصراً. كانت السفينة راسية في عرض البحر، وأمر الرئيس فورد الطيران البحري الأمريكي باعتراض أي زورق مبحر بين البر والسفينة الأمريكية.

حين تم رصد قارب صغير مغادراً "ماياغويز"، اعتقد طيار بحري أنه رأى بعضاً من أفراد الطاقم الأمريكي على متن القارب وفضل التأكد من الأمر قبل إطلاق النار. أخذ طلبه طريق التسلسل الهرمي وصولاً إلى البنتاغون ومن هناك إلى القائد العام. كنا في اجتماع نتابع تطورات الأزمة في غرفة مجلس الوزراء حين تبلغ الرئيس عن وجود اتصال هاتفي. رفع سماعة الهاتف القابع تحت الطاولة بالقرب من مقعد الرئيس، استمع إلى الطلب، ونطق الأمر القاضي بوجوب عدم إطلاق النار. كان الطاقم على ظهر القارب الصغير. تلك كانت المرة الوحيدة،

عبر كل الساعات التي قضيتها في اجتماعات داخل غرفة مجلس الوزراء، التي رأيت فيها، حسبما أتذكر، قيام أي رئيس باستخدام الهاتف في هذا المكان.

بعد كل هذه السنوات، قليلون هم أولئك الذين يتذكرون حادثة "مایاغویز"، ومن شأنها أن تبدو، بالنسبة إلى من يفعلون، حادثة صغيرة في الخارطة الأكبر للأمور. غير أن تحرك الرئيس فورد السريع في الوقت المناسب - طالباً إطلاق سراح الطاقم وإرسال المارينز والضربات الجوية لضمان سلامة أفراد الطاقم واستعادة المركب - كان له تأثير إيجابي لا يُنسى. قال لأعدائنا وللعالم إن من شأن خصومنا أن يقعوا في الخطأ إذا ما فكروا بأننا سنتغافل عن الاستفزاز خصوصاً عندما تكون حيوات الأمريكيين ذات علاقة، رغم مبادرة أمريكا إلى الانسحاب من فيتنام واضطرارها للتسليم باحتلال العدو لتلك الدولة.

خلال أزمة "مایاغویز" كلها كان هنري كيسنجر على اتصال هاتفي مطرد لمتابعة تطورات الوضع وطلب المعلومات. حين أتذكر كل تلك الأمور التي مر بها هنري في تلك الغرفة نفسها مع الرئيس نيكسون، ما زلت أصاب بالدهشة إزاء الجهد والتركيز اللذين أضفاهما على خدمة الرئيس فورد. ظل مع نيكسون من عام 1969 حتى اليوم الأخير - متولياً أمر متابعة جميع نجاحات وإخفاقات مفاوضات السلام الفيتنامية، والاختراق الكبير مع الصين، والمتاعب اللانهائية للحرب الباردة، والدبلوماسية المكوكية في الشرق الأوسط - دون أن يبدي أي أثر للتعب أو السلبية في خدمته للرئيس أو دفاعه عن مصالح أمريكا. حتى حين كان يعمل مستشاراً للأمن القومي من جهة ووزيراً للخارجية من جهة ثانية، كان يحافظ على وضوحه اللافت ذهناً وهدفاً. كان هنري أحد وزراء الخارجية الكبار في أمريكا دون أن يكون من النوع المقاوم لإغراء الشهرة. إلا أن ذلك كله لم يكن إلا جزءاً من حزمة بالغة الإثارة والجاذبية. إذا كان ثمة بطل من واشنطن شكلت مواهبه وإنجازاته مبرراً لتألق نجمه، فإنه هنري. ما من شيء عنه مبالغ فيه.

بطبيعة الحال لم نكن، هنري وأنا، نِدَّيْن في أعوام رئاسة فورد حين شاءت الأقدار أن ننخرط في الشؤون الدولية، وكنت عادة مقتنعاً بأن أبقى تلميذاً ومستمعاً في صحبته. هذه كانت الممارسة الحصيفة لعناصر الجهاز عموماً، لأن

هنري كان حساساً إزاء صلاحياته وغير مستعد للسماح بأي تطفلات. لعل المرة الوحيدة التي اختلفت فيها معه كانت بسبب ارتيابه من المشروعات الكبرى وتحليه بقدر أكبر من المكر والدهاء بالمقارنة معي، أنا الذي كنت في الرابعة والثلاثين من العمر. في آب/أغسطس 1975، بعد توقيع اتفاقيات هلسنكي، قام الرئيس بزيارة بولونيا ويوغسلافيا. وبعد أن كان فورد والوفد الرسمي قد استقروا في الفندق بوارسو، انفصلت عن الفريق ونُقلت إلى منزل خاص عند أطراف المدينة. وهناك قابلت، تنفيذاً لبرمجة سابقة، سفيرنا في ألمانيا الشرقية، جون شيرمان كوبر. وبعد حديث مطول وبالغ الغنى، افترقنا، السفير كوبر وأنا، وعدت إلى الالتحاق بعملي ذي العلاقة برحلة الرئيس.

بعد بضعة أيام كنت عاكفاً على العمل على متن طائرة سلاح الجو رقم واحد حين وجدتني في مواجهة وزير خارجية استثنائي الانفعال. ومَنْ كنتُ أظن نفسي حتى أخرج وحدي لمقابلة أحد "سفرائه"؟ كان حانقاً إزاء هذا الخرق للانضباط الهرمي. وبعبارات لا تقبل اللبس أبلغني بأن كل الأشياء الجهنمية الحاصلة في أثناء لقاءاتي السرية وقنواتي الخلفية، كانت مرفوضة جملة وتفصيلاً. أراد وضع حد لذلك فوراً. كان سينقل الموضوع إلى الرئيس. لا بد من المبادرة إلى طرد كوبر من عمله فوراً. واستمر كلام الوزير على هذا النحو.

تطلب الأمر بعض الجهد، إلا أنني نجحت في تهدئة هنري وشرحت له أن الرئيس كان قد طلب مني رؤية السفير لأنه كان يفكر سلفاً بانتخابات العام التالي الأولية. فجون شيرمان كوبر طالما ظل منخرطاً في السياسة الجمهورية الكنتاكية منذ العشرينيات، وكان واحداً من شيوخ الولايات المتحدة ممثلي الولاية طوال ثلاث دورات، وكان قد شغل منصب سفير في عهد آيزنهاور قبل قيام فورد بجعله دبلوماسياً منذ بضعة أشهر. مندوبو كنتاكي السبعة والثلاثون كانوا سيشتبكون في التمهيديات القادمة، وفيما يخص السياسة الجمهورية في ولاية البلوغراس [العشب الأزرق]، كان الشخص صاحب القول الفصل هو جون شيرمان كوبر. لذا فإن الأمر كله كان بريئاً، وقد أكدت لهنري أنني لم أكن أقوم بأي مناورة دبلوماسية من خلف ظهر المعلّم. أدى ذلك إلى وضع حد لتوبيخي العنيف، وتبين أن مهمتي الخطرة في ضواحي وارسو كانت جديرة. مع كم كبير

من النصائح من كوبر، نجح الرئيس فورد في تحقيق نوع من انتصار التسلل الخلفي في أوليات كنتاكي.

أما الشوط الأبعد الذي كنت قد قطعته على طريق التصرف تصرفاً دبلوماسياً في تلك الأيام فلم يكن إلا مع اضطلاعي المؤقت بدور الوسيط بين هنري وآخرين في الإدارة. ذات يوم، في أوائل عام 1976، كان الطرف المعتدي، برأي هنري، هو دانييل باتريك موينيهان. كان الأخير سفيرنا إلى الأمم المتحدة ولم يكن، كما يمكن لنظرائه أن يشهدوا، ممن يكتمون شكاويهم. والرجلان، كلاهما، كانا أيضاً يتقنان فن تشغيل الإعلام، وكانا لبعض الوقت يتبادلان السهام عبر اقتباسات غير منسوبة مسربة إلى جيمس "سكوتي" رستون في "النيويورك تايمز".

كانت القشة الأخيرة في اليوم الأخير من كانون الثاني/يناير. كنت قد ذهبت مع الرئيس إلى وليامزبورغ في فيرجينيا، حيث كان سيدشن احتفال المئوية الثانية 1976، بخطاب في بيت بورغسز الكولونيالي القديم. كان فورد في الحجرة التي كان باتريك هنري قد بادر فيها، احتجاجاً على قانون الطوابع، إلى شجب الملك جورج الثالث. غير أنني فضلت، بدلاً من الجلوس في المعرض مستمتعاً بمشاهدة هذا الحدث التاريخي المتحرك، أن أصعد إلى حجرة ضيقة حيث كان أحد خطوط البيت الأبيض الهاتفية قد مدد، وأصغيت إلى ما لدى كل من هنري كيسنجر ودانييل باتريك موينيهان هناك. ربما أمضيت ساعة كاملة في تلك الحجرة مضطلعاً بدور الحكم في تلك المعركة، مع عدم نجاح مداخلاتي الوجيزة أكثر الأحيان إلا في السماح للدخان بالتبدد كي يتمكنا، كلاهما، من إعادة التذخير والتسديد من جديد. انتهى الأمر كله باستقالة موينيهان.

منذ البداية تقريباً، لم تكن أفكارنا بعيدة جداً عن الانتخابات الرئاسية الوشيكة. كان فورد قد أعلن في 8 تموز/يوليو 1975، اعتزامه الترشح لفترة كاملة في 1976. وعلى الرغم من أن تلك كانت بداية مبكرة إلى حد معين بالنسبة إلى أي شاغل للمنصب، فإنه هنا أيضاً كان يقف على أرض جديدة، ولا أحد منا راوده الشك بأننا كنا سنحتاج إلى كل لحظة من ذلك الوقت لتمكين الأمور من الانطلاق

والسير. لم يكن قد سبق لفورد أن خاض أي انتخابات خارج المقاطعة الخامسة بميتشيغان، ولذا فقد كان سيتعين علينا بناء تنظيم سياسي وطني مما يشبه نقطة الصفر في غضون أقل من اثني عشر شهراً.

انتخابات الـ 1974 النصفية، التي عكست عواقب ووترغيت والعفو عن نيكسون، كانت قد شكلت نوعاً من الحدث الكارثي بالنسبة إلى الحزب الجمهوري ورئيس الجمهورية الجديد. لم يشعر فورد أنه يفرط في الجرأة حين رأى أنه يستحق حزباً موحداً وطريقاً ممهدة تفضي به إلى حملة انتخابية عامة. غير أن محافظين كثيرين كان لديهم رأي آخر ووفرة من التحفظات حول أي فترة كاملة لفورد. كانوا مستائين من أشياء مثل اتفاقيات هلسنكي التي كانت قد وُقعت من قبل خمس وثلاثين دولة وتضمنت بنوداً مطالبة باحترام حقوق الإنسان وتثبيت الاعتراف بالحدود الوطنية - القومية. كان نقاد فورد يؤكدون البند الثاني، معتبرين أي تثبيت لحدود الحرب الباردة شرعنة لسيطرة الاتحاد السوفييتي على الدول التابعة. أما الرئيس ومستشارو السياسة الخارجية لديه فكانوا يرون قيمة أكبر للغة هلسنكي غير المسبوقة على صعيد حقوق الإنسان، التي كانت تشرعن حق الولايات المتحدة والبلدان الغربية الأخرى في الإصرار على المعايير الدولية لحقوق الإنسان، حتى داخل الدائرة السوفييتية. كان من شأن الرؤساء والدبلوماسيين الأمريكيين أن يصبحوا بعد الاتفاقيات أصحاب حق في إثارة قضايا ذات علاقة بحقوق الإنسان كما يثيرون مسائل الرقابة على التسلح أو التفضيلات التجارية مع خصومنا الشيوعيين. كان فورد مؤمناً بأن من شأن هلسنكي أن تفتح الباب أمام حوار يتعذر على السوفييت الفوز فيه، مع تشجيع المنشقين والمحتجين في طول الإمبراطورية السوفييتية وعرضها. وكان من شأن الزمن أن يبين أنه كان على صواب.

المحافظون الذين رأوا فورد مفرط النزوع إلى المساومة مع السوفييت أشاروا أيضاً- إلى قصة الروائي والمؤرخ الروسي الكبير ألكساندر سولجنتسين، الذي كان قد فاز بجائزة نوبل للأدب في 1970، ولكن ترجمة إنكليزية لرواية "أرخبيل غولاغ" لم تُنشر حتى 1974. هذه المأثرة المؤلفة من ثلاثة أجزاء عن الحياة القاسية في معسكرات الأشغال الشاقة السوفييتية، وبعضها مستمد من

تجربته المباشرة، شهرت صاحبها في أمريكا. وبعد طرده من وطنه كان سولجنتسين قد استقر مؤخراً في فيرمونت وعبّر عن نوع من الرغبة في لقاء الرئيس. رأيت أنها كانت فكرة عظيمة ونصحت فورد بأن رجلاً بهذا الباع الطويل يجب، من كل بد، أن يُستقبل في المكتب البيضوي[4].

غير أن كيسنجر ونائب الرئيس برنت سكوكروفت اعترضا على ذلك بقوة. رغم احترامهما لشجاعة الرجل وعبقريته، رأيا أن من شأن لقاء كهذا، كان يحمل راية الدعوة إليه جيسي هلمز من نورث كارولاينا، أن يصبح سبباً للتوتر في تعاملاتنا مع السوفييت في فترة كانت تشهد مفاوضات رقابة أسلحة حساسة ولقاء قمة مع الأمين العام ليونيد بريجنيف كان يجري النظر فيه. وهكذا فإن فورد قرر، أقله مبدئياً، ألا يستقبل سولجنتسين. ومع أن القرار بدا ثانوياً في حينه، فإننا دفعنا ثمناً باهظاً بسببه. فذلك الرفض لاستقبال أقوى شهود الاستبداد السوفييتي تحول واسطة عقد تهمة السياسة الخارجية ضد فورد لدى المحافظين.

ومن الغريب حقاً أن قراراً تمخض عن أعظم النتائج نادراً ما تم التعليق عليه من جانب منتقدي فورد. في خريف 1975، أقدم الرئيس على تعيين قاضي شيكاغو الفدرالي جون بول ستيفنز خلفاً لرئيس المحكمة العليا وليام دوغلاس. كانت ثمة فرصة لشغل منصب لم يكن قد شغر منذ 1939، ولكن الإجراء لم يحظ في البيت الأبيض إلا بنقاش ضئيل. أحال الرئيس الموضوع على النائب العام إدوارد اتش ليفي. وهذا بدوره أجرى استقصاء سريعاً واستقر رأيه على قاض متمتع بالاحترام كان قد عرفه منذ سنوات. ومن ذلك المنطلق بادر مجلس الشيوخ إلى إدراج التسمية على جدول الأعمال فتم تثبيت ستيفنز بالإجماع بعد أقل من ثلاثة أسابيع. تماماً هكذا كانت تتم الأمور في تلك الأيام. واصل القاضي ستيفنز الخدمة مدة توازي تقريباً مدة دوغلاس، بسجل مرض بالمثل لليبراليين. أنا معجب بجون بول ستيفنز وأحترمه أكثر بكثير من إعجابي واحترامي لفلسفته القضائية، إلا أنني كنت أتمنى ألا نكون، ببساطة، قد تركنا مسألة الاختيار لإد ليفي. من جانبه، لم يندم فورد على الاختيار، وبقي رأيه أهم من رأيي. وعلى أي حال فإن تسميته الوحيدة للمحكمة العليا جاءت وذهبت دون أي اعتراض عملياً.

ما أدى إلى الإجهاز علينا شهراً بعد شهر هو تصوير رئيس الجمهورية شخصياً كثرثار بائس بلا هوية. باتت السخرية محلّقة على صفحات الجرائد بالفعل حين تعرض الرئيس، لدى ترجله من الطائرة ذات يوم ماطر في سالزبورغ في النمسا، للانزلاق على السلم والسقوط على المدرج. بعد ذلك، صار حتى أصغر زحزحة عادية على منحدرات التزلج موضوع استقصاء وقهقهة بالنسبة إلى معشر الصحافة. وبالنسبة إلى الجمهور كان كتم المشهد مفهوماً مباشرة، ولم يتم كسب شيء عن طريق إبراز حقيقة أن جيري فورد، وهو بطل رياضة سابق، كان قد بقي رجلاً قوياً وممشوق القد إلى منتصف العمر. كان رياضياً أكثر من أي من أسلافه منذ تيودور روزفلت، وحقيقة أن الصحافة كانت قد شهدت الزلة الطارئة لم تكن إلا لتحليه بالنشاط الزائد.

صورة الثرثار المتعثر كانت أصبحت إحدى تلك النكت المُخزَّنة التي كانت أفضل من أن يتم التفريط بها. فبعد فترة غير طويلة، صارت مادة ثابتة في البرنامج الفكاهي المعروف باسم "مباشر مساء السبت" (*Saturday Night Live*). تعامل الرئيس مع الأمر بقدر مبالغ به من رحابة الصدر بل وجارى الطرائف المرتبطة بالمناسبة، أما أنا فلم أستطع قط أن أقول الشيء نفسه عن موقفي الخاص. رأيت أن ذلك كان ظلماً حقيقياً، وما زال يزعجني حين أتذكره. فتصوير الرئيس فورد متعثراً بليداً أنزل ضربة موجعة بالانتخابات العامة، ولم يرتفع الإعلام فوق مستوى إبقاء النكتة محصورة بذلك السبب.

وبطبيعة الحال فإن ظهور منافسنا في التسمية الجمهورية ثابت الخطوات ونجم كاميرات دائماً لم يفد. كانت المرة الأولى التي لمحت فيها رونالد ريغان في تشرين الأول/أكتوبر 1974 حين كان هو وفورد، كلاهما، يحضران عشاء ربطات العنق السوداء الرسمي في فندق سنتشوري بلازا في لوس أنجلس. كنت في الغرفة حين استقبله الرئيس عاجلاً. غاص الاثنان في أريكتين عميقتين أمام شباك الجناح الرئاسي مع خلفية ليلية من أشجار النخيل الباسقة وأضواء تلال هوليوود.

أتذكر أنني رأيت أن للنجم السينمائي السابق قامة بالغة الإثارة. برونزي البشرة ممشوق القد على نحو لم يسبق لي أن كنت قد شاهدت نظيراً له في

واشنطن، كان هذا زبوناً أتقن كيف يسوّق بضاعته. ثمة أناس ينتسبون إلى تواريخ قديمة عائدة إلى الخمسينيات كانوا قد وجدوا في رونالد ريغان طينة رئاسية، والآن كنت أنا، للمرة الأولى، أكتشف السبب. في ذلك المساء من عام 1974 لم يكن أي من الرجلين يعرف يقيناً ما كان عام 1976 سيجلبه فيما يخص طموحاتهما الرئاسية، وتبادلا حديثاً ودياً حول كل شيء عدا احتمال صيرورتهما قريباً متنافسين.

استراتيجيتنا الأولية في البيت الأبيض تركزت على السعي لممارسة الضغط على ريغان من أجل ثنيه عن تحدي الرئيس في الموقع الأول. بدا ذلك جديراً بالمحاولة وإن لم يكن أحد، حتى وقت متأخر من عام 1975، يعرف يقيناً ما إذا كان ريغان سينخرط في السباق. بقينا على اتصال به عبر وسطاء، على رأسهم توم ريد، الذي كان مسؤول اللجنة الوطنية الجمهورية في كاليفورنيا وكان سيصبح وزيراً لسلاح الجو. كان توم من مؤيدي فورد ولكنه كان أيضاً على معرفة جيدة بريغان، وكان الفريق الريغاني يصغي إلى ما يقوله. الشيء نفسه كان صحيحاً أيضاً بالنسبة إلى ستو سبنسر استراتيجي الحملات الذي كان قد ساعد ريغان في حملته للفوز بمنصب حاكم الولاية وكان الآن في فريق فورد.

مع شروع انتخابات الـ 1976 في الاضطلاع بدور متزايد الأهمية في حيواتنا اليومية، عينني رامسفيلد مسؤولاً عن النشاطات ذات العلاقة بالحملة. ولدى معاينتي للمهمة المستقبلية، أصبحت مقتنعاً باستحالة تمكين فورد من الفوز دون الإقدام على استحداث بعض التغييرات المثيرة فعلاً في إدارته. كان جزء من المشكلة، كما رأيته، كامناً في بقائنا، على صعيد الأمن القومي، معتمدين على البنية والشخصيات نفسها التي كنا قد ورثناها عن إدارة نيكسون. لم يكن الرئيس قط قد رسّخ بوضوح تصور أنه كان مسؤولاً عن سياسة الأمن القومي. فاستمرار هنري كيسنجر في منصبي وزارة الخارجية ومستشارية الأمن القومي خلق انطباعاً بأنه كان يفوق الرئيس تحكماً بالسياسة الخارجية.

كذلك كانت ثمة قضية حاسمة ذات علاقة بمنصب نائب الرئيس. من

المؤكد أن روكفلر كان كامل الولاء للرئيس إلا أنني كنت أرى أن من شأنه أن يشكل عبئاً ثقيلاً في المعركة القادمة مع رونالد ريغان. تمثلت الطريقة الوحيدة لتمكين فورد من الفوز بوضع اليد على جزء من القاعدة المحافظة الميالة نحو ريغان. وكان من شأن ذلك أن يبقى مستحيلاً إذا ظل نلسون روكفلر، الشخص نفسه الذي كان قد حاول الوقوف في وجه باري غولدووتر في 1964 قرينه الانتخابي. وإذا ما أصبح معلوماً أن روكفلر لن يكون على البطاقة، فإن من المتوقع أن يبادر عدد من قادة الحزب الجمهوري إلى تأييد فورد طمعاً باحتمال الاختيار قريناً انتخابياً.

لم أتردد في إعلان وجهة نظري، غير أن دون، بعد إحالة ملف الحملة علي، كان أكثر تركيزاً على تحسين الأداء الداخلي للبيت الأبيض. بدأ يعالج ما تكشف عن أنه نص منكرة طويلة جداً للرئيس، تحضه على إصلاح قضايا معينة مثل غياب المحاسبة فيما يخص جهاز العاملين في البيت الأبيض وغياب التنسيق فيما بين جملة فروع التخطيط والسياسة. أنا أيضاً ساهمت ببعض الأفكار، تضخّمت المنكرة حتى أصبحت وثيقة صريحة تماماً[5].

لبيان مدى جدية نظرتنا إلى الوضع وإطلاق يد الرئيس لإحداث التغييرات الضرورية، وقّعْنا، كلينا، طلبي استقالتنا. لم نكن نعني أننا سنترك إذا لم توافق على توصياتنا؛ كنا، بالأحرى، نقول لفورد إننا سنجعل عمله أكثر يسراً إذا كانت فكرته عن التغييرات مشتملة على إخراجنا من الحلبة.

قريباً من نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر 1975، أصيب الرئيس بوعكة صحية شديدة وأمضى يومين في الطابق العلوي من مسكن البيت الأبيض بدلاً من النزول للعمل في الجناح الغربي. انتهزنا، دون وأنا، الفرصة لعودته وإطلاعه على هواجسنا وتوصياتنا. تبين بوضوح أن الرئيس نفسه كان قد توصل إلى بعض تلك الاستنتاجات، وكان سيبادر، في غضون أيام، إلى إدخال جملة كاسحة من التغييرات.

أبلغ روكفلر شخصياً أنه لن يكون على البطاقة في 1976. من الواضح أن نائب الرئيس أُصيب بالخيبة، ولكنه بقي وفياً للرئيس إلى النهاية، وقام بتحويل مندوبي نيويورك في المؤتمر إلى فورد. وافق هنري كيسنجر على التخلي عن

مستشارية الأمن القومي مع الاستمرار في وزارة الخارجية - لعدم وجود أي شك حول تمتعه بثقة الرئيس الكاملة بوصفه المستشار الأول في السياسة الخارجية. وحل محله نائبه برنت سكوكروفت في مجلس الأمن القومي.

كان جيم شليزنجر قد أعفي من منصبه كوزير للدفاع. وعلى الرغم من أن جيم كان شخصاً موهوباً جداً وخلاصة لافتة، فإنه لم يكن قد دخل في قلب الرئيس. فيما كنا نواصل الانسحاب من فيتنام، كان سوء التواصل بين البنتاغون والبيت الأبيض قد تمخض عن إعلان أفاد بأن جميع الأمريكيين كانوا قد أُجلوا بأمان عن سايغون، في حين أن واحداً وستين عنصراً من المارينز كانوا باقين في مقر السفارة. لم يكن الرئيس قد نسي ذلك الخلل، كما لم يكن قد صفح عن هجوم شليزنجر اللفظي على رئيس لجنة التخصيصات البرلمانية. فبعد أن كان الكونغرس قد رد ميزانيتنا الدفاعية، طلب الرئيس من شليزنجر أن يسوق اعتذاراً عن الأمر، إلا أن فورد صُدم حين وصلته تقارير تقول إن وزير دفاعه تحدى رئيس اللجنة جورج ماهون التكساسي. وهذا الأخير كان زميلاً قديماً لفورد في لجنة مخصصات الدفاع الفرعية وأحد أعز أصدقائه.

لم يتصرف شليزنجر بهدوء. فيما بعد أخبرني الرئيس أن افتراقه عن جيم كان أحد أكثر اللحظات التي عاشها تعاسة.

تغيير آخر حصل في وكالة المخابرات المركزية، السي آي إيه، حيث كان المدير بيل كولبي قد غدا عبئاً نوعاً ما بسبب كل السجال الذي دار حول اتهامات الأخطاء التي اقترفتها الوكالة. كان بيل قد بدأ عمله الاستخباراتي في مكتب الخدمات الاستراتيجية، سلف وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إيه). وكان رئيس المحطة في سايغون خلال الجزء الأكبر من الحرب الفيتنامية. وفي 1973 اختاره نيكسون ليحل محل شليزنجر حين نقل الأخير من السي آي إيه إلى البنتاغون. أدرك بيل بوضوح أن تغييراً آخر كان وشيكاً. شعرت في الحقيقة أنه أُعفي ليستقيل [دُفع إلى الاستقالة]. تمت استعادة جورج اتش دبليو بوش من الصين ليحل محله.

جرى تعيين السفير إلى المملكة المتحدة، إليوت ريتشاردسون وزيراً للتجارة، ولاحقاً شغلت منصبه في لندن مستشارة الرئيس، آن آرمسترونغ. أما

روجرز مورتون، الذي كان وزيراً للتجارة، فأصبح مستشاراً للرئيس من جهة ومديراً لحملة فورد الرئاسية من جَهة ثانية.

من الواضح أن الرئيس كان يريد إحلال دون محل شليزنجر في وزارة الدفاع، ولكن دون لم يوافق مباشرة. يوم الأحد الذي سبق قيام الرئيس بإعلان التغييرات الوزارية، لم يكن قد تلقى رد دون بعد. على الطريق إلى فلوريدا للقاء قمة مع الرئيس المصري أنور السادات، استدعاني فورد إلى حجرته العلوية في طائرة سلاح الجو رقم واحد. طلب مني أن أتصل بدون وأن أقنعه بالموافقة على تولي منصب وزير الدفاع، نفذت الطلب. مارست قدراً غير قليل من الضغط على دون كي يقول نعم، ولان أخيراً. بعد خمسة وعشرين عاماً، كنت سأجد نفسي من جديد، داعياً دون رامسفيلد بإلحاح، باسم رئيسٍ آخر للجمهورية، إلى تولي منصب وزارة الدفاع.

صباح اليوم التالي، فيما كان رئيس الجمهورية يستعد لإعلان جميع هذه التغييرات أمام الإعلام، عكف على استعراض كومة من قصاصات الورق التي تحمل أسئلة يحتمل طرحها، بما فيها سؤال عن رئيس جهاز العاملين الجديد الذي كان أحدهم قد دسه تفكهاً. سألت: "سيادة الرئيس، من يكون ريتشارد تشيني بحق الشيطان؟"

ترقيتي إلى مرتبة رئيس جهاز العاملين أثار قدراً ثانوياً من اهتمام وسائل الإعلام، إلا أن ذلك لم يدم فكنت راضياً تماماً. كنت قد أصبحت معروفاً وعلى علاقة ودية مع عدد كبير من المراسلين المغطين لأخبار فورد، وإلى هذا اليوم أرى بعضهم أصدقاء. غير أنني لم أكن قد شعرت بقدر ذي شأن من التعاطف مع المساعدين الرئاسيين المتمتعين بهامش شعبي واسع، ولم أكن عازماً على أن أصبح واحداً منهم. وحين أطلق على الجهاز السري اسم "مقعد خلفي" المستعار تبنيته بوصفه إطراء حقيقياً.

لا يزال زبون رئاسة الجهاز في البيت الأبيض زبون جهاز، الأمر الذي جعلني أرفض عرض الرئيس فورد القاضي بعطف مرتبة وزارية على وظيفتي. كذلك حاولت العزوف عن قبول سيارة تابعة للبيت الأبيض وسائق يوصلني إلى

العمل صباحاً ويعيدني إلى البيت في المساء. كنت مولعاً بقيادة سيارتي الفولكسفاغن الخنفسة، مع أنها كانت بلا واقية أمامية منذ صدمتني إحدى شاحنات فطائر السيدة سميث في إحدى الدوامات المرورية التي تجعل السَّوْق في العاصمة مغامرة حقيقية. إلا أن جاك مارش، حكيم بيت فورد الأبيض، أقنعني بأن من واجبي، وأنا المثقل بالعمل، الاستفادة من الوقت الإضافي الذي كنت ساكسبه كل يوم لصالح العمل إذا توقفت عن السَّوْق بنفسي.

السبب الرئيسي الكامن وراء رغبتي في عدم البروز كان كامناً في القدرة على أن أكون وسيطاً نزيهاً. إذا كان رئيس الجهاز غارقاً في عملية إجراء المقابلات اليومية مؤيداً وجهة نظر محددة، فإنه يفقد المصداقية مع أولئك الذين لا يتفقون معه في الإدارة. يريدون أن يطمئنوا إلى أنك ستذهب إلى الرئيس وتطرح آراءهم بنزاهة دون تحريفها للوصول إلى حصيلة معينة.

غير أن فورد كان شديد الرغبة في قُرْبي، حين أصبحتُ رئيساً لجهاز العاملين، فلم يكن ثمة أي تحول كبير. أحياناً كنت أتساءل عما إذا كان مدركاً حقاً مدى صغر سني حين حمّلني مسؤولية البيت الأبيض. مرة حين شعر أن ابنه جاك، وهو في أوائل العشرينيات من عمره، كان بحاجة إلى راشد يحدثه، طلب مني الرئيس أن أعقد مع الشاب جلسة عم هولندي [جلسة تأنيب شديد]. أرادني أن أتقاسم مع جاك حكمة أعوامي - مبالغاً، باعتقادي، في مدى امتلاكي الفعلي لأي منهما، الحكمة والأعوام. وفي مناسبة أخرى، اصطحبت أفراد عائلتي إلى المكتب البيضوي لالتقاط صورة، وبعد الصورة أطنب الرئيس كثيراً حول مدى روعة أن أبي كان في مثل هذا القوام بالنسبة إلى رجل في سنه. أعتقد أنه كان يفترض أن أبي وأمي كانا مواطنين مسنين. لم أبال بإبلاغه أنهما، كليهما، كانا أصغر منه سناً.

لم أشعر بالحاجة إلى أي نائب لي عند خلافتي لرامسفيلد، إلا أنني قمت بتوظيف عدد من المساعدين الأنكياء فعلاً، بمن فيهم كافانو، ومايك دوفال، وتيري أودونيل، وجيري جونز، وجيم كونور، ورد كافاني. كان ثمة أيضاً شاب صغير جداً يحتل موقعاً خاصاً في الذاكرة بين منتسبي البيت الأبيض أيام فورد. لم يكن فوستر تشانوك قد تجاوز الثالثة والعشرين، ولكنه كان يساعدني في جل

الأمور التي كنت أقوم بها، بدءاً بمتابعة أوامر رئاسية وصولاً إلى تحليل قضايا وتوجهات ذات علاقة بانتخابات الـ 76. كان قد تخرج في جامعة شيكاغو، حيث كان، مثل أكثر زملائه في الصف، من مناضلي اليسار. بيد أنَّ بعضَ السفر فيما بعد التخرج إلى أوروبا الشرقية فتح عينيه. بدأ فوستر عُقْدة حقيقية، ثم ما لبث، بفضل طاقته الخارقة وعقله اللماع، أن بات مشاركاً في بعض أصعب القرارات التي تعيّن علينا اتخاذها. كان احد أروع الناس الذين كنت أعرفهم في تلك السنوات وأوفرهم مواهب. موته بالسرطان في 1980 دفعني مع آخرين كثر إلى التساؤل حول ما يمكن قد حصل.

كنت ناجحاً في الاستخدام كما لم أكن فاشلاً، على ما يبدو، في الصرف من العمل، لأنني كثيراً ما كنت أُحمّل المسؤولية. خلال المسيرة كان من واجبي إعفاء سكرتير البيت الأبيض الاجتماعي، ورئيس إدارة الطيران الاتحادي، ووزير الزراعة، ومدير حملة فورد، وبضعة أشخاص آخرين من مناصبهم. كان أسلوبي مباشراً: لا تلميحات، ولا مجافاة، ولا عمليات صرف مأساوية. تلك لم تكن جيدة بالنسبة لأي من الأطراف - لا الرئيس ولا الشخص المطرود. فكل من كان عاجزاً عن خدمة مصالح الرئيس، بقصد أو من دونه، تعيّن عليه، بكل بساطة، أن يرحل.

كانت إحدى المشكلات التي ظلت مستعصية على الحل الكلي قابعة في ورشة كتابة الخطب، التي ظلت حكراً على بوب هارتمان حتى بعد نقله من الغرفة الملاصقة للمكتب البيضوي. خلال المرحلة الانتقالية من نيكسون إلى فورد كنا، بسبب انخراط بوب من ناحية وجراء افتقارنا إلى بديل واضح في الذهن من ناحية ثانية، قد تجاوزنا بسرعة مفرطة مسألة تحديد موقع صلاحية كتابة الخطب، مما أدى إلى بقائها سائبة دون أن تندمج كلياً بجملة العناصر التخطيطية والسياسية لدى جهاز البيت الأبيض. ظلت مستقلة، دائبة على اتباع برنامجها الخاص وقواعدها الخاصة. والقاعدة التي حاول هارتمان جاهداً أن يفرضها كانت تقول، مثلاً، إن الجهاز لا يمكن أن يراجع أي مسودة خطاب إلا بعد أن يكون الرئيس قد اطلع عليه، وبعد ذلك لم يكن إدخال أي تغييرات ممكناً، لأن الرئيس يكون قد رآها سلفاً.

حتى في الأسبوع الأخير من حملة 1976، لدى توقع كون الجميع دائبين

على السباحة مع التيار، كنا لا نزال مضطرين للتعامل مع هذه المشكلة. في أواخر تشرين الأول/أكتوبر كنا متوجهين جواً مع الرئيس إلى بيتسبورغ، حيث كان سيلقي خطاباً سياسياً صباح اليوم التالي. خلاف عادي حول مسودتين متنافستين دفع هارتمان إلى طرد بات بتلر، أحد صغار أعضاء فريقه. مباشرة اشتبكنا، بوب وأنا، في شجار لفظي - بصوت مرتفع بعض الشيء على ما أتذكر - في حين انصرف بات بعيداً ليتأمل آفاق شاب طُرد للتو من عمله على متن طائرة سلاح الجو رقم واحد. حين عادت الأمور إلى الهدوء، كانت مسألة الخطاب محلولة لصالحي، وأبلغت بات أن هارتمان كان قد طرده، أما الآن فكنت أقوم بإعادته إلى العمل مع منحه درجة.

توليتُ قيادة جهاز عاملي البيت الأبيض طوال فترة إجمالية بلغت أربعة عشر شهراً. باشرتُ العمل لحظة شروع حملة الـ 76 في الهيمنة على جدول الأعمال، ومستحضراً تلك الأيام الغابرة، أجد الذكريات متركزة بأكثريتها على طائرة الرئيس فورد المعروفة باسم طائرة سلاح الجو رقم واحد، أو على موكب للسيارات، أو على جناح أحد فنادق البلاد.

أسعفنا الحظ ببداية موفقة إذ اجترحنا انتصاراً في الانتخابات الأولية في نيوهامبشاير. ما كان أكثر حسماً حتى من جائزة سبعة عشر من أصل واحد وعشرين مندوباً هو الكسب المعنوي. فنيوهامبشاير كانت تعد منطقة ريغانية على نطاق واسع. وعلى الرغم من النتائج المتوقعة والمنتظرة لدى كثيرين، كان فورد قد تحدى التوقعات وأظهر ان ريغان لم يكن، في آخر المطاف، غير قابل للهزيمة. كان هذا هو انتصار فورد الانتخابي الأول خارج غراند رابيدز الكبرى، وهزيمة ريغان الانتخابية الأولى في كل الأمكنة.

كان أحد الأمور التي ساعدتنا في نيوهامبشاير، في الحقيقة، كما اتضح لاحقاً، متمثلاً بالافتراض السائد بعدم توفرنا على أي فرص هناك. فحاكم الولاية ملدريم ثومبسون كان، قبل بضعة أسابيع من التصويت، حين كان يدعو لريغان، قد أكد ذلك الافتراض ووصل إلى حد ضمان فوز ريغان. حتى إذا كان ذلك البيان صحيحاً - وربما بدا كذلك عند إطلاقه - فإن آخر الأشياء التي يريدها المرء هو

الكلام عن أمر مؤكد أو الإيحاء بثقة مفرطة. كان فورد في الوضع الفريد لمن يخوض معركة انتخابية بوصفه رئيساً من ناحية ومرشحاً ضعيفاً من ناحية ثانية، وقد حاولنا تحويل الصفتين إلى ميزتين.

سلسلة متصلة من الانتصارات الأولية المبكرة قلبت الأمور رأساً على عقب وكان فورد بغتة متقدماً بوضوح في السباق. مع حلول أواخر آذار/مارس كنا قد حققنا انتصارات حاسمة في كل من فلوريدا وإيلينوي، وكنا واثقين من أن ريغان، إذا لم يحقق فوزاً يثأر فيه لنفسه بسرعة، كان سيخرج من السباق. من المؤكد أنه بذل جهوداً كبيرة في نورث كارولاينا، اقترض أموالاً لتغطية تكاليف إذاعات تلفزيونية شاملة للولاية، وتقدم علينا بست نقاط في الأوليات التي كانت يوم 23 آذار/مارس. ومع ذلك الفوز الذي حققه كانت المنافسة تتحرك الآن لتتوغل في تكساس، وجورجيا، وإنديانا، وفجأة جاء دوره لإدارة الطاولة. بقينا صامدين باثنين من الانتصارات الهزيلة والمطلوبة بإلحاح شديد - بما فيهما كنتاكي، أقله بفضل النصيحة التي أخذتها من جون شيرمان كوبر في وارسو. خلال أواخر الربيع وفصل الصيف كله، وصولاً إلى المؤتمر الجمهوري في آب/أغسطس، ظلت معركة الترشيح تخاض من بيت إلى بيت ومن صوت إلى صوت، ما أبقانا مستعدين لبذل الغالي والرخيص في سبيل كسب كل مندوب أخير.

حين كنا، الرئيس وأنا، نريد معرفة الوضع الذي نحن فيه فيما يخص عملية اصطياد المندوبين، فإن الرجل الذي كان يحمل الجواب هو جيم بيكر. في تلك الأيام السابقة كان جيمس بيكر الثالث جديداً على السياسة الوطنية مثلي. كان هذا المحامي من هيوستون والبحار السابق قد أثبت جدارته الجمهورية في تكساس منخرطاً في العمل لمصلحة صديقه الطيب جورج اتش دبليو بوش. إن جيم هو من النوع الذي تريده أن يكون قريباً حين تغدو الأمور متوترة ومعقدة، وحتى في منتصف السبعينيات، كان من شأن كل من يتابعه غارقاً في العمل بلجنة الرئيس فورد قادراً على ملاحظة العقل الهادئ والماكر الذي كان رؤساء جمهورية قادمون، بمن فيهم ريغان نفسه، أن يعتمدوا عليه. بوصفه فارسنا المسؤول عن صيد المندوبين، كان جيم عضواً في فريق مركزي يضم أيضاً خبير استطلاعات الرأي بوب تيتر، والمدير السياسي ستو سبنسر، ووكيلَيْ

الإعلانات جون دير دورف ودوغ بيلي. كان جيم مسؤولاً عن جميع التفاصيل ومطلعاً على الوضع الدقيق للعبة في أي لحظة محددة؛ كان يعرف من كان معنا ومن كان ضدنا ومن كان غير ملتزم.

كان عدم التزام المندوب منطوياً على فوائده المشتملة على سيل من الرسائل والاتصالات الهاتفية الودية من رئيس الجمهورية، الذي كان يتصل لا لشيء إلا للاطمئنان على أحوالك وصحتك. ذات أصيل قمنا بنقل كتلة مندوبي بنسلفانيا كلها جواً إلى واشنطن لحضور حفلة كوكتيل مع الرئيس. امرأة من بروكلن، مدمنة على نقل البارودة من كتف إلى كتف، أرادت لقاء مع فورد في البيت الأبيض، إذا لم يكن ذلك كثيراً هل هو أكثر مما ينبغي؟ لا أبداً، تم التأكيد لها. وهل تستطيع أن تصطحب معها كل العائلة؟ نعم، دون ريب. كان الرئيس يأمل في أن تطلب.

كان الجميع يفكرون بالبحث عن مندوبين مع اقترابنا من موعد المؤتمر الجمهوري. ذات ليلة قام متطفل معتوه بالقفز عن سور البيت الأبيض وانطلق عبر المرج الشمالي ملوحاً بأنبوب طوله ثلاث أقدام. تجاهل جملة صرخات مطالبة بالوقوف، ولم يبال بطلقة تحذير دوت في الهواء، وأُجبر الجهاز السري على إطلاق النار وإصابته لإسقاطه أرضاً. في أثناء الفوضى التي أعقبت الحادثة، فيما الأبواق من سائر أطراف المدينة متداخلة فوق البيت الأبيض، سُمع أحد عملاء الخدمة السرية القدامى يقول: "أيها السادة، إذا كان الذي أصبناه للتو مندوباً غير ملتزم، فإننا في ورطة كبرى".

حتى أنا قمت شخصياً ببعض الاستكشاف بحثاً عن مندوبين قبل المؤتمر ببضعة أسابيع، بما في ذلك رحلة إلى الميسيسيبي للسعي إلى تحويل عدد من الأصوات هناك باتجاه فورد. كان هاري دنت، وهو محترف سياسة انتهازي من ساوث كارولاينا وأحد الأركان الرئيسيين الذين كانوا قد نظموا الجنوب لحملة نيكسون في 1968، يرى أننا متوفرون على فرصة لكسب وفد الميسيسيبي. كانت الولاية خاضعة لـ "قاعدة الوحدة"، وحصولنا على أكثرية أصوات المندوبين كان يعني انتقال أصوات الوفد كله إلينا. لم يُقْدم جميع العاملين في الحملة على تبني نصيحة هاري، أما أنا ففعلت، وحققت ربحاً.

مكّنني ذلك من حضور حدثين رئيسيين. كان الأول اجتماعاً لرؤساء فروع الحزب الجمهوري في الولايات الجنوبية بنورث كارولاينا. توفرت لي فرصة مقابلتهم ودعوتهم بقوة إلى دعم جيرالد فورد. كذلك نصحني دنت بأن من المناسب الذهاب إلى جاكسون في الميسيسيبي لحضور لقاء لمندوبي المؤتمر الجمهوري في كل الميسيسيبي. توفرت لي فرصة قضاء وقت مع الرئيس كلارك ريد، وتحدثت أمام الجمهور المجتمع. بوصفها إحدى القلاع المحافظة كانت ولاية الميسيسيبي ميالة إلى ريغان، وكنا نريد أن نبين لهم أننا كنا مستعدين للقتال في سبيل الفوز بأصواتهم.

حين نزلت من الطائرة في المطار الوطني بواشنطن، سمعت نبأ يقول إن رونالد ريغان كان قد أعلن أن عضو مجلس الشيوخ الليبرالي من بنسلفانيا، ريتشارد شفايكر، سيكون قرينه الانتخابي إذا ما تمت تسميته. لم يكن اختيار ريغان لشفايكر إلا مناورة لسحب مندوبي بنسلفانيا من جيري فورد. أجريت اتصالاً سريعاً مع درو لويس، رئيس حملة فورد في بنسلفانيا. طمأنني وطلب مني ألا أبالي. كان سيضمن بنسلفانيا لفورد. أيقنت أنه لا بد من انتهاز اللحظة والعمل على إقفال ميسيسيبي.

ذهبت مباشرة إلى المكتب البيضوي وقدمت توصية بمبادرة الرئيس فورد إلى الاتصال مع كلارك ريد. لم يتردد الرئيس وكان الوقت مناسباً جداً. كان كلارك قد سمع للتو أن ريغان كان قد اختار ليبرالياً من شمال الشرق ليكون قرينه الانتخابي. حتى في زحمة غضب اللحظة، استصعب كلارك التخلي عن ريغان. غير أن فورد لم يكن ليفسح له في المجال لشراء المزيد من الوقت وضاعف الضغط عليه إلى أن حصل على نوع من الالتزام. بعد يومين حلقت طائرة سلاح الجو رقم واحد فوق جاكسون، وبمناشدة مباشرة أخيرة للمندوبين من الرئيس نفسه، كانت الميسيسيبي لنا. نجحنا في حرمان ريغان من المندوبين الإضافيين الذين كان يطاردهم في بنسلفانيا وكنا قد ثبتنا أصواتنا الإضافية في الميسيسيبي.

ما زال مؤرخو السياسة يتحدثون عن مناروة ريغان مع شفايكر بوصفها خطيئة قاتلة، مع أنها قد تبدو، لدى المعاينة الاستعادية، أقرب إلى حقيقة أن

ريغان آنذاك كان قد أضاع فرصته للترشح. فالإعلان المبكر لقرين انتخابي لم يكشف إلا عن فهم واقعي لوجود تدابير يائسة على الطريق. بعد إخفاق ذلك، تمثلت الآراء الوحيدة التي تركها الريغانيون أشبه بنصب الكمائن على طريق فورد بدلاً من السعي إلى زيادة مندوبيهم. وبعد اقتراف عدد من الأخطاء الجدية قبل الدخول إلى المؤتمر، فإن أفضل شيء كانوا يستطيعون أن يعلقوا عليه الأمل هو دفعنا إلى اقتراف خطيئة كارثية تخصنا.

كان المؤتمر المعقود في ساحة كمبر بمركز مدينة كنساس سيتي المؤتمر الأخير الذي بدأ بحالة من الريبة الحقيقية حول الطرف الذي كان سيغادر المدينة مرشحاً. حتى البرامج اللماعة راهنت لتفادي الخسارة بصور لكل من فورد وريغان بوصفه "حامل راية" الحزب. كانت الأرقام ترجح كفة فورد، ولكن المرء لم يكن يعرف، في تلك المؤتمرات القديمة، ما كان يمكن أن يحصل ميدانياً، قبل وصول المندوبين إلى لحظة اتخاذ القرار بشأن الإدلاء بأصواتهم في الليلة الثالثة. كان معسكر ريغان مصمماً على إثارة نوع من دراما لحظة أخيرة، وتمثلت أداتهم المختارة بالقاعدة: 16 ـ سي.

من الواضح أن 16 ـ سي التي حلم بها مدير حملة ريغان، جون سيرز، وهو شخص لامع كان قد أبقانا واقفين على أصابع أقدامنا السنة كلها، كانت تقضي بأن يبادر كل مرشح، قبل بدء الاقتراع، إلى إعلان من سيختاره قريناً انتخابياً. في فريق فورد، أطلقنا على الأمر اسم قاعدة "البؤس يحب العِشْرة" لأن الغرض الوحيد كان هو جر فورد إلى وضعية الإخفاق التي كان ريغان قد أقحم نفسه فيها عبر اختيار شفايكر. بصرف النظر عمن كان فورد سيختاره، فإن الأمر كان من شأنه أن يؤدي إلى إزعاج بعض مندوبينا على الأقل، وإذا تبين أن الاختيار كان ملتبساً، فعلاً أو مفتقراً إلى الشعبية فقد كان من شأنه حتى أن يوحي بما يكفي من انقلابات الساعة الحادية عشرة لترجيح كفة ريغان في المؤتمر.

المعركة الميدانية حول 16 ـ سي تمخضت عن لحظة انكشاف حقيقية بالنسبة إلينا، وتعاملنا مع التصويت على الموضوع بوصفه معركة إنابة عن

الترشيح نفسه. وحين فزنا ليلة الثلاثاء عرف الجميع أن فورد سيكون هو المرشح.

كانت ثمة عقبة أخيرة واحدة وُضعت على طريقنا تلك الليلة، وهنا قررنا أن أفضل الحلول هو تلقي الضربة والمتابعة. حقيقة أن الهدف الفعلي لم يكن فورد بمقدار ما كان كيسنجر، الذي لم يكن شخصاً محبوباً لدى المحافظين، أدت إلى جعل الأمور أسهل قليلاً. بعد التصويت على القاعدة 16 ـ سي، تحول المؤتمر إلى خوض نقاش حول المنبر الحزبي، مع تركيز خاص على ورقة حملت عنوان "الأخلاق في السياسة الخارجية" خطّها السيناتور جيسي هلمز. كان الأمر موضوعاً جمالياً، بحد ذاته، أي نوعاً من التأكيد الطنان لكل ما هو خير ونقي في السياسة الخارجية الأمريكية، مخلوطاً بعبارات النفور من أولئك المتواطئين والمساومين الذين كانوا قد أوصلونا إلى الوفاق الدولي. لم تأت لغة المسودة على ذكر أحد بالاسم، إلا أن الجميع عرفوا الهدف.

بالطبع كان كيسنجر شاحباً. كان يفترض، وهو على صواب إجمالاً، أننا جميعاً كنا نشاركه امتعاضه. غير أنه كان يفترض أيضاً أننا كنا مستعدين لمقاومة هذا الهجوم مهما كانت التكاليف، الأمر الذي لم يكن صحيحاً بالتأكيد. باستثناء صديق هنري وأستاذه القديم، نائب الرئيس روكفلر، كان الإجماع في قيادة فورد العليا هو عدم الإصرار. كنا قد ربحنا المعركة المهمة. فما الداعي لإثارة مشكلة كبيرة حول فقرة صغيرة في وثيقة لم يكن أحد سيقرؤها على أي حال؟

لم يؤد هذا إلى إراحة هنري، وقد ظل هو وروكفلر متأهبين لخوض معركة حين التقينا جميعاً في جناح فورد بفندق بلازا لاتخاذ القرار النهائي. قالا إنه عدوان، امتهان شديد للكرامة، لا يجوز السماح له بأن يمر. استمع فورد إليهما حتى النهاية ثم دار في الغرفة التماساً لنصيحة من الباقين، من ستو سبنسر، والمساعدين توم تيمونز وتوم كورولوغوس، ومني أنا. لم ير أحد منا أي جدوى في القتال. تمثلت وجهة نظرنا بما يلي: انظروا، حققنا للتو فوزاً كبيراً فيما يخص قاعدة 16 ـ سي، ونحن في ساعة متأخرة من الليل، أنصارنا متوزعون على جميع بارات كنساس سيتي؛ إذا ذهبنا إلى التصويت على هذا

فسنخسر، ومن شأن ذلك أن يفضي إلى قلب اتجاه المؤتمر بمجمله. أما إذا تركنا الأمر يمر فلن يتنكره أحد بعد أسبوع واحد من الآن.

غير مقبول، قال هنري. إذا لم نكافح من أجل حذف تلك اللغة المهينة من البيان، فإن الخيار الوحيد الذي سيبقى لنا هو أن نستقيل. للحظة بعد هذا التهديد، لم يتم قول أي شيء. ثم بادر توم كورولوغوس إلى إطلاق ملاحظة بالغة البراعة أفضت إلى تسوية القضية كلها ودفعت حتى كيسنجر إلى القهقهة. قال: "إذا كنت ستترك، يا هنري، فهيا افعل الآن. نحن بحاجة إلى الأصوات".

مساء اليوم التالي، 18 آب/أغسطس، كنت جالساً مع الرئيس فورد وعائلته وهم يتابعون التغطية التلفزيونية لانتصاره العسير في الاقتراع الأول بـ 1187 مقابل 1070 صوتاً. كانت تلك لحظة أخرى في حيواتهم التي ما كانوا قادرين على تخيلها قبل بضع سنوات فقط، وقد غادرتهم سعيداً من أجل بيتي والصغار كما من أجل رئيسي ومعلمي.

وفيما كانوا مشغولين بالاحتفال، ركّزتُ أنا على مسألة الجمع بين فورد وريغان في لقاء المصالحة التقليدي، وطلبت وصلي بجون سيرز. كنا متفقين سلفاً على أن الفائز كان سيزور جناح الخاسر في الفندق؛ ومن ثم كانا سيظهران أمام الإعلام في استعراض للوحدة. في مرحلة التخطيط، وعلى الهاتف في تلك الليلة، وضع سيرز شرطاً واحداً للقاء: لا مجال، في أي ظرف من الظروف، لأن يطلب الرئيس من ريغان أن يكون قرينه الانتخابي.

آنذاك أسفت للأمر حقاً، وكنت، بمبادرة مني، قد بذلت بعض محاولات الاستشعار للتأكد يقيناً من أن الرفض الحازم الصادر عن سيرز والآخرين كان يعكس رغبات ريغان الخاصة. دلت المؤشرات كلها على ثبات الرفض.

بطاقة مزيّنة باسمَيْ فورد وريغان كانت ذات مغزى واضح بنظري. بدأت أفكر بالاحتمالات حتى قبل انتصارنا في كنساس سيتي وحاولت بضع مرات عطف أفكار الرئيس نحو التوجه نفسه. تعين علي أن أتحلى بقدر من الحذر لدى طرح الموضوع لأنني كنت أعلم أن فورد لم يكن مستسيغاً للفكرة، وفي ظل الظروف السائدة كان يزداد مناعة إزاء مفاتن رونالد ريغان أكثر فأكثر. ما كنت بحاجة إليه هو برهان قوي على أن ريغان كان مستعداً لمساعدتنا، بصرف النظر

عن أي عواطف شخصية. وهكذا فإنني طلبت، في أوائل صيف 76، من بوب تيتر أن يجري استطلاعاً للرأي حول الموضوع: بأكبر قدر ممكن من السرية سَلْ عينة من الناخبين عن نمط تجاوبهم مع بطاقة مزينة باسمي فورد وريغان في الانتخابات العامة!

بعد فترة غير طويلة، عاد بوب ببعض الأرقام المشجعة، وأردت إسماع فورد القصة منه مباشرة. في يوم الجمعة، 6 آب/أغسطس، جلسنا في كامب ديفيد وقام بوب بعرض الصورة أمام الرئيس مبيناً دون أدنى شك أن من شأن ريغان أن يضيف تأييداً أكثر من أي قرين انتخابي محتمل آخر. بوصفه طرحاً سياسياً خالصاً، كان الأمر ناجحاً. أصغى فورد بصبر، ولا أنكر أنه اعترض على أي شيء مما قلناه. غير أن اندفاعتنا لم تصل، رغم ذلك، إلى أي مكان. لم يكن راغباً في أن يسمع، نقطة على السطر.

بالطبع، كان المحافظون سينعمون بقدر غير قليل من العزاء، وعودة إلى القصة ربما من الإنصاف القول إن فورد وريغان كانا، كلاهما، حكيمين في شطب موضوع نيابة الرئاسة، وكان حاكم الولاية محظوظاً إذ جرت الأمور كما جرت. وعلى أية حال، كيف يمكن إيصال ريغان إلى الرئاسة دون خسارة حقبة فورد وأربع سنوات من حقبة جيمي كارتر؟

على أي حال، حين اجتمع فورد وريغان في كنساس سيتي، لم يكن ثمة أي مجال يتيح للحديث فرصة الانسياب نحو كلام عن توحيد للقوى في الخريف. وصلنا إلى فندق آلاميدابلازا بعد الساعة الواحدة فجراً مباشرة ودخلنا إلى جناح ريغان. ثم عقد الرئيس وحاكم الولاية خلوة، وحدثني فورد عن اللقاء فيما بعد، انتقل بسرعة إلى الأسماء التي كان ينظر فيها من أجل شغل الموقع الثاني. كان تعليق ريغان على اسم السيناتور بوب دول من كنساس بالغ الإيجابية، إلا أن الاختيار لم يقع عليه آنذاك. غادر فورد اللقاء تاركاً ريغان بحاجة للتفكير بالأمر.

حسب الطريقة التي كان قد سبق اعتمادها للتوافق حول عدد كبير من الأقران الانتخابيين السابقين، كان ثمة اجتماع طويل في منتصف الليل، مع إعلان واجب الصدور مع الصباح، والعالم السياسي كله بانتظار سماع هذا الاسم

أو ذاك. من أولئك الذين طفوا على السطح يذكر: دول، والسيناتور هوارد بيكر من تنيسي، وجون كونالي حاكم تكساس السابق، والسفيرة آن آرمسترونغ، التي كانت شخصية متمتعة بقدر كبير من الاحترام في الحزب منذ سنوات. فكرة وضع اسم امرأة على البطاقة بدت ذات جاذبية كبيرة، وربما بات فورد في تلك الليلة أقرب إلى ذلك الخيار من أي مرشح رئاسي آخر حتى ذلك التاريخ. تمثلت المشكلة بأن عدداً من استطلاعات الرأي أظهرت أن من شأن أي قرينة انتخابية أن تكلفه اثنتي عشرة نقطة. ولكوننا محشورين سلفاً، رأينا أننا غير قادرين على تحمل تبعات تعميق ذلك العجز.

كان جورج اتش دبليو بوش اسماً آخر جرى شطبه من القائمة على مضض، رغم أن الأسباب الكامنة وراء ذلك كانت ستبقى مكتومة لسنوات قادمة. مع أن فورد كان كثير الإعجاب ببوش وراغباً في بحث وضعه على بطاقة الـ 76، فإنه صرف النظر عن بوش لسبب وحيد: حين أقدم فورد على تعيينه مديراً للاستخبارات المركزية قبل سنة، كجزء من عملية النفض التي كانت قد أبعدت روكفلر عن موقع مرشح لنائب الرئيس، توجس ديمقراطيون في مجلسي البرلمان من احتمال حركة سياسية سريعة. طلبوا تأكيدات حول أن بوش لن يعمل في الوكالة مدة عشرة أشهر فقط ثم يصبح قرين فورد الانتخابي. وبعد التشاور مع بوش، قدم فورد للديمقراطيين الضمانة المطلوبة، والآن، في كنساس سيتي، كان الرجل مقيداً بذلك الوعد.

لم يكن أي قرار حول أي قرين انتخابي قد اتخذ مع حلول ساعات الصباح الأولى حين قمنا أخيراً بطي الموضوع. من الجو العام لذلك الاجتماع، تركت الرئيس في جناحه مع انطباع قوي بأن هوارد بيكر سيكون هو الشخص. صباح اليوم التالي، استدعاني فورد إلى جناحه في الطابق السفلي ليبلغني اختياره. كانت السيدة فورد في ثوب الحمام جالسة أمام المرآة وعلبة التجميل حين وصلت، وكان الرئيس يثبت ربطة عنقه. دار بيننا نقاش قصير حول المرشحين، لا سيما بيكر ودول، ثم أخبرني أنه كان قد قرر خوض المعركة مع دول. طلب مني أن أوصله به عبر الهاتف.

ما يثير دهشتي أكثر من أي شيء آخر حين أعود بالذاكرة إلى

الاختيار هو أن نلسون روكفلر كان في مركز القلب من مداولاتنا حول نيابة الرئاسة. كنا نتحدث عن البديل الأفضل لروكفلر من ناحية، وثمة كان روكي [تصغير روكفلر] نفسه يدلي برأيه حول الآفاق التي من شأنها أن تكون الأفضل على صعيد خدمة فورد من الناحية المقابلة. بفعله ذلك كان يقدم صورة صادقة عنه - على الرغم من إحساسي بأن جزءاً من دافعه كان متمثلاً بالرغبة الملحة إلحاحاً جهنمياً في الاطمئنان إلى عدم ذهاب الموقع الثاني إلى ريغان. لا شك أن الروح الجماعية التي أبداها نلسون روكفلر في كنساس سيتي كانت أحد الأسباب التي أبقت قرار إسقاط نائب الرئيس عبئاً ولو خفيفاً على وجدان فورد، حتى بعد عقود. ظل فورد يحس بأنه كان قد خذل صديقاً، رغم أنني لم أشاطره تأملاته التالية. كان هدفنا هو تمكين جيرالد فورد من الفوز في الانتخاب، ولم يكن ثمة أي مجال لتحقيق ذلك مع بقاء اسم نلسون روكفلر على البطاقة.

غادرنا كنساس سيتي يوم الجمعة، 20 آب/أغسطس، شاعرين بقدر غير قليل من الارتياح، رغم عدم وجود موجة عارمة من "حيوية" ما بعد المؤتمرات. على قوة صورته الخارجية، غير الملوثة - مع بقاء ووترغيت وعفو نيكسون ماثلين في الذاكرة، جاهزين للاستغلال - كان كارتر متقدماً بحصوله على 50 بالمئة مقابل 37 بالمئة في استطلاعات غالوب. بالنسبة إلينا كان ذلك التوزع تحسناً بالفعل مقارنة بما كنا قد رأيناه في أعقاب المؤتمر الديمقراطي في منتصف تموز/يوليو، حين جاء فورد متخلفاً عن كارتر بـ 33 نقطة.

حين تكون على ذلك المستوى من التدهور في الاستطلاعات يمكنك، أقله، أن تفترض أنك أسست القاع. من شأن أي تحرك، بالمطلق، أن يكون باتجاهك. يمكن للانحدار أيضاً أن يضفي على أي حملة قدراً من الوميض فيوفر للمرشح الزخم الكفاحي الذي هو بحاجة إليه. في هذه المناسبة، كان الخاسر شخصاً لم يكن قد سبق له أن خرج من أي منافسة إلا منتصراً. رغم دماثته ومرونته المعروفتين، كان جيري فورد في ميدان العراك السياسي شديد التركيز، بالغ التوتر، مدمن انتصارات. ومهما كانت مزاعم استطلاعات الرأي حول الانتخابات

العامة، فإن فورد كان للتو قد تفوق على حاكم ولاية كاليفورنيا وبات يشعر أنه قادر على تدبر أمر الحاكم السابق لولاية جورجيا.

وكما تبين، فقد كاد يفعل. ففي العد الانتخابي، انتهى انتخاب كارتر - فورد لعام 1976 بفارق أقل من أي انتخابات رئاسية منذ 1916، حين تفوق وودرو ولسن على تشارلز إيفانس هيوز. ولم تكن أمريكا سترى منافسة أخرى بمثل هذا القرب حتى سباق بوش - غور في العام 2000.

بوصفي صاحب دور في حملتي فورد وجورج دبليو بوش الانتخابيتين، فإني مندهش إزاء مدى التغيير الحاصل في الخارطة خلال ربع القرن الفاصل بينهما. في 1976، مثلاً كان الديمقراطيون يعولون على الجنوب كله، فحصلوا عليه باستثناء فيرجينيا. أكثرية تلك الولايات نادراً ما انتخبت ديمقراطيين منذ ذلك التاريخ. كان سبقاً حصل فيه الديمقراطي على تكساس وميسوري، وحصل فيه الجمهوري على نيوجيرسي وأكثرية نيوإنجلند، وكانت كاليفورنيا لا تزال ساحة جمهورية صامدة إلى حد معقول. في عام 2000 حين كنت شخصياً على البطاقة قدمت الصورة عالماً مغايراً. والدرس الذي أستخلصه هو عدم المبالغة بالاهتمام بأي كلام عن "احتكار" حزب معين لولاية أو منطقة محددة. ففي غضون جيل واحد، من شأن أي خارطة سياسية أن تنقلب عملياً رأساً على عقب. حين تسمع أن حصيلة انتخابية رئاسية جاءت "تحويلية"، محدثة إنقلاباً أبدياً في العالم السياسي، يمكنك أن تضع ذلك التحليل في خانة "صحيح ونافذ لمدة أربع سنوات بالضبط".

في حملة 1976 الانتخابية لم يكن هدفنا "تحويل" أي شيء بالطبع سوى أرقام الاستفتاءات المكربة أمامنا. بقاؤنا المجرد في الحلبة كلفنا كل ما كنا نملكه. أسبوعاً بعد أسبوع ظل فورد يشق طريقه بصعوبة، وشيئاً فشيئاً بات قريباً من خصمه. كنا نرى أننا نكسب نقاطاً على كارتر، الذي كان أيضاً في حملته الوطنية الأولى ومقترفاً بضعة أخطاء تخصه. غير أن العملية كانت حرثاً بطيئاً في حقل شاسع. خوفي المزعج على امتداد الحملة تمثّل باحتمال مداهمة الوقت لنا.

أوصت خطة انتخابية وضعها مايك دوفال، وفوستر تشانوك، وبوب تيتر، وجيري جونز، بدخول الرئيس مع كارتر في سلسلة من الحوارات. أبدى الرئيس

إعجابه بفكرة شن الهجوم وأطلق تحدي الحوار عبر خطابه في المؤتمر. كانت تلك حركة أكثر جرأة مما قد تبدو اليوم، بعد أن أصبحت الحوارات الرئاسية من المسلمات وصار يُتوقع حتى من مرشحي نيابة الرئاسة أن يدلوا بدلائهم. لم يكن ثمة أي سجالات منذ كنيدي ونيكسون في 1960، ولم يكن أي رئيس في المنصب قد اقترح أي ظهور متلفز مع خصمه، أو وافق عليه.

حوارات فورد - كارتر باقية في الذاكرة الآن بسبب مبارزة واحدة دفعنا ثمنها بوضوح. يبدو أن من غير المجدي ملاحظة أن فارسنا خرج من الجولة الأولى عظيماً وصاعداً في الاستطلاعات. كانت الجولة الثانية، في سان فرانسيسكو يوم 6 تشرين الأول/أكتوبر هي التي قطعت زخمنا.

جاءت المشكلة مع سؤال موجه إلى الرئيس من ماكس فرانكل، أحد محرري "النيويورك تايمز". كان السؤال ذا علاقة بألوان تعامل أمريكا مع السوفييت، وأوحى فرانكل بأن اتفاقيات هلسنكي شكَّلَتْ تسليماً بالهيمنة السوفييتية على أوروبا الشرقية. لامس ذلك وتراً حساساً عند فورد الذي كان يشعر بأن هلسنكي جرى تشويهها، وفي أثناء إجابته قال الرئيس: "ليس ثمة أي هيمنة سوفييتية على أوروبا الشرقية، ولن تكون أبداً في ظل إدارة فور". وحين واصل فرانكل إلحاحه من جديد شرح الرئيس جوابه قائلاً: "لا تقر الولايات المتحدة بأن تلك البلدان خاضعة لسيطرة الاتحاد السوفييتي".

متابعاً المشهد على الشاشة من الغرفة الخضراء خلف المسرح، وجدته غريباً، غير أنني لم أتوقع أن يتمخض عن مشكلة خطيرة. ومع انتهاء فترة الدقائق التسعين، اعتقدت، في الحقيقة، أن فورد كان، باستثناء تلك الدعسة الناقصة، قد سجل أيضاً أداءً ممتازاً وقوياً. غير أنني ما لبثت، بعد فترة غير طويلة، حين قمنا، سبنسر وأنا، بالزيارة المألوفة إلى الجسم الإعلامي بعد الحدث، أن أدركت أن شيئاً نتناً كان حاصلاً حين رآني صديقي لُو كانون من "الواشنطن بوست" وناداني: "هيا قل لي يا تشيني ما عدد الفرق السوفييتية الموجودة في بولونيا؟"

زلة الرئيس، تلك التي راح البعض سلفاً يطلق عليها عنوان "تحرير أوروبا الشرقية، كانت القصة الوحيدة المستمدة من تلك السهرة. استطلاعاتنا

الميدانية الجارية في أثناء الحوار لم تسجل أي تأثير سلبي لتصريح فورد. إلا أن الصحافة وحملة كارتر كانتا دائبتين على توظيف الحدث، ومع حلول اليوم التالي بتنا نتعرض لقدر غير قليل من الأذى. لدى صعودنا إلى طائرة سلاح الجو رقم واحد للطيران ساعة واحدة إلى لوس أنجلس، كنت واثقاً من أن أي شيء أقل من سحب التصريح والتراجع عنه لن يجدي. ببساطة كان سيتعين على فورد أن يعترف بأنه اقترف خطأ، زلة لسان، أن يقدّم تفسيراً، وأن يطوي هذه الصفحة.

ما إن صرنا في الجو حتى توجهت مباشرة إلى حجرة الرئيس وبسطت الأمر. لم يقتنع فورد بما قلته، بقي مصراً على أن الخطأ كان بريئاً وأن الناخبين لن يحاسبوه عليه ـ بطبيعة الحال كان زعيم العالم الحر مدركاً لحقيقة أن القوات السوفييتية لم تكن في أوروبا الشرقية بدعوة من أهلها. حين صرفني فورد، رحت أبحث عن دعم ثم ما لبثت أن عدت مصطحباً ستو سبنسر الذي ساهم في تبصير الرئيس وإفهامه بأن الأمر كان أكبر مما يظن.

حسناً، أخيراً وافق فورد. كان سيحاول جلاء الموقف في المحطة التالية. ولكن حتى التصريح الذي أدلى به بُعَيْد ذلك في جامعة كاليفورنيا الجنوبية مع تصريح إضافي صباح اليوم التالي أدلى به أمام فريق أعمال سان فيرناندو فالي لم يفعل شيئاً على صعيد إخراجنا من المأزق الذي كنا فيه. كان لا بد لأحدهم من أن يقول للرئيس إن "تفسيريه" لم يكونا متصفين بما يكفي من الوضوح. تعين عليه أن تواجهه المشكلة والصحافة مواجهة مباشرة، وكان لا بد لذلك من أن يتم مباشرة، قبل مغادرته لكاليفورنيا الجنوبية.

حين نجحنا، سبنسر وأنا، في حشره بالزاوية فوافق على التصدي للمشكلة وجهاً لوجه، كنا في مكتب رئيس البلدية في مبنى البلدية في غلنديل. للتو كان فورد قد خاطب جمهوراً في الشارع، وكنتُ عائداً ومنخرطاً في الكلام مع المراسلين، المبالغين قليلاً في الاستمتاع بهذا كله. باتوا لا يكتبون عن أي شيء سوى كلام الرئيس. قلت للرئيس إن بإمكاننا دعوة الإعلاميين إلى الحديقة الخلفية فيتمكن هو من جلاء الأمور للمرة الأخيرة هناك.

حتى عندئذ كان بحاجة إلى إقناع، غير أننا لم نيأس إلى أن قال أخيراً:

"يا للمصيبة! حسناً، سأفعل". مع قيام السكرتير الصحفي بسوق الإعلاميين إلى المكان، تولينا نحن مراجعة ما كان فورد سيقوله بعناية. حين حل موعد الخروج كنت لا أزال متخوفاً من ألا يتحلى بما كانت اللحظة تتطلبه من صراحة ومباشرة، فقلت: "سيادة الرئيس، هل رسّخت في ذهنك بثبات ما أنت راغب في قوله؟" استدار نحوي متوتراً وقال، واخزاً صدري بسبابته وخزة مع كل كلمة: "بولونيا ليست خاضعة للهيمنة السوفييتية!" وضحك ضحكة واسعة، وأدى أداؤه مع الصحافة بعد بضع لحظات إلى إبراز المرشح في أفضل حالاته.

لم يكن ثمة أي مجال للالتفاف حول النكسة التي كانت قد أصابت حملة فورد، ولكن الرئيس ما لبث ان أصبح متوازياً تقريباً مع كارتر في الأيام الختامية من الانتخابات. بل وجده استطلاع غالوب متقدماً بنقطة قبل الانتخاب بيوم واحد. كنا نحلم بالفوز، ولكن مع التحلي بما يكفي من الواقعية لإدراك ضرورة القيام بكل شيء لشق طريقنا في النهاية. وإنجاز ذلك، في تلك الساعات الأخيرة، بدا طرحاً بالغ الصعوبة.

أرى أن ذلك هو السبب الذي جعلنا نجد أنفسنا شديدي العاطفية في المحطة الأخيرة من الحملة، في مسقط رأس فورد: غراند رابيدز. صباح يوم الانتخاب، قام مواطنو غراند رابيدز بإزاحة الستارة عن تقدمة خاصة. كانت التقدمة لوحة جدارية في صالة انتظار المطار المحلي عليها مشاهد من حياة فورد من السنوات الأولى إلى الرئاسة. حين رآها للمرة الأولى تلعثم قليلاً ثم تحدث عن أمه دوروثي وأبيه المتبني: جيرالد آر فورد الأب، وعن كل ما فعلاه من أجله. كانت لحظة صادقة ولذيذة يمكن أن تتم رؤيتها في أثناء حملة انتخابية، وذلك الشعور الأصيل في الغرفة ـ اعتزاز بلدة معينة بابن مفضل، وامتنان رجل محب لأبويه ـ فعل فعله في الجميع. أتذكر كيف نظرت إلى البقعة المخصصة للإعلاميين فرأيت بضع دموع حتى هناك. كان ذلك تذكيراً لنا جميعاً بأن الحياة الوظيفية التي بدأت هناك في غراند رابيدز كانت قصة ذات شأن، ولم يكن الاقتراع المنتظر قادراً على أخذ أي شيء من جملة الإنجازات المتحققة في حياة هذا الرجل الطيب مهما كانت نتيجة لعبة القدر في ذلك اليوم.

***

كنت اضطلعتُ بدور آخر غير متوقع في انتخابات 1976. صباح الأربعاء، بعد وصول النتائج، حان وقت الاتصال بالرئيس المنتخب كارتر. كل ما استطاع فورد نو الصوت المبحوح تماماً أن يفعله هو النطق ببضع كلمات تهنئة قبل إحالة السماعة عَلَيّ لتلاوة بيانه الرسمي المتضمن تسليماً بنتيجة الانتخاب. إذا كان جيمي كارتر قد استمتع بجرس صوتي ذات مرة، فتلك كانت المناسبة. لم أبال بالمهمة، غير أن اللحظة كانت، بالتأكيد، لحظة عظيمة في حياة كارتر، بعد أن اكتسب الرضا واللقب الذي يعود إليه.

أصدق لمحات الديمقراطية في غمرة العمل لا تأتي دائماً في أثناء انتخابات رئاسية، بل بعدها مباشرة، حين يبادر فريق فجأة إلى وضع نفسه في خدمة الفريق الآخر. بين عشية وضحاها يتم الانتقال من شعار: "كيف نهزمهم؟" إلى شعار "كيف نساعدهم؟" لنهائية الهزيمة طريقة لإيقاظ النوايا الحسنة في المكان كله، أحياناً أكثر مما كان قد ظنه الطرف الخاسر ممكناً.

ذلك كان هو وضع الانتقال من فورد إلى كارتر. مما فاجأني فعلاً أنني لم أجد أي صعوبة في المبادرة إلى إطلاع جاك واطسون، رئيس انتقالية كارتر، وباقي أفراد الجهاز الجديد، على التقنيات الحديثة. بموجب أوامر من فورد مع تفاصيل عالجها جاك مارش والمساعد العسكري الميجور بوب باريت، تمثلت مهمتي بالتأكد من تمكين فريق كارتر من الانتقال الهادئ والمنتظم إلى السلطة، ذلك الانتقال الذي لم يسبق لفورد أن حصل عليه قط. كان فريق فورد كله شديد الاعتزاز بتنفيذ رغبات الرئيس.

في العشرين من كانون الثاني/يناير 1977، بعد تناول وجبة الفطور مع كبار موظفي جهاز العاملين في البيت الأبيض مع بعض أعمال الفرز والحزم الأخيرة في الجناح الغربي، قفزتُ إلى رتل السيارات المتوجه نحو الكابيتول. قَدَّرْتُ أنها ستكون المرة الأخيرة التي أرى فيها حفل تنصيب عن قرب، وكانت الخطة من هناك هي المغادرة مع الرئيس السابق فورد على متن الحوامة إلى قاعدة آندروز الجوية. داخل البوابة المفضية إلى قاعة الكابيتول المستديرة المقببة مباشرة، تابعت جيمي كارتر وهو يؤدي القسم ويبادر بعد ذلك بمسحة مفعمة

باللباقة إلى توجيه الشكر إلى جيرالد رودولف فورد "على كل ما قد فعله لمداواة بلدنا". قبل لحظات، كنت أيضاً قد أشرت إلى متابعة عملية النقل الفعلي للسلطة. ولحظة كان كارتر قد انتهى من تلاوة قسم الرئاسة، تابعت عملية انتقال "كرة القدم" - الحقيبة الثقيلة المشتملة على المفاتيح والرموز النووية - من يدي مساعد فورد العسكري إلى يدي نظيره لدى كارتر.

كانت ثمة مصافحات ووداعات على الطريق إلى الطوّافة (الحوامة)، ومع إقلاعنا وتحليقنا فوق قبة الكابيتول، لم يكن قد بقي شيء كثير جديد بالقول. لين والبنتان كنّ بانتظاري في مطار آندروز؛ التحقن هناك بركب حشد كبير لوداع عائلة فورد في رحلتها إلى كاليفورنيا. وماذا بعد بالنسبة إلينا نحن؟ دونما عمل، مع قليل من التخطيط، وقبل عشرة أيام فقط من يوم ميلادي السادس والثلاثين، انحشرنا في سيارتنا الفان الستيشن الفضية وقررنا الحصول على شيء نأكله. خارج بوابات آندروز مباشرة ثمة مطعم ماكدونالد مررت به مئة مرة في عربات البيت الأبيض، مشغولاً دائماً بأشياء أفضل أفعلها بدلاً من التوقف لتناول سندويشة ماك كبيرة مع المقالي. الآن كانت القصة مختلفة، وجرى تخصيص بعد الظهر لوجبة غداء متمهلة تحت الأقواس الذهبية.

كانت الطريق ستوفر فيضاً من الوقت للحديث عن سنوات فورد ودوري أنا في القصة. وما هو أفضل، أن رئيسنا الثامن والثلاثين كان سيعيش سنوات بعد التسعين، وكانت صداقتنا ستتقدم مع تقدم الأعوام. غير أن نفض شعور الخيبة إزاء الاقتراب كثيراً من الفوز بفترة كاملة لجيري فورد دون الوصول إلى الهدف، في شتاء 1977، كان صعباً.

عزاؤنا هو أننا، زملائي وأنا، كنا على يقين، أقله، أن رئاسة جيرالد فورد لم تكن ناقصة إلا من حيث عدد أيامها البالغ 895 يوماً. امتلأت بما يكفي لإقامة أطول بكثير من الامتحانات والمحن والأحداث. ونحن الذين كنا قد عملنا مع هذا الرئيس كنا مدركين أنه كان قد أثبت جدارته بذلك المنصب مثل أي شخص سبق له أن كان هناك. كنت دائم الإعجاب بملاحظة المعلق الراحل ديفيد برودر الذي كتب يقول إن فورد كان بالضبط ذلك النوع من الأشخاص الذين يقول الأمريكيون إنهم يريدونهم رؤساء، غير أنهم لم يدركوا ذلك عندما فازوا به.

أما ما أنا مدين به للرجل فيفوق قدرتي على التسديد، على الرغم من أنه لم يكن من النمط الذي يجعلك تحس بأنك مدين. جل الأشياء التي كانت بعده في حياتي العملية أعيدها إلى الفرصة التي منحني إياها والثقة التي أنعم بها علي. آخرون كُثر سيروون القصة ذاتها عن أنفسهم. بين مخضرمي سنوات فورد، ثمة أيضاً نوع من الدفء والروح الرفاقية اللذين لا تجدهما دائماً بين خريجي إدارات سابقة. سيخبرونك كلهم أن هذه الروح الطيبة السمحاء بدأت مع قائدنا.

أما الخيبة التي شعرتُ بها في شتاء 1977 فقد تركت مكانها منذ زمن بعيد لنوع من الامتنان الخالص إزاء أحد أعظم وأسعد التجارب في حياتي. تذكاري المفضل من تلك الفترة هو رسالة من أمي حفظتها في إطار لسنوات. كتبتها في اليوم التالي لانتخاب 76، قائلة: "من الصعب كبت ما أحس به - فيض من الحب، كثير من الاعتزاز، وأنا واثقة من أنك ستتجاوز هذا مدركاً أنك بذلت أقصى ما لديك من جهد". ذلك هو ما يبقى لك في الحياة أحياناً، أعني ذلك اليقين بأنك كرست لعملك أفضل ما عندك من طاقة. وأحياناً يكون ذلك كافياً.

الفصل الرابع

حضرة السيد من وايومنغ

فيما كانت عائلة كارتر تحط رحالها في البيت الأبيض، كانت عائلتا تشيني ورامسفيلد في إيلوثيرا، تلك الجزيرة الصغيرة في الباهاما، تمضيان إجازة في كوخ انتجاع مستعار. سبحنا وأبحرنا، ولعبنا التنس، واستمتعنا برشف حساء المحار، أحد أطباق الجزيرة الشهية. كذلك أمضينا عدداً من الأماسي مُجْهِزين على وجبة روستو (شواء) هائلة كانت جويس رامسفيلد، خبيرة فنون الاقتصاد انسجاماً مع الراتب الحكومي، قد أعدتها في البيت وجلبتها معها بين الحقائب.

بعد عامين ونصف بالغي الكثافة والإجهاد، كان الاسترخاء في الباهاما استراحة مرحب بها كثيراً، إلا أنني، حين عدنا إلى واشنطن، كنت ملزماً بالتفكير بما كنت سأفعله بما بقي من حياتي. فعمر الستة والثلاثين عاماً أصغر من أن يسوغ التقاعد. كنت قد فقدت الرغبة في العودة إلى الحياة الأكاديمية ـ البحثية التي بدت مفرطة الترويض بعد جولة في البيت الأبيض أيام فورد. كانت ثمة فرص معينة في القطاع الخاص، غير أنها منطوية أحياناً على التحول إلى جزء من المؤسسة الواشنطنية الدائمة، الأمر الذي لم يكن يجذبني.

أخيراً قررت أن ما أردت فعله حقاً تمثل بالترشح لأحد المناصب. أردت أن أدرج اسمي في قائمة المرشحين، وإذا كان ذلك هو خياري، فإن المكان الأفضل بالنسبة إليّ كان وايومنغ. لم يكن مؤكداً قط أن من شأن فرصة الترشح ستكون قريبة، إلا أنني، بعد اتخاذ القرار القاضي بالرغبة في متابعة حياة خدمة عامة

هناك في مسقط الرأس، وجدت أن لا معنى للتسكع في واشنطن. وكما سبق لي أن قلت لعدد كبير من المرشحين الطموحين، فإن عليك، إذا أردت الترشح لشغل وظيفة، أن تخرج من العاصمة وتستقر في مكان ما من البلاد حيث يمكن أن تتوفر لك فرصة للترشح. تبقى واشنطن ملأى بأولئك الراغبين في شغل المناصب والمؤهلين لذلك، غير أنهم لا يستطيعون أن يقنعوا أنفسهم بجدوى الإقدام على تلك الخطوة الأولى.

في حزيران/يونيو 1977، مع تعطيل المدارس، حمَّلْت شاحنة أجرة وتوجهت بها إلى كاسبر، ثم عدت إلى واشنطن، واستأجرت شاحنة أخرى، وكررت الرحلة، مصطحباً ماري ذات السنوات الثماني هذه المرة. قطرتُ خنفستنا الفولكسفاغن بالشاحنة القاطرة، وبمساعدة لين ملأتها بالنباتات المنزلية. كانت ماري، المسلحة بقارورة ويندكس قديمة ملأى بالماء، مكلفة برش النباتات بالماء كلما توقفنا للتزود بالوقود.

هناك في مسقط الرأس، أوينا إلى بيت مريح قديم ذي شرفة أمامية فسيحة. بيت أبيض بمصاريع خضراء، كان قد شيد في 1916 من قبل إحدى العائلات الزراعية [صاحبة المزارع] الأصيلة في وايومنغ الوسطى. كان بحاجة إلى كثير من الصيانة التي قمنا بمعظمها بنفسينا، لين وأنا، من إزالة ورق الجدران إلى ترميم السقف. التحقت بمجلس أحد البنوك المحلية وأنجزت بعض الأعمال لمؤسستنا القديمة: برادلي وودز وشركاه. حصلت لين على ساعات تدريس في الكلية المحلية.

ازدهرت العائلة. البنتان ليز وماري استقرتا مباشرة في مدرستين جديدتين، درجتا على ركوب دراجتيهما الهوائيتين في حارتنا ذات الأزقة المشجرة، وتعلمتا فنون التخييم وصيد السمك. أجدادهما كانوا سعداء بوجود حفيدتيهم الوحيدتين على مسافة خمس دقائق. لين وأنا قمنا بتجديد صداقات قديمة وبناء أخرى جديدة.

بدا عام 1978 موشكاً على التكشف عن عام سياسي كبير في وايومنغ، مع كل مناصب الولاية بدءاً بالمحافظة وانتهاءً بأصغر الوظائف. يضاف إلى ذلك أن

حاكم الولاية الجمهوري السابق وعضو مجلس الشيوخ الأمريكي لدورتين، كليف هانسن، كان قد أعلن عن عدم اعتزامه للترشح من جديد، محدثاً كثيراً من الجلبة في أوساط الحزبين كليهما حول المقعد، أما المنصب الوحيد غير المتاح فكان مقعد وايومنغ الوحيد في مجلس النواب، إذ إن عضو الكونغرس الديمقراطي تينو رونكاليو، وهو أحد مخضرمي المجلس منذ عشر سنوات، كان متوقعاً أن يحقق فوزاً سهلاً في عملية إعادة الانتخاب.

بُعَيْد عودتنا إلى كاسبر، ذهبت إلى تشيين التماساً للنصح من حاكم الولاية السابق ستان هاثاواي حول الآفاق المستقبلية في الولاية. كان ستان قد ساعدني في الحصول على وظيفتي السياسية الأولى مستخدماً داخلياً في مجلس شيوخ وايومنغ عام 1965، حين كان رئيساً لفرع الحزب الجمهوري في الولاية، ومتمتعاً بالاحترام بوصفه حاكم ولاية عظيماً وشيخاً جليلاً من شيوخ الحزب الجمهوري. كنت أعرف أنني أستطيع التعويل عليه على صعيد الحصول على نصيحة صريحة حول آفاقي المستقبلية - وجوداً أو عدماً - ولم يخيبني. حين أبلغته بالتوقف بعض الشيء عند فكرة السعي لشغل مقعد في مجلس شيوخ الولايات المتحدة الذي أخلاه كليف هانسن، قال: "يمكنك ذلك. يمكنك الترشح لعضوية مجلس الشيوخ، غير أن آل سيمبسون سيركلك على مؤخرتك إذا فعلت".

كان آل المرشح المثالي لأي منصب يريده. كان موشكاً على إنهاء اثنتي عشرة سنة في مجلس وايومنغ التشريعي، الأخيرتان رئيساً مؤقتاً. كانت لعائلته جذور عميقة في وايومنغ، أبوه كان حاكماً وعضو مجلس شيوخ. العائلة السيمبسونية كانت متمتعة، بنظر الناس في طول الولاية وعرضها، بقدر رفيع من الاعتبار، وكان آل - طويل القامة، بالغ النشاط، وكثير المرح والطرافة - يتقن فن كسب أي حشد بالمزح والجد على حد سواء. كان ستان هاثاواي على صواب. فكل من ترشح ضد آل - في 1978 وحملتيه التاليتين - نال نصيبه من الركل على المؤخرة.

أدى حديثي مع ستان هاثاواي إلى وضع حد لأي فكرة كانت تراودني حول الترشح لعضوية مجلس الشيوخ، ونظراً لعدم اهتمامي بأي منصب في

الولاية، بدا كما لو كنت مقبلاً على تعليق طموحاتي السياسية لبعض الوقت. إلا أن ذلك كله ما لبث أن تغير في يوم مشمس من أيلول/سبتمبر حين دلف عضو الكونغرس رونكاليو إلى حجرة الإعلام في إحدى مباريات جامعة وايومنغ لكرة القدم وأبلغ جمهور مستمعي الراديو بعزوفه عن التفكير بالترشح لإعادة الانتخاب. أفضى إعلان تينو إلى تمكيني من تسجيل اسمي في قائمة الترشح أملاً بالعودة إلى واشنطن عضواً في مجلس نواب الولايات المتحدة.

الاجتماع الأول للجنة "تشيني مرشحاً للكونغرس" لم يكن إلا حدثاً صغيراً، أربعة أشخاص فقط: لين، وديف نيكولاس، وسلست كولغان، وأنا. كان ديف أحد زملاء المرحلة الثانوية واضطلع بمهمة وكيل (إشبين) العريس في زواجنا. كان في هارفارد وفي كلية حقوق جامعة وايومنغ، ويمارس المحاماة الآن في لارامي. هو وزوجته كارين، زميلة ثانوية أخرى، التي كانت الآن تمارس التدريس في الجامعة، كانا من أقرب أصدقائنا. وافق ديف على أن يكون رئيس حملتي الانتخابية. قام بتجنيد شقيق لين، مارك، ليكون أمين صندوق الحملة، مسؤولاً عن تعقب الأموال وتصنيف سائر التقارير الاتحادية المطلوبة.

كانت سلست كولغان قد تقاسمت وظيفة مع لين حين كانتا مدرستي لغة إنجليزية بجامعة وايومنغ. وبوصفها كلية السنوات الأربع الوحيدة في الولاية، تبقى الجامعة من نواح كثيرة القاسم المشترك لسياسة الولاية. وقد كنت سعيداً إذ حصلت على شهادتي من جامعة وايومنغ بعد حركتي الالتفافية التي كانت قد قادتني إلى نيوهيفن.

كانت سلست من ريفرتون، بناحية فرمونت، حيث كان أخوها بروس ماكميلان، وهو عضو مجلس ولاية تشريعي، يدير مخزناً لرافعات العلف والأدوات الزراعية. كان اتصالي الوحيد في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى ريفرتون ببروس، لم يكن مستعداً للالتزام بتأييدي في تلك المرحلة، إلا أنه جال معي وعرّفني على عدد من الأشخاص ـ وتلك كانت بداية.

هناك في لاندر، وهي بلدة أخرى رئيسية في مقاطعة فرمونت، التقيت جاك نيكولاس، شقيق ديف، الذي كان قاضي الناحية المحلي. قام جاك وزوجته أليس

بتقديمي إلى جودي لغرسكي، وهي جمهورية نشيطة وكاثوليكية متشددة، كانت مستعدة لتأييدي بسبب موقفي المناهض للإجهاض. وكلما ذهبت إلى لاندر كنت أقيم مع جاك وأليس وألتقي المزيد من أصدقائهما وجيرانهما.

وصلت إلى كودي ولم يكن معي سوى اسم رئيسة فرع الحزب الجمهوري في الناحية، التي تكرمت بالموافقة على إجراء بعض الاتصالات ودعوة عدد من النساء إلى بيتها للقاء هذا الزبون الذي لم يكن قد سمعن عنه أي شيء والراغب في الترشح لعضوية الكونغرس. إحدى النساء كانت ملدرد كوغيل، معلمة مدرسة سابقة، ما زالت حية بعد وفاة زوجها، قاسية كالأظافر، وذات قلب من ذهب. كانت ملدرد إحدى أكثر الشخصيات تمتعاً بالاحترام في وايومنغ الشمالية - الغربية. إذا شهدت لك، فأنت بكل خير في بارك كاونتي. ضمّتني تحت جناحها، وكنا نقيم في منزلها كلما ذهبنا إلى هناك. وضعتني في خانة ابنها بالتبني، غوردون برودريك، الذي كان وكيل شركة جنرال موتورز في باول، البلدة التالية. أقام غوردون وزوجته إستير حفلاً لتمكيني من لقاء أصدقائهما. تلك هي الطريقة التي تجري بها الأعمال في ولاية تنتشر فيها كتلة سكانية مؤلفة من أقل من خمس مئة ألف على مساحة مئة ألف ميل مربع.

كنت أعلم أن حملتي يجب أن تبدو وتعطي انطباعاً مثل وايومنغ. آخر ما كنت أريده هو استيراد أعداد من الغرباء ممن كانوا سيكلفونني كثيراً من المال، ويسيئون معاملة المحليين، وسيجعلون الأصوات التي أخسرها أكثر من تلك التي أكسبها في النهاية. الصداقة والخبرة المهنية بررتا استثناءات قليلة من تلك القاعدة. كنت قد عملت مع بوب تيتر في حملة فورد، فطلبت مساعدته في إجراء استطلاعنا للرأي من قاعدته بميتشيغان. وطلبت من بوب غاردنر، زميل وصديق آخر من عهد فورد، أن يعمل ساعات إضافية من وكالته في سان فرانسسكو، ويساعدنا في الإعلان والإعلام. مساعدتي في جهاز العاملين بالبيت الأبيض كاثي بيرغر كانت قد عادت إلى مسقط رأسها في بيتسبورغ، إلا أنها، ما أن اتصلتُ بها حتى وافقت أن تترك كل شيء وتتوجه إلى كاسبر. كان توليها إدارة مقر قيادة الحملة، والإشراف على المتطوعين، وتنظيم جدول أعمالي، أمراً عظيماً.

أخيراً، قررت أن أقوم بشيء يوصي الخبراءُ دائماً بعدم القيام به، ألا وهو

الاضطلاع بمهمة مدير حملتي الخاصة. صحيح أنني كنت أترشح للمرة الأولى، غير أنني لم أكن مبتدئاً تماماً فيما يخص الحملات الانتخابية. كنت قد توليت إنجاز سائر المهمات بدءاً بتوزيع الأزرار لصالح أحد المحافظين وانتهاءً بصوغ أسئلة استطلاع الرأي لأحد رؤساء الجمهورية. لم أستطع تصور استئجار أحد يقوم بتوجيهي حول ما ينبغي فعله.

كل عضو في الكونغرس سيؤكد لك أن دائرته البرلمانية خاصة، وذلك صحيح فعلاً، لا قولاً فقط، بالنسبة إلى وايومنغ. إنها كبيرة وجميلة، ذات جبال عالية وبراري تمتد إلى ما لا نهاية. والكتلة السكانية الصغيرة تعني انك كثيراً ما تستطيع أن تقطع مسافات دون أن ترى نسمة. في إحدى المرات اصطحبت المصور الفائز بجائزة بوليتزر ديفيد كنّرلي، الذي كنت قد تعرفت إليه في البيت الأبيض أيام فورد، إلى رحلة انتخابية بين كاسبر ولارامي. بعد أن سرنا ساعة أو نحوها دون أن نرى بلدة قال: "يا لها من مسافة طويلة بين ناخب وآخر!" كان على حق، وقلة الكثافة السكانية تعني أن السياسة شخصية جداً. يريد الناخبون أن يلتقوك، وأن يحدقوا في عينك، وأن يسمعوا ما تخرجه من جعبتك. إنه نوع من الحملات التي تشعرني بالراحة الكلية، على الرغم من أن نسبة الأميال المقطوعة إلى عدد الناخبين قد تكون، كما لاحظ كنيدي، عالية بعض الشيء. مرة قطعت ثلاث مئة ميل لتناول القهوة مع شخصين - أحدهما كان رئيسي المحلي الذي كان قد نظم الحدث.

تبين أن ذلك الانتخاب الأول - تنافس الـ 1978 على ترشيح الحزب الجمهوري للكونغرس - كان الأصعب بين حملاتي الست لعضوية مجلس النواب. كان ذلك تنافساً ثلاثياً بيني أنا من ناحية، وإد فيتزنبيرغر، أمين صندوق الولاية من ناحية ثانية، وجاك غيج، محام وابن حاكم ولاية ديمقراطي سابق من ناحية ثالثة. فيتزنبيرغر وغيج، كلاهما، كانا من تشيين وقادرين على تناصف الأصوات هناك. إذا استطعت الحصول على مجموع محترم في كاسبر وإثبات، على الأقل، الوجود في تشيين، فإن ذلك كان سيجعلني صاحب حظ وافر في الترشيح. كان من المهم أيضاً، بالطبع، بذل جهود كبيرة في الأجزاء الباقية من الولاية. وإذا

فزت في الانتخابات الأولية، كنت أريد أن أتوفر على قاعدة راسخة للقيام باستعراض قوى شامل للولاية في الانتخابات العامة.

لم أكن بلا نقاط ضعف بوصفي مرشحاً. بين الدراسة الجامعية والعمل في واشنطن، بقيت بعيداً عن وايومنغ لأكثر من اثنتي عشرة سنة. المرة الأخيرة التي أدليت فيها بصوتي هناك كانت في 1964. حتى كوني قد عملت في البيت الأبيض رئيساً لجهاز العاملين في إدارة فورد لم يشكل إلا نعمة ملتبسة. صحيح أن ذلك كان البند الأكثر إثارة في سجلي، إلا أن ناخبي وايومنغ المرشحين للتأثر بمثل هذه الإثارة كانوا قليلين. كان سيتعين علي أن أتحلى بالحذر وتجنب الظهور بمظهر زبون متحذلق من واشنطن متوهم أنه جدير بشغل مقعد برلماني. تعين علي أن أكسب عبر إقناع ناخبي وايومنغ بأنني ابن بار لوايومنغ بالفعل، والشخص الأفضل للمنصب.

كانت وايومنغ أيضاً واحدة من تلك الولايات التي تمتع فيها رونالد ريغان بتأييد مبكر وثابت. كان وفد وايومنغ إلى مؤتمر 1976 للحزب الجمهوري مقسوماً بالتساوي بين فورد وريغان، وكان رئيس حملة ريغان، ديك جونز، وهو سائق شاحنة من كودي، شديد الغضب إزاء خسارة ريغان فأدار ظهره للمؤتمر بحركة غاضبة. في بداية حملتي حاولت رأب الصدع عبر التماس لقاء جونز، إلا أنه رفض استقبالي. داورت المشكلة مع جماعة ريغان عبر تجنيد مندوبة ريغان إلى مؤتمر الـ 76 بيغي مالك، وتعيينها لرئاسة حملتي في ناحية كاسبر.

كذلك حالفني ما يكفي من الحظ لتجنيد نصيرة ريغانية تدعى توني ثومبسون كانت قد عملت في واشنطن في السبعينيات، مع زوجها المحامي المرموق، بيل، لتولي مهام ضبط حملتي في تشيين. التقيتهما، كما التقيت عدداً كبيراً من الناس، عبر أصدقاء. الزوجان ثومبسون كانا، كلاهما، من الدهاة في السياسة إضافة إلى توفرهما على ارتباطات عميقة في الولاية. كان بول ايتشيباره، والد توني، يملك إحدى أكبر المزارع في وايومنغ. أما تيرا ثومبسون، أم بيل، فكانت وزيرة خارجية وايومنغ، كما كان قد سبق لأبيه كيث أن كان نائب وايومنغ في الكونغرس. انتخب شيخاً ولكنه مات قبل أن يتمكن من أداء القسم.

بوجود بيل وتوني في صفي، توفرت لي آفاق مشرقة بشأن أخذ عدد جيد من الأصوات في تشيين.

ساعدني جيمي كارتر أيضاً عبر الإعلان عن خططه حول قناة باناما. خلال المعركة بين فورد وريغان في 1976، كانت ملكية القناة قد شكلت قضية كبرى، إذ كان ريغان يطارد فورد على تأييد إعادتها إلى البانامیین. لم أكن قد اتفقت مع الرئيس فورد حول القناة، وحين أقدم الرئيس كارتر على إعلان اعتزامه إطلاق العملية الدبلوماسية والحقوقية الخاصة بتحويلها إلى باناما، توفرت لي فرصة مكنتني من إبراز استقلاليتي وتأكيد مصداقيتي المحافظة.

شجبت إعادة قناة باناما في أولى كلماتي الانتخابية. كان ذلك في أواخر خريف 1977، وكان جمهوريو لوسك الوايومنغية قد دعوا كل من كان يفكر، ولو مجرد تفكير، بالترشيح، إلى حضور اللقاء الجماهيري والتحدث. لوسك هذه بلدة صغيرة تحمل اسم صاحب مزرعة محلي، وجرى تنظيم الحدث على غرار برنامج تلفزيوني أسبوعي ذي شعبية في ذلك الزمان بعنوان "ذه غونغ شو" [*the Gong Show*] كل متحدث كان يعطى ثمانين ثانية، وما أن يتجاوز أي شخص حده الزمني، كان راعي بقر طويل القامة بشاربين يشبهان مقود الدراجة يقرع جرساً قرصياً كبيراً.

بدت الصيغة ذات جانبية مقبولة، وثمة مئات الناس كانوا موجودين في القاعة الرياضية في لوسك تلك الليلة. بدا كما لو أن البلدة كلها كانت قد خرجت. بكلمات سريعة، نجحت في إقحام قناة باناما مع عدد غير قليل من القضايا الأخرى، ولو لم أقم بإثارة إعجاب الحضور الشديد، فقد تمكنت، على الأقل، من اختراقه دون التعرض لقرع الجرس الداعي إلى التوقف.

رسمياً أعلنت ترشيحي في 14 كانون الثاني/ديسمبر 1977، وفي سيارة فورد موستانغ مستأجرة بدأت التنقل في طول الولاية وعرضها. كانت لديّ آلة تسجيل مكنتني من الاستماع إلى الكاربنترز وآن موراي عندما أكون خارج مدى محطة الإذاعة. لاحقاً حين التحقت لين والبنتان بالركب كان ثمة جوقة من الغمغمات المتصاعدة من المقعد الخلفي كلما بدأت أغنية "قريباً منك" أو "يا ابن المقامر النتن!" كنت قد ظننت أن ذوقي الموسيقي كان بالفعل منسجماً تماماً

مع ذلك، إلا أن راكبتي اللتين كانتا في مرحلة ما قبل المراهقة نوّرتاني. أخشى أن تكون، أقله، إحداهما ذات علاقة بترك شريط الكاربنترز على رف السيارة ليذوب في شمس منتصف النهار الحارقة خلال إحدى محطاتنا الانتخابية.

كنت أتوغل في هذه البلدة أو تلك، أقدم نفسي إلى كبار رسميي الحزب، أزور رؤساء تحرير الصحف المحلية واختصاصيي المقابلات الإذاعية، وأتحدث أمام أي جماعة تطلبني. قابلت عدداً كبيراً من اللطفاء وكنت شاهداً على واحد أو اثنين من المناظر الغريبة. أحدها كان في إيفانستون الوايومنغية حيث دلفت إلى محطة الإذاعة المحلية ووجدتها فارغة. ناديت: "مرحباً، هل ثمة أحد هنا؟" ظهر رجل ضخم في بدلة عمل خارجاً من إحدى الغرف الخلفية وبيده سكينة كبيرة يقطر منها الدم. كان هو مدير المحطة، الذي كان للتو قد اصطاد غزالاً خلسة عبر نوافذ المحطة ومشغولاً الآن بسلخه وتقطيعه في الغرفة الخلفية. وعدني بالمقابلة في المرة المقبلة التي أتوقف فيها.

تحدثت مع أندية الروتاري والكيوانس والغرف التجارية. كنت أقول: "نعم سبق لي أن كنت رئيساً لجهاز عاملي البيت الأبيض" بعد أن يكون قد جرى تقديمي، مؤكداً أن سلفي في الوظيفة هو دون رامسفيلد الذي كان قد صار وزيراً للدفاع. وقبله كان آل هيغ الذي كان قد تولى منصب القائد الأعلى للتحالف في أوروبا. والزبون الذي كان قد شغل المنصب قبل ذلك هو بوب هالدمان الذي كان قد قضى بعض الوقت في إحدى الإصلاحيات في كاليفورنيا. تلك كانت طريقة جيدة لإثبات مصداقيتي في ريفرتون الوايومنغية - أو أكثرية الأمكنة بقدر ما يتعلق الأمر.

سرعان ما اكتشفت أن كل حي كان يعقد اجتماعات غير رسمية في صباحات أيام الأسبوع في المطعم المحلي، كان يحضرها تجار الشارع الرئيسي، العمود الفقري للبلدة وكبار المواطنين الذين كانوا يستعرضون الأحداث الجارية ويخصصون وقتاً للتفكير بالأمور. تعلمت أشياء كثيرة عبر مجرد حضور تلك الاجتماعات والإصغاء إلى ما كان يقال مع الاستمتاع بالقهوة.

يفضل الناس في بعض الأمكنة الصفات التي لا تتحلى بها. ففي رامشورن في دوبَوا عندما جرى تقديمي بوصفي ديك تشيني، مرشحاً لعضوية الكونغرس،

نظر إلي كاوبوي عجوز معايناً وسأل: "هل أنت ديمقراطي، يا بنيّ؟" أجبته: "لا يا سيدي!" سأل ثانية: "هل أنت محام؟" أجبت بالنفي، فقال: "إنن سأصوِّت لك!"

كان الرئيس فورد قد عرض المجيء إلى وايومنغ والظهور دعاية لي، غير أننا اتفقنا، لا سيما في ضوء مشاعر الاستياء الموروثة عن حملة 1976، على تجنب الظهور كما لو كان يحاول دون وجه حق أن يؤثر في اختيار الولاية لأحد أعضاء الكونغرس. وافق على إلقاء الخطاب الرئيسي في مؤتمر فرع الولاية الجمهوري بجاكسون. لم يذكر اسمي كما لم يصادق على ترشيحي. غير أن الجميع عرفوا أن سبب مجيئه إلى هناك هو دعوتي له.

في اليوم السابق للخطاب، جاء إلى كاسبر، تحدث في الكلية المحلية، ثم أمضى الليل ضيفاً في بيتنا. خصصنا له غرفة النوم الرئيسية في الطابق العلوي، متذكرين احتمال وجوب تحذيره من مزاجيات الحمام الرئيسي، غير أننا لم نستطع، لا لين ولا أنا، أن نمتلك الجرأة اللازمة لمطالبة رئيس جمهورية سابق بالتأكد من إغلاق الدوش بإحكام. صباح اليوم التالي، فيما نحن متحلقون حول مائدة الفطور بانتظار مجيء رئيس جمهورية الولايات المتحدة الثامن والثلاثين للانضمام إلينا، بدأ الماء يتسرب إلى غرفة الطعام تحت الحمام مباشرة. استنفرنا الطفلتين، ورحنا، أربعتنا، نركض محاولين الإمساك بنقاط الماء المتسربة بطناجر المطبخ وتجفيف الفالتة منا.

استضفنا حفل قهوة صغير دعونا إليه عدداً من الأصدقاء والجيران للقاء ضيفنا المميز. كانت عضوة مجلس ولاية تشريعي ديمقراطية قديمة تدعى إدنس كيمبال ولكنز تعيش في الجانب الآخر من الشارع. جلبت معها صورة مأخوذة نحو بدايات القرن لأربعة أشخاص في عربة خيل أمام بنك كاسبر المحلي. اثنان من الأربعة كانا أبويه والآخران جديّ الرئيس فورد: السيد والسيدة سي اتش كنغ، اللذين كانا من المقيمين في وايومنغ. ابنهما لسلي كان والد الرئيس البيولوجي، الذي كان شبه متبرئ منه. بالفعل حدثني عن أنه توقف في ريفرتون لرؤية كنغ ذات صيف حين كان في الجامعة على الطريق إلى العمل كحارس

حديقة في يلوستون. غير أنه ظل على الدوام يرى زوج أمه الثاني، جيرالد رودولف فورد، والده الحقيقي.

في منتصف حزيران/يونيو ذهبنا، لين وأنا، إلى تشيين لبضعة أيام في إطار الحملة. وكالعادة أقمنا مع صديقينا القديمين جو وماري مير. كان جو زميلاً ثانوياً، وشريك غرفة بجامعة وايومنغ، وإشبيناً في زفافنا. أما ملكة الجمال السابقة، ماري، فكانت تقدّمني إلى أهل الولاية، بمن فيهم سكان مسقط رأسها شريدان.

نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل أيقظني إحساس بالوخز في اثنين من أصابع يدي اليسرى. لم أشعر بأي ألم ولم يكن ثمة أي أعراض أخرى، إلا أن ابن عمي، وهو طبيب في إيداهو، كان قد عانى من أزمة قلبية حادة قبل بضعة أسابيع فقط. متذكراً تجربته، قررت مراجعة طبيب. أقلنا جو، لين وأنا، إلى مستشفى تشيين التذكاري. على الطريق أفدتُ بأني بخير حقاً وبأن الأمر ربما لم يكن إلا إنذاراً زائفاً - على الرغم من أن الوخز كان مستمراً في إصبعيّ. حين وصلنا إلى المستشفى، دلفت إلى غرفة الطوارئ مشياً، جلست، وغبت عن الوعي مباشرة. وعندما صحوت لاحظت وجود حشد هائل من النشاط في غرفة الطوارئ. ثم لاحظت أن الأمور كلها كانت متركزة علي. عندئذ أيقنت دون لبس أنني كنت قد أُصبت بأزمة قلبية.

لم أستطع إلا أن أتذكر جدي، والد أمي، الذي كان قد عانى من مرض القلب وكان قد عانى من أزمته القلبية الأخيرة في بيتنا. للأزمات القلبية نصيب في عائلتي، وكنت أعرف أنها بالغة الجدية.

كان أحد الأطباء المقيمين قد نبهني بعيد خروجي من البيت الأبيض إلى كوني مرشحاً قوياً لانسداد الشريان التاجي. تاريخي العائلي من ناحية الأب لم يكن أفضل. كنت مدخناً شرساً منذ عشرين سنة. كانت شركات التبغ تزود البيت الأبيض في أيام نيكسون وفورد بطرود كرتونية مجانية ملأى بالسجائر، وكل طرد في صندوق أبيض وذهبي ممهور بالختم الرئاسي. خلال الأعوام القليلة الأخيرة كنت قد صرت أجهز على علبتين أو ثلاث في اليوم. وجدت أنها كانت

متناغمة بشكل خاص مع الكميات غير المحدودة من القهوة السادة التي كان مستخدمو البحرية يقدمونها في البيت الأبيض.

إلا أنني كنت قد تجاهلت التنبيه، فوصلت إلى هنا، في السابعة والثلاثين من العمر ومريض قلب، وأنا أتساءل: هل يمكن أن يتعيّن عليّ الإقلاع عن حملتي وعن مستقبلي السياسي المأمول؟ لم يكن أي اختصاصي قلب في تشيين، إلا أنني كنت محظوظاً بطبيب مقيم شاب يدعى ريك ديفيس تولى أمري. حين سألته عما إذا كنت أستطيع - أو يجب علي - استئناف حملتي، قال: "اسمع! لم يسبق للعمل الشاق قط أن قتل أي شخص. ما يؤدي إلى الموت هو أن تقضي حياتك وأنت عاكف على فعل شيء لا تريد فعله". شجعني على التخطيط لمتابعة حملتي بعد فترة راحة ونقاهة مناسبة مزوداً إياي بأمرين صارمين: "مارس بعض التمارين، واستغن عن السجائر". بقي ريك وزوجته إيبي صديقين حميمين ومؤيدين قويين إلى هذا اليوم.

بعد الخروج من المستشفى والعودة إلى كاسبر، استهونت الأمر مدة شهر واتبعت توجيهات الطبيب حرفياً. تركت التدخين ورحت أراقب طعامي. صرت أمشي لاستعادة قوتي، أبعد قليلاً كل يوم، وأقرأ. كانت عندنا شجرة راتنج عملاقة قديمة جميلة في باحتنا الخلفية وكنت أقضي الجزء الأكبر من النهار في أريكة مريحة تحت تلك الشجرة عاكفاً على قراءة مذكرات الرئيس نيكسون. كان صديقي فرانك غانون قد ساعد نيكسون في كتابة مذكراته وعمل على إرسال نسخة أولية إلي.

في الوقت نفسه تواصلت الحملة مع حلول لين محلي في الاجتماعات، واللقاءات، والخطب. كانت ناجحة جداً إلى حد أن أصدقاء كثراً رأوا أن مجموع أصواتي كان من شأنه أن يكون أعلى لو بقيتُ ملازماً الحديقة الخلفية وتركت لين تحضر جميع اللقاءات.

كانت ثمة وفرة من الوقت للتفكير بمدى احتمال تأثير أزمتي القلبية في الناخبين. جاء صديقي بوب تيتر جواً من ميتشيغان، وتحدثنا عن استطلاع للرأي لتقويم مواقف الناخبين، غير أننا ما لبثنا أن توصلنا إلى استنتاج عدم وجود سوابق كافية حتى نتمكن ولو من تحديد طبيعة الأسئلة المناسب طرحها.

صورنا فيلماً تلفزيونياً تجارياً عن جماعة متبطلة منخرطة في الكلام عن شخصيات سياسية مرموقة، منها دوايت آيزنهاور وليندون جونسون، كانوا قد تعرضوا لأزمات قلبية وظلوا مع ذلك متولين مناصبهم على نحو منتج. إلا أن حدسي أنبأني بأن من شأن الفيلم الناجز أن يزعج الناس، ولم نقم قط ببثه على الهواء.

في النهاية قررنا أن علي أن أبعث برسالة إلى كل جمهوري مسجل في الولاية شارحاً فيها سبب ترشحي رغم الأزمة القلبية. قمت بوصف بعض الأسباب الكامنة وراء قراري - مسألة السياسة العامة وقضايا الموازنة التي كانت محركة قراري. في أعلى الصفحة الثانية أصبحت أكثر اهتماماً بالأمور الشخصية:

> *إلا أن المعتقدات السياسية ليست إلا جزءاً من القوة التي تحركه، وفي حزيران/يونيو ثمة حدث في حياتي دفعني إلى تقويم السبب الكامن وراء ترشحي لعضوية الكونغرس من منظور مختلف. فيما كنت متابعاً الحملة في تشيين، عانيت من أزمة قلبية خفيفة. لم أكن، وأنا ابن الأعوام السبعة والثلاثين متوقعاً حدوث مثل هذا الشيء.*

سجلت أن أطباء في كل من تشيين وكاسبر كانوا قد أفادوا بقدرتي على توقع شفاء تام وكامل. كنت أعكس تشخيص ريك ديفيس حين كتبت: "لم يَرَوا أي سبب يحول دون عودتي إلى جدول أعمال زاخر بالنشاط في آب/أغسطس. أمضيت حياتي كلها وأنا أقوم بأعمال شاقة، وقد أفاد الطبيب بأنني أستطيع مواصلة ذلك - شرط التزام العناية المناسبة بنفسي".

وتابعت مورداً مزيداً من الأفكار الشخصية:

> *غير أن حدثاً كالأزمة القلبية من شأنه مهما كان خفيفاً، أن يدفع المرء إلى التفكير بذاته وبما هو مهم بالنسبة إليه. يجب أن أقر أنني حين اكتشفت ما كان قد حدث، بدا لي أن هناك يقيناً طرقاً يقضي بها الإنسان حياته أسهل من الترشح لعضوية الكونغرس وشغل منصب عام، طرق حياة تكون أيسر بالنسبة إلى عائلته، وإلى خصوصيته، وإلى دفتر شيكاته.*
>
> *ولكن انفتاحي على عائلتي ما لبث أن فتح عيني على حقيقة أن الحياة العامة تكون أيضاً، رغم صعوبتها أحياناً، باعثة على قدر استثنائي من الارتياح*

بالنسبة إلى آل تشيني. جميعنا، أعني لين، وكريمتينا، وأنا نفسي، ميالون لأن نكون منخرطين في أي جهد يتجاوز مصالحنا واهتماماتنا الشخصية. فالسعي لبلوغ أهداف تفيد أناساً كثيرين يمنحنا جميعاً إحساساً طيباً، شعوراً منعشاً بالتصميم.

كانت الرسالة وثيقة حملة انتخابية غير عادية لأنها لم تطلب أي شيء. منحتني الأزمة القلبية فرصة التحدث مع الناس حول موضوع مهم، مع إزاحة السياسة جانباً، في زحمة حملة سياسية.

مع مرور الزمن صرت أرى أن الأزمة القلبية، رغم فرط رغبتي في أنها لم تكن، كانت عاملاً مساعداً من وجهة النظر السياسية. زادت من زخم التعرف إلى اسمي، وفي الأشهر التي سبقت الانتخابات الأولية ساهمت في اجتذاب بعض التبرعات. ثمة ظرفاء راحوا يمزحون حول تشكيل فريق "مرضى قلب لتشيني"، بيد أن فوستر تشانوك، مساعدي الشاب من البيت الأبيض أيام فورد، بادر فعلاً إلى الاضطلاع بمهمة الاتصال بأصدقائي ومطالبتهم بإرسال تبرعات انتخابية بدلاً من الورود. وفي لفتة كرمٍ مثالية، قام بيل ستايغر، الذي لم يواجه تحدياً ذا شأن في سباق إعادة انتخابه لشغل مقعده في الكونغرس ممثلاً لوسكونسن، بحض مؤيديه على التبرع لحملتي.

حصلت النوبة القلبية في 18 حزيران/يونيو 1978. وبعد ظهر أحد الأيام في نهاية تموز/يوليو سرت نحو منتزه قريب حيث كان يتنزه بعض المواطنين الكبار. مررت بجميع الطاولات وصافحت الأيدي وتحدثت إلى الجميع- وهكذا أعدت إطلاق حملتي الانتخابية.

بعد أزمتي القلبية صارت الحملة شأناً عائلياً حتى أكثر من ذي قبل. أعدت الموستانغ (Mustang)، واستأجرنا سيارة آر في (RV) تتسع لنا جميعاً، بمن فينا الأبوان والبنتان، كان الوالد يقود، وكانت الوالدة تهتم بانتظام ومعقولية وجباتي. أما الصغيرتان فلم تريا في الأمر إلا سلسلة طويلة من المشاوير. كانت ماري ستكتب فيما بعد أنها اعتقدت بأن الجميع قد ترعرعوا وهم يسيرون من بيت إلى بيت موزعين أزرار الحملة الانتخابية، قلقين إزاء ما كان سيحصل يوم الثلاثاء الأول من شهر تشرين الثاني/نوفمبر. زعمت أيضاً أن أكثر مهماتها بعثاً

للاعتزاز تمثلت بالوقوف خارج مكتبنا الرئيسي مرتدية بلوزة عليها عبارة "غرِّد لتشيني". أما ليز فقد أظهرت مهارات سياسية هائلة على صعيد إلزام كل من تراه بأخذ زر ومنشور دعائيين لتشيني. كذلك قامت بتوفير إحدى القصص الرئيسية لأرشيفات حكاية الحملة التشينية حين أخطأت الطريق في استعراض معرض الولاية بدوغلاس الوايومنغية، وبقيت ضائعة لساعات غير قليلة.

مع اقتراب تمهيديات الثاني عشر من أيلول/سبتمبر، وجدنا أنفسنا موشكين، رغم سخاء العديد من الأصدقاء، على الإفلاس، غير أننا كنا متوفرين على بعض المدخرات الشخصية، بفضل والد لين، الذي كان قد أورثنا مبلغاً من تقاعده الوظيفي عند موته. كان المبلغ كافياً إما لشراء دفعة إعلانات أخرى أو دفع تكاليف استطلاع للرأي، دون القدرة على الاثنين. قررنا اعتماد الخيار الأول، مقدرين أن ليس من شأن الاستطلاع أن يفيد في شيء إذا بقينا بلا أموال لازمة للتحرك وفقاً للنتائج. كنا واثقين من أننا، إذا فزنا بالترشح، كنا سنتمكن من جمع التبرعات اللازمة لتسديد ديوننا للحملة، ونجحنا في الامتناع عن التفكير بالبديل.

كانت ليلة الانتخابات الأولية فترة خاصة جداً. انتظرنا صدور النتائج في منزلنا على شارع بيتش، وبعد فرز الأصوات تبين أنني فزت في الأولية الجمهورية بنسبة 42 بالمئة من الأصوات مقابل 31 بالمئة لفيتزنبيرغر و27 بالمئة لجاك غيج، شكل الانتصار الانتخابي الأول ذروة عاطفية، لا تعلوها إلا أشياء قليلة في الحياة، ليس فقط بسبب كل العمل الشاق المبذول، وقد كان كثير منه حقاً، بل من جراء المسار الزاخر بالنجاحات والإخفاقات وجملة المخاطر التي كنا قد أقدمنا عليها. في النهاية، كان كل شيء قد نجح وسارعنا جميعاً، لين، وليز، وماري، وأنا إلى الاحتفال مع العائلة والأصدقاء حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي.

ما إن نجحت في الانتخابات الأولية حتى أصبحت مقتنعاً بقدرتي على الاطمئنان إلى الفوز في الانتخابات العامة في الخريف. كان مساعد مزمن لعضو الكونغرس رونكاليو، من ستار فالي، يدعى بيل باغلي، هو خصمي الديمقراطي.

كان يستطيع توقع الحصول على بعض أصوات الحزب الجمهوري في تلك البقعة من الولاية، ولكن السنة كان من شأنها أن تكون قاسية عموماً بالنسبة إلى الديمقراطيين في وايومنغ. مع سبعة مقاعد على امتداد الولاية منها منصب حاكم ولاية على بطاقة الاقتراع، كان الحزب الديمقراطي يعاني من النقص في الموارد. وكان الحزب الجمهوري متمتعاً بميزتي الأصوات المسجلة وعمليات التمويل، في حين كان الديمقراطيون يعانون من سلبية إضافية متمثلة بوجود جيمي كارتر في البيت الأبيض. كان كارتر عائقاً مؤكداً في وايومنغ.

بسبب الانتخابات الأولية المتأخرة، كانت الحملة الخريفية رحيمة بقصرها: ثمانية أسابيع فقط، وخلال جزء منها كان مرشحو الحزب الجمهوري يسافرون معاً. كان هذا تقليداً مستنداً إلى الضرورة، لأن أكثرية الكتل والجماعات في وايومنغ كانت صغيرة وغير قادرة، ربما، على استضافة أحداث منفصلة لسائر مرشحي الولاية.

كان مرشحنا لعضوية مجلس شيوخ الولايات المتحدة: آل سيمبسون نجم استعراضات الطريق في حملة الـ 1978 الجمهورية. أبوه، حاكم الولاية ميلوارد سيمبسون، كان قد تعرض لهزيمة غير متوقعة في عملية الانتخاب عام 1958، وكان آل قد بذل جهوداً كبيرة في تلك الحملة الأولى وما أعقبها من حملات لضمان عدم تكرر الهزيمة. كان يحتفظ بملاحظات دقيقة عن جميع الناس الذين يلتقيهم ويحرص على معرفة أحوالهم العائلية ثم يصنف البطاقات بعد كل حدث. كان سياسياً مجتهداً، وهو أمر لم يخطر ببال كثيرين، باعتقادي، لأنهم كانوا شديدي الانبهار بروحه المرحة. لم يكن الأمر متعلقاً بفرط ظرافة الطرائف التي كان يرويها، ولكن الطريقة التي كان يعتمدها في السرد كانت تثير طوفاناً من الضحك في كل مرة. في الحقيقة كنتَ تستطيع أن تسمع قصصه الطريفة مرات كثيرة (وقد فعلتُ، صدقني) وتبقى تجد نفسك غارقاً في الضحك من جديد.

آل وزوجته آن، متمتعان أيضاً بموهبة الصداقة، ولين وأنا كنا محظوظين بمعرفتهما لمدة زادت على ثلاثين سنة. في كل مرة ظهر اسمي على بطاقة الاقتراع، بما في ذلك لدى ترشحي لمنصب نائب الرئيس، كان آل معي في الحملات. خضنا ما مجموعه ست حملات محلية (في إطار الولاية) وحملتين

وطنيتين، ولم نخسر أي سباق عند ظهور اسم أحدنا على البطاقة.

كان أحد أيام حملة الـ 1978 الأكثر جدارة بالتذكر قريباً من النهاية. كنا في شريدان الواقعة في الجزء الشمالي من وايومنغ لحضور حفل قبل ليلة، وكان والدي يعيدنا، لين وأنا، إلى كاسبر وتشيين لحضور حفلات اختتام الحملة. كان ذلك أحد أيام الصيف الهندية المجيدة التي تشتهر وايومنغ بها. جميع أوراق أشجار الحور بأنواعه كانت قد تحولت إلى ذهب. كانت السماء صافية، زرقاء، مضيئة، دونما أثر للضباب. توقفنا، نشرنا لحافاً قديماً على الأرض، وأمضينا نحو ساعتين جالسين عند أقدام جبال بيغهورن متذكرين كل ما سبق لنا أن كنا رأيناه في الأعوام العشرين الأخيرة. والآن، بعد ما لا يقل عن ثلاثين سنة، لا يزال ذلك اليوم يبرز منتصباً بوصفه لحظة خاصة جداً في حيواتنا.

عند فرز الأصوات في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر، تبين أني حصلت على نسبة 59 بالمئة. كان ذلك بمثابة الانتصار بأقل فارق - بين ست حملات انتخابية عامة. على امتداد السنوات العشر التالية كنت سأظل معروفاً على منصة مجلس نواب الولايات المتحدة بعنوان "حضرة السيد من وايومنغ".

بعيد الانتخابات، كانت ثمة دورة توجيهية لمدة أسبوع كامل لجميع الأعضاء الجمهوريين الجدد في أحد الفنادق الكائنة خارج واشنطن مباشرة. صُممت الدورة لزيادة فعاليتنا كمشرِّعين ودفعْنا إلى التفكير، حتى قبل أداء القسم، بحملاتنا من أجل إعادة انتخابنا. كانت الجلسات تغطي كل شيء: من راتبنا (57,500 دولار) إلى كيفية الحصول على البريد. سمعنا من القيادة وكبار موظفي الجهاز الميدانيين حول قواعد المجلس وإجراءاته. وصرفنا قدراً كبيراً من الوقت على مسألة مهمات اللجان. كثيرون من المبتدئين كانوا يحملون توقعات غير واقعية، راسخي الإيمان بقدرتهم على المطالبة بأحد مقاعد أخطر اللجان مثل الطرق والموارد أو التخصيص، حين كان سجال محموم يجري حول تلك المهمات بين أعضاء أكثر قدماً ولم تكن تعطى للقادمين الجدد إلا نادراً.

سلفاً كنت قد اتصلت بزعيم الجمهوريين جون رودس الأريزوني في اليوم التالي للانتخاب طالباً تولي إحدى المهمات في اللجنة الداخلية. فمع تحكم الإدارة

الاتحادية بـ 50 و65 بالمئة فوق الأرض وتحت الأرض على التوالي من الثروة في وايومنغ، كانت قضايا سياسة الأراضي العامة حيوية بالنسبة إلى الولاية. وسواء أكنت منخرطاً في أعمال الطاقة أو الزراعة أو السياحة أو المنتجعات، فإن القواعد الموضوعة من قبل الإدارة الاتحادية للحصول على الأراضي الاتحادية واستخدامها، كانت حيوية الأهمية بالنسبة إلى نجاحك الاقتصادي. كان من شأن وقتي وجهدي في اللجنة الداخلية سيكافآن في العام 1984 بإقرار قانون براري وايومنغ، الذي كان أهم مساهماتي التشريعية ومبعثاً لأسمى آيات اعتزازي. تعاونت تعاوناً وثيقاً مع زميلَيّ الوايومنغيين في مجلس الشيوخ، آل سيمبسون ومالكولم والوب، كليهما، فاستطعنا أن نضيف نحو مليون فدان إلى مساحات الولاية البور.

حين التمست موقعاً في الداخلية، وعد الزعيم رودس بتأييد طلبي معبراً عن طلب له بالمقابل. أراد أن يضعني في لجنة الأخلاق، الأمر الذي وجدته بعيداً عن المألوف. نادراً ما يجري تكليف المبتدئين بمهمات لجنة الأخلاق المتخصصة بمعالجة بعض أكثر القضايا المطروحة على المجلس حساسية بما فيها ما إذا كان عضو معين تجب معاقبته أو حتى طرده من جراء سوء السلوك. قيادة الحزبين كليهما كانت شديدة الانتقائية حول هوية المعين في لجنة الأخلاق، وجل الأعضاء كانوا يبذلون كل ما يستطيعونه من جهد لتجنب عضوية هذه اللجنة، عازفين عن إصدار الأحكام على زملائهم. أما أنا فوافقت وقررت وضع الطلب في خانة نوع من الإطراء لمسؤوليتي وحصافتي بدلاً من النظر إليه نتيجة خذلان جميع الأعضاء الأطول باعاً والأوفر حكمة لرودس. يضاف إلى ذلك أنني فكرت باحتمال كون الأمر تحدياً، فتبين أنه صحيح وينم في الوقت نفسه عن عدم إعطائه القدر الذي يستحق. خلال دورة الكونغرس الـ 96 كانت اللجنة ستبقى أكثر انشغالاً مما سبق لها أن كانت لعدد كبير من السنوات. وكنا مرشحين لتولي المسؤولية عن طرد أحد الأعضاء للمرة الأولى منذ الحرب الأهلية.

بعد الانتخاب أمضينا، لين، والبنتان، وأنا، عدداً من الأيام في هاواي في حالة استرخاء مستمتعين بالمناخ الرائع. كنا، بيل ستايغر وأنا، قد دُعينا للحديث في مؤتمر للوسطاء العقاريين في هونولولو، وبما أن ابنه من جانيت بيل كان في

نفس سن ماري، جلسنا أربعتنا حول المسبح في القرية الهاوايية متحدثين ومتابعين الصغيرين يلعبان. كان الحديث واسع الإطار، كما هو الحال كلما توفر لنا وقت نقضيه مع بيل وجانيت. كنت أتطلع بشغف إلى العمل مع بيل في المجلس وأتوقع أن أصبح واحداً من الفريق المتنامي لأعضاء ينظرون إليه كقائد لهم. سلوكه ومساهماته في لجنة الطرق والوسائل كانا قد لفتا الأنظار وأكسباه قدراً واسع الانتشار من الاحترام. ومع أنه لم يكن قد تجاوز الأربعين، فإن نفوذه كان مطرد النمو، وكان ثمة كلام عن آفاقه الرئاسية المحتملة.

كنت قد أنفقت في واشنطن من السنوات ما يكفي لمعرفة أهمية استخدام الجهاز المناسب. يتعين على أفراد الجهاز أن يكونوا على معرفة بالكونغرس وبالأساليب الناجحة لإنجاز الأعمال في الكابيتول هيل، إلا أن ما ليس أقل أهمية هو امتلاك قدر من التعاطف والتفهم لوايومنغ.

وقع اختياري على ديف غريبن كمساعد إداريّ لي (نظير رئيس جهاز العاملين)، وهو خريج ثانوية كاسبر وأحد الأصدقاء الجيدين. كان قد خدم فترة في جيش الولايات المتحدة، ومستخدماً لدى الرابطة الوطنية لتجار السيارات، وأسقفاً ميثودياً مكرساً. هو وزوجته لوري، كانا من جيراننا في بيت الطلبة بجامعة وايومنغ في بداية زواجنا.

نجحتُ في إقناع باتي هاو بالمجيء للعمل معي بوصفها معاونتي التشريعية الأولى. كانت ابنة لارامي هذه صاحبة اثنتي عشرة سنة خبرة في جهاز كليف هانسن، وقد كانت وثيقة الاطلاع على جميع القضايا الاتحادية التي كان من شأنها أن تؤثر في دوائري وفي ولايتنا. بوصفها أماً بلا زواج مع تعليم ثانوي فقط، كانت قد بدأت العمل مع كليف كسكرتيرة. حين جاءت للعمل معي كانت ذات شهرة بوصفها إحدى أروع المساعدات التشريعيات في الهيل [البرلمان].

أما كاثي إمبودي (كاثي برغر سابقاً) فكانت جزءاً من عائلتنا بعد الأشهر التي كانت قد قضتها معنا في حملة وايومنغ، وسرّتني موافقتها على القدوم إلى واشنطن. كان ثمة آخرون كثر أضافوا مساهمات ذات شأن في تلك الأيام الأولى

والسنوات المبكرة، بمن فيهم جيم ستين، وبيت وليامز، وسيسه بوير، وروثان نوريس، ونورما فلتشر، وسو بنزر، وجورج فان كليف. أحد الأشياء التي بقيتُ على الدوام أشعر بالاطمئنان حياله تمثل بالمعدل المتدني للدوران بين العاملين معي. ما إن يكون أحدهم قد التحق بالعمل حتى يغدو متمسكاً بالاستمرار. كثيرون كانوا لا يزالون يعملون معي بعد تركي للكونغرس بزمن طويل.

في الرابع من كانون الأول/ديسمبر 1978، عقد أعضاء دورة الكونغرس الـ 96 من الجمهوريين اجتماعاً لانتخاب قيادتنا في المجلس القادم. كان لي موعد مبرمج مع مصور من "يو إس نيوز آند وورلد ريبورت" (*U.S.News & World Report*) لأخذ صورة للعدد القادم عن أعضاء جدد في الكونغرس، وفي الموعد المحدد غادرت اجتماع الكتلة. ما إن خطوت خارجاً، حتى لاحظت علم الولايات المتحدة فوق الكابيتول ومباني المجلس منكّسة، وحين سألت عن السبب قيل لي إنه كان حداداً على عضو كان قد مات للتو.

سألت عنه وصُعقت إذ أُبلغت بأنه كان بيل ستايغر. بعد أن تعايش مع السكري سنوات عديدة كان قد رحل من جراء أزمة قلبية في الأربعين من العمر.

بعد بضعة أيام مُنحت إجازة للذهاب جواً إلى أوشكوش الوسكونسنية، لحضور الجنازة مع وفد المجلس الرسمي، مع أنني لم أكن بعد قد أديت قسم العضوية. لقد شاركت في عدد كبير من الجنازات عبر السنين، إلا أن تلك التي ضاهت جنازة ستايغر من حيث الإحساس بالخسارة من جراء ما حصل كانت قليلة.

بين جمهوريي المجلس كان هناك عدد من الروابط الاجتماعية غير الرسمية التي كان يمكن لأي عضو أن يدعى إلى الانتساب إليها بما فيها الإس أو إس (جمعية رجال الدولة) وجمعية التشاودر آند مارتشنغ. أي من الفريقين لم يكن ذا وضعية أو وظيفة رسمية، إلا أنهما كانا لا يقدران بثمن في مجال تطوير العلاقات مع الزملاء. حين دُعيت للانتساب إلى الإس أو إس، تقدمت بشغف. كنا نلتقي عصر كل ثلاثاء، في الساعة الخامسة، في مكتب أحد الأعضاء، مع قيام المضيف بتوفير الوجبات الخفيفة والمشروبات. وفي أثناء اللقاء كان كل عضو

يعتلي المنبر لبضع دقائق ويتحدث عن أي شيء يختاره، من السياسة هنا في مسقط الرأس والولاية إلى أحد التقارير حول رحلة برلمانية حديثة إلى ما وراء البحار ـ أو ربما الشائعات الدارجة مؤخراً فقط. وفي صباحات أيام الأربعاء كانت جمعيتا الإس أو إس والتشاودر آند مارتشنغ تقيمان وليمة فطور مشتركة ويدعوان إليها ضيفاً خارجياً، وزيراً ربما، أو معلقاً إعلامياً أو أحد كبار موظفي البيت الأبيض.

كانت ثمة جماعة ثالثة أيضاً، معروفة باسم جماعة الأربعاء، ذات صبغة سياسية أوضح. كان أعضاؤها جمهوريين معتدلين مثل جيم ليتش الأيواوي، وبيل غرين النيويوركي، وبيت ماكلوسكي الكاليفورني، وجون آندرسون الإيلينوي، وكان هناك بعض التداخل مع جمعيتي الإس أو أس والتشاودر آند مارتشنغ. حين دعيت للانتساب إلى جماعة الأربعاء، اعتذرت عن تلبية الدعوة لأنني كنت أرى نفسي محافظاً ولم أكن أجد أي جدوى ذي شأن في التماهي مع جمهوريين ليبراليين، إلا ان باربر كونابل النيويوركي، وهو جمهوري مرموق في لجنة الطرق والموارد وأحد أكثر أعضاء المجلس تمتعاً بالاحترام، استدعاني إلى مكتبه واقترح علي النظر في الأمر. قال باربر: أولئك الذين يُدعَون للانتساب إلى جماعة الأربعاء ليسوا كثيرين، وكان رفضك للدعوة "تحركاً غبياً". وأضاف باربر إن من شأني، بوصفي أحد المحافظين، أن أغدو على علاقة مع جميع المحافظين في الكتلة الجمهورية. أما الانتساب إلى جماعة الأربعاء فكان من شأنه أن يمنحني فرصة معرفة الجمهوريين الليبراليين وفهمهم. كان على صواب، فانتسبت. كان ذلك تصرفاً حكيماً، وبسببه حصلت على تأييد من المعسكر المعتدل جنباً إلى جنب المحافظين في أثناء ارتقائي درجات سلم القيادة.

منذ أيامي الأولى في المجلس أصبحت منخرطاً مع جماعات خارجية مختلفة، بما فيها مؤسسات استشارية (thanks tanks) ومعاهد أكاديمية، دارجة على اتخاذ مواقف بحثية، وتحليلية، وثنائية حزبية من ماضي المجلس وحاضره. دعاني ديمقراطي مرموق هو ديك بولينغ، رئيس اللجنة القوية المعنية بالقوانين وأحد الحلفاء القدماء لرئيس المجلس تيب أونيل للانتساب إلى حلقة فطور صغيرة كان يجمعها بين الحين والآخر. كان بولينغ أحد ألمع المؤرخين وخبراء

التكتيك في تاريخ المجلس، وما من مرة كنت فيها قريباً منه إلا وتعلمت شيئاً جديداً ومهماً. ومن الآخرين الذين كانوا في حلقته أنكر ديك غيبهاردت وستني هُويَر.

دُعيت إلى الالتحاق بركب الفريق الصغير الذي كان يتم جمعه في معهد المشروع الأمريكي "أمريكان أنتربرايز" من قبل الباحثين نورم أورنشتاين وتوماس مان. وقع اختيارهما على سبعة نواب، أربعة جمهوريين وثلاثة ديمقراطيين، ودرجا على دعوتنا كل بضعة أشهر للاجتماع حول مائدة عشاء والتحدث من منطلق أساسي عن كل الأشياء التي كنا نراها ونفعلها. وفي الكتيب الذي كان يجري نشره بعد الاجتماع بعنوان "الكونغرس بصفة غير رسمية: التحليل الصريح لسبعة أعضاء"، دون الإتيان على ذكر أسمائنا. أما اليوم فيستطيع المهتمون أن يعطفوا أسماء أولئك السبعة على النحو التالي: تشيني، وغينغريتش، ومارتن سابو، وجيرالدين فيرارو، إضافة إلى اسمي باحثي المشروع المنكورين آنفاً، إلى عبارات الامتنان الواردة في تلك الصفحات.

شاركت بعدد غير قليل من المناسبات التي رعاها معهد آسبن الذي كان يقوم أحياناً بعقد حلقات بحث لنواب وشيوخ إضافة إلى خلوتين سنويتين. لين وأنا كنا نستمتع ببضعة أيام شتوية من النقاش والطعام العظيمين في أمكنة مشمسة من بيرمودا وراوند هيل بجامايكا. هذا المكان الأخير، راوند هيل، هو المكان الذي التقيت فيه كوندوليزا رايس للمرة الأولى. كانت في ستانفورد ودُعيت لإدارة حلقة بحث حول السياسة العسكرية السوفييتية.

درج مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية الذي كان مرتبطاً آنذاك بجامعة جورجتاون على عادة عقد خلوة سنوية في وليامسبورغ الفيرجينية. تلك هو المكان الذي قابلت فيه الشيخ الديمقراطي سام نان من جورجيا، الذي كان فيما بعد، سيتولى رئاسة اللجنة التي درست ترشيحي لشغل منصب وزير الدفاع.

خلال فترة وجودي في المجلس، شاركت أيضاً في ندوات استمرارية الحكم. كانت هذه تتناول الردود المحتملة على أي هجوم تتعرض له الولايات المتحدة وتؤدي إلى قطع رأس حكومتنا. ما الخطط المعتمدة في حال قُتل رئيس الجمهورية ونائبه كلاهما؟ تلك كانت تمارين حرب باردة، معطوفة على التمهيد

النووي الذي كان السوفييت يمثلونه، وتبعاً لتقارير صحفية، تم وضع حد لها في أثناء إدارة كلينتون، تم وقفها بوصفها مخلفات أيام أخرى. غير أن خطر الهجمات الشاملة لم يختف مع تفكك الاتحاد السوفييتي، فبعد أعوام، في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كان من شأن احتمال قطع رأس الحكومة أن يبدو واقعياً وخطراً راهناً.

كثيراً ما سئلت عن سبب رغبتي في أن أكون عضو مجلس مبتدئاً، ناشطاً في حزب الأقلية، بعد أن كنت رئيساً لجهاز عاملي البيت الأبيض. كنت أفسر الأمر بوجود شيء بالغ الخصوصية في ظهور اسمك على بطاقة الاقتراع وإقناع آلاف المقترعين بدعمك. تلك الترشح والفوز بحق الإدلاء بصوت ولايتك في مجلس نواب الولايات المتحدة كانا سياسة بأسمى معانيها. وانتخابك وفقاً لدستورنا كان يعني أنك قد اكتسبت حق الإدلاء بصوتك ولا يستطيع أحد أن ينتزع ذلك الحق منك إلا عبر إلحاق الهزيمة بك في صناديق الاقتراع. لم يكن مصيرك السياسي معتمداً على نجاح شخص آخر في انتخابات معينة.

من الصواب أيضاً القول إنني كنت شديد التأثر بتجربتي مع رجال مثل جيري فورد، ودون رامسفيلد، وبيل ستايغر. فأي مؤسسة قادرة على اجتذاب رجال مثل هؤلاء كان يتعين عليها أن تكون مؤسسة أستطيع الاعتزاز بالانتساب إليها، والافتخار بكوني جزءاً منها. الحقيقة هي أنني عشقت مجلس النواب وكنت مصمّماً على قضاء باقي حياتي الوظيفية بوصفي "أحد رجالات المجلس".

كل طبقة جديدة من أعضاء المجلس تصل إلى واشنطن مقتنعة بأنها ستقوم بـ "تنظيف الإصطبلات" أو "تجفيف المستنقع"؛ ستكون، أخيراً، "كوكبة إصلاحيين" يحتاج إليها الكونغرس حاجة ماسة. أكثر الأحيان هذه المرحلة تمر، والأعضاء الجدد يصبحون أعضاء قدامى مخضرمين راسخي الجذور متمتعين بجميع الامتيازات والفرص التي ينطوي عليها الأمر. قد يكون ذلك عائداً إلى كون الطبقة استثنائية الضخامة أو مؤثرة في قضية معينة أو متماسكة لمدة أطول تكسبها قدماً، أو لأنها متوفرة على درجة غير عادية من التلاحم وتصوت

بوصفها كتلة أكبر من أكثرية الكتل. كثيراً ما يجري الإتيان على ذكر طبقة الـ 1974 الديمقراطية المعروفة باسم "أطفال ووترغيت" بوصفها مثالاً.

أما طبقة الـ 1978 التي كنت جزءاً منها فقد أنتجت قادة كانوا سيتولون صوغ شكل واشنطن لعقود: جيري لويس الذي كان سيصبح رئيس لجنة التخصيصات؛ وبيل توماس، رئيس مقبل للجنة الطرق والموارد؛ وجيم سَنْسنبرنّر، الذي كان ذات يوم سيضطلع برئاسة اللجنة القضائية. وعلى الضفة الديمقراطية كان ثمة جيرالدين فيرارو، التي كانت ستصبح المرشحة الديمقراطية لمنصب نائب الرئيس في 1984، وفيل غرام الذي كان سيغدو عضواً جمهورياً ممثلاً لتكساس في مجلس شيوخ الولايات المتحدة. تكساسي آخر من طبقة 1978، الديمقراطي كنت هانس، كان قد فاز بمقعد ملحقاً الهزيمة برئيس جمهورية مقبل هو جورج دبليو بوش في الثانية والثلاثين من العمر.

غير أن أحداً في طبقتنا لا يضاهي نيوت غينغريتش من جورجيا رسوخاً في الذاكرة. في 1974 قرر الأكاديمي حامل شهادة الدكتوراه في التاريخ من تولين نيوت أن يترشح لعضوية الكونغرس في جورجيا ضد العضو القديم في لجنة تخصيصات المجلس: جاك فلينت. بالطبع كان عام أربعة وسبعين وتسع مئة وألف عام انتخابات ووترغيت، غير مناسب للشروع في حياة مهنية لمنصب انتخابي من موقع جمهوري، فتجرع نيوت كأس الهزيمة.

بعد عامين أعاد نيوت الكرة ضد فلينت وخسر مرة ثانية. تبين أن عام ألف وتسع مائة وستة وسبعين كان عاماً قاسياً يصعب الفوز فيه في جورجيا من موقع جمهوري، لأن ابن الولاية جيمي كارتر كان هو المرشح الديمقراطي للرئاسة. وحين أقدم نيوت على إعلان اعتزامه الترشح في 1978 للمرة الثالثة ضد جاك فلينت، بادر الأخير إلى مغادرة الحلبة. قيل إنه لم يعد قادراً على تحمل المزيد. فنيوت لم يكن إلا كتلة صماء من العناد الخالص.

التقيت نيوت للمرة الأولى في الدورة التوجيهية للجمهوريين المبتدئين في 1978، وقد كان فاتن المظهر. كان متمتعاً بقدر هائل من الطاقة، وبرأس مليء بالأفكار، وبقناعة مطلقة، راسخة بأن الجمهوريين قادرون على أن يستعيدوا الأكثرية في المجلس. غير أن علينا لتحقيق ذلك أن نسارع، حسب رأيه، إلى

التخلي عن مسايرة الديمقراطيين وملاطفتهم والمبادرة إلى مطاردتهم - في تكتيك يؤدي إلى حشر بعض الأعضاء القدامى في الزاوية. كان جمهوريون كثر في المجلس مرتاحين إلى وضعية الأقلية ولم يكونوا تواقين لخوض حرب ضد زملائنا الديمقراطيين.

أحد الابتكارات التي جاء بها نيوت تمثل، بالنسبة إليه وإلى آخرين كثيرين من الجمهوريين الجدد، باستخدام مناسبات "دقيقة واحدة" التي كانت تُلقى فيها كلمات وجيزة في بداية جلسة كل يوم، لمطاردة جيمي كارتر وإدارته فعلاً. كان توظيف تكتيكات "دقيقة واحدة" الهجومية من اختصاص نيوت: تكتيكات ذكية، وخلاقة، وناجحة جداً. ألهبت القوى وزودت وسائل الإعلام بالمؤن. غير أن ذلك كان فنجان الشاي الشخصي بالنسبة إلي.

كان أسلوبي أكثر تحفظاً، وكنت أعزف عن الكلام ما لم يكن لديّ ما أقوله- حيث أدخره عندئذ للنقاش. لم أكسب قدراً كبيراً من الشعبية بهذه الطريقة، إلا أنني وجدت، على الأقل، أن بعضاً من زملائي استساغوا ما كنت أفعله. كنت على الحاجز في مؤخرة الغرفة، حانياً، أتابع أحد الزملاء المبتدئين وهو يلقي خطاباً نارياً - ضارباً المنبر وملقناً الديمقراطيين دروساً لن ينسوها - حين جاء أحد الجمهوريين المخضرمين، ووضع يده على كتفي، وقال: "هل تعلم ما أحبه فيك، يا تشيني؟ أنت العضو الوحيد من طبقتك كلها الذي لا يسيل لعابه حين يتكلم!" اعتبرت ذلك ثناءً رفيعاً.

لم أكن عضواً في جمعية الفرصة المؤاتية لنيوت، تلك الجماعة التي تآمر معها لوضع اليد على المجلس، ولكنه شجع رئيس جهاز العاملين معي: ديف غريبن، على حضور الاجتماعات الدورية. وأحياناً، حين كان نيوت يبالغ في الاندفاع مبالغة تثير غضب الأعضاء الكبار في الكتلة أو القيادة، كان ديف يأتي إلى مكتبي ملتمساً نصيحتي حول ما كان قد فعله لتهدئة الخواطر الملتهبة وإعادة الأمور إلى نصابها. علاقتنا كانت مفيدة للحفاظ على شيء من الهدوء بين الجمهوريين في المجلس. بالنسبة إلى القيادة كنت أضطلع بدور نوع من الجسر الموصل إلى الأعضاء الأصغر سناً، الأكثر تشدداً وعنفواناً. أما بالنسبة إلى نيوت فكنت أسلط الأضواء على الخطوط الحمراء التي كان يتعين عليه ألا يتجاوزها إذا

لم يكن راغباً في أن يغرق في بحار من المشكلات. وفيما يخصني شخصياً، فإن دوري أتاح لي فرصة أن أبدو جزءاً من المؤسسة الجمهورية من ناحية، وذا علاقات وثيقة من الجيل الأكثر شباباً، المتطلع بشغف إلى إطاحة المؤسسة من ناحية ثانية.

لن انسى ما نسيت العصر الذي التمست فيه إذن الرئيس ثم وقفت لمخاطبة مجلس النواب للمرة الأولى بوصفي عضواً. كنت أقل من منفعل بالموضوع الذي كان يعالج إحدى القضايا الكثيرة المحزنة التي تعين على لجنة الأخلاق إصدار أحكام بشأنها. كان تشارلز ديغز نائباً قديماً من مقاطعة ميتشيغان الـ 13. سبق له أن كان أحد الشباب اللامعين في حركة الحقوق المدنية، وكان قد انتخب رئيساً أول للكتلة البرلمانية الزنجية. كان الآن متهماً بأخذ الرشا من جهازه البرلماني، ولكن دائرته الميتشيغانية كانت قد أعادت انتخابه، وقضيته لا تزال معلقة قيد التقصي.

مجموعة حانقة من الأعضاء، ذات أكثرية جمهورية وبقيادة نيوت غينغريتش، كانت تطالب بطرده، غير أن لجنة الأخلاق أوصت بتوجيه النقد بدلاً من ذلك، وهو قرار كنت سعيداً بالدفاع عنه. وكما أشرت في خطابي، فإن الدستور ينص صراحة على منح المجلس حق طرد أي عضو، غير أنه يعطي الشعب أيضاً حق اختيار ممثليه، وأهل المقاطعة الـ 13 بميتشيغان كانوا قد اختاروا ديغز حتى بعد إدانته. قلت: "مهما بلغ استنكاري لسلوك ديغز اللاأخلاقي، ومهما بلغ عمق إيماني بعدم جواز بقائه في مجلس النواب، فإني لا أستطيع تأييد الرأي القائل بأن على هذه الهيئة [لجنة الأخلاق] أن تبادر الآن إلى اتخاذ الخطوة غير المسبوقة المتمثلة بتجميد حق ناخبي مقاطعة ميتشيغان الـ 13 في اختيار عضو الكونغرس الذي يروق لهم، في هذه الظروف". نجح قرار توجيه النقد إلى ديغز بدلاً من طرده عند التصويت بأكثرية ساحقة.

جل القضايا المهمة التي بُحثت خلال فترة وجودي في اللجنة الأخلاقية كانت متفرعة مما عُرف باسم فضيحة آبسكام (Abscam). و"آب" في آبسكام كان اختصاراً لعبارة مشروعات آبدول (Abdul) - اسم الشركة الوهمية التي أسسها مكتب التحقيقات الفدرالي [FBI] كممثلة افتراضية لمصالح شيخ عربي

مستعد لدفع رشا مقابل الحصول على مساعدة الحكومة الأمريكية. فالأمر الذي بدأ وكأنه عملية لمكتب التحقيقات ذات مغبّة سيئة تستهدف موظفين محليين فاسدين في منطقة فيلادلفيا انتهى بوقوع ستة أعضاء من الكونغرس وشيخ أمريكي في الشرك.

جل الذين دينوا من جراء عملية آبسكام فقدوا فرص إعادة انتخابهم أو استقالوا بعد محاكماتهم، إلا أن أوزّي ميرز البنسلفاني أصر على نقل قضيته إلى المجلس كله وفرض التصويت على مسألة مدى وجوب طرده. في حالته، لم تكن ثمة انتخابات فاصلة، كما في حكاية ديغز، وكان هناك شريط فيديو مطلق الوضوح في التجريم أظهره وهو يخبر عملاء سريين بأن "في هذه الأعمال المال يتكلم وروث البقر يمشي". كنت طرفاً في الأكثرية الساحقة في كل من اللجنة الأخلاقية والمجلس التي صوتت مع اقتراح طرده، غير أن الأمر كان مؤلماً للجميع، لا لأن على الكونغرس أن يحمي نفسه أو على أعضائه أن يتوقعوا معاملة خاصة، بل لأن الدستور ينص على الانتخاب المباشر للممثلين من قبل الشعب. والمواصفات الوحيدة المطلوبة هي السن، والجنسية، والإقامة. لدى حصول فضيحة آبسكام لم يكن ميرز إلا العضو الرابع المطرود في التاريخ.

كان جون مورتا البنسلفاني، وهو بحار سابق وأول محارب سابق في فيتنام منتخب كعضو في الكونغرس، أحد الأعضاء المتورطين في فضيحة آبسكام. ظهر على أحد أشرطة الفيديو التي صورها عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي السريون في موقف مربك، ولكنه ليس، بنظري، موقفاً غير مشروع. ومع ذلك ظل يتعرض للتشهير ويعامل معاملة شبيهة بمعاملة الآخرين، الأمر الذي رأيته بعيداً عن الإنصاف، وفي بعد ظهر أحد الأيام تحدثت معه في المجلس وقلت له إنه مظلوم برأيي، يتلقى ركلات لا يستحقها. وأكدت له بأن عليه أن يبلغني إذا كان بحاجة لأي مساعدة من جانبنا. شكرني، ولم نعد إلى الموضوع قط. في تموز/يوليو 1981 قامت اللجنة الأخلاقية بتبرئته.

خلال عامي الأول في المجلس، أعلن الزعيم الجمهوري جون رودس الأريزوني عن عدم اعتزامه الترشح ثانية بعد الانتخابات التالية. أدى هذا مباشرة إلى إطلاق

معركة خلافة كبرى داخل الكتلة الجمهورية. كان غاي فاندر جاغت من ميتشيغان، وهو شخص كاريزمي وخطيب مفوه، سبق له أن عمل بتعاون وثيق مع جل الأعضاء الجدد بوصفه رئيساً للجنة الكونغرس الجمهورية الوطنية، أحد المرشحين الرئيسيين لشغل الموقع. كثيرون كانوا يشعرون بأنهم مدينون لغاي في انتخابهم، وكان متمتعاً بتأييد ذي شأن. أما المرشح الآخر فكان رديف الزعيم رودس في القيادة بوصفه كرباج الأقلية، بوب ميتشل الإيلينوي. كان الرجل محبوباً على نطاق واسع ومحترماً من الجميع، مع أن بعض الأعضاء الأصغر سناً في معسكر فاندر جاغت كانوا ينتقدونه على فرط ارتياحه إلى البقاء في الأقلية، وعلى عزوفه الشديد عن انتقاد الديمقراطيين.

عضوان فقط من طبقة الـ 78: توم لويفر التكساسي وأنا، دعمنا بوب ميتشل. كنت معجباً بالمرشحين كليهما، غير أنني كنت قد خضت حملتي الانتخابية دون أي مساعدة من لجنة الكونغرس الجمهورية الوطنية. كنت أعرف بوب ميتشل من عملي السابق في إدارتي نيكسون وفورد. كنت أظن أنه كان سيفوز بمنصب الزعيم. وافقت فوراً.

قبيل انتخابات 1980، قام والت كنيدي، أحد مساعدي بوب في المجلس، بمفاتحتي. ثمة أشخاص معينون، قال والت، يرون وجوب ترشحي لمنصب الزعامة - خصوصاً رئاسة لجنة التخطيط الجمهورية، رابع المواقع بعد الزعيم، الكرباج، رئيس مؤتمر المجلس للكتلة الجمهورية أو [الكاوكوس]. جاءت استجابتي متحفظة، معبراً عن حاجتي إلى التبصر. سلفاً كان ثمة مرشحان للمنصب، مارجوري هولت المريلاندي وإيلدون رود الأريزوني، وكلاهما متقدمان عليّ ومتوفران على التزام عدد من الأعضاء.

قدرت وقوف بوب ميتشل خلف اقتراح كنيدي، لكنني لم أستطع، بالفعل، أن أفاتح بوب بالأمر. تنافسه مع غاي فاندر جاغت كان قريباً وصعباً، وإذا عُرف أنه كان يسعى إلى تجنيدي للترشح ضد أعضاء أقدم لرئاسة التخطيط، فإن من شأن ذلك أن يفقده تأييد أنصار أولئك الأعضاء في السباق إلى الزعامة. شخصياً وصلتني بعض الأصداء الخفيفة، وحين تأكدت من قدرتي على استنفار ما يكفي من الدعم للفوز، أعلنت ترشحي للمنصب.

بعد بضع سنوات أكد بوب ميتشل أنه كان قد طلب من والت كنيدي أن يقترح ترشحي لرئاسة لجنة التخطيط. تمثل أحد مسوّغاته بأن ترشحي كان من شأنه أن يحصل على الدعم والزخم لدى المبتدئين الأنداد بما يقلص اندفاعهم لصالح فاندر جاغت. كذلك كان يفكر بتشكيل فريق قيادي يكون قادراً على الثقة به والعمل معه في الأعوام التالية.

عندما انتهى التصويت في كاوكوس الـ 1980 ذلك، كان ميتشل زعيم الكتلة الجمهورية، وترنت لوت الميسيسبي الكرباج المنتخب حديثاً، وجاك كمب النيويوركي رئيس المؤتمر، وأنا رئيس التخطيط. كان هذا فريقاً فعالاً، وبقي تعاوننا متواصلاً على امتداد أعوام الثمانينيات، أعوام رئاسة ريغان.

بسبب طريقة تنظيم المجلس وكتابة قواعدها، لا يتمتع أعضاء الأقلية الأفراد إلا بالقليل أنموذجياً من التأثير في العمل الإجمالي للمجلس، إلا أن كوني في القيادة أوصلني إلى الاجتماعات حيث يتم رسم الاستراتيجية التشريعية والسياسية وتدبير العلاقة مع الإدارة. من وجهة نظري الشخصية، أدى وجودي في القيادة إلى حصول اختلاف بالغ الضخامة.

تزامنت فترتي الأولى في المجلس مع النصف الثاني لإدارة الرئيس كارتر. حملة الـ 1976 لم تكن قد جعلتني من المبهورين بالرئيس كارتر، كما لم تكن سنتاه الأوليان في المنصب قد فعلتا ذلك. وجدت إدارته عديمة الإثارة بشكل استثنائي.

على الرغم من أن الديمقراطيين كانوا متمتعين بهامش واسع يزيد على مئة مقعد نيابي خلال عامي 1979 و1980، فإن البيت الأبيض أيام رئاسة كارتر وجد صعوبة في تحقيق نجاحات تشريعية. ففي 1979 حاول كارتر جاهداً، في مواجهة نقص حاد في الوقود، نتيجة الثورة الإيرانية واضطرابات أخرى في الشرق الأوسط، أن يستصدر تشريعاً للطاقة من الكونغرس. في ختام نقاش برلماني حول مبادرات الإدارة ذات العلاقة بالطاقة، أقدم تيب أونيل على النزول عن كرسي الرئيس ـ حيث العرف يمنعه من اتخاذ موقف مع أو ضد أي نص تشريعي ـ بحركة مسرحية مثيرة، ليتحدث من قاعة المجلس مؤيداً مشروع

القانون المقترح من الإدارة. في هذا اليوم كان تيب استثنائي الفصاحة في تعليقاته. تحدث عن أنه كان جالساً في شرفة المجلس، في أثناء إحدى زياراته الشبابية لواشنطن، يوم طُلب من المجلس، في خريف 1941، قبيل بيرل هاربور تمديد نظام الخدمة الانتقائية. وزعم أننا الآن في 1979 في مواجهة أزمة موازية من حيث الضخامة، وأن رهانات التصويت لم تكن أقل خطورة.

كان ذلك أداء خارقاً للعادة، وحين أنهى خطابه، بادرنا جميعاً، ديمقراطيين وجمهوريين على حد سواء، إلى الوقوف والتصفيق تأييداً لرئيس المجلس. ثم أدلينا بأصواتنا ـ وألحقنا به هزيمة حاسمة. من المؤكد أن تيب أونيل كان متمتعاً بكثير من الإعجاب وبقدر كبير من الاحترام، ولكنه لم يستطع نقل أي من هاتين العاطفتين إلى الرئيس، كما لم يتمكن من ترجمتهما إلى أصوات حين عكفنا على دراسة اقتراحات الرئيس.

ثمة عقبات وقفت في طريق الرئيس كارتر أيضاً حين حاول استعراض قوة أمريكا. بعد إطاحة الشاه في إيران وطلب السعوديين إثبات التزام الولايات المتحدة مع المملكة، جاءت استجابة كارتر كمسرحية مثيرة عبر إرسال سرب من مقاتلات الإف ـ 15 إلى الخليج العربي. ثم ما لبث، حين كانت الطائرات في الجو، أن أعلن أنها غير مسلحة. أزمة الرهائن الإيرانية حوّلت سنته الأخيرة من المنصب إلى جحيم. بدت محاولته الخرقاء والفاشلة لإنقاذ الرهائن الأمريكيين ـ عملية الصحراء واحد ـ رمزاً صارخاً لمدى حماقة إدارته.

كانت مشكلاته مع الكونغرس نابعة جزئياً من غياب فهم كيفية إدارة العلاقات مع الكابيتول هيل. صار الرئيس أونيل، بعد أن عامله رئيس جهاز العاملين عند الرئيس هاملتون جوردان بفروسية وشهامة، يشير إلى الأخير ملقباً إياه "هانيبال جيركن"، ولم يصل الجورجيون إلى أي مستوى من الانفراج في العلاقة مع مراكز القوة على الطرف الآخر من جادة بنسلفانيا. أقدم كارتر على عقد صفقة كبيرة حين استغنى عن يخت سكويا (Sequoia) الرئاسي. لم يدرك كارتر أن المركب التاريخي كان أداة عظيمة لخطب ود الكونغرس أكثر من كونه زينة قابلة للتصرف بيد الرجل الجالس في المكتب البيضوي. إحدى الدعوات الأعلى قيمة في واشنطن خلال سنوات فورد تمثلت بالدعوة إلى الشراب والعشاء

مع الرئيس في رحلة نهرية على البوتوماك. ومن التقاليد أن جميع الركاب كانوا، لدى مرور يخت سكويا بماونت فيرنون، يخرجون ويصطفون مع أفراد الطاقم لأداء تحية رسمية للرئيس الأول. أصوات كثيرة كان يتم كسبها في تلك الرحلات النهرية المسائية.

نشأت أكبر آيات خيبتي مع الرئيس كارتر عندما كنت وزيراً للدفاع. كان الرئيس جورج اتش دبليو بوش ووزيرالخارجية جيمس بيكر عاكفين على استحصال موافقة مجلس الأمن الدولي على قرار يمنح حق استخدام القوة لطرد العراقيين من الكويت في 1991 - 1990. اكتشفنا أن الرئيس السابق كارتر، كناشط في الدعوة إلى مناهضة موقف الولايات المتحدة، كان قد اتصل برؤساء حكومات لها مقاعد في مجلس الأمن وحضهم على معارضة قرارنا. بقي تدخله عديم الفعالية - ومعيباً كلياً بالنسبة إلى رئيس جمهورية سابق.

بعد عدد غير قليل من السنوات، بعد خروجهما كليهما من الرئاسة بزمن طويل، قام الرئيس فورد بتطوير علاقة قوية مع الرجل الذي كان قد ألحق به الهزيمة الانتخابية الوحيدة في حياته الوظيفية الطويلة. كان ثابت الحرص والسعادة حين أكد لي عدم موافقته على حكمي المائل إلى القسوة على سلفه. قريباً من أيامه الأخيرة أمضى الرئيس فورد قدراً غير قليل من الوقت عاكفاً على التخطيط لتفاصيل جنازته الرسمية. من المؤكد أنه أطلق ضحكة كبيرة لدى وضع ترتيبات الدفن بالقرب من متحفه الرئاسي في غراند رابيدز، التي ألزمت الزوجين تشيني مع الزوجين كارتر، جنباً إلى جنب مع الزوجين رامسفيلد بقضاء بعد الظهر في أمكنة قريبة.

يمكن للنواس أن ينوس سريعاً في السياسة الرئاسية، وصار يبدو كما لو أن عام 1980 - بعد ما لا يزيد على ست سنوات من استقالة نيكسون وأربع سنوات من انتخاب كارتر - سيكون عاماً جيداً جداً بالنسبة إلى الجمهوريين. كان رونالد ريغان أول المتسابقين بشكل واضح للفوز بترشيح الحزب الجمهوري، [GOP (Grand Old Party)]، وجميع شاغلي الوظائف الجمهوريين، بمن فيهم أولئك الذين كانوا قد ساندوا جيرالد فورد قبل أربع سنوات، باتوا الآن ريغانيين.

كان الرئيس فورد قد ألقى نظرة سريعة على احتمال خوض سباق آخر إلى البيت الأبيض. في وقت مبكر من العام دعانا نحن الذين عملنا معه إلى بالم سبرنغز، في كاليفورنيا، لمناقشة الأمر. ومن الذين حضروا أنكر جاك مارش، وستو سبنسر، وبوب تيتر. أمضينا الجزء الأفضل من النهار عاكفين على مناقشة إمكانية إطلاق حملة في هذا التاريخ المتأخر نسبياً وآفاق حصوله على ترشيح الحزب الجمهوري.

في آخر النهار، عبر عن رغبته في النوم مع الفكرة. في صباح اليوم التالي حين أعاد جمع فريق المستشارين، أعلن أنه لا يريد فعلاً أن يكون مرشحاً في 1980. قال إنه ببساطة لم يكن مستعداً لتحمل توترات حملة وطنية أخرى. في هذا الوقت كان مالكاً لبيت رائع في ملعب الغولف داخل الصحراء بالقرب من بالم سبرنغز وابتنى منزلاً جديداً في الجبال، في بيفركريك في كولورادو. كان يحقق أرباحاً في القطاع الخاص. بقيت أفكر دائماً أنه كان يشعر بنوع من واجب النظر في إمكانية خوض حملة انتخابية في 1980، لأنه كان لا يزال قريباً من ألم هزيمته في 1976 من جهة، ولأنه لم يكن بالفعل يحب فكرة أن يكون رونالد ريغان هو المرشح من جهة ثانية. غير أنه صرف النظر بعد أن ركز على ما يمكن لأي حملة وطنية أن تتطلبه منه.

في وايومنغ كنت قد بذلت جهوداً كبيرة لبناء قاعدة سياسية وإزاحة أي معارضة، وحققت قدراً كبيراً من النجاح. لم يكن في مواجهتي أي منافسين جمهوريين في 1980، والانتخابات الأولية الديمقراطية التي شارك فيها أربعة مرشحين تمخضت عن فوز صاحب بار من بلدة ليمان الصغيرة الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية النائية من البلاد يدعى جيم روجرز. سرت شائعات تقول إنه كان قد قصد الترشح لعضوية مجلس الولاية التشريعي ولكنه فتح الصندوق الخطأ عند تقديم أوراقه. تعين علي أن أستعرض متطلبات أي حملة، من تمويل، وإعلان، ومناسبات عامة، إلا أنني ما لبثت أن رسوت على انتصار سهل بنسبة 69 بالمئة من الأصوات.

في 1976 كنت قد لعبت دوراً كبيراً في المؤتمر الجمهوري بكنساس

سيتي. أقمت في جناح فسيح مجاور لجناح الرئيس فورد مع سيارات وسائقين تحت الطلب. أما في 1980 فلم أكن، بوصفي عضو كونغرس جديداً، إلا عضواً واحداً من وفد وايومنغ. نسبة إلى كتلة ولايتنا السكانية ودورها العام في العملية، خُصص لنا نزل على مسافة نحو نصف ساعة خارج دترويت، ولم أكن أستطيع اللحاق بحافلة المندوبين كل صباح، فأضطر إلى دفع خمسين دولاراً أجرة سيارة.

أساساً كان مؤتمر دترويت في 1980 تتويجاً لرونالد ريغان. على الرغم من أن طالبي ترشيح الحزب كانوا كثيرين، فإن فوز حاكم ولاية كاليفورنيا السابق لم يكن في الحقيقة يحتمل ولو ذرة شك. للحظة عابرة في دترويت وجدتني عائداً إلى النشاط، حين توجهت الأنظار إلى اختيار مرشحنا لقرين انتخابي يكون نائباً للرئيس. عدد من كبار مستشاري ريغان، وفي المقدمة منهم مدير الحملة، بيل كيسي، اعتقدوا أن من شأن ثنائي ريغان - فورد أن يشكل أفضل الصيغ الممكنة. وفي معسكر فورد كان هنري كيسنجر، وجاك مارش، وبرايس هارلو من الذين طالبوا فورد بأخذ موضوع النزول على بطاقة منافسه السابق مأخذ الجد.

تحديداً كان برايس هارلو مؤيداً قوياً لثنائي ريغان - فورد. وهارلو غير المعروف كثيراً هذا، الذي سبق له أن خدم بداية في إدارة آيزنهاور، كان أحد أكثر الرجال حكمة، وتمتعاً بالاحترام، ونفوذاً في واشنطن لعقود. في 1976 كان يعتقد أن فورد كان قادراً على الفوز لو أقدم على طي صفحة جراح معركة الترشيح ودعا ريغان إلى الاقتران به على البطاقة. رأى هارلو منطق الانتخاب على المستوى نفسه من الإلزام بعد أربع سنوات. فريغان وفورد كانا القائدين اللذين لا منافسين لهما في جناحيهما داخل الحزب الجمهوري. في تلك الأثناء، قبل التدهور الشديد لشعبية كارتر والصعود الهائل لنجم ريغان، بدا ثنائي ريغان - فورد أفضل وسائل رأب الصدع الحاصل في الحزب والنزول إلى حلبة السباق بجبهة موحدة.

في اليوم الثالث للمؤتمر، دعاني هوارد بيكر وجون رودس، زعيما الأقلية في مجلسي النواب والشيوخ، إلى الالتحاق بهما وبممثلين لحاكم الولاية ريغان

ورئيس الجمهورية فورد بفندق رينيسانس لمناقشة الاقتراح. كان فورد قد وعد بالنظر في نيابة الرئيس شرط التوصل إلى اتفاق يمنحه مسؤوليات ذات شأن في أي إدارة ريغانية ـ فوردية. في الاجتماع أشار بيل كيسي إلى الاستعداد لقطع شوط طويل على طريق تلبية مطالب فورد، بما في ذلك إعطاء الرئيس التنفيذي الأول السابق دوراً رئيسياً في ميادين السياسة الخارجية، والموازنة، ودائرة شؤون الموظفين. أدركت أن ما كان يجري بحثه لم يكن إلا نوعاً من الرئاسة المشتركة، حيث يتقاسم الرئيس ونائب الرئيس سلطات المنصب وصلاحياته.

صُعقت إزاء المدى الذي بلغه بيل كيسي، وحاكم الولاية ريغان افتراضاً، في إبداء الاستعداد لتقاسم سلطة الرئيس. بعد الاجتماع انضممنا، بوب تيتر وأنا، إلى بيكر وردس، وعكفنا على مناقشة الاقتراح. من الواضح أن أحداً منا لم يكن يرى الترتيب المطروح عملياً ولو من بعيد. لا مجال لوجود أكثر من رئيس واحد في الوقت نفسه، وثمة صلاحيات رئاسية معينة يتعذر التفويض بها.

مما يبعث على السرور أن فريق ريغان ما لبث، لاحقاً ذلك المساء، أن توصل إلى الاستنتاج نفسه وعرض المرتبة الثانية على البطاقة على جورج أتش دبليو بوش الذي وافق دون تردد. على صعيد إعادة الانتخاب، لا أظن أن فورد كانت لديه أي نية لتولي منصب نيابة الرئاسة لمرة ثانية. أعتقد أنه طالب عن قصد بأمور كان واثقاً من أنها ستُرفض وقد فوجئ بالمدى الذي كان ريغان مستعداً للذهاب إليه لإقناعه بقبول الترشيح لنيابة الرئاسة.

بعد انتخابات 1984، أقدم رئيس المجلس أونيل، بتوصية من بوب ميتشل، على تعييني عضواً في لجنة الاستخبارات البرلمانية. اعتبرت تعييني تكريماً ـ رغم إدراكي لحقيقة أنه لم يكن تكريماً يرنو إليه جميع الأعضاء. فهذه اللجنة تتطلب قدراً هائلاً من الوقت، والعمل، والدراسة. ونظراً لفرط حساسية الموضوع، فإن من غير الممكن إحالة جزء كبير من العمل على أفراد جهاز العاملين كما يتعذر نسخ المواد وتوزيعها إلى خارج نطاق مكاتب اللجنة ذات الاحتياطات الأمنية المشددة. ذلك يعني الانتقال إلى المكاتب شخصياً وتكريس ساعات طويلة على قراءة التقارير المتدفقة يومياً من سائر أرجاء العالم وجملة التحليلات

التفصيلية المعدة من قبل الجهاز المحترف. يضاف إلى ذلك أن طبيعة عمل اللجنة تتطلب قدراً مطلقاً من السرية والكتمان. لا مجال لأي مؤتمر صحفي لادعاء الفضل أو مجرد الإشارة في أي نشرة إخبارية موجهة إلى القواعد فيما يخص معظم المهمات التي يتولى أي عضو في لجنة الاستخبارات القيام بها.

غرقت في العمل، ورحت أقضي ساعات طويلة في المكتب. استجاب جهاز العاملين في اللجنة لاهتمامي عبر إغراقي بالمزيد من المواد. وجدتني في حالة ذهول إزاء جميع المعلومات، المتناقضة أحياناً، وأمام تحدي تمثلها وروزها.

قمت بزيارة سائر الأجهزة الاستخباراتية المختلفة ـ المقر الرئيسي لوكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إيه) في لانغلي كان على بعد بضعة أميال من منزلنا في فيرجينيا ـ وأعداد كبيرة من شركات القطاع الخاص التي كانت تتولى إنتاج المعدات ذات الأهمية الفائقة في العمل الاستخباراتي. ذهبت إلى المحطة الميدانية لمكتب الاستطلاع الوطني للاطلاع على الحمولات والتغذيات الواقعية الآنية المتدفقة من شبكة الأقمار الصناعية الاستخباراتية المغطية للعالم كله.

ذات ليلة في صحراء نيفادا، أصبحت أحد أوائل المدنيين الذين شاهدوا المقاتلة الشبح إف ـ 117. تم نقلي جواً بطائرة صغيرة إلى قلب مرفق معتم تماماً، حيث كانت سيارة جيب بانتظاري ومعها سائق ودليل، أوصلتني إلى حظيرة طائرات ـ وجدتني أمام شبح عملاق، مظلم على خلفية السماء الصحراوية. في الداخل، في مركز القسم الداخلي الفسيح الخالي بطول ملعب كرة القدم، كان ثمة أحد أكثر المشاهد التي سبق لي أن رأيتها روعة وإثارة للعجب: طائرة الشبح! صحيح أن الطائرات الملساء ذات شكل الدلتا باتت اليوم مألوفة عبر الصور والأفلام وألعاب الفيديو، غير أنها كانت، في تلك الليلة داخل الصحراء، لا تزال سراً مئة بالمئة، وقد شعرت بكل ما تعنيه كلمة الرهبة من معنى.

كانت لجنة المجلس الدائمة المنتقاة الخاصة بالاستخبارات صغيرة: عشرة من الديمقراطيين وستة من الجمهوريين. حين صرت عضواً كان الرئيس هو لي هاملتون من أنديانا، وهو ديمقراطي أكن له قدراً كبيراً من الاحترام. ونائب الرئيس الجمهوري بوب ستامب الأريزوني كان قوياً، ويُعوَّل عليه، وجديراً بالثقة.

أما هنري هايد الإيلينوي الذي خلف ستامب فكان صديقاً شخصياً حميماً، شخصاً خبرته واحترمته منذ أكثر من عقد.

في إحدى المراحل أصبحت نائباً للرئيس في اللجنة الفرعية لإجازة البرامج والموازنة، حيث حظيت بمساعدة كفيّة من عنصري جهاز موهوبين: مارتي فاغا ودوانه آندروز. كان منصبي يمكّنني من الاطلاع على مجمل طيف نشاطاتنا وعملياتنا الاستخباراتية وصولاً إلى تكوين فكرة عملية عن كيفية سير - أو عدم سير - الأمور. هذه كانت معرفة مرشحة لإثبات جدواها الفائقة حين أصبحت وزيراً للدفاع ونائباً لرئيس الجمهورية بعد ذلك.

خلال عهدي في لجنة الاستخبارات، كنا نعالج موضوع نزعة المغامرة السوفييتية في الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية، والعواقب الإقليمية لغزو أفغانستان. في إحدى الجولات الاستخباراتية قمنا بزيارة ممر خيبر في باكستان والتقينا عدداً كبيراً من قادة المجاهدين الأفغان. التقينا أيضاً الرئيس الباكستاني ضياء في إسلام آباد. داخلياً تعين على اللجنة أن تعالج بعضاً من قضايا التجسس الخطيرة والحساسة جداً. كان إدوارد لي هاوارد ضابط وكالة الاستخبارات المركزية فَرّ إلى موسكو مع أسماء وأسرار عدد كبير من العملاء في أرجاء العالم. عائلة ووكر - الضابط البحري المتقاعد جون أنطوني ووكر وأخوه الأكبر وابنه مع أحد الأصدقاء - باعت رموز بحريتنا السرية، بما مكن السوفييت من قراءة اتصالاتنا العسكرية السرية.

كانت ثمة قافية محيّرة حتى عهدي في لجنة الاستخبارات. في أيار/مايو 1987 تلقيت مكالمة من مدير مكافحة الاستخبارات الأسطوري في السي آي إيه: جيمس جيزوس آنغلتون. قال إن لديه شيئاً حيوي الأهمية يريد إخباري به وهو غير قابل للإيصال إلا شخصياً. كنت أعلم أن استقالة آنغلتون من السي آي إيه في 1975 مكنته من الإفلات من الملاحقة بتهمة المراقبة غير المشروعة، كما كنت أعلم انه كان مسكوناً بهاجس كون السوفييت قد نجحوا في دس أحد العملاء في أعلى مستويات الحكومة الأمريكية. إلا أن كثيرين ممن كانوا قد عملوا مع آنغلتون كانوا يعدونه لامعاً، فأردت أن أسمع ما كان سيقوله.

اتصلت بنائب رئيس لجنة الاستخبارات الجمهوري هنري هايد ودعوته إلى

حضور اللقاء. وبعد بضعة أيام، قبل اجتماعنا المبرمج، فارق جيم آنغلتون الحياة. لم أطلع قط على ما أراد إبلاغي به.

أُعيد انتخابي في 1986 بنسبة 69 بالمئة من الأصوات. لم أواجه بأي معارضة صعبة، بيد أنني عملت جاهداً في الحملة وكنت أتطلع بشغف إلى رحلة ما بعد الانتخابات لصيد الظباء مع صديقي آل سيمبسون ونجليه: كولن وبيل. كانت استعدادات الرحلة ناجحة، وكنت قد حزمت حقائبي للعودة جواً حين تلقيت مكالمة من بوب ميتشل. من الواضح أنني كنت العضو الوحيد من قيادة المجلس الجمهوري الباقي في واشنطن خلال فترة ما بعد الانتخابات، وكان بوب يريد مني حضور اجتماع دُعي إليه على عجل في البيت الأبيض. في الثاني عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، حين وصلت إلى الجناح الغربي، جرى توجيهي إلى غرفة الطوارئ [العمليات] في القبو. كان زعيما الأكثرية والأقلية في مجلس الشيوخ: بوب دول وروبرت بيرد، هناك، جنباً إلى جنب مع رئيس المجلس جيم رايت وأعضاء رئيسيين في فريق الأمن القومي لدى الإدارة. كان الجو كله منذراً بأزمة وشيكة، وراودني الشك حول الخروج إلى رحلة صيد الظباء.

قام مستشار الأمن القومي جون بويندكستر بإيجاز صورة الوضع، كاشفاً قصة مبادرة سرية من جانب الإدارة من شأنها أن تتمخض قريباً جداً عن إعصار ناري. أملاً في تحسين علاقتنا بعناصر يفترض أنها معتدلة في إيران، كانت الولايات المتحدة قد بدأت ببيع أسلحة إلى هذه الفئات، مداورة أولاً، ومباشرة بعد ذلك. كذلك كانت الولايات المتحدة راغبة في الحصول على مساعدة من الإيرانيين لإطلاق سراح رهائن أمريكيين محتجزين لدى حزب الله في لبنان، وبعد مباشرة مبيعات الأسلحة جرى تحرير ثلاثة أمريكيين. في غضون أقل من أسبوع قبل- إيجاز غرفة العمليات، كان الرئيس ريغان قد ظهر في الحديقة الوردية مع ديفيد جاكوبسون، الذي كان أُطلق سراحه بعد سبعة عشر شهراً من الأسر في بيروت.

من غير القابل للإنكار أن تحرير الرهائن كان أمراً جيداً، غير أني كنت أرى بوضوح أن المبادرة لم تكن موفقة من حيث الإعداد. لأنها قامت على انتهاك

حظر السلاح الذي كنا قد فرضناه على إيران ونلح على الدول الأخرى طالبين مراعاته، وأفضت إلى تقويض سياستنا الحازمة الرافضة للتفاوض مع الخاطفين. وخلافاً لما هو واجب، لم يكن الكونغرس على علم بالعملية.

زاد الوضع سوءاً بوتائر هندسية في أواخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر حين قام المدعي العام إد ميز في أحد المؤتمرات الصحفية بإماطة اللثام عن أن أرباح مبيعات الأسلحة لإيران كانت قد حُولت إلى متمردين معروفين باسم كونترا، كانوا يقاتلون الحكومة الموالية للشيوعية في نيكاراغوا. كان الكونغرس قد تبنى تعديلات بولاند، التي نصّت على تدابير تهدف إلى تقييد رئيس الجمهورية ومنعه من متابعة سياسته القائمة على مساعدة الكونترا. بعد قيام الرئيس النيكاراغوي دانييل أورتيغا بزيارة مفرطة الطنطنة إلى موسكو، كانت مقاومة الديمقراطيين الشرسة لمساعدة الكونترا قد خفتت قليلاً، غير أن تعديلات بولاند كانت لا تزال نافذة، بما أبقى الحلبة جاهزة للمجابهة.

في الثاني من كانون الأول/ديسمبر شققت طريقي تحت وابل من المطر الغزير إلى اجتماع الحادية عشرة صباحاً الذي كان الرئيس قد دعا إليه مع القيادة الجمهورية في مكتب مجلس الوزراء. أكد لنا أنه لم يكن على علم بتحويل الأموال إلى الكونترا، وبعد مغادرتنا كرر تأكيده عبر حديث تلفزيوني لمدة أربع دقائق. كذلك قال إنه يرحب بتعيين مستشار نيابة خاص وصادق لإجراء تحقيقات برلمانية في القضية.

في اليوم التالي دعا الرئيس إلى اجتماع آخر مع القيادة الجمهورية، في المكتب البيضوي هذه المرة. كان الرئيس جالساً في أريكة على أحد جانبي الموقد وزعيم الأكثرية بمجلس الشيوخ بوب دول في الأريكة الموجودة على الجانب الآخر. كنت أنا على صوفا قشدية اللون بين كرباج المجلس الجمهوري ترنت لوت ونائب الرئيس جورج بوش. في الجهة المقابلة كان زعيم الأقلية في المجلس بوب ميتشل، ورئيس مجلس الشيوخ المؤقت ستورم ثورموند، وصديقي آلان سيمبسون، كرباج مجلس الشيوخ. بقي الرئيس مصراً على أن الإدارة لم تكن قد أقدمت على مقايضة الرهائن بالسلاح. أفاد بأن الذين كانوا قد نفذوا عملية الاختطاف لم يكونوا قد حصلوا على أي شيء. ثم تابع يفسر أن الأسلحة

كانت قد بيعت إلى معتدلين إيرانيين بادروا بدورهم إلى إقناع الخاطفين بوجوب إطلاق سراح الرهائن. مال ريغان إلى الأمام وطرح السؤال التالي: "قولوا لي الآن، ما الخطأ في ذلك؟"

أكد من جديد أنه لم يكن قد علم بتحويل الأموال إلى الكونترا، ولو علم كان أفضل، وإنْ مع إزعاج على أي حال. قصة إيران ـ كونترا لم تكن ووترغيت، رغم أن جيشاً جراراً من الديمقراطيين كانوا يحاولون إظهارها على ذلك النحو، إلا انني قرأت على شاشة الإن بي سي، برنامج "مع الصحافة" في أواخر كانون الأول/ديسمبر عبارات: "من الواضح أن شيئاً تعطل في البيت الأبيض، وعدم انخراط" رئيس الجمهورية "في بعض تلك التفاصيل هو جذر المشكلة".

كان على الرئيس ريغان ألا ينتظر التحقيق البرلماني الذي أبدى استعداده للترحيب به طويلاً. في الأسبوع الأول من كانون الثاني/يناير 1987، بادر مجلسا الشيوخ والنواب رسمياً إلى تشكيل لجنتي تقصي حقائق. عينني بوب ميتشل نائباً جمهورياً للرئيس من جانب المجلس، متجاوزاً أعضاء أقدم. أظن أنه اختارني جزئياً لأنني كنت منخرطاً سلفاً، إذ كنت ممثله في الاجتماعات الأولية حين كان الجميع غائبين عن المدنية. غير أنه كان أيضاً يعرف مدى عمق اهتمامي بقضايا الأمن القومي، وأظن أنه كان واثقاً من أنني كنت سأقوم بما يجب القيام به دون أي تباه أو تطوس.

تحضيراً لجلسات الاستماع، قمت باستخدام بعض قمم المهارة في المجال، بمن فيهم توم سميتون، الذي كان مستشار أقلية للجنة الاستخبارات، ليكون مدير جهاز الأقلية، وجورج فان كليف، محام كان قد عمل في مكتبي البرلماني، ليكون مستشار أقلية. ولتولي مهمة محرر الأقلية وكاتبها وقع اختياري على مايكل مالبن، الحائز على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة كورنيل وكان أيضاً قد عمل بضع سنوات مراسلاً في الـ "ناشيونال جورنال". ومؤخراً، كان عاكفاً على دراسة نزاعات ناشبة بين فرعي الحكم التنفيذي والتشريعي، ما أغناه بقدر غير قليل من خبرة استثنائية القيمة.

بدأت لحظات جلسات الاستماع الأكثر إثارة في السابع من تموز/يوليو حين دُعي أوليفر نورث، الذي كان أحد عناصر جهاز مجلس ريغان للأمن القومي

بعد عامي 1981 و1986، إلى أداء القسم. تقدم نحو منصة القسم في غرفة الاستماع مرتدياً بدلة مقدم بحري أمريكي مزينة بالأوسمة والميداليات. كانت الأكثرية قد خططت لتوظيف شهادته من أجل إلباس رئيس الجمهورية ثوب اقتراف نشاطات غير شرعية. فجأة وجدتْ نفسها في مواجهة احتمال نجاح المقدم نورث بأسلوبه الجاد ووطنيته النقية في حشد تأييد وطني للجهود المبذولة من أجل تحرير الرهائن في إيران ومحاربة الشيوعية في نيكاراغوا.

كان لدى المقدم نورث صور مشاهد [سلايد] سبق له أن عرضها غير مرة لاستنفار التأييد للكونترا، إلا أن الديمقراطيين أصروا، متوجسين من مدى قدرته على الإقناع، على منعه من عرض الصور. بوصفي نائب رئيس الأقلية، اخترت أن أكون آخر المستجوبين، وانتهزت الفرصة لمطالبته بالكلام مع الاستعانة بالصور، الأمر الذي أجاد فعله باذلاً جهداً غير قليل خلال عشرين دقيقة. كانت عندي مخاوف جدية إزاء سلوك نورث. كان قد أتلف وثائق وتصرف دون تفويض سليم. تقرر فيما بعد أنه تصرف تصرفاً غير شرعي، مع أن الإدانة تم عكسها من منطلق أن شهادته المحصنة كانت قد أثرت في محاكمته. إذا كانت الأكثرية عازمة على إظهاره شخصاً خالف القانون عمداً وانتهك الدستور، فقد رأيت أن من حقه أن يدافع عن نفسه بوصفه شخصاً كان يحاول إنقاذ الأرواح وحماية الديمقراطية في مواجهة التأرجح البرلماني المتردد.

وفي بياني الختامي في جلسة الاستماع، أبرزت حقيقة أن قصة إيران - كونترا منطوية على سلسلة من الأخطاء الجدية التي اقترفتها الإدارة، غير أن هناك جملة من الأسباب التخفيفية - أسباب "تذهب بعيداً في تفسيرها وجعلها قابلة للفهم، وإن لم تكن تسوِّغها". ومن تلك الأسباب: "التأرجح واللايقين البرلمانيين فيما يخص سياساتنا إزاء أمريكا الوسطى" و"الأهمية الحيوية للإبقاء على المقاومة الديمقراطية النيكاراغوية حية إلى أن ينقلب الكونغرس على ذاته ويطوي تعديل بولاند". وسجلت أيضاً أن إخفاق الإدارة في إخطار الكونغرس يمكن الإتيان على ذكره في "سجل برلماني لحوادث تسريب معلومات حساسة كافية لإثارة القلق حتى لأكثر المؤيدين والمقرّين بخطأ اضطلاع الكونغرس بدور واسع في رسم السياسة الخارجية، وإن بقي غير قابل للصفح".

شكل تقرير الأكثرية عن قضية إيران ـ كونترا قصة مثيرة لعناصر مارقة داخل الإدارة مستعدة للالتفاف على القانون وانتهاك الدستور إصراراً منها على تنفيذ سياستها الخارجية الخاصة. أما في تقرير الأقلية فحاولنا أن نقدم وجهة نظر أكثر توازناً، قائمة على أخذ التاريخ الطويل للصراع بين الفرعين التنفيذي والتشريعي على صوغ السياسة الخارجية بنظر الاعتبار. ومما قيل في التقرير:

> *النظرة اللامحدودة للسلطة البرلمانية بدأت تترسخ في السبعينيات، غداة الحرب الفيتنامية. فتقرير لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ عام 1972 المتضمن توصية قانون سلطات الحرب، وتقرير 1974 للجنة المختارة حول النشاطات الاستخباراتية (برئاسة الشيخ فرانك تشيرتش والمعروفة بلجنة تشيرتش)، حاولا، كلاهما تأييد سلطة برلمانية بلا قيود.*

لم يكن تقرير الأكثرية المنحاز إلا جزءاً من النمط نفسه، مستنداً بالفعل "إلى نوع من نظرية تعظيم صلاحيات الكونغرس في السياسة الخارجية، نظرية هي نفسها جزء من المشكلة". تابع تقرير الأقلية يقول:

> *يعتمد أمن البلد المستقبلي على نمط حياة يعترف فيه كل فرع بدائرة نشاط الآخر الشرعية والمكرسة دستورياً. يتعين على الكونغرس أن يقر بأن أي سياسة خارجية فعالة تتطلب، ويقضي الدستور، أن يكون رئيس الجمهورية قائد سياسة البلد الخارجية. في الوقت نفسه لا بد لرئيس الجمهورية من أن يسلّم بأن هيمنته المرجعية قائمة على القيادة الشخصية، والثقافة العامة، والتأييد السياسي، والتوادد بين الفروع... ما من رئيس جمهورية يستطيع تجاهل الجمهور ويبقى ناجحاً على المدى الطويل. غير أن على الكونغرس أن يدرك، بالمقابل، أن قوة محفظة النقود لا تمكنه من التفوق. على الفرعين، كليهما، أن يسلما بوجود حدود، حماية للتوازن الذي كان هدف راسمي الأطر المنشود... مثل هذا الإقرار المتبادل كان غائباً غياباً مؤلماً في السنوات الأخيرة.*

كان موضوع إيران ـ كونترا جزءاً مما أطلق عليه التقرير اسم: "حالة متواصلة من حرب العصابات السياسية حول السياسة الخارجية بين السلطتين التشريعية

والتنفيذية"، ومع أن الديمقراطيين كانوا قد حاولوا قلب الفضيحة إلى ووترغيت أخرى، فإن أي دليل على كون الرئيس مذنباً في أي شيء عدا الإهمال أو عدم الانتباه، لم يظهر. ونحن ممثلي الأقلية في اللجنة سجلنا مرات كثيرة أننا منتقدون لسلوك الإدارة، ولكننا بقينا حريصين على الدفاع بقوة عن الرئيس في وجه الاتهامات المتطرفة الصادرة عن نقاده. وقد كان حاسماً أيضاً، برأيي، أن يتم الدفاع عن الرئاسة نفسها ضد المحاولات البرلمانية الساعية إلى تجاوز سلطة هذه الرئاسة وانتهاكها.

بعيد استكمال سماع الشهادات والتحقيق، تلقيت مكالمة هاتفية في البيت يوم السبت من السيدة الأولى نانسي ريغان، التي كانت مع الرئيس في كامب ديفيد. تناوب الزوجان على السماعة وشكراني على الدور الذي كنت قد اضطلعت به في التحقيق.

خلال سنواتي في الكونغرس، تكرر اصطحابي لليز أو ماري في أسفاري إلى وايومنغ. كانت النزهات الثنائية هذه مناسبة جيدة للكلام، فرصة لي من أجل اكتشاف ما كان يجري في حياتهما. في واحدة من تلك النزهات - في مطار دنفر تحديداً - أطلعتني ماري على أنها شاذة جنسياً. أكدتُ لها حبي الكبير وأن المهم بالنسبة إليّ هو أن تكون هي سعيدة.

ليز وماري، كلتاهما، صارتا مهتمتين بالسياسة ومطلعتين عليها، دون أن يعني ذلك أنهما كانتا تتجاوبان دائماً مع الأحداث السياسية نفسها. كانت ليز وصيفة في مؤتمر 1984 الجمهوري بدالاس وكانت تغرق في بحر من هياج البهجة وهي تمشي مشية موزونة إلى قلب الريونيون آرينا [ميدان الاحتفال] لافتتاح الاحتفالات كل مساء، رافعة علماً ومرتدية فستاناً سكري اللون موشى بعدد من الفيلة الحمراء، والبيضاء، والزرقاء. أما ماري التي كانت وصيفة في مؤتمر 1988 بنيوأورلينز، فألقت نظرة على بدلة وصيفات تلك السنة - سروال أو تنورة كاكي، وقميص أبيض، ومحرمة حمراء حول العنق - واستقالت، معلنة عزوفها عن ارتداء ملابس شبيهة بتلك التي من شأن منتسبي منظمتي الشبيبة والطلائع السوفيتيتين أن يلبسوها.

في هذه الأثناء، كانت لين تدرِّس مادة اللغة الإنجليزية في جامعة جورج واشنطن بكلية نورث فيرجينيا المحلية. كانت قد أثبتت وجودها كاتبة وصحفية، ونشرت روايتين، وساهمت بمقالات حرة تكراراً في جرائد ومجلات مختلفة. أصبحت محررة مساهمة في مجلة "واشنطنيان"، حيث كتبت زاوية شهرية عن تاريخ العاصمة. في 1985، عينها الرئيس ريغان عضوة في لجنة إحياء الذكرى المئوية الثانية لصدور الدستور. وفي 1986 اختارها لخلافة بيل بينيت رئيسة لمؤسسة العلوم الإنسانية الوقفية الوطنية.

بعد انتخابي عضواً في الكونغرس ببضع سنوات، قرأنا، لين وأنا، "برج الكبرياء" [ذه براود تاور The Proud Tower]، كتاب باربارا توتشمان عن فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، وكان تأثرنا استثنائياً بصورة توتشمان لرئيس المجلس الفظ والمستبد توم ريد. أدركنا أن مزيداً من القصص المماثلة يجب أن تكون موجودة وقررنا أن نؤلف كتاباً عن رؤساء المجلس، الذين كانوا عموماً دون المستوى. كانت عناوين فصول كتابنا: هنري كلاي، وجيمس بلين، وتوماس ريد، وجوزيف كانون، ونيكولاس لونغوورث، وسام ريبورن، وجيمس كي بولك رئيس المجلس الوحيد الذي صار رئيساً للجمهورية. أضفنا إلى القائمة أيضاً تاديوس ستيفنز مطلق التهمة الهادفة إلى توجيه اللوم إلى الرئيس آندرو جونسون.

ذات أصيل بعد صدور الكتاب، كنت واقفاً عند السياج خلف غرفة المجلس حين جاءني أحد المستخدمين ليقول إن رئيس المجلس أونيل يريد التحدث معي. تبين أنه كان يريد أن يتكلم عن كتاب "ملوك الهيل" [ذه كنغز أوف ذه هيل The Kings of The Hill]. كنت قد أهديته نسخة ملاطفة، إلا أنني فوجئت صراحة بأنه لم يكن قد قرأ الكتاب وحسب بل كوّن عدداً من الآراء القوية والتفصيلية عنه.

خلال نصف الساعة التالية عكفنا - مع مواصلته المجانية لترؤس أعمال المجلس - على مناقشة الكتاب. أبدى اهتماماً بالسبب الكامن وراء اختيارنا للعناوين والطريقة التي كنا قد اعتمدناها في تقسيم أعمال الكتابة الروتينية. كان انتقاده الوحيد متعلقاً بفصل عن سام رايبورن. لم ير أننا كنا قد كلنا ما يكفي من المديح لـ "المستر سام" الذي كان قد عرفه وأُعجب به.

* * *

كنت في قبو بيتنا بفيرجينيا أتابع التلفزيون حين بدأت التقارير الأولى عن تفجير ثكنات المارينز في بيروت تُذاع يوم 23 تشرين الأول/أكتوبر 1983. في ذلك الصباح الباكر، اقتحمت شاحنتان منفصلتان مثقلتان بالقنابل الإطار الأمني وتوغلتا في الثكنات الأمريكية والفرنسية. أكثر من مئتين من المارينز مع عدد من البحارة والجنود قُتلوا.

كانت وحدات المارينز المرسلة بداية إلى لبنان في آب/أغسطس 1982 جزءاً من قوات حفظ السلام متعددة الجنسية، وكانت تشكل فصلاً من محاولة هادفة إلى وضع حد للحرب الأهلية اللبنانية. كنت أحد كثيرين في الكونغرس كانوا قد تساءلوا عن الحكمة فيما بدا تورط أمر واقع أمريكي في لبنان. وبعد التفجير كان يتم أيضاً طرح أسئلة عن عملية صنع القرار الذي كان قد حشر جميع جنودنا المارينز في مبنى واحد وسط مدينة مبتلية بالعنف بعد أشهر قليلة فقط من تعرض السفارة الأمريكية للهجوم بالقنابل. أثارت المأساة عدداً من الأسئلة حول معاناة الأجهزة من جراء منافسات بينية في المؤسسة العسكرية الأمريكية مع تسلسل التفافي في القيادة.

كان غزو غرانادا، بعد تفجير ثكنات المارينز بيومين، تحركاً ناجحاً، إلا أنه أدى أيضاً إلى تسليط الضوء على سوء التنظيم. حين زرت الجزيرة الكاريبية بوصفي عضواً في الكونغرس بعد بضعة أيام من دخولنا، سمعت عن ضابط كان قد احتاج إلى إسناد مدفعي. كان يستطيع أن ينظر نحو البحر ويرى بالعين المجردة وحدات بحرية على الأفق، إلا أنه لم يكن متوفراً على أي وسيلة تمكنه من التحدث معها. وجد نفسه مضطراً لاستخدام بطاقة اعتماده الخاصة في هاتف بالأجرة، أجرى اتصالاً مع فورت براغ، وطلب منه أن يتصل بالبنتاغون. جعل الأخير يتصل بالبحرية التي بادرت بدورها إلى إبلاغ القائد القريب من الشاطئ بضرورة توفير شيء من الإسناد المدفعي لهذا الضابط المسكين. من الواضح أن الحاجة دعت إلى اجتراح نظام جديد.

تمثلت النتيجة بتشريع غولدووتر - نيكولز، المعروف رسمياً باسم قانون

عام 1986 لإعادة تنظيم وزارة الدفاع حمل عنوان عضو مجلس الشيوخ الجمهوري باري غولدووتر وعضو الكونغرس الديمقراطي بيل نيكولز. كان الهدف هو تنظيم التسلسل القيادي وتأكيد "الترابط" درءاً لخطر المنافسات بين الأجهزة والأسلحة. على الرغم من أن القانون مر بمجلس الشيوخ بـ 95 صوتاً مقابل صفر وبمجلس النواب بأكثرية 383 مقابل 27 صوتاً ووقعه الرئيس ريغان في الأول من تشرين الأول/أكتوبر، فإن الإدارة لم تبد قدراً كافياً من الحماس إزاء التشريع. اتصل بي وزير الدفاع كاسبار واينبرغر للاحتجاج. من المفهوم أن ليس ثمة أي إدارة مولعة بأن يقال لها كيف تدير البنتاغون، إلا أنني شعرت بأن هذه كانت قضية نجح فيها الكونغرس في تأكيد ذاته على نحو سليم.

وكما كان سيظهر - رغم أني لم أكن قادراً على التخمين حين أدليت بصوتي مؤيداً غولدووتر - نيكولز - كنت أنا من كان سيصبح أول وزير يبقى في المنصب دورة كاملة في ظل ذلك القانون.

في العاشر من أيلول/سبتمبر 1984، وكنتُ في مبنى الكابيتول، راودني إحساس بأن شيئاً لم يكن سليماً مع قلبي. لم أشعر بأي ألم. لم يسبق لي قط أن تألمت لدى تعرضي لأزمة قلبية. غير أنني عرفت ما يكفي للتوجه إلى المصعد والذهاب إلى عيادة الطبيب. وضعني الأطباء هناك في سيارة إسعاف ونقلوني إلى مستشفى بيثسدا البحري، حيث أمضيت عدداً من الأيام مستنقهاً من أزمتي القلبية الثانية. خلدت إلى الراحة في البيت نحو شهر من الزمن لم أذهب خلاله إلى الكابيتول هيل سوى مرة واحدة. في الثاني من تشرين الأول/أكتوبر، حل موعد إقرار قانون براري وايومنغ الذي كنت قد بذلت جهوداً كبيرة لاجتراحه فأردت أن أدلي بصوتي تأييداً له، وبعد أسبوعين اثنين توجهت إلى مسقط رأسي للشروع في الحملة من أجل الفوز بفترتي الرابعة في الكونغرس.

بعد الانتخابات قررت أنه آن لي أن أهتدي إلى طبيب أقيم معه علاقة طويلة الأمد. كنت بحاجة إلى مرشد يساعدني على التعامل مع مرضي التاجي، وأردت أن يكون الدليل ناجحاً. قامت لين باستشارة جون باكنن، وهو إعلامي حاصد جوائز في مجلة "واشنطنيان" متخصص بشؤون الصحة. أحد

اختصاصيي أمراض القلب الذي نصح به كان آلان روس في مستشفى جامعة جورج واشنطن، الذي وافق على تولي أمري.

في 1988، بعد أن كنت قد تعرضت لأزمة قلبية ثالثة، رأى الدكتور روس أنه آن أوان إجراء عملية جراحية لتبديل الشرايين. وافقت، وبرمجنا للعملية في التاسع عشر من آب/أغسطس، اليوم التالي لمؤتمر الحزب الجمهوري. كنت قد عُينت رئيساً للجنة القوانين في المؤتمر، مسؤولية أردتُ، بكل تأكيد، الاضطلاع بها وإنجازها. كنت في سبانيش بلازا في يوم حر شديد عندما قام مرشحنا جورج أتش دبليو بوش بإعلان نبأ مفاده أن دان كويل هو قرينه الانتخابي من على متن مركب "ناتشيز" البخاري، وكنتُ في نيوأورلينز أتلقى مكالمات هاتفية من أصدقاء سياسيين شديدي الانفعال إزاء الطريقة البشعة التي تمت بها إزاحة مرشح نيابة الرئاسة من الطريق. غير أن إحدى ذكرياتي هي أنني كنت جالساً مع لاري كنغ على السلم المفضي إلى حجرة السي إن إن في ساحة المؤتمر. كان لاري قد تعرض مؤخراً لعملية قلب مفتوح، وشرح لي، بطلب مني، قصة العملية والتعافي خطوة خطوة.

غادرت المؤتمر في 18 آب/أغسطس وتابعت جورج أتش دبليو بوش وهو يلقي خطاب قبول بالغ الإثارة فيما كان يجري إعدادي للعملية الجراحية في مستشفى جامعة جورج واشنطن. في اليوم التالي، قام جراح عبقري كان قد أجرى عملية لرونالد ريغان أيضاً يدعى بنيامين آرون بإبدال أربعة شرايين. سار تماثلي للشفاء دون مشكلات. في الخريف كنت عائداً إلى حمأة الحملة سعياً للحصول على دَوْرَتي السادسة في الكونغرس، وبعد الانتخابات، ترشحت دون معارضة لمنصب كرباج الأقلية [المسؤول التنظيمي لكتلة الأقلية]، المنصب الثاني في قيادة الحزب الجمهوري.

ومع حلول أعياد الميلاد كنت مستمتعاً بممارسة رياضة التزلج.

الفصل الخامس

سيادة الوزير

لم يكن قد سبق لمجلس الشيوخ أن رفض مرشحاً لشغل منصب وزير في حكومة الرئيس الأولى، كما لم يكن قد سبق له أن رفض واحداً من أعضائه - ناهيك عن أن جون تاور لم يكن مجرد أي عضو مجلس شيوخ سابق. كان قد شغل مقعداً في ذلك الكيان على امتداد نحو ربع قرن وكان رئيساً للجنة القوات المسلحة، اللجنة ذاتها المسؤولة عن ترشيحه. بدا رهاناً مضمون التثبيت حين أقدم الرئيس المنتخب جورج اتش دبليو بوش على اختياره وزيراً للدفاع.

غير أن سيلاً من تهم تعاطي الكحول ومطاردة النساء ما لبث أن تدفق فأغرق آفاق تاور. يوم الخميس، في التاسع من آذار/مارس 1989، قبل تصويت مجلس الشيوخ على ترشيح تاور، تلقيت مكالمة صباحية من رئيس جهاز العاملين عند الرئيس بوش، جون سنونو. أدرك البيت الأبيض أنه لم يكن يملك الأصوات اللازمة للتثبيت، كما قال سنونو، وكان الرئيس يريد التحرك بسرعة والمبادرة إلى اختيار شخص للمنصب يمكن الحصول على موافقة المجلس على تعيينه. "ماذا لو جئت إلى البيت الأبيض وتقدمت بنصيحة ما بشأن خطة بديلة، خطة باء؟"

أراد سنونو للقاء أن يتم في الرابعة بعد الظهر، إلا أنني كنت مشغولاً في ذلك الموعد، كنت على موعد مع برنامج "إيفانس آند نوفاك" على التلفزيون، كنت قد وافقت على تسجيله. قلت سأمر بالبيت الأبيض بعد الموعد. في برنامج

"إيفانس آند نوفاك" كانت هزيمة ترشيح تاور الوشيكة ومسألة الشخص الذي كان الرئيس سيلوذ به تالياً الموضوعين الرئيسيين. لم يحاول أي من بوب نوفاك أو رولاند إيفانس أن يسألني عمن سيكون المرشح التالي، إلا أنني بقيت مستمعاً، فيما كاميرات التصوير تعمل، وهما يتناقشان فيما بينهما حول الخطوات التالية. بنبرة مفعمة بالثقة، أعلن نوفاك: "وجدتها، مضمون، سيؤول الدفاع إلى بوبي إنمان!" وبعد إعلان ترشيحي في اليوم التالي، تعين على إيفانس ونوفاك إتلاف الشريط والمسارعة إلى تسجيل حلقة جديدة. فيما بعد صرح نوفاك، الذي أحبه كثيراً، رغم استعداده لسرعة الغضب، أنه كان حانقاً عليّ، إلا أنه أضاف، دفاعاً عني، أن من الجدير ذكره أن أحداً لم يسألني عن توقعي.

بعد التسجيل انطلقت في جادة بنسلفانيا نازلاً من الكابيتول هيل إلى البيت الأبيض، حيث التقيت سنونو ومستشار الأمن القومي برنت سكوكروفت في مكتب جون بالزاوية الجنوبية الغربية للجناح الغربي، المكتب نفسه الذي كنت قد شغلته حين كنت رئيساً لجهاز العاملين قبل أكثر من عقد. آنئذ كان ترشيح جون تاور قد هُزم بـ 53 مقابل 47 صوتاً، فقام برنت بافتتاح الجلسة ملتمساً نصيحتي بشأن بدائل محتملة. سألت: "ماذا عن رامسفيلد؟" فهو كان وزيراً للدفاع من قبل وصاحب قدر هائل من الموهبة. إلا أن الفكرة استُبعدت بسرعة، لوجود تاريخ من المشاعر السلبية أدت أوليات نيوهامبشاير في 1988 إلى جعله أكثر سوءاً. كان رامسفيلد قد صادق على ترشيح بوب دول في نهاية الأسبوع السابقة للانتخابات الأولية التي ربحها جورج أتش دبليو بوش. لم يسبق لي أن سمعت بوش متفوهاً بأي كلمة سلبية عن رامسفيلد، غير أن سنونو أوضح في هذا الاجتماع أن رامسفيلد لم يكن صاحب نصيب.

بعد الخوض في الكلام بقليل، واجهني سكوكروفت بسؤال مباشر: "ماذا عنك أنت؟ هل ستنظر في الأمر؟" لم تكن تلك مفاجأة مئة بالمئة. كنت قد بدأت أتحسس وجود شيء ما خلف مجرد التشاور معي والاطلاع على وجهات نظري. تحدثنا عن وظيفة وزير الدفاع، وأهميتها، وأولويات رئيس الجمهورية فيما يخص هذه الوزارة. قلت لهما إنني بحاجة لبعض الوقت للتفكير بالأمر ومفاتحة عائلتي به، واتفقنا على الاتصال مع سنونو لإبلاغه بما إذا كنت مستعداً لأخذ الخطوة

التالية. إذا فعلت كانوا سيبادرون إلى ترتيب لقاء لي مع رئيس الجمهورية. لم تكن هذه إلا طريقة دارجة تماماً في التعامل مع القرارات الكبيرة ذات العلاقة بالموظفين والشبيهة بهذا. فجهاز العاملين لدى أي رئيس لا يكون، مطلقاً، راغباً في جعله يعرض على شخص وظيفة معينة إلى أن يكون الجهاز متأكداً من أن العرض سيلقى القبول.

لين وأنا كنا على موعد لتناول العشاء تلك الليلة في مطعم لا كولين، القريب من الكابيتول، مع صديقين قديمين من وايومنغ، توم ومارتا ستروك. كان توم قد أوصى بقبولي في جامعة ييل قبل ثلاثين سنة، وكنا قد بقينا، رغم سجلي البعيد عن أن يكون مشرِّفاً هناك، صديقين حميمين. لم أكن قادراً على الكلام عن لقاء البيت الأبيض في أثناء العشاء، كما لم أكن قادراً على مفاتحة لين به في الطريق إلى البيت. بوصفي كرباج المجلس الجمهوري كانت عندي سيارة مع سائق، ولم أرغب في مناقشة أمر بهذه الحساسية أمام أحد باستثناء عائلتي.

بعد وصولنا إلى البيت وإبلاغ لين أخيراً، عبّرت عن الإعجاب بسيطرتي على جمود وجهي خلال ساعات المساء. ابنتنا ماري الموجودة في البيت بسبب إجازة الربيع في كلية كولورادو، أخبرتنا بأنها ردت على مكالمة من أحد عاملي مقسم البيت الأبيض، في أثناء وجودنا في سهرة العشاء. كان وزير الخارجية جيم بيكر يحاول الإمساك بي. وفيما كنا، نحن الثلاثة، جالسين حول مائدة المطبخ، أعدت الاتصال بجيم. تحدث الرجل عن التعاون الناجح الذي كان بيننا خلال أعوام رئاسة فورد حين كنت رئيس جهاز العاملين وكان هو متولياً إدارة حملة الرئيس فورد لعام 1976. أكد أهمية الدفاع، وأخبرني بأنه كان قد أوصى بي لدى الرئيس، وعبر عن أمله في أن أقبل المهمة. عبرت عن تقديري للمكالمة وأفدته بأنني سأنام مع الاقتراح وسأوافيه بالقرار في الصباح.

كنا، لين وأنا، أكثر كلاماً في تلك الليلة، قلّبنا أمر الاختيار بين البقاء في مجلس النواب وتركه لتولي منصب وزير الدفاع. بوصفي الكرباج كنت الجمهوري الثاني في المجلس. كان بوب ميتشل، وهو أستاذ ورجل أكن له قدراً هائلاً من

الاحترام، زعيم الأقلية. ثمة كانت احتمالات قوية لأن أغدو زعيم الكتلة الجمهورية [غراند أولد بارتي، GOP] إذا بقيت في المجلس، إلا أن من شأن ذلك أن يكون في مستقبل بعيد. كنت أشكل نوعاً من العازل بين الحرس القديم، متجسداً بميتشل من جهة، والحرس الجديد، فريق تركيا الفتاة [الاتحاد والترقي]، بقيادة نيوت غينغريتش من الجهة المقابلة. طالما أنا موجود، بقي بوب مطمئناً ومرتاحاً في موقعه، ما جعلني أرى، لدى النظر إلى السنوات الأربع التالية، أن الخيار لم يكن إلا بين قضاء هذه السنوات بديلاً جاهزاً لبوب في المجلس من ناحية وقضائها وزيراً للدفاع من ناحية ثانية. في الحقيقة لم يكن القرار صعباً رغم حبي الكبير للمجلس واعتزازي الشديد بالوقت الذي أمضيته فيه.

لم أكن متوفراً على أي وسيلة تمكنني من التنبؤ بمدى ضخامة الأحداث التاريخية التي كنا موشكين على معايشتها - تحرير باناما، وتفكك الإمبراطورية السوفييتية وانهيار سور برلين، والدفاع عن دول الخليج العربي وتحرير الكويت عبر عمليتي درع الصحراء وعاصفة الصحراء - إلا أن مشكلات الأمن القومي والدفاع كانت منطوية، بنظري، على قدر عظيم من الأهمية. في الكونغرس كنت عضواً لأربع سنوات في لجنة المجلس الدائمة المختارة حول الاستخبارات، وشاركت في رعاية قانون غولدووتر - نيكولز، الذي أعاد تنظيم وزارة الدفاع، وكنت عضواً نشيطاً في كتلة (كاوكوس) الإصلاح العسكري. كنت على يقين أن المهمة استثنائية الأهمية - وواعدة أيضاً بأن تكون بالغة الإثارة والإبهار.

أفق امتلاك القدرة على خدمة جورج أتش دبليو بوش مع آخرين مثل جيم بيكر وبرنت سكوكروفت، الذين كانوا أصدقاء قدامى ومتمتعين بقدر كبير من احترامي، كان أيضاً أفقاً بالغ الجاذبية. تعين علي أن أواجه حقيقة احتمال انتهاء دوري في السياسة الانتخابية إذا ما أقدمت على اختيار الذهاب إلى البنتاغون، بيد أنني كنت مستعداً لدفع ذلك الثمن مقابل الحصول على فرصة قيادة وزارة الدفاع وشرفها الرفيع. كنت أعرف آنذاك ما قد ظل يتأكد لي مرة بعد أخرى على امتداد العقدين الأخيرين - أن أفراد الجيش الأمريكي هم من أروع الأمريكيين الذين يمكن أن تصادفهم في أي زمن.

صباح اليوم التالي هاتفت جون سنونو وأبلغته موافقتي ورغبتي في اتخاذ

الخطوة التالية. رتب لي لقاء خلوة مع الرئيس ظهراً. ولإبقاء اللقاء سراً، طلب مني سنونو أن أدلف إلى البيت الأبيض عبر المدخل الدبلوماسي المواجه للمرجة الجنوبية غير المرصود عادة بآلات تصوير الإعلاميين.

قبيل الثانية عشرة عبرت غرفة استقبال الدبلوماسيين، انعطفت يساراً نزولاً نحو صالون الطابق الأرضي حيث صور السيدات الأوليات السابقات، فوصلت إلى السلم الصغير الصاعد إلى قسم البيت الأبيض الخاص. عند أعلى السلم استقبلني أحد حجاب البيت الأبيض ووجهني إلى غرفة المعاهدات (Treaty Room)، حيث مكتب الرئيس في الطابق الثاني، غرفة كانت مخصصة لاجتماعات مجلس الوزراء قبل بناء الجناح الغربي، إلا أنها ما لبثت أن باتت، منذ أوائل القرن العشرين غرفة جلوس أو مكتباً خاصاً. كانت الغرفة خاضعة لطغيان لوحة "صانعي السلام"، لوحة زيتية كبيرة لصورة الرئيس لنكولن في اجتماع مع الجنرالين شيرمان وغرانت والأميرال ديفيد بورتر في 1865 على ظهر "ملكة النهر" [River Queen] الراسية في سيتي بوينت الفيرجينية. للحظات تذكرت والد جدي الذي خدم تحت قيادة الجنرال شيرمان وسمى أحد أبنائه باسم قائد الحرب الأهلية الشهير. ما الذي كان سيفكر به لو رأى حفيد ابنه هناك في البيت الأبيض مجتمعاً مع رئيس الجمهورية لبحث موضوع قيادة جيش الأمة؟

حين رحب الرئيس بوش بي ترحيباً دافئاً بصدق، تذكرت لحظة لقائنا الأول قبل عشرين سنة. كنت أعمل لدى عضو الكونغرس بيل ستايغر الوسكونسني وكان بوش نجماً صاعداً في كتلة الحزب الجمهوري البرلمانية. طريقانا تقاطعتا ثانية خلال رئاسة فورد حين أصبح هو مديراً للسي آي إيه في اليوم نفسه الذي صرت فيه أنا رئيساً لجهاز العاملين في البيت الأبيض. تذكرت كيف كان جيري فورد يميز جورج بوش، جنباً إلى جنب مع دون رامسفيلد، بوصفهما مستقبل الحزب الجمهوري.

قبل بضعة أسابيع، نحو الوقت الذي بدأت فيه مشكلات ترشيح تاور تطفو على السطح، كان الرئيس بوش قد حضر اجتماعاً مع القيادة الجمهورية البرلمانية في الكابيتول. لدى انفراط عقد الاجتماع، كان الرئيس قد عبر الغرفة ليتحدث معي. سألني: "كيف حالك، ديك؟ ما هو شعورك؟" كان ذلك بعد انقضاء

ثمانية أشهر على عمليتي الجراحية، فطمأنته قائلاً إنني في وضع رائع، معافى تماماً، وقد أمضيت أسبوعاً وأنا أمارس رياضة التزلج في فايل خلال أعياد الميلاد. مع دخولي مكتب الرئيس الخاص في ذلك اليوم، خطر لي احتمال كونه قد فكر بي بديلاً محتملاً للسيناتور تاور حين طرح تلك الأسئلة عن صحتي.

بدأ الرئيس بوش الكلام بالحديث عن أهمية عمل وزير الدفاع، وعما كان يبحث عنه في أي وزير للدفاع، وعن أولوياته، وعن بعض المشكلات التي كان الوزير القادم سيواجهها. ناقشنا مشكلات مثل أمريكا الوسطى، وضبط التسلح، وإصلاح القيادة. في أثناء الحوار، أثرت مسألتين رأيت أن عليه أن ينتبه إليهما. أولاهما سجلي الأكاديمي في ييل، وتحديداً حقيقة تعرضي للطرد مرتين. ثانياً، أردته أن يعرف أنني صاحب سوابق، فقد سُجنت مرتين جراء ارتكاب مخالفة القيادة في حالة السكر وأنا في العشرينيات. طمأنني الرئيس إلى عدم اعتقاده بأن من شأن طيشي الشبابي أن يتسبب بأي صعوبات في أي تثبيت محتمل. ما لبث المدير سنونو وبرنت سكوكروفت أن انضما إلينا في الجزء الأخير مما عددته اجتماعاً جيداً جداً، إلا أنني غادرت وتوجهت إلى مكتبي في الكابيتول هيل دون حصولي على عرض الوظيفة.

عائداً إلى مبنى مكتب الكانون هاوس، تابعت برنامجي، وفيما كان مساعد أستاذ من جامعة جورجيا جورج مالتيز يجري معي مقابلة حول تجاربي لدى شغلي لوظيفة رئيس جهاز عاملين في البيت الأبيض، دخلت كاثي إمبودي لتعلن أن رئيس الجمهورية يطلبني على الهاتف. اعتذرت من مالتيز، وحين أصبح خارج الباب تماماً، رفعت سماعة العاتف.

قال الرئيس: "اسمع ديك، أريدك أن تكون وزيري للدفاع. هل تقبل الوظيفة؟" أجبته: "نعم، سيادة الرئيس". قال: "حسناً، إذن تعال، انزل إلى هنا، سنعلن الأمر فوراً". غير راغب في تسرب أي شيء عن تعييني الجديد قبل امتلاك الرئيس لفرصة إعلانه، واصلت العمل وكأن شيئاً غير عادي لم يكن حاصلاً وأنهيت مقابلتي مع مالتيز. ثم توجهت منحدراً إلى مركز المدينة، وفي الساعة الرابعة والدقيقة السادسة من بعد ظهر ذلك اليوم مشيت إلى داخل غرفة الإيجاز مع الرئيس وأصبحت وزير الدفاع المسمى.

ربما كان عاملو جهازي القدامى في الكونغرس قد بدؤوا يخمنون حصول شيء ما بسبب زياراتي المتكررة للبيت الأبيض، إلا أن أكثرهم لم يكتشفوا حقيقة قرب حصولي على منصب وزير الدفاع إلا عبر السي إن إن، تماماً مثل باقي الناس في أمريكا. ثم بدأت أجراس الهواتف ترن دون انقطاع، وشمر مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) عن ساعده للشروع في عملية تقصي حقائق خلفيات ميدانية شاملة عني.

بدأت جلسات استماع تثبيتي يوم الثلاثاء التالي، في الرابع عشر من آذار/ مارس، والعملية كلها كانت إحدى العمليات الأسرع في التاريخ. تقصي حقائق الخلفية، وجلسات استماع اللجان، وإجماع أصوات مجلس الشيوخ على تثبيتي، ذلك كله لم يستغرق سوى سبعة أيام. قصة سجني عولجت في جلسة مغلقة للجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ. كنت قد قدمت المعلومة في أجوبتي الخطية على أسئلة اللجنة، إذ رأى سام نان أن لا حاجة لطرح الموضوع في جلسة مفتوحة. سألني الشيخ جون غلن الأوهايوي في الجلسة المغلقة عن سبب نجاحي في "تقويم سلوكي"؛ أجبته: "تزوجت وأقلعت عن عادة التسكع بين حانات الشرب".

حفل تنصيبي الرسمي تحدد في الأسبوع التالي في البنتاغون. تعين علي، في هذه الأثناء، كي أكون قادراً على مباشرة العمل دون تأخير، أن أؤدي قَسَم الولاء للوظيفة يوم ثبّتني مجلس الشيوخ. تقديراً أخيراً لمجلس النواب خططت لأن يكون قسيس المجلس جيم فورد هو من يتولى العملية، إلا أنني تلقيت، بعد تصويت مجلس الشيوخ بلحظات، مكالمة هاتفية من الأميرال بيل أونز في البنتاغون. أفاد بأنه كان سيتولى مهام مساعدي العسكري وهو على الطريق إلى مكتبي مع ديفيد أو. قال أونز إن "دوك" كوك كان قد اضطلع بمهمة قيادة عمليات أداء قسم جميع وزراء الدفاع منذ كلارك كليفورد. وكوك هذا، الموظف المدني الكبير في الوزارة وهو شخص يحظى بقدر كبير من الاحترام، كان يُعرف على المستوى الشعبي بأنه رئيس بلدية البنتاغون، فقررت أن من شأن مواصلة أحد تقاليد البنتاغون أن يكون أمراً جيداً.

مطوقاً بأفراد عائلتي وجهاز العاملين في الكونغرس، كررت بعد دوك كوك

القسم الذي كنت قد أديته كعضو كونغرس وسأعيد أداءه نائباً لرئيس الجمهورية ملتزماً بـ "تأييد دستور الولايات المتحدة والدفاع عنه ضد جميع الأعداء، خارجياً وداخلياً". غادرت مكتبي في الكونغرس للمرة الأخيرة، مصحوباً بمعاونين عسكريين وجهاز أمني مكلف حديثاً، ومشيت عبر الصالات الرخامية لمبنى مكتب الكانون هاوس، ثم عبرت الباب إلى سيارة الليموزين المصفحة. كانت لحظة تحوّل كامل - تحوّل يوحي بأنه كذلك. كنت قد وصلت إلى العمل ذلك الصباح بوصفي عضو الكونغرس الوحيد من ولاية وايومنغ، غير مسؤول بالفعل إلا عن صوتي. وغادرت بعد الظهر بوصفي وزيراً للدفاع، مسؤولاً عن الجيش الأكثر جبروتاً وعما يقرب من الملايين الأربعة من الرجال والنساء، العسكريين والمدنيين، الذين كانوا يؤلفون وزارة الدفاع. وبعد خمس عشرة دقيقة، حين دخلت جناح الوزير في البنتاغون، رأيت لوحة اسمية كانت ثُبتت سلفاً على الطاولة عليها: "ريتشارد بي تشيني، وزير الدفاع".

يوم السبت الواقع في 18 آذار/مارس، كان يومي الكامل الأول في الوظيفة، وكانت الليموزين قد أقلتني مبكراً. مصحوباً بمعاوني العسكري والأمني، أخذت المصعد من مرآب البنتاغون مباشرة إلى مكتبي الجديد في الحلقة إي (E-ring) من البنتاغون، الحلقة الخارجية القصوى بين الحلقات الخمس المتداخلة التي تؤلف المبنى. داخل المكتب الفسيح كانت ثمة طاولة عملاقة مزينة صُممت للجنرال "بلاك جاك" بيرشنغ، قائد الحرب العالمية الأولى الشهير، ورثها البنتاغون بعد موت بيرشنغ في 1948. على الجدار عبر الغرفة كانت خارطة عالمية كبيرة، إحدى خرائط كثيرة كنت سأتوفر عليها في هذا المكتب خلال السنوات الأربع التالية. خلف الخارطة كانت هناك غرفة نوم صغيرة حيث كنت سأقضي ليالي لاحقاً خلال عاصفة الصحراء.

بجانب طاولتي كانت طاولة دائرية صغيرة، حيث كانت كثرة من القرارات المهمة ستُتخذ خلال فترة وجودي في المنصب. في آخر كل يوم، حين نكون جميعاً في المدينة، كنا نحن: رئيس قادة الأركان المشتركة كولن باول، ونائب وزير الدفاع دون آتوود، وأنا نجتمع، مع مساعدينا العسكريين في الغالب،

لاستعراض جملة القضايا الجوهرية التي كنا نواجهها. أحياناً كنا نطرد المساعدين، فنبقى نحن الثلاثة فقط. تلك كانت لحظات رفع الأثقال.

استقريت خلف طاولة بيرشنغ، جاءت كاثي إمبودي بصخب لتبلغني بأن اجتماعاً كان ينتظرني في البيت الأبيض في وقت لاحق من ذلك الصباح. مع اقتراب الساعة المحددة، دخلت غرفة المصعد للنزول إلى المرآب وضغطت على الزر الخطأ فانتهيت في قبو البنتاغون بدلاً من المرآب. كان من شأن ذلك أن يبقى خطأ سهل التصويب، لولا عدم وجود زر لاستعادة المصعد إلى القبو، كما اكتشفت بعد أن خرجتُ من حجرة المصعد وانغلقت الأبواب خلفي. ثمة أحدهم كان قد اتخذ قراراً أمنياً حصيفاً مئة بالمئة إذ رأى وجوب عدم امتلاك الناس القدرة على الصعود من القبو مباشرة إلى مكتب الوزير، غير أن ما كان يعنيه الأمر بالنسبة إلي الآن هو أن رئيس الولايات المتحدة كان في الانتظار، ولم أكن متوفراً على أبسط فكرة عن كيفية الوصول إلى المرآب وسيارتي الليمو.

تجولت قليلاً إلى أن اهتديت إلى سلّم صاعد. عند أعلى السلم استطعت أن أنظر عبر شباك زجاجي في أحد الأبواب فرأيت المكان الذي تقف فيه سيارتي وشاهدت عدداً من المساعدين شديدي الاضطراب صارخين بغضب، بالتأكيد، قائلين "أين الوزير بحق الشيطان؟!" "في أي جحيم هو؟" قمت بتصويب وضعية ربطة عنقي، وخرجت وركبت سيارتي الليموزين، متصرفاً وكأن أي خطأ لم يحصل. تم إيصالي إلى البيت الأبيض للاجتماع برئيس الجمهورية ـ لم يجرؤ أحد على سؤالي: "أين كنت؟"

أحد الأشياء الأولى التي فعلتها في البنتاغون هو طلب رؤية مخطط تنظيمي لوزارة الدفاع. حين وصلني المخطط، نشرته فوجدته متجاوزاً طرفي الطاولة البيرشنغية. أعدت لفه ولم أنظر إليه مرة أخرى قط. قررت على الفور أنني لم أكن لأنجز أي شيء لو أمضيت الوقت ساعياً إلى إعادة تنظيم البنتاغون.

أردت تناول المسائل الاستراتيجية الكبرى. لم نكن بعد قادرين على الاطمئنان إلى المحصلة النهاية للغلاسنوست والبريسترويكا، "الانفتاح" و"إعادة البناء"، الشعارين اللذين كان الزعيم السوفييتي ميخائيل غورباتشوف يرفعهما،

إلا أننا كنا نريد أن نقارب قضية ما يمكن للتغيرات الحاصلة في الاتحاد السوفييتي أن تعنيه بالنسبة إلى بنية قوتنا واستراتيجيتنا، بدءاً بما سنكون بحاجة إليه لخوض حرب نووية كوكبية شاملة وصولاً إلى كيفية إلحاق الهزيمة بكل من يحاول الهيمنة على أي إقليم من أقاليم العالم الحيوية بالنسبة إلينا.

كذلك أردت أن أركز على القيادة العملياتية للقوات، نظام زمن الحرب. حين يذهب المرء إلى وزارة الدفاع، فإنه لا يعرف ما إذا كان سيضطر إلى استخدام القوة، غير أن ذلك أمر أردت أن أكون مستعداً له. مبكراً، طلبت تقارير عما حصل بعد حالات الاستخدام الرئيسية للقوة منذ انتهاء الحرب الفيتنامية. بسطت تقارير جملة نجاحاتنا وإخفاقاتنا في تلك الاشتباكات السابقة، وكرست وقتاً لدراستها. كنت دائماً مقتنعاً بأننا لا نفعل ما يكفي في أثناء عملية الانتقال إلى إدارة جديدة لإعداد أولئك الذين يتولون الأمر لاحتمالات استخدام القوة. ننفق كثيراً من الوقت متحدثين بإيجاز عن الإس آي أو بي SIOP (الخطة العملياتية المتماسكة الموحدة) لإطلاق أسلحتنا النووية، غير أن الوارد أكثر بكثير هو أن يضطر أي رئيس جمهورية لاستخدام قوات عمليات تقليدية أو خاصة، ولا نفعل شيئاً إعداداً لذلك.

أردت أيضاً أن أكرس وقتاً كبيراً لقضايا الاستخبارات التي ظلت من هواياتي واهتماماتي الخاصة منذ أن كنت عضواً في لجنة الاستخبارات البرلمانية. وبوصفي وزيراً للدفاع، كنت مسؤولاً عن جزء أكبر من مرافق الحكومة الاستخباراتية مقارنة بما لدى مدير السي آي إيه.

أخيراً، كنت قد تعلمت من تجربة طويلة أن لا شيء أهم من الموظفين. يمكنني أن أتخذ أفضل القرارات السياسية الممكنة، غير أن تلك السياسات لن تنجح ما لم يتوفر لدي الأشخاص القادرين على وضع تلك القرارات موضع التنفيذ. حين توليت أمر البنتاغون كان ثمة أربعة وأربعون تعييناً ذا مستوى رئاسي بحاجة إلى تصديق مجلس الشيوخ في وزارة الدفاع، [DOD]. في آخر المطاف، عينت أشخاصاً جدداً في تسعة وثلاثين من تلك المواقع.

لعل القرار التنظيمي المنفرد الأخطر الذي اتخذته خلال الأشهر الستة الأولى هو القرار المتعلق برئيس هيئة الأركان المشتركة، وقد بدأت التفكير به

منذ ليلتي الأولى في الوزارة. كنت جيد الإدراك لحقيقة أن من شأني، إذا ما أخطأت، أن أبقى مضطراً للعيش مع هذا الخطأ مدة عامين أو حتى ربما أربعة. سلفاً كان سكوكروفت قد ألمح إلى تفضيله إعادة تعيين الأميرال بيل كراو، الذي كان موشكاً على إنهاء فترته الثانية الممتدة على عامين رئيساً للهيئة في الأول من تشرين الأول/أكتوبر، 1989، أما أنا فكنت راغباً في القيام باختياري الخاص لمن أراه مناسباً لمنصب الرئيس - مهمة باتت أيسر حين ألمح كراو أمامي إلى عدم حماسته الشديدة للبقاء في المنصب فترة أخرى.

كنت ميالاً إلى كولن باول الذي كنت قد التقيته في إحدى جولات لجنة الاستخبارات سنة 1986. كنا قد توقفنا في ألمانيا حيث كان باول قائد فرقة (فرقة النصر) في جيش الولايات المتحدة. لاحقاً توفرت لي فرصة متابعته قيد العمل حين عمل مستشاراً للأمن القومي في أعقاب إيران - كونترا في أواخر رئاسة ريغان. قدراته تركت لدي انطباعاً كان كافياً لدعوته في أثناء المرحلة الانتقالية من ريغان إلى بوش والتعبير عن الأمل في أن تتوفر لنا فرصة التعاون في محطة من المحطات في المستقبل. لم تكن لدي أي فكرة عن أن تلك الفرصة كانت على مسافة أشهر فقط.

في عطلة الأسبوع التالية لقيام رئيس الجمهورية بإعلان نبأ تعييني وزيراً للدفاع، زرت صديقاً قديماً، فرانك كارلوتشي، الذي صادف أن كان سلفي في البنتاغون. التمست نصيحة كارلوتشي حول تسيير أعمال الوزارة، ولمعرفتي أنه كان قد عمل عن قرب مع كولن باول خلال جولات في كل من الدفاع ومجلس الأمن القومي، كما سألته عن رأيه بكولن باول رئيساً تالياً للأركان المشتركة. أبدى كارلوتشي حماسة.

كان الجنرال باول قائداً لقيادة قوات الولايات المتحدة، أو الفورسكوم FORSOM، في فورت ماكفرسون الجورجية، منصب كان قد تولاه بعد ترك عمله في البيت الأبيض أيام ريغان. لم أكن ملزماً باتخاذ قرار فوريّ، غير أنني كنت متزايد الانجذاب لفكرة رؤيته رئيساً لهيئة الأركان المشتركة.

ثمة وظيفة حساسة كنت مضطراً لملئها مباشرة تمثلت بوظيفة نائب وزير الدفاع، وظيفة أكثر أهمية من جل وزارات المجلس. نائب رئيس سابق

لجنرال موتورز، دون آتوود الميتشغاني، كان قد رُشح ليكون نائباً لجون تاور، وطلب مني الرئيس أن أنظر في الأمر. كانت تلك المرة الأولى التي قام فيها بترجيح كفة اقتراح معين، وكانت موفقة. أحياناً كان دون يُبدي امتعاضاً إزاء نمط عمل واشنطن، ولا سيما فيما يخص العلاقات بين وزارة الدفاع والكونغرس. مرة قال لي إن "مجلس الإدارة في جنرال موتوز، على الأقل، كان يريدنا أن ننجح". غير أن آتوود أضفى على البنتاغون قدراً كبيراً من القوة الإدارية وأخرجنا من عدد كبير من المشكلات الصعبة، بدءاً بإصلاح نظام اقتناء الأشياء وانتهاء بعواقب إعصار آندروز الذي دمر فلوريدا ولويزيانا في 1992.

وقع اختياري على بول وولفويتز كمعاون لوزير الدفاع في شؤون التخطيط. كان بول، وهو سفير سابق ومساعد وزير خارجية لشؤون شرق آسيا والمحيط الهادي، قادراً على طرح آفاق جديدة لمشكلات قديمة. كان أيضاً مثابراً بعناد. في أكثر من مناسبة، ما إن كنت أُبعده بعد رفض إحدى نصائحه أو أحد اقتراحاته التخطيطية حتى أجده عائداً إلى مكتبي بعد نصف ساعة ليواصل الإصرار على رأيه - وقد كان محقاً في ذلك أكثر الأحيان.

قمت بتجنيد تيري أودونيل كمستشار عام للوزارة، وهو خريج أكاديمية جوية ممن حاربوا في فيتنام، كنت شاهداً على حصافته وحسن تدبيره للمرة الأولى حين كان معاون الرئيس فورد الشخصي وكنت آنذاك نائب رئيس جهاز العاملين. أما المحامي المتدرب في السي آي إيه مع خبرة عمل في كل من البيت الأبيض والكابيتول هيل، ديفيد آدنغتون، فأصبح مساعدي الخاص. وكان آدنغتون الذكي، والكامل التحفّظ، وصاحب الشخصية المتماسكة المستقيمة هذا خياراً مثالياً.

وبيت وليامز الذي كان سكرتيراً صحفياً في مكتبي البرلماني أصبح مساعد وزير دفاع للشؤون العامة. وقد كان بيت هذا، وهو أحد خريجي ستانفورد، من مسقط رأسي كاسبر الوايومنغية، حيث كان ذات يوم مدير الأخبار في تلفزيون كي تي دبليو أو [KTWO]. كان متمتعاً بالفطنة والحكمة اللازمتين لمعرفة ما يمكن قوله للصحافة وما ينبغي أن يبقى مكتوماً. ثمة آخرون من

جهازي الشخصي بمن فيهم ديفيد غريبن، وباتي هاو، وجيم ستين، وكيم ماكيرنان، وكاثي إمبودي انتقلوا معي إلى البنتاغون.

دون أي جدال يبقى أحد أخطر المناصب متمثلاً بكبير مساعدي وزير الدفاع العسكريين. وخلال فترة وزارتي ظل المساعد العسكري عادة الشخص الأول الذي أراه كل صباح لدى وصولي إلى العمل، وكان يرافقني إلى عدد كبير من اجتماعاتي خلال النهار. داخل مكتبه الملاصق لمكتبي كانت صورة على الجدار مأخوذة خلال الحرب الأهلية لأسلاف المساعد العسكري المفترضين. والصورة التي تحمل عنوان: "ممسكون بأرسان الجياد"، تظهر عدداً من صغار الضباط الممسكين بأرسان خيل قادة يوليسيز إس غرانت في أثناء اجتماعهم مع الجنرال. وإذا كان الشباب في تلك الصورة هم أسلاف المساعدين العسكريين الذين عرفتهم، فإن من المؤكد أنهم قد اختاروا اختصاصات مميزة. مساعدي العسكريون الثلاثة جميعاً واصلوا الخدمة حتى صاروا جنرالات بأربع نجوم. فيما بعد، تولى الأميرال بيل أوينز منصب نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة، واضطلع الأميرال جو لوبيز بقيادة القوات البحرية الأمريكية في أوروبا، وأصبح الجنرال جون جمبر رئيس أركان سلاح الجو.

يوم الجمعة الواقع في 24 آذار/مارس 1989، عقدت مؤتمري الصحفي الأول. تحدثت مادة الصفحة الأولى في "الواشنطن بوست" عن قيام رئيس أركان سلاح الجو، لاري ولتش؛ بالتفاوض المباشر مع الكونغرس حول مستقبل منظومات الصواريخ الأمريكية الباليستية العابرة للقارات. تحديداً، كانت القضية متركزة على ما إذا كان يتعين علينا أن نواصل تمويل منظومة الإم إكس (MX) الصاروخية المنصوبة في صوامع بقاعدة وارن الجوية، خارج تشيين الوايومنغية. وكان بديل الإم إكس نظام رأس نووي فردي، أصغر معروف باسم ميجيتمان (Midgetman). وكان لكل من النظامين حسناته وسلبياته، واختيار أحدهما ـ أو اجتراح نوع من الحل الوسط ـ كان قراراً استراتيجياً رئيسياً لا يتخذه إلا وزير الدفاع ورئيس الجمهورية في آخر المطاف.

حين صعدت إلى المنصة ذلك الصباح، كنت أعرف أنني موشك على مواجهة سؤال عن قصة "الواشنطن بوست". وبالفعل فإن القصة كانت عنوان السؤال الأول فور انطلاق المؤتمر. سأل أحد المراسلين: "هل نحن قريبون من نوع من الحل الوسط حول تينك المنظومتين للسلاح؟" أجبته: "لم أتخذ قراري بعد. من شأن القول إن حلاً وسطاً بات قريباً أن يكون سابقاً لأوانه".

ثم جاء السؤال الثاني: "من الواضح أن الجنرال ولتش، رئيس أركان سلاح الجو كان في الهيل يتابع برنامجه بنفسه. هل ذلك تغيير في سياسة وزارة الدفاع يقضي بامتلاك رئيس أحد الأسلحة حق التفاوض بشأن منظومته الاستراتيجية الخاصة؟"

قدمت جواباً مباشراً قائلاً: "تصرف الجنرال ولتش على نحو مستقل. لم يكن ينطق باسم الوزارة. من الواضح أنه كان هناك منطلق ذاتي إذا جاز التعبير". ثم سئلت عن مدى قبولي للأمر، فأجبت: "لا، لست سعيداً بما حصل، صراحة. أعتقد أن من غير الجائز بالنسبة إلى ضابط في زي رسمي أن يضع نفسه في موقف المتفاوض على ترتيب معين. لم تتح لي بعد فرصة التحدث معه حول الموضوع. لم أكن في البيت الأبيض كل الصباح. ستكون لي فرصة لمناقشة الأمر معه وسأبلغه انزعاجي. لكل جواد كبوة".

أدى تصريحي إلى إطلاق رسالة واضحة عبر المبنى حول صاحب القول الفصل. ذلك هو ما تعمدته. اكتشفت لاحقاً أن ولتش ظن أنه كان قد حصل على الموافقة المطلوبة لمواصلة مباحثات الهيل من كلام نائب الوزير السابق، ويل تافت، الذي كان وزيراً مؤقتاً إلى حين تثبيتي، وجئت لأرى ولتش ضابطاً رائعاً. إلا أنني كنت، في الوقت نفسه، قد أفصحت عن اعتزامي ممارسة التحكم والمرجعية على وزارة الدفاع.

توليت المنصب قبل تسعة وثلاثين يوماً تماماً من وجوب تقديم ميزانيتي الدفاعية الأولى إلى الكونغرس. وعلى الرغم من أنني كنت قد ورثت هذه الميزانية الأولى، فقد كنت عازماً على الإحاطة الكاملة بها، مدركاً أن امتلاك القدرة على الإجابة عن جميع الأسئلة دون استثناء هو أفضل طرق ضمان انطلاقة جيدة.

إحاطتي بالميزانية خلال تلك الجلسة الأولى مع زملائي السابقين على الهيل ساهمت في ضبط إيقاع علاقتي مع الكونغرس لأمد طويل.

بالنسبة إلى الميزانيات اللاحقة، اعتمدنا ترتيباً فريداً لإعداد مطالب الوزارة. أنموذجياً، يتولى رؤساء الوزارات والوكالات [الوزراء والمدراء العامون] أمر التفاوض على ميزانياتهم مع مكتب الإدارة والموازنة (OMB)، أما في عهدي أنا في الوزارة فكنا، الرئيس وأنا، نجلس مع بداية العملية مع مدير مكتب الإدارة والموازنة، ديك دارمان، ونتفق على سقف إجمالي للدفاع. هذا الإجراء كان يتيح لدارمان الوقوف على حجم أكبر سرية البنود في الموازنة بحيث يمكنه معرفة ما تبقى للآخرين، كما يتيح لي تجنب الأخذ والعطاء مع مكتب الإدارة والموازنة والمعرفة الدقيقة بما هو متوفر للعمل. طوال بقائي تحت ذلك السقف المتفق عليه، كنت حراً، باستثناءات قليلة، في عملية صوغ الميزانية الدفاعية.

كان أقوى حلفائي في الكونغرس هو الديمقراطي البنسلفاني جاك مورتا الذي تعرفت عليه حين كنا نعمل معاً في المجلس. كان مورتا رئيس اللجنة الفرعية للإمدادات الدفاعية، وفي بداية كل دورة تشريعية، كنت أدعوه إلى وجبة فطور في مكتبي في البنتاغون. كنا نناقش البنود ذات الأولوية العليا لكل منا فنؤلف نوعاً من مسودة أولية لمشروع قانون.

كان مورتا تشريعياً بارعاً. ما إن يؤيد اقتراحاً حتى تتم الموافقة عليه عادة. في إحدى السنوات قرر تمرير قانون إمدادات دفاعية بقيمة مليارات الدولارات عبر الاقتراع الصوتي دون تعديل. في نهاية كل جلسة، كان القانون المعتمد قريباً جداً مما كنا قد اتفقنا عليه مسبقاً في كانون الثاني/يناير مع بداية العملية.

جملة السنوات التي قضيتها عضواً في الكونغرس، واحداً من أعضاء القيادة معظم الوقت، كانت ثمينة جداً فيما يخص الانشغال بقضايا تهم وزارة الدفاع خلال مدة بقائي وزيراً. فالصداقات المطورة على امتداد عشر سنوات كانت حيوية بالنسبة إلى كل شيء فعلناه على الهيل، بدءاً بالاعتمادات المفتوحة وإصدار التراخيص، وانتهاء بكسب معركة حول القرار الخاص بخوض حرب لتحرير الكويت. إلا أنني لا أريد أن أوحي بأن كل شيء كان يتم دون أي صعوبات في الكونغرس.

كل سنة، مثلاً، كنت أحاول الإجهاز على أوسبري في - 22(V-22 Osprey)، إحدى طائرات المارينز، إلا أن الكونغرس كان يمولها. كان المارينز قد قرر قبل أن أصبح وزيراً أنه بحاجة إلى شيء يحل محل حوامات الحقبة الفيتنامية. تمثلت المشكلة بأن الجماعة [جماعة المارينز] قررت، بدلاً من شراء حوامات جديدة، أنها بحاجة إلى الأوسبري، القادرة على الإقلاع والهبوط مثل الحوامة، ولكن شفرات مروحتها كانت ستلتف بعد أن تصبح في الجو بما يمكنها من التحليق والطيران مثل أي طائرة تقليدية. والذريعة المستخدمة لتسويغ هذا المشروع تمثل بأن المارينز كانوا بحاجة إلى طائرة قادرة على الانتقال من السفينة إلى الشاطئ بسرعة أكبر من سرعة الحوامة لدى النزول على أرض يسير عليها العدو تحت النار.

كانت ثمة جملة مشكلات مع هذه المقاربة. لم يكن تطوير شفرات طي للمراوح أمراً سهلاً وكانت الكلفة، أقله، ضعف أي مروحية تقليدية. لدى وصولي إلى البنتاغون، كان المشروع متخلفاً عما هو مبرمج تخلفاً لافتاً.

وفي وقت مبكر، أدركت بوصفي وزيراً أن من غير المحتمل أن أحقق نجاحاً في الإجهاز على الأوسبري، إلا أنني بقيت مصراً وشطبت المشروع من الموازنة، كررت الشطب عاماً بعد عام. قدرت أن من شأن الأعضاء ألا يجدوا وقتاً لبحث أمور تهمني فعلاً، إذا بقي الكونغرس مشغولاً بالعراك الدائر لاستعادة الأوسبري.

بعد سنوات، حين كنت نائباً للرئيس، حطت طائرة سلاح الجو رقم اثنين التي كنت على متنها في قاعدة نيو ريفر الجوية للمارينز في جوكسونفيل في كارولاينا الشمالية، حيث يوجد سرب كبير من طائرات أوسبري في - 22. مع نزولي من الطائرة نظم المارينز تحليقاً لطائرتي أوسبري، تحليقاً بالغ الانخفاض وشديد البطء، فوق رأسي مباشرة. ابتسمت إزاء التذكير اللطيف بأن وحدات مارينز الولايات المتحدة كانت قد انتصرت في معركة الأوسبري.

من الواضح أن العام 1989 كان منعطفاً في التاريخ الحديث، كما أرى حين أنظر إلى الوراء وأنا عاكف على الكتابة. كانت الحرب الباردة تلفظ أنفاسها، إلا أن

التغيير التاريخي العظيم الحاصل لم يكن واضحاً تماماً من المرصد الذي كنا فيه في آذار/مارس من ذلك العام. عندما توليت المنصب، كان هناك ضغط قوي من الكونغرس لدفعنا إلى اعتماد تخفيضات ذات شأن من موازنتنا الدفاعية. لم أكن مطمئناً إلى المبالغة في التقليص. فعلى الرغم من أننا كنا قد رأينا مؤشرات أولية لحصول تغيير في الاتحاد السوفييتي، لم يكن ثمة أي مجال لإنكار حقيقة أن السوفييت كانوا لا يزالون متوفرين على آلاف الصواريخ الموجهة إلى الولايات المتحدة. كان عندهم جيش مؤلف من ست مئة ألف رجل متمركز في أوروبا الشرقية. راودني شعور قوي بأن من شأن إقرار تقليصات أو تغييرات كبيرة في منظوماتنا الدفاعية الاستراتيجية أملاً في إقدام السوفييت على التغيير أن يكون تصرفاً مفتقراً إلى الإحساس بالمسؤولية.

لم أكن واثقاً من كون ميخائيل غورباتشوف عنصر التغيير الذي تصوره كثيرون. حين زار الولايات المتحدة في 1987، دُعينا، لين وأنا، إلى حفل العشاء الرسمي المقام على شرفة في البيت الأبيض. تم إجلاسي بجانب السيدة الأولى نانسي ريغان وكان غورباتشوف جالساً بجانبها الآخر، فانتهزت الفرصة لطرح بضعة أسئلة عليه. مع أنه كان قد بدأ يبذل جهوداً لجعل اقتصاد الاتحاد السوفييتي منفتحاً، فإنه كان لا يزال يبدو مقتنعاً بقابلية النظام الشيوعي للحياة. ثار غضبه أيضاً حين سألته عن الطريقة التي وصل بها إلى منصب الأمين العام للحزب. أخبرته بأن منصب وزير الزراعة، الذي كان يشغله هو، ليس، في نظامنا نحن، مَعْبراً طبيعياً إلى رئاسة الجمهورية. أفاد بأنه كان أكبر بكثير من مجرد وزير للزراعة، وراح يفصل خدماته في هيكلية قيادة الحزب الشيوعي. خرجت من السهرة مقتنعاً بأنه لم يكن ذلك الإصلاحي الجدي الذي كان البعض يراه عن إيمان.

لم تكن وجهة نظري قد تغيرت مع حلول عام 1989. غير أنني ما لبثت أن تعلمت، في الشهر التالي لتولي المنصب، درساً مهماً حول الفرق بين تبادل الرأي حين تكون عضواً في الكونغرس وتبادله حين تكون وزيراً للدفاع. في برنامج "إيفانس آند نوفاك" على شاشة قناة السي إن إن عبرت عن اعتقادي بأن جهود غورباتشوف محكومة بأن "تخفق في النهاية". بُعَيْد بث البرنامج

تلقيت مكالمة من جيم بيكر قائلاً: "تجاوزتَ الحدود، من شأن تعليقاتك، وأنت الآن عضو في الإدارة أن تترك أثراً مباشراً على العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي". كان جيم على صواب. لم أقترف بعد ذلك مثل هذا الخطأ مرة أخرى.

بعد ثماني سنوات كنت في حفل استقبال بمنزل روبرت موسباتشر بهاوستون حين قال لي جورج أتش دبليو بوش، رئيس سابق الآن: "ها أنا ذا مع شخص كنت راغباً في التحدث معه!" أمسك بي من ذراعي ومشى معي إلى داخل غرفة الطعام حيث كان شخص منعزل خلف المائدة، ميخائيل غورباتشوف. عبّر الرئيس عن اعتقاده بأن علينا أن نعرف بعضنا على نحو أفضل، أجلسني بجانب غورباتشوف، ومشى. وفي أصيل ذلك اليوم الخريفي، تحدث كلانا، بمساعدة أحد المترجمين، نحو نصف ساعة من الوقت، عن الأيام الخوالي حين كنا خصمين.

لا بد من الاعتراف بفضل غورباتشوف. كان بوسعه أن يفعل ما فعله أسلافه ويستخدم القوة للحفاظ على اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية، اليو إس إس آر (U.S.S.R.). وعزوفه عن ذلك يكفي لجعله أحد رجالات القرن العشرين التاريخيين.

تمثل أحد التحديات الأولى الماثلة أمامي بوصفي وزيراً للدفاع بمشكلة كُنّا قد ورثناها عن الإدارة الريغانية: مشكلة الرجل البانامي القوي الجنرال مانويل نورييغا. لأمريكا مصالح حيوية في باناما. مع أن الرئيس كارتر كان قد وقّع معاهدة تنص على إعادة التحكم بقناة باناما إلى حكومة باناما، فإن عملية الانتقال لم تكن مرشحة للتنفيذ حتى عام 1999. في 1989 كانت أمريكا لا تزال ممسكة بزمام الأمر، وكانت حماية حقوق الترانزيت عبر القناة من مسؤولياتنا. كذلك كانت لنا قوة مؤلفة من اثني عشر ألفاً متمركزة في باناما، وكنتُ مسؤولاً عن رفاهة عناصر هذه القوة.

كان نورييغا وَغْداً، اقترف سلسلة طويلة من الخطايا الشنيعة، وكان محكوماً من قبل هيئات قضائية اتحادية في فلوريدا بعد إدانته بجرائم غسيل

الأموال والاتّجار بالمخدرات. في أوائل أيار/مايو 1989، حين نجح المرشح الرئاسي غويلييرمو آندارا وآخرون في إلحاق الهزيمة بمرشحي نورييغا المفضلين في صناديق الاقتراع، سارع نورييغا إلى رفض نتائج الانتخابات وبادر إلى إنزال "أفواج الكرامة" التابعة له إلى الشوارع لإغراق المعارضة في حمامات الدم. نقلت نشرات الأخبار في الولايات المتحدة صورة أحد مرشحي نيابة الرئاسة: غويلييرمو "بيلي" فورد، وهو يحاول الهرب في أحد شوارع باناما سيتي متعرضاً للضرب من قبل مرتزقة نورييغا من الزعران.

عند هذا المنعطف لم نكن مستعدين للقيام بعمل عسكري كبير في باناما، غير أنه تعين علينا أن نجترح خيارات معينة للرئيس. من المؤكد أن قناة باناما ذخر استراتيجي، وثمة حيوات أمريكية معرضة للخطر، وكان الرئيس بوش يريد أن يبين أن صبر بلدنا موشك على النفاد.

قضت خطتنا بإصدار رسالة واضحة عبر نشر قوة إضافية مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي في باناما، إلا أن عقبة، متمثلة بشخص قائدنا الجنرال فرد ويرنر رأس القيادة الجنوبية، انتصبت في طريقنا. لم يعبّر عن الشكر حين أبلغناه نبأ إرسال التعزيزات. بقي رده هو هو حين أخبرناه باعتزامنا إرسال بعض قوات العمليات الخاصة إلى قلب باناما لتكون مستعدة إذا دعت الحاجة إليها. قال: "لا ضرورة لذلك". من المؤكد أن وجود جنرال رافض لقبول التعزيزات مشكلة صارخة.

بعد حديث مع برنت سكوكروفت، علمت أن ويرنر موشك على التعرض لضرورة الإزاحة. في الوقت نفسه تقريباً دعاني صديقي جاك مارش إلى الغداء. كان مارش في ذلك الوقت سكرتير الجيش، مهمة أحبها وبرع فيها. وكان جاك هذا قناة خلفية بالغة الفعالية فيما يخصني عدداً من المرات حين كنت وزيراً للدفاع. كان مارش يعرف أنني كنت سأبحث قريباً عن بديل من رئيس هيئة الأركان المشتركة، الأميرال كرو. سألني: "هل فكرت بماكس تورمان؟" كان تورمان متولياً منصب رئيس قيادة التدريب والعقيدة، منتظراً التقاعد في غضون شهرين. على الرغم من أن الرجل لم يكن ذائع الصيت خارج الجيش فإنه كان شخصاً أسطورياً داخله. كان أعزب، متزوجاً الجيش في الحقيقة. وكان كثيف

الانخراط في عملية بناء قوتنا القائمة كلياً على التطوع. وله إنجازات غير قليلة. إذا كلّفتَ ماكس بمهمة، فإنه قد يقلب كثيراً من الأمور رأساً على عقب، ولكنه ينجز، يصل إلى نتيجة. كان يحمل لقب ماكساتولّه الذي فاز به عن جدارة.

وقعت في الفخ وطلبت من مارش أن يرتب موعداً أستطيع فيه أن أتحدث مع تورمان وجهاً لوجه. بعد بضعة أسابيع انضم إلينا لتناول الغداء في مكتب ماكس، ولم يكن مخيباً. بوصفي وزيراً، كنت قد التقيت عدداً كبيراً من الجنرالات الذين كانوا يحرصون على إسماعي ما يحلو لي سماعه برأيهم، وذلك لم يكن، صراحة، منطوياً على جدوى ذات شأن. تورمان كان شيئاً مختلفاً مئة بالمئة؛ خليطاً جامعاً بين الوصول إلى حافة التقاعد من جهة، وامتلاك شخصية مفرطة الصراحة من جهة ثانية، جعله مباشراً وقوياً. استسغت ذلك. وفيما أنا جالس في مكتب جاك أتناول غدائي وأصغي إلى تورمان، فكرت بيني وبين نفسي: إنه الزبون الذي نحن بحاجة إليه في باناما.

قبل أن نصبح قادرين على عرض المهمة عليه كان لا بد لنا من الحصول على تقاعد ويرنر. استبعاد الناس ليس ساراً بالمطلق، وطرد جنرال أربع نجوم ليس أمراً يتم فعله كل يوم. غير أن ذلك كان خيارنا الوحيد. أعرف من التجربة أنه كان من الأكثر تحلياً بالمسؤولية والأوفر كرامة أن يتم التحرك بسرعة لإحداث التغيير لدى اتضاح الاستعصاء في الأمور. وكنت أعرف أنني مدين للجنرال ويرنر بإبلاغه النبأ مباشرة وشخصياً. طلبت من مساعدي الأميرال بيل أونز دعوة ويرنر إلى واشنطن.

بعد بضعة أيام كان ويرنر والأميرال كرو جالسين إلى الطاولة الصغيرة الدائرية في مكتبي. مثبتاً نظري على عين الجنرال ويرنر قلت له: "لقد قرر الرئيس أن يحدث تغييراً، يا جنرال". أراد معرفة السبب. قلت له إن الأمر ليس شخصياً، مجرد وقت للتغيير. رغم أنه لم يكن سعيداً بالقرار، فإنه فهم أنه كان نهائياً فتعامل معه بلباقة وكرامة. في العشرين من تموز/يوليو أعلنت أن الجنرال فريد ويرنر سيستقيل وأن رأس القيادة الجنوبية [أو القائد الأعلى (CIN)] الجديد سيكون الجنرال ماكس تورمان.

* * *

مع الوصول إلى هذه المرحلة، مرحلة صيف 1989، كنت قاطعاً شوطاً كبيراً على طريق الاقتناع بتنصيب الجنرال كولن باول رئيساً لهيئة الأركان المشتركة، وهو منصب فريد في المؤسسة العسكرية الأمريكية. فهذا الرئيس [رئيس هيئة الأركان المشتركة] ليس ضابطاً كبيراً في زي عسكري وحسب، بل هو حلقة وصل رئيسية مع القيادة المدنية، دائباً على توفير المشورة العسكرية لوزير الدفاع، ولمجلس الأمن القومي، ولرئيس الجمهورية. خلال الجزء الأكبر من مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لم يكن رئيس الأركان يقدم سوى المشورة العسكرية المتفق عليها من قبل جميع رؤساء الأركان. وكانت يدا رئيس الهيئة تبقيان مقيدتين ما لم يحصل إجماع بين رؤساء الأسلحة.

ذلك كله تغير مع إقرار قانون غولدووتر - نيكولز لعام 1986، القانون الذي أكد أهمية "الترابط" (مقابل التأييد القائم على مركزية الأسلحة) بين الأسلحة ونص على جعل رئيس الهيئة المشتركة المستشار العسكري الرئيسي، محرراً إياه من قيد الاقتصار على تقديم وجهات النظر الحاصلة على إجماع الرؤساء. كنت قد شاركت في رعاية هذا التشريع في المجلس، من منطلق الإيمان بأنه وفر إصلاحات مطلوبة بإلحاح.

كذلك نص قانون غولدووتر - نيكولز على إخراج الرؤساء من سلسلة القيادة. لم يعد رئيسا سلاح الجو والجيش جنباً إلى جنب مع قائد المارين ورئيس العمليات البحرية مضطلعين بقيادة قوات حين تكون منشورة. مسؤولون هم عن تجنيد القوة وتدريبها وتجهيزها، ولكن دون استخدامها في القتال. بات الدور محصوراً بالقيادات العليا. أي القادة الميدانيين. يستطيع وزير الدفاع، إذا شاء، أن يرسل أوامر عسكرية إلى الميدان عبر رئيس الهيئة، وهو ما اخترت أن أفعله.

كان من شأن رئيس الهيئة المنتظر تعيينه قريباً أن يكون أول من أمضى فترته كلها في الموقع المهم الذي كان تشريع غولدووتر-نيكولز قد أوجده، وأردت أن أطمئن على عدم كون الرجل الذي يقع اختياري عليه جنرالاً "سياسياً"،

شخصاً تشوش دماغه بأجواء البيت الأبيض المضطربة. كنت بحاجة للتيقن من أن الجنرال باول كان سعيداً بالعودة إلى قيادة القوات وقانعاً بإنهاء الفترة الباقية له في السلك وهو في الزي الرسمي العسكري. ولاكتشاف أن الوضع هو كذلك، توقفت في مقر قيادة القوات المسلحة (الفورسكوم FORSOM) بفورت ماكفرسون وقابلت باول وجهاً لوجه. أُعجبت بالرجل، وقررت أن أوصي رئيس الجمهورية به.

كنت أعرف أن سكوكروفت كان لديه بعض التردد فيما يخص باول، من منطلق، كما تصورت، أن باول كان مستشار الرئيس ريغان للأمن القومي. ولم يكن برنت متحمساً لوجود رئيس هيئة أركان على اطلاع يضاهي اطلاعه على صعيد إدارة مجلس الأمن القومي وتقديم المشورة لرئيس الجمهورية، إلا أنني رأيت أن من الممكن التغلب على ممانعته.

كان الرئيس بوش قد تعاون تعاوناً وثيقاً مع باول عندما كان نائباً للرئيس وكان باول مستشاراً للأمن القومي، وأعرف أنه كان معجباً بالرجل كثيراً. غير أنني كنت واعياً أيضاً لتوجس الرئيس من تفضيل باول، وهو جنرال أربع نجوم جديد، على أربعة عشر جنرالاً آخرين لوضعه في المنصب العسكري الأعلى. من المؤكد أن اختياره كان سيثير حفيظة البعض، وحين طرحت فكرة كون باول هو الرجل المناسب على الرئيس وعدْتُ باستعدادي لمعالجة أي مضاعفات أو تأثيرات سلبية لدى من يتم تجاوزهم.

أيد الرئيس قراري بشأن باول ووافق على تسميته. في الأول من تشرين الأول/أكتوبر 1989، بعد مصادقة مجلس الشيوخ، أصبح كولن باول رئيساً لهيئة الأركان المشتركة. كنت أعلم أن أمامنا عملاً مهماً نتولاه معاً. كنت أعتقد بأننا مرشحان لتشكيل فريق ناجح. وكنا كذلك خلال فترتنا معاً في البنتاغون.

في يومه الأول شاغلاً للمنصب، أيقظني الجنرال باول في الصباح الباكر بأنباء عن وصول تقارير حول احتمال قرب وقوع انقلاب في باناما. رصدنا الوضع كل النهار، وغادرت صباح اليوم التالي لاصطحاب نظيري السوفييتي، الجنرال ديمتري يازوف، في جولة بحديقة غتيسبورغ العسكرية العامة. في زيارة سابقة

للاتحاد السوفييتي، كان المضيفون قد أخذوني لزيارة المقابر الجماعية الموروثة عن حصار لينينغراد؛ كانت قوات هتلر قد أخفقت في احتلال المدينة، ولكن ما يزيد على مليون روسي كانوا قد ماتوا. فكرت بالرد على الجولة التي كان السوفييت قد كَرَّموني بها عن طريق اصطحاب فريقهم الرسمي إلى موقع أحد أهم المعارك في التاريخ الأمريكي. حصلنا على خبير من كلية حرب جيش الولايات المتحدة بكارل آيل البنسلفانية، وحشرنا الوفد في حافلة للطواف على مواقع الأحداث الرئيسية في المعركة الشهيرة.

خلال جولة الحافلة عبر الحديقة العسكرية، كنت جالساً في المقعد الأمامي بجانب يازوف، ذلك الرجل الضخم، المكتنز، الذي كان قد اختير لمنصبه من قبل غورباتشوف - والذي كان، في غضون عامين، سينتهي في السجن بعد محاولة انقلابية على الزعيم السوفييتي. بعد شوط كبير في جولتنا رن هاتفي الخلوي. ولأن الهاتف الخلوي في 1989 كان أضخم من بلوكة البناء كان يحمله مساعدي في حقيبته. رد الأميرال أُونز على المخابرة، انحنى على المقعد وقال: "سيادة الوزير، الجنرال باول على الخط، وهو يريد التحدث معك". مددت يدي إلى الوراء، وأخذت الهاتف، ووضعته على أذني، استمعت إلى الجنرال باول وهو يخبرني بأن انقلاباً قد بدأ في باناما على ما بدا. حين انتهت المكالمة وأعدت الهاتف إلى الأميرال أونز، لاحظت أن الجنرال يازوف كان واضح الفضول - لا حول مضمون مكالمتي، بل بشأن جهازي الهاتفي. من الواضح أن تكنولوجيا الجوال كانت لا تزال بالغة الندرة في الاتحاد السوفييتي.

بالنسبة إلى فريق الأمن القومي عندنا، كان هذا الامتحان الأول. كيف كنا سنتصرف في غمرة أزمة؟ هل كنا قادرين على اجتراح خيارات نضعها أمام الرئيس مع رد في الوقت المناسب؟ لا بد لي، في هذه الحالة، وبإدراك مؤخر للأمور، من أن أقُر بأننا لم نحسن الأداء كما كان ينبغي.

كان السؤال الأول بالنسبة إلينا ما إذا كان هذا انقلاباً شرعياً. بقيت تقاريرنا مرتبكة، ولم نكن نريد أن نقع في نوع من الشرك الذي ربما كان نورييغا نصبه لنا، محاولاً جرنا إلى الإقدام على الخطوة الأولى عسكرياً لنكتشف لاحقاً أنه لم يكن ثمة أي انقلاب. بالمقابل، إذا كان الانقلاب حقيقة وكانت

المساعدة الأمريكية للانقلابيين قادرة على إطاحة نورييغا، فإن التدخل في صف الانقلابيين كان من شأنه أن يبقى جديراً بالنظر فيه.

في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر، كنا قد طوّرنا قائمة خيارات للعرض على الرئيس، خيارات متدرجة من ما ينبغي عمله إذا قام الانقلابيون بجلب نورييغا إلى إحدى القواعد الأمريكية وصولاً إلى إمكانية استخدام قوات أمريكية لاقتلاع نورييغا. مع حلول الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين، كانت الحركة الانقلابية قد أخفقت. تحدثت التقارير عن أن نورييغا استطاع، متفوقاً بذكائه على آسريه، أن يستعيد تحكمه بالوضع وأن يقتل قادة الانقلاب. وبعيد ذلك ظَهَر نورييغا على التلفزيون لشجب مدبري الانقلاب والولايات المتحدة. خلال الأسبوع بتنا عرضة لسيل انتقادات ديمقراطية وجمهورية في الكونغرس على الإخفاق في استغلال الوضع.

ومع أنني لست مقتنعاً بأن الولايات المتحدة كانت ستستفيد عبر الوقوف بقدر أكبر من الوضوح مع مدبري الانقلاب في هذا المثال، فإن الحقيقة هي أننا لم نتحرك بما يكفي من السرعة على صعيد اتخاذ القرار. الأحداث نفسها على الأرض هي التي فرضت القرار نيابة عنا. تعلمنا من هذه التجربة أننا بحاجة لاعتماد نظام أفضل كي نكون بمستوى تطورات متسارعة وللحصول على معلومات استخباراتية صحيحة تمكننا من المبادرة. هذه كانت دروساً أفدنا منها بعد بضعة أشهر حين غزونا باناما.

فيما نحن عاكفون على رصد الأحداث في باناما في خريف 1989، كنا أيضاً مشغولين بمعالجة انقلاب محتمل في الفليبين. ففي الثلاثين من تشرين الثاني/ نوفمبر بدأت التقارير تتحدث عن قيام متمردين معارضين لحكم كورازون آكينو باحتلال قواعد جوية عائدة إلى الحكومة الفليبينية. كذلك تلقينا طلباً من الرئيسة آكينو باستخدام نفاثات الفانتوم إف ـ 4 المتمركزة في قاعدة كلارك الجوية لقصف مواقع المتمردين. لم أكن مقتنعاً بوجوب موافقتنا على تلبية الطلب ـ وكان الجنرال باول مثلي. لعل السبب هو أن الرئيسة آكينو أماطت اللثام عن اعتزامها إنكار تقديمها للطلب على الملأ. فدعوة الولايات المتحدة إلى قصف

مواطنين فليبينين، وإن كانوا متمردين، لم تكن مرشحة لأن تلقى القبول في بلدها. غير أننا كنا ملزمين بالدفاع عن الحكومة الفليبينية وبحاجة لنوع من استعراض القوة من أجل تثبيط عزيمة المتمردين.

مع تصاعد حدة الأزمة نحو نقطة الانفجار، غادر كل من الرئيس بوش، وجيم بيكر، وبرنت سكوكروف مساءً لعقد قمة مع ميخائيل غورباتشوف في مالطا. في وقت لاحق من تلك الليلة قام نائب الرئيس دان كويل بعد اجتماع لأعضاء مجلس الأمن القومي في غرفة الطوارئ [العمليات] في البيت الأبيض. بقيت في البيت في ماكلين الفيرجينية، حيث أتوفر على اتصالات آمنة تمكنني من التحدث مباشرة مع باول الذي كان في المركز القومي للقيادة العسكرية في البنتاغون ومع طائرة سلاح الجو رقم واحد. حين وافاني باول بالرد على الوضع في الفليبين المقترح منه هو ومن مخططي البنتاغون - إطلاق دورية قتالية جوية بطائرات ذات أطقم أمريكية وجعلها تحلق فوق مانيلا - اتصلت مع طائرة سلاح الجو رقم واحد مباشرة. وحين علمت أن الرئيس وافق على الرد، اتصلت مع باول وأمرته بالشروع في العملية. كانت الخطة صحيحة. إنها تُبقي آكينو في السلطة دون أن يتعين علينا إطلاق طلقة واحدة.

فيما كانت قدرتنا على الاتصالات توفر لنا فرصة القيام بأعمال لم يكن أسلافنا قادرين ولو على أن يحلموا بها، فإننا وقعنا أيضاً في مطبات بين وقت وآخر. خلال أحاديثي مع باول ليلة الأزمة الفليبينية، عَبَّر الرجل عن خيبته المفرطة، رغم كل المعدات الممتازة الموجودة بحوزة المركز القومي للقيادة العسكرية، إزاء عجزه عن التحدث مع موظفي الدفاع الفليبينيين. تمثل الحل، كما قام باول بوصفه لي بعبارات رنانة أثناء حدوثه، بالسيطرة على مركز القيادة وإيصال خط هاتف عادي يمكّنه من الاتصال بالفليبين.

بعد قيام نورييغا بالقضاء على المحاولة الانقلابية في تشرين الأول/أكتوبر، اتخذنا خطوات لنكون أفضل استعداداً للتعامل مع الأزمة التالية - ولم تتأخر. ففي الخامس عشر من كانون الأول/ديسمبر، أعلن المجلس التشريعي البانامي أن باناما كانت في حالة حرب مع الولايات المتحدة، وفي اليوم التالي أقدم عناصر

قوة الدفاع البانامية، البي دي إف PDF، على إطلاق النار وقتل الملازم الأول البحري الأمريكي، روبرت لاباز، حين أقلعت السيارة التي كانت تقله ذعراً بعد تعرضها للتطويق على إحدى نقاط التفتيش. ضابط بحري أمريكي وزوجته، شاهدان على إطلاق النار، تم إلقاء القبض عليهما واحتجازهما من قبل البي دي إف؛ أُسيئت معاملتهما، وهُددا، وتعرض الرجل للضرب.

في العاشرة من الصباح التالي، يوم الأحد الواقع في 17 كانون الأول/ ديسمبر، دعوت إلى اجتماع في مكتبي لاستعراض خياراتنا. كان في الاجتماع كل من الجنرال باول، وبول وولفويتز، وديف آدينغتون، وبيت وليامز، والأميرال أونز، جنباً إلى جنب مع الجنرال توم كيلي، ذلك الضابط الأنيق، الصريح الكلام الذي كان مدير عمليات الأركان المشتركة. درت حول الطاولة لأمنح كل شخص فرصة الإدلاء بدلوه. كان الجنرال باول استثنائي البلاغة فيما يخص عواقب جريمة قتل بي دي إف نورييغا لجندي أمريكي بدم بارد. لم يكن هذا من النوع الذي نستطيع تمريره دون رد.

وبعد ظهر ذلك اليوم، حين نقلنا توصياتنا إلى رئيس الجمهورية، كانت احتفالات أعياد الميلاد في البيت الأبيض كاملة الزخم. شققت طريقي، عبر أروقة مثقلة بزينات الموسم، إلى المصعد الخاص الذي يفضي إلى مسكن الطابق الثاني، حيث قام الجنرالان باول وكيلي بإيجاز خطتنا الإجمالية للرئيس، التي حملت آنذاك عنوان "عملية الملعقة الزرقاء"، ووصفا هدفها: إطاحة نورييغا والبي دي إف واستعادة الحكومة البانامية المنتخبة ديمقراطياً. جميع من في الغرفة أيدوا المبادرة إلى التحرك، وفي نهاية الاجتماع أعطانا رئيس الجمهورية الأمر: "هيا افعلوا!"

هناك في البنتاغون، لاحقاً في ذلك اليوم، عكف الجنرال كيلي ونائبه آنذاك، الأميرال جو لوبيز، على مناقشة العنوان الرسمي للعملية. لم تبد عبارة "ملعقة زرقاء" مناسبة، إنها هزلية قليلاً. ظل الرجلان يفبركان البدائل إلى أن قال لوبيز: "ماذا عن "قضية عادلة"؟" فتمت تسمية العملية.

كرسنا اليوم التالي لإجراء معاينة أخيرة للخطط التي كانت قد وُضعت قبل أسابيع. بوصفي من دارسي التاريخ أعرف أن هناك، حتى في أكثر العمليات

العسكرية نجاحاً، أخطاء وإخفاقات، غير أنني أعرف أيضاً أن من واجبنا نحن المضطلعين بمهمة القيادة في البنتاغون أن نبذل كل ما نستطيعه من جهد لاستشراف التوقعات واختزال احتمالات الخطأ إلى الحدود الدنيا. القادة المدنيون أيضاً مطالبون بالسير على نوع من الصراط المستقيم، من الحبل المشدود. من واجبك الحقوقي والقانوني أن تضمن أداء الجيش لواجبه، قيامه بحشد قوة ووضع خطة كافيتين لبلوغ الهدف الذي جرى تحديده له. غير أن من المهم عدم العبور إلى منطقة ليندون جونسون، حيث يتولى القادة المدنيون مهمة تحديد أهداف القصف واختيارها من البيت الأبيض.

كانت باناما العملية العسكرية الأولى التي تعيّن فيها عليّ اتخاذ قرار كيفية التعامل مع المراسلين الراغبين في تغطية الأحداث. أدرك أن الصحافة ملزمة بمهمة يتعين عليها أداؤها، غير أنني أشعر أن من المهم ألا يتدخل الإعلاميون بالمهمة التي أقوم بها أنا. ففي أي عملية عسكرية، سيظل الإعلام يضغط للحصول على الحد الأقصى الممكن من التغطية، أما نحن فلا بد لنا من التنبه، ولا سيما في ضوء التكنولوجيا التي جعلت التغطية الآنية من الميدان متزايدة الإمكانية، من احتمال إفضاء التغطية إلى تعريض أمن عملياتنا للخطر.

بالنسبة إلى باناما، اعتمدنا نظاماً يقوم أساساً على اختيار مراسلين مختارين يكونون جاهزين في موعد محدد. كان من شأنهم أن يشكلوا الفريق المرشح للذهاب في حال حصول شيء خلال فترة انتظارهم. أوفدنا الفريق إلى باناما، ولكن أفراده شعروا بالإحباط عندما وصلوا إلى هناك ووجدوا أنفسهم تحت رحمة الجنرال تورمان. تفهمت ما أصابهم من خيبة، غير أننا لم نكن قادرين على تبديد موارد نحن بحاجة إليها لخوض المعركة لتأمين المرافقة للإعلاميين، ما ألزمهم بالتحلي بقليل من الصبر.

يضاف إلى ذلك وجود بضع مراسلين ممن نزلوا إلى باناما وحدهم، خارج نظام الفريق المختار. حين بدأ القتال، تسللت مجموعة إلى قبو فندق الماريوت. أجرى هؤلاء اتصالات محمومة مع مكاتبهم في نيويورك، تلك المكاتب التي ما لبثت بدورها أن سارعت إلى ممارسة ضغوط هائلة على البيت الأبيض. كان ثمة

خمسة وثلاثون ألف مدني أمريكي في باناما، غير أن الصحفيين في الماريوت صاروا مركز الاهتمام، وأخيراً اتصل برنت بنا قائلاً: "لا خيار أمامكم". كان رئيس الجمهورية يريد منا أن ننقذهم. لم تبق المشكلة محصورة برؤسائهم الدائبين على الاتصال الضاغط في نيويورك، بل في مسارعة مراسلين آخرين إلى التركيز على الإعلاميين المتروكين لأقدارهم. كانوا يصورون الأمر كما لو كانت العملية العسكرية، التي كانت سائرة سيراً حسناً عموماً، متعرضة لنوع من الإخفاق.

أرسلنا وحدات من الفرقة 82 المحمولة جواً إلى الماريوت، وقد نجحت في تحرير الصحفيين إضافة إلى آخرين كانوا هناك. إلا أن ثلاثة من الجنود الأمريكيين جرحوا في أثناء عملية الإنقاذ، كما قُتل مصور إسباني كان يغطي العملية.

كثيرون في البنتاغون كانوا شديدي عدم الثقة بوسائل الإعلام، وهذا أمر موروث في جزء منه عن فيتنام. كانت ثمة نظرة - كنت ممن يتبنوها - تقول إن كتابات صحفية مفرطة في سلبيتها دون وجه حق كانت قد ساهمت في إفساد الرأي العام بشأن تلك الحرب. فهجوم التيت، مثلاً، جرى تقديمه بوصفه ضربة قاصمة لظهر جيشنا، في حين أن الحقيقة هي أننا كبدنا الفيتناميين الشماليين خسائر فادحة. "عملية القضية العادلة" عمقت قناعتي بأن على الإعلام أن يكون الحَكَم الأخير بالنسبة إلى مدى نجاحنا أو إخفاقنا في أي حرب. وحين دقت ساعة عاصفة الصحراء، كنت سأحاول أن أطمئن إلى امتلاكنا للحدود القصوى من فرص الاتصال المباشر مع الشعب الأمريكي - دون المرور بمصفاة الصحافة.

قبل توغلنا في باناما، جاءني سلاح الجو بخطط قائمة على استخدام طائرات إف - 117، مقاتلات الشبح الجديدة عندنا. أردت معرفة السبب. من المؤكد أن نظام الدفاع الجوي البانامي لم يكن متطوراً إلى درجة تستدعي قدرات الشبح. غير أن الطائرات لم تكن قد استُخدمت من قبل في معارك قتالية، وكان سلاح الجو الأمريكي راغباً في انتهاز الفرصة لاختبارها - الأمر الذي بدا لي معقولاً.

كذلك أوصى السلاح باستخدام الطائرات المعروفة إيه سي - 130، وهي منصات بالغة الثبات ذات قوة نارية هائلة مع دقة عظيمة. ونظراً لأن هذه غير حصينة ضد دفاعات الأرض - جو والمقاتلات المعادية، فضلنا تحقيق التفوق الجوي قبل استخدام طائرات إيه سي - 130، غير أننا خَطّطنا لتحقيق ذلك بسرعة في باناما، ثم المبادرة إلى توظيف هذه الطائرات لتدمير مقر قيادة نورييغا: الكوماندانسيا.

نحو السابعة من مساء يوم الثلاثاء الواقع في 19 كانون الأول/ديسمبر، وصلنا نبأ أن غويليرمو آندارا سيوافق على تنصيبه وإعادته إلى السلطة من قبل الولايات المتحدة. كان هذا حاسماً. لو لم يوافق لكان قد تعين علينا أن نعيد النظر في عمليتنا كلها. لاحقاً في تلك الليلة، توجهت نزولاً إلى المركز القومي للقيادة العسكرية حيث كان توم كيلي وفريق الأركان المشتركة يتولون الرئاسة. كان كيلي قد أعد غرفة اجتماعات صغيرة نستطيع العمل فيها؛ باول وأنا. كنا على درجة من القرب كافية لرصد ما كان يجري، ولكن مع التوفر على فسحة هادئة معزولة عن الآخرين إذا شعرنا بالحاجة إلى الكلام.

بعيد منتصف الليل، دار دولاب عملية "قضية عادلة". ومع بدء التقارير بالوصول، كنت أخرج من غرفة الاجتماعات كل نصف ساعة أو نحوه لاستخدام الخط الآمن مع البيت الأبيض. اتصالي الأول تلك الليلة كان مع سكوكروفت، إلا أن الرئيس طلب أن أتصل به هو مباشرة بعد ذلك. كان رئيس الجمهورية يريد الحصول على القدر الذي نستطيع توفيره من المعلومات، وبالسرعة الممكنة.

أكثر أخبار تلك الليلة كانت جيدة، مع اضطراري للحديث عن فقدان أربعة من البحارة، قُتلوا في مطار باتيلا. كذلك أخفقنا في العثور على نورييغا. لم يشاهد حتى 24 كانون الأول/ديسمبر، حين لاذ بالرهبانية البابوية (نونسياتورا)، مقر إقامة الممثل البابوي في باناما. نزل من سيارته حاملاً بندقيتي كلاشنكوف إيه كي - 47، دخل العقار المحمي، وطلب اللجوء السياسي. من هذه اللحظة صار اعتقاله يقيناً، مع التعجيل بتاريخه عبر خطة وضعها جيشنا، خطة قائمة على بث موسيقى آلات معدنية شديدة الصخب ثاقبة للأذن باتجاه النونسياتورا. في الثالث من كانون الثاني/يناير خرج نورييغا واستسلم لقواتنا. كانت عملية قضية عادلة آية نجاح.

* * *

يبقى الميلاد مناسبة عائلية في بيت تشيني. كانت ليز وماري، وهما في العشرينيات من العمر زمن "قضية عادلة"، تفضلان البيت على الدوام، وكنا نستيقظ مبكرين صباح الميلاد لفتح الهدايا، ولتناول وجبة فطور كبيرة، وللشروع في طهو الديك الرومي - في ورشة كنت عادة أتولى قيادتها. إلا أن ميلاد 1989 كان مختلفاً. طرت إلى باناما عشية عيد الميلاد، هابطاً إلى أرض معتمة لأسباب أمنية، فيما بقيت لين وليز وماري في ماكلين في أحوال إطفاء أنوار تخصهن. تعرض التيار الكهربائي، الذي هو فضائحي الهشاشة في فيرجينيا الشمالية، للانقطاع، ملهماً إياهن إعداد عشاء عيد الميلاد في الموقد - في محاولة لن يعدن أبداً إلى اختيار تكرارها.

كان مضيفي في باناما هو الفريق كارل شتاينر الذي كان قد ساهم في صوغ عملية "قضية عادلة" وكان أداؤه ممتازاً في متابعة تنفيذها بوصفه قائداً ميدانياً. في يوم الميلاد سافرنا من باناما سيتي إلى كل من فورت أمادور، وريو هاتو، وكولون، وباتيلا، ولدى لقائي الوحدات التي كانت قد شاركت في "قضية عادلة"، أكدت أهمية إنجازها. قلت: "الديمقراطية موجودة اليوم في باناما لأن البانامييين اقترعوا لصالحها، وكل واحد منكم وقف إلى جانبهم". أردت أن يعلموا مدى اعتزاز أمتهم بهم، وحاولت التعبير عن احترامي الشخصي الكبير، قائلاً:

كل يوم أعيشه وأنا في منصب وزير الدفاع، يتضاعف إعجابي بالرجال والنساء الذين اختاروا خدمة هذه الأمة. هذه الفكرة تراودني كلما خرجت من بيتي إلى قاعات البنتاغون. في حجرة السُلّم المقابلة لمكتبي ثمة قول مقتبس من النبي أَشَعْيا. إنه تذكير مناسب لما تعنونه أنتم بالنسبة إلى أمريكا.

قال أَشَعْيا: "سمعت صوت السَّيِّد قائلاً: من أُرْسِل، ومن ينطلق لنا؟" فقال أَشَعْيا: "ها أنا ذا، فارسلني!"

في مواجهة خطر يلفه الغموض وفي عالم زاخر بالتهديدات، بادر كل واحد منكم إلى إعطاء جواب: "أرسلني!" إنني فخور بكوني معكم اليوم كله.

أولئك الذين هم في مجلس الأمن القومي منا كانوا قد وصلوا إلى مناصبهم

مزودين بقدر غير قليل من الخبرة. سبق لي أن كنت رئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض وعضواً في الكونغرس، في القيادة؛ وسبق لجيم بيكر أن كان رئيس جهاز عاملين ووزيراً للخزانة؛ وبرنت سكوكروفت سبق له أن كان مستشار الرئيس فورد للأمن القومي، وسبق لكولن باول أن اضطلع بالمهمة نفسها لدى الرئيس ريغان. غير أننا كنا، رغم استنادنا إلى كل هذا التراث، قد اقترفنا أخطاء لدى شروعنا في العمل معاً. لعل العبرة هنا هي أن تجربة كل فرد وحدها ليست، على خطورة التجربة عموماً، هي المهمة، بل تجربة العمل معاً على نحو جماعي. تعلمنا أشياء كثيرة من أخطائنا خلال الانقلاب الفاشل كما من نجاحنا في عملية "قضية عادلة". أعتقد أن امتلاكنا لتجارب فعلية في إدارة الأزمات سوية هو السبب الكامن وراء نجاحنا في الرد الموفق الذي أقدمنا عليه بعد ثمانية أشهر حين قام صدام حسين بغزو الكويت.

وقع أكبر حدث عام 1989 في برلين. في الأول من تشرين الأول/أكتوبر كنتُ هناك، وكنت أشعر بقدر كبير من التفاؤل مما سبق لي أن فعلت من قبل حول جدية ميخائيل غورباتشوف والطبيعة التاريخية للتغييرات التي كنا نراها. ولكن جدار برلين كان لا يزال صامداً، رغم أن آلاف الألمان الشرقيين كانوا يهتدون إلى طرق تمكّنهم من الهرب وتوصلهم إلى الغرب في ذلك الخريف. كانت حكومة ألمانيا الشرقية لا تزال تحاول إجبار الناس على العيش في ظل نظام ومجتمع ليسوا مستعدين لاختيارهما لو كانوا أحراراً. قلت في برلين الغربية: "يشكل الحضور المستمر للجدار أكبر رموز إخفاق وعجز الحكم في ألمانيا الشرقية". ثم أضفت: "كلما كان سقوطه [الجدار] أسرع، كان ذلك أفضل بالنسبة إلى الجميع".

من الصعب الآن وصف النشوة التي رافقت سقوط الجدار في تشرين الثاني/نوفمبر 1989. أتذكر التغطية الليلية لأولئك الذين كانوا مسجونين لسنوات في الكتلة الشيوعية وقد باتوا فجأة قادرين على التدفق أنهاراً عبر الحدود الغربية. أتذكر ليونارد بيرنشتاين في الميلاد وهو يعزف سيمفونية بتهوفن التاسعة في شطري برلين الشرقي والغربي. عبارة "موال للفرح" جرى تعديلها فأصبحت "موال للحرية".

وفيما كنت أتابع الاحتفالات على التلفزيون، بقيت أبحث عن لقطة لصديقي الطبيب ديف نيكولاس. كان ديف هذا شاهد (إشبين) زواجنا، رئيس حملتي الانتخابية الأولى لعضوية الكونغرس، وها هو الآن ممثلي لدى الناتو، وأنا واثق من أنه، مع عائلته، كان بين هذه الحشود الغارقة في بحر الفرح، في مكان ما. وقد أصبح ديف، وهو المؤمن صادقاً بفكرة الحرية في أوروبا الشرقية، لاحقاً سفيراً من منظمة الأمن والتعاون في أوروبا إلى أوكرانيا، حيث ساهم في الحركة الداعية إلى الإصلاح الديمقراطي. قبل موته غير المتوقع في كييف عام 2005، رأى انتصار الثورة البرتقالية وارتعش ابتهاجاً بها كما فعلنا جميعاً.

بعد أربعين سنة، كنا نشهد زوال الستار الحديدي وتضاؤل الخطر السوفييتي، وكان ذلك يحصل بطريقة سلمية وواعدة. كنتُ على يقين أن جيش الولايات المتحدة هو السبب المنفرد الأفعل والأهم لحصول التحول الذي كنا نشهده. ما زال انتصار الغرب في الحرب الباردة منتصباً بوصفه مثالاً تاريخياً مهيمناً للسلم الذي تم الفوز به عبر القوة.

غير أن الأمر كان أيضاً منطوياً على بُعْدٍ آخر. فتصميم رونالد ريغان على وجوب تمكين الناس من العيش في كنف الحرية كان أحد عناصر القضية. دَعْوَتُه الصريحة والواضحة في 1987 عند بوابة براندنبورغ: "هيا يا غورباتشوف، بادر إلى هدم هذا السور!" تعيش في التاريخ وللتاريخ بجدارة، مثلها مثل عبارة البابا يوحنا بولس الثاني: "انبذوا الخوف!" فلدى زيارته لوطنه بولونيا في 1979 حمل معه تلك الرسالة الإنجيلية إلى ما وراء الستار الحديدي، حيث كانت مصدر إلهام للمناضلين في سبيل الحرية من أمثال ليخ فاليسا. كنتُ قد حظيتُ بشرف مقابلة البابا يوحنا بولس الثاني في الفاتيكان في كانون الثاني/يناير 2004، بعد تسعة أشهر من قيام القوات الأمريكية والمتحالفة بتحرير العراق. كنت على علم بأن البابا لم يكن مؤيداً لتحركنا؛ ومع ذلك فإنه بادر، حين كان الجميع قد غادروا الغرفة، إلى الإمساك بإحدى يدي بيديه الاثنتين قائلاً: "فليبارك الرب أمريكا!"

الفصل السادس

درع الصحراء

ظل مخططو الحرب الباردة العسكريون ينظرون إلى الخليج العربي ويتصورون تهديداً آتياً من الاتحاد السوفييتي. برأيهم بقيت الولايات المتحدة بحاجة لأن تكون مستعدة لمجابهة أرتال دبابات سوفييتية متدحرجة جنوباً عبر إيران، نحو شبه الجزيرة العربية الغنية بالنفط. ولكن رئيس هيئة الأركان المشتركة خلال الأشهر القليلة الأولى من وزارتي، الأميرال بيل كراو، قرر أن الخليج العربي بات، مع خطر سوفييتي متضائل، بحاجة إلى قدر أقل من الاهتمام، وأَقْدَمَ في 1989 على نشر دليل للقوات المسلحة قام على وضع الخليج في خانة أمور ثانوية نسبة إلى جملة أولويات أمريكا الاستراتيجية.

خالفتُ هذا التقويم. رأيت أن من المبكر جداً إسقاط السوفييت كلياً من الحساب ومن الخطأ إغفال احتمال ظهور تهديد نابع من قلب المنطقة. في كانون الثاني/يناير 1990، أصدرتُ دليلاً منقحاً، مسلطاً الضوء على تمتع شبه الجزيرة العربية بأولوية عالية وعلى ضرورة المبادرة إلى التخطيط للتصدي لأزمة محتملة في الخليج. حَلَّتْ الأزمة أسرع مما كان أحد ـ باستثناء، ربما، صدام حسين - قادراً على توقعها.

في ربيع وبدايات صيف 1990 كان صدام شديد الغضب. هدد بحرب كيميائية، مؤكداً تحت القسم أن "نيراننا ستلتهم نصف إسرائيل إذا حاولت أن تشن أي

شيء ضد العراق". صب جام غضبه على الكويت والإمارات العربية المتحدة لقيامهما بخفض سعر النفط غارزتين "خنجريهما المسمومين في ظهرنا". وزير خارجيته ونائب رئيس وزرائه، طارق عزيز، سدد سهام نقده إلى الكويتيين متهماً إياهم بالاعتداء على أراضٍ عراقية، وبسرقة النفط العراقي، وبالرفض الوقح والناكر للجميل لشطب القروض المقدمة إلى العراق عندما كان يحارب إيران ويريق "أنهاراً من الدم دفاعاً عن السيادة والكرامة العربيتين". كانت الاتهامات قاسية، ولكن ما تلاها شكل صدمة. في منتصف تموز/يوليو، بدأت دبابات عراقية تتحرك نحو الكويت، ومع حلول تاريخ التاسع عشر من تموز/يوليو أظهرت صور أقمارنا الصناعية ثلاث فرق مدرعة ثقيلة على مسافة قتالية من الحدود الكويتية.

الأنباء عما كان يجري لم تكن منشورة بعد حين استقبلتُ ضيفين في مكتبي: موشي آرنز وإيهود باراك. كان آرنز الناحل والمولع بالدراسة وزير الدفاع الإسرائيلي. أما الجنرال باراك، رئيس وزراء المستقبل، فكان نائب رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي. مدوّر الوجه المتواضع هذا كان أيضاً جندي بلده الأكثر أوسمة. في العشرين من تموز/يوليو، جلس الاثنان إلى الطاولة الدائرية الصغيرة في مكتبي، وساحبَيْن رُزَماً من الأوراق والخرائط من حقيبتيهما، ساقا أدلة مؤكدة للمرحلة المتقدمة التي بلغها البرنامج النووي العراقي. كان الحصول على التكنولوجيا الأوروبية يمكِّن العراقيين، برأيهما، من التعجيل باستكمال مرافق تخصيب اليورانيوم، ولم يكن أمامنا إلا هامش ضيق من الوقت لوقف البرنامج.

طالما كان الإسرائيليون يرون أي عراق مسلح نووياً تهديداً قاتلاً، وفي 1981 كانوا قد نسفوا المفاعل في الأُزيرق، ملحقين ضربة موجعة بالبرنامج العراقي. نظرت إلى ما قاله آرنز وباراك بقدر كبير من الجدية - ولا سيما لأنهما قاما بوصف برنامج متقدم كثيراً على ذلك الذي كانت تصوره تقويماتنا الاستخباراتية. بعد الحرب، كنا سنكتشف ان الإسرائيليين كانوا أقرب إلى الحقيقة من جملة أجهزتنا الاستخباراتية.

كان باراك وآرنز قلقين إزاء خطر الحرب المتنامي في الشرق الأوسط وأرادا تعزيز تكنولوجيتهما للوقوف في وجه تهديد الصواريخ البالستية المقذوفة

على إسرائيل من العراق. صحيح أن الإسرائيليين كانوا قد طوروا نظامهم الخاص، السهم، الشبيه بنظام الباتريوت الأمريكي المضاد للصواريخ، ولكنهم كانوا بحاجة إلى مساعدة الولايات المتحدة، ولا سيما في ميادين الرادار ونوع من أنواع نظام إنذار مبكر أكثر فاعلية. كان هذا حديثاً كنا سنعود إليه بإلحاح متزايد في الأشهر التالية.

مع مواصلة صدام حشد عناصر الحرس الجمهوري - أفضل وحداته وأغناها خبرة - على الحدود العراقية - الكويتية، سمعنا من أوساط كثيرة أنه كان يخدع "يبلف"، يهز العصا لجعل الكويتيين وربما الإماراتيين يرشونه دفعاً لأذاه. بادر الرئيس المصري حسني مبارك وقادة عرب آخرون إلى طمأنتنا قائلين بأنهم سيعالجون ما كانوا يرونه نزاعاً عربياً بينياً وطلبوا منا بإلحاح ألا نتخذ أي خطوات من شأنها استفزاز صدام. حصلنا على نصائح مشابهة من وزارة الخارجية ومن جُل الأجهزة الاستخباراتية.

غير أن صداماً صار، في نهاية تموز/يوليو، حين بدأ يحرك وحداته المدفعية إلى الأمام، يبدو أكثر فأكثر كما لو كان عازماً على عبور الحدود والسعي إلى احتلال الكويت. في يوم الأربعاء الواقع في الأول من آب/أغسطس 1990، جاء الجنرال نورمان شوارتزكوبف، القائد الأعلى للقيادة المركزية الأمريكية، المسؤولة عن الجزء الأكبر من الشرق الأوسط، إلى البنتاغون لإطلاعي على ما استجد. سبق لي أن التقيت شوارتزكوبف، رجل ضخم، مهيب جسدياً، مع مزاج مواكب على ما يبدو، إلا أنني لم أكن أعرفه جيداً. أمعنت النظر إليه، راغباً في التأكد من أنه الرجل المناسب لقيادة عملياتنا عبر ما كان ينتظرنا. أحد أهم الأشياء التي كنت أستطيع أن أفعلها في أي أزمة كان الوقوف على حقيقة توفرنا على الأشخاص المناسبين في مواقع المسؤولية.

كان شوارتزكوبف يعرف ما قدمه من إيجاز، إلا أن رسالته لم تكن مطمئنة. قال: من المحتمل أن يتوغل صدام في الكويت، ربما لاحتلال حقل نفط الرميلة أو للاستيلاء على جزيرتين موضوعي نزاع خلف الحدود مباشرة: وربه وبوبيان.

لاحقاً في تلك الليلة، كنت في البيت بماكلين حين تلقيت مكالمة من

معاوني العسكري، الأميرال بيل أونز. كان العراقيون قد عبروا الحدود وتوغلوا في الكويت.

لدى اجتماع مجلس الأمن القومي صباح اليوم التالي، كانت القوات العراقية قد زحفت عبر الصحراء وصولاً إلى مدينة الكويت ـ العاصمة. كان ثمة رتل دبابات آخر يتقدم جنوباً نحو الحدود الكويتية ـ السعودية. جرت دعوة فريق إعلاميي البيت الأبيض في ذروة الاجتماع وأراد المراسلون معرفة ما كانت الولايات المتحدة عازمة على فعله. هل كان الرئيس سيستخدم القوة؟ رد الرئيس بوش قائلاً: "لست بصدد التفكير بمثل هذه الأفعال". أظن أنه قال ما قاله لأننا لم نكن حتى قد بدأنا مناقشة الغزو. هل كان هذا حدثاً استراتيجياً مهماً؟ هل يهم، من وجهة نظر الولايات المتحدة، أن يكون العراق قد استولى على الكويت، ذلك البلد الصغير البعيد على الخليج العربي؟ في النقاش الذي تلا، ألمح كولن باول إلى أنه لم يكن مقتنعاً بأن الأمر مهم، إلا أنه بدا لي مهماً بالتأكيد. على أحد دفاتر ملاحظات البيت الأبيض سجلت ملاحظات عن الجبروت الاقتصادي الهائل الذي من شأن صدام أن يحصل عليه من الكويت، كيف أن ثروة الأخيرة من شأنها أن تمكنه من حيازة قدرات متزايدة التطور، أسلحة كيميائية، وأسلحة نووية، وصواريخ بالستية. كان واضحاً أيضاً، بنظري، أن علينا أن نصدر بيان التزام قوي بالمملكة العربية السعودية، التي كان صدام حسين يفكر، دون أدنى شك، بحقولها النفطية. بعد احتلال الكويت بات صدام متحكماً بـ 20 بالمئة من الاحتياطي النفطي العالمي. وكان من شأن عملية الاستيلاء على المنطقة الشرقية من السعودية أن تمكنه من 50 - 45 بالمئة من هذا الاحتياطي.

بعد انتهاء اجتماع مجلس الأمن القومي، تهيأ رئيس الجمهورية للمغادرة إلى آسبن الكولورادية، حيث كان مبرمجاً أن يلقي كلمة عن قوة أمريكا العسكرية فيما بعد الحرب الباردة. فمع سقوط جدار برلين وانهيار الوضع السوفييتي في أوروبا الشرقية، كان ثمة ضغط متنام في واشنطن لتعديل استراتيجيتنا القومية وميزانيتنا الدفاعية. كنا في وزارة الدفاع قد ركزنا على بنية جديدة للقوات المسلحة تدعى "القوة الأساسية" وعلى استراتيجية إقليمية من شأنها أن تمنع

أي خصم من امتلاك قدرة التحكم بجزء من العالم يكون حيوياً بالنسبة إلى مصالحنا.

ذهبنا، باول وأنا، إلى الكابيتول هيل لإطلاع أعضاء الكونغرس على مفهوم "القوة الأساسية"، غير أن كل ما كان الجميع مهتمين به فعلاً هو ما كان يحصل في الكويت. بعد الجلسة على الهيل، توجهنا، باول وأنا، إلى مكتبي حيث أُطلعنا على آخر الأنباء من الجنرال توم كيلي، رئيس عمليات هيئة الأركان المشتركة، عن الغزو العراقي. بعد انتهاء كيلي من كلامه، درت إلى باول وسألت: "ما الخيارات التي نملكها للرد؟" أجاب باول قائلاً إن الخيارات قيد الاجتراح، وبدأ يناقش هواجس سياسية داخلية، واستطلاعات رأي عام، ونظرة الجمهور الأمريكي إلى الكويت: دولة صغيرة، إمارة وراثية على بعد ستة آلاف ميل، حسب تعبيره، وليس من شأن الشعب الأمريكي أن يؤيد عملاً عسكرياً لإعادة الأمير إلى عرشه.

بدا باول أكثر راحة وهو يتحدث عن أرقام استطلاعات الرأي منه وهو يوصي بخيارات عسكرية. كولن بالذات كان جزءاً من ذلك، أسلوب تناغمه مع استحسان الجمهور، غير أن الإصغاء إليه جعلني أيضاً أتذكر كيف كانت فيتنام قد شكلت آراء كبار جنرالات أمريكا. كانوا شهوداً على أنّ فقدان الدعم الشعبي للحرب الفيتنامية قد أدى إلى زعزعة المجهود الحربي إضافة إلى تلطيخ سمعة العسكر. كان ثمة رأي في البنتاغون، وأنا شديد التعاطف معه، يقول إن القيادة المدنية كانت قد أفسدت القضية في فيتنام عبر الإخفاق في اتخاذ قرارات صعبة كانت مطلوبة لامتلاك فرصة التفوق.

تفهمت الموقف الذي كان باول ينطلق منه، إلا أنني لم أستطع قبوله. فمسؤوليتنا في وزارة الدفاع كانت ضمان تزويد رئيس الجمهورية بطيف كامل من الخيارات للدراسة. ليس ثمة أي جهة أخرى في الحكومة قادرة على تزويده بهذه الخيارات. هناك جيش جرار من الأشخاص القادرين على إعطائه طوفاناً من النصائح السياسية. أنهيت الاجتماع، وبعده صرت، رغم تعاملنا عادة من منطلق المخاطبة بالاسم الأول، أخاطب باول رسمياً. قلت: "أنا بحاجة إلى بعض الخيارات، أيها الجنرال!" كانت المسألة التي نحن بصددها بالغة الجدية، وأردته أن يدرك أنه كان يتلقى أمراً. رد قائلاً: "نعم، سيادة الوزير!"

مع خروج باول من باب مكتبي، رفعت سماعة الهاتف، ضغطت زر الاتصال مع الأميرال أونز، وطلبت منه أن يأتي للحظة. قلت: "أريدك أن تبادر إلى جس نبض النظام، واكتشاف ما لدى سلاح البحرية، وما يفكر به المعنيون، وطبيعة الرد الممكن". وبعد بضع دقائق عقدت الحوار نفسه مع معاوني العسكري الأدنى، المقدم الجوي غاري تركسلر، طالباً منه جس نبض مخططي سلاح الجو. أردت معرفة كم عدد حاملات الطائرات القابلة للنشر، وأسراب الطائرات القابلة للإرسال، ومدى سرعة الوصول إلى هناك. لم يكن الجنرال باول سعيداً حين علم أن معاوني العسكريين كانا يدرسان إمكانيات سلاحيهما، وأسكتهما كليهما. إلا ان الرئيس كان يريد خيارات، وكنت أريد أن أطلق رسالة تحمل معنى عزمي على تمكينه من الحصول عليها.

جلستُ خلف طاولتي بعد ظهر ذلك اليوم، وملأت عدداً من صفحات دفتر حقوقي أصفر، مستعرضاً عواقب تحرك صدام ومدرجاً الأسئلة الواردة بذهني حولها. كتبت: "ألا ينبغي لهدفنا أن يكون إخراجه من الكويت؟ أليست تلك أفضل الاستراتيجيات على المديين القصير والطويل؟" استعرضت الخيارات العسكرية وتوصلت إلى استنتاج: "ليس من المحتمل لأي خيار غير عسكري أن يتمخض عن نتيجة إيجابية". وكتبت أن مفتاح الوضع كان متمثلاً بـ "قوة الولايات المتحدة العسكرية - الشيء الوحيد الذي يخافه صدام حسين". وكان من شأن مفتاح نجاحنا أن يتمثل بـ "التصميم على استخدام ما هو ضروري من القوة".

في اجتماع مجلس الأمن القومي، يوم الجمعة، الثالث من آب/أغسطس، بات واضحاً أن موقف سكوكروفت كان قريباً من موقفي. كان ثمة، ببساطة، مخاطر كثيرة جداً كامنة، حسب كلامه، في إذعاننا لقيام العراق باحتلال الكويت. كنا بحاجة إلى قوات في المنطقة، وكانت السعودية هي المكان المنطقي، ولكن السعوديين كانوا، كما أشرت في الاجتماع، معارضين تقليدياً لأي وجود أمريكي على أرضهم.

إلا أن من شأن ذلك أن يتغير إذا فهم السعوديون أن قواتنا جوهرية لحمايتهم، وطلب سكوكروفت مني ترتيب إيجاز للأمير بندر، السفير السعودي في الولايات المتحدة، حول التهديد الذي تتعرض له السعودية وما نستطيع أن نفعله

للدفاع عن المملكة. كان الطيار الحربي السابق بندر ذا حضور اجتماعي، أكبر من الحياة في واشنطن، سفيراً فريد الفعالية ذائع الصيت بروحه المرحة، وبسيجاره، وبصداقاته مع الجميع بدءاً بجورج بوش وانتهاء بجيري جونز، صاحب محل دالاس كاوبويز. قال سكوكروفت إن الرئيس أراد إطلاع بندر على كل شيء عن خطة عمليات 90 - 1002، الخطة التي أعدتها القيادة المركزية للدفاع عن مصالحنا في الخليج. لم تكن قد استُكملت، وكان من شأنها، كسائر الخطط الحربية، أن تتعرض للتعديل بفعل الأحداث على الأرض، غير أنها كانت قادرة على تمكين بندر من معرفة مدى قوة الرد الذي كنا عاكفين على تأمله.

لاحقاً في ذلك اليوم، قبل وصول بندر، كنت قد عقدت خلوة أخرى مع باول. أردت التأكد من أنه فهم أن هدف اجتماعنا لم يكن بحث ما كان من الممكن أن يقبله الجمهور الأمريكي، أو مناقشة بدائل استراتيجية. قلت بوضوح: "هدفنا هو إعطاء بندر الشرح الوافي والكامل لعملية 1002 [OP 1002]، نريده أن يعرف مستوى الالتزام العسكري الذي يعتزم رئيس الجمهورية اعتماده".

كان بندر مسكوناً بالشك في الجزء الأول من اللقاء. ذكّرنا بقصة قيام الرئيس جيمي كارتر، عندما تمت إطاحة شاه إيران، أرسل سرباً غير مسلح من طائرات الإف ـ 15 إلى المملكة، مخيباً أمل السعوديين وتاركاً ذكرى أليمة توحي بأن أمريكا حليفة لا يعوَّل عليها. أكّدت لبندر: "نحن جادون هذه المرة".

عرضنا عليه صور الأقمار الصناعية لقوات عراقية محتشدة الآن بالقرب من الحدود السعودية. ثم أوجز له باول عما كانت الولايات المتحدة مستعدة لتفعله دفاعاً عن المملكة، ناشرة حشداً من الفرق، والدبابات، والمدافع، والبوارج. سأل بندر: "ما عدد القوات التي نتحدث عنها؟" عند انتهاء الإيجاز. قلنا له: "مئة وخمسين إلى مئتي ألف". فوجئ بالرقم، إلا أننا أقنعناه بأننا كنا نعني ما نقول. قلنا إنه لن يكون أي تكرار لطائرات إف ـ 15 غير مذخرة. أكدت له أننا بحاجة للشروع في نشر القوة بأقصى سرعة ممكنة. لم يكن لدينا وقت نضيعه فيما يدأب صدام حسين على استجماع القوة والتخطيط للخطوة التالية. أفاد بندر بأنه سيغادر تلك الليلة لإطلاع الملك فهد على الخطة. قال إنه سيؤيد النشر وسيوحي لملكه بأن الأمر عاجل وملح.

دعا رئيس الجمهورية إلى اجتماع آخر لمجلس الأمن القومي يوم السبت الواقع في 4 آب/أغسطس بكامب ديفيد. اجتمعنا في بيت لورل، مكان اجتماعات ابتناه الرئيس نيكسون. في الغرفة الرئيسية المطلة على الغابة، موقد، وجهاز تلفزيون، وبيانو، وطاولة زهر، وبار. ثمة غرفة طعام أيضاً، ومكتب صغير للرئيس، وقاعة مؤتمرات للاجتماعات الكبرى. خلال فترة جورج أتش دبليو بوش الرئاسية كانت طاولة المؤتمرات مجهزة بنماذج طائرات معروضة أسفل وسطها.

أوجز الجنرال شوراتزكوبف عن خطة عملية 90 - 1002 ـ طبيعة القوات التي كنا سنستخدمها والمدة التي كان نشرها سيتطلبها. أكد أن أشهراً ستمر قبل أن تكون لدينا قوة فعالة على الأرض، الأمر الذي أدى إلى تعزيز قلق كان يقض مضاجع كثيرين منا: قلق من احتمال زحف صدام على حقول النفط السعودية قبل ان تتوفر لدينا قوات كافية على الأرض لوقفه. خلال الأيام القليلة التالية كانت جملة تقارير سترد متحدثة عن قرب موعد إقدام صدام على عبور الحدود السعودية. محللو استخباراتنا بدوا الآن، بعد أن غفلوا عن غزو صدام للكويت، راصدين إشارات دالة على غزوه للسعودية في كل مكان.

بقدر لافت من السرعة بات واضحاً أننا أمام خيارات قليلة إذا لم توافق السعودية على استقبال القوات الأمريكية. ربما كانت إسرائيل مستعدة لاستقبال قواتنا، غير أننا لم نكن قادرين على شن أي عمل عسكري ضد بلد عربي من أرض إسرائيلية. تركيا كانت خياراً آخر، فيها قاعدة أمريكية كبرى في إنجرليك، ولكن المسافات كان من شأنها أن تنطوي على تحديات لوجستية فعلية. فيما نحن بكامب ديفيد، بلغنا نبأ أن السعوديين غير مرتاحين إزاء فكرة وجود قوات أمريكية في المملكة. مع انفراط عقد الاجتماع أمسك الرئيس بوش بالهاتف للتحدث مباشرة مع الملك فهد.

بعد عدد من الساعات، كنت عائداً إلى البيت في ماكلين عندما اتصل سكوكروفت ليقول إننا بحاجة إلى فريق نوفده لإطلاع السعوديين بإيجاز على النشر المحتمل للقوات. أفاد سكوكروفت بأنه سيقود الفريق ويخطط لاصطحاب الجنرال باول. قلت له: "أنا أريد أن أقود الفريق، يا برنت. يبقى نشر القوات من مسؤولياتي، وينبغي أن أكون أنا من يضطلع بمهمة قيادة الفريق". وافق

سكوكروفت قائلاً: "أوكي، سأنقل ذلك، إذن، إلى الرئيس". بوصفه مستشاراً للأمن القومي، كان سكوكروفت وسيطاً نزيهاً. كنت واثقاً من أنه كان، رغم احتمال رغبته في قيادة الرحلة بنفسه، سينقل طلبي، بأمانة، إلى رئيس الجمهورية. بعد قليل أعاد الاتصال ليقول إن الرئيس وافق على أن أكون أنا قائد الفريق.

كذلك كنت متخوفاً من اشتراك باول بوصفه موظفاً عسكرياً كبيراً. سبق له أن كان متردداً في المناقشات الدائرة حول الخيارات العسكرية، وكنا بحاجة إلى إقناع السعوديين بقبول القوات ـ وقبولها الآن. لم أكن مطمئناً إلى أن باول كان سيوصل رسالة قوية لا بد من أن يسمعوها. يضاف إلى ذلك، كنا، باول وأنا، نحاول ألا نكون خارج البلاد في الوقت نفسه. قررت أن باول سيبقى هنا، وأن الجنرال شوارتزكوبف سيقدم الإيجاز العسكري أمام السعوديين.

لم يكن مدى استعداد السعوديين لاستقبال مثل هذا الفريق ذي المستوى الرفيع واضحاً. قام سكوكروفت بتشغل الخطوط الهاتفية معهم طوال بعد الظهر وعبر الليل. قال لهم: "من الأفضل أن يكون الرد إيجابياً إذا أوفدنا تشيني". من شأن خذل وزير دفاع الولايات المتحدة أن يشكل نكسة صارخة. أخيراً، وافق السعوديون، صباح يوم الأحد، على استقبالي.

غادرنا من قاعدة آندروز الجوية بعد ظهر ذلك اليوم، الأحد، 5 آب/أغسطس، على متن إحدى طائرات أسطول الـ 707 التي كنت أستخدمها كوزير للدفاع. بعض هذه الطائرات كانت قد استُخدمت بوصفها طائرات سلاح الجو رقم واحد من قبل رؤساء الجمهورية: كنيدي، وجونسون، ونيكسون. إحداها، ذات الذيل رقم 26,000، كانت هي التي أقلت الرئيس كنيدي إلى دالاس في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1963، وأعادت جثمانه إلى قاعدة آندروز الجوية في آخر ذلك اليوم المأساوي. بعد تعزيز الأسطول بطائرات أجدّ للاضطلاع بدور طائرة سلاح الجو رقم واحد، صارت الطائرة 26,000 وطائرات 707 أخرى تُستخدم لنقل الوزراء.

قبيل الإقلاع بلغني نبأ التصريح القوي الذي كان الرئيس قد أدلى به على مسامع إعلاميين في المرج الجنوبي بالبيت الأبيض. كان قد قال: "هذا لن يمر،

هذا عدوان على الكويت". جالساً في قمرة الـ 707، دونتُ ملاحظات إعداداً لتقرير سيتم تقديمه للملك فهد، يعكس كلمات الرئيس ويسلط الضوء على مخاطر الإذعان. كتبت على دفتر رسمي أصفر: "يجب عدم السماح" لصدام حسين "بأن يفلت من العقاب، بأن يكسب من عدوانه".

سيغدو أقوى - لا سيما إذا امتلك تلك الثروة الكويتية. سوف يهيمن على الخليج. سوف يفرض سيطرته على الأوبك. سيحصل على كميات أكبر وأكثر جهنمية من الأسلحة التي ستتيح له فرصة الهيمنة الكلية على المنطقة. سيتعين علينا أن نتعامل معه في هذا المنعطف أو ذاك - سيكون الآن أسهل - معاً - وجزءاً من جهد دولي.

خلال الرحلة، عدت إلى قسم جهاز العاملين في الطائرة وطلبت من موجز وكالة المخابرات المركزية (السي آي إيه) أن يقدم التقرير الذي أعده للملك. كان التقرير تقنياً وملتبساً، ولم يكن يوحي بمدى إلحاح الوضع وخطورته. ألغيت ذلك الجزء من الإيجاز وقررت أن نتولى شوارتزكوبف وأنا تناوله. فيما بعد كان معي سفيرنا في السعودية، تشارلز فريمان؛ جاء يطلعني على ما هو متوقع. أوصاني: "كن حذراً! إذا كنت مفرط الحماسة أو تحدثت عن قوة أكبر مما ينبغي، فسوف يتردد السعوديون ولن يلتزموا". وقال أيضاً: "عليك أن تكون مستعداً للانتظار في الرياض ساعات أو حتى أياماً. هم لا يتخذون قراراتهم بسرعة، ومن المؤكد أنهم لن يتخذوا قراراً سريعاً بشأن أمر على هذه الدرجة من الأهمية".

حطت طائرتنا في جدة في الساعة الثانية بعد الظهر، بالتوقيت السعودي، نزلنا من الطائرة وذهبنا إلى أحد قصور الضيافة الملكية. زارني بندر فيما كنا ننتظر اجتماعنا مع الملك. كان قد تغير؛ لم يعد مرتدياً أحد أطقم سافيل رو التي اشتُهر بها في واشنطن؛ كان في الجلباب التقليدي لأي أمير سعودي. قال: "من المهم جداً أن تبين للملك أنكم جادون". أرادني أن أصل إلى درجة اليقين أن الملك بات متأكداً من أننا كنا سنرسل قوة كبيرة وسنفعل ذلك بسرعة. وأضاف بندر: "لا يمكنكم أن تبدوا حذرين أو غير مستعدين للإقدام على فعل ما هو ضروري. فأنت تطلب من الملك أن يُقْدِم على مخاطرة كبرى بالسماح لقوات

أمريكية بالانتشار فوق التراب السعودي، وعليك أن تقنعه بأن الولايات المتحدة حليفة جديرة بالثقة". بعبارة أخرى، كان بندر ينصحني بما هو مناقض تماماً، 180 درجة، للنصيحة التي سمعتها قبل ساعات على متن الطائرة من سفير الولايات المتحدة. قررت الاهتداء بما قاله بندر.

نحو السابعة مساءً، تمت دعوتنا إلى اجتماعنا مع الملك. كان ولي العهد الأمير عبد الله هناك، مع كل من وزير الخارجية سعود الفيصل ونائب وزير الدفاع عبد الرحمن. كان الأمير سلطان، وزير الدفاع ووالد بندر، خارج البلاد، إلا أنه كان سيعود صباح اليوم التالي. جلسنا في أرائك منفوخة حشواً مصفوفة على شكل زاوية قائمة، حرف ال "L"، فريقي - بمن فيه شوارتزكوبف، وبول وولفويتز، والسفير فريمان، وبوب غيتس، أحد وزراء الدفاع في المستقبل ونائب سكوكروفت آنذاك - على أحد ضلعي الزاوية والسعوديون على الضلع الآخر. الملك وأنا جلسنا في المركز، مع بندر بيننا متراجعاً قليلاً لتولي الترجمة. خدم تتدلى مسدسات مجوربة من أوساطهم، يحملون أباريق فضية بيد وصفوفاً طويلة من الفناجين الصغيرة بالأخرى، ظلوا يدورون في الغرفة ويصبون القهوة العربية لكل منا.

خلافاً لجميع اللقاءات التي سبق لها أن كانت لي مع الأسرة الملكية السعودية، لم يكن ثمة أي لغو. بوضوح شديد كان الملك راغباً في طرق الموضوع المطروح مباشرة، وبدأت أنا بتأكيد التزام الولايات المتحدة بالسعودية والتشديد على الخطر المتمثل بصدام. قلت: "إن رئيس الجمهورية عاكف شخصياً على اجتراح تأييد دولي لعمل اقتصادي، ودبلوماسي، وعسكري ضد العراقيين، غير أن علينا في هذه الأثناء أن نحول دون حصول هجوم على السعودية". وأضفت إن من شأن الردع العسكري أن يكون حاسماً "نظراً لأن التدابير الاقتصادية بدأت تلدغ، وقد ينجذب صدام، شاعراً بالألم، إلى إغراء استهداف الخارج بهجوم عنيف".

طلبت من الجنرال شوارتزكوبف إطلاع مضيفينا بقدر أكبر من التفصيل على القوات التي كان صدام قد نشرها على امتداد الحدود بين الكويت والسعودية. قال نورمان إن صدّاماً في وضع يمكّنه أن يشن هجوماً في يوم أو

اثنين. كذلك تحدث عما كانت الولايات المتحدة مستعدة لفعله، طائرات الإف ـ 15 التي كانت ستنشر مباشرة والفرق الجوية والبرية التي كانت ستتبع.

في ختام إيجازه، أكدت أننا سنبقى المدة التي يراها السعوديون وسنغادر لحظة يريدون، كما شددت على أهمية التحرك بسرعة. إذا انتظرنا "إنذاراً بهجوم لا لبس فيه" فإن من شأن الفرصة أن تكون قد ضاعت. راح السعوديون يتناقشون فيما بينهم بالعربية. توقف بندر عن الترجمة. علمت لاحقاً أنه ساد بينهم نوع من الشعور بعدم الحاجة إلى أي قرار مستعجل، وبأنهم قادرون على الانتظار. ولكن الملك فهد ما لبث أن وضع حداً لمثل ذلك المنطق، قائلاً: "انتظر الكويتيون، والآن هم مقيمون في فنادقنا".

دار الملك نحوي وقال: "أوكي!" كان يعرف أن قراره كان إشكالياً، غير أنه لم يبال، كما أكد، لأن السعودية نفسها كانت في خطر.

بعد العودة إلى قصر الضيافة أوعزت لجو لوبين، معاوني العسكري الجديد، بأن يصلني بالرئيس. حين صارت غرفة عمليات البيت الأبيض على الخط، رفعت سماعة أحد الهواتف المكرّسة للحكومة الأمريكية والتي يتم توصيلها حيثما يذهب وزير الدفاع. صار الرئيس على الخط من المكتب البيضوي، وإلى جانبه رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر. كانت قد عادت معه إلى واشنطن من آسبن. قلت: "سيادة الرئيس، لقد وافق السعوديون على استقبال قواتنا. هل أنتم موافقون على أن نباشر الانتشار؟" ورد الرئيس: "نعم، يا ديك، هيا بادر!" شكرت الرئيس، وطلبت وصلي بالجنرال باول، قلت له: "ابدأ عملية النشر يا كولن!" في غضون ساعات بعد اتصالي وصلت مقاتلات الإف ـ 15 النفاثة من قاعدة لانغلي الجوية إلى السعودية وراحت تحلق في دوريات قتالية. وفي اليوم التالي وصلت العناصر الأولى من اللواء الجاهز من الفرقة 82 المحمولة جواً؛ وتحركت حاملة الطائرات يو إس إس آيزنهاور نحو قناة السويس والـ يو إس إس أنديبندنس نحو خليج عمان. في غضون أسبوع واحد كانت قد وصلت طلائع قوات المارينز الأمريكية، ثم السفن الثلاث المتقدمة، والطائرات المضادة للدبابات من طراز A10، وثلاثة آلاف رجل من الوحدة 101، وثماني عشرة طائرة إف ـ117. ذلك كله بدأ يحصل نتيجة اتصال هاتفي واحد.

عاد وزير الدفاع سلطان تلك الليلة، والتقينا صباح اليوم التالي. أراد أن يطمئن إلى أن يكون واضحاً للعالم أن السعودية كانت قد دعت القوات الأمريكية، كما طلب تأكيدات بعدم الإعلان عن الانتشار إلى أن تكون وحداتنا قد وصلت. وعدته بالأمرين كليهما.

غادرت جدة متوجهاً إلى مصر، حيث كان مبرمجاً لي أن ألتقي الرئيس مبارك في بيته الصيفي بالإسكندرية على البحر الأبيض المتوسط. مع قيظ الصيف إلى حمولة كاملة من الوقود، تطلبت طائرتي الـ 707 مدرجاً للهبوط والإقلاع أطول من ذلك الموجود في مطار الإسكندرية، ما جعلنا نتوقف في القاهرة حيث ركبت حوامة كنغ بيتش إيركرافت قديمة مستخدمة في السفارة الأمريكية للتنقل داخل مصر. حين هبطنا في الإسكندرية، توقفنا بجانب طائرة أكبر بكثير على خاصرتها صورة العلم العراقي. كان ممثل صدام، معاونه اللصيق عزت إبراهيم الدوري، في جولة على الحكومات العربية محاولاً تشجيعها على عدم الذهاب إلى الحرب من أجل الكويت، وتعين علي أن أنتظر في إحدى غرف الانتظار بالقصر الجمهوري إلى أن أنهى الدوري اجتماعه مع الرئيس مبارك.

مع خروج الممثل العراقي من باب، دخلت أنا من آخر، ووجدت الرئيس مبارك شديد الغضب. أفاد بأن العراقيين كانوا قد خدعوه. قبل أيام قليلة فقط من الغزو، كانت البلدان العربية كلها مجتمعة في قمة للجامعة العربية، وعلى العشاء في إحدى الأماسي، كان العراقيون قد عرضوا مشهداً بالغ الإثارة إذ جلسوا بجانب الكويتيين وراحوا ينادونهم بـ "إخوتنا" واعدين بعدم الاجتياح.

حين أبلغت الرئيس مبارك بأن السعوديين كانوا قد وافقوا على نشر قوات أمريكية، عبر عن الاستعداد للمساعدة. سأل: "ما الذي تريدونه؟" طلبت منه حقوق التحليق بما يمكّن طائراتنا من الطيران عبر المجال الجوي المصري. وافق مبارك. قلت له إننا بحاجة لإذن يمكّن حاملة الطائرات يو إس إس آيزنهاور العاملة بالطاقة النووية من عبور قناة السويس. عادة لم يكن المصريون يرتاحون لعبور أي سفن عاملة بالطاقة النووية قناة السويس، وكان من شأن استصدار

الإذن أن يستغرق أسابيع، إلا أن الرئيس وافق فوراً. سأل: "متى ستأتي؟" قلت: "الليلة". كذلك أبلغني مبارك بأنه خطط لعقد اجتماع للجامعة العربية لمناقشة الأزمة، وعبّر عن تأييد قوي لجهود الولايات المتحدة على صعيد الدفاع عن السعودية. على امتداد الأزمة كان الملك فهد والرئيس مبارك سيثبتان أنهما اثنان من أهم حلفاء أمريكا في المنطقة.

بعد ظهر ذلك اليوم غادرتُ مصر وتوجهتُ نحو واشنطن. مع تحليق طائرتي فوق البحر الأبيض المتوسط تلقيت اتصالاً من الرئيس بوش. كان للتو قد تحدث مع الملك المغربي الحسن وطلب مني أن أتوقف هناك في طريق العودة. أرادني أن أُطلع الملك على خططنا وعلى مباحثاتي مع السعوديين والمصريين. لأن المحطة لم تكن متوقعة، تعيّن على طاقم طائرتنا الحصول على خرائط هبوط عن طريق الفاكس.

حطت طائرتنا في مراكش في منتصف الليل، ثم انتقلنا في رتل من السيارات إلى القصر الملكي. طلبت عقد خلوة مع الملك، ما يعني عملياً وجود ثلاثة أشخاص في الخلوة: الملك، وأنا، ومترجمه. سأل الحسن عما إذا كانت المعلومات التي أريد مناقشتها سرية. قلت: "نعم، إنها سرية للغاية". أخرج علبة صغيرة من ثنية جلبابه وقدمها إلى مترجمه، الذي حملها بيديه فيما تبادل مع الملك بضع كلمات بالعربية. ثم قام المترجم بإعادة العلبة إلى الملك الذي أعادها إلى جيبه. لاحظ الملك الذي يتحدث الإنكليزية قليلاً أني فضولي، فشرح لي ما حصل قائلاً إن المترجم كان قد أقسم للتو على القرآن ملتزماً بعدم البوح بالمعلومات التي يوشك على سماعها. تأثرت بذلك. بدا الأمر وكأنه نظام لضمان السرية فعال إلى حد كبير - وقابل أيضاً للحمل على نحو مريح.

أبلغت الملك بأن السعوديين كانوا قد وافقوا على استقبال قوات أمريكية وبأن الرئيس مبارك كان مؤيداً هو الآخر. تابعت الكلام شارحاً أن الرئيس بوش سيعلن نبأ النشر قريباً ويريد أن يبقى الملك مطلعاً على تفاصيل خططنا. عندما انتهى كلامي، قال لي الملك الحسن إنه مستعد لإرسال قوات مغربية للخدمة جنباً إلى جنب مع الأمريكيين.

نزلت عائداً في قاعدة آندروز الجوية في الساعة الثالثة والدقيقة العشرين

من فجر يوم الأربعاء الواقع في الثامن من آب/أغسطس 1990، وبعد فترة توقف في البنتاغون، ذهبت إلى البيت الأبيض لحضور اجتماع فطور في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة مع بيكر وسكوكروفت. وفي الساعة الثامنة صباحاً تماماً، نفس الساعة التي كانت فيها طائراتنا تهبط في السعودية، دخلت المكتب البيضوي لإطلاع الرئيس على خلاصة رحلتي. وفي التاسعة تماماً خاطب الرئيس بوش الأمة معلناً نشر قوات أمريكية في صحراء المملكة العربية السعودية.

أعتقد أن غرقي في النوم وأنا جالس في الأريكة الملاصقة لأريكة الرئيس في غرفة مجلس الوزراء حصل في اجتماع عُقد بعيد إعلان الرئيس ـ لم يكن الأمر مجرد غفوة عابرة، بل غرقاً في نوم عميق فاغر الفم مع شخير مسموع. ربما لأن برنت سكوكروفت كان قد جعله يألف مثل هذا السلوك عبر الكبو بين الحين والآخر، لم ينزعج الرئيس، ولكنه أصر على التسجيل بل واستدعى أحد المصورين. لاحقاً، في إحدى ولائم عشاء المجلس، قدم لي جائزة برنت سكوكروفت الممتازة للنوم.

في السابع عشر من آب/أغسطس انطلقتُ في رحلتي الثانية إلى الخليج خلال أسبوعين. وعلى الطريق في الجو عاينت المعاني الكامنة في تقارير كنا نتلقاها عن استعداد صدام لغزو المملكة العربية السعودية. لو شن هجوماً لكان استولى على إنتاج النفط السعودي أو شلّه، ولاستطاع تعطيل عمليات الانتشار الأمريكية، ملحقاً الهزيمة بقواتنا. ثمة كانت كل الأسباب الدافعة له إلى فعل هذا. كانت قوات صدام في ذروتها، غير متأثرة بعد بالحظر الذي كنا قد فرضناه والذي كان سيحرمه من فرصة الحصول على أشياء معينة مثل قطع التبديل والذخائر. أما القوات الأمريكية والسعودية، بالمقابل، فكانت في أضعف حالاتها، ولم تكن ستكتسب القوة إلا بمرور الوقت وعمليات الانتشار الأمريكية المتزايدة. دعوت كلاً من كولن وبرنت إلى التأكد من أننا نعمل على هذا الاحتمال ـ فطمأناني إلى أننا فاعلون. غير أننا ما كنا قد استطعنا فعل الكثير لو كان صدام قد قرر استئناف الزحف دون توقف إلى عمق حقول النفط السعودية.

بداية ذهبت إلى السعودية، ثم توجهت إلى ثلاثة بلدان واقعة على الضفة الغربية للخليج العربي: البحرين، والإمارات العربية المتحدة، وعُمان. كان وزير الدفاع السعودي سلطان قد ساهم في ترتيب هذه الزيارات، التي تعمّدت فيها التماس حقوق انتشار إضافية لقوات أمريكية وكسب الدعم لما كان سيصبح عملية عاصفة الصحراء. كانت مساعدة الأمير سلطان أساسية لأن المملكة العربية السعودية هي الدولة العربية المهيمنة في الخليج - إنها أكبر منتجة للنفط، والأوسع جغرافياً، والأقوى عسكرياً. فمن دون موافقة السعودية كان من شأن الفوز بتعاون حلفاء الخليج الآخرين الكامل أن يبقى شبه مستحيل. وما إن بادرت السعودية إلى الانخراط حتى بات الجميع تواقين للالتحاق بركب التحالف الذي كنا عاكفين على إنشائه من أجل الوقوف في وجه صدام. تمثل الاستثناءان الوحيدان بالأردن، حيث كان الملك معتمداً على النفط العراقي، واليمن الذي كان أيضاً قد اختار المراهنة على صدام.

كان الترحيب حاراً في البحرين، الحليف القديم للولايات المتحدة ومقر قيادة نشاطات البحرية الأمريكية في الخليج العربي. وحين توقفت في الإمارات العربية المتحدة كنت أرفع الرسميين الذين سبق لهم أن زاروها. كان مضيفي هو أمير الإمارات العربية المتحدة الشيخ زايد، وهو رجل متمتع باحترام كبير لدى جميع الجيران وبالتقدير عند الشعب. وافق الشيخ زايد على استقبال طائرات السي - 130 والإف - 16. لعُمان، على مدخل الخليج العربي، أيضاً علاقات راسخة مع الجيش الأمريكي. لبعض الوقت كنا نخزن المؤن وقطع التبديل في عُمان لمجرد الاحتمال الذي واجهنا الآن. خريج الأكاديمية الملكية العسكرية الإنكليزية في ساندهيرست، السلطان قابوس كان أيضاً مستعداً لتوفير قواعد كانت مهمة بالنسبة إلى قواتنا الجوية والبحرية.

لم أكن قد نويت التوقف في قطر، وهي دولة اخرى على الشاطئ الغربي للخليج، بسبب العلاقات المتوترة بين دولتينا. كان القطريون قد طلبوا منا تزويدهم بصواريخ ستنغر، كما كنا قد فعلنا مع حلفائنا الوثيقين في البحرين. وحين رفضنا الطلب قام القطريون بشراء صاروخ ستنغر من السوق السوداء وعرضوا صورة على صدر صفحة جريدتهم لوزير الدفاع القطري حاملاً

الصاروخ المضاد للطائرات المحمول على الكتف. وقد تمخض الأمر حينذاك عن احتجاجات على الحكومة القطرية من جانب وزارة الخارجية الأمريكية.

إلا أن الأمير سلطان، أحد أهم حلفائنا على صعيد مساعدتنا في الحصول على موافقة عدد من البلدان العربية وتعاونها، دأب على تشغيل الخطوط الهاتفية من جدة، وفي ساعة متأخرة من النهار اتصل ليقول إنه كان على اتصال مع القطريين الذين باتوا مستعدين للترحيب بالزيارة. كانت تلك محطة جديرة بالتذكر، استُقبلت في قصر جميل من قبل الأمير ونجله. وفي ظل حكم الابن، وهو الآخر أحد خريجي ساندهيرست، أصبحت قطر موقع قاعدة عسكرية أمريكية مهمة، ربما القاعدة الأكثر أهمية في المنطقة، على الرغم من أن تصرفات قطرية معينة ستكون متضاربة مع مصالح أمريكية. في نهاية حديثنا، عدت إلى المطار مصحوباً بوزير الدفاع. لم يكن قد حضر الاجتماع مع الأمير وكان واضح الفضول لمعرفة خططنا. التفت إلي في المقعد الخلفي من سيارة الليمو المصفحة وسأل: "هل أنتم، إذن، مقبلون على ضرب صدام بالأسلحة النووية؟" قلت: "لا، لم تكن تلك هي الخطة".

فيما كنا عاكفين على حشد قوات لعملية بتنا نطلق عليها اسم "درع الصحراء"، سافر عدد كبير من كبار ضباط القوات المسلحة إلى الخليج العربي. وطار رئيس أركان سلاح الجو مايك دوغان وعدد من جنرالات هيئة أركانه إلى السعودية في منتصف أيلول/سبتمبر. كان الجنرال دوغان قد نُصح بألا يصطحب أي إعلام في الرحلة إلا أنه تجاهل النصيحة وقضى ساعات طويلة في الطريق ذهاباً وإياباً متحدثاً مع عدد من الإعلاميين.

صباح الأحد الواقع في 16 أيلول/سبتمبر، 1990، فتحت بابي الأمامي وسحبت الواشنطن بوست عن شرفتي الأمامية، قبل عودتي إلى الغرفة، رأيت المانشيت: "تعويل الولايات المتحدة على الضربات الجوية إذا اندلعت الحرب". قرأت المادة إلى النهاية، ومؤشر غضبي يتصاعد. خلال ساعات مقابلات الطائرة، من الواضح أن دوغان تحدث مع الإعلاميين عن أهداف معينة سنضربها إذا نشبت الحرب ـ صدام شخصياً، وعائلته، وعشيقته. كان قد تحدث عن أعداد

وأنماط الطائرات المنشورة في المنطقة، معلناً أن "القوة الجوية" ستكون "الرد الوحيد المتوفر لبلدنا" إذا أردنا تجنب حرب برية دامية، وقال إن من شأن الجمهور الأمريكي أن يؤيد العملية في الخليج - "حتى تبدأ أكياس الجثث بالوصول".

هاتفت سكوكروفت الذي كان مبرمجاً أن يظهر في برنامج "واجه الأمة" لدى قناة السي بي إس التلفزيونية في غضون ساعات قليلة. كان سيُسأل عن القصة. اتفقنا على أن يقوم برنت بتسليط الضوء على حقيقة أن دوغان لم ينطق باسم الإدارة. ثم خرجت للمشي مع قناة سي آند أو لاستعادة برودة الأعصاب. وبعد بضع ساعات، عدت إلى البيت، وقرأت المادة من جديد. تملكني الغضب مرة أخرى. رفعت السماعة وهاتفت الرئيس في كامب ديفيد. كان في ملعب التنس، إلا أنني حين أعاد الاتصال بعد قليل أخبرته بأنني كنت قد قررت احتمال إعفاء الجنرال دوغان من جراء تعليقاته الواردة في المقال. قال الرئيس: "لك أن تفعل ما تراه مناسباً، وأنا سأكون داعماً لك".

لم أكن مستخفاً بأفق طرد رئيس أركان سلاح الجو. كان دوغان رجلاً طيباً ذا سجل مهني مميز، شاغلاً منصبه منذ أقل من ثلاثة أشهر. إلا أنه كان قد أساء التقدير على نحو مرعب. تخوفت من إفضاء تحملي لما كان قد فعله إلى تجاوز جنرالات آخرين للخطوط الحمراء، ولم أكن، فيما الأمة مشغولة بالاستعداد لمواجهة احتمال حرب، قادراً على التسامح مع أي فلتان انضباطي في المراتب العليا. دونت ملاحظات على المقال وأدرجت قائمة بأخطر المشكلات المترتبة على ما كان دوغان قد فعله. قررت استدعاء دوغان وسؤاله عما إذا كانت القصص الإخبارية دقيقة. إذا كانت كذلك، كنت سأعفيه.

طلبت من جو لوبيز أن يبلغ دوغان أمر وجوب مراجعة مكتبي في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. قبيل الثامنة التقيت نائبي دون آتوود والجنرال باول. أخبرتهما باعتزامي إعفاء دوغان. أظن أن باول قد فوجئ. كان يعلم أن دوغان قد اقترف خطأ في البوح بكل هذا القدر من المعلومات أمام الإعلاميين، غير أنني لا أعتقد أنه صدّق أنني سأقوم بطرد دوغان من جراء هذا الأمر. لم يعترض. غادر مكتبي، إلا أنني كنت أريد شاهداً في الغرفة فطلبت من آتوود أن

يبقى. دخل الجنرال دوغان وجلس. قمت باستعراض النقاط الرئيسية في المقالات وسألت الجنرال عما إذا كان كلامه قد اقتُبس بدقة. رد بالإيجاب. قلت له إنني بحاجة إلى استقالته مع نهاية النهار. تلقى الأمر برجولة، أدى التحية برشاقة، وخرج. اتصلت بالرئيس ثانية لإعلامه بإعفائي الفعلي للجنرال دوغان.

أوصيت بالجنرال توني ماكبيك، طيار إف ـ 15، بديلاً من دوغان، وبسرعة بادر الرئيس إلى تسميته ولم يتأخر مجلس الشيوخ في تثبيته. بعد بضعة أيام قدمني ماكبيك إلى مجموعة جنرالات أربع نجوم جويين متقاعدين، قائلاً: "هذا هو وزير الدفاع ديك تشيني. هو أيضاً لم يكن الخيار الأول للرئيس".

مع مواصلة القوات الأمريكية تدفقها على الصحراء، ظل كولن باول يكرر الضغط تأييداً لفرض عقوبات طويلة الأمد، والانتظار أملاً في تمخض الضغط الاقتصادي عن إخراج صدام من الكويت. بداية لم أكن مؤمناً بالعقوبات، وكنت أرى وهم احتمال تخلي صدام عن احتياطيات العالم النفطية الكبرى ـ مئة مليار برميل تقريباً، في الكويت ـ تحت ضغط العقوبات، ضرباً من الحماقة. أضف إلى ذلك أننا لم نكن نستطيع إبقاء قواتنا قابعة في الصحراء إلى أجل غير مسمى، أملاً في نجاح العقوبات في حشر صدام. كان ثمة أيضاً موضوع تحالف الدول الذي كان الرئيس قد تولى قيادة عملية تجميعه. كان التحالف بالغ الإثارة، إلا أنه لم يكن مرشحاً لأن يدوم إلى الأبد.

في 24 أيلول/سبتمبر، حين جاءني باول ليطرح فكرة العقوبات الطويلة الأمد مرة أخرى، قلت له إن عليه أن يتقدم برأيه مباشرة أمام الرئيس. كنت أرى أن من المهم بالنسبة إلى الرئيس بوش أن يسمع آراء باول مباشرة ـ لم أكن أريد إعطاء باول فرصة زعم أننا لم نصغ إليه، بعد وقوع الأحداث. اصطحبته إلى المكتب البيضوي عصر ذلك اليوم، قلت للرئيس إن لدى الجنرال ما يقوله، وقد فعل الأخير. وبعد أسبوع أو نحوه، طلب الرئيس إيجازاً عن خططنا الخاصة باستخدام القوة لطرد صدام من الكويت.

يوم الأربعاء الواقع في 10 تشرين الأول/أكتوبر 1990، اجتمع فريق صغير في "الدبابة"، غرفة اجتماعات هيئة الأركان المشتركة في البنتاغون،

للاستماع إلى ممثل شوارتزكوبف، اللواء روبرت جونستون، وهو يوجز لنا خطة الحرب الهجومية. فالجنرال شوارتزكوبف وفريق المخططين الذين كانوا يعملون معه في الرياض، كانوا قد وزعوا خطة الحرب على أربع مراحل. انطوت المراحل الثلاث الأولى على هجمات جوية ضد القيادة، والتحكم، والاتصالات؛ وضد قواعد تموين ونخائر عراقية؛ وضد الحرس الجمهوري. أما المرحلة الرابعة فكانت ستشكل عملية الاقتحام البري. وكما قيل ذلك اليوم في "الدبابة"، كانت قوات التحالف ستتحرك شمالاً مباشرة متوغلة في قلب أكثر القوات العراقية شراسة.

لم يكن الأمر منطوياً على أي منطق. لماذا كنا سنرسل قواتنا - وبعضها خفيف التدريع - للتصادم مع النواة الشديدة التسليح لدفاعات صدام؟ لماذا لا ننعطف غرباً؟ لم أكن وحدي في طرح السؤالين. لا أحد في الدبابة بدا سعيداً بخطة الهجوم البري. الجنرال شوارتزكوبف نفسه لم يكن مرتاحاً إليها. كان قد أمر بإضافة حاشية أخيرة إلى المحاضرة تقول: "خطة الهجوم البري غير موفقة. لسنا متوفرين على القدرة اللازمة لشن الهجوم البري في هذا الوقت". خبراء التخطيط في الرياض كانوا يعتقدون أن الحاجة ستكون داعية، أقله، إلى فرقة أخرى للمبادرة إلى الاضطلاع بأي عملية هجومية برية.

رأيت أن من الضروري إطلاع الرئيس على الإيجاز مباشرة. لا بد له، بوصفه القائد العام، من أن يعرف ما تستطيع القوات في المسرح فعله وما لا تستطيعه. قمت بتمكين موجزي شوارتزكوبف من إطلاع الرئيس وبرنت سكوكروفت في غرفة عمليات البيت الأبيض على ما في جعبتهم في اليوم التالي. افتتحت الجلسة باستعراض إجمالي أمام الرئيس، شرحت فيه أن المراحل الثلاث الأولى من خطة الهجوم، وكلها جزء من الحملة الجوية، كانت جيدة التخطيط وجاهزة للتنفيذ في غضون أيام بعد صدور الأمر. كنا متمتعين بدرجة عالية من الثقة بالخطة الجوية وبقدرتنا على التنفيذ.

أما المرحلة الرابعة، الحملة البرية، فكانت أطروحة مختلفة. كان لدينا نحو 200,000 جندي في المسرح، في حين أن العراقيين كانوا قد حشدوا ما يزيد عن 400,000. لم يكن صدام قد أضاع وقتاً. كانت قواته قد أقامت تحصينات، وزرعت حقول ألغام، ونسجت شبكة إمدادات لوجستية فعالة. أكّدتُ أن خلاصة

القول هي أن الخطة جاءت منطوية على اقتراح مثقل بقدر كبير من الخطر، قائم على كل شيء يجري بصورة مثالية - دون أن يحققه أبداً، رغم أنها سلطت الضوء على إمكانية استخدام القوات الموجودة حالياً من أجل تحرير الكويت.

تولّى بستر غلوسون، وهو جنرال جوي بنجمة واحدة، تقديم صورة الحملة الجوية إلى رئيس الجمهورية ومجلس الأمن القومي. غلوسون هذا كان يعمل في شؤون تشريعية لدى بداية مجيئي إلى البنتاغون. وحين انتهت فترته كان لاري ولتش، رئيس أركان سلاح الجو آنذاك، قد عينه نائباً لقائد قوة حملة الشرق الأوسط المشتركة. اشتبهت أن يكون غلوسون قد عارض ولتش وأثار حفيظته في أمر ما، لأن تكليف ضابط جوي بمهمة على ظهر باخرة متجولة في الخليج العربي لم يكن ترفيعاً بالمطلق. ولكن التدبير لم يحقق هدفه إذا كان الغرض هو إزاحة غلوسون جانباً. فقيام صدام بغزو الكويت وضعه في عين الفعل والحركة. ها هو ذا في البيت الأبيض يتولى مهمة إطلاع القائد العام على صورة الوضع.

حين أنهى غلوسون كلامه، أوجز الجنرال جونستون حال الحرب البرية وبيّن أن لا أحد في الميدان كان معجباً بمفهوم الحل النصفي، إلا أن ذلك كان أقصى ما نستطيعه بأعداد القوات المنشورة. لم يكن الرئيس وبرنت مسرورين بالخطة. أراد الرئيس أن يعرف المدى المطلوب لامتلاك خيار هجوم بري مقنع. أجبته قائلاً إننا كنا سنوافيه بالأجوبة في أقصى سرعة ممكنة.

في صباح اليوم التالي بينت لباول أن عليه أن يذهب إلى شوارتزكوبف ويعود بخطة عملية قابلة للتطبيق. ما لم أخبره به هو أنني عزمت على دفع النظام شخصياً لضمان الحصول على مثل هذه الخطة القتالية.

بادر معاون وزير الدفاع بول وولفويتز إلى تشكيل فريق صغير لدراسة وتطوير خطة باتت تُعرف بـ "نزهة غربية". جاءت الفكرة أساساً من مساعد وزير الدفاع لشؤون الأمن الدولي، هنري رون. تبنى فريق وولفويتز، برئاسة جنرال متقاعد يدعى ديل فسّر، مفهوم رون ووسّعه إلى خطة لدفع قوات التحالف إلى داخل صحراء العراق الغربية. بدلاً من الذهاب والتوغل مباشرة في قلب الدفاعات العراقية في الكويت، كان من شأن هذه الخطة أن تنطوي على احتلال

أرض عراقية، وإجبار العراقيين على تحريك وحدات أساسية من أفضل قواتهم تصدياً لأي خطر محتمل على بغداد، وتمكين التحالف، ربما، من حيازة مناطق يستطيع الإفادة منها للمساومة على الكويت. بدأ الفريق يعمل على الخطة في السر حين غادرت في رحلة تسعة أيام إلى لندن، وباريس، والاتحاد السوفييتي.

في لندن التقيت رئيسة الوزراء تاتشر في 10 داوننغ ستريت. بعيد بدء اجتماعنا، طلبتُ من الجميع ترك الغرفة باستثنائي أنا ونظيري البريطاني توم كنغ، وأمضينا نحن الثلاثة أكثر من ساعة متحدثين عن الأزمة الخليجية. انطلقت تاتشر من تجربتها الخاصة في حرب الفولكلاند عام 1982 لاستخلاص عبر على صعيدي الاستراتيجية العسكرية وأسلوب بناء التأييد الشعبي والحفاظ عليه. كانت بليغة وصاحبة رؤيا، وجلستي معها، الجلسة المنفردة الأغلى ثمناً التي كانت لي في أثناء التأهب للحرب، سلطت الضوء على السبب الكامن وراء جدارتها بأن تعد إحدى القيادات الوطنية الأفعل والأنجح في القرن العشرين. كانت الجلسة أيضاً قريبة من نهاية حياتها السياسية. فبعد شهر ونيف كانت، في مواجهة تحديات متعاظمة داخل حزبها المحافظ، ستبادر إلى إعلام الملكة بعدم اعتزامها تولي رئاسة الوزراء مرة أخرى.

في اليوم التالي، الثلاثاء، 16 تشرين الأول/أكتوبر 1990، وصلت إلى موسكو. عند الغسق وضعت إكليل ورد على ضريح الجندي المجهول في الساحة الحمراء. كانت تلك لحظة مثيرة بالنسبة إلى أي وزير دفاع أمريكي. وبعد ذلك تم إيصالي بالسيارة إلى أحد المنتجعات (الداتشات) خارج موسكو لحضور حفل عشاء أقامه وزير الدفاع السوفييتي يازوف. في تلك الليلة الروسية الباردة، جرى رفع حشد من الأنخاب، وقد دُهشت إزاء اللحظة التاريخية. هو ذا أنا، وزير دفاع الولايات المتحدة، أتبادل الأنخاب مع أشخاص كانوا قبل بضع سنوات ألد أعدائنا وأشرسهم. رفعت كأسي: "لنشرب نخب السلم".

في صباح اليوم التالي كان لي اجتماع رسمي مع غورباتشوف في مكتبه في الكرملين. أكد أن حكومته راغبة في التوصل إلى حل سلمي لأزمة الخليج، إلا أنني تمكنت، عبر اجتماعات معه، ومع وزير الخارجية إدوارد شفرنادزه،

ووزير الدفاع يازوف، من الحصول على معلومات مهمة في حال ذهابنا إلى الحرب. سألتهم: "هل قام السوفييت ببيع أسلحة لا نعرف عنها إلى العراق؟" في سنوات سابقة، كان من المؤكد أن يرفض السوفييت الدخول في مثل هذا الحوار، أما الآن فقد طمأنوني مؤكدين أننا لم نكن لنصادف أي مفاجآت.

اصطحبني المضيفون السوفييت إلى مركز موسكو للدفاع الجوي، القابع تحت موسكو بعمق خمس وستين قدماً، ويتم الوصول إليه بعد اجتياز تسعة أبواب فولاذية. مطوقاً بعدد من الجنرالات السوفييت، جلست عند لوحة حاسوب في غرفة التحكم وتابعت وميض الخرائط المتلاحقة على الجدار، موسكو أولاً، بعدها مناطق الاتحاد السوفييتي الشرقية، وأخيراً أوروبا كلها. فيما لو نشبت حرب نووية، لكان السوفييت قد أشرفوا على بعض عملياتهم الدفاعية من هذا المقر القيادي. كنت الأمريكي الأول الذي يراه.

كذلك تمت مرافقتي إلى المدينة الروسية القديمة، تولا، موقع مركز تدريب للقوات السوفييتية المحمولة جواً شبه الموازي لفورت براغ بنورث كارولاينا عندنا، ولكنه مرفق أقل تطوراً بكثير. وأنا هناك، نفذت وحدات سوفييتية نخبوية تمريناً، إنزالاً جوياً لبضع مئات من الجنود في مشهد مثير. وإن لم يَرْقَ إلى مستوى ما كنت قد رأيته عند قواتنا.

مُضيفي في تولا كان هو الجنرال ألكساندر ليبد، قائد الفرقة 106. وقد بدا، وهو أحد أبطال الحرب في أفغانستان، جندياً بالغ الخشونة من قمة الرأس إلى أخمص القدم، غير أنه تصدى لفريق من المتشددين أمثال يازوف حين حاولوا إطاحة غورباتشوف لإفراطه في التعجيل بالإصلاح، وكانت إحدى عينيه على السياسة، لاحقاً، وهو مدني، زار أمريكا وتوقف لزيارتي بتكساس، حيث كنت متولياً رئاسة هاليبورتون، وأهداني مذكراته مع سكينة يستخدمها المقاتلون السوفييت. لبعض الوقت بدا وكأنه خلف بوريس يلتسن، في منصب ما لبث أن آل إلى فلاديمير بوتن. فيما بعد شغل ليبد منصب محافظ كراسنويارسك، وهي منطقة سيبيرية واسعة غنية بالمعادن، حيث ظل قوة سياسية إلى أن قضى نحبه في حادثة حوامة عام 2002.

كان أحد المواقع الصناعية الكبرى، مصنع طائرات الميغ ـ 29، أحدث

المقاتلات السوفيتية، إحدى محطاتي الأخيرة. غير أن الطائرات قيد الإنتاج لم تكن منجزة. قطع تبديل أساسية مختلفة لم تكن متوفرة ببساطة. بدلاً من إغلاق أبواب المصنع، تابع المدراء العمل حماية لقوة العمل من البطالة، إلا أن المنتجات الخارجة من خط المجمع كانت عديمة القيمة من وجهة النظر العسكرية. أشار إداريو المصنع إلى أنهم كانوا عاكفين على التحول إلى إنتاج خلاطات أطعمة مثل تلك الموجودة في ملايين البيوت الأمريكية، غير أنني أدركت، بعد الاطلاع على الأنموذج الذي عرضوه علي، أن خطتهم لن تكون ناجحة. خلاط الطعام الذي عرضوه علي بكثير من التباهي كان بحجم براد صغير.

من الواضح أن السوفييت كانوا متجهين نحو قدرات عسكرية لافتة التضاؤل. وما رأيته، طافياً على سطح جملة التغييرات الجذرية التي كانت قد حدثت ـ بما في ذلك قرار تحرير أوروبا الشرقية سلمياً والسماح لألمانيا بالعودة إلى التوحد . أقنعتني بأن جزءاً كبيراً من الكلام عن الإصلاح كان صادقاً.

في لقاء أخير بموسكو، وجدتني جالساً مقابل عدد من أعضاء مجلس السوفييت الأعلى في إحدى غرف الكرملين المزينة حيث كنت قد حضرت اجتماعاً مشابهاً في 1983. آنذاك كنت عضواً في الكونغرس وكان وفدنا قد أجرى سجالاً بالغ القسوة مع نظرائنا السوفييت حول رقابة الأسلحة، وحقوق الإنسان، ومعاملة المنشقين. أما الآن فإن الشعور بالغربة كان قد ولّى، والحوارات كانت بأكثريتها صادرة عن الجانب السوفييتي المولع بالكلام عن حسنات وحكمة عناصر الإصلاح الاقتصادي المختلفة.

فيما كنت عائداً جواً من موسكو، كان الجنرال باول مغادراً إلى الرياض. تمثلت مهمته بالتعاون مع الجنرال شوارتزكوبف وصولاً إلى وضع قائمة بالقوات الإضافية التي كان من شأن شوارتزكوبف أن يحتاجها للمبادرة إلى الهجوم وتحرير الكويت.

في الوقت نفسه كان بول وولفويتز وفريقه قد عكفوا على العمل لاجتراح خيار "النزهة الغربية"، وآن أوان ترجمته. قمت باستدعاء نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة: الأميرال ديف جيرميا إلى مكتبي صباح يوم 23 تشرين

الأول/أكتوبر 1990، ومكّنته من الاستماع إلى إيجاز عن الخطة والحصول على العمل الذي كان فريق بول قد أنجزه. كنت على يقين من أن النبأ كان سينتشر فور إطلاع أركان الهيئة المشتركة على الخطة - وكنت أراهن على ذلك في إيصال جديتي إلى الجنرالات. كنا سائرين في طريق تزويد الرئيس بخيار هجومي، بطريقة أو أخرى.

اكتسبت المهمة أهمية متزايدة في اليوم التالي حين أبلغني الرئيس أنه ميال إلى التحرك لإخراج صدام من الكويت. أراد معرفة حجم القوات التي ستكون مطلوبة. أفدته بأنني سأوافيه بتقرير فور عودة باول من الخليج.

عندما ظهرتُ صباحاً على شاشات التلفزيون بتاريخ 25 تشرين الأول/ أكتوبر قمت بإرساء بعض القواعد. رداً على سؤال هاري سميث في برنامج "هذا الصباح" لقناة السي بي إس حول ما إذا كنا بصدد الإعداد لإرسال مئة ألف جندي آخر إلى الخليج، قلت إن من الممكن الاعتقاد بأن نصل إلى زيادة بذلك الحجم. حرصت أيضاً على إيضاح نقطة أننا لم يسبق لنا أن عمدنا قط إلى وضع سقف لعمليات النشر وأنني لستُ مستعداً لأن أفعل ذلك الآن. كانت تعليقاتي ترمي إلى تهيئة الشعب الأمريكي لما اعتقدت احتمال كونه حشداً جديداً، إلا أنني أردت أيضاً أن أبعث برسالة أخرى إلى جنرالاتنا مفادها أننا عازمون على مواصلة إسالة نهر القوات حتى نكون قد وفرنا ما هو مطلوب لإنجاز المهمة. كان شوارتزكوبف، على نحو خاص، يبدو بحاجة إلى تشجيع. في أسبوع ظهوري في البرامج الصباحية، أجرى هو مقابلة في الخليج مع "الآتلنتا جورنال - كونستتيوشن" زاعماً أن العقوبات كانت فاعلة، "فلماذا، إذن، يتعين علينا أن نقول: 'هيا اهجموا يا شباب واقتلوا حشداً من البشر'؟"

مع حلول الثلاثين من تشرين الأول/أكتوبر كان باول قد عاد من الخليج ومعه مطلب القيادة المركزية من القوات. عندما التقيته في الثامنة من ذلك الصباح لاستعراض الطلب، قام بنشر قائمة مفرطة في الطول - وقلت إنني مؤيد مئة بالمئة. وبعد ظهر ذلك اليوم ذهبنا، باول وأنا، إلى البيت الأبيض لحضور اجتماع في غرفة العمليات، وجلسنا، الرئيس وسكوكروفت وبيكر وأنا، نستمع إلى باول وهو يوجز لنا ما كان شوارتزكوبف يريده إذا ما أُمر

بالمبادرة إلى تنفيذ الخيار الهجومي - مضاعفة القوة أساساً. حين أنهى باول كلامه، قلت للرئيس إنني مؤيد للطلب تأييداً كاملاً، وذهبتُ إلى ما هو أبعد. كنت مقتنعاً بأن الخيار الهجومي هو الخيار الصحيح، وبأن علينا أن نوفر للجنرالات كل ما يرونه لازماً. وافق الرئيس وذيّل طلبات باول وشوارتزكوبف بتوقيعه.

قبل التصريح العلني عن النشر الجديد في الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر 1990، هاتفت قيادات برلمانية لإخطارهم بأن الأمر بات وشيكاً. ثم، في الساعة الرابعة بعد الظهر، كنت مع الرئيس بوش في البيت الأبيض وهو يعلن: "لقد وجهت اليوم وزير الدفاع وأمرته بزيادة حجم القوات الأمريكية المخصصة لدرع الصحراء لضمان امتلاك التحالف خياراً عسكرياً هجومياً مناسباً إذا ما بات ذلك ضرورياً لبلوغ أهدافنا". بعد إيجاز البيت الأبيض، عدت مباشرة إلى البنتاغون، حيث قمنا، كولن وأنا، في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين بتقديم صورة موجزة إلى جسم البنتاغون الإعلامي. عرضت قائمة طويلة لوحدات مرشحة للنشر: قيادة الجيش السابع من شتوتغارت الألمانية؛ والفرقة المدرعة الثالثة في ألمانيا؛ والفرقة المدرعة الثانية (الهجومية)؛ ولواء الفرسان المدرع الثاني. بالإضافة إلى ذلك، كنا قد حركنا قيادة فوج الدعم الثاني من شتوتغارت وبيغ رَدْ ون، فرقة المشاة الأولى من فورت رايلي في كنساس. كان سلاح البحرية قد أرسل ثلاث مجموعات حاملات طائرات إضافية مع السفن المواكبة لها، وهي عبارة عن بارجة حربية واحدة ومجموعة برمائية أخرى. كما أرسلت قوات المارينز قوة الحملات البحرية السريعة الثانية من كامب ليجون ولواء الحملات البحرية الخامس من كامب بندلتون. كذلك أعلنت أننا موشكون على استدعاء وحدات قتالية من الحرس الوطني التابع للجيش.

في الثامن عشر من تشرين الثاني/نوفمبر حين ظهرت في برنامج "مع الإعلام" كان ثمة اهتمام حول ما إذا كنا قد قررنا طلب تفويض من الكونغرس باستخدام القوة في العراق. قلت لغاريك أوتلي إنني من عشاق الكونغرس. عملت فيه مدة عشر سنوات. إلا أنني مدرك أيضاً لعيوبه ونقاط ضعفه. قلت: "دعنا نعود إلى أيلول/سبتمبر 1941، حين كانت آلة الحرب العالمية الثانية دائرة قبل

عامين اثنين؛ كان هتلر قد احتل النمسا، وتشيكوسلوفاكيا، وبولونيا، والنروج، والدنمارك، وهولندا، وبلجيكا، وفرنسا، وقطع نصف الطريق إلى موسكو. وقد بادر الكونغرس، في ظل ذلك الوضع، قبل بيرل هاربور بشهرين، إلى الموافقة على تمديد... التجنيد لمدة اثني عشر شهراً إضافياً بأكثرية صوت واحد فقط".

أوضحت أن القرار لم يكن قد اتُّخذ، إلا أنني أكدت أيضاً أن من شأن وضع قضية أمن الأمة في أيدي 535 عضواً في كونغرس الولايات المتحدة أن يكون طرحاً خطراً. وقد حذرت من احتمال إفضاء أي جدال مطوّل في الكونغرس أن يوحي لحلفائنا كما لصدام بأننا غير حازمين في التزامنا بتحرير الكويت.

مع حلول آخر الشهر كان الكونغرس مشغولاً بعقد جلسات استماع، وبدا رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، سام نان، عازماً على توفير منبر لأولئك المعارضين لاستخدام القوة من أجل تحرير الكويت. وبين الشهود كان الأميرال بيل كراو، رئيس هيئة الأركان المشتركة السابق، الذي قال إن علينا أن نعطي العقوبات فرصة سنة أخرى لتفعل فعلها قبل التفكير بالقوة.

في اليوم التالي لشهادة كراو حدد قرار صادر عن مجلس الأمن الدولي تاريخ 15 كانون الثاني/يناير 1991، موعداً أخيراً لخروج العراق من الكويت، وأجاز استخدام "جميع الوسائل الضرورية" لتحقيق تلك الغاية. ولكن هذه الرسالة الواضحة الموجهة إلى العالم - ولجيم بيكر فضل كبير في صدورها - ما لبثت أن تشوشت وباتت ملتبسة حين أعلن الرئيس اعتزامه إيفاد جيم للتفاوض مع صدام. كذلك تمت دعوة طارق عزيز إلى الولايات المتحدة، ما أدى إلى زرع الشك في قلوب كثيرين من حلفائنا، كما لو كنا نسحب البساط من تحت أقدامهم.

على إحدى الجبهات الحاسمة، كنا نحقق تقدماً ملموساً. بات الجنرالات في البنتاغون يرون ويصدقون أننا نعني ما نقول، أننا جادون. موافقة الرئيس على طلب الجنرال شوارتزكوبف الخاص بقوات إضافية كبيرة كانت أساسية، مثلها مثل التصويت الناجح في مجلس الأمن الدولي. ومما ساعد أيضاً بقدر هائل قيامي بإصدار أمر في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر قضى بتفويض الأسلحة دعوة احتياط إضافي وقوات حرس وطني حسب الحاجة. كان هذا جهداً آخر

دعمه الرئيس دون تردد، ضارباً عرض الحائط باعتراضات رئيس الأركان جون سنونو السياسية. من المؤكد أن الأهالي في طول البلاد وعرضها كان من شأنهم أن يتأثروا حين تتم دعوة أبنائهم إلى الخدمة، غير أننا كنا سنقوم بحشد القوة التي كان الجنرالات يرونها ضرورية.

هذه التحركات أوحت للجيش أن المدنيين المضطلعين بالمسؤولية الآن كانوا قد تعلموا دروس فيتنام ـ وثمة خطوات أخرى كنا بصدد اتخاذها فَعَلَتْ الشيء نفسه. باشرنا عملية حشد هائلة، لا عملية حشد متدرجة أملاً في احتمال مبادرة صدام إلى تغيير رأيه. كنا عاكفين على نشر قوات في إطار وحدات، دون استخدام المناوبات الفردية التي كانت قد أحدثت فوضى خلال أحداث فيتنام. كنت قد أصدرت أمراً قضى بعدم التوقف. ما من أحد كان سيترك القوات المسلحة حتى يتم إنجاز هذه المهمة. كان الرئيس يعني ما يقوله حين أعلن: "هذا لن يمر".

كان من شأن تنفيذ هذه الحرب أن يبقى بأيدي الجنرالات، بيد أنني أردت التأكد بأكبر قدر ممكن من اليقين أنني فهمت جملة تفاصيل ما كانت قواتنا تفعله، ومن ذلك المنطلق عملت على تنظيم سلسلة من جلسات الإيجاز لي أنا، ربما اثنتي عشرة جلسة ككل. كان توم كيلي، مدير عمليات الأركان المشتركة مسؤولاً عنها. كان يتولى استقدام فريق إلى مكتبي أو أذهب أنا أحياناً إلى "الدبابة"، وأستمع إلى إيجاز عن كيفية عمل صواريخ كروز أو أسلوب التوغل في حقل الغام. كَرَّسْنا كثيراً من الوقت على الأسلحة الكيميائية، التي كان صدام قد استخدمها من قبل، وعلى كيفية الدفاع عن قواتنا ضدها.

في الثامن عشر من كانون الأول/ديسمبر، غادرنا، باول وأنا، العاصمة وتوجهنا إلى السعودية. في مقر قيادة شوارتزكوبف، الموجود في ملجأ قبو تحت وزارة الدفاع السعودية، كان نورم قد جمع فريقه القيادي لإطلاعنا بإيجاز على جميع مناحي خطة الحرب الجوية والبرية. خلال جلستنا الصباحية الأولى، ركزنا على الاستخبارات ـ ما كنا نعرفه عن قوات صدام، مواقعها، جاهزيتها ـ وعلى مدى جاهزية قواتنا نحن. تمثل أحد أكبر هواجسي على عدم دفع أرباب

التخطيط إلى سوق افتراضات مفرطة التفاؤل. كنا بحاجة لأن نكون جاهزين، قلت لهم، للتسليم باحتمال نزاع طويل، لا بد لنا من افتراض الأسوأ.

التقرير الموجز الذي اطلعنا عليه بعد الظهر غطى خطة الحرب نفسها. كانت قد قطعت شوطاً طويلاً منذ جلستنا الأولى قبل شهرين، حين كان الخيار الوحيد لأي حملة برية متمثلاً بمقاربة اختراق الوسط مباشرة. أما الآن فكان أمامنا حملة جوية على ثلاث مراحل، تعقبها حملة برية، مما ينطوي على مناورة تقضي بالالتفاف من اليسار حيث تكون قواتنا قد توغلت بعيداً ثم هاجمت صدّاماً من الخاصرة، بدلاً من الاندفاع المباشر إلى صميم أفضل قواته.

كان من شأن مناورة الالتفاف من اليسار أن تحمِّل قواتنا أعباء لوجستية ثقيلة، بسبب نقل القوات ومعداتها مئات الأميال غرباً. ومن شأن نجاحنا أن يبقى متوقفاً على التفوّق الجوي كما على عنصر المفاجأة - فقد تعين علينا أن نعقد الأمل على ألا يتمكن صدام من اكتشاف الخطة أو أن يصدّقها إذا ما فعل.

غادرنا، باول وأنا، عائدين إلى واشنطن، قانعين بأن نورم وفريقه كانوا قد أنجزوا عملاً عظيماً باستكمال اجتراح الخطة، وبالتهيؤ للمفاجآت، وبالاستعداد للتحرك. على الطريق بلغنا نبأ أن وزير الدفاع الإسرائيلي موشي آرنز كان يريد مقابلتنا - في أي وقت، وفي أي مكان. كان الإسرائيليون قد وعدونا بعدم المبادرة استباقياً إلى ضرب العراق، غير أنهم كانوا متوتري الأعصاب، وذلك مفهوم، حول خطة الحرب وراغبين في معرفة ما كان يتعين عليهم توقعه.

كنت متوجساً من أن يؤدي توجهي مباشرة من السعودية إلى لقاء الإسرائيليين إلى تعريض تحالفنا لضغوط فعلية. كان من المهم ان نفعل كل ما هو ممكن لإبقاء الإسرائيليين خارج نطاق التحرك. لم نكن نريدهم أن يصبحوا ذريعة يوظفها صدام لشق صف تحالفنا. بدلاً من اللقاء، اتفقنا على مد خط ساخن باسم هامر ريك السري، يربط مكتبي في البنتاغون مباشرة بوزير الدفاع الإسرائيلي موشي آرنز.

في واشنطن بعد الأعياد، تحول الكلام نحو ما إذا كان يتعين علينا التماس موافقة برلمانية على استخدام القوة ضد العراق. عارضتُ الفكرة. كنا جميعاً متمتعين بالمرجعية المطلوبة، لأن مجلس شيوخ الولايات المتحدة كان قد صادق

من قبل على ميثاق الأمم المتحدة، بما فيه المادة 51، التي تجيز لنا المبادرة إلى مساعدة دولة عضو، مثل الكويت، كانت قد تعرضت للغزو. يضاف أن من شأن تعرضنا لخذلان الكونغرس أن يشكل ضربة هائلة لتحالفنا ولقواتنا المنشورة سلفاً. إذا ما نجح التحرك العسكري، فإن كون الكونغرس كان قد دعمنا من قبل لن يهم. أما إذا أخفقنا، حتى لو كنا حاصلين على دعم أكثرية الأصوات لاستخدام القوة، فإننا كنا سنواجَه بطوفان من الانتقادات، بما فيها تلك الصادرة عن أولئك الذين كانوا قد صوتوا معنا. بعبارة أخرى، كنت أرى مخاطرة لا يستهان بها في التماس الموافقة دون كسب شيء ذي بال.

كذلك رأيت أن من شأن الأمر أن يرسي سابقة خطرة. على الصعيد الحقوقي والدستوري كان الرئيس متمتعاً بالمرجعية والصلاحية المطلوبتين. إذا ما أقدم على التماس الموافقة البرلمانية، فإن من شأن ذلك أن يدفع البعض، دون أدنى شك، إلى قراءة ذلك بوصفه رسالة متضمنة حاجته إلى تصويت برلماني. بدا لي الموضوع أشبه بتحرك من شأنه أن يقلص سلطة الرئاسة. استمع الرئيس إلى هذه الآراء، ولكنه قرر الذهاب إلى التصويت، وفي الثامن من كانون الثاني/يناير بعث برسالة إلى الكونغرس طالباً موافقته على استخدام "جميع الوسائل الضرورية لتنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي رقم 678". الذي تضمن إلزام صدام بالانسحاب من الكويت.

وفي هذه الأثناء، أقدم الرئيس، في محاولة منه لضمان كوننا قد استنفدنا جميع إمكانيات التوصل إلى حل سلمي، على إيفاد جيم بيكر إلى جنيف لمقابلة طارق عزيز، وزير خارجية صدام. كنت قد تخوفت من احتمال قيام بيكر بالسمسرة على صفقة في الدقيقة الأخيرة تستند على وعد من صدّام بالانسحاب من الكويت. ماذا لو نجح صدام في توظيف مثل هذا التعهد لدفعنا إلى ما وراء الخط الزمني الأحمر الدولي؟ ماذا لو انكفأ إلى داخل العراق. هل سنسارع إلى إعادة نصف مليون جندي إلى الوطن وننتظره حتى يتجاوز الحدود من جديد؟ ولكن مكالمة بيكر مع الرئيس صباح يوم 9 كانون الثاني/يناير لم تكن إلا للإبلاغ عن حقيقة أن العراقيين كانوا مصممين على البقاء في الكويت. تحلقنا، الرئيس وبرنت وأنا، حول جهاز تلفزيوني صغير في مكتب الرئيس

الخاص فيما كان بيكر يوشك على مخاطبة الجسم الإعلامي المجتمع في فندق أنترناشيونال بجنيف. ما إن خطا ليقف أمام الكاميرا حتى تبين للعالم من ملامح وجهه أن ليس ثمة أي صفقة: "من المؤسف أيها السيدات والسادة... أنني على امتداد ما يزيد على ست ساعات لم أسمع كلمة واحدة توحي لي بأي مرونة عراقية، مهما كانت بسيطة، حول الامتثال لقرار مجلس أمن الأمم المتحدة".

غادر بيكر جنيف ليتشاور مع حلفائنا في الرياض، وذهبتُ للعمل، ساعياً بجهد لحشد تأييد الكونغرس لقرار التفويض باستخدام القوة ضد العراق. وفي الثاني عشر من كانون الثاني/يناير، مر القرار بشعاب مجلس النواب دون صعوبة، بـ 250 مقابل 183 صوتاً، أما في مجلس الشيوخ فقد كان الهامش ضيقاً، 52 مقابل 42. هاتفت جورج بوش، قلت له: "سيادة الرئيس، أنت محق!" بعد سنوات، كتب الرئيس يقول إنه كان سيأمر قواتنا بخوض المعركة - حتى ولو تعرض ربما للمساءلة، لو كان التصويت قد جاء سلبياً. من المؤكد أن الذهاب إلى الكونغرس كان مخاطرة كبيرة، ولكنه كان قد مر بسلام.

في وقت متأخر من بعد ظهر يوم 15 كانون الثاني/يناير، جاء باول إلى مكتبي ومعه أمر بحاجة إلى توقيعي. بوصفي وزيراً للدفاع، وقعت عدداً كبيراً من الأوامر. جميع عمليات الانتشار تطلبت توقيعي، كنت عادة أوقعها بالأحرف الأولى فقط. إلا أن هذا الأمر كان مختلفاً. كان أمر تنفيذ، أمر تفويض بحرب. وقعت بالاسم الكامل، ثم طلبت من باول أن يضع توقيعه.

الفصل السابع

عاصفة الصحراء

في ساعات الصباح الباكر من يوم الأربعاء الواقع في السادس عشر من كانون الثاني/يناير 1991، توقفت سيارتي الليموزين في محطة بجادة كونستتيوشن أفنيو [جادة الدستور]. لين وأنا نزلنا ومشينا تحت مطر خفيف نزولاً مع الزقاق المفضي إلى النصب التذكاري لمحاربي فيتنام القدامى. وقفنا أمام الجدار الأسود الطويل كما يفعل الزوار غالباً، بصمت ورهبة. الأسماء الثمانية وخمسين ألفاً المحفورة في الجدار تذكير بالكلفة المرعبة للحرب كانت أيضاً تذكيراً لي أنا، فيما كانت العمليات في العراق موشكة على الانطلاق، بأن على قادة أمريكا المدنيين واجباً مقدساً يقضي بعدم تكليف جنودنا إلا بمهمة واضحة مع تزويدهم بالموارد اللازمة للتفوق. حنينا رأسينا صلاةً ودعاءً، متذكرين الشباب الأمريكيين الذين كانوا سيحلِّقون قريباً مشتبكين في معارك قتالية فوق العراق.

مع حلول الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة كنت في البيت الأبيض لحضور اجتماع مع جيم بيكر وبرنت سكوكروفت في مكتب الأخير بالجناح الغربي. استعرضنا تفاصيل ما كان سيتكشف في الساعات الآتية ومررنا عبر قائمة قادة العالم الذين كنا سنتصل بهم لإخطارهم سلفاً بأن العمليات ستجري على قدم وساق في وقت قريب. أجريت اتصالي الهاتفي الأول في ذلك اليوم وأنا عائد إلى مكتبي في البنتاغون مع وزير الدفاع الإسرائيلي موشي آرنز، الذي كنت على صلة به. كنا قد عرضنا إرسال بطاريات صواريخ باتريوت للمساعدة

على حماية إسرائيل من أي هجمات صاروخية قد يشنها صدام. كان معاون وزير الدفاع بول وولفويتز ونائب وزير الخارجية لورنس إيغلبيرغر قد نقلا ذلك العرض إلى إسرائيل، ولكن الإسرائيليين كانوا قد اعتذروا عن قبول العرض. كانوا قد قبلوا بعرضنا لتوفير الإنذار المبكر من أقمارنا الصناعية عن أي صواريخ يتم إطلاقها وكنا قد مدَّدْنا خط الهامّر ريك الساخن بين مكتبي ووزارة الدفاع الإسرائيلية. في اتصالي عند الساعة التاسعة مع آرنز أبلغته أن ساعة الأتش [H-Hour]، ساعة بدء العملية، ستكون السابعة مساء بتوقيت واشنطن، أي الثالثة فجراً في بغداد. ألححت عليه أن يستخدم الخط الآمن للاتصال بي في أي وقت.

حين كنت أكلم آرنز كانت سبع قاذفات بي - 52 طويلة المدى قد أقلعت من قاعدة باركسديل الجوية في لويزيانا، مجهزة بصواريخ كروز واتجهت نحو العراق. ومع اقتراب ساعة الصفر استعدت طائرات الإف - 15 إي المقاتلة - القاذفة، وطائرات الأواكس، والكي سي - 135 لإعادة التزويد بالوقود، ومقاتلات الشبح إف - 117 للإقلاع من قواعد داخل السعودية. بحارة على ظهر بواخر مثل يو إس إس وبسكونسن ويو إس إس ميسّوري في الخليج العربي تفقدوا قوائم الضبط، مجهزين صواريخ كروز للإطلاق.

لأن طائرتنا من طراز إف - 117 كانت شبحاً، كان من شأنها أن تمتلك القدرة على التوغل في عمق المجال الجوي العراقي دون التعرض لتحري الرادار. وفيما كانت محلقة في الجو متجهة نحو بغداد، كان من شأن ثماني طوافات آباتشي أن تحلق على ارتفاعات واطئة في الظلام وتجهز على اثنتين من العقد الرئيسية لمنظومة الإنذار المبكر العراقية، محدثة ثقباً في دفاعات العراقيين الجوية بما يمكننا من الشروع في جعل باقي طائراتنا تتدفق مخترقة لمهاجمة بغداد. باتت عملية "درع الصحراء" على عتبة التحول إلى عملية "عاصفة الصحراء".

مع اقتراب ساعة الصفر، أرسلت أحد المعاونين إلى بيتي في ماكلين لجلب الحقيبة التي كنت قد حزمتها. خططت لقضاء الليل في غرفة النوم الصغيرة المتصلة بمكتبي، إلا أنني لم أكن قد جلبت الحقيبة معي في الصباح خشية لفت

نظر أي مراقبين قريبين إلى أن الحرب باتت وشيكة. مع حلول ساعات الأصيل، صار واضحاً أننا كنا قد فعلنا كل ما استطعنا فعله من واشنطن. لم يبق سوى الانتظار. في الخامسة مساء جاءني الجنرال باول ومعاون الوزير آتوود لحضور جلستنا المسائية اليومية المخصصة لطي الصفحة. أدرنا التلفزيون إلى قناة السي إن إن، القناة الإخبارية الوحيدة المستمرة أربعاً وعشرين ساعة في اليوم آنذاك. كان بيرنارد شو على الهواء من بغداد. كان يجري مقابلة مع وولتر كرونكايت في نيويورك، الذي كان يروي قصصاً عن تغطية الحرب العالمية الثانية مراسلاً شاباً. بعد تحادث الاثنين لبعض الوقت، أفاد شو بأنه كان يهم بالعودة إلى الولايات المتحدة. قال إنه سيكون على الطائرة الأولى المقلعة من بغداد في الصباح. وكنا نعلم أن ذلك لن يحصل. بعد فترة غير طويلة أشرقت السماء الليلية خارج شباك غرفة بيرني في الفندق مع انطلاق عملية عاصفة الصحراء. كان من شأن هذه أن تكون أولى الحروب المتيحة للأمريكيين فرصة المشاهدة وهي تندلع، في الوقت الفعلي، على الشاشة التلفزيونية مباشرة.

تحدّث الرئيس إلى الأمة من المكتب البيضوي في الساعة التاسعة مساء معلناً بدء العمليات العسكرية. وفي التاسعة والنصف مساء، ظهرنا، باول وأنا، في قاعة الصحافة في البنتاغون لعقد مؤتمر صحفي وجيز. أشرت إلى العناية الفائقة التي كانت تُتخذ لتقليص الإصابات الأمريكية إلى الحدود الدنيا والتركيز على الأهداف العسكرية وعلى الضربات الموجهة إلى أهداف في كل من العراق والكويت. لم نكن قادرين على الإكثار من الكلام في هذه المرحلة المبكرة، بيد أنني أردت أن أرسخ سابقة تمكين الشعب الأمريكي من سماع معلومات عن عملياتنا العسكرية مباشرة من غرفة الإيجاز في البنتاغون. كذلك كان الجنرال شوارتزكوبف يدير إيجازات من الرياض.

قبل الحرب كان معاوني للشؤون العامة، بيت وليامز، قد ذهب لرؤية مدير عمليات الأركان المشتركة، اللواء توم كيلي. قال الأول للثاني إننا نريد عقد مؤتمرات صحفية يومية للإعلام بعد بدء الحرب وأنه اعتقد أن توم هو الذي سيتولى إدارة هذه المؤتمرات. اعترض توم على الفكرة بقوة. أفاد بأن لا مجال مطلقاً لذلك، نظراً لمسؤولياته في الحرب الوشيكة، وأنه لن يكون لديه وقت

مخصص للإعلام كل يوم. قال: "لن يحصل ذلك وكفى". جاء بيت ليطلعني على الاقتراح، فأثنيت على اقتراحه مؤمناً بأن إظهار مسؤولين كبار مثل توم كيلي والعميد البحري مايك ماكونيل، مدير استخبارات الأركان المشتركة، أمام الصحافة يومياً ينطوي على مغزى هائل. فهذان هما الجنرالان اللذان درجا على إيجاز الموقف للجنرال باول ولي كل صباح. وكانا على مستوى من الاطلاع يكفي للإجابة عن أسئلة صعبة وعلى درجة من الخبرة تكفي لمعرفة ما يمكن وما لا يمكن البوح به للصحافة. حين عاد بيت لرؤية توم بعد بضعة أيام، قال: "تأكد يا توم، إن الوزير راغب فعلاً في أن تتولى بنفسك إدارة المؤتمرات الصحفية". أجابه كيلي: "تلك فكرة ممتازة يا بيت. سأكون بالغ السرور وأنا سأفعل ذلك".

كنا قد أطلنا التفكير بضمان التغطية الأدق للحرب. فقبل أن تبدأ عاصفة الصحراء، قام بيت باجتراح خطة كان من شأنها إدخال المراسلين الصحفيين مباشرة في وحداتنا العسكرية، وهي نسخة أولى للخطة التي اعتمدها البنتاغون بعد اثنتي عشرة سنة. أيدت مفهوم بيت، وذات مساء دعوته إلى مكتبي لإطلاعنا: باول وأنا، على الخطة. لم يكن باول مؤيداً، فقال إنه من المستحيل على الإطلاق إدخال المراسلين دون تعريض أمن العمليات للخطر، وعبر عن ذلك بكلمات شديدة الوقع. عندما هم بيت بالمغادرة نصحته بألا يقلق وقلت له مبتسماً: "عسى أن تكون مؤتمراتك الصحفية جيدة. لقد تقدمنا عليه خطوة".

لكن قائدنا في الميدان، نورمان شوارتزكوبف، كان، كما تبين بوضوح في آخر المطاف، يشاطر باول مقاومته العنيفة لفكرة وجود مراسلين مع القوات. فباول وشوارتزكوبف، كلاهما، مع عدد كبير من كبار ضباطنا كانوا قد طوروا قدراً عميقاً من عدم الثقة بالصحافة استناداً إلى تجاربهم في فيتنام. كان ذلك قابلاً للتفهم، ولم أكن راغباً في زيادة الضغط الكبير الذي كان شوارتزكوبف يتعرض له عبر الإصرار على المفهوم الجديد. لذا اتفقنا على تغطية الحرب باعتماد نظام الفريق المختار، الذي تمخض في النهاية عن نتائج ملتبسة. مراسلون معينون صاروا أتباعاً لقادة راحوا يُشركونهم باجتماعات أساسية وإيجازات عملياتية. في حين بقي آخرون شبه عاجزين عن الحصول على الموعد المخصص للاهتمام بهم من قبل الضباط.

ومما زاد الطين بلة أن أكثرية تحركات ما قبل الحرب كانت تمت في السعودية - وهو بلد غير مولع عموماً بإصدار تأشيرات الدخول للإعلاميين. بداية كان الصحافيون الأمريكيون الوحيدون الذين تمكنوا من دخول السعودية هم أولئك الذين طاروا معي. تحلحلت القيود قليلاً حين رأى الملك فهد مدى طول الوقت الذي كان يحصل عليه صدّام على القنوات التلفزيونية فقرر جازماً تمكين أعداد أكبر من الإعلاميين الغربيين من المجيء إلى المملكة من أجل تغطية ميدان الحَدَث.

وبصرف النظر عما يفعله البنتاغون مع الإعلام زمن الحرب، فإن حكومة الولايات المتحدة هي المرشحة، في النهاية، لتلقي سهام النقد حول ذلك. إذا تم ضم مراسلين ومنحهم فرصة الوصول إلى معلومات كثيرة، فإن الجيش يُتهم بالسعي إلى تشكيل الحقيقة أو تجميل صورة الأمور. وإذا لم يحصل المراسلون على فرصة الوصول فإن الجيش يغدو، عندئذ، متهماً بمحاولة إخفاء الحقائق. بمعنى ما، نحن بصدد وضع ليس فيه رابح، إلا أنني أظن أننا نجحنا إجمالاً في التعامل مع الأمر نجاحاً لا بأس به.

بقي أحد هواجسي متمثلاً بالوصول إلى وضع يصبح فيه الإعلام صاحب قرار حول ما إذا كنا رابحين أم لا. أردت للمعلومات عما كان يجري أن تأتي مباشرة من القيادة العسكرية والمدنية، دون التعرض للغربلة أو التحريف من قبل الصحافة بطريقة أو أخرى. ومع أننا لم نستطع اتقاء هذا مئة بالمئة، فإن اعتقادي هو أن مؤتمراتنا الصحفية وتغطيتنا الجماعية اليومية المبرمجة ساهمت في ضمان وصول كمية كبيرة من المعلومات الدقيقة.

بعد انتهائنا، باول وأنا، من مؤتمرنا الصحفي في أولى ليالي الحرب، هاتفت الرئيس، الذي كان أحد محاربي الحرب العالمية الثانية القدامى المشاركين في عمليات قتالية. قلت له: "سيادة الرئيس، لقد أرسلنا ستاً وخمسين طائرة بحرية واستعدنا ست وخمسين. لدينا ما يزيد على مئتي طائرة سلاح جو مشاركة ولا يوجد ما يشير إلى أي فقدان". غير أننا، كنا، خلال الليل، سنفقد طياراً هو الرائد البحري سكوت شبايخر، الذي تم إسقاط طائرته الإف - 18 فوق العراق.

* * *

في اليوم الثاني من الحرب بدأ صدام يطلق صواريخ سكود على إسرائيل. كانت هذه بضاعة سوفييتية متخلفة التكنولوجيا عائدة إلى الستينيات، غير أنها قادرة على إحداث أضرار ذات شأن في أي بيئة مدينية، وتكررت سلسلة شائعات، تبين أنها كاذبة جميعاً، عن قيام العراقيين بتركيب رؤوس حربية كيماوية على بعضها. بعيد سقوط صواريخ السكود الأولى، رن هاتفي. كان المتصل هو وزير الدفاع الإسرائيلي موشي آرنز. كان يلح على طلب بطاريات صواريخ الباتريوت وطواقمها التي كنا قد عرضناها عليهم قبل اندلاع الحرب. أكد آرنز أن الإسرائيليين أيضاً كانوا يخططون للقيام بضربات جوية انتقامية، وطلب رموز الآي إف إف (رموز التعرف على الأصدقاء والأعداء) التي كان من شأنها أن تمكن الطيارين الإسرائيليين من تجنب الإسقاط من قبل طائرات التحالف. قلت له سأعيد الاتصال بك. ثم اتصلت مع سكوكروفت في البيت الأبيض.

في مناقشات ما قبل بدء الحرب، كنا قد اتفقنا على ضرورة فعل كل شيء نستطيع فعله لإبقاء الإسرائيليين خارج نطاق الحرب، لأن من شأن انخراطهم أن يؤدي إلى إضفاء ثوب حرب عربية ـ إسرائيلية على النزاع، فتبادر دول عربية، حسب أقوى الاحتمالات، إلى الخروج من التحالف. لم يكن صدام أحمق حين أطلق صواريخ السكود؛ كان يستهدف ذلك بالتحديد. رأى سكوكروفت أن أفضل طرق إبقاء الإسرائيليين على الهوامش هي الحفاظ على مسافة بيننا وبينهم. أما تقويمي أنا فكان يوحي بضرورة التعاون الوثيق معهم، وإطلاعهم على كل ما كنا نفعله، وفعل كل شيء نستطيع فعله لضمان سلامة إسرائيل، باستثناء إعطائها رموز الآي إف إف، غير أنني أبلغت آرنز أننا سنتعقب منصات إطلاق السكود في الصحراء الغربية. تعين على الإسرائيليين أن يدركوا انتفاء ما يدعوهم إلى الانخراط في الصراع، لأننا كنا نفعل كل ما كان فعله ممكناً.

في مناقشاتنا قبل الحرب، كان الجنرال باول وقادة سلاح الجو قد طمأنوني إلى أننا كنا سنحلق بطائرات إف ـ 15 إي فوق الصحراء الغربية العراقية، تلك الطائرات التي كانت ستبقى جاهزة لتدمير أي منصة إطلاق ينطلق

منها أي صاروخ سكود. وكما تبين لاحقاً فقد واجهت طائرات الإف - 15 إي مشكلات تتعلق بإعادة التزود بالوقود ولم تكن تطير ليلة 18 كانون الثاني/يناير. كما لم يبد - في ضوء خطط القيادة المركزية لضربات اليوم التالي الجوية - أن الجنرال شوارتزكوبف كان مستوعباً بشكل كُلّي أهمية تخصيص بعض الطائرات لاصطياد منصات صواريخ سكود.

في اليوم التالي ضُربت تل أبيب ثانية، وتعرض خط الهامر ريك الساخن للاختبار. استطعت تفهم الغضب الإسرائيلي. أنا نفسي كنت حانقاً عندما سألت عن عدد الطلعات التي كانت القيادة المركزية تطلقها ضد صواريخ السكود وحصلت على جواب بعيد كلياً عن الإقناع. كنت أعرف سبب المشكلة. لم يكن نورم شوارتزكوبف يريد إبعاد بعض الطائرات عن قصف بغداد وتحويلها نحو ما كان يظنها مهمة عسكرية غير ذات شأن. كان هذا خطأ حساب من جانبه. فإبقاء إسرائيل خارج نطاق الحرب لم يكن مهماً عسكرياً بالنسبة إلينا وحسب، بل وكان سيتضح أن أكبر الخسائر الأمريكية في ضربة واحدة خلال عاصفة الصحراء جاءت من هجوم صواريخ سكود على ثكناتنا القريبة من الظهران في السعودية. حسب الطريقة المعتمدة في تركيب قياداتنا العسكرية، تشكل إسرائيل جزءاً من ساحة مسؤولية القيادة الأوروبية، لا القيادة المركزية التي هي ساحة شوارتزكوبف. ربما أدى هذا إلى تعزيز عزوف نورم عن إدخال إسرائيل في خططه. أوضحت لباول أن تعقب منصات السكود لم يكن خياراً، بل ضرورة، مهما كان السبب. نقل الرسالة إلى شوارتزكوبف، فتكثّفت التحليقات الأمريكية فوق الصحراء الغربية العراقية في الليلة التالية.

آن لي أن أعقد حواراً مع شوارتزكوبف، وحين أمسكت به على الهاتف، قلت له إنه كان يقترف خطأ جسيماً، ذلك هو ما كان يفعله حقاً، وإنني كنت أفهم وجهة نظره: المدنيون يقرون الاستراتيجية والجنرالات ينفذونها. غير أن من واجبه أن يدرك أن رئيس الجمهورية كان يرى هذا أمراً استراتيجياً. كان من شأن نجاح مجهودنا أو إخفاقه أن يبقى متوقفاً على إبقاء إسرائيل خارج الحرب، وتعين علينا أن نكرس موارد لقصف مستودعات تخزين صواريخ السكود ومنصات إطلاقها. قلت له أيضاً إن عليه أن يتفهم مشكلتي. "أنا الشخص

المكلف بالضغط على الإسرائيليين والمضطر لطمأنتهم إلى أننا نفعل كل شيء نستطيع فعله. صِدْقيتي حاسمة. إذا قلت لهم إننا سنفعل شيئاً، فإننا سنفعله".

لم تنجح التحليقات الجوية فوق الصحراء الغربية في وضع حد لهجمات السكود على أي حال، لا على إسرائيل ولا على السعودية، التي كان صدام يستهدفها. تمثل جزء من المشكلة باستخدام العراقيين منصات متنقلة، في حين كنا نحن قد تعرفنا على عدد من المواقع الثابتة التي توجد فيها منصات إطلاق. ومع أننا لم نكن قادرين على وقف عمليات الإطلاق، فإن حرف بعض الطائرات نحو الصحراء الغربية قطع بالفعل شوطاً بعيداً على طريق إقناع الإسرائيليين بأننا جادون حول بذل كل ما نستطيعه من جهد لوقف الهجمات. كنت أتصل مع آرنز لإطلاعه على ما يستجد يومياً: ثمة أربع وعشرون طائرة إف ـ 15، تحمل قنابل عنقودية، تحلق في منتصف الليل؛ وأربع طائرات إف ـ 15 تحلق في دورية جوية قتالية بين الثالثة والعاشرة؛ وثمان وأربعون طائرة إيه ـ 10 خلال اثنتي عشرة ساعة نهاراً؛ واثنتا عشرة طائرة إف ـ 16 على أهداف محددة في الساعة الحادية عشرة؛ وأربعة وعشرون لاستهداف وحدات نقالة في الساعة الثانية بعد الظهر؛ واثنا عشر تستهدف مخابئ في الثالثة بعد الظهر.

مرة أخرى، ذهب لاري إيغلبيرغر من وزارة الخارجية وبول وولفويتز من البنتاغون إلى إسرائيل، الأمر الذي ساهم كثيراً في إطلاع الإسرائيليين على ما كنا نفعله وإفهامهم حجم جهدنا ومداه. وقد شكل نقل بطاريات باتريوت من ألمانيا إلى إسرائيل، الذي تدبرناه في غضون ثمان وأربعين ساعة دليلاً آخر على التزامنا ـ وإن تبين أن الصاروخ أقل فاعلية في التصدي لصواريخ السكود مما اعتقدنا بداية. كانت إحدى المشكلات أن الباتريوت تم تطويره للدفاع عن هدف محدد، شيء شبيه بمطار، لا منطقة كاملة، ولا مدينة. إذا كنت تحمي إحدى القواعد وأصبت رأساً حربياً لصاروخ سكود قادم وأزحته عن هدفه، فذلك نجاح. أما إذا كنت توفر الحماية لإسرائيل وأصبت صاروخ سكود قادماً وأسقطته على بعد ميلين من الهدف، فإن ذلك ليس نجاحاً. إنه يتمزق عند سقوطه ويتبين أن جزءاً كبيراً مما كنا نطلق عليه صواريخنا لم يكن رأساً حربياً، بل خردة تافهة.

كذلك أرسلنا قوات عمليات خاصة إلى عمق الغرب العراقي للعمل خلف خطوط العدو لتعقب منصات إطلاق الصواريخ. بوصفه قائد ميدان، كان نورم صاحب توقيع مهمة أي شخص يعمل في منطقة مسؤوليته، ولم يكن راضياً عن حدوث عمليات خاصة هناك. كان يشاطر آخرين في الجيش النظامي شكوكهم بشأن المبالغة في تقويم قوات العمليات الخاصة عندنا. لم أر رأيه. أمضيت وقتاً عاكفاً على دراسة ما كانت هذه القوات قادرة على فعله عندما كنت في الكونغرس، وبعد أن أطلعني واين داوننغ، الذي كان يتولى قيادة قوات عملياتنا الخاصة المشتركة كما كان ضابطاً هائل القابلية وجنتلماناً حقيقياً، على خلاصة واقع هذه القوات، أصبحت مقتنعاً بأنه ورجاله ساهموا مساهمة ذات شأن في مجهودنا الرامي إلى وضع حد لهجمات السكود. لم يفشلوا. ما إن عمدنا إلى المزاوجة بين إغارات عمليات خاصة ودوريات جوية، حتى تقلص عدد الهجمات على نحو مسرحي مثير، ومع أنها تزايدت قليلاً مع تكيف العراقيين مع تكتيكاتنا، فإن الإسرائيليين فعلوا ما طلبناه منهم وظلوا خارج الحرب. لم أدرك مدى قوة إلحاح المسألة إلى ما بعد الحرب. مسؤول إسرائيلي كبير قال لي إن وحدات فدائية إسرائيلية صارت في الحوامات وكانت جاهزة للتوغل في العراق عند أحد المنعطفات، إلا أن المهمة أُلغيت بعد مكالمة هاتفية أجريتها للإبلاغ عن المدى الذي وصلت إليه جهودنا على صعيد مطاردة صواريخ السكود. أكدت أن من شأن التدخل الإسرائيلي أن يعرض القوات الأمريكية للخطر، بعد أن صارت وحداتنا على الأرض.

في الأيام الأولى التي أعقبت اجتياح العراقيين للكويت كان السوفييت إيجابيين ولم يكونوا قد اعترضوا على جهودنا الرامية إلى تحرير ذلك البلد. ولكنهم ما لبثوا، بعد إطلاقنا للعمليات، أن بدؤوا يحاولون ترتيب وقف لإطلاق النار بشروط لم نكن نستطيع قبولها. ألحوا طالبين إيقاف قصفنا مقابل وعد غامض من صدام بالامتثال لقرارات مجلس الأمن الدولي. وكنا، من جانبنا، نعرف أن أي توقف لم يكن ليفيد إلا في منحه وقتاً لإعادة التسلح وإعادة التجميع ولم نكن قادرين على قبول ذلك. كذلك كنا واضحين بشأن وجوب انسحاب صدام الفعلي من الكويت، لا مجرد إطلاق الوعود بذلك.

في الثامن والعشرين من كانون الثاني/يناير، بعد نحو أسبوعين من بدء الحملة الجوية، جاء وزير الخارجية السوفييتي الجديد، ألكساندر بسميرتنيخ، إلى واشنطن لعقد اجتماعات مع جيم بيكر. شعرت بأن السوفييت باتوا، وإمبراطوريتهم موشكة على الزوال، شديدي الحرص على الظهور بمظهر من ينطوي على أهمية عبر محاولة التفاوض حول وقف لإطلاق النار بيننا وبين العراقيين. وبدا أيضاً أنهم كانوا راغبين في أن يبينوا للعالم أنهم قادرون على الحؤول دون تعريض حليفهم العراقي السابق لخطر تجرع كأس هزيمة عسكرية كبرى. يُذكر للرئيس أنه حمل العبء الأكبر لجهود السوفييت الرامية إلى التفاوض على وقف لإطلاق النار، راداً بصبر على مكالمة بعد أخرى من غورباتشوف نفسه. غير أن جيم قرر في 29 كانون الثاني/يناير إصدار بيان مشترك مع بسميرتنيخ حول العراق دون إطلاع البيت الأبيض عليه أو عرضه علينا نحن في البنتاغون. كان البيان إشكالياً لإيحائه باستعدادنا الفعلي للقبول بوقف إطلاق نار مقابل وعد يقدمه صدام بالانسحاب. كذلك كان البيان يقترح نوعاً من الربط بين وقف إطلاق النار من جهة وعملية السلام الإسرائيلية ـ الفلسطينية من جهة ثانية. وعلى الرغم من أن لغة البيان المشترك كانت توحي بأن هذا لم يكن تغييراً في سياستنا، فإن البيان كان، في الحقيقة، تعبيراً عن تغيير، وقد فاجأنا جميعاً. كان البيان قد أُطلق يوم خطاب رئيس الجمهورية إلى الأمة، وأثار طوفاناً من الأسئلة المتدفقة بغزارة من الإعلام حول شروطنا لوقف النار.

يُسجَّل لجيم أنه اعتذر عن الدعسة الناقصة وقال لاحقاً إنها كانت إحدى خطاياه الكبرى كوزير للخارجية. جميعنا نقترف أخطاء. كانت لي أخطائي مع السوفييت قبل عامين حين تنبأت علناً بقرب غروب شمس غورباتشوف بعد تولي منصب وزير الدفاع. إلا أنني أظن أن جيم كان أكثر توقاً للسعي إلى نوع من التسوية التفاوضية من الرئيس. لكن الأخير بقي صامداً في موقفه.

في السابع من شباط/فبراير طرنا، كولن باول وأنا، إلى الصحراء. وفّرت لنا الرحلة فرصة رؤية القوات ـ والوقوف على مدى إثارتها للاعتزاز. قمنا بزيارة الفرقة 101 المحمولة جواً، وكان الجو داخل الخيمة التي اجتمعنا فيها مكهرباً.

كان كولن ذات يوم قائداً للواء الفرقة 101 الثاني، وحين مد يده إلى جيبه وأخرج هويته المعدنية - ذكرى ظل محتفظاً بها عن عهد قيادته للواء - غرق المكان في بحر من الانفعال.

كذلك عقدنا اجتماعاً مع طيارين ينفذون مهمات فوق العراق. أحدهم، وكان قد أصيب بنار دفاعات جوية عراقية وهو محلق في طائرته الإيه - 10، مدمرة الدبابات الموروثة عن حقبة السبعينيات، أطلعنا على الثقب الكبير في جناح طائرته وشرح لنا بالتفاصيل الدقيقة كيف كان قد أصيب ونجا وتمكن من العودة إلى القاعدة. لم يسبق لي أن أحسست بالملل من الإصغاء إلى جنود منخرطين في الكلام عن تجاربهم. كانوا طيبين جداً، جداً.

كان تدمير الدبابات العراقية إحدى المهمات الأساسية لحملتنا الجوية. في أوائل شباط/فبراير، كان بعض طياري الإف - 111 قد اكتشفوا أن طائراتهم، المطورة لمهمات قصف طويلة المدى في أثناء حرب فيتنام، كانت متفوقة على صعيد الاهتداء إلى الدبابات العراقية وتدميرها. فطائرات الإف - 111 كانت مجهزة بنظام تسديد ليزري (قائم على الأشعة دون الحمراء). كانت أعداد كبيرة من الدبابات العراقية قد خُبئت تحت أكياس الرمل أو خلف السواتر. اكتشف مخططو سلاح الجو عندنا أن العراقيين لم يكونوا في الغالب يطفئون دباباتهم ليلاً، وإن فعلوا، فإن الحرارة التي كانت هذه الدبابات قد امتصتها خلال النهار كانت تنبعث مع تعرض درجات الحرارة الليلية للانخفاض. في الحالتين كانت طائرات الإف - 111 تستطيع رؤية الدبابات الأكثر سخونة من الرمال المحيطة، على شاشات أنظمتها الليزرية فتدمرها. بدأنا ندمر عدداً كبيراً من الدبابات العراقية بهذه الطريقة. كان الطيارون يطلقون عليها: "صائدة الدبابات"[(6)].

على الرغم من أن المنهج كان ناجحاً، فإن تعقب الطرائد من قبل السي آي إيه بالإفادة من صور الأقمار الصناعية كان صعباً في الكثير من الأحيان. وكان هذا يعني أن تقويمات الوكالة لأعداد الدبابات المدمرة جاءت مختلفة كثيراً عن نظيرتها الصادرة عن القيادة المركزية، التي كانت تتمتع بميزة امتلاك أفلام قامت بتصويرها طائرات الإف - 111 وغيرها وهي تطلق النار على الدبابات. ولأننا كنا قد اتفقنا على أن هدفنا هو تقليص القوة المدرعة العراقية بنسبة 50 بالمئة قبل

إطلاق الحرب البرية، فإن الفرق في التقويمات كان ذا معنى. في أحد المنعطفات ذهب مدير السي آي إيه، بيل وبستر إلى الرئيس ليخبره بأننا لم نكن قد بلغنا هدفنا. أفضى الأمر إلى عقد اجتماع في مكتب برنت حضره باول، ووبستر، ومايك ماكّونيل، وأنا. عقدنا مقارنة بين تقويماتنا وأقنعنا سكوكروفت والرئيس بأن تقويمات القيادة المركزية هي الصحيحة وبأننا كنا، في الحقيقة، مستعدين للشروع في الحرب البرية.

في رحلتنا يوم الجمعة إلى الصحراء، أمضينا، باول وأنا، ثماني ساعات في اجتماع مع شوارتزكوبف وفريقه لدفع عجلة التعجيل بوتيرة الاستعدادات لإطلاق دولاب الاجتياح البري. أطلعونا على تفاصيل وضع الحملة الجوية وعرضوا علينا أحدث تقويمات تدمير القصف لكلٍّ من أصناف الأهداف الاستراتيجية، إضافة إلى حالة القوات العراقية في مسرح عمليات الكويت. قدموا لنا تلخيصاً موجزاً للانتشار الراهن لقواتنا البرية، وللمسائل اللوجستية، ولمدى قدرتنا على اتقاء الاستخدام المحتمل لأسلحة كيماوية ضد قواتنا.

المعلومة الأساسية التي كنا، باول وأنا، بحاجة إلى الحصول عليها من شوارتزكوبف كانت: تاريخ استكمال الاستعداد للشروع في العمليات البرية. أبلغنا ما ينطوي على معنى برأيه - تاريخ قريب من 21 شباط/فبراير، مع هامش ثلاثة أيام. بعد عودتنا إلى واشنطن، اجتمعنا في الطابق العلوي بالبيت الأبيض مع الرئيس بوش في الغرفة البيضوية الصفراء وأطلعناه على الأمر.

كان المسؤولون عن المجهود الحربي منا يعرفون أن الحملة الجوية كانت قد نجحت في تدمير جزء كبير من قوة صدام الجوية وإرسال الكثير من الباقي إلى إيران هرباً. كذلك كنا قد قلصنا قوة جيشه، غير أننا كنا نرى أن عراكاً كان لا يزال ينتظرنا. وكانت ثمة جملة من التكهنات المربكة: قال أحد خبراء مؤسسة بروكنغز إن عدداً يتراوح بين ألف وأربعة آلاف من الأمريكيين كانوا سيموتون. آخرون حذروا من احتمال سقوط عشرة آلاف قتيل أمريكي.

على الدوام ظل أحد الأسئلة الشاغلة لأذهاننا متمثلاً بما إذا كان صدام سيستخدم أسلحة كيماوية. تأكدنا من توفير الوقاية اللازمة لقواتنا، كما تأكدنا من توافر كميات كبيرة من صور عناصرنا وهم يتدربون على ارتداء تلك الأقنعة

الواقية. أردنا ان نكون على يقين من وقوف صدام على حقيقة أن جنودنا سيكونون اكثر استعداداً للتعامل مع أي هجوم كيماوي بالمقارنة مع جنوده هو. كذلك حرصنا جميعاً، الرئيس، وجيم بيكر، وأنا، على تمكين جيشنا من امتلاك طيف واسع من الخيارات القابلة للاستخدام ضد صدام إذا ما أقدم على استخدام أي أسلحة كيماوية. كنت قد حذرت من أن صداماً كان "يجب إفهامه أن الرئيس سيكون متوفراً على الطيف الكامل من القدرات. وإذا اتصف صدام حسين بالحماقة الكافية لاستخدام أسلحة الدمار الشامل، فإن من شأن رد الولايات المتحدة أن يكون متفوقاً مطلقاً ومدمراً".

بعد الحرب، قال وزير خارجية صدام، طارق عزيز، إن تصريحاتنا، التي كان العراق قد فسرها على أنها تهديدات بعمليات انتقامية نووية، كانت قد ردعت العراق عن استخدام أسلحة الدمار الشامل الموجودة بحوزته(7). وفي إحدى المقابلات، قال رئيس الاستخبارات العسكرية العراقية خلال حرب الخليج، الجنرال وفيق السامرائي، إن بعض صواريخ سكود كانت مزودة برؤوس حربية كيماوية ولكنها لم تُستخدم، "لأن الإنذار كان بالغ القسوة والفعالية. كانت قوات التحالف عازمة بالتأكيد على استخدام أسلحة نووية فيكون الثمن باهظاً جداً"(8).

يوم الجمعة الواقع في 22 شباط/فبراير، دلف الرئيس بوش إلى الحديقة الوردية ووجه إنذاراً إلى صدام، رداً في المقام الأول على المحاولات السوفييتية المتكررة والمتواصلة للتوسط من أجل التوصل إلى وقف لإطلاق النار. قال إن على العراقيين أن يبادروا حتى ظهر يوم السبت إلى الشروع في انسحاب فوري وغير مشروط من الكويت. وقبل الموعد الأخير بخمس وأربعين دقيقة في اليوم التالي اتصل غورباتشوف بالرئيس من جديد ليطرح اقتراحاً آخر جاء دون الانسحاب المباشر وغير المشروط. "لا"، قال الرئيس "الموعد الأخير، موعد أخير".

في الرابع والعشرين من شباط/فبراير، صباح اليوم التالي لبدء الحرب البرية، ذهبنا، لين وأنا، إلى كنيسة القديس يوحنا القريبة من البيت الأبيض. كان

الرئيس والسيدة بوش هناك، وكنت أعلم مدى توقه لمعرفة الأخبار الآتية من الصحراء. مَرَّرْت له رسالة تحمل عبارة: "سيادة الرئيس، الأمور تسير على نحو جيد جداً". دعانا، لين وأنا، إلى مقر إقامته في البيت الأبيض بعد الكنيسة، وفيما نحن جالسون في غرفة جلوس الطابق الثاني، أطلعته على عدم حصول أي خلل كبير حتى اللحظة. كانت الحملة تسير وفق الخطة. المقاومة خفيفة على امتداد الجبهة. كبرى المشكلات تمثلت بالتعامل مع العراقيين المستسلمين بأعداد هائلة لقواتنا.

كانت مجلة "تايم" قد نشرت خارطة حربية ممتازة نشرتُها على طاولة قهوة الرئيس. كانت الخريطة تبين القوات العراقية محتشدة على امتداد الحدود الكويتية - السعودية، والحرس الجمهوري منشوراً على الحدود العراقية - الكويتية، والمواقع العامة للجيش والمارينز الأمريكيين مع قوات حلفائنا. كانت الخارطة تبين أيضاً أسلحة بحرية مثيرة: حاملات الطائرات "ساراتوغا"، و"كنيدي"، و"تيودور روزفلت"، و"أمريكا" في البحر الأحمر؛ الناقلتان "ميدواي" و"رينجر"؛ والبارجتين "ميسوري" و"وسكونسن" في الخليج العربي. مستخدماً قلماً، مرَّرْت الرئيس عبر ما كان قد حدث خلال الليل.

كانت فرقتا المارينز الأولى والثانية قد خرقتا خط الدفاع العراقي الأول وكانتا تتعاملان مع الخط الثاني. كان اللواء الأول من الفرقة 101 متوغلاً نحو مئة ميل في الأراضي العراقية عند قاعدة عمليات كوبرا المتقدمة. وسيصل اللواء الثاني إلى هناك في غضون ساعتين أو ثلاث، أما اللواء الثالث فكان سيطبق على فوب غولد خلال ساعات الصباح. فوج الفرسان المدرع الثالث كان متوغلاً مسافة عشرين ميلاً دون أن يواجه أي مقاومة. والفيلق السابع الذي كان مبرمجاً أن يهاجم تلك الليلة، كان في وضعية الهجوم وبادئاً بتجاوز الساتر الذي أقامه العراقيون حاجزاً. أما الفرسان الأول، المبرمج تحركه في الأتش + 26 [H+ 26]، فيمكن أن ينطلق أبكر.

كان المصريون قد عبروا الحدود إلى داخل الكويت بعد التغلب على مقاومة خفيفة. وكان السعوديون على الشاطئ أيضاً يواجهون مقاومة خفيفة. العمليات الجوية كانت مستمرة حسب الخطة. الخسائر الرئيسية الوحيدة التي تم الإبلاغ

عنها هي حوامتان تصادمتا ولكن أفراد طاقميهما نجوا جميعاً كما قالت التقارير.

من المشجع أن تكون المقاومة على هذه الدرجة من الضعف، في هذه الساعات الأولى التي كنا قد توقعنا خلالها بعضاً من أشرس المعارك، كما لاحظت. غير أنني بادرت، بعد عرض كل هذه الأخبار السعيدة على الرئيس، إلى التنبيه إلى أن هذه لم تكن إلا تقارير أولى، وإلى أننا لم نكن بعد قد اشتبكنا مع أفضل قوات صدام: الحرس الجمهوري.

مع حلول بعد ظهر اليوم التالي، يوم 25 شباط/فبراير بدأنا نتلقى رسائل تقول إن صداماً بدأ يعد بالانسحاب مقابل وقف إطلاق نار بوساطة الأمم المتحدة. وعلى الرغم من أننا استطعنا رؤية بعض قوات صدام متجهة نحو الحدود العراقية وإلى خارج الكويت، فإن قوات أخرى كانت تواصل الاشتباك مع قواتنا. لم يكن صدام قد سلّم بعجزه، غير أنه كان يأمل، بوضوح، في الحصول على وقف إطلاق نار دولي من شأنه أن يمكنه من التراجع مع الحفاظ على أكثرية قواته سليمة.

كانت الأحداث على الأرض أسرع من أن تمكّن صدّاماً من الحصول على مساعدة الأمم المتحدة. ففي 26 شباط/فبراير بدأ تحرير مدينة الكويت بريادة القوات العربية. وحين اجتمعنا في المكتب البيضوي يوم 27 شباط/فبراير، وجدنا أنفسنا في مواجهة وضع غير متوقع ـ احتمال وصول الحرب إلى نهايتها بأسرع كثيراً مما توقعنا. كانت قواتنا قد زحفت بسرعة أكبر بكثير مما سبق لنا أن كنا قد تنبأنا، متعرضين لقدر أقل بكثير مما كنا قد خططنا له من التصدي. فأمام جبروت القوات الأمريكية المتقدمة، راح العراقيون يولون الأدبار هاربين، مع توجه كثير منهم شمالاً إلى خارج الكويت على الطريق الذي بات يعرف باسم شارع الموت. في طول العالم وعرضه جرى بث فيض من صور الدبابات المحترقة والعربات المهجورة على امتداد الطريق.

ومع اتضاح حقيقة أن قواتنا كانت قد ألحقت هزيمة كبرى بالعراقيين، عكفنا على النظر في مسألة توقيت إصدار أمر التوقف. بعد أشهر من التخطيط والتعامل مع قضايا النقل والإمداد لإيصال قواتنا إلى الصحراء، وجدنا أنفسنا أمام تحول مفاجئ، وجدنا أنفسنا بعد ثلاثة أيام من العمليات البرية جالسين في

المكتب البيضوي لإقرار موعد الدعوة إلى التوقف. الجنرال باول والرئيس كانا شديدي الحرص على عدم مطالبة جنودنا الشباب بمواصلة إطلاق النار على عدو بدا منسحباً بعد تجرع كأس الهزيمة.

مستخدماً هاتفاً آمناً في أحد أدراج طاولة الرئيس، اتصل باول مع شوارتزكوبف في الرياض. قال للأخير إن الرئيس يريد أن يعرف الموعد الذي نستطيع فيه أن ننهي الأمر. يا له من سؤال كنا جميعاً شغوفين بمعرفة جوابه! كان شوارتزكوبف قد عقد للتو مؤتمراً وجيزاً في الرياض أبلغ فيه الإعلام أننا كنا قد أنجزنا مهمتنا، وكان هو مؤيداً للتوقف بالسرعة العملية الممكنة. التمس بعض الوقت للتشاور مع القادة. وبعد بضع ساعات اجتمعنا من جديد، وأفاد شوارتزكوبف بأن قادته وافقوا على أننا أصبحنا قادرين على الدعوة إلى وقف الأعمال العدائية. أحدهم طرح فكرة حرب مئة ساعة، الأمر الذي كان من شأنه أن يعني وقف القتال في منتصف الليل بتوقيت واشنطن.

لدى اتخاذ القرار الذي قضى بوضع حد للحرب، كان ثمة تشوش حول المدى الذي قطعته قوات التحالف متوغلة في عمق العراق. أفضى هذا إلى دعوة نوع من التوقف قبل إنجاز سد طرق الهروب إلى داخل العراق، ما أدى إلى فرار بعض القوات العراقية، بما فيها الوحدات المدرعة العائدة للحرس الجمهوري. كان ثمة ارتباك إضافي حين أعلن شوارتزكوبف أن مفاوضات وقف إطلاق نار كانت ستُعقد في صفوان داخل الحدود العراقية مع الكويت مباشرة. وقد تبين أن صفوان هذه لم تكن تحت سيطرة التحالف. بمساعدة بعض التحليقات المنخفضة لطائرات إيه ـ 10، تمكنت قواتنا من إقناع العراقيين بضرورة ترك الموقع.

تمثل العراقيون في صفوان بجنرالات صدام، الأمر الذي بدا آنذاك مناسباً، لأن شوارتزكوبف، مع اللواء السعودي خالد بن سلطان، كانا يمثلان التحالف. كانت إحدى النتائج أن صداماً لم يعترف علناً قط بالهزيمة، وكان علينا أن نصر على ذلك. تكراراً كنا قد أُبلغنا من قبل أجهزتنا الاستخباراتية كما من جانب حلفائنا العرب عن أن صداماً لم يكن لينجو من الضربة التي أنزلها التحالف به، إلا أنه نجح في قلب واقع تصديه لهجوم هائل ونجاته منه إلى انتصار شخصي.

كان من شأن هذا أن يظل صعباً لو كنا قد طالبناه بإقرار حقيقة قيامه بجر بلده إلى الهزيمة.

كان شوارتزكوبف أكثر تساهلاً مما ينبغي مع العراقيين حين جلس معهم ووافق على شروط وقف النار. حين جادلوا زاعمين أنهم بحاجة إلى حواماتهم من أجل النقل الرسمي لأننا كنا قد دمرنا أكثرية الجسور والطرق الرئيسية في البلاد، وافق شوارتزكوبف على السماح بتحليق الحوامات، حتى المسلحة، فوق العراق.

في شباط/فبراير قبل بدء الحرب وفي آذار/مارس بعد انتهاء الحرب، أطلق الرئيس بوش تصريحات علنية موحياً بأن على العراقيين "أن يأخذوا الأمور بأيديهم" وأن يجبروا صدام حسين على "التخلي عن الحكم". كنا نأمل ان ينقلب جيش صدام، خصوصاً الجيش، عليه بعد الهزيمة المهينة التي كنا للتو قد ألحقناها به في ساحة المعركة، ولكن أملنا خاب. كانت ثمة انتفاضات شعبية، لا سيما بين الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب. بعد انتهاء الحرب بستة أسابيع، التحقت الولايات المتحدة في الشمال بركب البريطانيين والفرنسيين على صعيد إقامة منطقة حظر جوي واجتراح ملاذ آمن للأكراد لمنع صدام من ذبحهم ولوقف التدفق اللافت للاجئين منهم عبر الحدود على تركيا.

في الجنوب، بدأ صدام، مستفيداً من حواماته، حرباً شعواء ضد الشيعة. في إحدى المراحل علمتُ أن ما يزيد على عشرة آلاف لاجئ كانوا قد لاذوا بالجزء العراقي الذي كان لا يزال خاضعاً لسيطرة الجيش الأمريكي وراحوا يتوسلون جنودنا سائلينهم أن ياخذوهم معهم. بلغني أن شوارتزكوبف كان قد أصدر أوامر تقضي بمنع جنودنا من التعامل مع اللاجئين. بعثت برسالة إلى نائب شوارتزكوبف، بوب غيتس، قلت فيها إننا غير قادرين على مغادرة العراق حتى يتم التوصل إلى نوع من الاتفاق المشرف لمصلحة هؤلاء الناس. وافق السعوديون على إقامة مخيم للاجئين.

وبعد عام ونصف أقمنا منطقة حظر جوي في العراق الجنوبي، إلا أن صداماً واصل اضطهاده للشيعة بقواته البرية. فقد أمر بتجفيف الأهوار عند ترافد نهري الفرات ودجلة، مهجِّراً الآلاف من عرب الأهوار الذين هم شيعة

بأكثريتهم الساحقة. إخفاقنا في فعل المزيد لحماية الشيعة من صدام ساهم في خلق شعور بالخذلان والريبة، شعور فَعَلَ فعله السلبي في علاقاتنا بعد اثني عشر عاماً حين كانت أمريكا في مجابهة مع صدام مرة أخرى.

رد فعلنا على انتفاضة الشيعة كان نابعاً في جزء منه من تصور خاطئ لشيعة العراق - تصور كان سيستمر بعناد حتى دخولنا ثانية في مجابهة مع صدام عام 2003. كثيرون في الحكومة الأمريكية، ولا سيما في وزارة الخارجية، يرون شيعة العراق حلفاء طبيعيين لإيران - الذي هو الآخر بلد شيعي بأكثريته الساحقة. الإيرانيون فرس والعراقيون عرب، ولكن وزارة الخارجية ترى الروابط الطائفية بين المسلمين الشيعة أقوى من الروابط الثقافية بين العرب. قامت هذه النظرة على إغفال حقيقة أن آلافاً من شيعة العراق كانوا قد قاتلوا إيران طوال ثماني سنوات في الحرب الإيرانية - العراقية. كذلك يقوم التقسيم بين الفرس والعرب على أساس غير صحيح بنظري. غير أن مسارعة إيران إلى التعبير عن تأييد مكشوف للانتفاضات في 1991 بدت مؤكِّدة صحة وجهة نظر وزارة الخارجية حول الوضع وسلطت الضوء على مدى تعقيد الخيارات التي كنا نواجهها.

آنذاك كنا قد حققنا انتصاراً عسكرياً هائلاً وتمثل الزخم بالتزام وعودنا. كنا قد قلنا لحلفائنا العرب، السعوديين تحديداً، إننا سنحشد قوات تكفي لتحرير الكويت، وسنرحل بعد إنجاز المهمة، إننا لم نكن راغبين في التحول إلى قوة محتلة تاركين قواتنا القتالية في الصحراء على المدى الطويل. يضاف إلى ذلك، أن الأمم المتحدة وكونغرس الولايات المتحدة لم يوافقا على أي شيء أكثر من تحرير الكويت. ونظراً لأن مهمتنا باتت ناجزة، كان علينا ان نبدأ بإعادة قواتنا إلى الوطن.

أما بعد اثني عشر عاماً، حين ذهبنا إلى قلب بغداد، وأزحنا صداماً، وحررنا العراق، فقد بدا العالم مختلفاً جداً. كنا قد تعرضنا لعدوان أودى بحياة الآلاف في الوطن الأمريكي. راودتنا شكوك ومخاوف حول أن يكون صدام بؤرة خطرة جامعة بين الإرهابيين وأسلحة الدمار الشامل. كنا قد حاولنا على امتداد اثني عشر عاماً، مع ستة عشر قراراً وعقوبات دولية صادرة عن مجلس الأمن



سعيداً في نبراسكا: على الدرج الأمامي بلنكولن في الشهر السادس من العمر



فوق: جد أبي: الكابتن صمويل فلتشر تشيني، الذي خدم في فرقة أوهايو الحادية والعشرين بين عامي 1861 و1865. أحد الأصدقاء الذين قاتلوا معه في معركة نهر ستونز قال عنه: "صنديد".

تحت من اليسار إلى اليمين: والدا أمي، ديف وكلاريس ديكي، اللذان كانا يعملان طباخين لدى اتحاد الخط الحديدي الباسيفيكي في أربعينيات القرن العشرين. والدا أبي، توماس هيربرت "برت" ومارغريت تشيني، على الشرفة الأمامية لمنزلهما في سومنر في نبراسكا، 1946.

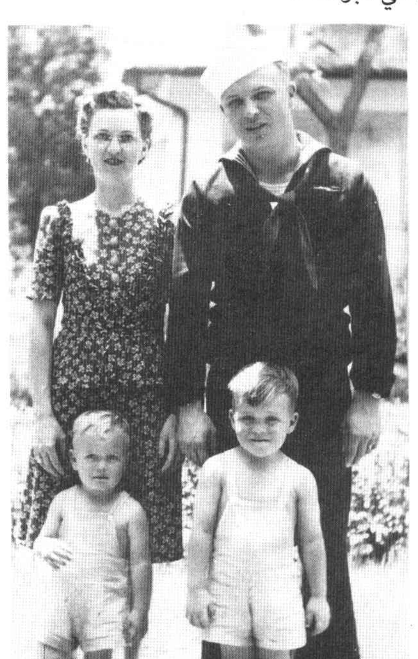


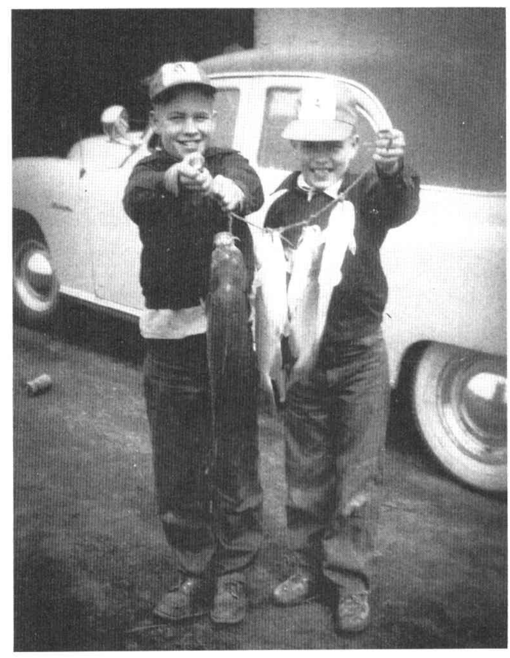


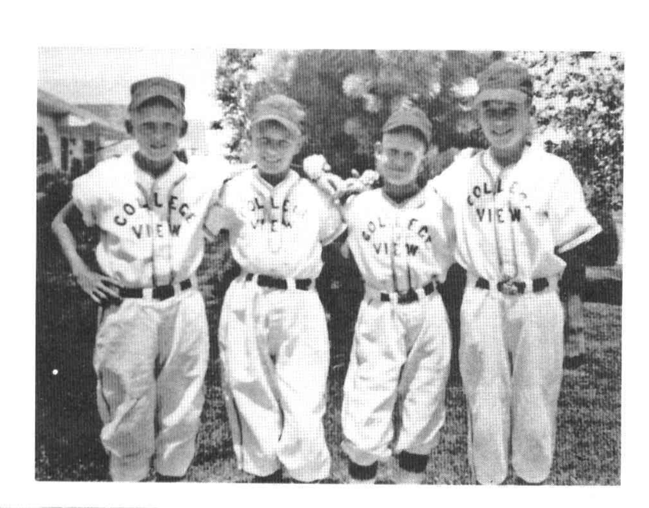




مع حركة عقارب الساعة من الأعلى يساراً: أمي: ماجوري ديكي، مع إحدى زميلاتها في فريق الكرة اللينة، أمام مقهى ديكي في سيراقوسة في نبراسكا. أبوا أمي كانا يشغلان مقهى قبل شروعهما في العمل لدى الاتحاد الباسيفيكي؛ مع خالي إلمر وأخي بوب، في مزرعة إلمر بناحية دوسون في نبراسكا، حيث كنا، بوب وأنا نقيم، لدى قيام أمي بزيارة أبي في سان دييغو خلال الحرب؛ بوب وأنا نتباهى بصيدنا. واقفان نحن أمام فرايزر عائلة تشيني موديل 1947؛ أبي في إجازة من البحرية خلال الحرب العالمية الثانية مع أخي بوب وأنا في سومنر في نبراسكا.





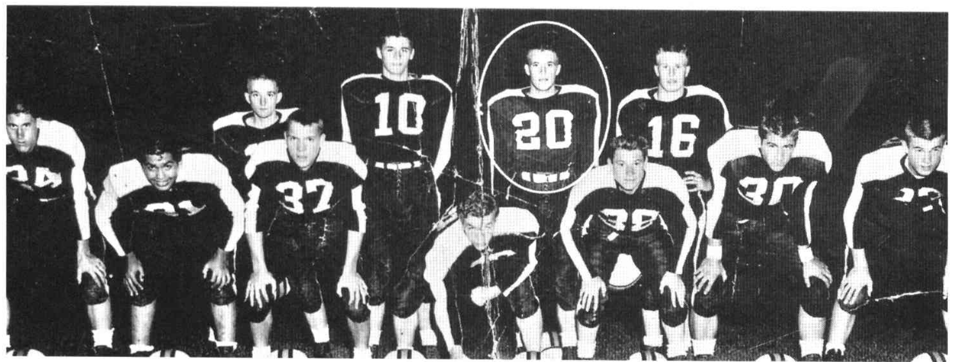


مع بوب وصديقينا إد وفيك لارسون في زيّ فريقنا الصغير بلنكولن في نبراسكا، في 1952. أنا في أقصى اليمين.

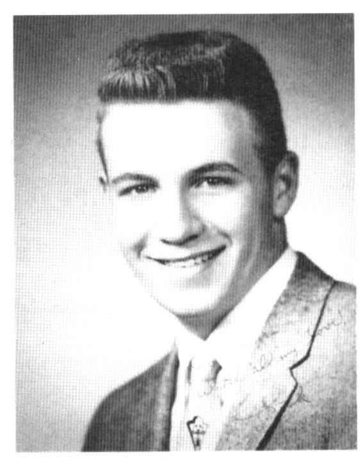


يساراً: مع لين في ثانوية ناحية ناترونا بكاسبر في وايومنغ، 1959.

تحت: فريق كرة قدم ثانوية ناحية ناترونا - الموستانغ - كاسبر في وايومنغ، 1958. أنا صاحب الرقم: 20.







لين فنسنت وأنا تبادلنا صور كتاب العام. أحد أفضل القرارات التي اتخذتها تمثل بموعدي الأول مع لين في الثلاثين من كانون الثاني/يناير 1958.



لين وأنا على دراجة أمام منزل أمي وأبي في كاسبر في وايومنغ، في أوائل ستينيات القرن العشرين.



حفل زفافنا. أختي سوزان هي الوصيفة الصغيرة أمام الصف. جو مير، في أقصى اليسار، وديف نيكولاس، الثالث من اليسار، وكارين نيكولاس، الثانية من اليمين، ساعدوني لاحقاً في الترشح لعضوية الكونغرس. شقيق زوجتي: مارك، في أقصى اليمين كان أمين صندوق الحملة.



مغادراً الكنيسة قي 29/8/1964. الإشبين: ديف نيكولاس إلى اليسار، والإشبينة جانيت روجرز إلى اليمين.



لقاء مع الرئيس نكسون للمرة الأولى، برفقة دون رامسفيلد في المكتب البيضوي عام 1970. كنت قد رأيت الرئيس جونسون في خطابه الأخير أمام اجتماع مشترك لمجلسي الكونغرس في كانون الثاني/يناير 1969. كذلك كنت قد رأيت الرئيس كنيدي عندما زار جامعة وايومنغ سنة 1963 والرئيس هاري ترومان في 1948 حين توقف خلال حملته في نبراسكا، إلا أن نكسونٍ كان رئيس الجمهورية الأول الذي التقيته فعلاً. صورة رسمية من البيت الأبيض.

استعراض خطط ذات علاقة بمؤتمر الجمهوريين القومي مع الرئيس فورد في نزل آسبن بكامب ديفيد، آب/أغسطس 1976. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد كنرلي.



مع الرئيس فورد خلال إحدى جلساتنا اليومية في المكتب البيضوي، تشرين الثاني/نوفمبر 1974. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ريكاردو توماس.



في غرفة مجلس الوزراء بالبيت الأبيض يوم 1976/6/17، لدى مناقشة خطط إجلاء الأمريكيين من لبنان مع الرئيس فورد وأعضاء مجلس الأمن القومي لديه، بمن فيهم مدير السي آي إيه جورج هيربرت ووكر بوش، ومستشار الأمن القومي برنت سكوكروفت، ووزير الخارجية هنري كيسنجر. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد كنرلي.



في المكتب البيضوي يوم 1975/4/28، مع الرئيس فورد ودون رامسفيلد، الرجلين اللذين غيّرا حياتي. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد كنرلي.



مع وزير الخارجية هنري كيسنجر ومستشار الأمن القومي برنت سكوكروفت في فيل في كولورادو، صيف 1976. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد كنرلي.



استراحة من حملة العام 1976 الرئاسية في معرض ولاية تكساس، مع مساعدي فوستر تشينوك. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد كنرلي.



مع لين، وماري، وليز، وكلبنا سيرانو، على الشرفة الأمامية لمنزلنا بكاسبر في وايومنغ، خلال حملتي الأولى لعضوية الكونغرس، 1978. تصوير ديفيد كنرلي.

لقاء مع ناخب من وايومنغ في أثناء حملة 1978. تشيني للكونغرس.



GIVE CONGRESS OUR BEST.

RE-ELECT DICK CHENEY!

It's been six years since we first sent Dick Cheney to cast our vote in the U.S. House of Representatives. When he first ran for office, Dick was a talented, energetic young Wyomingite with valuable experience as White House Chief of Staff for former President Gerald Ford.

During his six years in the House of Representatives, he has combined that talent, energy and experience with plain hard work to become a leader in the Congress – an institution with 535 members where Dick is one of the top four elected officials among House Republicans and only the second Wyoming representative in history to serve as an elected House leader.

At home in Wyoming, Dick stays in touch with the people he represents. Being a member of Congress is a full-time job often involving 12-hour days, yet Dick effectively carries out his duties in Washington while maintaining close contact with his constituents. He has made more than 112 trips to Wyoming, traveled almost half a million miles, and spent close to 575 days in his state since he first left Casper to represent us in Congress. To put it in more personal terms, he cares about Wyoming people, and it shows in the way he does his job.

It isn't exaggerating to say that Dick Cheney is probably the best Congressman Wyoming has ever had.

فوق: صورة من الحملة، ملتقطة على الطريق بين كاسبر ورولنز في وايومنغ، 1978. تصوير ديفيد كنرلي.

يميناً: إحدى نشرات دعايتي الانتخابية، 1980. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد كنرلي.



مع الزميلين عضوي وفد الكونغرس من وايومنغ: آل سيمبسون ومالكولم والوب في اجتماع انتخابي مع الرئيس رونالد ريغان في تشيين في وايومنغ، 1984. تصوير ديفيد كنرلي.



مغادرة مسكن البيت الأبيض في 1990 مع الرئيس بوش بعد تقديم تقرير له عن إحدى زياراتي للشرق الأوسط خلال عملية عاصفة الصحراء. تصوير ديفيد كنرلي.

على ظهر دبابة إم 60 متحدثاً مع المارينز المنشورين في المملكة العربية السعودية خلال عملية درع الصحراء، 22/12/1990. من صور البنتاغون الرسمية/ تصوير بيت وليمز.

1/12 مع الرئيس بوش في مسكن البيت الأبيض يوم الأحد الواقع في 24/2/ 1991، في الصباح التالي لإطلاق عاصفة الصحراء. أقدم تقريراً موجزاً إلى الرئيس عن تقدمنا في الساعات الأولى من الحرب البرية. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديف فالديز.



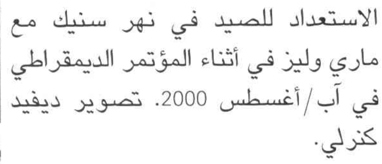


يساراً: في المملكة العربية السعودية مع الجنرالين باول وشوارتزكوبف، إعداداً لمؤتمر صحفي خلال عملية عاصفة الصحراء، 1991/2/10. تصوير ديفيد كنرلي.

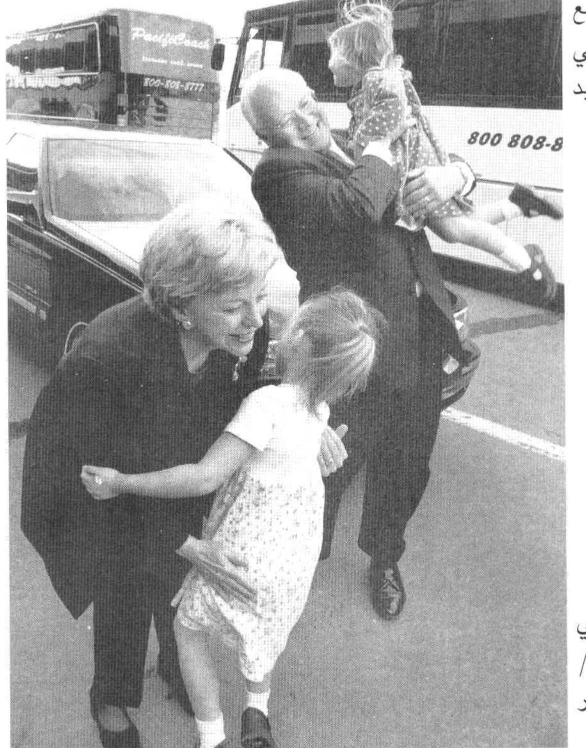
يميناً: عرض تيكرتيب بمدينة نيويورك تكريماً للقوات العائدة من عاصفة الصحراء. لين وأنا في المقدمة. خلفنا: كولين وآلما باول ونورم وبرندا شوارتزكوبف، 1991/6/10. تصوير ريك مايمان/ سيغمال/ كوربيس.



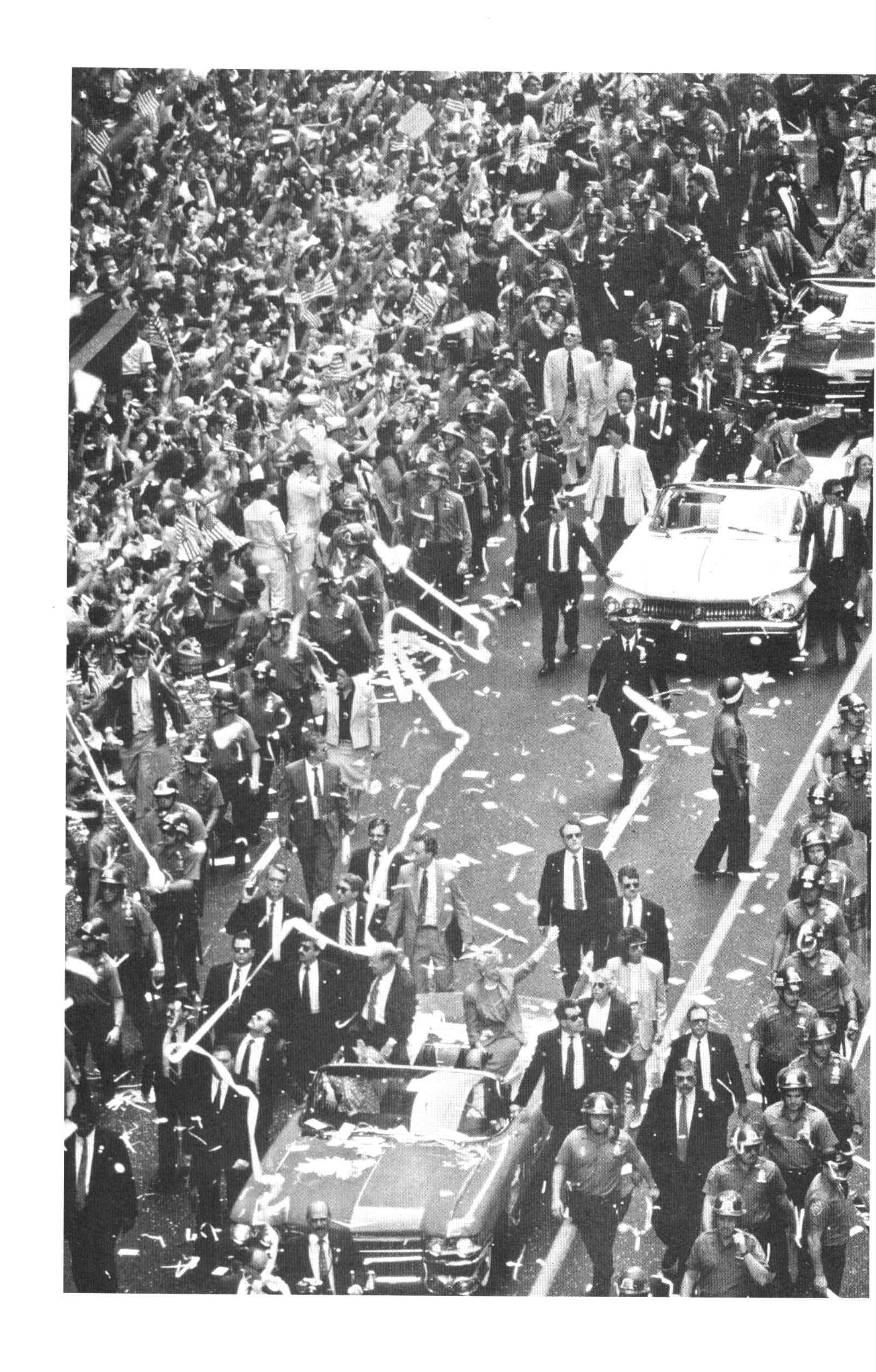
الحصول على الوسام الرئاسي للحرية من الرئيس جورج أتش دبليو بوش، 1991/7/3. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديف فالديز.



الاستعداد للصيد في نهر سنيك مع ماري وليز في أثناء المؤتمر الديمقراطي في آب/أغسطس 2000. تصوير ديفيد كنرلي.



حفيدتانا كيت وإليزابيث تلتحقان بنا في الحملة بكاليفورنيا. تشرين الأول/أكتوبر 2000. تصوير إم سبنسر غرين/الأسوشيتد برس.

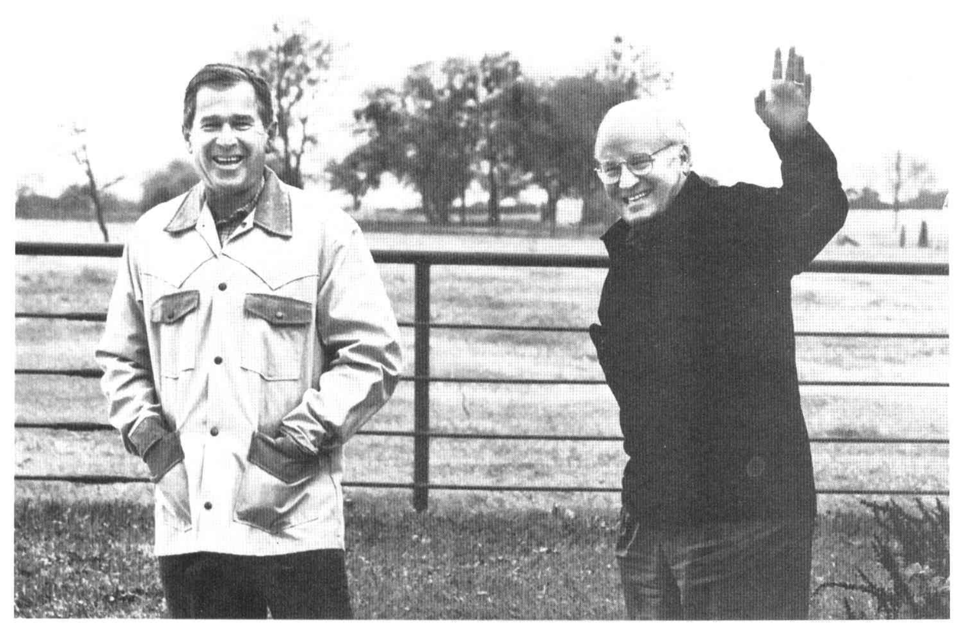




ليز وماري في ليلة انتخاب 2000 وهما تردان على اتصالات الشبكات نيابة عن جورج دبليو بوش وعني. قبل الموعد ولكنه احتفال ودي صادق، ثمة جيم بيكر، وآل سيمبسون وراءهما. تصوير ديفيد كنرلي.



في مزرعة الحاكم بأوستن التكساسية. في وقت متأخر من تلك الليلة بعد قيام آل غور بسحب اعترافه بالهزيمة، مع لين، وجورج ولورا بوش، وجيب بوش، وبوش الأب: الرئيس رقم: 41، وآل وآن سيمبسون، وهيثر، وماري، ورئيس الحملة دون إيفانس. تصوير ديفيد كنرلي.



في مزرعة آل بوش بكروفورد خلال أيام إعادة العد السبعة والثلاثين. تصوير ديفيد كنرلي.

مع لين، وليز، وماري على منصة الاستعراض الرئاسية خلال موكب التنصيب، 2001/1/20. من صور البيت الأبيض الرسمية. تصوير كارين بالارد.

الدولي، احتواء التهديد الذي كان صدام يشكله. مع حلول عام 2003 كانت منظومة العقوبات تلك متهاوية، كان صدام قد أفسد برنامج النفط من أجل الغذاء الدولي بشراء مواد ممنوعة ومراكمة الثروة الشخصية، وكان يمضي وقته عاكفاً على التخطيط للمبادرة، حالما يستطيع، إلى إعادة تركيب برامجه التي كانت قد أُوقفت أو تعرضت للإبطاء في أعقاب عاصفة الصحراء. حسابات طبيعة التهديد الذي كان صدام يشكله لأمريكا وما يستدعيه التصدي له من تحرك عسكري كانت مختلفة جداً في 2003.

إلا ان تلك القرارات كانت على بُعد سنوات طويلة. ما من أحد في فريق الأمن القومي لدى الرئيس جورج أتش دبليو بوش كان يجادل في 1991 طارحاً ضرورة الزحف على بغداد وإطاحة صدام. ومع أن عدداً من حالات إساءة التقدير المحتملة قد حصلت في نهاية الحرب، فإن المرء لا يستطيع، باعتقادي، أن يقول إنها أحدثت تغييراً أساسياً في المشهد الاستراتيجي إلا بقدر كبير من الصعوبة.

مع عودة قواتنا من الصحراء إلى الوطن، كان ثمة شعور ملموس بأن أداءها الرائع كان قد استعاد إحساساً بالفخر كنا قد فقدناه في فيتنام. استقبل الوطن رجال القوات المسلحة ونساءها بما هم جديرون به من احتفالات.

في الثامن من حزيران/يونيو 1991، كرّمنا قواتنا في واشنطن. افتُتح النهار بقداس في مقبرة آرلنغتون الوطنية، حيث أحيينا ذكرى أولئك الذين لم يعودوا وعبّرنا عن الامتنان للأسر التي كانت ستحدّ عليهم إلى الأبد. تحدث الرئيس بوش عن حلم "كومنولث الحرية" الذي يشكل أساس ما نحن كشعب:

> *أمريكا تدوم لأنها تجرؤ على الدفاع عن ذلك الحلم. ذلك الحلم يجمع حقول الفلاندرز إلى قمم النورماندي، ومرتفعات كوريا المكللة بالثلج، وحقول الأرزّ في دلتا الميكونغ. لقد عاشته في السنة الماضية فوق الصحارى الجرداء، وعلى متون البواخر المبحرة، وفي طائرات نفاثة تخترق الأميال فوق أراض معادية. إنه حلم يعيش لأننا تجرأنا على المخاطرة بأغلى ما عندنا ـ بأبنائنا وبناتنا، بإخوتنا وأخواتنا، بأزواجنا وزوجاتنا ـ بأروع القوات المسلحة التي سبق لها أن توفرت لأي بلد.*

كذلك تحدث الرئيس عن الشرائط الصفراء، ربما في إحدى أوضح الإشارات إلى أن وصمة فيتنام قد زالت. منذ لحظة بدء الصراع راح الأمريكيون في طول البلاد وعرضها يعبرون عن التأييد لقواتنا عن طريق ربط شرائط بأغصان الأشجار وتثبيتها على الياقات، ملتحقين، كما قال الرئيس بوش، بركب "أيدي هذه الأمة وأرواحها".

غادرت مقبرة آرلنغتون الوطنية إلى منصة استعراض على جادة كونستتيوشن آفنيو لرؤية موكب قواتنا وهي تمر. لم أستطع إلا أن أتذكر والد جدي، صمويل فلتشر تشيني الذي كان قد سار في موكب مماثل بعد الحرب الأهلية. كانت أمريكا قد رحبت أيضاً بأبطالها العائدين من الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية في مواكب واستعراضات عمت شوارع عاصمتنا الجميلة.

وبعد بضعة أيام أقامت مدينة نيويورك عرضاً خاصاً. سارت قواتنا عبر وادي الأبطال في يوم ربيعي مجيد، وكنا؛ كولن باول، ونورم شوارتزكوبف، وأنا متوفرين على ما يكفي من الحظ للانضمام إليها مع أزواجنا. كانت الأعلام الأمريكية في كل مكان، وبالونات عملاقة حمراء وبيضاء وزرقاء ملأت الجو، وقصاصات الورق واللصاقات المنهمرة كالمطر على رؤوس الجنود تراكمت في الشوارع واضطرت كناسي الشوارع للاندساس بين أرتال المواكب لتنظيف الطريق.

قبل نفاد وقت الاحتفال، أجريت اتصالين هاتفيين - واحد مع ديفيد إفري الذي كان قائد سلاح الجو الإسرائيلي يوم 7 حزيران/يونيو 1981، حين أقدمت إسرائيل على تنفيذ غارة جريئة لتدمير مفاعل أزيرق النووي العراقي. على الرغم من أن الإسرائيليين كانوا قد جوبهوا بفيض من الشجب الدولي لذلك الهجوم، فإنهم استحقوا، باعتقادي، امتناننا، وأردت أن أشكر إفري. لولا تحرك إسرائيل الشجاع، لربما كان قد تعين علينا أن نواجه صدام حسين مسلحاً نووياً في 1991.

كذلك هاتفت رونالد ريغان. كنا قد ربحنا هذه الحرب بالجيش، وبسلاح البحرية، وبالقوة الجوية، وبفيالق المارينز التي كان قد ساهم في بنائها. شكرته

على التزامه الثابت بدفاع وطني قوي وسنوات دعمه للمؤسسة العسكرية الأمريكية. توفرت لي فرصة زيارة مع الرئيس السابق في الشهر التالي عندما كنت في لوس أنجلس لحضور مهرجان منظمات الخدمة المتحدة (اليو إس أو) لاستقبال القوات. ذهبت إلى بيت ريغان في بل إير، حيث استقبلتني السيدة ريغان عند الباب. هي وزوجها اصطحباني إلى غرفة الجلوس وأجلساني في أريكة كبيرة. قام الرئيس ريغان بجر إحدى الوسائد ليجلس قربي في أثناء كلامنا عما كان يجري في العالم. ركز على كل تفصيل كنت أسرده عن انتصارنا في الخليج ومازحني حول التطورات الجارية في الاتحاد السوفييتي، الذي كان الآن مكاناً مختلفاً جداً عما كانه حين كان رئيساً. كان شرفاً عظيماً لي أن أقوم بإطلاعه على ما كنت أعرفه، لأن جزءاً كبيراً من التغيير الذي كنا شهوداً عليه كان مترتباً على الصرح العسكري الأمريكي الذي أَصَرَّ على بنائه. كان ذلك مترتباً أيضاً على الوضوح المعنوي - الأخلاقي لرؤياه. لم يتردد خوفاً من تسمية الاتحاد السوفييتي ما كانه: إمبراطورية الشر.

إضافة إلى الإنجاز الناجح لمهمتنا في الخليج العربي، كنا قد بذلنا جهوداً كبيرة لإشراك دول أخرى. أَعدّ جهاز العاملين معي مفهوماً أطلقوا عليه مازحين اسم: "عملية الكأس الصفيح"، لتشجيع بلدان أخرى على اقتسام العبء المالي للحرب. بقيادة الرئيس بوش والمساعدة الرائعة من أعضاء مجلس الوزراء مثل وزيري الخارجية والخزانة، جيمس بيكر ونيكولاس بريدي على التوالي، تلقت الولايات المتحدة مبلغ 53.7 مليارًا من الدولارات تعويضاً عن التكاليف التي بلغت 61.1 ملياراً.

في مرحلة التمهيد للحرب، كان الجنرال كيلي وأعضاء في هيئة الأركان المشتركة قد نظموا لي سلسلة من جلسات الإيجاز المعمق حول أوجه مختلفة لمناحي الحرب العملياتية. وبعد انتهاء الحرب عقدنا عدداً من حلقات البحث عن الدروس المستخلصة. كانت تلك جلسات مهمة مكّنتنا، مثلاً، من الاطلاع على قدرات حوامات الآباتشي عبر الاستماع المباشر إلى قبطان كان قد حلّق لأداء إحدى المهمات في أولى ليالي الحرب الجوية في العراق. أحد مجالات التقدم

المهمة نسبة إلى الحروب السابقة تمثل بالذخائر الذكية. فالاستخدام الواسع الأول لهذه الأسلحة "الذكية" القابلة للتوجيه بدقة عالية إلى الهدف عبر الإفادة من الليزر أو تكنولوجيات أخرى، كان في عملية عاصفة الصحراء. على الرغم من أن جل الأسلحة التي أسقطناها في ذلك النزاع كانت قنابل "صماء" أو "جاذبية" فإننا كنا شهود عيان على ما تستطيع القنابل الذكية أن تفعله. كان من الممكن تسديدها بدقة لاستهداف شبكات الاتصالات أو شبكات الطاقة لدى العدو، بما يمكننا من شل وظائف أساسية لعاصمة الخصم، مثلاً، بأدنى حدّ من الخسائر.

بعد بضعة أشهر من الاحتفال بحرب الخليج، كنت غاطساً حتى الركبتين في مياه نهر دين بكولومبيا البريطانية، موشكاً على إلقاء صنارتي وحالماً باصطياد فرخ من السمك بوزن عشرين رطلاً. كان ذلك في 19 آب/أغسطس، 1991. كان الصيد بطيئاً والماء عالياً من جراء سيول الموسم الماضي، غير أنه كان قد بدأ يصفو، وكنت لتوي قد رأيت الصياد القريب مني معلقاً فرخاً كبيراً بصنارته.

سمعت أحدهم ينادي: "سيادة الوزير!" نظرت نحو ضفة النهر فرأيت خبير الاتصالات عندي ملوحاً لي وهو يصرخ: "هناك انقلاب في الاتحاد السوفييتي! نائب الوزير آتوود يريد أن يتحدث معك". طُويت صفحة فرخ السمك وخضت في الماء وصولاً إلى ضفة النهر، ثم خرجت من الماء وتسلقت حافة النهر، ومشيت مع خبير الاتصالات إلى حيث كان قد نُصب هاتف قمر صناعي يعمل بالطاقة الشمسية في ذلك الصباح. أجرينا اتصالاً آمناً مع البنتاغون. قال آتوود: "خُلع غورباتشوف، يا ديك!" - مسرفاً في التسرع كما تبين - حين أمسكت به على الخط. "لا نعلم ما إذا كان الانقلاب على قدم وساق أم ناجزاً. الأمور تتحرك بسرعة". كان لا بد لي من العودة إلى واشنطن.

نهر دين بعيد، ذلك هو سبب الجودة العالية للسمك فيه، وكانت العودة إلى واشنطن معقدة. بعض الزبائن الذين كنت مخيماً معهم على نهر دين كان لديهم عوامة مصنوعة منزلياً، قارب نفاث مسطح القاع مصنوع تحديداً للعمل في هذا النهر. أخذونا، عنصر الأمن، وخبير الاتصالات، وأنا، مع معداتنا، في القارب ونزلوا بنا مع النهر حتى رأس الشلالات، حيث تركنا القارب ونقلنا حوائجنا إلى

حافلة مدرسية قديمة تمهيداً لرحلة الطريق الجبلية الوعرة الملتفة حول الشلالات. ومن هناك توجهنا إلى مهبط قريب حيث كانت طائرة براري مستأجرة أحادية المحرك بدواليبها المطاطية العملاقة التي كانت تمكنها من الهبوط على مدارج استثنائية الوعورة، في الانتظار. أقلتنا تلك الطائرة إلى برنس جورج، في كولومبيا البريطانية، حيث كانت طائرة سلاح جو طراز سي - 20 تنتظرنا لتمكيننا من قطع باقي طريق العودة إلى العاصمة.

مع تحليق السي - 20 متسلقة نحو ارتفاعات شاهقة فوق أنهار متجمدة وقمم حادة رحت أفكر بما يمكن للأحداث في الاتحاد السوفييتي أن تعنيه. خلال العامين الأخيرين درجت على عادة قضاء وقت في اجتماعات سبتية في قاعة مؤتمرات مكتبي بالبنتاغون مع خبراء في شؤون الاتحاد السوفييتي من داخل الحكومة وخارجها. وجدت هذه الجلسات ذات الجدوى الاستثنائية سبيلاً لجمع أناس أنكياء جداً في مكان واحد والخروج من زحمة إدارة الأزمات اليومية للتفكير استراتيجياً بالتطورات الجارية في عمق كيان خصمنا الأهم والأخطر وما قد تعني بالنسبة إلى سياسة أمريكا الدفاعية.

دخلت في دارة اتصال هاتفي متشعب مع كل من الجنرال باول، والأميرال مايك ماكّونيل، والمقدم جون باري، مساعدي العسكري الثاني. تحدث باول عن اجتماع في البيت الأبيض انتهى للتو. قال إن الرئيس كان على الهاتف مع قادة عالميين، ومع أن الجميع كانوا شديدي القلق، فإن شطب غورباتشوف لم يحن وقته بعد كما بدا بوضوح. ثمة تقارير استخباراتية أشارت إلى أن هذا لم يكن انقلاباً ناجزاً. كانت هناك وحدات عسكرية متحركة داخل موسكو، غير أنها لم تبدُ منسّقة فيما بينها.

إحدى المسائل الأساسية التي ركزنا عليها اهتمامنا في الساعات الأولى بعد سماعنا عن الانقلاب المحتمل كانت مسألة مكان تخزين النظير السوفييتي للـ "فوتبول" النووي - الحقيبة الحاوية لرموز إطلاق الترسانة النووية السوفييتية. مع وجود غورباتشوف حسب الظاهر في منتجعه بالقرم، ووجود وزير الدفاع السوفييتي يازوف والمارشال أخروميف بين مدبري الانقلاب، لم يكن الطرف المتحكم بالأسلحة النووية واضحاً على الإطلاق.

أفاد ماكّونيل بأن الانقلاب لم يكن يحظى بدعم سوى ثلاث فرق وجميعها في دائرة شعاعها ثلاثون ميلاً حول موسكو. كان قادة الانقلاب يواجهون خياراً صعباً، قال: إما التخلي عن المحاولة أو السير قدماً واستخدام القوة لتنفيذ الانقلاب. رئيس جمهورية روسيا المنتخب حديثاً، بوريس يلتسن، كان يتصدى لمدبري الانقلاب ويدعو إلى المقاومة الشعبية، أضاف ماكّونيل، وكل ساعة كان يبقى فيها طليقاً كانت تشكل دليلاً إضافياً على عدم إمساك مدبري الانقلاب بزمام السلطة.

كنت قد التقيت يلتسن في بضع مناسبات، وكان قد زارني في مكتبي بالبنتاغون في حزيران/يونيو 1991. آنذاك كان قد ترك الحزب الشيوعي، غير أن سماعه وهو يعلن، كما فعل في مكتبي، أن زيادة الميزانية الدفاعية السوفييتية ستكون "جريمة بحق الشعب الروسي الذي تحمّل ما يكفي من المعاناة في ظل سبعين سنة من الشيوعية"، كان من شأنه أن يستمر في إثارة الذعر. أربكني وأثار فضولي بروزه ونجاحه السياسي وصولاً إلى انتخابه رئيساً لروسيا في 1991.

تحدثت مع برنت سكوكروفت بعد قطع الخط مع باول وماكّونيل، واتفقنا على أن من شأن هذا أن يكون حدثاً استثنائي الجدية والخطورة. إذا نجحت الحركة الانقلابية، فإن جميع افتراضاتنا حول الإصلاح في الاتحاد السوفييتي وتأثيره في تخطيطنا على صعيد الأمن القومي تكون قد انقلبت رأساً على عقب. إلى الآن بتنا نعرف أن بين مدبري الانقلاب عدداً من أعضاء الهيكل القيادي للمؤسسة العسكرية السوفييتية. استعرضت عدداً من الأسئلة التي يتعين علينا أن نتوقف عندها: ما الذي، بالتحديد، يحلم مدبرو الانقلاب ببلوغه؟ إذا بقي غورباتشوف في السلطة، هل يستطيع أن يستأنف إصلاحاته؟ هل ثمة أي إمكانية لإفضاء هذا الحدث إلى نوع من السير السلمي، والمنظم، والتدريجي نحو اتحاد سوفييتي ديمقراطي بعيد عن العسكرة، وأقل عدوانية؟

وكانت ثمة قضايا أخرى باعثة على القلق. إلى أي حد كانت الترسانة النووية السوفييتية آمنة؟ هل يمكن أن تؤول إلى أيدي مدبري الانقلاب أو أي طرف ثالث؟ هل نحن على عتبة رؤية الملايين من اللاجئين السوفييت الهاربين

إلى أوروبا الشرقية؟ هل سيلجأ مدبرو الانقلاب إلى استخدام القوة العسكرية لسحق حركات الاستقلال الوليدة في أمكنة مثل البلطيق، وجورجيا، وأرمينيا؟

في غضون أيام بعد عودتي إلى واشنطن، كان الانقلاب قد فشل، ولم يكن أي من سيناريوهات الاحتمالات الأكثر سوءاً قد تجسد. حصل العكس تماماً - فالتغييرات التي عجل بها لم تكن أقل من تاريخية. كان بوريس يلتسن، ممتطياً إحدى الدبابات لتحدي مدبري الانقلاب، قد بدا ممسكاً بروح تحد تعود إلى أيام غابرة وتفكير قديم، روح تحد كانت طاغية على الاتحاد السوفييتي خلال الانقلاب، أعادت ليتوانيا تأكيد إعلانها في 1990 للاستقلال، وبادرت إستونيا ولاتفيا إلى إعلان استقلاليهما. في الرابع والعشرين من آب/أغسطس، صوت البرلمان الأوكراني لصالح الاستقلال، وفي الخامس والعشرين من آب/أغسطس حذت بيلاروسيا حذو جارتها. كذلك كان 24 آب/أغسطس يوم استقالة ميخائيل غورباتشوف من الأمانة العامة للحزب الشيوعي وحل اللجنة المركزية، ما أشار إلى النهاية الفعلية لحقبة الشيوعية السوفييتية.

في 5 أيلول/سبتمبر صوت كونغرس مندوبي الشعب مؤيداً احترام "إعلانات السيادة وقوانين الاستقلال" المعتمدة في الجمهوريات السوفييتية السابقة، ما أوحى بأن النهاية لن تكون عنيفة. حين قام الرئيس بوش بجمع مجلس الأمن القومي ذلك اليوم في البيت الأبيض، بدونا كما لو كنا في لحظة انطلاق عالم جديد غير متشكل قد تتيح لنا فرصة تشكيله. بعد كل هذه السنوات العديدة من التصدي للتهديد النووي السوفييتي والاشتباك مع محاولات السوفييت الرامية إلى إخضاع الشعوب في طول العالم وعرضه، كان التفكير، مجرد التفكير باحتمال رؤية زوال الاتحاد السوفييتي سلمياً، حابساً للأنفاس. فكرت أن علينا أن نسارع إلى التحرك قبل إضاعة فرصتنا للتأثير في الأحداث، وحسب أسلوبي في التفكير فإن أهدافنا بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتي يجب أن تكون متركزة على الديمقراطية، وإطفاء النزعة العسكرية، والإصلاح الاقتصادي، والاستقلال للجمهوريات السوفييتية السابقة. وهذه كانت هي الأهداف ذاتها التي كانت القوى المؤيدة للديمقراطية داخل الاتحاد السوفييتي تناضل في سبيلها، وتعيّن علينا، باعتقادي، أن نتماهى معها - مع هذه القوى - بثبات ووضوح.

لم يكن هذا رأياً متمتعاً بالإجماع بين كبار مستشاري الرئيس. فجيم بيكر وبرنت سكوكروفت، كلاهما، كانا أكثر حذراً وتحفظاً، داعيين بإلحاح إلى عدم السعي، بالضرورة، إلى رؤية الاتحاد السوفييتي متفككاً، خوفاً من عدم الاستقرار الذي قد يترتب على ذلك. أما أنا فكنت أرى أن علينا أن ندفع بأكبر قوة نستطيع توفيرها باتجاه تقليص تحكم موسكو بالجمهوريات السابقة. كنت مؤمناً، من حيث المبدأ، بأن الشعب يجب أن يعيش في ظل الحرية، أولاً. وحين بادرت ليتوانيا، ولاتفيا، وإستونيا، وأوكرانيا إلى التصويت تأييداً للاستقلال، رأيت أن من واجبنا أن نقف معها. ثانياً، كانت هذه قضية تزاوجت فيها مصالحنا الأخلاقية - المعنوية مع مصالحنا الاستراتيجية بوضوح لا لبس فيه. وإيماني كان راسخاً بأن ساعة المبادرات السياسية الجريئة لتثبيت سقوط الاتحاد السوفييتي قد دقت.

وافق الرئيس. دعانا إلى اجتراح مقترحات من شأنها إبراز التأييد والدعم لإصلاحيي روسيا وفتح أعين العالم على حقيقة ولوجنا باب حقبة جديدة. بنظرنا، أنا وزملائي في وزارة الدفاع، كانت نقطة البداية الواضحة هي مسألة ترسانتنا النووية.

في أشهري الأولى من تولي منصب وزير الدفاع، كنت قد اطلعت على الخطة العملياتية المتكاملة الأحادية [SIOP]، خطة الاستهداف المطلوب للانتفاع من أسلحتنا النووية. خلال السنوات التي كنا نواصل فيها إضافة الأسلحة إلى ترسانتنا، ظل أرباب التخطيط دائبين على تسديدها نحو مجموعة الأهداف نفسها. حين أضفنا، مثلاً خمسين صاروخ حفظ سلام جديد، على كل منها عشرة رؤوس نووية، بات اختصاصيو الأهداف النووية عندنا متوفرين، فجأة، على خمس مئة سلاح جديد تعين عليهم أن يوجهوها إلى قائمة أهداف محددة. بدا لي أن هناك حاجة لطرح نوع من أنواع مسألة الحس السليم، مسألة البداهة. طلبت من المخططين أن يجيبوا على سؤال: كم هو عدد الرؤوس النووية التي ستضرب كييف بموجب الخطة الراهنة؟ كان هذا سؤالاً يصعب الجواب عليه لا لشيء إلا لأن أحداً لم يسبق أن طرحه من قبل، إلا أنني حصلت أخيراً على تقرير جوابي متضمن أننا متوفرون حرفياً، في ظل خطة الاستهداف الراهنة، على عشرات الرؤوس النووية المصوبة نحو هذه المدينة المنفردة. آن أوان عقلنة

استهدافنا النووي. بإدارة بول وولفويتز راحت ورشة التخطيط تتعاون مع الأركان المشتركة وخبرائنا المختصين بالاستهداف النووي وبدأت إصلاح نظام الاستهداف عندنا، الأمر الذي أدى إلى منحنا فرصة اختزال حجم ترسانتنا النووية.

كان هذا درساً في أنّ أَبْسَطَ الأسئلة ـ كم هو عدد الرؤوس النووية التي ستضرب كييف بموجب الخطة الراهنة؟ ـ يكون أحياناً السؤال الأكثر أهمية. أثار وصف الجنرال باول لأهمية ما فعلناه إعجابي وتقديري. كتب الجنرال يقول: "نجح تشيني ومحللوه المدنيون في قلب أربعة عقود من التفكير البيروقراطي المغلف رأساً على عقب وفي إرساء الاستهداف النووي على قاعدة عقلانية"[9]. وقد جعلنا الأمر ممكناً، إذ استطعنا، بالتعاون مع باول وفريقه في الأركان المشتركة، أن نوفر لرئيس الجمهورية فرصة طرح اقتراحات جريئة رداً على الأحداث التاريخية المتكشفة في موسكو. قامت مراجعة خطة الاستهداف بتسليط الضوء على حقيقة أننا قادرون على القيام باختزالات ذات شأن في حجم قواتنا النووية مع الاستمرار في المحافظة على قدراتنا الردعية.

لدى قيامنا بلملمة أطراف مقترحاتنا، بقيتُ حريصاً على تجنب الشرك الذي كانت قد وقعت فيه جملة مفاوضات التحكم بالتسلح السابقة الكثيرة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. فهذه المفاوضات القاتلة ببطئها لم تفض عادة إلا إلى تقليصات حدود دنيا، تبادلية. أما هذه المرة فقد اتفقنا جميعاً على أن علينا أن نعتمد منطلقاً مختلفاً. علينا أن نعلن اعتزامنا القيام بتقليصات ذات شأن لقواتنا النووية وأن ندعو الروس إلى أن يحذوا حذونا والإقدام على الشيء نفسه.

في خطاب موجه إلى الأمة في 27 أيلول/سبتمبر، أصدر الرئيس بوش توجيهاً يقضي بمبادرة الولايات المتحدة إلى إزالة إجمالي القائمة العالمية لأسلحتها النووية القصيرة المدى التي تُطلق من الأرض. كنا مستعدين لاستعادة قذائف المدفعية النووية ورؤوس الصواريخ البالستية الحربية القصيرة المدى من أوروبا. ودعا الرئيس السوفييت إلى القيام بالشيء نفسه. كذلك أعلن عن الاستعداد لسحب جميع الأسلحة التكتيكية من بواخرنا وغواصاتنا الهجومية وتجريد طائراتنا البحرية الموجودة في القواعد البرية من جميع الأسلحة النووية.

ومرة أخرى، قام بدعوة السوفييت إلى القيام بالشيء نفسه. ثم التفت إلى قضية أسلحتنا النووية الاستراتيجية، التي كانت موضوع معاهدة جديدة، اتفاقية خفض الأسلحة الاستراتيجية [ستارت START]، الموقعة مع غورباتشوف في تموز/يوليو 1991. عبر بوش عن رغبته في توظيف المعاهدة "منطلقاً لإحداث تغييرات إضافية معززة للاستقرار". ما جعله يوعز لقانفات الولايات المتحدة الاستراتيجية بالإلغاء الفوري لحالة الاستنفار. كذلك تعهد بتعجيل عملية تدمير منظومات الصواريخ البالستية العابرة للقارات المقرر إزالتها كجزء من مباحثات ستارت، وأعلن عن وضع حد لتطوير منظومة الصواريخ البالستية العابرة للقارات من طراز MX.

أعلن الرئيس أيضاً أنه سيعمل على تعزيز القيادة العملياتية لقواتنا النووية الاستراتيجية البحرية، والبرية، والجوية وجمعها في قيادة واحدة، معروفة الآن باسم القيادة الاستراتيجية [ستراتكوم STRATCOM]، مقرها القيادي في قاعدة أوفوت الجوية. وفي الخامس من تشرين الأول/أكتوبر 1991، رد غورباتشوف، بوصفه رئيس الاتحاد السوفييتي، على اقتراحاتنا بجملة مؤثرة من التقليصات التي كان السوفييت مستعدين لاعتمادها في ترسانتيهم التكتيكية والاستراتيجية على حد سواء، ووافق على فك استنفار القاذفات السوفييتية أيضاً. كنا قد نجحنا في إطلاق مقاربة جديدة للتحكم بالسلاح - مقاربة أسرع، وأعمق، وأكثر مرونة من ذي قبل.

كما قدمنا رداً على التغييرات الحاصلة في الاتحاد السوفييتي عبر عرض إحداث تقليصات على قائمة أسلحتنا النووية، كنا نفكر أيضاً بوضعنا على صعيد القوة الإجمالية. منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى زال الاتحاد السوفييتي من الوجود في 1992، كنا قد خططنا قدراتنا العسكرية الدفاعية والهجومية في المقام الأول من منطلق الملاقاة، والمواجهة، والدفاع ضد تهديد سوفييتي. في أواخر 1989 كنا قد بدأنا نفكر بتقليصات يمكن اعتمادها لعكس الواقع الاستراتيجي الجديد الناشئ، وبعد أشهر من التحليل كنا قد اقترحنا مفهوم "القوة القاعدية" أو "قوة الأساس" [base force] الذي حظي بموافقة الرئيس بوش فقدمه بخطوطه العريضة في خطاب ألقاه في آسبن في كولورادو، يوم 2 آب/أغسطس

1990. جاء الخطاب بعد ساعات فقط من زحف دبابات صدام إلى قلب الكويت، فتحولت أنظار العالم نحو الخليج العربي. وما إن كنا قد حررنا الكويت، حتى طلبتُ من وولفويتز اقتباس المفهوم المبسوط في مقاربتنا المعروفة باسم قوة الأساس، والعمل، عبر الإفادة من بعض أهم الدروس التي كنا قد استخلصناها من سلسلة العمليات في عاصفة الصحراء، على صوغ وثيقة جديدة للإرشاد الخاص بتنظيم الدفاع، مؤهلةٍ لوصف جملة التحديات المنتصبة أمام أمريكا، والموقف الاستراتيجي الذي يتعين علينا أن نتخذه للوقوف في وجه هذه التحديات خلال عقد التسعينيات وما بعده.

لقد دلت تجاربي على أن تحديات يومية كثيراً جداً ما تحول دون قيام كبار صانعي السياسات بتكريس بعض الوقت للتفكير بطريقة استراتيجية. من الأسهل بما لا يقاس أن يبقى المرء في إطار لحظته حالاً الأزمات أو متجاوباً مع الفرص. أما إجبار الذات وأولئك الذين هم في الجهاز البيروقراطي على التراجع خطوة والتفكير بأهداف أمريكا وتحدياتها الاستراتيجية فيتطلب وقتاً وانضباطاً، ولكنه جوهري. لا يمكنك أن تحلم باعتماد أكثر السياسات والخطط حكمة وحصافة دون امتلاك إحساس بالهدف الذي يصبو البلد إليه وبكيفية تمكين السفينة من بلوغه. ثمة جهات تم استحداثها للاضطلاع بهذه المهمة في الحكومة، مثل ورشة التخطيط السياسي في وزارة الخارجية ومكتب معاون الوزير للسياسة والتخطيط في البنتاغون. إلا ان الأفراد في هذه الدوائر كثيراً ما يتم إما تجنيدهم للمساعدة على تدبر أزمات يومية وإدارتها أو يجري إبعاد عملهم الاستراتيجي كثيراً عن صنع القرار السياسي ذي العلاقة بالزمن الفعلي بما يبقيه دون تأثير ذي شأن.

من تجربتي الشخصية، أرى أن وزارة الدفاع أفضل، على صعيدي صوغ القرار السياسي الاستراتيجي وإنتاج تقارير "عِبَر مستخلصة" بالغة الدقة، من أي جهة أخرى في الحكومة، والأفراد الذين كانوا عندي في مواقع حساسة، مثل بول وولفويتز، وآندي مارشال، وسكوت ليبي، وإيريك إيدلمان، كانوا بعض أفضل أرباب التفكير الاستراتيجي الموجودين في البلاد. هذه المجموعة هي التي كنت أعول عليها حين صممت على أننا بحاجة إلى استراتيجية دفاعية جديدة تتناسب

مع عالم ما بعد الحرب الباردة. وبالتعاون مع اللواء المتقاعد ديل فسّر وزلماي خليلزاد، اللذين كانا أيضاً طرفين من أطراف ورشة التخطيط السياسي، نجحت المجموعة في اجتراح إرشاد 1992 للتنظيم الدفاعي، الذي كان تنقيحاً جذرياً وأساسياً لسياسة الولايات المتحدة وخطتها الدفاعيتين.

كان الإرشاد الخاص بتنظيم الدفاع [DPG] تحولاً[10] عن نوع من التركيز على التهديد الكوكبي المتمثل بالاتحاد السوفييتي نحو تخطيط دفاعي قائم على تهديدات إقليمية. لاحظ الإرشاد أيضاً أننا كنا سنعمل لـ "قطع الطريق على أي هيمنة معادية، غير ديمقراطية على منطقة ذات حساسية بالنسبة إلى مصالحنا" إضافة إلى السعي للحيلولة دون نشوء أي قوى معادية من شأنها تشكيل خطر أمني كوكبي. كان ثمة نوع من التركيز على نسج تحالفات بين دول ديمقراطية كما على الأمن المعزز الذي يمكن للتعاون أن يتمخض عنه. لم نكن لنكتفي بمجرد الاستباق والتخطيط لبيئة أمنية مستقبلية، بل كنا أيضاً سنعمل من أجل صوغ هذه البيئة بما يمكننا من خدمة أهداف الولايات المتحدة الأمنية.

كنا سننشط بفعالية لتشجيع بلدان حلف وارسو السابق، وحتى الجمهوريات السوفييتية السابقة، مع الزمن، على الالتحاق بركاب تحالفات الدول الديمقراطية التي كانت ناجحة بشكل استثنائي على صعيد حفظ السلام. كنا سنقوي ترتيباتنا الدفاعية المشتركة. كذلك سلطنا الضوء على الخطر المتزايد لانتشار السلاح النووي وأكدنا استعدادنا للعمل من أجل ترهين استراتيجيتنا بهدف التصدي لانتشار أسلحة الدمار الشامل ووسائل إيصالها.

كان إرشاد 1992 بالغ التميز بالطريقة التي اعتمدها في مقاربة تحولات استراتيجية كوكبية حاسمة وإرساء قاعدة سليمة للولايات المتحدة لمواصلة تعزيز أمنها الخاص من جهة وأمن حلفائها من جهة ثانية في الأعوام القادمة. مع مغادرتي للمنصب في 1993، قمنا بنشر "استراتيجية الدفاع الإقليمي" التي هي خطة استراتيجية غير سرية متضمنة جزءاً كبيراً من التفكير المعبّر عنه في الإرشاد الخاص بتنظيم الدفاع.

قامت "استراتيجية الدفاع الإقليمي"، على تأكيد ضرورة بقاء قيادة الولايات المتحدة بوصفها قضية حاسمة في البيئة الدفاعية الجديدة. كان تفضيلنا

هو الوقوف في وجه التهديدات مع أصدقاء وحلفاء في صفنا حيثما كان ذلك ممكناً، إلا أننا كنا واضحين حول وجوب اضطلاع أمريكا بالقيادة. قالت الوثيقة: "فقط دولة متوفرة على ما يكفي من القوة لتتصرف بحزم تستطيع توفير القيادة المطلوبة لتشجيع آخرين على مقاومة العدوان".

رداً على سقوط جدار برلين كنت قد أصدرت أمراً يقضي بمراجعة حاجاتنا الرئيسية على صعيد الطيران في مختلف إداراتنا وأجهزتنا العسكرية. طلبت من الإدارات أن تنظر في مدى اضطرارنا إلى السير قدماً في بناء وشراء طائرات مثل بي - 2، وإف - 22، وسي - 17، وإيه - 12، في ضوء البيئة الأمنية الكوكبية المتغيرة. توليت المنصب ميالاً إلى تركيب الإيه - 12، قاذفة الشبح المنطلقة من على متن الحاملات البحرية، وفي نيسان/أبريل 1990، أدليت بشهادتي أمام لجنة القوات المسلحة بمجلس الشيوخ مؤيداً فكرة السير بالمشروع إلى الأمام. وقد قلت: "إنه نظام جيد، ويبدو أن البرنامج تتم معالجته على نحو معقول". وبعد بضعة أشهر، حين أُبلغت أن المتعهد كان قد أقدم على تجاوزات كلفة يتعذر استيعابها ولن يتم تسليم الطائرات، إذن، في موعدها، لم اكن مسروراً بطبيعة الحال. كنت قد شهدت أمام الكونغرس بنية طيبة مقتنعاً بأن البرنامج سائر في طريقه، ثم ما لبثت أن اكتشفت لاحقاً أنه لم يكن كذلك. أطلقنا عملية مراجعة لحسم السبب الكامن وراء عدم دقة المعلومات التي كانت قد وصلتني. نتيجة لذلك نال عدد من الأفراد ذوي العلاقة بالبرنامج داخل البنتاغون عقوبات تأديبية وأُبعدوا عن البرنامج. في النهاية، أقدم معاون وزير الدفاع لشؤون المبايعات على الاستقالة.

خلال الأشهر التالية بات واضحاً أن الأمر كان ينطوي على المزيد من تجاوزات التكلفة اللافتة، من المشكلات التقنية، ومن حالات التخلف عن المواعيد. لو كان البرنامج سيستمر لتعين علي أن أمارس مرجعيتي بوصفي وزيراً للدفاع وصولاً إلى تعديل العقد من أجل منع المتعهد من الإخلال بالتزاماته تجاه حكومة الولايات المتحدة. كان من شأن التعديل أن يتمخض عن كلفة إضافية ذات شأن بالنسبة إلى الحكومة دون أي يقين بأن البرنامج سيسير بحسب ما هو مرسوم

له. في كانون الأول/ديسمبر طلبت من وزير البحرية أن يوضح الأسباب الداعية إلى عدم إلغاء العقد. قلت في أمر بيان السبب: "إذا لم نكن قادرين على إنفاق أموال دافعي الضرائب بحكمة، فإننا لن ننفقها". دعوت إلى اجتماع في مكتبي يوم السبت الواقع في 5 كانون الثاني/يناير، مع كل من الجنرال باول، ومراقب حسابات البنتاغون سين أوكيف، ووزير البحرية أتش لورنس غاريت، ودونالد يوكي معاون الوزير الجديد للمبيعات. ناقش المجتمعون ما إذا كان يتعين علي أن ألغي العقد. استمعت إلى ما جرى من نقاش واتخذت قراري.

بعد يومين أعلنت أننا سنلغي العقد، ما أدى إلى وضع حد للبرنامج جراء التخلف. لم يستطع أحد أن يفيدني بحجم المبالغ الإضافية من أموال دافعي الضرائب التي كنا سنضطر لإنفاقها من أجل حيازة هذه الطائرة. قراري القاضي بالامتناع عن توفير الإسعاف وسحب التأييد للإيه ـ 12 أحدث موجات صاعقة عبر البنتاغون والصناعات الدفاعية. كانت تلك أكبر عملية إلغاء منظومة أسلحة في تاريخ الوزارة، ولكن القرار كان هو الصائب والسليم. وما زلت مقتنعاً بذلك اليوم، حتى مع إصرار وعناد بشأن الإلغاء في عامه العشرين.

ذات يوم سبت في صيف 1992، تلقيت مكالمة في البيت من سكوكروفت، الذي كان هناك في كامب ديفيد. كان رئيس الجمهورية بحاجة إلى رئيس جديد لجهاز العاملين في البيت الأبيض. فسام سْكِنَّر، الذي كان قد خلف جون سنونو، كان في طريقه عائداً إلى شيكاغو، أراد برنت أن يعرف ما إذا كنت راغباً في شغل المنصب. لم أكن راغباً، ولكنني لم أكن أيضاً متفاجئاً بتلقي المكالمة. قبل عام حين كنت قد سافرت مع الرئيس إلى كاليفورنيا وتكساس، كان قد طلب مني وصف بعض المشكلات التي كنت لاحظتها على طريقة سنونو في تسيير أمور البيت الأبيض. رأيت أن من المفيد مقارنة مقاربة سنونو مع مقاربة سكوكروفت لأن الثاني كان يدير السياسة الخارجية للرئيس والأول يتولى أساساً معالجة الأجندات الداخلية.

كنا قد تحدثنا عن أهمية وجود شخص في منصب رئيس جهاز العاملين يكون وسيطاً أميناً مئة بالمئة، مثلما كان برنت على صعيد الأمن القومي. فنحن

معشر أعضاء فريق الرئيس للأمن القومي كنا نعرف أنه كان سيزود الرئيس بآرائه وراء الكواليس، غير أنه كان يضمن الانتقال الدقيق والصائب لجميع جوانب هذه القضية أو تلك بما يمكن الرئيس من اتخاذ قرار مستند إلى اطلاع ومعرفة. وقد كان برنت عميق الخبرة بالقضايا التي كان يشتبك معها يومياً، بعد أن كان قد خدم فترة كاملة مستشاراً للأمن القومي لدى الرئيس فورد.

مع أنني شعرت بالإطراء إزاء اقتناع برنت باحتمال اضطلاعي الناجح بمهمة رئيس جهاز جورج أتش دبليو بوش، قلت لبرنت إنني لم أكن بالفعل تواقاً للعودة إلى البيت الأبيض. سبق لي أن كنت رئيساً للجهاز، وكنت منخرطاً في قضايا شديدة الأهمية في وزارة الدفاع. لو طلب الرئيس مني مباشرة، لكنت قد فعلت، إلا أنني مسرور لأنه كلّف جيم بيكر بدلاً مني.

في تشرين الأول/أكتوبر 1992 حضرتُ اجتماعاً للناتو في شمال سكوتلندا، ومن هناك تابعت الرئيس بوش، وبيل كلنتون، وروس بيرو يتبارون في ثاني الحوارات الرئاسية المتلفزة. بوصفي وزيراً للدفاع لم يكن لدي أي دور أقوم به في الانتخابات الرئاسية، غير أنني كنت أرصد بقدر هائل من الاهتمام، ولم يبد أن الأمور كانت ستجري لصالحنا. كانت الصحافة تروّج قصة زائفة عن رئيس مترفع عن حياة أكثرية الأمريكيين في مواجهة منافس شاب، أكثر نشاطاً، وأوفر تعاطفاً. ومن المؤسف حقاً أن هذه القصة تتعلق بالحوار الذي أقدم فيه الرئيس على النظر إلى ساعة يده، في تصرف عادي ومألوف مئة بالمئة، ولكنه سلوك انقض عليه خصومنا وعدّوه رمزاً دالاً على رئيس شارد الذهن. كان جورج بوش قد ربح حرباً في 1991، أما في 1992 فقد خسر رئاسة الجمهورية. حين تم فرز الأصوات وإحصاؤها في تشرين الثاني/نوفمبر كانت النتيجة كما يلي: بيل كلنتون: 43 بالمئة، جورج بوش: 37 بالمئة، وروس بيرو: 19 بالمئة.

كانت هناك سلسلة طويلة من حفلات الوداع، إلا أن أروعها تمثل بما جرى في قاعة احتفالات فورت مير، حيث توفرت لجيش الولايات المتحدة فرصة وداع الرجل الذي كان قد اضطلع بمهمة قيادته بقدر كبير من الكفاءة والبراعة - ولي أنا شخصياً توفرت أيضاً فرصة النطق بعبارة الوداع. لاحظت أنه كان سهلاً أن

يتم النظر إلى الخلف نحو أحداث تاريخية وعدّها حتمية، غير أن هوية الممسك بدفة القيادة كانت هي المهمة

فعلاً، نحن محظوظون لأن جورج بوش كان رئيسنا حين وجدت الأمة نفسها في مواجهة الأزمة الكبرى الأولى في حقبة ما بعد الحرب الباردة - أزمة غزو الكويت ... منذ الأيام الأولى للأزمة رفض إغفال العدوان أو السمسرة له. وضوح الهدف عنده أقنع العالم بضرورة المبادرة إلى الفعل.

كذلك عبّرت عن شكري الشخصي. قلت: "سأبقى على الدوام شاكراً لك، سيادة الرئيس، على الفرصة التي وفرتها لي كي أخدم كوزير للدفاع معك". لقد كان جورج بوش قائداً عظيماً. حكمته مكنتنا من عبور تغييرات أهم مما استطاع أي منا أن يتصور أننا كنا سنراها في أيام حيواتنا. اضطلاعي بوزارة الدفاع في عهده كان أحد أسمى آيات الشرف في حياتي.

الفصل الثامن

خارج الحلبة

مع اقتراب الظهر يوم التنصيب [العشرون من كانون الثاني/يناير الذي يلي انتخاب رئيس جمهورية جديد في الولايات المتحدة]، لملمت حوائجي القليلة الباقية في مكتبي، ودَّعْت جهاز العاملين، وخرجت من البنتاغون للمرة الأخيرة كوزير للدفاع. وعلى الرغم من أنني كنت سأبقى وزيراً لبضع ساعات أخرى - إلى حين قيام مجلس الشيوخ بتثبيت لس آسبن وقد أدى القسم لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم - فإن اللحظة التي كان بيل كلنتون يؤدي فيها اليمين الرئاسي بدت اللحظة المناسبة لمغادرتي.

كنت خارج نطاق العمل الرسمي للمرة الأولى منذ أربعة عشر عاماً، وكنا، لين وأنا، متوجهين إلى مسقط الرأس في وايومنغ. ملأنا شاحنة نقل كبيرة بالأثاث وعلب أوراقي البرلمانية، وبمساعدة صهري الجديد فيل بيري حزمت خزانة عرض كبيرة مملوءة بأعلام المعارك التي فاز بها الجيش الأمريكي خلال فترتي كوزير للدفاع في مؤخرة الشاحنة. كانت الأعلام فريدة وهدية وداع حصيفة من الجيش، ولكن خزانة العرض ذات الواجهة البلورية كانت أكبر حجماً وأكثر هشاشة من أن توضع في الداخل مع أشيائنا الأخرى، لأن طول العلم كان نحو أربعة أقدام.

فيل الذي كان قد اقترن بليز قبل ثلاثة أسابيع فقط، كان يرافقني ويتناوب معي على القيادة عبر البلاد إلى وايومنغ. لا بد للمرء من أن يكون متمتعاً ببنية

قوية حتى يوافق على قطع مسافة ألفي ميل وحده مع حميه بعد أقل من شهر من التحاقه بركب العائلة، ولكن فيل أقدم وكان جديراً بالمهمة. لحسن الحظ هو رجل قليل الكلام، مثلي تماماً، فلم يبال أي منا كثيراً بالإقلال من الكلام على طول الطريق.

حين وصلنا إلى وايومنغ، توقفنا بجامعة لارامي لأُنزل أوراقي وأعلام المعارك لحفظها في مركز التراث الأمريكي. بدا العاملون متفاجئين بتوقفنا في الشاحنة لتسليم المواد شخصياً، إلا أنه لم يخطر لي قط إيصالها إلى هناك بأي طريقة أخرى. استقبلتني لين تلك الليلة في جاكسون حيث بدأنا نفرغ الحقائب ونفك الطرود ونخطط لحياتنا الجديدة في القطاع الخاص.

كنت أعرف على الأقل، شيئين معرفة يقين: كنت أريد قضاء وقت أطول مع عائلتي، كما كنت أريد أن أقضي وقتاً أطول في صيد السمك. كنت بالطبع بحاجة إلى كسب أسباب العيش - مشغولاً بأشياء مفيدة كما كنت آمل - كما أردت أن أواصل مساهمتي في السياسة الكبرى والسجالات السياسية الدارجة. لذا تعاقدت مع معهد المشروع الأمريكي، (American Enterprise Institute)، وهو أحد مراكز البحوث بواشنطن العاصمة. كذلك وافقت على الانضمام إلى مجالس إدارات بروكتر آند غامبل (Procter & Gamble)، ويونيون باسيفيك (Union Pacific)، ويو إس وست (US West)، ومورغان ستانلي (Morgan Stanly). صارفاً الجزء الأكبر من حياتي المهنية في الحكومة أو الجامعات (الأوساط الأكاديمية)، كنت على يقين بأنني مرشح لكسب أشياء كثيرة عبر تولي عضوية مجالس بعض أروع الشركات في البلد.

خلال ذلك الصيف الأول بعيداً عن الوظيفة توفر لي فيض من الوقت للتفكير بالمستقبل في رحلة طريق طولها ثمانية آلاف ميل قمت بها وحدي عبر البلاد. ذهبت بالسيارة من واشنطن العاصمة إلى كولومبيا البريطانية، ثم قفلت راجعاً إلى وايومنغ، ملقياً محاضرات على امتداد الطريق، بعضها لقاء أجر والآخر مجاني، وسافرت عبر أرياف جميلة في وايومنغ، وآيداهو، ومونتانا، وجبال روكي الكندية، بما فيها منتزه بانف الوطني، بغاباته وأنهاره، ومنتزه فلاسير الوطني في

بعض أكثر المناطق الجبلية وعورة في أمريكا الشمالية. كذلك استمتعت بصيد عظيم لسمك التروتة الملون عند منابع النورث بلات وسمك السلمون ذي الرأس الفولاذي في نهر دين بكولومبيا البريطانية. هذه هي الرحلة التي بدأت فيها جدياً أنظر في احتمال الترشح شخصياً لرئاسة الجمهورية في 1996.

فكرة الاضطلاع بمهام رئيس الجمهورية كانت شديدة الإغراء. كنت قد عملت في البيت الأبيض أو خدمت في مجلس الوزراء لدى ثلاثة رؤساء للجمهورية - نيكسون، وفورد، وبوش - وكنت قد تابعت رونالد ريغان عن كثب من مرصد أعوامي الثمانية في قيادة المجلس. وقد رأيت رؤساء ينجحون ويخفقون. وكنت مؤمناً بمعرفتي لما هو مطلوب ليكون المرء مسؤولاً تنفيذياً أول ناجحاً.

كذلك فهمت أهمية الاعتراف بأن أحداً لا يحصل على فرص كثيرة للترشح في ظل ظروف ملائمة لإدامة ودعم أي حملة رئاسية. إذا لم تنتهز فرصتك حين تأتي، فإنك قد لا تحصل عليها مرة أخرى.

بالمقابل، كنت أعرف مدى صعوبة، وقسوة، وتطلُّب أي حملة وطنية. من المتعذر صون ولو القدر الضئيل من العزلة أو السرية لأي من المرشح وعائلته تحت وطأة المعاينة المكثفة المصاحبة لعملية الترشح للرئاسة. وجمع التبرعات، الذي لم أتقن قط فن الإعجاب به، يتطلب ثمناً هائلاً من الوقت والطاقة.

كان ثمة أيضاً، بطبيعة الحال، وضعي الصحي. في 1996 كنت سأبلغ الخامسة والخمسين من العمر مع تاريخ خلل شريان تاجي امتد ثماني عشرة سنة، بما فيه ثلاث أزمات قلبية وعملية تبديل شرايين تاجية رباعية. إذا قررت عدم الترشح للرئاسة، فلم أكن لأعزو القرار إلى وضعي الصحي لأنني لم أكن أريد أن يظن الناس أنني مقيد بعض الشيء على صعيد ما أستطيع فعله أو أنني كنت قد قررت عدم الترشح لكوني صاحب "قلب مريض". غير أن من الواضح أن تاريخي الصحي كان من شأنه أن يشكل قضية في أي حملة، وقد تجسد ذلك في ذهني وأنا عاكف على تقديم آفاق سباق رئاسي مرهق.

وفي تلك الأثناء، كنت أتلهف للانخراط في انتخابات 1994 النصفية. بوصفي وزيراً للدفاع لم يكن مناسباً أن أشارك في السياسة، أما الآن بعد أن

أصبحت متحرراً من قيود ذلك التقليد، فقد كانت جعبتي ملأى بأشياء كثيرة كنت راغباً في قولها. كنت مؤمناً بأن بيل كلنتون تُرك يفوز فوزاً سهلاً في حملة 1992، وكنت أقل من متحمس للطريقة التي كان يدير بها سياسة البلاد الأمنية. فالعملية الخرقاء في الصومال في تشرين الأول/أكتوبر 1993 سببت لي إزعاجاً استثنائياً. ثمة رجال تم إيفادهم في مهمة بمقديشو دون تمكينهم من استخدام بوارج الإيه سي - 130 [مروحيات الإيه سي - 130 المزودة بالمدافع] المؤهلة لمساعدتهم على النجاح. حُرموا من الدعم المدرع الذي كانوا بأمس الحاجة إليه - ذلك الدعم الذي كانت قيادتهم قد طلبته - فضحى ثمانية عشر أمريكياً شجاعاً بأرواحهم.

في كانون الأول/ديسمبر 1993 التم شمل عائلتنا من جديد في جاكسون التي كانت قد شهدت احتفالنا بعدد كبير من الأعياد، إلا أن آخر عام 1993 كان مثقلاً بحزن كبير. أمي فارقت الحياة في اليوم التالي ليوم الميلاد. كانت قد كافحت مرض باركنسون لسنوات، رافضة الاستسلام بإصرار وحزم. كانت تقول إنه لن يكون ثمة مرفق يُعينها في الحياة، لأنها كانت ملزمة برعاية أبي. حين بدأ المرض يفقدها توازنها، استحصلت على وسادتي رُكَبٍ مطاطيتين سوداوين لتخفيف الرضوض الناجمة عن السقوط. باستمرار كانت تسارع إلى انتشال نفسها بعد الوقوع. كنت في رحلة صيد في جنوب تكساس في الخريف حين علمت أنها كانت قد أُصيبت بوعكة. أرسل أصدقاؤنا، عائلة ترو من كاسبر، طائرتهم لأتمكن من العودة بأقصى سرعة ممكنة. وصلتُ إلى جانب سريرها، ولازمتُها، وقد عرفت أنني موجود، إلا أنها بعد الوعكة لم تنطق قط من جديد.

وبعد رحيل أمي بخمسة أشهر، امتلأت حياتنا بالفرح بولادة حفيدتنا الأولى، كيت بيري. واليوم حين أرى مهارة كيت ولياقتها الرياضية في ملعب الكرة الليّنة، أتذكر أمي التي كانت شديدة الولع بسنوات ممارستها للعبة الكرة مع فريق بلوبيردز السيراكوزي، فريق بلدة نبراسكية صغيرة شارك في مباريات بلومر غيرلز الكليفلاندي للتنافس على البطولة الوطنية مرتين. واثق أنا من أن ماما كانت ستشعر بقدر كبير من الاعتزاز بكيت، كما بجميع أحفاد أولادها السبعة.

* * *

شكلتُ لجنة عمل سياسية بشكل مبكر في 1994 وفي الذهن سباق رئاسي، كان التحالف من أجل قيادة أمريكية سيساهم بالمال في دعم المرشحين الجمهوريين ويموّل رحلاتي السياسية. وحين أعلنتُ لجنة العمل السياسية [PAC]، أوضحتُ هدفها على النحو التالي:

يطالب الأمريكيون بالأمان من الأخطار الداخلية والخارجية، وبفرصة متابعة الحصول على أسباب العيش الكافية لإعالة حيواتهم مع أسرهم، وبالانعتاق من التطفل الحكومي المفرط. والتحالف من أجل قيادة أمريكية سيساعد على بلوغ تلك الأهداف عن طريق دعم انتخاب مرشحين ذوي أهلية رفيعة المستوى في طول البلاد وعرضها.

أبقيت تحالف لجنة العمل السياسية بسيطاً. كنت رئيساً للمجلس، واثنان من أعضاء جهازي السابقين، باتي هاو وديفيد آدينغتون، كانا العضوين. سحبتُ آدينغتون من عمله كمدير لجهاز عاملي الأقلية ومستشار للجنة استخبارات مجلس الشيوخ المختارة لضمان إدارة لجنة العمل السياسية بالالتزام الصارم بقواعد لجنة الانتخابات الفدرالية [FEC] المعقدة. عبر حفلات جمع التبرعات والبريد المباشر، نجحت اللجنة في جمع أكثر من 1.3 مليون دولار في أقل من سنة - مبلغ لافت في سياسة تلك الأيام، لا سيما بالنسبة لمثل هذه العملية الصغيرة - وأنفقته على دعم قضية مرشحين جمهوريين. شخصياً أقمت ما يقرب من 160 حملة في دورة 1994 الانتخابية، مغطياً البلاد من المحيط إلى المحيط، من الهادي إلى الأطلسي.

في أيلول/سبتمبر قمنا، لين وأنا، بجمع بعض الأصدقاء الحميمين من ذوي الخبرة في الانتخابات الرئاسية والتمسنا نصائحهم: سبق لستو سبنسر أن كان مديراً في حملة فورد عام 1976؛ وبوب تيتر كان صديقاً حميماً آخر وخبير استطلاعات الرأي عندنا؛ وتيري أودنيل كان المعاون الشخصي لفورد ومستشاراً عاماً لوزارة الدفاع ومحاميّ الخاص؛ ورِدْ كافاني رجل المهمات الأول في البيت

الأبيض أيام فورد. كنت أعرف أنهم جميعاً حذرون فيما بينهم، ولكن مستعدون للبوح بما يفكرون فيه فعلاً دون زيادة أو نقصان. كنت أعلم أنه ليس فيهم أحد سيبالغ في الهجوم على الآخرين.

اجتمعنا في جاكسون، وخلال يومين خريفيين رائعين تحدثنا عن حملة 1996، عن المرشحين المحتملين الآخرين، وإيجابيات خوض أي سباق رئاسي وسلبياته، وآفاق جمع التبرعات، وعما كان سيتطلبه دخول السباق والفوز. وعلى الرغم من أننا لم نتوصل إلى أي نتائج نهائية، فإنهم أغنوني بأفضل ما عندهم من نصائح حول ما أستطيع توقعه.

كانت انتخابات 1994 النصفية تاريخية، إذ نجح الجمهوريون في الإمساك بزمام مجلسي الكونغرس كليهما للمرة الأولى منذ أربعين سنة. المرة الأخيرة التي كنا متحكمين فيها بمجلس الشيوخ كان عام 1986؛ وبمجلس النواب عام 1954. حتى رئيس مجلس النواب الديمقراطي، صديقي توم فولي، خسر مقعده وأصبح رئيس المجلس الأول الذي يهزم في صناديق الاقتراع منذ الحرب الأهلية. كانت تلك نتيجةً مذهلة، تبرؤاً صريحاً من بيل كلنتون وإدارته. غير أنها أكثر من ذلك، كانت تمثل ثورة في الكونغرس، لا سيما في مجلس النواب، ما من عضو جمهوري في المجلس آنذاك كان قد سبق له أن عمل في الأكثرية، أو ترأس لجنة أو لجنة فرعية، أو ترأس المجلس بوصفه رئيساً. عام ألف وتسعمئة وأربعة وتسعين غيَّر كل شيء - غيّر المسؤول عن تعيين معظم العاملين، وصاحب العدد الأكبر في كل لجنة، والمتحكم بلجنة النظام، وجملة شروط الحوار حول كل قانون يتم عرضه، وأصحاب الحق في المناصب بالكابيتول. فقط ثلاثة من الحزب الجمهوري، حزب الغوب [Grand Old Party - GOP] كانوا يشغلون مناصب أثناء حكم الحزب الديمقراطي.

على امتداد كل هذه السنوات التي أمضيناها في الأقلية، لم يتمكن الجمهوريون قط من امتلاك اليقين بأن ما كنا نفعله كان ذا قيمة فعلية. فما لم نكن مستعدين للموافقة على هذا الاقتراح الديمقراطي أو ذاك وتأييده، نادراً ما كان لنا أي تأثير في الجدال الحاصل. إذا توفرت لدينا فكرة جيدة، فإن الفرص

تمثلت بتمكيننا من عرضها شرط موافقة أو سماح هذا الرئيس الديمقراطي أو ذاك. أما الآن، وعلى نحو مباغت تماماً، فقد بات الجمهوريون موشكين على الإمساك بزمام الإخراج المسرحي البرلماني.

لين وأنا قمنا باستضافة سهرة انتخابية لبعض أصدقائنا القريبين، ولا أظن أنني تحركت من أمام التلفزيون الليل كله. وأنا أتابع الجمهوريين الفائزين بالسيطرة على الكونغرس، لم أستطع إلا أن أتأمل ما كان يمكن أن يحصل لو بقيتُ في قيادة المجلس بدلاً من الذهاب إلى وزارة الدفاع. صديقي، وخَلَفي ككرباج جمهوريّ في المجلس، نيوت غينغريتش، كان موشكاً على أن يصبح رئيساً لهذا المجلس.

لم أكن مستعداً لمقايضة سنوات في وزارة الدفاع بأي شيء - ولو حتى بترؤس مجلس جمهوري للنواب. وتعين علي أن أسلمه لنيوت. فمنذ لقائي الأول به في 1978، ظل يقول إن الجمهوريين قادرون على الفوز بالأكثرية من جديد. كنا، بأكثريتنا، نظن أن ذلك لم يكن إلا حلماً غير واقعي. أما نيوت فلم يكن مثلنا، لم يكن يحلم فقط. قام الرجل بتأليف العقد مع أمريكا وجند مرشحين في طول البلد وعرضه لدخول السباق تحت شعارات العقد. ولولا نيوت، لكان من الممكن أن تبقى أي أكثرية جمهورية حلماً.

ما إن وضعت معركة الانتخابات النصفية أوزارها، حتى دقت ساعة مبادرتي إلى اتخاذ قرار بشأن 1996. هل كنت راغباً في التسابق على الرئاسة أم لا؟ هل كنت مستعداً لفعل كل ما كان مطلوباً لشن حملة ناجحة؟ في عيد الميلاد اجتمعت العائلة ثانية في جاكسون هول، وفيما كان الثلج يتساقط خارج نوافذنا، كنا نواصل نقاشاً دائراً منذ عدد من الأيام حول ما إذا كان يتعين علي أن أترشح. ومع أن بعض أفراد العائلة كانوا أكثر حماسة من بعضهم الآخر، كنت أدرك يقيناً أن الجميع كانوا سيؤيدون ما أتخذه من قرار تأييداً كاملاً.

وما كنت قد قررته هو عدم الترشح للرئاسة. فبعد غربلة الإيجابيات والسلبيات، رأيت الأمر على النحو التالي: كنت مؤمناً أنني قد عشت حياة مهنية عظيمة دامت أربعاً وعشرين سنة في القطاع العام، بما فيها رئاسة جهاز عاملي

البيت الأبيض، ووزارة الدفاع، وتمثيل وايومنغ في الكونغرس مدة عشر سنوات. كنت أشعر بأنني لا أزال صغير السن في الثالثة والخمسين من العمر مما يؤهلني للاضطلاع بمهنة أخرى في القطاع الخاص، ومن المؤكد أن ذلك الاحتمال كان أكثر جاذبية من تعريض عائلتي لفرّامة لحم حملة انتخابية عامة مقابل أفق الفوز بالرئاسة في المستقبل غير القريب. أقدمت، إذن، في الثالث من كانون الثاني/يناير، 1993 على مصارحة بعض أركان المؤيدين لي بعدم اعتزامي الترشح ثم أدليت بهذا البيان الصحفي:

> *بعد دراسة متانية، قررت الا اكون مرشحاً للرئاسة في 1996. إنني اقدر عالياً عبارات التشجيع والدعم اللطيفة التي وصلتني من عدد كبير من الأمريكيين الذين كانوا قد حضوني على التماس الرئاسة. أتطلع بشغف إلى تأييد المرشح الجمهوري لرئاسة الجمهورية في 1996.*

مع الانتهاء الظاهري حالياً لسيرتي السياسية، عدت إلى الاهتمام بصيد السمك. سبق لي سلفاً أن كنت موفور الحظ لأمارس الصيد في بعض مياه العالم العظيمة. خلال فترة اضطلاعي بوزارة الدفاع كان نظرائي في بلدان أخرى قد دعوني إلى رحلات صيد في أثناء زياراتي. بعد أحد اجتماعات الناتو في سكوتلندا، حين ذهب الجميع للعب الغولف في سينت آندروز، كُرمت أنا بصيد سمك السلمون برفقة دليل سكوتلندي. أما التشيليون فأخذوني إلى مجاهل تيرا ديل فويغو. والقوات المسلحة الكندية دعتني إلى نهر إيغل في نيوفاوندلاند حيث طاردت أول سمكة سلموني في الأطلسي - وهي من النوع الضخم والقوي من السمك الذي يشكل صيده تحدياً كبيراً - خارج مخيم صيد تاريخي كان الجنرالان هاب آرنولد وجورج سي مارشال قد استمتعا به لدى عودتهما من أوروبا عبر الطريق الدائرية العظيمة خلال الحرب العالمية الثانية. دعاني رئيس وزراء نيوفاوندلاند إلى الصيد في الغراند كاسكابيديا، الذي هو نهر آخر من أنهار بلده الغنية بالسلمون الفاخر.

وجدتني الآن أيضاً متوفراً على الوقت اللازم للعودة إلى الأمكنة التي عشقتها مثل نهر دين في كولومبيا البريطانية، حيث كان أصدقاء من أوريغون قد

علّموني فن صيد السمك ذي الرأس الفولاذي - وهو سمك يفقس في الماء العذب، وينطلق إلى البحر بعد نحو عامين، ثم لا يلبث، بعد بضعة أعوام، أن يعود ليضع بيضه من جديد، وهو يغدو أكبر حجماً وأكثر مكراً ومراوغة. إنه سريع جداً، يتحدى الصنارة، صعب التثبيت - اختبار حقيقي للمهارة. وصيده متوفر في بعض أجمل مناطق أمريكا الشمالية.

تابعت صيد السمك في نهر سنيك في ولايتي وايومنغ وآيداهو، ونهر بيغهورن في مونتانا، مع أصدقاء من وايومنغ يضاهونني حماسة للصيد. صديقي القديم ديك سكارلت كان يقوم عادة بتنظيم رحلاتنا. كنت سنوياً أخصص وقتاً للصيد في بنسلفانيا مع الصديق العزيز دون دوغنبو، وهو معلم ومدرب متقاعد، يعرف عن صيد السمك أكثر مما يعرفه أي من الأشخاص الذين سبق لي أن عرفتهم. كذلك مارست الصيد في بعض الأمكنة الجديدة، إذ ذهبت إلى نيوزيلاندا مرتين، واصطحبتُ ابنتي ماري وصديقي جون روبسون في رحلة بالغة الإثارة لصيد سلمون الأطلسي في نهر بونوي في روسيا.

ثمة رجل أعمال كندي، يدعى فريد مانكس، دعاني إلى نادي ريستيغوش للسلمون في نيو برونزويك. تأسس النادي في 1880، ودرج أعضاء أمريكيون وكنديون أغنياء على عادة القيام بالرحلة إلى هناك في عربات قطار خاصة لصيد السلمون. كان إيه إن تشيني، أحد أسلافي، وقد كان بعيداً عن الغنى، ولكنه صياد سمك ذائع الصيت، يصيد مع صديق له على مسافة نحو ستة أميال بعد النادي ما كان يراه "أعظم أنواع السمك". وبرفقة صديق آخر، تشارلز أورفيس، قام إيه إن تشيني بتحرير كتاب (Fishing in the fly)، وهو كتاب ما لبث أن أصبح أثراً كلاسيكياً عن هذا النوع من صيد السمك.

في 1994 دعاني جون جورج، رئيس شركة إنترناشيونال بيبر ومديرها التنفيذي، إلى مخيم روكي بروك للسلمون على نهر ميراميتشي في نيو برونزويك. كان المخيم من قبل جزءاً من أملاك الشركة المغطاة بالغابات، المباعة الآن بأكثريتها، إلا أن الشركة كانت قد تحلت بحكمة الاحتفاظ بمخيم السلمون الرائع هذا. الضيوف الآخرون معي ذلك الأسبوع كانوا: روجر سميث من جنرال

موتورز؛ وصديقي وخبير الاستطلاعات بوب تيتر؛ وباتريك نونان، الذي كان رئيساً لصندوق صون الطبيعة؛ وتوم كرويكشانك، الذي كان رئيس هاليبورتون ومديرها التنفيذي.

لم يكن قد سبق لي أن التقيت توم كرويكشانك هذا من قبل ولم أكن أعرف أنه كان يستعد للاستقالة ويبحث عن بديل. غير أن ذلك لم يكن ليؤثر، لأنني لم أكن بصدد البحث عن عمل. كنت هناك لصيد السمك، وذلك هو ما كانت المجموعة تفعله كل صباح وأصيل. أما وقت الغداء فكنا نتحلق حول النار ونخوض في حوارات طويلة وسجالية أحياناً حول السياسة والتخطيط العام.

بعد رحلتي إلى روكي بروك ببضعة أشهر، رفعت سماعة الهاتف ذات يوم في مطبخي بجاكسون لأسمع صوت توم كرويكشانك. حدثني عن تقاعده المبرمج وعن بحث هاليبورتون. أفاد بأن الشركة لم تكن قد حققت أي نجاح في الاهتداء إلى بديل وبأنه كان ذكر اسمي مرشحاً محتملاً أمام عدد من أعضاء مجلسه. أدى الاحتمال إلى إثارة اهتمامهم، وقد اتصل بي ليقف على مدى استعدادي للسفر جواً إلى دالاس لمقابلتهم.

وجدتني أنا أيضاً مهتماً. فهاليبورتون هي ثانية كبرى الخدمات النفطية في العالم. فهي مالكة لبراون آند روت، شركة الإنشاءات الكبرى العميقة الجذور في تكساس وذات الامتدادات حول الكرة الأرضية. بالإجمال، تقوم الشركة بتشغيل نحو مئة ألف موظف موزعين على 130 بلداً. وافقتُ على السفر وهبطتْ بي طائرة هاليبورتون في لوف فيلد بعد بضعة أيام. تناولت العشاء في منزل توم كرويكشانك مع عدد من أعضاء مجلسه بمن فيهم آن آرمسترونغ التي كنت أعرفها حين كانت سفيرة في المملكة المتحدة في عهد الرئيس فورد. وكان هناك بوب كراندال، رئيس الخطوط الجوية الأمريكية ومديرها التنفيذي، إضافة إلى دبليو آر هاول، رئيس جي سي بني. تحدثنا عن هاليبورتون وعما كانوا يبحثون عنه في أي مدير تنفيذي. كانت سهرة ممتعة، وقد أعادوني جواً إلى وايومنغ بعد السهرة.

بعد بضعة أيام اتصل توم ليقول إنهم راغبون في عرض الوظيفة علي. قبلت العرض، مدركاً أنني سأطالب بإنجاز التفاصيل، غير أنني كنت من حيث

المبدأ قد أصبحت في المجلس. أعتقد أن رغبتهم في توظيفي كانت نابعة، في جزء منها، من خبرتي الدولية. فما لا يقل عن نصف دَخْل الشركة كان يأتي مما وراء البحار. كنت قد نجحت في إدارة وزارة الدفاع، إحدى التحديات الإدارية اللافتة، إضافة إلى أن توصيات شخصية صادرة عن أعضاء مجلس إدارة مثل آن آرمسترونغ ساعدت على ذلك.

عدت جواً إلى دالاس لإصدار البيان العلني عن أنني المدير التنفيذي الجديد وسأحضر للعمل في الأول من تشرين الأول/أكتوبر 1995. كنا، توم وأنا، سنتقاسم المسؤوليات خلال الأيام التسعين الأولى، ثم يتخلى هو وأخلفه في الأول من كانون الثاني/يناير 1996.

خلال الأيام التسعين تلك، قمنا، توم وأنا، بجولة على البلاد في زيارة عمليات هاليبورتون. زرنا دنكان، في أوكلاهوما، موطن هاليبورتون ـ وكما كنت سأكتشف، مسقط رأس صديقتي السفيرة جين كيركباتريك، التي شبت في بيت مجاور لمنزل إيرله هاليبورتون. أمضينا أيضاً بعض الوقت في الحقل حيث اطلعت على التكنولوجيا المتطورة المعقدة التي هي جزء من عملية الحفر الحديثة. بدأت ألتقي زبائن هاليبورتون وموظفيها وأطلع على المدى الكامل للأعمال.

بعد أن انتقلنا، لين وأنا، إلى دالاس، ثمة صديق قديم من هناك سألني: "الآن وقد أصبحت في تجارة النفط فما الشيء التالي: الغولف، أمر رومي الجن (لعبة من ألعاب ورق اللعب)، أم الصيد؟" لم يكن الخيار صعباً. قلت: "الصيد". تتوفر تكساس على بعض أعظم مواطن السماني (الفرّي) في العالم، وحين قامت هاليبورتون بوضع اليد على درسّر أندستريز بتنا حائزين على أربعين ألف فدان في الكنغ رانتش. أنجزنا كماً كبيراً من الأعمال في أثناء رحلات الصيد، وكان الأمر خزان فيض من المرح.

كانت ساحة صيدي المفضلة مزرعة آرمسترونغ، هناك في تكساس الجنوبية، على بعد نحو خمسين ميلاً من خليج المكسيك. مثل أي مزرعة تكساسية جديرة باسمها، فإن مزرعة آرمسترونغ كبيرة، نحو خمسين ألف فدان.

وأسراب السُّمانى (الفري) كانت وافرة كما في أغنى الأمكنة التي أعرفها، غير أن الزوجين آرمسترونغ نفسيهما كانا سبباً حقيقياً وراء التطلع بشوق إلى قضاء نهاية الأسبوع في المزرعة. فآن وتوبين كانا شخصين لطيفين، قريبين من القلب، مع نزعة كرم رحبة رحابة تكساس. منزلهما الريفي البعيد كلياً عن التباهي كان مزدحماً بتذكارات الصيد، والآثار الإنكليزية القديمة (كثرة منها حصل عليها توبين فيما كانت آن سفيرة في بلاد القديس جيمس)، وبمئات الصور. كانت تلك شهوداً على عدد كبير من النجوم الذين زاروا مزرعة آرمسترونغ، بمن فيهم الأمير تشارلز.

بعد وجبة فطور عزبوية شهية (كانت حلوى الجالابينو دائمة الحضور على المائدة)، كنا نستقل سيارات تشفي ونتبع الفرسان عبر السهوب إلى أن يرصد الأخيرون سرباً. ثم نترجل ونطلق النار. كنا نتناول طعام الغداء تحت إحدى أشجار البلوط العملاقة، حيث نتوقف لأخذ قيلولة، ثم نستأنف القنص، عائدين إلى المزرعة في الوقت المناسب لتبادل الأحاديث على مائدة الشراب - وإن بقي الحديث متوقفاً عادة على مبادرة توبين إلى خفض صوت موسيقى الماريانتشي.

عشت أوقاتاً بالغة الروعة في أثناء القنص بمزرعة آرمسترونغ، وبالفعل فإننا، لين وأنا، نفتقد توبين وآن اللذين رحلا عن عالمنا في 2005 و2008 على التوالي. إلا أن المزرعة كانت أيضاً المكان الذي عرفتُ فيه حزناً كبيراً. في إحدى رحلات الصيد هناك، حين كنت نائباً للرئيس، أطلقت النار خطأ على أحد شركائي في الصيد: هاري ويتنغتون.

كنت متأخراً في النهار يوم 11 شباط/فبراير 2006. كنا ثلاثة في عملية إطلاق النار: هاري؛ وبام ويلفور، سفيرنا في سويسرا آنذاك؛ وأنا. طار السرب الأول وأصاب هاري طائرين. فيما كان ذاهباً مع دليله وكلاب الصيد للعثور على الطائرين، انتقلنا، بام وأنا، إلى سرب ثانٍ. كنتُ إلى اليمين وبام إلى يساري. ظننت أن هاري خارج دائرة الإطلاق وما زال يبحث عن طائريه من السرب الأول.

طار سمانى منفرد إلى يميني ودرت للإطلاق. كانت الشمس موشكة على الاحتجاب وراء الأفق، ولم أكن أعرف أن هاري كان قد أصبح إلى يميني. كان

واقفاً في منخفض من الأرض وكانت الشمس خلفه. لم أره إلا بعد فوات الأوان. مهما نسيت لن أنسى، حياتي كلها، مشهد سقوط هاري بعد إطلاقي للنار.

هرعنا إليه. وجهه كان دامياً، وكان هو مصعوقاً. عناصر جهازي السري والأطباء العسكريون، الذين كانوا دائمي المرافقة لي بوصفي نائباً لرئيس الجمهورية، كانوا هناك وسارعوا فوراً إلى معالجته. استدعينا سيارة الإسعاف التي كانت في المزرعة كجزء من موكبي. أعضاء من وحدة البيت الأبيض الطبية المرافقة تولوا الإشراف على إسعاف هاري ثم استقلوا سيارة الإسعاف معه. توقفوا في المقر المركزي للمزرعة لاصطحاب زوجة هاري، مرسيدس، ثم توجهوا إلى المستشفى في كوربوس كريستي. بقيت دائم الاستقبال للتقارير كل الليل عن وضع هاري، وتمكنت من زيارته في المستشفى في اليوم التالي.

كانت تلك واقعة مرعبة. لحسن الحظ لم تكن أسوأ. كنت أستخدم بندقية غيج - 28 في ذلك اليوم، وهي أخف من الغيج - 20 أو الغيج - 12 اللتين أستخدمهما أحياناً. كان هاري واضعاً نظارات صيد آمنة ضد الكسر على عينيه اللتين نجتا من الإصابة بأي خردقة. إلا أنني كنت، مع ذلك، قد أطلقت النار على صديقي وهو الآن راقد في مستشفى. لعل آخر شيء خطر ببالي هو إطلاق تصريح صحفي، ولم نقم بذلك في تلك الليلة. استعادياً أرى أنه كان يجب أن نفعل.

في اليوم التالي صرحنا لجريدة محلية تقوم روتينياً بتغطية أحداث ذلك الجزء من تكساس اسمها "كوربوس كريستي كولر تايمز"، مدركين أن قيامها بنشر القصة كان سيفضي إلى تعميم الخبر على جميع الأمكنة. خيارنا أدى إلى إثارة حفيظة فريق إعلاميي البيت الأبيض إضافة إلى باقي وسائل الإعلام السائدة وأفضى ربما إلى مضاعفة سُعار ردود الأفعال. ولكن مرة أخرى أؤكد أن آخر شيء خطر ببالي هو استثارة غيظ صحيفة "النيويورك تايمز".

تابعت رصد وضع هاري عبر الأسابيع والأشهر التالية وقدرت الرحابة التي تحلى بها في مقاربة الأمر. كان ماجداً حقيقياً. مع مرور الأيام، صارت الحادثة بمجملها علفاً عظيماً لمهرجي آخر الليل - وللرئيس بالذات. لاحقاً خلال نفس السنة، في حفل عشاء غريديرون السنوي، حيث يقوم الساسة بشي

أنفسهم انتقاداً، قال بوش: "ها أنا ذا صاحب 38 بالمئة من الأصوات، وديك مطالب بإطلاق النار على محامي الاختبار الوحيد الذي يؤيدنا في تكساس".

حين تم إعفاء هاري من ضرورة البقاء في المستشفى يوم 17 شباط/فبراير، 2006، تحدث مع الصحافة وعلق على السُّعار الإعلامي الذي أفرزته الحادثة قائلاً: "عائلتي وأنا نأسف بعمق إزاء كل الذي تعرض له نائب الرئيس تشيني وعائلته خلال هذا الأسبوع". ثم أضاف: "نعبر لهم عن حبنا واحترامنا وهم عاكفون على معالجة أوضاع أهم بكثير من الذي عانيناه هذا الأسبوع".

بالطبع كنت شديد الأسف لما عاشه هاري وعائلته من ألم وعناء. كان يوم حادثة الصيد أحد أكثر أيام حياتي اصطباغاً بالحزن والأسى. ومهما نسيت فإنني لن أنسى فضل هاري ويتنغتون وكَرَمَه.

أصبح جورج دبليو بوش حاكماً لولاية تكساس في السنة السابقة لالتحاقي بالعمل في هاليبورتون. كنت قد التقيته لماماً حين كان أبوه رئيساً للجمهورية، غير أنني لم أعرفه حتى أصبحنا، كلانا، عاملين في تكساس ووافقت أنا على قبول عضوية أحد مجالس الأعمال الاستشارية عنده. بدأت أراه أكثر حين راح يفكر بالترشح للرئاسة ويدعوني إلى عزبة حاكم الولاية في أوستن لعقد خلوات معه وجلسات مع فريقه الاستشاري لشؤون السياسة الخارجية. كان الفريق مؤلفاً في المقام الأول من كوندي رايس، وستيف هادلي، وريتش آرميتاج، وبول وولفويتز. حضر سكوتر ليبي أيضاً بعض الاجتماعات. كانت كوندي تدير الجماعة، مساهمة في اختيار موضوعات للمناقشة وموزعة مواد ملخصة قبل بعض اللقاءات. مجموعة أشخاص أنكياء، ذوي خبرة، بدوا جميعاً في حالة تناغم وانسجام تامين. لو كنت مقبلاً على الترشح للرئاسة تلك السنة وبحاجة إلى مستشارين في مجال التخطيط على صعيدي الخارجية والدفاع، لأقدمت، ربما، على اختيار الفريق نفسه.

تمت البرمجة لأحد اجتماعات الفريق في 24 شباط/فبراير 1999، ونزلت جواً إلى أوستن في الليلة السابقة لتناول العشاء مع حاكم الولاية. صباح اليوم التالي كنت في غرفة الضيافة المخصصة لي في العزبة عاكفاً على التهيؤ للفطور

حين طُرق الباب. فتحته لأجد أمامي حاكم ولاية تكساس مع فنجان قهوة كان قد أعده لي. كانت تلك لفتة كريمة وأعلى خدمة غرف سبق لي أن حظيت بها يقيناً.

بعد نحو شهر، قام جو آلبو، الذي كان يتولى مساعدة بوش في لملمة بدايات حملته الرئاسية، بزيارتي في دالاس. دار بيننا حديث جيد حول آليات أي سباق رئاسي وجملة مداخل ومخارج إدارة أي حملة. تحدثنا عن الأولويات، والاستخدام، والبرمجة، وأسلوب لمّ الأمر كله في إطار إجمالي واحد. كانوا في بداية العمل لاجتراح خريطة طريق مفضية إلى انتخابات الـ 2000، وكنت سعيداً بأن أساعد قدر استطاعتي إلا أن تركيزي وأولويتي الرئيسيين بقيا منصبين على عملي اليومي المتمثل بتسيير أمور هاليبورتون.

في 1998 راح والدي يتطرق إلى "عقد صفقته"، مطلقاً عبارة نبراسكية قديمة تعني قيام المرء بترتيب أموره قبل أن يودع الحياة. كان في الثالثة والثمانين، وظل في وضع جيد خلال السنوات الخمس المنقضية منذ رحيل الماما في 1993. كان قد انتقل إلى مرفق للعناية بالمسنّين قبل عام، معبراً عن الرغبة في إنجاز الأمر وهو متمتع بما يكفي من الصحة لتنفيذ الحركة وحده. كان لا يزال يملك البيت رقم 505 بساحة تكساس في كاسبر، وظل يقود سيارته إلى هناك لمراقبة الوضع. أما الآن فقد أبلغنا، أختي سو، وأخي بوب، وأنا عن عزمه بيع أشيائه مع البيت. ظللنا نطلب منه ألا يهتم بالأمر، فنحن سنتولاه. غير أنه لم يكن ليسمع. أمرنا بإنجاز المهمة وأخذ أي شيء نريده، ثم اهتدى إلى دلال استدعاه ليتولى بيع كل شيء بالمزاد. كذلك عرض البيت للبيع وما لبث أن عثر على زبون يشتريه.

كان أبي يعالج النهاية مثلما كان قد عالج أشياء كثيرة جداً في حياته - برباطة جأش ووقار. غير أنه لا ينكر الألم المترتب على إقفال بيت وحياة زاخرين بالذكريات. ذات صباح بعد إتمام نقل كل الأثاث والممتلكات إلى المرآب وإعدادها للبيع، وصلت سو إلى البيت لتجد الوالد جالساً في المرآب وحده، بين أكوام مقتنيات عمر كامل، والدموع تبلل وجهه.

مع حلول ربيع 1999، كان قد نُقل إلى المستشفى عدداً من المرات مع

أعراض قصور قلب احتقاني. وفي آخر أيار/مايو كان قد بدا موشكاً على التعافي والانتعاش حين قرر أن يأخذ قسطاً من قيلولة بعد الظهر ولم يستيقظ إلى الأبد. قبيل غرقه في النوم، قمنا جميعاً، بوب، وسو، وأنا، بالاتصال به في اللحظة ذاتها تقريباً. بوب وأنا وجدنا الخط مشغولاً، أما سو فسبقتنا وتحدثت معه للمرة الأخيرة، سمعت الكلمة الأخيرة التي نطق بها.

قبل رحيل الوالد، وصل نبأ أن الكونغرس كان قد قرر إطلاق اسمي على أحد المباني الاتحادية في كاسبر، جاعلاً المبنى: بناية ديك تشيني الاتحادية. أضفى عليه ذلك فرحاً غامراً. كانت تلك بناية قد ظل يعمل فيها عدداً من السنين، وها هي ذي الآن كانت ستحمل اسم ابنه. فكرت بأبي وباعتزازه بتلك السنوات الطويلة التي قضاها في خدمة الحكومة الاتحادية وأنا أقف أمام المبنى مشاركاً في حفل إعادة التكريس صيف 1999. فكرت أيضاً بمدى اعتزازي بكوني ابنه وحامل اسمه.

في خريف 1999، قمنا، لين وأنا، باستضافة حفلة في بيتنا بدالاس لصالح مؤسسة برباره بوش لمحو أمية العائلة وتدشين برامج القراءة. جاء حاكم الولاية بوش ولورا، سأل الحاكم عما إذا كان ثمة مكان للكلام بضع دقائق. دخلنا إلى المكتبة، غرفة هادئة، في القسم الخلفي من البيت، حيث أفاد بأنه يرغب في أن أتولى أنا إدارة حملته الرئاسية. أخبرته أن الطلب يشرفني، إلا أنني مضطر لأن أعتذر عن تلبيته. أنا موظف متفرغ للوظيفة، وليس ثمة أي طريقة تمكنني من الاضطلاع بمهام إدارة العمليات اليومية لحملة رئاسية، إضافة إلى عملي. أكدت لحاكم الولاية تأييدي له واستعدادي لمساعدته بأي أسلوب أستطيعه. أما شغل موقع حملة انتخابية قائم على التفرغ الكامل فلم يكن وارداً في حساباتي على الإطلاق.

وبعد بضعة أشهر، في أوائل خريف 2000، زارني جو آلبو ثانية. لم يكن سباق الانتخابات التمهيدية منتهياً تماماً، ولكن الدلائل كانت تشير إلى أن جورج بوش سيكون هو المرشح الجمهوري. هذه المرة أراد جو أن يعرف ما إذا كنت مستعداً للموافقة على أن أكون قرين الوالي بوش. مرة أخرى، قلت: "لا". كنت

شديد الصراحة والصدق معه حول الموضوع. قلت له: "اسمع يا جو، ليس لذلك معنى أبداً بالنسبة إليكم أنتم كما بالنسبة لي!" قمت باستعراض جميع نقاط الضعف والسلبيات بما فيها أزماتي القلبية الثلاث وكوننا، الحاكم وأنا، من رجال النفط، الأمر الذي كان خصومنا سيوظفونه ضدنا. يضاف إلى ذلك، أننا نقيم في تكساس - ما سيؤدي إلى منع الناخبين التكساسيين من الاقتراع لكلينا معاً.

أضيف، كنت بالغ السعادة بإدارة هاليبورتون. كنت أعمل في الشركة منذ أربع سنوات، وكنا منخرطين في مشروعات للطاقة في طول العالم وعرضه. وعن طريق براون آند روت، كنا نمارس الإنشاءات أيضاً، جميع أصناف الإنشاءات بدءاً بخط حديد عابر لمناطق أستراليا الخلفية وانتهاء بملعب بيسبول لنادي آستورز في هيوستون. كذلك كنا مبرمين عقداً كبيراً لتزويد جيش الولايات المتحدة بالخدمات اللوجستية. وأحد الدروس التي كنا قد تعلمناها من "عاصفة الصحراء" هو أن التعاقد مع متعهد خاص متوفر على الإمكانيات والمعدات ويتولى إقامة الثكنات وتوفير الخدمات الغذائية وغيرها من أساسيات الدعم أرخص وأقل كلفة من تكليف أجهزة عسكرية متفرغة تحت الطلب لأداء هذه الوظائف. كانت شركة براون آند روت ناجحة في ما قامت به، ومن الواضح أنها لا تزال، لأن الجيش ظل، في ظل إدارة أوباما، يكافئها بعقود ذات شأن.

كنت أحقق أشياء أفخر بها، بما فيها كسب شركة درسّر أندستريز [Dresser Industries]، الذي جعل هاليبورتون أكبر شركة طاقة في العالم. وبعد إصابتها بوعكة عارضة جراء نوع من الركود في آسيا، فإن أسهمنا عادت إلى الصعود، وكنت سعيداً في مكاني. بالإضافة إلى أنني لم أكن أريد أن أكون نائباً للرئيس. كنت قد عرفت عدداً كبيراً من نواب الرئيس مما جعلني أؤمن بعدم جدارة السعي وراء المنصب. كانت رسالتي إلى جو في ذلك اليوم لشكره بالأساس، ولكن لرفضي عرضه.

بعد أسابيع قليلة جاءني حاكم الولاية بوش مع طلب مختلف. أراد معرفة مدى استعدادي لترؤس بحثه عن قرين يكون مرشحاً لمنصب نائب الرئيس. أخيراً كانت تلبية الطلب سهلة. أردت أن أفعل كل ما أستطيع فعله على صعيد

المساهمة في حملته، وكان من شأن هذا أن يبقى التزاماً إضافياً، خارج أوقات الدوام، أستطيع فعله - وإنجازه - في غضون أشهر. وحين فكرت بالموضوع، أدركت أنني كنت أراقب أو أشارك في عملية انتخاب نائب الرئيس منذ نحو ربع قرن، ما جعلني أشعر بامتلاك خبرة جيدة على صعيد الشروط الواجب توفرها في عمل أي بحث ناجح.

في واشنطن بعد بضعة أيام، بدأتُ أجمع فريقاً لي صغيراً لتسيير عملية اختيار نائب الرئيس. كانت ليز في إجازة أمومة من مؤسستها الحقوقية، وسألتها عن مدى استعدادها للمساعدة. حين قالت: نعم، لست واثقاً من أنها كانت تدرك أن مكتبها المنزلي كان سيصبح المركز العصبي للعملية. كذلك طلبت من ديف آدينغتون أن يساعد عبر مراجعة المواد المقدمة من كل مرشح محتمل وإعداد خلاصات كنت أتقاسمها مع الحاكم بوش. صهري فيل بيري، ومحامون آخرون من شركته كانوا يعملون مع ديف لوضع الاستمارة التي طلبنا من كل مرشح أن يملأها. كذلك أدلى ديف غريبن بدلوه، لا سيما في مجال مراجعة سجلات الاقتراع والخطب العامة للمرشحين. وقد تولى محامي انتخابات داهية، يدعى جون باران، مساعدتنا على صعيد مراجعة عوائد الضرائب والإجابة عن أسئلة حول القوانين الانتخابية في ولايات منفردة.

ليس العثور على مرشح جيد لمنصب نائب الرئيس بالسهولة التي قد يظنها البعض. قد ينطلق المرء من فكرة أنه منصب مرموق جداً لا بد لآلاف السياسيين من أن يكونوا تواقين لشغله وأن كثيرين سيكونون مؤهلين له. ولكن الشروع في البحث لا يلبث أن يفضي إلى واقع أن لكل واحد سلبياته ونواقصه. ما من أحد إلا ومثقل بحمولة ما - بسجل اقتراعي، أو مشكلة مالية، أو بشيء في حياته الشخصية.

بدأنا بقائمة شاملة لجميع الذين يجب النظر في ترشحهم، ثم رحنا نقلص القائمة وصولاً إلى المرشحين القابلين فعلاً للاستمرار والصمود. أحياناً تتحدث وسائل الإعلام عن القائمة "الطويلة" والقائمة "القصيرة"، ولكن الأمر أشبه حقيقة بقائمة الاستهلاك العام والقائمة الفعلية لخيارات ممكنة. ثمة أسباب كثيرة قد تدعو إلى إدراج اسم شخص معين على قائمة معدة للاستهلاك العام. ربما

تكون المحاولة هادفة إلى استرضاء جناح معين في الحزب، أو إلى اجتذاب أولئك الذين أيدوا الخصم في الانتخابات الأولية. يتم، إذن، إيراد أسماء أشخاص معينين على الرغم من عدم وجود أي فرصة لوقوع الاختيار عليهم.

بدأت أهاتف كلاً من أولئك الذين وردت أسماؤهم في القائمة الفعلية وأسأله عما إذا كان موافقاً على النظر في أمر ترشحه. البعض، مثل عضو مجلس الشيوخ الفلوريدي كوني ماك، قالوا: "مستحيل". وبالفعل فإن كوني أكد أنه كان سيقاطعني إلى الأبد إذا ما أدرجت اسمه على القائمة. أما أولئك الذين وافقوا، فشرحت لهم أننا سنوافيهم باستمارات شبيهة بالأعمال الورقية التي يُطلب من الموظفين الاتحاديين ملأها للتوظيف أو لأغراض أمنية ونبهتهم إلى تضمنها بعض الأسئلة المتطفلة. وقلت إنني سأجري خلوات. كان من شأن هذه أن تبقى في المستوى المتدني ـ بعيداً عن أعين الإعلاميين ـ وكنت أطرح بعض الأسئلة الشخصية. جل المرشحين الذين يصلون إلى القائمة القصيرة متمتعون بما يكفي من الخبرة ليعرفوا أن لا شيء عنهم سيكون محظوراً، ولا شيء يمكن التعويل على بقائه سراً إذا ما تم اختيار أحدهم مرشحاً. ستبدأ الصحافة عملية التنقيب، وسيبادر الطرف المقابل إلى إطلاق جيش من الباحثين. حياة المرشح كلها ستكون كتاباً مفتوحاً. أكثر الناس كانوا يتفهمون هذا ويدركون مدى أهمية تزويدنا بتحذيرات عن أي شيء من شأنه أن يثير مشكلة أو إحراجاً أو حتى ما هو أسوأ.

كذلك طلبنا من كل مرشح محتمل أن يقدم بياناً ضريبياً عن عشر سنوات؛ ونسخاً عن خطبه، وكُتُبه، ومقالاته؛ وشريط فيديو لطلاّته التلفزيونية الحديثة. فكرنا طويلاً وعميقاً بأفضل أمكنة استلام هذه المعلومات البالغة الحساسية وحفظها. ما كنا لنستطيع استخدام مقر قيادة الحملة في أوستن، ذلك المكان الذي يطرقه عدد كبير من الفضوليين يومياً. كان من شأن مكان ما في واشنطن أن يكون أفضل، لأن فريق البحث كان موجوداً هناك. كان للين مكتب في معهد المشروع الأمريكي (الأمريكان أنتربرايز)، غير أن ذلك لم يكن في الحسبان، لتعذر ممارسة نشاط سياسي في مرفق غير ربحي. أخيراً، توصلنا، الحاكم وأنا، إلى استنتاج أن أحداً لن يخطر بباله أن جميع المواد ذات الحساسية الاستثنائية

المتعلقة بعملية اختيار مرشح لمنصب نائب الرئيس محفوظة في خزائن مقفلة في قبو بيت ليز بضواحي العاصمة، لذا فإن ذلك هو المكان الذي كنا قد أرسلنا إليه كل شيء وحفظناه فيه.

في العاشر من أيار/مايو تناولت العشاء مع الحاكم في أوستن لاستعراض المعلومات التي كنا قد جمعناها عن الدفعة الأولى من المرشحين المتوقَّعين. اصطحبت نسختين عن الملف المتضمن معلومات حول الجذور الاجتماعية لكل منهم. قدمت إحدى النسختين إلى الحاكم وأبقيت الثانية معي، لأتمكن من تمريره على بنودها. كنا قد أحجمنا عن تدوين المواد الأكثر حساسية، فأطلعت الحاكم عليها شفهياً. وقبل الشروع في هذه الجلسة الأولى، أخبرت الحاكم بوش أن ما كنا بصدد بحثه كان شديد الحساسية، ولا بد لنا من تأمين سرية كاملة. وافقني بالطبع، وصار، عند انتهاء كل لقاء من لقاءاتنا المكرسة لمناقشة المرشحين، يعيد إلي نسخته عن الملف.

كان الغائبان عن قائمتنا هما كولن باول وجون ماكين. كلاهما كانا قد بينا بوضوح عدم اهتمامهما. أما المرشح الذي لم يصمد طويلاً على القائمة فهو دون رامسفيلد. بعيد اضطلاعي بمهمة إدارة عملية الاختيار، هاتفت دون وقلت له: "أنا عاكف على تأليف قائمة مرشحين محتملين لمنصب نيابة الرئاسة، ويسرني أن أضع اسمك عليها. لست ملزماً بالموافقة، أما إذا بقيت صامتاً فسأبادر إلى إيراد اسمك في القائمة". كان ثمة صمت على الطرف الآخر من الخط، فأضفت اسم دون وتركته في وضع يمكنه من أن يقول صادقاً إنه لم يكن قد طلب إدراج اسمه في القائمة.

ولكن اسمه لم يدم طويلاً، ولم نحاول أن ندقق في الأسباب معه قط، لأن نيابة رئاسة رامسفيلد لم تكن واردة كما تجلى بوضوح في الجلسة الثانية التي عقدتها مع الحاكم. بعضهم في معسكر بوش طالما كانوا قد صدَّقوا أن رامسفيلد أقدم في 1975 على التآمر على جورج أتش دبليو بوش إذ دفعه إلى منصب مدير السي آي إيه لإخراجه من الساحة السياسية ومنعه من الترشح كنائب للرئيس فورد في 1976. كنت أعرف حقاً أن شيوخاً ديمقراطيين كانوا قد طلبوا من الرئيس فورد، مقابل تثبيت بوش مديراً للسي آي إيه، تعهداً خطياً بعدم

اختيار الأخير قريناً في انتخابات 1976. والواقع هو أن جورج أتش دبليو بوش كان يريد تولي منصب مدير السي آي إيه. تذكرت أنني كنت في المكتب البيضوي حين ألح على فورد طالباً منه إبرام الصفقة وتوقيع الرسالة.

ذات ليلة، على مائدة العشاء في دارة عزبة الحاكم، قمت باستعراض هذه القصة مع الحاكم بوش، لا لأني كنت أحثه على ضم رامسفيلد إلى البطاقة بل لأنني كنت أريده أن يعرف الحقائق كما رأيتها بعيني. أخبرته بأنني كنت مقتنعاً شخصياً بأن ذهاب أبيه إلى السي آي إيه لم تكن له أي علاقة مع رامسفيلد. وبالفعل، إذا أراد المرء أن يحدد شخصاً واحداً يحمله المسؤولية، فإن باستطاعته أن يشير إلى إليوت ريتشاردسون، الذي كان خيار فورد الأول لمنصب مدير السي آي إيه. على امتداد السنين، كان ريتشاردسون قد دأب على إغاظة عدد من الأشخاص، بمن فيهم كيسنجر، وذلك النوع من الممانعة لاختيار ريتشاردسون هو الذي أفضى إلى دفع فورد لمواصلة تسمية جورج أتش دبليو بوش للسي آي إيه. لم يتفوه الحاكم بوش بكلمة سلبية واحدة عن رامسفيلد، وبادر، بالطبع، بعد بضعة أشهر، إلى اختياره وزيراً للدفاع. إلا أنه أوضح دون لبس أن رامسفيلد لم يكن صاحب حظ ليكون خياراً بمقدار ما يتصل الأمر بنيابة الرئاسة.

خلال الأسابيع القليلة التالية، عقدنا، الحاكم وأنا، عدداً كبيراً من اللقاءات والاتصالات الهاتفية لاستعراض التقدم الحاصل في عملية البحث عن القرين الانتخابي. قال لي غير مرة: "أنت، يا ديك، نعم أنت هو الحل لمشكلتي". فضلت فهم التعليق تلميحاً إلى وجوب مضاعفة جهودي الرامية إلى إبراز مرشح.

في الثالث من تموز/يوليو نزلت جواً إلى كروفورد مرة أخرى لإطلاع الحاكم على ما استجد بإيجاز. اجتمعنا في البيت الصغير ذي الطابق الواحد والإطار الأبيض الذي درج هو ولورا على استخدامه في العزبة قبل إنجاز المكان الراهن. في ذلك الصباح جلست في الداخل معه واستعرضت الملفات المستجدّة مطلعاً إياه على أحدث الطعون بحق الجميع. بعد اجتماعنا انضمت إلينا لورا على الغداء، ثم خرجنا، هو وأنا، إلى الشرفة الخلفية. أساساً كانت الشرفة فسحة خرسانية مع بضعة أعمدة داعمة للسقف، وكان الجو هناك مرهقاً بحرارته. أتذكر

أنني نظرت إلى الصبار والمريمية وقلت لنفسي: "إنني في مزرعة تكساسية حقيقية دون أي شك".

على امتداد الأشهر القليلة الماضية، وأنا أستمع إلى جورج بوش متحدثاً عن نوعية نائب الرئيس الذي كان يريده، وجدتني متأثراً. بدا متوفراً على نوع من الإدراك القوي لنقاط قوته ومواطن ضعفه، ولم يكن يبحث عن شخص من منطلق أي حساب سياسي خالص. كان يبحث عن شخص قادر على مساعدته في الحكم، شخص ذي خبرة على صعيد نوعية قضايا الأمن القومي والسياسة الخارجية التي كان يعلم أن على كل رئيس أن يواجهها. وما هو أهم من كل شيء، كان على من يختاره أن يكون شخصاً قادراً على أن ينخرط وأن يصبح رئيساً للجمهورية إذا حصل الأسوأ.

وفيما نحن جالسان ننظر إلى المشهد الذي لوحته الشمس بحرارتها، قال مرة أخرى: "اعلم، يا ديك، أنك أنت الحل لمشكلتي". هذه المرة، قلت: "حسناً، حضرة الحاكم، سأنظر فيما يتعين علي أن أفعله لأكون مرشحاً مقبولاً". إلا أنني عبرت له عن رغبتي في الجلوس معه في الغرفة بحضور من يرغب وسرد جملة الأسباب الداعية إلى عدم اختياره لي. طلبت منه أن يتنبه إلى سلبياتي. وحين أعود الآن بالذاكرة إلى الموضوع، أشك في أن يكون جورج دبليو بوش قد سلّم فعلاً بجوابي الأول - شكري له ورفضي عرضه - حين سأل جو آلبو عما إذا كنت مستعداً لكي يُنظر في مسألتي. كان الحاكم قد بذل جهداً كبيراً لإقناعي، غير أنني لم أرد أن يفاجأ، وكنت بحاجة للتأكد من أنه قد دقّق في أمر المدقّق.

بعد ظهر ذلك اليوم، عدت جواً إلى واشنطن، وفي الليلة التالية ذهبنا، لين وأنا، إلى حفل آلان غرينسبان بمناسبة الرابع من تموز/يوليو على الطابق العلوي لمبنى الاحتياطي الاتحادي. فمقر قيادة هذا المبنى المكسو بالرخام الأبيض يواجه الناشيونال مول الواقع على مسافة بضع بنايات من نصب واشنطن التذكاري، علماً بأن مشهد الألعاب النارية المنطلقة من الطابق العلوي مذهل للغاية. قام آلان وزوجته، أنديا ميتشل، باستضافة عشاء للأصدقاء ثم دعوا الجميع إلى مصطبة السطح لمشاهدة الألعاب النارية.

مررت أنا ولين بطاولة المأكولات ثم اخترنا مقاعد شاغرة حول إحدى

موائد العشاء. تبقى واشنطن مكاناً غريباً حين يكون المرء خارج السلطة، وكان ذلك، مضافاً إلى واقع اصطحابنا لاثنين من الأحفاد، يعني أن أحداً لم يسارع إلى الالتحاق بركب مجموعتنا الصغيرة - باستثناء بوب وودوورد. بادر مراسل "الواشنطن بوست" الشهير إلى نقل صحنه، وجلس بجانبي، وشرع بعد حديث تمهيدي بسيط في استدراج المعلومات مني عن عملية البحث عن نائب رئيس وعن الخيار المحتمل. معلوماته الفطرية كانت صحيحة - تنم عن حدس كبير - غير أن أياً من تخميناته لم يكن متركزاً عليّ، ولم أر أي داع إلى توسيع آفاقه.

بعد عودتنا إلى دالاس، اتصلت مع ديف لازار، المسؤول التنفيذي الأول في هاليبورتون، وطلبت منه أن يأتي إلى البيت مبكراً في الصباح. أطلعته على ما كان يجري - وهو احتمال قيام جورج بوش باختياري قريناً له في السباق. قلت لديف إن من شأن حصول ذلك أن يدفعني إلى توصية مجلس إدارة هاليبورتون بتوليته هو منصب رئيس الشركة ومديرها التنفيذي. منذ يومي الأول مديراً تنفيذياً، ظللت باستمرار مؤمناً بضرورة وجود شخص في الكواليس جاهز لاستلام المهمة. ثمة مدراء تنفيذيون لا يفعلون ذلك لأنهم يظنون أن من شأن شخص كهذا أن يبرز منافساً. هم لا يريدون وجود أي شخص حولهم مؤهل لأن يكون خلفاً واضحاً. أما أنا فقد كنت دائباً، باستمرار، على العمل من منطلق أن شخصاً ما كان لا بد من أن يكون مؤهلاً لخلافتي إذا ما تعرضت لحادث - وقد كان ديف الخيار الصائب. كنت على يقين أن الشركة ستكون بيد أمينة مع ديف إذا ما تركت هاليبورتون، وأنني لم أترك الجماعة في حالة ارتباك.

كذلك دعوت إلى اجتماع لمجلس المدراء. ومع أنني كنت لا أزال أرى الأمر بعيداً عن أن يكون مؤكداً، فقد فكرت بحاجة هؤلاء إلى معرفة احتمال اختياري مرشحاً جمهورياً لمنصب نائب رئيس الجمهورية. وعلى الرغم من أنني كنت قد استمتعت بعلاقات ممتازة مع المجلس، فإنني لم أكن متأكداً من الانطباع الذي كان سيتركه النبأ. أحد الأسئلة التي كانت قد طفت على السطح لدى توظيفي تمثل بما إذا كنت نافضاً يدي من السياسة، وكنت قد أكدت أنني فعلت، لأن ذلك ما كنت مؤمناً به. لحسن الحظ كان المجلس مؤيداً. كنت قد أمضيت في الشركة خمس سنوات، وكانت تلك فترة جيدة بالنسبة إلى هاليبورتون. وكنت أيضاً قد

اخترت خلفاً قوياً واصطحبته إلى الاجتماع. يضاف إلى ذلك أن جل أعضاء المجلس أدركوا أن ذلك هو التصرف الصحيح، إذا ما بادر مرشح حزب المرء الرئاسي إلى دعوته إلى خوض السباق معه.

قدم المجلس لي يد المساعدة لدى انشغالي بفصل نفسي عن الشركة مالياً. بل حتى اقترحوا التعجيل بمواعيد الممارسة بالنسبة إلى الخيارات المتعلقة بأسهم هاليبورتون التي كانت قد مُنحت لي، بحيث تمكنت من اتخاذها قبل انتخابي، مبعداً بذلك أي اتهامات بشأن نزاع المصالح. اعتذرت عن قبول هذا العرض لأنني لم أرغب في أن أبدو، ولو ظاهرياً، متمتعاً بمعاملة خاصة. بعد تركي لهاليبورتون بعت الأسهم التي كانت بحوزتي واتخذت خيارات كانت مخوّلة لي، ولكن مع إبقاء عدد ملحوظ من الخيارات التي لم تكن مخوّلة بعد. بمعنى أن هذه كانت ممنوحة لي، ولكن التواريخ التي يمكنني فيها أن أختار بيعها كانت في المستقبل.

لم يكن ثمة أي شرط قانوني يلزمنا بالأمر، غير أننا لين وأنا، صممنا، لبتر جميع علاقاتنا المالية مع هاليبورتون، على إبرام اتفاق هبة غير قابل للفسخ يقضي بتحويل جميع الأرباح الباقية بعد الضرائب المتحققة لهذه الخيارات غير المخوّلة إلى ثلاث جهات خيرية من اختيارنا: جامعة وايومنغ، ومستشفى جامعة جورج واشنطن، وهيئة الشركاء الرئيسيين للتعليم التي تقدم منحاً دراسية لأبناء المدينة الداخلية في واشنطن العاصمة. وقد تمخض الاتفاق عن منح مؤسسات خيرية أكثر من ثمانية ملايين دولار.

كذلك كنت قد أجلّت دخلاً من الشركة من السنة التي حصلت فيها على جزء من مرتّبي وطلبت تسديد الباقي خلال خمس سنوات. كنت قد كسبت هذا المرتب وبات حقا من حقوقي سواء أكانت الشركة مزدهرة أم لا. غير أني، قبل أن أصبح نائباً للرئيس، ومنعاً لاحتمال حصول أي ارتباك أو شكّ مهما كان صغيراً حول تمتعي بأي ارتباط مستمر مع هاليبورتون أو أي مصلحة أو حصة في أملاك الشركة، أقدمت مع لين على اتخاذ الخطوة الإضافية المتمثلة بالحصول على بوليصة تأمين دفعنا ثمناً لها خمسة عشر ألف دولار لضمان تسديد هذه الدفعات بصرف النظر عما تتعرض له الشركة.

أظن أن ليس من حقي أن أفاجأ، ولكنني وجدتني، بعد كل الخطوات التي كنت قد أقدمت عليها منعاً لأي تأكيد محتمل لامتلاكي لأي أسهم في ممتلكات الشركة، غاضباً من استمرار المنتقدين لي في إطلاق المزاعم الكاذبة عن ارتباطاتي مع هاليبورتون. فخلال حملة الـ 2004، كانت الاتهامات مثيرة للغضب بشكل استثنائي. في وقت مبكر من صيف تلك الحملة، أجرى السناتور بات ليهي اجتماعاً هاتفياً مشتركاً، بوصفه أحد وكلاء الحملة، أوحى فيه بعدم نزاهتي وفسادي واستغلالي لأعمال هاليبورتون، حين كنت نائباً للرئيس. وبعد وقت غير طويل، وأنا على منصة مجلس الشيوخ لأخذ "الصورة التنكارية" تقدم ليهي ولفني بذارعه، متصرفاً كما لو كنا رفيقي سلاح عتيقين. استخدمت نعتاً ممّوهاً للإيحاء بما يستطيع أن يفعله بنفسه وابتعدت. ربما لم تكن تلك هي اللغة الواجب استخدامها على منصة مجلس الشيوخ، إلا أنها كانت مستحَقة مئة بالمئة.

وعمدت حملة كيري - إدواردز إلى صوغ إعلان تلفزيوني باستخدام الأكاذيب نفسها، وقد كوفئت حين قام مركز التخطيط العام في جامعة بنسلفانيا بتحليل الإعلان، بالحصول على الوثائق ذات العلاقة، بما فيها اتفاق الهبة، وباستنتاج بيان منشور على موقع فاكت تشك. أورغ (FactCheck.org) يقول إن الإعلان كان "افتراء مكشوفاً".

فيما كنت عاكفاً على إخطار مجلسي باحتمال اختياري مرشحاً لنيابة الرئاسة، قمت أيضاً بترتيب مواعيد كشوف طبية كاملة مع أطبائي في واشنطن. وبعد إجراء اختبار جهد وتخطيط للقلب إضافة إلى حشد من الفحوص والمعاينات الأخرى، تحدث أطبائي مع جراح القلب التكساسي العالمي الشهير الذي نفذ أولى عمليات زرع القلب في أمريكا، الدكتور دنتون كولي، لتقويم ما إذا كان وضعي القلبي مانعاً.

كانت لين في مجلس إدارة أمريكان إكسبرس للصناديق المشتركة، وكانت الشركة تعقد اجتماعاً للمجلس مرة في السنة بمينيابوليس، يدعى إليه الأزواج. ذلك هو المكان الذي كنت فيه ليلة 12 تموز/يوليو، حين طلبتُ من مائدة العشاء لتلقي مكالمة هاتفية من الحاكم بوش. بشرني بأن الدكتور كولي كان قد أشعل

لي الضوء الأخضر على الجبهة الصحية، مستنتجاً عدم بقاء ما يمنع من الانخراط في السباق لتولي منصب نائب رئيس الجمهورية. كان ذلك نبأ ساراً بالطبع، إلا أنني بقيت متطلعاً إلى الاجتماع المبرمج يوم السبت الواقع في 15 تموز/يوليو بمزرعة الحاكم في أوستن حيث كنت عازماً على إماطة اللثام عن سلبياتي. ولم أكن لأمرّ بالقضايا مرور الكرام. كانت ثمة أسباب وجيهة كامنة وراء اعتقادي بعدم كوني الشخص الملائم ليكون قرين جورج بوش الانتخابي، وقد نويت أن أضعها على الطاولة. كنت بالغ الجدية في إقناعه بعدم اختياري حتى إن عائلتي كانت واثقة من عودتي وقد شطبت اسمي من القائمة.

عقدنا، الحاكم، وخبير الاستراتيجية الأول عنده كارل روف، وأنا، اجتماعاً في القاعة الصفراء بدارة الحاكم، وهي غرفة عالية السقف مزينة الجدران بصور تكساسيين من ذوي الشهرة. بدأت باستعراض قائمة أشياء عني يتعين على الحاكم، باعتقادي، أن يحذر منها. قلت لهما إنني كنت قد سُجنت مرتين وأنا في العشرينيات بتهمة القيادة تحت تأثير الكحول، وكنت قد طُردت من جامعة ييل مرتين، أولاً.

كنت أيضاً أعاني من مشكلات صحية. فرغم تأكيدات الدكتور كولي وتطميناته كنت راغباً في إفهام الحاكم بوش مدى خطورة تلك المشكلات. على هذا الصعيد كنت قد تعرضت لثلاث أزمات قلبية ولعملية إبدال أربعة شرايين. تطرقت إلى ما يمكن أن يحصل إذا شعرت بآلام في الصدر أو أعراض أخرى في زحمة الحملة. على مرضى القلب أن يبقوا متيقظين، وقلت لهما إنني، إذا ما شعرت بأي وخزة مهما كانت صغيرة في الصدر خلال الحملة، سأذهب مباشرة إلى المستشفى. لن يختلف الأمر سواء أكنت في منتصف خطاب أو في أثناء حوار؛ فدقائق قليلة كان من شأنها أن تشكل برزخاً بين الحياة والموت. ببساطة لم يكن ثمة أي أسلوب للحكم على تأثير مثل هذا الحدث في محصلة السباق الرئاسي، غير أن احتمال كونه إيجابياً لم يكن وارداً.

كذلك أبرزت حقيقة امتلاكنا، الحاكم وأنا، كلينا، تاريخاً في أعمال النفط. فالحاكم بوش كان منخرطاً في تجارة النفط منذ سنوات في ميدلاند، وأنا كنت متولياً إدارة هاليبورتون على امتداد خمسة أعوام. لم يكن صعباً تصور جملة

الاتهامات السلبية التي كان خصومنا سيصوبون سهامها إلينا بالاستناد إلى ذلك القاسم المشترك. كنا أيضاً في مواجهة مشكلة دستورية لأننا، كلينا، كنا مقيمين في تكساس. فالتعديل الدستوري الثاني عشر يمنع كليّة أي ولاية انتخابية من الاقتراع لرئيس جمهورية ونائب رئيس جمهورية من ولايتها. بعبارة أخرى، لم يكن الناخبون الآتون من تكساس قادرين على التصويت لنا نحن الاثنين: جورج بوش وأنا. قبل الانتقال إلى تكساس في 1995، كنت من المقيمين شبه الدائمين في وايومنغ وكنت لا أزال أملك بيتاً هناك. غير أنه كان علينا أن نطلب من محامي الانتخاب أن يتأكدوا من أن الحاكم بوش لم يكن يخاطر بأصوات تكساس الانتخابية عبر وضع اسمي على بطاقته.

وأخيراً طلبت من الحاكم أن يدرك مدى عمق اتجاهي المحافظ. قال: "نحن نعرف ذلك، يا ديك". وعلقت "لا، أعني محافظ حتى العظم بالفعل". كنت معروفاً بشيء من الاعتدال لأنني لم أكن، باعتقادي، "رامي قنابل" مثل بعض زملائي المحافظين من جهة، ولأنني، من جهة ثانية، كنت أتعايش مع أناس منتمين إلى كل الطيف السياسي من أوله إلى آخره. وأظن كذلك أن الأمر يعود إلى أنني انطلقت على المسرح الوطني بداية وأنا أعمل مع جيري فورد الذي كان معتدلاً. أردت أن يكون الحاكم مدركاً لحقيقة أن سجلي الانتخابي لم يكن معتدلاً بالتأكيد.

ساندني كارل بحيوية في دحض الأسباب المسوغة لترشيحي لمنصب نائب الرئيس، وظل الحاكم يصغي باهتمام إلى كلينا. حين انتهى الاجتماع لم أكن قد تلقيت أي رسالة تبين ما إذا كنت قد غيرت رأي الرئيس، إلا أنني كنت واثقاً من أن نقاشات أخرى ستتم بين كبار مستشاريه. واصلنا النظر في احتمال آخر - عضو مجلس الشيوخ الميسوري السابق جاك دانفورث. يوم الثلاثاء الواقع في 18 تموز/يوليو اصطحبت جاك وزوجته سالي من سان لويس وطرت بهما إلى شيكاغو، حيث كان الحاكم يتابع حملته. جميعاً عقدنا لقاء في فندقه بمركز المدينة لمناقشة موضوع نيابة الرئاسة. بقيت خلال الجزء الأول من الاجتماع ثم اعتذرت لتمكينهم من الكلام في غيابي.

خلال الاجتماع، دخل لوغان والترز، مساعد الحاكم الشخصي، إلى الغرفة

وقال لي إن ليز على الخط وترغب في الكلام معي. أبلغتني أن بيت وليامز كان قد اتصل بها ليقول إن الإن بي سي كانت تتهيأ لتذيع خبر اختيار الحاكم لي كنائب للرئيس. طلبت منها أن تبلغ بيت أن أي قرار لم يكن قد اتُّخذ بعد، وتلك كانت هي الحقيقة، لأن جورج بوش كان في تلك الدقيقة بالذات يجري مقابلة مع مرشح محتمل آخر.

في وقت لاحق من الأسبوع حصلت على نصيحة جاءت في وقتها تماماً من محامي الانتخابات جان باران، الذي كان أحد مستشارينا في عملية البحث عن نائب رئيس. كنت قد طلبت من جان أن يعاين الشروط المطلوبة لإعادة ترسيخ إقامتي الوايومنغية. شرح جان أن هناك، عموماً، عدداً من الأمور التي من شأن محكمة ما أن تنظر فيها لتحديد مكان إقامة هذا الشخص أو ذاك، بما فيها قيده للاقتراع وما إذا سبق له أن اقترع في انتخابات حديثة في ولايته الأصلية، مسقط رأسه. كذلك قام جان بإلقاء الضوء على أن موعداً نهائياً كان وشيكاً. إذا كنت راغباً في التسجيل قبل انتخابات وايومنغ الأولية في آب/أغسطس، فكان لا بد لي من أن أفعل ذلك شخصياً في مكتب كاتب ناحية تيتون قبل يوم الجمعة الواقع في 21 تموز/يوليو. رتبت لرحلة الذهاب إلى جاكسون وتسجلت شخصياً في ذلك اليوم.

على الدوام ظل الشك يراودني حول امتلاك بيت وليامز مصدراً في مكتب كاتب ناحية تيتون الذي كان يتقاسمه مع زميلته ليز ميرز، لأن الأخيرة سارعت، بعد تسجيلي للاقتراع، إلى إيصال النبأ كسبق صحفي إلى الإن بي سي. فجأة صارت القصة خبراً وطنياً ومضاربة بلغا مستوى الحمى.

أدت رحلتي للتسجيل الاقتراعي أيضاً إلى مباغتة حتى كثيرين من ذوي المستويات الرفيعة في الحملة. عملية اختيار نائب للرئيس كانت متمتعة بقدر كبير من الكتمان، وقلة فقط كانت على علم بأن الحاكم كان قريباً، كما كان بالفعل، من اختياري. جو آلبو ومديرة اتصالات بوش، كارين هيوز، اللذان كانا يعرفان أن ليز كانت تساعدني في عملية البحث، نجحا في الإمساك بها عبر الهاتف الخلوي وسألاها: "هل تستطيعين أن تفسري لنا ما يقوم به أبوك في وايومنغ؟" ليز التي كانت عند الحلاق في ذلك الوقت على الكرسي، اعتذرت، ثم

دخلت إحدى دورات المياه في الصالون، وهمست في هاتفها النقال ما استطاعت بثه عن التعديل الثاني عشر، موعد التسجيل النهائي في وايومنغ، والسبب الكامن وراء بروزي في جميع الأخبار على نحو مفاجئ.

صباح يوم الثلاثاء باكراً كنت على مكنة رياضة المشي في بيتنا بدالاس حين رن جرس الهاتف. كان المتصل هو جورج بوش ليطلب مني رسمياً أن أكون قرينه في السباق. أجبته: يشرِّفني ذلك.

منذ يوم الجمعة السابق حين كنت قد تسجلت للاقتراع في وايومنغ، كان الإعلام قد عسكر أمام بيتنا في دالاس. كان ثمة باب أمامي مزدوج مع نافذة كبيرة في الأعلى، وفي يوم الاثنين صباحاً حين خرجت من غرفة نومنا في بيجامتي، نظرت إلى الأعلى فرأيت آلة تصوير مثبتة بما يمكنها من الرصد عبر النافذة مباشرة. صحافية عبقرية أخرى تركت آلة تصوير جاهزة للاستعمال على عتبة الباب، وإلى جانبها رسالة تجيز لنا أخذ بعض اللقطات الشخصية عن هذا اليوم التاريخي ثم نقوم بإعادة آلة التصوير إليها لتحميض الصور.

أوصلت لين وليز إلى لوف فيلد، ثم ركنت السيارة، وطرنا إلى أوستن لحضور الإعلان الرسمي لنبأ كوني قرين جورج بوش في السباق الانتخابي. كانت تلك المرة الأخيرة التي كنت سأتولى بنفسي، قيادة السيارة، خلال الأعوام الثمانية والنصف التالية. وعلى الرغم من أنني كنت قد شغلت عدداً من المواقع العامة المرموقة- رئيساً لجهاز العاملين في البيت الأبيض، وعضواً في الكونغرس، ووزيراً للدفاع- فإنني لا أظن أن شيئاً كان بوسعه أن يعدني لما كان وشيك الحصول. فما إن يصبح المرء مرشح حزبه لنيابة رئاسة الجمهورية حتى يتم سحبه وإقحامه في فقاعة هيمنة كلية من المواكب، وأركان الحملة، وعملاء الأجهزة السرية، مع جحافل من المراسلين وآلات التصوير المتعقبة عن قرب.

بعد الإعلان الرسمي في الثانية بعد الظهر، عدنا إلى دارة الحاكم حيث كان مصورو "التايم" و"النيوزويك" ينتظرون لالتقاط الصور الرسمية الأولى للبطاقة الجمهورية المسكوكة حديثاً. نشرت "النيوزويك" الصورة على الغلاف تحت عنوان: "المنتقمون: التسديد على عهد كلنتون". عنوان "الواشنطن بوست"

في اليوم التالي أصاب إلى حد بعيد في التقاط جوهر تغطية اختيار بوش لنائب الرئيس: "الحزب الجمهوري يرحب بتشيني على البطاقة؛ الديمقراطيون يستعدون لمحاربة حيتان النفط". جزء كبير من ردود الأفعال تركز على تجربتي، ولا سيما على صعيد الأمن القومي، كما على سنواتي الخمس والعشرين في الخدمة الحكومية، إلا أن الديمقراطيين كانوا ينتظرون في الكواليس، متأهبين للهجوم.

بطبيعة الحال شكل واقع تحول رئيس لجنة اختيار مرشح نيابة الرئاسة، في آخر المطاف، إلى مرشح لمنصب نائب الرئيس مادة عظيمة لمهرجي ساعات الليل المتأخرة. حتى عائلتي شاركت في اللعبة متلهين بالتخمينات حول ما كنت قد قلته بالتحديد لمجلس إدارة هاليبورتون، طارحين عبارات من قبل: "حضرات السادة تعرفون أنني كنت متولياً إدارة عملية البحث عن نائب رئيس ويسرني أن أبلغكم اليوم أنني قمت باختيار .. نفسي".

كانت ثمة بعض المحاولات الرامية إلى توجيه تهمة جدية قائمة على إدارتي لعملية البحث بهدف الوصول إلى الترشيح، غير أن أصحاب تلك المحاولات بقوا غافلين عن حقيقة بالغة الأهمية. فلو كنت راغباً في المنصب لاستطعت أن أقول "نعم" في آذار/مارس 2000 حين سألني آلبو عما إذا كنت مستعداً للموافقة على النظر في أمر ترشيحي. كان من شأن ذلك أن يكون أسلوباً أيسر بما لا يقاس وصولاً إلى ما وصلت إليه.

مع بقاء أقل من أسبوع للمؤتمر، كان علي أن أقوم بالكثير من العمل لأكون مستعداً لإلقاء ما يمكن أن يشكل الخطاب الأكبر في حياتي السياسية. لحسن الحظ قامت الحملة بإحالة المهمة على اثنين من أفضل مدبجي الخطابات الذين سبق لي أن عملت معهم، جون ماكونيل وماتيو سْكَلّي. لين وأنا جلسنا معهما في غرفة الطعام بدارة الحاكم بعد ظهر ذلك اليوم وبدأنا نضع الخطوط العريضة لما كنت سأقوله. كانت لين هي التي طرحت أحد الأجزاء الأكثر جدارة بالتذكر من خطابي. تذكرت كيف أن آل غور كان في 1992 قد كرر استخدام عبارة: "آن لهما أن يذهبا"، مشيراً، بالطبع، إلى الرئيس جورج أتش دبليو بوش ونائب الرئيس دان كويل. واقترحت: "فلنُعِدْ لهم بضاعتَهم!" وقد فعلنا.

في آخر اليوم الذي جرى فيه إعلاني، انضممنا، لين وليز وأنا إلى جورج ولورا وابنتهما جينا ذات الثمانية عشر ربيعاً حول مائدة عشاء عائلية صغيرة في العزبة. كان ذلك يوماً تاريخياً بتغطية إعلامية مفرطة الكثافة حتى كان سهلاً أن يشعر المرء أن سكان البلاد جميعاً كانوا مشدودين إلى حقيقة انتخابي للتو كي أكون قرين جورج بوش في السباق الانتخابي. لحسن الحظ، ليس ثمة من هو مثل المراهق على صعيد إعادة الإنسان إلى الأرض، إلى الواقع. نحو منتصف الوجبة التفتت جينا إلي وقالت: "أين أنت؟ ما الذي جرى؟ ألست ذاهباً إلى المؤتمر؟"

بالفعل كنت ذاهباً إلى هناك، غير أنه تعين علينا أن نتوقف في محطة خاصة جداً قبل ذلك. صباح اليوم التالي طرنا إلى كاسبر مع الزوجين بوش لحضور أول اجتماعات حملة بوش - تشيني، في قاعة رياضية بثانوية مقاطعة ناترونا، حيث كنا، لين وأنا قد بدأنا نتواعد قبل ما يزيد على أربعين سنة. طارت ماري من موطنها في دنفر لتلتحق بنا، وفريق الدعاية استخدم اللوح الأخضر في غرفة الفرقة الموسيقية لرسم مخطط الحدث وإطلاعنا بإيجاز على المخطط قبل المتابعة. كانت لحظة خاصة، أن يعود المرء إلى مكان كان قد عنى أشياء كثيرة بالنسبة إلينا نحن الاثنين، لين وأنا، ويصل إلى هناك بوصفه المرشح الوشيك لمنصب نائب رئيس الجمهورية.

تولت لين مهمة تقديمي في ذلك اليوم. تحدثت عن ابنتينا وعن اعتزازنا الكبير بهما. تحدثت عن الشرف الكبير الذي ينطوي عليه الانضمام إلى الزوجين بوش في هذه المهمة التاريخية، وتحدثت عن حياتنا معاً.

> *حين أنظر يا ديك إلى حياتنا معاً لأكثر من أربعين سنة، إلى ما يتعذر تصوره من تغيرات ومغامرات حين تخرجنا في ثانوية مقاطعة ناترونا، [NCHS] قبل تلك الأعوام، أدرك أن ما دعمني وأبقاني صامدة هو ذلك القدر العميق والمستمر الذي وَفّرْتَه من الحنان والحشمة والحب.... وها نحن ذا نشرع في مغامرة أخرى! ...*

ويا لها من مغامرة، كما سيتضح!

الفصل التاسع

ذروة التفوق

كان مؤتمر العام 2000 للحزب الجمهوري في فيلادلفيا مسألة حسم بالنسبة إلى نزعة جورج دبليو بوش القائمة على "المحافظة غير المتطرفة"، وبمقدار ما يمكن لاتجاه الإعلام السائد أن يتعاطف مع أي مؤتمر جمهوري فإنه كان مهووساً بهذا. كان مرحباً بأطروحة الليلة الأولى للمؤتمر - "فرصة مع هدف: لا تتركوا طفلاً يتخلف عن الركب!" - بوصفها شيئاً جديداً ومرحباً به من الحزب الجمهوري [GOP]. عندما تحدثت لورا بوش عن التعليم وتكلم كولن باول عن الخدمة الاجتماعية والنزعة التطوعية، سارعت التغطية الإعلامية إلى امتداح أطروحة الاستيعاب وأسهل طرق الترويج[11] للمؤتمر.

كانت مجموعة الاتصال في حملة بوش قد بذلت جهوداً كبيرة لعقد مؤتمر مؤهل لتقديم وجه معتدل لناخبين مترددين، وقد نجحت على ما بدا. غير أن هؤلاء ما لبثوا، حين اطلعوا على مسودة خطابي، أن تخوفوا من أن أُبطل أشهراً من عملهم الشاق. سَطْرٌ واحد أزعجهم على نحو استثنائي، لازمة: "آن لهما أن يرحلا!" التي تعمدتُ أن تكون صدى للازمة وردت في خطاب آل غور عام 1992. كنت واثقاً تماماً من أن اللازمة كانت، في سياق عام 2000، ستدفع الديمقراطيين إلى الجنون وستلهب حماسة الجمهوريين، إلا أن بعض أركان بوش رأوا أنها كانت أقسى مما ينبغي. لم يريدوا أن أهاجم كلنتون وغور؛ كانوا

يؤمنون بأن من شأن "اللحم الأحمر" أن يكون مناسباً في القاعة، ولكن ليس في غرف جلوس الناس.

أظن أنهم كانوا يحلمون بديك تشيني أرحم، وألطف، وأنا استمعت إلى ما كان في جعبهم، ثم تجاهلت نصائحهم. إلى اليوم أنا سعيد بأنني فعلت. كان مهماً بالنسبة إلى بطاقة بوش - تشيني أن تناشد معتدلين، غير أننا كنا ملزمين أيضاً بأن نوضح أن هناك فروقاً كبيرة بيننا وبين خصومنا وأن ساعة التغيير قد أزفت. وحين أنظر إلى شريط تسجيل الخطاب الآن، بعد عقد من الزمن، أجدني مندهشاً بمدى نجاحه في خدمة الغرض - كما بحجم الإثارة التي أحدثتُها بإلقائه.

بوصفه مرشحاً للرئاسة، كان آل غور يبذل أقصى ما يستطيعه من جهد لينأى بنفسه عن بيل كلنتون وعن الفضائح المحيطة به. أما أنا فكنت أحاول منعه. ومتحدثاً عن الاثنين تلك الليلة قلت:

بطريقة أو أخرى، لن نرى أحدهما دون تذكر الآخر.. جاءا معاً: ولنرهم الآن منقلعين معاً. أيها السيدات والسادة، لقد دار الدولاب، آن الأوان، آن أوان رحيلهما.

كان بيل كلنتون قد قال إنه عازم على التمسك بالسلطة "حتى الساعة الأخيرة من اليوم الأخير"، ونكّرت الجمهور بأن من حقه أن يفعل:

ولكن تلك الساعة الأخيرة آتية أيها الأصدقاء. ذلك اليوم الأخير بات قريباً. لقد دار الدولاب، وحان الوقت، وقت رحيلهما.

بعد سهرتين من المحافظة غير المتطرفة، صار الجمهور في مركز الاتحاد الأول مستعداً لرفع السقف، وقد فعل. راح يطلق هتاف: "حان وقت رحيلهما! حان وقت رحيلهما!" قبل القفز إلى لازمة مقتبسة من إحدى أغنيات الستينيات: "نا نا نا نا، نانانانا، هي هي هي، إلى اللقاء!" حتى أنا وجدتني منخرطاً إلى حد معين ملوحاً مثل حَكَم البيسبول "انقلعا من هنا!" لن أنسى أبداً أنني حين نظرت عبر الحشد الهائل رأيت جورج شولتز، وزير الخارجية السابق وأحد كبار رجالات

الدولة المبجلين في أمريكا، وهو ينحني إلى الأمام وإلى الخلف ويغني: "هي هي هي إلى اللقاء!"

أنهيت تعليقاتي مذكراً الجمهور بمدى كوننا محظوظين لأننا نعيش في الولايات المتحدة الأمريكية وبمدى ضخامة الدَّيْن الذي ندين به لأولئك الذين حفظوا دولتنا العظيمة وحموها. قمت بوصف رحلة قمت بها مرات كثيرة بوصفي وزيراً للدفاع من قاعدة أندروز الجوية إلى البنتاغون بالحوامة. تحدثت عن النظر إلى الكابيتول حيث جرت سائر الحوارات والنقاشات العظيمة التي تمخضت عن صوغ قرنين من تاريخ أمريكا، ثم عن الطيران بمحاذاة المول، حيث يقف النصب التذكاري لجورج واشنطن، أول رؤساء جمهوريتنا، حارساً. وإلى الشمال كان البيت الأبيض، حيث دعا جون آدمز "ألا يحكم تحت هذا السقف إلا الشرفاء المتحلين بالحكمة". ثم جاء نصب توماس جفرسون التذكاري، الرئيس الثالث ومؤلف إعلان استقلالنا، بعده نصب أبراهام لينكولن التذكاري، أعظم رؤساء الجمهورية، منقذ الاتحاد. أخيراً، بعد عبور البوتوماك، قبيل الهبوط في البنتاغون نظرت إلى مقبرة آرلنغتون. قلت "لم يسبق لي قط أن قمت بتلك الرحلة".

> *دون أن أذكر مدى كوننا غارقين في بحر من الحظ لكوننا أمريكيين، والأثمان الباهظة جداً التي سددها الآلاف كي نعيش جميعاً ومعنا الملايين الإضافية في طول العالم وعرضه في ظل الحرية. هذا بلد عظيم، أيها السيدات والسادة، ويستحق قيادة عظيمة. لنخرج من هذه القاعة مفعمين ثقة وشجاعة، ملتزمين باستعادة الحشمة والشرف لجمهوريتنا.*

مع انتهاء خطابي انتشرت أعلام بيضاء مطرزة باسمي "بوش - تشيني" بأحرف حمراء كبيرة من العوارض الخشبية، وانهمر وابل من قصاصات الورق الملون وكرات الشاطئ على الحشد. ولدى تلاشي جَلَبة الاحتفالات خطونا، لين وأنا، إلى جانب خشبة المسرح لنستمع إلى أحد مطربينا المفضلين، لي غرينوود وهو ينهي السهرة بأغنيته العظيمة "بارك الرب الولايات المتحدة الأمريكية".

كانت ثمة جملة من اللحظات المدهشة خلال مؤتمر فيلادلفيا. تمثلت إحداها بذهابي مصطحباً ابنتي ماري، التي كانت قد وافقت على أن تكون مساعدتي

الشخصية خلال الحملة، لزيارة معلمي القديم الرئيس جيرالد فورد. ما إن وصلنا إلى جناحه، حتى مشى رئيس الجمهورية السابق البالغ أربعة وثمانين عاماً من العمر إلى ماري، لفها بذراعه، وقال: "أراهن أنك فخورة بأبيك، أليس كذلك؟" ردت ماري: "نعم سيدي، نعم سيادة الرئيس. مؤكد أنني فخورة". علق فورد: "جيد، وأنا كذلك". لولا الرئيس فورد والثقة التي أولانيها قبل ربع قرن، لما كنت المرشح الجمهوري لنيابة رئاسة الجمهورية، وقد توفرت لي فرصة التعبير شخصياً عن شكري له.

في اليوم التالي لزيارتنا، ماري وأنا، له نُقل إلى المستشفى، بعد إصابته بسكتة. وقد عاش ست سنوات أخرى، مدة بالغة القيمة بالنسبة إلينا نحن الذين أحببناه، وحين فارق الحياة، كان شرفاً عظيماً، ولو حزيناً، لي بوصفي نائباً للرئيس أن أؤبنه في الكابيتول روتوندا. ذكرت رئاسته الوجيزة 895 يوماً فقط، بوصفها فترة "ملأى بمحن واختبارات كافية لتعبئة إقامة أطول بكثير".

> *حتى آنذاك، في زحمة مشكلات لم تكن من صنعه، أثبت الرئيس فورد جدارة تضاهي جدارة أي ممن سبق لهم أن شغلوا المنصب من قبل. كان متواضعاً ورابط الجاش؛ كانت هيئته توحي بالثقة والشجاعة. في إبداء الرأي كان متوازناً وجدياً، غير هياب من اتخاذ القرارات، هادئاً وثابتاً بالطبع، النقطة الثابتة على الدوام في الدولاب الدائر.*

تولى جيرالد فورد، وهو رجل لم يأبه قط بالمظاهر واشتُهر بالدماثة، قيادة أمتنا عبر أكبر الأزمات الدستورية في تاريخنا.

في اليوم التالي للمؤتمر غادرنا، الحاكم بوش ولورا ولين وأنا، فيلادلفيا في قطار حملة خاص، متوقفين على طريقة صفارة القطار القديمة في محطات الولايات التي تمثل ساحة المعركة وهي أوهايو، وميشيغان، وإيلينوي. بعد ذلك أمضينا الجزء الأكبر من الأسابيع التسعة التالية مسافرين منفصلين. بتلك الطريقة كنا نستطيع مضاعفة المساحة المغطاة، وعقد ضعف عدد المسيرات ولقاءات صالات البلديات، وإنتاج ضعف التغطية الإعلامية المحلية.

خلافاً لعدد كبير من مرشحي نيابة الرئاسة الذين يأتون إلى حملاتهم

الانتخابية مع جهاز سياسي شبه كامل، كنت بعيداً عن السياسة منذ سبع سنوات، فاضطررت لتكريس أسابيع بعد المؤتمر مباشرة لتجنيد عدد من العاملين. مساعدتي التنفيذية العريقة، دبي هايدن المثابرة والجيدة التنظيم التحقت بالمجلس وبقيت معي كل سنوات نيابة الرئاسة الثماني. قمت بتعيين ديرك فانديبيك، الذي كان يتولى معالجة العلاقات العامة في هاليبورتون، للاضطلاع بمهام سكرتيري الصحفي لشؤون الحملة. لم أقابل سوى مرشحة لتكون رئيسة جهاز العاملين، كاثلين شاناهان، التي كانت قد عملت عند كل من الرئيس ريغان وجورج أتش دبليو بوش حين كان نائباً للرئيس، وحاكم كاليفورنيا، بيت ولسون. كانت استثنائية الكفاءة، والصلابة، والذكاء، والطرافة، وقد تناغمت مباشرة واندمجت في بوتقة عائلة تشيني كلها.

كذلك عينت الحملة فريقاً من ثلاثة مختصين بشؤون التخطيط العام للتناوب على السفر معي. لم يكن عندي الوقت اللازم لمتابعة الجميع واستعجالهم حول القضايا التي يمكن أن أُسأل عنها، ما جعلني عاكفاً على التعلم وأنا في الطريق. وكان مستشارو التخطيط مطلعين على موقف الحاكم من جميع الأمور بدءاً بالنفايات النووية وإصلاح التعليم، وانتهاء بالأمن الاجتماعي والمبادرات القائمة على الإيمان، وكانوا يضمنون بقاء عمليتي وعمليته هو على الصفحة نفسها. كان تيم آدمز عنصراً حاداً جديراً بالتعويل عليه، ما لبث لاحقاً أن أصبح معاون وزير للشؤون الدولية بوزارة الخزانة. أما جول كابلان فكان بحاراً مع شهادة حقوق من هارفارد وروح مفعمة بالمرح والمزاح. تحدر من عائلة ديمقراطية، ولكنه ما لبث أن اهتدى بطريقة أو أخرى وهو على الطريق. فيما بعد صار نائب مدير مكتب الإدارة والموازنة ثم نائباً لرئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض. وكان ستيوارت هوليداي جامعاً بين كل ما له علاقة بكل قضية من قضايا السياسة الداخلية والخارجية التي يمكن أن تُطرح في الحملة بقدر كبير من القدرة على عدم المبالغة في أخذ نفسه مأخذ الجد. لاحقاً صار ستيورات سفيراً لدى الأمم المتحدة للشؤون السياسية الخاصة.

قررت هيئة الأركان في مقر قيادة الحملة بأوستن أن تكون محطتي الفردية الأولى في مسلسل الحملة بفلوريدا، حيث كنت سأشارك في ما كانوا قد

أعطوه عنوان "أسبوع التعليم". تمثلت مهمتي بإماطة اللثام عن برنامج سندات بوش - تشيني للمدرسة في إحدى مدارس فورت لودرديل الابتدائية، ما بدا لي رائعاً، ولكنني حين مشيت إلى داخل ابتدائية كرواسانت بارك صباح يوم 31 آب/أغسطس، أدركت أن جمهوري عبارة عن باقة من تلاميذ الصف الثالث. ولأنني لاعب فريق تابعت طريقي وألقيت خطابي، مغطياً جملة تعقيدات تمويل التعليم على مسامع أطفال في الثامنة من العمر متربعين على أرض المكتبة. لن أنسى، ما نسيت، تلك الملامح المضطربة على وجوههم وأنا مستغرق في الكلام عن اهمية مبادرات السندات المحلية. متأكد أنا من أنهم كانوا يقولون بينهم وبين انفسهم: "من يكون هذا الزبون؟ ما الذي يتحدث عنه؟ كم بقي للفرصة؟"

بعد فضيحة فورت لودرديل، قررت التعويل على تقديري الخاص. كنت أنفذ طلبات أركان الحملة بأوستن - ولكن شرط إحساسي بأنها مناسبة. حين وافوني بخطاب عن التدرّب على التقشف لإلقائه في مناسبة أخرى، أزحته جانباً. لم يكن هذا موضوعاً سبق لي أن طرقته، ولم أستطع أن أرى أي سبب يلزمني بالبدء الآن.

التقينا، الحاكم بوش وأنا، من جديد في نهاية أسبوع عيد العمال في إيلينوي، حيث تحدثنا أمام حشود. قدمته وأطلق عدداً من التعليقات على مسامع الحشد المفعم حماسة. بعد ذلك، فيما نحن واقفان على خشبة المسرح قريباً من المنصة ملوحين للجمهور، لم ننتبه إلى أن أحد الميكروفونات الموجهة كان يلتقط كلماتنا. حين تعرف الحاكم على مراسل كانت تغطيته استثنائية اللؤم دلني عليه قائلاً: "هو ذا آدم كلايمر، أحد الأغبياء الرئيسيين في النيويورك تايمز". وافقته مومئاً برأسي، وقلت "ذروة التفوق".

ما جرى بيننا كررته محطات التلفزيون والراديو مرات كثيرة، ما أدى إلى قطع الطريق كلياً على أي رسائل أخرى نحن حريصون على بثها - خصوصاً تلك المتعلقة باستعادة الشرف والكرامة للبيت الأبيض. إلا أن القصة ماتت أخيراً ولم يبق منها - إضافة إلى تلطيخ سمعة كلايمر بين زملائه في الإعلام - سوى أنني أصبحت أُعرف بلقب "ذروة التفوق" في دوائر مقر قيادة الحملة وبعدها.

لو سُئل جهاز الحملة المرافق لي في الأسفار، لأفاد ربما بأن محطتي

التالية في إيلينوي لم تكن أقل سوءاً. ذهبنا إلى مهرجان شارع تست أوف بولونيا في ساحة مؤسسة كوبرنيك بشيكاغو، حيث أطلقت عدداً من التعليقات الوجيزة على مسامع جمهور عريض احتشد للاحتفال بالتراث البولوني ثم أعدت المايكروفون إلى وزيرة مالية ولاية إيلينوي، جودي توبينكا. انقضت على المايكروفون وأعلنت بحماسة أن "الوزير تشيني سيرقص البولكا مع ملكة جمال بولونيا!" يا للمشكلة! غير أني لم أكن متوفراً على كثير من الوقت لأقلب خياراتي لأن ملكة جمال بولونيا كانت جاهزة للرقص مباشرة. انطلقنا مع رقصة البولكا ـ بقدر غير قليل من الحماسة على ما أذكر. وفيما كنا ندوّم رأيت ابنتي ماري في قسم الأركان القريب من خشبة المسرح تنظر بذعر. قالت لي لاحقاً إن عزاءها الوحيد كان يقينها أن الحاكم بوش ووصفي لمراسل النيويورك تايمز في المحطة السابقة كان سيلقي الظل كلياً على أي صور لباكورة رقصات البولكا عندي.

بدأ أيلول/سبتمبر منتقلاً من سيئ إلى أسوأ. عاشت حملة غور نشوة فورة كبرى بعد مؤتمرهم، وكنا لا نزال نكافح للحاق بالركب. لم تكسب جهودنا شيئاً حين تحدثت "الدالاس مورننغ نيوز" عن إخفاقي في المشاركة في أربعة عشر من أصل الانتخابات الستة عشر التي جرت وأنا مقيم في دالاس. لا أستطيع أن أتذكر قصصاً فاجأتني أكثر. وكما تبين، فإن هيئات قضائية منفردة في تكساس كثيراً ما تعقد انتخابات حول قضايا إفرادية؛ لا تكون واسعة الترويج ولا تجتذب إلا أعداداً قليلة جداً. لذا فإنني لم أعلم ما إذا كنت أقترع في أكثرية الانتخابات المعنية.

من المؤسف أن الحقائق والوقائع لا تكون دائماً ذات أهمية، في زحمة الأجواء المتوترة في أي حملة رئاسية. يمكنك أن تروي نصيبك من القصة، غير أن الإعلام سيبقى مواصلاً الطرق "النق"، مثله مثل خصومك، الذين لا يهمهم إلا طردك من الصورة. فأي لحظة بددتها شارحاً سبب عدم اقتراعي في أربعة عشر انتخاباً كانت لحظة تضيع من لحظات تبصير الناس بما يدعوهم إلى الاقتراع لنا في الانتخاب.

إلا أن الصحافة تتقن فن استيلاد قصة سلبية من أخرى مثلها، وكنا

قادرين على توفير مثل هذا الانحراف في أثناء محطة حملة في شلتون كونكتيكت، لاحقاً في اليوم نفسه الذي كان شاهداً على تفجر قصة الاقتراع. كنت مبرمجاً للتحدث في أحد مرافق الإيواء في منطقة الكونغرس الخامسة، حيث كان مارك نيلسن المرشح الجمهوري لعضوية الكونغرس. في وقت أبكر من ذلك اليوم، كان نيلسن قد بث إعلاناً جديداً على الهواء، بيّن فيه شخصيات سياسية هم، باعتقاده "قادة متحلون بالشرف والاستقامة". ضمت القائمة أسماء الرئيس جورج أتش دبليو بوش، والسيناتور جون ماكين، والسيناتور جو ليبرمان، خصمي في الترشح لمنصب نيابة الرئاسة. ومع عدم قدرتي على الاختلاف مع توصيف نيلسن لخصمي - إن السيناتور ليبرمان قائد يتحلى بالشرف والاستقامة - فقد كنا في قلب حملة بالغة الصعوبة والتعقيد ولم يكن سهلاً تفسير السبب الداعي لهذا المرشح الجمهوري للدعاية لخصمي الديمقراطي أمام الإعلام.

بانتظار وصولي إلى مركز الإيواء، قام فريق الاستطلاع بإطفاء نظام التكييف الصاخب، ولأنني تأخرت في الوصول، بقي النظام مطفأ مدة غير قصيرة من الوقت. كانت الغرفة شديدة الدفء إلى درجة أن عدداً كبيراً من جمهوري كانوا نائمين - وقد تفهمتُ وضعهم كلياً. حتى أنا تعين علي أن أبذل جهداً كبيراً لأبقى مستيقظاً وأنا أخوض في تلافيف محاضرة عن إصلاح الرعاية الطبية. ظهوري أمام جمهور مؤلف من مواطنين كبار في السن شكل ختاماً مناسباً لدوامة حملة بدأت بمحاضرة عن سندات التعليم أمام أطفال في الثامنة من العمر. لاحقاً ألّفت ابنتي ماري كتاباً أطلقت فيه على أيامي التسعة من الحملة الإفرادية عنوان "تسعة أيام جهنمية"[12].

مع شروعي في استعادة اندفاع حملتي، أدركت أن حملة العام 2000 كانت بالفعل شبيهة إلى حد كبير بحملة الرئيس فورد قبل أربعة وعشرين عاماً. الحشود، والخطابات، ورحلة القطار ذي الصفارة كانت من نوع الأحداث نفسها التي كنا نقيمها في 1976. من الواضح أن التكنولوجيا كانت قد تحسنت أسِّياً [هندسياً]، والدورة الإخبارية الآن صارت أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. غير أن الأمر لم يكن علم صواريخ، بل قدراً كبيراً من الطرافة والبهجة، مع انخراطي في دوامته. أقمنا مناسبات عظيمة، واستمتعت بجيش من الفرق، وأكوام من

القصاصات الملوّنة، وبحشود هاتفة بفرح وحماسة. وهل ثمة من لا يفعل؟ ومع ذلك، كانت هناك قصص معينة في الصحافة بقيت مصرة على زعم نفوري من الحملات. ربما كان رواة تلك القصص مستندين إلى واقع عدم كوني سياسياً تقليدياً، ومرتداً، ومتملقاً. غير أن أحداً لم يكلف نفسه عناء سؤالي - ولا حاولوا قط، كما لاحظت، أن يشيروا إلى نجاح مقاربتي. فعلياً كنت قد فزت بجميع السباقات الانتخابية التي خضتها واسمي على قائمة المرشحين - ستة سباقات على مستوى الولاية في وايومنغ على ذلك الصعيد.

لعل أفضل جوانب الحملة هو كونها حركة عائلية. لين وماري كانتا في قافلة الحملة معي في كل خطوة تقريباً على الطريق، وكانت ليز معنا أكثر الوقت جارة وراءها حفيداتي الثلاث. كنا نقدم الطفلات للحشود ثم ننزلهن عن خشبة المسرح قبل سرقة المشهد كله. فيما بعد، كنا نجتمع لتلخيص الإيجابيات: النقاط المضيئة - والسلبيات: النقاط المظلمة. بعد كل هذه الأعوام، أدرك أن الكوارث كثيراً ما شكلت أسساً لأفضل القصص - كما لأكثر حفلات الضحك.

بعد المؤتمر علمت أن أدائي في إحدى المناسبات، على نحو خاص، أعني مناظرة نيابة الرئاسة، كان من شأنها أن تفوق جميع فعاليات الحملة الأخرى التي قمت بها تأثيراً. تمت البرمجة للمناظرة في الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر، في دنفيل في كنتاكي. كنت قد أمضيت بعض الوقت في أثناء المؤتمر الديمقراطي ذلك الصيف متابعاً أشرطة سجالات ليبرمان في مواجهة لويل وايكر، عضو مجلس الشيوخ الجمهوري الليبرالي منذ ثلاث دورات الذي كان جو قد هزمه في 1988، بسبب أداء الأخير المتفوق في المناظرات المتلفزة بالدرجة الأولى.

مناظرات الرؤساء ونواب الرؤساء مناسبات ليست كغيرها. أولاً، تكون الرهانات عالية بشكل لا يصدق. ومن شأن هفوة واحدة أن تخرج أي عملية ترشيح عن سكّتها. يمكن لخطأ واحد أن يكلف انتخاباً كاملاً. وعلى الرغم من أن امتلاك القدرة على الإجابة عن الأسئلة بكفاءة هو أمر حاسم، فإنه ليس كافياً. يتعين على المرشح أن يحس بالرسائل الأهم والأخطر التي يجب عليه أن يتركها عند الناخبين، ويبقى حاضر الذهن ليعود إلى تلك الرسائل مرة بعد أخرى -

وهلم جرّا. ومما يساعد كثيراً أن يتمكن المرء من ابتكار شعارات سهلة الحفظ عن ظهر قلب، قصيرة، ذات سطر واحد. فبعد أن يكون كل شيء قد قيل وفُعل، وبعد كل عمليات الدراسة والتخطيط، من المحتمل ألا يبقى مع الناس سوى الشعارات القصيرة التي تحسم الربح والخسارة في أي مناظرة. وعلماً مني بأن عملي مفصل على قياسي، فقد طلبت من ليز أن تتولى تنظيم عملية لإعداد مناظرة رسمية.

كان الحاكم بوش قد شارك في عدد كبير من المناظرات خلال الحملة الأولية، لذا فإن العمل كان جارياً على قدم وساق منذ أشهر إعداداً لمواد إيجاز ولرزم أسئلة محتملة وأجوبتها. كان غاري إدسون، الذي أصبح فيما بعد مستشار الأمن القومي والاقتصاد للرئيس، مسؤولاً عن مواد إيجاز بوش. التحق بنا في منتصف الطريق بعد المؤتمر مباشرة، مصطحباً نحو خمسين رطلاً من دفاتر الإيجاز. استعرضنا الدفاتر، وبدأتْ ليز تعد دفاتر إيجاز لي أنا، متكيفة مع صيغة إيجازات الحاكم وموادها الخلفية. أضفنا أيضاً أسئلة من المتوقع طرحها عليّ عن هاليبورتون، مثلاً، غير واردة بالنسبة إلى الحاكم. والتحق غوس بوريير، محام من ناشفيلي كان يعمل مع صهري فيل بيري في جلسات استماع مالية حملات مجلس الشيوخ، بالفريق ليساعد في عمليتي البحث والفرز.

درست دفاتر الإيجاز بين محطات الحملة، ثم بدأت، في أوائل أيلول/ سبتمبر، أحضر جلسات تدريبية إما مع فيل أو مع ستيوارت ستيفنز، أحد مستشاري الاتصالات في الحملة، مؤديين دور مدير المناظرة. كانا يمطرانني بوابل من الأسئلة، وتمثلت مهمتي بذكر جميع النقاط التي كنا نريد تمريرها في كل من القضايا الرئيسية خلال المدة المخصصة لكل سؤال. وعندما وجدتني جيد الارتياح لهذه الصيغة طلبت من روب بورتمان؛ عضو كونغرس من أوهايو آنذاك، أن يحضر جلساتنا. كان يمثل دور جو ليبرمان، وكان ناجحاً جداً، فقد أدى مهمة هائلة. كان قد قضى وقتاً لا يُحصى ولا يُعد من الساعات وهو يستمع إلى أشرطة خطابات ليبرمان وكان يعرف ليس فقط مضمون ردود السيناتور المحتملة، بل وحتى الأسلوب المتوقع أن يعتمده في إيصال تلك الردود.

دعوت عدداً من الأشخاص ممن أثق بهم - بمن فيهم ستيف هادلي، وبول وولفويتز، وديف غيبن، وسكوت ليبي - لمتابعة هذه الجلسات وتزويدي بالرد التقييمي. في البداية صرنا نتوقف بعد كل سؤال لتلقي التعليقات، غير أن هذا ما لبث أن أثبت أنه عديم الجدوى إلى حد بعيد. كان عند كل واحد رأي حول كيفية الرد على السؤال، ولم أر فائدة في متابعة المستشارين وهم يتناقشون حول السؤال الذي كنت قد طرحته للتو. تخوفت من خطر ضياع الصورة الكبرى - التأثير الإجمالي لما كنت أقوله. وهكذا، طلبت من الجميع، بعد بضع جلسات، أن يحتفظوا بتعليقاتهم إلى النهاية.

في أواخر أيلول/سبتمبر نقلنا المناظرة التجريبية إلى وايومنغ واعتمدنا برنامجاً أقرب إلى الصرامة. كنا، كل صباح، نقضي ثلاث ساعات ونحن نعالج أسئلة متعلقة بموضوع محدد. وفي كل مساء، موعد إجراء المناظرة في كنتاكي بالذات، كنا نعقد مناظرة صورية. صوّرنا هذه الجلسات التحضيرية، وبعد انتهاء كل جلسة، كانت ليز تعكف بالتعاون مع مستشاريّ المجتمعين على تلخيص تعليقات هؤلاء على أدائي. وكنا، ليز ولين وروب بورتمان وأنا نتولى مشاهدة شريط الفيديو والسعي إلى تحسين أجوبتي وشحذها، تبعاً لتقويماتهم.

مع الوصول إلى هذه المرحلة بتنا نعرف أن ليبرمان وأنا كنا سنجلس حول طاولة مستديرة على منصة المناظرة، وبحثنا عن مكان في جاكسون يوفر لنا فرصة تكرار المشهد. اتفقنا على بليهاوس هول جاكسون الذي وفر ليس طاولة وخشبة مسرح وحسب بل أحضر ستائر مخملية حمراء وصالوناً بسيطاً. صور إحدى جلسات تدريباتنا تبين خلفية من أغصان ودوال من أداء الليلة السابقة، وكلاً من فيل وروب بورتمان يواصلان التهريج معتمرين قبعتين عاليتين عثرا عليهما في الكواليس.

يبقى الأمن قضية كبرى في مناظرات الرؤساء ونواب الرؤساء. فيما كنا مشغولين بإعداد المسرح في بليهاوس هول جاكسون، بلغنا أن عاملاً لدى مارك ماكينون في جلسات تجربة مناظرة بوش كان قد أرسل نسخة عن دفتر إيجازات الحاكم وشريطاً لإحدى جلسات عمله إلى أحد أعضاء فريق مناظرة غور. كانت

المواد قد حُولت فوراً إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي، ولكن الحدث جاء تأكيداً لمدى أهمية اليقظة. باتت جلسات الإعداد للمناظرة مدرجة في برنامجي تحت عنوان "اجتماعات تواصل"، أما دفتر الإيجاز المملوء بقضايا وأسئلة محتملة وأجوبتها فتم إعطاؤه عنوان "دفتر سياسة الوزير تشيني" المحايد. إلا أن بليهاوس هول جاكسون تكشف، رغم كل سحره، عن كونه موقعاً أقل من آمن. عدد من المراسلين، جاؤوا يتفرجون، متظاهرين بأنهم سياح، توقفوا عند المسرح ذات يوم قبيل بدء التدريب الحواري. لحسن الحظ، صادف أن كانت ليز في المدخل واستطاعت إبعادهم. غير أننا قررنا، بعد ذلك، أن ننتقل إلى مكان آخر وصولاً إلى عقد جل جلساتنا التدريبية في غرفة جلوسنا، مستخدمين طاولة مستديرة مستأجرة مغطاة بشرشف.

كان الجهد المبذول في الإعداد للمناظرة استثنائي الأهمية. غير أن لديّ نصيحة صغيرة أسوقها لمرشحي نيابة الرئاسة في المستقبل إذا أرادوا الإعداد للمناظرات، ألا وهي: خذوا قسطاً من الراحة! بعد استعراض القضايا والوقوف على الرسائل التي تريدون إيصالها إلى الناخبين، يمكنكم أن تتفضلوا على أنفسكم فضلاً حقيقياً إذا ما لذتم بغفوة، بقيلولة. لا بد لكم من الاسترخاء - أو أقله من أن تبدوا في حالة استرخاء - عند حلول اللحظة. أعتقد أن الناخبين سرعان ما يتوصلون إلى استنتاج أن من يعجز عن تدبر أمره مع التوتر الناجم عن حوار سياسي لن يحقق نجاحاً كبيراً في أي أزمة فعلية.

من الطبيعي أن أحد أساليبي المفضلة للاسترخاء هو اللجوء إلى قصبة صيد السمك، ولعل أفضل الأمكنة لتنفيذ ذلك هو أحد أنهار وايومنغ الجميلة. ذلك، إذن، هو السبب الكامن وراء وجودي على ظهر أحد القوارب المسطحة في نهر سنيك عندما تلقيت مكالمة يسألني صاحبها عما إذا كنت سأوافق على معتمد السي إن إن بيرنارد شو مديراً لمناظرتنا. قلت "نعم" دون تردد. كنت أعرف بيرني إعلامياً صادقاً، موضوعياً، مجتهداً، مستعداً لدراسة موضوعات النقاش وطرح أسئلة صعبة على كلينا. سيبقى إلى الأبد مرتبطاً في ذهني بأولى ليالي عاصفة الصحراء في 1991 - ليلة ما لبثْ أن أصبحت نجاحاً هائلاً لجيش الولايات المتحدة. مثل آخرين كثر في طول العالم وعرضه، كنت قد تابعت بيرني

وهو يبث مباشرة من أحد فنادق مدينة بغداد في 16 كانون الثاني/يناير بعيد بدء الضربات الجوية الأمريكية الأولى.

في يوم الأحد الأخير قبل المناظرة، حضرنا قداساً في كنيسة القديس يوحنا المشيخاني بجاكسون. لدى تسللي إلى المقعد المجاور لعائلتي، رأيت عدداً غير قليل من فريق الإعداد للمناظرة مبعثرين بين جمهور المصلين. إنني متأكد أنا من أنهم قدّروا، مثلي أنا، أن صلاة أو اثنتين لن تضر.

على منبر الوعظ كانت سوزان هاريس في ذلك الصباح. كانت حفيدتها تتصارع مع الليوكيميا (سرطان الدم)، وقد تأثرنا جميعاً بكلام المحترمة هاريس وهي تروي قصة قوة حنا ذات السنوات الثلاث وشجاعتها، اللتين هما فوق طاقة احتمال أي طفل. تحدثت هاريس عما انطوت عليه حياة حنا من عبرة حول الإيمان - "ليس إيماننا بان أشياء سيئة لن تحصل. إنه إيمان بأن الرب قادر، حين تحصل أمور سيئة فعلاً، على توظيف تلك المادة لاجتراح شيء مقدس". ذكّرتنا بأن الحياة قصيرة. "ليس لدينا الوقت الكافي لزرع الفرح في قلوب أولئك الذين يسافرون معنا في الرحلة، لذا سارعوا إلى الحب وبادروا دونما تأخير إلى التحلي بالرأفة والحنان". في زحمة حملة سياسية قاسية، فعلتْ موعظتُها فعلها فينا جميعاً ودفعتنا إلى التوقف للتأمل. ماتت حنا بعد بضعة أيام، وكلمات سوزان في ذلك الصباح الخريفي بجاكسون ما زالت تتردد أصداؤها وأنا أكتب هذه الصفحات بعد عقد من الزمن.

كانت مهمتي في الثالث من تشرين الأول/أكتوبر الانتقال إلى إحدى ولايات ساحات القتال حيث كانت وسائل الإعلام ستتمكن من تغطيتي وأنا اتابع المناظرة الأولى للحاكم بوش مع آل غور. وقع اختيارنا على أوهايو وحجزنا مطعماً هناك لفريق متابعة مناظرات بوش - تشيني. في مرحلة التمهيد لهذه المناظرة الأولى بين بوش وغور، كان الأخير، الذي سبق له أن أبدى نزوعاً نحو مبالغات غير ضرورية، قد أطلق عدداً من التعليقات القابلة للاقتباس التي تبين أنها لم تكن صحيحة. أولاً، قال، سعياً منه إلى إضفاء الصفة المسرحية المثيرة على إحدى النقاط المتعلقة بإخفاقات نظام الرعاية الصحية في أمريكا، إن حماتَه دفعتْ نحو ثلاثة أضعاف ثمن دواء التهاب المفاصل لعلاج كلب عائلة غور. ثم

زعم، لدى كلامه في مؤتمر سائقي الشاحنات، أن أمه كانت، حين كان طفلاً، تغني له لينام مع أغنية Look for the Union Label (ابحث عن شعار الوحدة) تعين على حملة غور أن تُسَلِّم بأن تكاليف الأدوية التي أتى غور على ذكرها لم تكن شخصية على الإطلاق، بل مأخوذة من دراسة ديمقراطية في المجلس. والأغنية التي زعم غور أن أمه كانت قد غنتها له وهو في المهد لم تكن قد كُتبت حتى عام 1975، حين كان غور في السابعة والعشرين من العمر.

شمّت الصحافة، بمساعدة قليلة من الحزب الجمهوري، بالطبع، رائحة أطروحة، وفيما كنا متابعين من أوهايو، قام غور بزيادة الطين بلة إذ ادعى أنه سافر إلى تكساس مع مدير وكالة إدارة الطوارئ الاتحادية، جيمس لي ويت، حين اندلعت حرائق كبرى في مقاطعة باركر. ولكن الإعلام ما لبث أن اكتشف أن النقطة الأقرب من الحرائق التي وصلها غور كانت هيوستون التي هي على مسافة تزيد عن مئتي ميل، ولم يذهب إلى هناك برفقة لي ويت - بل وحتى لم يلقه. إلى اليوم لا أستطيع أن أفهم كيف جرى توريط سياسي مخضرم مرة بعد أخرى في فضيحة إطلاق أكاذيب تافهة، كما لم أفهم السبب الكامن وراء تأوهاته وتأففاته المسموعة تلك الليلة.

في الليلة السابقة لمناظرتي، ضمنت الحصول على راحة ليلية جيدة عن طريق الذهاب إلى النوم في سريري. استيقظنا باكراً يوم 5 تشرين الأول/أكتوبر وطرنا إلى لكسنغتون في كنتاكي، ثم انتقلنا بالسيارات إلى دانفيل، حيث كانت محطتنا الأولى للتعرف رسمياً على موقع المناظرة في سنتر كولج. كان مشوار الاستعراض يرمي إلى تمكيني من أخذ انطباع عن خشبة المسرح، وقاعة الاستماع، والطاولة التي كنا سنجلس حولها، و"غرفة الانتظار" التي كنت سأظل فيها إلى لحظة الانتقال إلى خشبة المسرح.

اثنتان من حفيداتي، كيت وإليزابث، انضمتا إلينا، ومن المؤكد أن وجودهما ساهم في كسر بعض التوتر الشديد في ذلك اليوم. تسلقت إليزابت، وكانت في الثالثة آنذاك، مقعد جو ليبرمان حول الطاولة. وفيما كنت أتابع موجز أحد الأركان عن الأضواء التي كانت ستوقت أجوبتنا، تدبرت إليزابت قلماً وراحت تبذل جهداً كبيراً لترسم دينوصوراً على بطاقة مكان جو. صحيح أن الدينوصورات كانت

إحدى الموضوعات القليلة في مفكرتها آنذاك، ولكننا ضحكنا جميعاً من مدى تناسب الأمر مع أطروحة حملتنا القائمة على أن البطاقة الديمقراطية كانت تمثل سياسات الماضي وخططه.

فيما كنا نتابع جولة الاستعراض، بدأت الأنباء تصل عن احتجاجات متصاعدة في صربيا. كان مبنى البرلمان في بلغراد يحترق، وبدا كما لو أن ذلك الرئيس القاسي والقاتل، سلوبودان ميلوسوفيتش، كان سيضطر إلى الإذعان لإرادة شعبه وصولاً إلى ترك المنصب. طلبت من ليز أن تحصل على خلاصة لما كان يجري من فريق السياسة الخارجية عندنا: هادلي، ووولفويتز وليبي، وتكليف أحدهم بإعطائي موجزاً لمدة خمس دقائق عن التطورات الأخيرة. ثم دخلت لآخذ غفوة.

كنت قد تهيأت لأقابل جو ليبرمان بوصفه قاسياً وعدوانياً، وفهمت فيما بعد أنه كان قد توقع الشيء نفسه مني. غير أن مناظرتنا تلك الليلة في سنتر كولج كانت تبادلاً للرأي بشكل حضاري، يذْكُرها الناس إلى اليوم بوصفها أنموذجاً للنقاش السياسي الحصيف. أظن أن السبب هو الاحترام الذي يكنه كل منا للآخر من جهة وأسئلة بيرني شو الجيدة من جهة ثانية. ناقشنا جميع الأمور من الجاهزية العسكرية وآفاق عملية السلام في الشرق الأوسط، إلى كيفية ضبط الأمن الاجتماعي وإصلاح التعليم. لم نتفق على أمور كثيرة، إلا أن خلافاتنا كانت ذات مغزى، غنية بالعبر. تحاورنا في السياسة والأمور الجوهرية ولم ننحدر قط إلى أي تهجمات شخصية.

بعد قطع نحو ثلثي مسافة الحوار، قام بيرني بإثارة مسألة السجالات والمهاترات الحزبية في واشنطن. سأل: "كيف ستعمل لرفع مستوى الخطاب السياسي وأغراضه؟" تحدثت عن سجل الشراكة الثنائية الحزبية لجورج بوش في تكساس، وتحدث جو عن سجل الشراكة الثنائية الحزبية لآل غور في واشنطن. ثم كانت لنا تلك اللحظات غير المخططة، غير المكتوبة، والجديرة كلياً بالتذكر التي يمكن أن تحصل في مناظرات رهانات عالية. رداً على اتهامي أن فريق كلنتون - غور لم يفعل شيئاً، سواء على مستوى الشراكة الثنائية أو غيرها، قام جو ببسط جميع الجوانب التي أصبح البلد في حال أفضل من

خلالها مقارنة بحاله قبل ثماني سنوات. ثم التفت إلي وقال، مشيراً إلى التغطية الإعلامية الواسعة لأحدث كشوفاتي المالية: "سعيد أنا، يا ديك، أن أرى على صفحات الجرائد أنك، أنت أيضاً، أفضل حالاً مما كنت قبل ثماني سنوات". كانت تلك عبارات جيدة رحب بها الجمهور ضاحكاً. ومنحتني فرصة الرد قائلاً: "وأستطيع أن أخبرك، يا جو" بأن الحكومة لم تكن لها أي علاقة، مطلقاً، بالأمر، ما تمخض عن استثارة قدر كبير جداً من التصفيق والضحك.

لو كان الحوار قد انتهى هنا لربما كان ثمة خلل لا يستهان به، مع قيام كل منا بتسجيل هدف ذي طبيعة طيبة على حساب الآخر. إلا أن جو بادر، فيما استعد بيرني لطرح سؤاله التالي، إلى الإشارة إلى زوجته، هاداسا، بين الجمهور، وقال: "أستطيع أن أرى زوجتي، وأظن أنها تفكر في نفسها قائلة: 'أتمنى أن ينتقل إلى القطاع الخاص'". كانت تلك ثغرة لم أكن قادراً على تجاوزها. قلت: "هيا يا جو سأحاول مساعدتك في ذلك المجال". كانت تلك صدفة مئة بالمئة، وأوقعتْ جو في الفخ. إن لديه ما يكفي من الخبرة ليدرك أنه أخطأ إذ فتح لي باباً واسعاً.

أسئلة بيرني تلك الليلة غطت الجبهة المطلة على السياسة، بما فيها مسألة التوجه الجنسي. طرح سؤال: "هل يتعين تمتع الذكر اللوطي والأنثى السحاقية بجميع الحقوق الدستورية التي يتمتع بها كل مواطن أمريكي؟" كنت قد فكرت كثيراً بالقضية فأجبت عن ظهر قلب:

> *حقيقة الأمر هي أننا نعيش في مجتمع حر، والحرية تعني الحرية بالنسبة إلى الجميع. ليس متاحاً لنا أن نقول: "من حقك أن تعيش حراً ولكنك لا تفعل" ولا يجوز أن يكون. ذلك يعني أن الناس يجب أن يكونوا أحراراً في الدخول في أي نوع من العلاقة التي يرغبون الدخول فيها. في الحقيقة ليس من شأن أحد أن يحاول التدخل لتنظيم السلوك أو حظره على ذلك الصعيد. والخطوة التالية، بعد ذلك، هي، بالطبع، مسألة ضرورة أو عدم ضرورة وجود نوع من الحظر الرسمي، إذا شئت، للعلاقة، أو إذا كان لا بد من التعامل مع هذه العلاقات بالطريقة التي يتم اعتمادها في التعامل مع الزواج التقليدي. تلك مشكلة أصعب. تلك ليست غَطْسة هينة. أعتقد أن واقع القضية، بالطبع، هو أنها منظمة من قبل الولايات. أرى أن الولايات المختلفة قد تتوصل إلى استنتاجات متباينة، وذلك*

مناسب. لا أظن أن ثمة ما يفرض بالضرورة وجود سياسة اتحادية في هذا المجال.

ختمت مداخلتي قائلاً: "ينبغي أن نفعل كل شيء نستطيع فعله من أجل أن نتحمل ونستوعب أي نوع من أنواع العلاقات التي قد يحلو للناس أن يقيموها فيما بينهم". بالطبع، كنت متذكراً ابنتي ماري وشريكتها هيثر بو، غير أنني كنت أفكر بما هو صحيح بالنسبة إلينا جميعاً نحن الأمريكيين إذا كنا مؤمنين حقاً بالحرية.

وبعد قيامنا، جو وأنا، بتقديم بيانينا الختاميين، حصلنا على استحسان طويل من الجمهور. أعتقد أن التصفيق كان لثلاثتنا على الطاولة جميعاً، تعبيراً عن تقدير مستوى نقاشنا ونبرة حوارنا. فما إن لملم بيرني المشهد، حتى انحنى جو علي وقال إنه فوجئ بمدى سرعة انقضاء السهرة. أنا أيضاً فوجئت، وشمّرت عن ساعدي لأبين له أنني لم أكن أحمل ساعة. كان ذلك قراراً واعياً، لأنني لم أكن راغباً في أن أقع ضحية إغراء إلقاء نظرة سريعة إليها.

جاءت لين، وليز وفيل، وماري، والحفيدة كيت، وأختي سوزان، جميعاً إلى خشبة المسرح فور انتهاء الحوار. آل وآن سيمبسون كانا أيضاً هناك، مع أصدقائنا الأعزاء دان وغايل كوك من دالاس، وجون وماري كي تورنر، وديك وماغي سكارلت من جاكسون، وآخرين كثر. كان ثمة فيض من العناقات، هنا وهناك وهنالك. وبعد محطة مع حشد انتصار بالغ الحماسة حيث توفرت لي فرصة تقديم الشكر لجميع الذين كانوا قد عملوا بقدر كبير من الاجتهاد لإنجاح جميع ترتيبات المناظرة، أمضينا الباقي من السهرة عاكفين على تناول البيتزا ومشاهدة المناظرة المعادة على الشاشة، ومستمتعين بتحليل ما بعد المناظرة - التي كانت توحي، في جزء كبير منها، بأنني كنت قد فزت.

خلال الأسابيع الثلاثة التالية، طرقنا أبواب الولايات ذات السجال الأكثر حماوةً عدة مرّات بل وذهبنا إلى كاليفورنيا للقيام بجولة حافلات في العطلة الأسبوعية الأخيرة من الحملة. خضت حملة مع أحد ممثلي شخصية إلفيس في رينو، وحصلت على كائن فضائي أرجواني قابل للنفخ في روزول في

نيومكسيكو، وأضعت تسلسل أفكاري تماماً في غرين بي في وسكونسن، عندما نظرت إلى الجمهور ورأيت ماري واقفة في قسم أركان الحملة مرتدية قالب جبن مطاطي رغوي عملاق. تعودت البقاء على متن طائرة الحملة، وإن ظلت منطويةَ على محنها، ولم يخل التحليق من بعض المطبات. بقيت طائرة حملتنا تنز ومضة زرقاء من دورات المياه فوق قسم الحقائب كله، ثم هبطت في ماين حين نسي أوستن تسديد الإيجار الشهري، وكانت مسرحاً لأكثر من مباراة بولنغ بحبات التفاح والبرتقال مع ما لا يقل عن مباراة واحدة شارك فيها أركان وهم ينزلقون في ممر الطائرة فوق أطباق الطعام خلال الإقلاع.

لعل إحدى ميزات العيش على متن طائرة حملة مستأجرة هي أن أحداً لا يبالي كثيراً بقواعد ربط الأحزمة وترتيب الحقائب المحمولة بالأيدي. كانت لين استثنائية التقدير لهذا لأنها كانت تفقد عادة هاتفها الخلوي الخاص الصادر عن الحملة. فكلما أوشكنا على الهبوط كانت الهواتف الخلوية تنزلق من المحافظ والحقائب، ولم يكن من غير المألوف أن نعثر على هاتف أو اثنين عند أقدامنا في مقدمة الطائرة. درجت لين على التقاط أي هاتف تصادفه لتستخدمه كل اليوم. شكل ذلك حلاً لها، غير أنه تسبب بقدر غير قليل من التشوش والارتباك في صفوف أركان الحملة، الذين كانوا يظنون أنهم يهاتفون السكرتير الصحفي أو الزبون المسؤول عن الحقائب ثم يكتشفون أن لين هي الموجودة على الطرف الآخر من الخط.

في الأيام الأخيرة من الحملة، مع وصول السباق إلى خاتمته المشحونة بالقلق، صار الوقت بضاعتنا الأثمن، وبات كل اهتمامنا منصباً على تغطية الولايات ذات السجالات العالية، ولايات سوح المعارك، تغطية كاملة. لم نعد متمتعين بترف الانتقال بالسيارات من مطار إلى مناسبة، ومع حلول أواخر تشرين الأول/أكتوبر صارت كل مناسبة عبارة عن حشد جماهيري في أحد المطارات. وهذه كانت عروضاً مسرحية عظيمة مُدارة ومخرجة لبلوغ الحد الأقصى من التأثير في الجمهور. كانت الطائرة تهبط ثم تدرج ببطء لتقف أمام حظيرة الطائرات مباشرة. أحياناً كان الفريق المتقدم يرتب الأمر سلفاً فتفتح أبواب الحظيرة ما يمكننا من الانتقال مباشرة من الطائرة إلى الحظيرة على أنغام

"روكي" أو شيء يضاهيه نشوة عبر مكبرات الصوت العملاقة. كانت لنا جملة واسعة من هذه المناسبات في العديد من الأمكنة المختلفة. وبغية تجنب الكارثة الواضحة، كان أحد أركان الحملة مكلفاً بلصق قصاصة ورق على باب الطائرة من الداخل، كي يتمكن المرء عند النزول من رؤية عبارة "بورتلاند، أريغون" أو "إيفريت، واشنطن" أو "لاس فيغاس، نيفادا" فيتأكد من المكان الذي صار فيه ويعبر عن سعادته من وجوده هناك.

على الرغم من أن الاستطلاعات كانت لا تزال متعادلة، مع دخول السباق مرحلته النهائية، كنت متفائلاً بالأمور. كنت أشعر بأننا أصحاب الزخم. ثم، في يوم الثلاثاء، الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر، قبل خمسة أيام من الانتخابات، كنا في حشد جماهيري بشيكاغو علمنا بانتشار قصة أن بوش كان قد ضُبط مخموراً وهو يقود السيارة في مين عام 1976. لم يعجبني هذا التوقيت على الإطلاق. بدا الأمر أشبه بـ "مفاجأة تشرينية" كلاسيكية - قصة سلبية تم توقيت إطلاقها في الدقيقة الأخيرة، حين تكون قادرة على إلحاق أكبر قدر ممكن من الأذى.

كنت واثقاً من أن خبر قيادة الحاكم تحت تأثير الكحول كان من شأنه أن يتمخض عن قصص حول قيادتي أنا تحت تأثير الكحول منذ ما يقرب من أربعين سنة، ولكن ذلك لم يحصل لأنها مطروقة سلفاً. فتلك القصص كانت قديمة. أما قصة بوش هذه، رغم انقضاء أربع وعشرين سنة عليها، فكانت جديدة مئة بالمئة. أدى الكشف المتأخر إلى إلحاق الضرر بنا. وقد أشار كارل روف إلى أننا كنا، قبل شيوع القصة، متفوقين على غور بنسبة 40 إلى 35 في مين. بعد ليلة واحدة سبقنا غور وصرنا 40 - 44 لصالحه. انتهينا مع خسارة مين بخمس نقاط[13].

على الرغم من أن مفاجأةُ تشرين الأول/أكتوبر هذه لم تكن سارة، فإنني لم أخف من أن تتمكن من إيذائنا، فقد كنا نتمتع بمعنويات عالية ونحن نهبط في جاكسون هول في ساعة متأخرة من مساء الاثنين، السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر. مشينا عبر البرد القارس إلى داخل حظيرة مطار مشحونة حتى الامتلاء

بدفء جيش من الأصدقاء والأقارب المحتشدين لعقد تظاهرة أخيرة. ثم توجهنا إلى البيت، حيث قمنا، لين وأنا، عاجزين عن النوم من فرط التعب، بفرقعة الذرة المشوية مع حفيداتنا.

أطل فجر يوم الانتخاب منعشاً، وصافياً، وبارداً. كان واحداً من تلك الصباحات الجبلية التي أعشقها في أواخر الخريف. قطعنا مسافة قصيرة بالسيارة من بيتنا إلى محطة ولسن للإطفاء للإدلاء بصوتينا. كان جحفل الإعلام المتنقل هناك، مثله مثل صديقنا ديفيد كنرلي، مصور الرئيس فورد. على الدوام، كان ديفيد ينجح في الظهور في اللحظات التاريخية من حيواتنا، وهذه كانت، يقيناً، واحدة.

في المحطة الأولى وقفنا، لين وأنا، في الطابور (الرتل) للاقتراع، وكنت ممسكاً بيد حفيدتي كيت فيما ناولني موظف قلم الاقتراع ورقتي ووجهني إلى أقرب حجرة اقتراع من المخارج لأدلي بصوتي. كان المصورون قد حصلوا على الإذن الذي مكنهم من التزاحم على بوابة الخروج، واستطعت سماع همهمة كاميراتهم وطقطقاتها وأنا أضع الإشارة الدالة على تأييد جورج بوش وديك تشيني على ورقتي.

انتقلنا مباشرة من محطة الإطفاء إلى المطار. قبيل الصعود إلى طائرة الحملة للمرة الأخيرة على ما يبدو - بشكل أو بآخر - التقطنا عدداً كبيراً من الصور مع العائلة والأركان على المدرج. تبين الصور أناساً فرحين، منهكين أمام الطائرة المزينة بأحرف بوش - تشيني الكبيرة الزرقاء على الخاصرة، وفي الخلفية أجمل الجبال في العالم، جبل غراند تيتونز.

لملء وقت فترة الطيران إلى أوستن، بادر عدد من الأركان إلى تنظيم مراهنة لدعوة الناس إلى تخمين العدد الإجمالي لأصواتنا الانتخابية. مئتان وسبعون صوتاً هو الرقم المطلوب للفوز وضحك الجميع عندما مدت كريستين بيري، أخت زوج ليز، يداً ورفعت، دون تردد، الكرة ذات الرقم 280. أثارت ليز وماري غضبها إذ قالتا لها إنها لا تعرف شيئاً في السياسة إذا ظنت أننا لن نحصل إلا على 280 صوتاً انتخابياً.

وفيما كنا لا نزال في الجو، بدأنا نحصل على نتائج الفرز الأولية. قامت

كاثلين شاناهان بإحضارها إلينا، لين وأنا، في القسم الأمامي من الطائرة. كانت النتائج سيئة. فقد تفوقنا في أيوا، وميسوري، وفيرجينيا الغربية، ووسكونسن، إلا أننا خسرنا بنسبة 3 بالمئة في فلوريدا و4 بالمئة في ميتشيغان. وكانت قائمة الولايات التي تعادلنا فيها أطول من أن تشعرنا بالاطمئنان. علقت كاثلين: "ستكون ليلة طويلة". لم نكن في وضع يمكننا من تقدير مدى طولها.

ما إن وصلنا إلى أوستن، حتى ذهبنا إلى مكتب كارل روف في مقر قيادة الحملة. كان ثمة جدار بلوري مطل على الرواق، وفيما نحن في الاجتماع، كان العاملون يحدقون نحو الداخل وهم يمرون، محاولين دون شك تقويم مزاجنا، متلهفين لالتقاط أي إشارة عن مدى احتمال كون هذه الليلة ليلة احتفالات. في الحقيقة لم نكن نعرف أكثر بكثير مما كانوا هم يعرفونه.

استناداً إلى ما وصل من أخبار، قال كارل إن من المحتمل أن تكون الليلة طويلة، إلا أنه رسم خارطة الصورة التي رآها هو والمؤهلة لأن توصلنا إلى ما يقرب من ثلاث مئة صوت انتخابي. من نافل القول إن كريستين كسبت الرهان وكانت أقرب إلى الحقيقة من معظم خبرائنا.

لين وأنا كنا قد دعونا أصدقاء وأقارب للانضمام إلينا في فندق الفور سيزونز لمتابعة النتائج الأولى لفرز الأصوات، قبل أن نتوجه جميعاً إلى المهرجان الاحتفالي الكبير الذي كان قد خُطط له في برلمان الولاية، على مسافة نحو ميل. في السادسة، حين بدأت النتائج الأولى تصل من الشرق، بات واضحاً مدى احتمال كون الأصوات متقاربة. لين وأنا غادرنا جناحنا ونزلنا إلى حفل رقص كبير في صالون الفندق. على الرغم من عدم اليقين السائد كنا مفعمين حيوية ومغمورين بحب أصدقائنا ودفئهم.

حين عدنا إلى الجناح بعد نحو ساعة قلنا لماري هيثر، وفيل، وليز إن عليهم فعلاً أن ينزلوا إلى الحفلة. أفادوا بأنهم لم يكونوا بمزاج احتفالي. كانت الشبكات قد أعلنت فوز غور في فلوريدا، وهو قرار مباغت وغير مسؤول نظراً إلى أن أقلام الاقتراع في يد الولاية ذات الكثافة الجمهورية لم تكن قد أُغلقت بعد. غير أننا وظفنا نفوذنا الأبوي وشجعنا الصغيرات بقوة على النزول إلى الحفلة. لم يكن ثمة ما يستطعن فعله غير الجلوس في الجناح، وجميع من في

صالة الرقص كانوا متشوقين لرؤيتهن. عملن بنصيحتنا ونزلن إلى الأسفل حيث طُوِّقْنَ بمئات الأصدقاء والأقرباء المحتفلين، حين قامت الشاشات التلفزيونية الكبيرة في صالة الرقص بعد فترة بإبراز خبر مفاده أن الشبكات كانت قد قلبت نتيجة التصويت في فلوريدا وأعادت ولاية الشمس إلى حيز الترجيحات.

كان معنا في جناحنا تلك الليلة أصدقاؤنا الأعزاء: آل وآن سيمبسون، ونيك وبيتي بريدي، ودون وجويس رامسفيلد، وجيم وسوزان بيكر، ورئيس حملة بوش - تشيني دون إيفانز، وآندي وكاثلين كارد. إحدى الصور الملتقطة ذلك المساء تبين جيم بيكر جالساً بجانبي مع آل سيمبسون والزوجان رامسفيلد ينظرون من فوق أكتافنا. كنا جميعاً نعاين السجل الذي كنت أحفظه على ورقة رسمية صفراء. كنت قد اقتطعت خارطة انتخابية من جريدة ذلك الصباح ورحت أستعملها لتعقب الولايات التي تعين علينا الفوز فيها لإيصال الرقم إلى 270.

بدا لي وكأن الليل سيكون طويلاً جداً بالفعل، فقررت في نحو الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين أن أدخل إلى غرفة النوم لآخذ غفوة. لم أكن قد غفوت سوى بضع دقائق حين أيقظتني ليز. قالت: "بابا، لقد انتخبت للتو، نائباً لرئيس الجمهورية. الرئيس المنتخب يريد التحدث معك". شد انتباهي ذلك. كانت الشبكات قد أعادت فلوريدا إلى جورج بوش، وفي الواحدة والنصف بعد منتصف الليل بتوقيت أوستن، كان آل غور قد هاتف بوش مسلِّماً. ناولتني ليز الهاتف، وكان الحاكم بوش على الطرف الآخر من الخط. كلمني عن مخابرة غور واقترح أن أقوم باصطحاب العائلة إلى قصر عزبة الحاكم حتى نتمكن من الانتقال معاً إلى احتفال النصر في برلمان الولاية، حيث كان جمهور كبير قد احتشد خارج المبنى منذ ساعات.

فيما كنا نستعد للمغادرة كي ننضم إلى آل بوش، كان دون إيفانز على هاتفه النقال يتحدث مع مدير حملة غور بل ديلي. قال: "إن غور مشغول بالحديث مع عائلته. إنهم يستصعبون الأمر، وقد طلب منا أن نمهله قليلاً قبل إطلاقه لخطاب التسليم". تفهمنا الموقف بالطبع، وتوجهنا إلى قصر عزبة بوش ظانين أننا كنا سنسمع خطاب تسليم غور هناك.

غادرنا الفندق عبر باب المطبخ كما كنا نفعل دائماً تقريباً حين يكون

الجهاز السري معنا. ولدى خروجنا مطوقين بالعائلة، نظرتْ إليَّ لين وقالت: "ما المشكلة؟ لا تبدو سعيداً كما ينبغي أن تكون". لقد فهمتني جيداً. لم أستطع بيان السبب، إلا أنني تصورت أننا كنا مفرطين في التعجيل بالاحتفال. قلت لها: "إن الأمر لا يبعث على الاطمئنان".

نَحَّيْتُ تلك التصورات جانباً لدى ولوجنا باب الاحتفال العائلي الذي كان جارياً على قدم وساق في قصر عزبة الحاكم. الرئيس جورج أتش دبليو بوش وبربارة كانا هناك مع حاكم فلوريدا جيب بوش. كان الزوجان آل وجيم سيمبسون قد جاءا معنا من الفندق. احتشدنا جميعاً حول جهاز تلفزيوني صغير، أكل الدهر عليه وشرب، في غرفة الجلوس في الطابق الأول من القصر المزخرف القديم وتابعنا مشهد مسرحين خاليين في أوستن و ناشفيل، حيث كان مقرا قيادة حملة غور. كانت الشبكات كلها تملأ وقت الفراغ بانتظار قيام غور بالتسليم رسمياً حتى يتمكن بوش بعد ذلك من إلقاء خطاب انتصاره. غير أن مكالمة أخرى جاءت، عندئذ، إلى الحاكم. كانت المكالمة من آل غور المتصل لسحب تسليمه بالهزيمة.

مع تعرض هامش أصوات بوش في فلوريدا للتضاؤل المطرد، راح الجميع ينظرون إلى جيب بحثاً عن أجوبة والتماساً لأمل. كان في زاوية الغرفة مع رئيسة أركاني، كاثلين شاناهان، منكبَّيْن على شاشة الحاسوب. كانا على تواصل مع الموقع الإلكتروني لوزير خارجية فلوريدا محاولين تعقب عدد الأصوات مباشرة فور إعلانها. حين دخل حاكم تكساس إلى الغرفة طلباً لمعلومات، همس أخوه، حاكم فلوريدا، في أذن كاثلين: "لا تجعلي عينك تقع على عينه"، أملاً في تجنب سيل من الأسئلة التي لم يكن بعد قادراً على الإجابة عنها.

شعر الجميع بالغضب والخيبة من تصرف غور. من الذي يعارض التسليم؟ في 1976 كانت نتائج الانتخابات متقاربة أيضاً، وكان قد تعين علينا أن ننام وننتظر الصباح لنرى الأمور قبل اتخاذ قرار التسليم بالهزيمة أمام كارتر. وفكرت أنه لو كانت حملة غور نوعاً ما عملية احترافية، لكان أربابها قد أدركوا مدى التقارب في عدد الأصوات ولما بادروا إلى التسليم بالهزيمة في المقام

الأول. أما التسليم ثم سحبه فلم يكن إلا عمل هواة. وواقع التسليم ألحق الضرر بغور، في اعتقادي، إذ قررنا الذهاب إلى إعادة الفرز.

بات واضحاً أن أي شيء زائد لم يكن سيتقرر تلك الليلة، إلا أن حشداً كبيراً من المؤيدين كان لا يزال ينتظر تحت المطر في باحة برلمان الولاية. أطل دون إيفانز عليهم ليشكرهم ويلتمس منهم العودة إلى البيوت لقضاء الليل. أما نحن الباقون فذهبنا إلى النوم.

"**وماذا الآن؟" سألتْ ماري.** كان الوقت ضحوة صباح الأربعاء في جناحنا في فندق فور سيزونز، وقد وجهت سؤالها إلى المجموعة الوازنة التي كنا قد جمعناها: سكوتر ليبي، وديفيد آدنغتون، وروب بورتمان، وبول وولفويتز، وتيري أودونيل، وستيف هادلي، وكاثلين شاناهان، ومايكل بوسكن أحد رجال الاقتصاد في ستانفورد الذي أصبح رئيساً لمجلس مستشاري الرئيس جورج أتش دبليو بوش الاقتصاديين. أحدهم كان قد أوصى على ساندويشات، ولكن الطبق بقي كما هو إلى حد بعيد على الطاولة المستديرة في إحدى زوايا الغرفة، بجانب كتاب كنت قد حصلت عليه هدية: "همنغوي صياد سمك". رغم حماستي الشديدة للرياضة، لعل صيد السمك كان أبعد الأمور عن ذهني في تلك اللحظة.

كان شعورنا أن حملة غور لم تكن لتمطمط الأمر كثيراً. توقعنا تسليماً سريعاً. خابت آمالنا في صباح اليوم التالي حين أقدم رئيس حملة غور: بيل ديلي ووزير الخارجية السابق وارن كرستوفر على عقد مؤتمر صحفي في تالاّهاسّة (عاصمة ولاية فلوريدا). كانت حملة غور قد أوفدت كرستوفر إلى فلوريدا للإشراف على عملية إعادة العد، بالطريقة نفسها تقريباً التي اعتمدناها في إيفاد وزير الخارجية السابق جيم بيكر. أدرك الطرفان، كلاهما، أنهما بحاجة إلى شخصية وازنة لا توحي بالانحياز الحزبي أو السياسي المفرط بوصفه الوجه العام لجهود تُبذل في فلوريدا. غير أننا كنا أيضاً نعرف أننا كنا في معركة فعلية وبحاجة إلى مدراء مخضرمين ذوي خبرة ومعرفة. كنت مستعداً لوضع جيم بيكر في مواجهة وارن كرستوفر، أو أي شخص آخر، في أي يوم من أيام الأسبوع. من الواضح أنه كان أفضل من يمكن أن يضطلع بهذه المهمة.

واقفاً أمام غرفة ملأى بالمراسلين، أعلن ديلي أن حملة غور كانت موشكة على طلب إعادة عد يدوي لأوراق الاقتراع في نواحي بالم بيتش، وميامي - ديد، وفولوزيا، وبرووورد - وجميعها مناطق ديمقراطية خالصة. أشار ديلي أيضاً إلى أن من غير المحتمل أن تقف حملة غور عند ذلك الحد، بل كانت ولا تزال عاكفة على تجميع مخالفات أخرى؛ أحد أفراد الفريق الذي كان يتابع المؤتمر الصحفي معنا كرر غناءً من مؤخرة الغرفة أن عائلة ديلي كانت عاكفة "على تجميع مخالفات" في شيكاغو منذ عقود. من الواضح أن فريق غور كان سيفعل كل ما يستطيع فعله لطمس نتائج ليلة الانتخاب. كنا على عتبة معركة.

بات واضحاً أننا كنا داخلين في مسار طويل بلا نهاية منظورة قابلة للتنبؤ. ومع أنني كنت واثقاً من أننا كنا سنفوز في النهاية، فقد ساورني القلق حول التأثير السلبي المحتمل لمرحلة انتقالية جرى تقصيرها في إدارتنا. مهما حصل من أمور أخرى، كان الرئيس الثالث والأربعون للولايات المتحدة سيُنصَّب ظهراً على درجات برلمان الولايات المتحدة يوم السبت، 20 كانون الثاني/يناير 2001. في غرفتي في الفندق بعد ظهر يوم 9 تشرين الثاني/نوفمبر، مددت يدي إلى أقرب قطعة ورق - كانت بياناً صحفياً من بوش - تشيني حول الوضع في ناحية بالم بيتش - طويتها ورحت أدوّن ما ينبغي عمله في الواحد وسبعين يوماً بين الآن وآنذاك. في ذلك الوقت كان يتعين علينا أن نعين مجلس وزراء من أعلى مستويات الأفراد الذين يمكن أن نعثر عليهم. كنا بحاجة إلى وزير للخارجية ينصحنا في الشؤون الخارجية، وإلى وزير للخزانة قادر على الإمساك بزمام الإشراف على اقتصاد الأمة، وإلى وزير دفاع يمكن الاطمئنان إلى ائتمانه على أمن الدولة. جنباً إلى جنب مع النائب العام، هؤلاء هم أصحاب المواقع الوزارية الأكثر أهمية، غير أننا كنا أيضاً ملزمين بملء، حرفياً، آلاف الوظائف، وكثير منها بحاجة إلى مسوح خلفيات من قبل مكتب التحقيقات الفدرالي، وكشوف مالية، وعمليات مصادقة من مجلس الشيوخ. شخصياً كنت قد شاركت في خمس فترات انتقالية سابقة، وكنت أعرف مدى صعوبة أمر إنجاز كل شيء في هذا القدر الضئيل من الوقت حتى لو توفرت أفضل الظروف. كنا قد فزنا بالأصوات في فلوريدا وربحنا، إذن، الهيئة الانتخابية. وعلى الرغم من احتمال قيام غور بالسعي

لقلب النتيجة في قلم الاقتراع عبر سلسلة من الطعون القضائية، فإننا كنا بحاجة لأن نباشر الحركة تهيؤاً للحكم.

في السابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر بات واضحاً أن إعادة العد كان من شأنها أن تتجرجر مدة أطول بكثير مما توقعها أي أحد. ففي ذلك اليوم أمرت محكمة فلوريدا العليا وزيرة خارجية فلوريدا كاثرين هاريس بعدم تصديق نتائج الانتخاب إلى حين استماع المحكمة العليا إلى الحجج ذات العلاقة بمدى وجوب ضم عمليات إعادة العد اليدوية التي طلبها فريق غور إلى التصديق النهائي. لم يكن ثمة أي شيء إضافي كنا نستطيع أن نفعله في تكساس، فقررنا، لين وأنا، بعد عشرة أيام في أوستن، أن نغادر إلى واشنطن.

يوم الأحد الواقع في 19 تشرين الثاني/نوفمبر، ظهر جو ليبرمان على الشاشة في برنامج "مع الإعلام" وتنكرت ما جعلني أحترمه كثيراً. على الرغم من أن حملة غور كانت دائبة على إبطال عدد كبير من أصوات غائبين تم الإدلاء بها من قبل أفراد من الجيش الأمريكي موجودين فيما وراء البحار، أفاد الرجل بأن ذلك لم يكن صحيحاً. أضاف أن على كل حملة أن تفعل كل ما هو ممكن لضمان إحصاء جميع الأصوات التي أدلى بها أفراد من القوات المسلحة الأمريكية.

بعد بضعة أيام أقدمت محكمة فلوريدا العليا على إدخال تغييرات جوهرية على قواعد الانتخاب بعد انتهاء العملية الانتخابية ممدِّدة موعد انتهاء استكمال العد اليدوي حتى 26 تشرين الثاني/نوفمبر. وبعد تلقينا للنبأ بعدد من الساعات، استيقظت في منتصف الليل مع شعور مزعج في الصدر. لم يكن ذلك ألماً، غير أنني كنت أعرف أنه لم يكن سليماً. أيقظت لين وقلت لها إننا بحاجة للذهاب إلى مستشفى لإجراء معاينة. الطريق من البيت في ماكلين إلى مستشفى جامعة جورج واشنطن، على مسافة سبع بلوكات من البيت الأبيض، استغرقت أقل من خمس عشرة دقيقة في سيارة الليمو السوداء المسرعة بقيادة أحد عناصر الجهاز السري في شارع باركواي جورج واشنطن.

في المستشفى أجرى الأطباء عدداً من التحليلات الدموية للوقوف على ما إذا كانت إنزيماتي (خمائري) القلبية قد ارتفعت، الطريقة المعتمدة لاكتشاف أي

أزمة قلبية. لم تشر التحليلات الأولى إلى أي زيادة في الخمائر؛ بعبارة أخرى، لم يكن ثمة ما يشير إلى تعرضي لأزمة قلبية. سارعنا إلى تمرير هذه المعلومة إلى مقر قيادة الحملة في أوستن قبل بعض الوقت من دخولي لإجراء القثطرة القلبية، الإجراء الموصى به بالاستناد إلى تاريخي وإلى واقع تعرضي لإزعاج صدري. قام الدكتور جوناثان راينر بإدخال شبكة مصنوعة من الفولاذ المضاد للصدأ في شريان كان مسدوداً بنسبة 90 إلى 95 بالمئة.

عندما صحوت من العملية نحو الظهر، علمت أن تحليلاً ثانياً للدم أظهر ارتفاعاً في مستوى الخمائر. كان الارتفاع طفيفاً، زيادة ضئيلة ما كانت لتُكتشف قبل بضع سنوات حين كانت التحليلات أقل حساسية. إلا أن إطلاق الخمائر كان يعني تعرضي لنوع من الخلل القلبي. كنت، إذن، قد تعرضت لأزمة قلبية خفيفة، معلومة كنت أعمل على هضمها، في الوقت الذي كان الرئيس المنتخب بوش يحاول، تبعاً لمعلومات أولية، إبلاغ الإعلام بعدم تعرضي لأي أزمة قلبية وبأن "ديك تشيني معافى".

لفتنا نظر معسكر بوش وأعلمناه بأن الأطباء كانوا، قريباً، سيعقدون مؤتمراً للكلام عن نتائج الاختبار الثاني. وفي ذلك الإيجاز، كانت مستويات الخمائر المرتفعة قليلاً هي بؤرة الاهتمام، وبما أن خمائر مرتفعة إن هي، في عالم الطب، إلا مرادفة لعبارة "أزمة قلبية"، فإن الدكتور آلان فاسّرمان، الذي عقد المؤتمر الصحفي، لم يستخدم العبارة، اتصلت كارين هيوز من موقع مراقبتها هناك في تكساس، لتحذرنا من أن الصحافة سوف تكون مقتنعة تماماً بأن حملة بوش ـ تشيني منخرطة في نوع من عملية تغطية. قالت لنا إنه كان يتعين على الأطباء أن يخرجوا ثانية لينطقوا بكلمتي "أزمة قلبية". تحت إلحاح عائلتي قام فريق جورج واشنطن الطبي بعقد مؤتمر صحفي ثانٍ، مستخدماً عبارة "أزمة قلبية" وشارحاً أن الخلل القلبي الذي أصابني كان طفيفاً. قال الدكتور راينر "من شأن هذه أن تكون أصغر أزمة قلبية يمكن لأي شخص أن يتعرض لها، إلا أنها لا تزال تُصنف في خانة الأزمات القلبية". غير أن بعض الإعلاميين ظلوا مشتبهين ظانين أننا كنا نخفي بعض المعلومات الخطيرة عن حالتي. كنت أعلم أن ذلك لم يكن صحيحاً ـ وقررت ألا أبالي بالأمر. لم يكن يهمني إلا التعافي.

بوصفنا عائلة واجهنا بالفعل تحدياً مباشراً ثانياً: تحدي عشاء الشكر. كنت سأبقى في المستشفى في عيد الشكر، وبوصفي الشخص الذي درج دائماً على طهو عشاء الشكر للعائلة، لم يكن عدم اضطلاعي بهذه المهمة الآن ليشكل قضية خطيرة. ما من أحد كان في مزاج تناول طعام مقصف (كافيتريا) المستشفى، فبدأنا نحاول تصور أسلوب الحصول على وليمة تقليدية. ماري، مساعدتي المعتادة في الطبخ، كانت في كولورادو، فتطوعت ليز لمد اليد. ولكن تنبّهتُ إلى افتقارها للخبرة على صعيد إعداد الديك الرومي، فدوّنت قائمة توجيهات حول إعداد عشاء الشكر على قفا بعض الأوراق ذات العلاقة بإعادة العد والفرز. كانت التوجيهات بالغة الوضوح وكاملة، بدءاً بـ "أولاً، نزع الغلاف البلاستيكي عن جسم الديك الرومي الخارجي. ثانياً، إخراج كيس الأحشاء من داخل الديك الرومي".

ما لبثنا أن شعرنا جميعاً بالارتياح حين اتصلت ليز لاحقاً لتقول إن آلما باول، زوجة كولن، كانت قد تبرّعت بطهو عشاء شكر كامل لعائلتنا. وحين ذهبت ليز لجلب العشاء بعد ظهر الخميس، تلفتت حولها في مطبخ آل باول واكتشفت أن آلما كانت، في الحقيقة، قد أعدت عشاءي ديك رومي كاملين - واحد لنا نحن وآخر لعائلتها هي. ربما كانت قد سهرت الليل كله لتنجز العمل. كانت تلك إحدى ألطف اللفتات التي كان يمكن أن نتصورها والتي لن ننساها أبداً.

ساهمت كاثلين شاناهان وبعض أصدقائها بالمزيد من الطعام للمناسبة، وتوفرت لنا فرصة الاستمتاع بسهرة شكر عائلية رائعة، وإن فريدة مع وفرة من لحم الديك الرومي لتقاسمه مع عناصر الجهاز السري الذين كانوا محجوزين وملزمين بقضاء العيد معنا في المستشفى.

وبعد بضعة أيام كنت عائداً إلى البيت عندما قررت كاثلين هاريس أخيراً تصديق كوننا، جورج بوش وأنا، الفائزين في إعادة فرز وعدّ أصوات فلوريدا. حفيدتي، كيث، ذات الأعوام السبعة، كانت قد نامت على الوسادة الحمراء في غرفة التلفزيون. بعد الإعلان همست لين في أذنها: "كاتي! استيقظي! انتُخب جدك للتو نائب رئيس للولايات المتحدة". تدحرجت كيث وعبَّرت بالصوت كما كان يدور، دون أدنى شك، في أذهان أعداد كبيرة من الأمريكيين في تلك اللحظة إذ قالت: "ماذا؟ مرة أخرى؟"

كانت المحكمة العليا الأمريكية قد وافقت على الاستماع إلى طعننا لقرار المحكمة العليا في فلوريدا القاضي بالسماح بإعادة الفرز اليدوي للأصوات. أما الآن وقد تمت المصادقة على فوزنا في فلوريدا، فقد تعين على حملتنا أن تتخذ قراراً رئيسياً. كنا نعرف أن اعتراض آل غور سيستمر، بيد أننا كنا مضطرين لدراسة ما إذا كان من شأن دفع الأمر إلى المحكمة العليا الأمريكية أن يشكل الآن مخاطرة بالنسبة إلينا. ما الذي كان سيحصل إذا صدر حكم ضدنا؟ هل كان من شأن ذلك أن يضعنا في وضع أسوأ مما كنا فيه، بعد المصادقة على فوزنا؟ بادر جيم بيكر وفريقه في تالاّهاسّه (عاصمة ولاية فلوريدا) إلى وضع مذكرة تُبرز إيجابيات السير قدماً وسلبياته، وأجرينا عدداً من الاتصالات المتشعبة مستعرضين جملة الاحتمالات. استمع جورج بوش إلى الآراء ثم اتخذ القرار القاضي بالسير قدماً مع القضية.

بعد التصديق، أعلن الحاكم بوش أيضاً أنني سأتولى رئاسة فترة بوش - تشيني الانتقالية. على مدى بضعة أيام ماضية كنا عاكفين على تشغيل هيكل انتقالي من على مائدة المطبخ في بيتنا بماكلين. أكثر الوقت تعين علينا أن نقف على الشرفة الخلفية لتلقي مكالمات خلوية صافية. جميع الهواتف في بيتنا كانت بلا أشرطة، وكنا متخوفين من استراق السمع، ما دفع لين إلى التنقيب عن هاتف من طراز "princess" (الأميرة) القديم في السقيفة. هذا الأثر الموروث عن أيام المرحلة الثانوية لكل من ليز وماري كان قد وُضع في منتصف مائدة المطبخ. كذلك عثرت لين على لوح إعلانات قديم في السقيفة، فأسندناه إلى جدار المطبخ لتمكين الناس من تثبيت الرسائل.

برمجت لعقد مؤتمر صحفي في 27 تشرين الثاني/نوفمبر، اليوم التالي ليوم التصديق. وفي إيجازي، سلَّطْتُ الضوء على المكان الذي وصلت إليه الأمور. قلت: على الرغم من أن فريق غور لا يزال مصراً على رفض النتيجة وأن إدارة الخدمات العامة لم تقرر بعد أن تزودنا بمكان أو تمويل مكاتب الانتقال المخصصة طبيعياً للرئيس المنتخب، فإننا نشعر بأنّا ملزمون بالتقدم على طريق الاستعداد لممارسة الحكم. سجّلتُ أن "المرحلة الانتقالية تفعل فعلها في نوعية التخطيط، وفي بناء العلاقات بين الإدارة والكونغرس، وفي قدرة أي إدارة جديدة

على تطوير وتنفيذ برنامج تشريعي، وحتى في قابلية الفريق الجديد على صعيد التعامل مع أولى الأزمات لدى نشوبها، وهي ستنشب حتماً". كل يوم نمرره دون الشروع في المرحلة الانتقالية لم يكن إلا يوماً آخر ثميناً نضيعه، ولذا، فلا بد لنا، كما أعلنت، من أن نسارع إلى تأسيس صندوق يقبل المساهمات الخاصة لتمكيننا من إطلاق عمليات الانتقال.

كذلك أعدت تكرار نقطة كانت قد وردت في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة على لسان كل من الحاكم بوش وجيم بيكر:

احاكم بوش وأنا فزنا في كل خطوة من خطوات عملية الانتخاب في فلوريدا. الآن جرى التصديق رسمياً، وفقاً لقوانين ولاية فلوريدا، على أننا الفائزان بأصوات الولاية الأربعة والعشرين. ما من صوت انتخابي واحد في فلوريدا إلا وتم فرزه وعده من جديد. ثمة أصوات جرى عدها ثلاث مرات. نائب الرئيس غور والسيناتور ليبرمان ما زالا، على ما يبدو غير مستعدين للتسليم بالنتيجة. ذلك مؤسف في ضوء الغرامة التي قد يترتب دفعها في تاريخ مستقبلي إذا لم تتح للإدارة القادمة فرصة الإمساك بزمام الحكم.

إننا في وضع فريد وغير مسبوق كلياً. لم يسبق قط أن حصل من قبل في تاريخ أمريكا أن اقدم مرشح رئاسي على الذهاب إلى المحكمة سعياً منه لتغيير النتيجة المترتبة على انتخابات رئاسية مصدّقة سلفاً. ولكن قرار نائب الرئيس، مهما كان هذا القرار، لا يغير التزامنا بالتحضير لتولي حكم الأمة.

بذلك، بدأنا فترة سبعة أسابيع زاخرة بالعمل المكثف لملء أهم المواقع في حكومة الولايات المتحدة.

كان من المهم إطلاع الشعب الأمريكي على حقيقة أننا كنا نتهيأ لنحكم، ما جعلنا نبرمج لإيجازات إعلامية دورية للحديث عما يحصل من تقدم. في البداية عُقدت حلقات الإيجاز هذه في صالات الرقص الفندقية بمركز المدينة، في العاصمة، ولكن متطوعين شغوفين سارعوا، فور استئجارنا مكاتب خاصة في ماكلين لإيواء مقر قيادة العملية الانتقالية، وإلى فعل كل ما يُستطاع من أجل تحويل المكان إلى مركز يمكننا استخدامه لإجراء مثل هذه النشاطات. بلغ تأثري حده الأقصى حين اقدم شاب نشيط من أوائل المتطوعين على مرافقتي في

جولة على بقعة جرى قلبها، على نحو إعجازي، في غضون أربع وعشرين ساعة من بقعة مهجورة فارغة إلى غرفة إيجاز احترافية مجهزة بعشرات الياردات من النسيج الأزرق، وبمسرح، ومنصة، وصفوف كراسي. استمعت وهو يشرح كيف أن الخطوة التالية ستكون هدم أحد الجدران لنتمكن من أن نكون على اتصال مباشر مع المسرح دون الاضطرار للانتقال عبر الغرفة. اعترضت على تلك الفكرة. لم أر أننا راغبون في إخبار صاحب العقار عن اعتزامنا هدم جدران مكان يفترض فيه أن يكون مكاتب مؤقتة. إلا أنني وجدتني معجباً بروح الإبداع والحيوية لدى هذا الشاب.

في ليلة 12 كانون الأول/ديسمبر، كانت ليز وفيل في بيتهما بماكلين، وماري ولين كانتا، كلتاهما، في الطابق العلوي متصارعتين مع الرشح، وَعْكة البرد، وأنا كنت جالساً وحدي في المطبخ أتابع الأخبار حين تم بث نبأ أن قرار المحكمة العليا بشأن بوش وغور يوشك على الصدور. رن جرس الباب، ووجدت ديفيد كنّرلي ومايك غرين واقفين على الشرفة الأمامية. كان ديفيد يتناول العشاء مع مايك، مصور الأسوشيتد برس الذي غطى تحركي خلال الحملة كلها، في مطعم قريب. حين سمعا نبأ قرب إعلان قرار المحكمة العليا، هرعا إلى بيتي، متصورين أن من شأن أخذ لقطات لي وأنا أستمع إلى الخبر - إيجاباً أو سلباً - أن يكون تاريخياً.

حين باتت نسخ من القرار متوفرة، انقض عليها المخرجون التلفزيونيون ونثروها على درجات مبنى المحكمة لتمكين مراسليهم على الهواء من الحصول عليها. استعرضتُ القنوات محاولاً الاهتداء إلى مراسل أستطيع الوثوق به على صعيد التقاط ما قد تكون زبدة وثيقة حقوقية بالغة التعقيد، فيعمد إلى نقل المعنى بدقة. وما إن رأيت بيت وليامز من الإن بي سي، حتى توقفت عن المسح. كنت أعلم أن من شأن بيت أن يكون الشخص المؤهل، إذا كان ثمة أحد، لتحليل حكم المحكمة بسرعة. وهو لم يخيّب. لقد ربحنا القضية، وقد فزنا في الانتخاب. آن لهما أن يرحلا.

رفعت الهاتف واتصلت مع جيم بيكر. رد قائلاً: "مرحبا سيادة نائب الرئيس". قلت له: "شكراً، جيم! وتهاني لك. بذلت جهوداً عظيمة. فقط في ظل

قيادتك استطعنا الانتقال من تفوق بألف وثمان مئة صوت إلى تفوق بمئة وخمسين صوتاً". ضحك من أعماقه. كنت أعرف وهو يعرف أيضاً أن قيادته في فلوريدا كانت حيوية.

قطعت الخط وتلفتُّ حولي. بالفعل كنت سأصبح نائباً للرئيس. والوحيدان الموجودان للاحتفال باللحظة معي كانا ديفيد كنرلي ومايك غرين. بعد قليل دخلتْ علينا ليز وفيل مع قنينة شامبانيا. لم تكن تلك حفلة الانتصار التي كنت قد حلمت بها، إلا أنها كانت لذيذة على أي حال.

في الليلة التالية جمعنا الأصدقاء القدامى، والأقارب، وأركان العملية الانتقالية في فندق شيراتون القريب من مقر قيادة مكاتب إدارة المرحلة الانتقالية. وفيما كنا جالسين نتابع خطاب تسليم آل غور، جاء فريق إعلامي صغير لتصوير المشهد. بعيد مغادرة الفريق دخلت حفيدتي إليزابيت ذات السنوات الثلاث مرتدية ثوباً أحمر وأبيض، حاملة فنجان رشف بيد طرية وقطعة حلوى بالأخرى. وقفت أمام جهاز التلفزيون وأعلنت بصوت مرتفع ولكن دون التوجه إلى أحد: "ذلك هو آل غور. نحن لا نحب آل غور". لا أستطيع تصور المكان الذي التقطتْ فيه تينك العبارتين، إلا أنني سعيد لاحتفاظها برأيها لنفسها فيما كان جحفل الإعلام مالئاً الغرفة.

فور إصدار المحكمة العليا القرار، بادرت إدارة الخدمات العامة إلى الإعلان. عبرت الإدارة عن استعدادها لتسليم المفاتيح إلى مسؤول مكاتب العملية الانتقالية. كان المشهد باهتاً بعض الشيء، حين وقفنا، في إيجاز صحفي يوم 14 كانون الأول/ديسمبر، مدير جهاز الإدارة العامة وأنا، أمام المصورين وهو يقوم، أخيراً، بتسليمي بطاقة المفتاح البلاستيكية معلقة بطوق عنقيّ، تلك التي ستمكنني من دخول المكتب الرسمي للعملية الانتقالية.

في اليوم التالي لصدور قرار المحكمة العليا، قام خمسة شيوخ جمهوريين معتدلين- آرلن سبكتر، وسوزان كولنز، وجيم جفّوردز، وأولمبيا سْنو، ولينكولن تشافي- بدعوتي إلى الغداء في الكابيتول. أرادوا أن يتحدثوا عن خطة إدارة بوش الجديدة في الحكم. كنا قد ترشحنا وانتُخبنا وفقاً لبرنامج عمل محافظ قائم على خفض الضرائب، وإصلاح التعليم، ودفاع وطني قوي. نظراً لأن هامش تحركنا

كان ضيّقاً من الناحية التاريخية، افترض من استضافوني على الغداء بأننا كنا سنعمد إلى خفض سقوفنا، منتقلين إلى الوسط، وباحثين عن نقاط مساومة وحلول وسطية. أظن أنهم كانوا يرون أن من شأن ذلك أن يضعهم في موقع بالغ النفوذ. كذلك أظن أنهم فوجئوا عندما أوضحت أننا لم نكن نفكر بتغيير أجندتنا على الإطلاق. كنا قد ربحنا، وكنا عازمين على الوفاء بالتزامات حملتنا. لم نكن هواة معارك، غير أننا لم نكن، يقيناً، نخطط أيضاً للاستسلام مسبقاً.

بعد بضعة أيام أصدرنا بياننا الوزاري الأول. طرت مع كولن باول المرشح لوزارة الخارجية، إلى مزرعة بوش في كروفورد. ذهبنا، جورج بوش، والجنرال باول، وأنا، معاً إلى ملعب المدرسة المحلية للإعلان. كنت فخوراً باختيار باول وسعيداً بموافقته على الالتحاق بركبنا. كنا قد أجدنا التعاون خلال فترتي في البنتاغون، وكنت أتطلع بشغف إلى فرصة تمكنني من التعاون معه مرة أخرى.

عَرَّفْتُ جورج على صديق قديم آخر حين انضم إلينا بول أونيل على الغداء في فندق ماديسون بمركز المدينة في واشنطن. بول وأنا كنا قد عملنا معاً في إدارة فورد حين كان بول نائب مدير مكتب الإدارة والموازنة، والآن كنا نفكر به وزيراً للخزانة. كان أكثر دراية من سائر الآخرين حول الموازنة وعمليتها وأحد أكفأ وأقدر من سبق لي أن عملت معهم. بعد فترة وجيزة في الحكومة، انتقل بول إلى القطاع الخاص، وتقاطع مسارانا عندما كنت في هاليبورتون وكان هو رئيساً لآلكوا (Alcoa). جاء أيضاً بتوصية قوية من وزير الخارجية السابق جورج شولتز، كما من رئيس الاحتياطي الفدرالي، آلان غرينسبان. كنت عاملاً حاسماً في تجنيد بول للوظيفة، وكنت أيضاً الشخص الذي كان سيتصل به بعد سنتين حين قرر الرئيس إحداث تغيير.

المنصب الرفيع الآخر كان، بالطبع، منصب وزير الدفاع. قمنا، الرئيس وأنا، بإجراء مقابلات مع عدد من كبار المرشحين. شملت المقابلات موضوعات عامة ونقاشاً، غير أننا طرحنا أيضاً أسئلة محددة: كيف ستتعامل مع الأزمة في تايوان؟ مثلاً. قابلنا عدداً من المرشحين الممتازين للاختيار من بينهم، إلا أن دون رامسفيلد تفوق على الآخرين في أدائه خلال المقابلة معه. نظراً لشغله المنصب من قبل ولانشغاله الواضح بالتفكير حول ما ينبغي عمله لتحويل الجيش إلى

قوة قتالية حديثة، كان مثيراً لقدر كبير من الإعجاب في لقائنا القصير. كان دون سيصبح وزير الدفاع الأصغر والأكبر سناً في تاريخ الولايات المتحدة، وكانت صفاته المتمثلة بالكفاءة، والذكاء، والإخلاص ستنجح في خدمته هو كما في خدمة الرئيس.

دارت بيننا نقاشات حول تعيين مدير جديد للاستخبارات المركزية، إلا أننا قررنا ترك جورج تَنَتْ في منصبه. في 1977 كان جيمي كارتر قد أعفى جورج آتش دبليو بوش من منصبه كمدير للسي آي إيه، وتصورت دائماً أن بوش الرئيس الحادي والأربعين (أي بوش الأب) كان معارضاً لذلك القرار، لا لأنه أثر فيه شخصياً، بل لإيمانه ببقاء المنصب بعيداً عن الحزبية، ولا يجوز أن يتبدل عندما يتغير الرئيس. أتصور أن هذه التجربة ألهمت بوش الرئيس (الابن) الثالث والأربعين إبقاء جورج تَنَتْ في مكانه.

أردنا ضمان جعل مجلس وزرائنا شراكة حزبية ثنائية، وبادرنا إلى الاتصال بحاكم وايومنغ السابق مايك سليفان الديمقراطي لنرى ما إذا كان راغباً في الاضطلاع بمهام وزير الداخلية. كان لمايك سجل ناصع كحاكم، كما كان جيد الاطلاع على طيف من القضايا التي تتعامل معها الوزارة. غير أنه بدا، حين اتصلت به لحفزه، أقل من متحمس. لا أعرف ما إذا كان غير راغب في العمل مع إدارة جمهورية، أم أنه لم يكن فقط مستعداً لترك وايومنغ والانتقال إلى واشنطن. مهما كان السبب، انتهينا إلى اختيار غيل نورتون، التي كانت النائبة العامة في كولورادو. صارت المرأة الأولى التي تتولى وزارة الداخلية، وقد حققتْ نجاحاً كبيراً على صعيد مساعدتنا في الداخلية.

ثمة ديمقراطي خدم في المجلس بقدر هائل من التميز تمثل بوزير النقل نورم مينيتا. في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، رافقني نورم في مركز عمليات الطوارئ الرئاسية تحت البيت الأبيض وأشرف على عملية إخراج جميع الطائرات التجارية دون استثناء من الأجواء، تلك العملية غير المسبوقة.

عقدنا، الحاكم بوش وأنا، أولى جلساتنا الإيجازية الاستخباراتية معاً بوصفنا رئيساً ونائب رئيس منتخبين بتاريخ الثامن عشر من كانون الأول/ ديسمبر، واجتماعنا الأول مع هيئة الأركان المشتركة في دبابة البنتاغون كان

بتاريخ العاشر من كانون الثاني/يناير. كذلك قضيت وقتاً طويلا خلال الفترة الانتقالية في الكابيتول هيل. كنت الشخص الوحيد في جناح بوش 43 الغربي الذي سبق له أن كان عضو كونغرس، وقد توفرت لي فرصة تجديد صداقات قديمة. يضاف، كنت أعلم بأننا كنا سنبقى بحاجة إلى علاقات في الهيل. وبوصفي نائباً للرئيس كانت مهماتي الدستورية تشتمل ـ إضافة إلى الاستعداد الدائم للحلول محل الرئيس في حال تعرضه لمكروه ـ على كسر الأصوات الملتزمة في مجلس شيوخ الولايات المتحدة. وكان هذا المجلس مشطوراً خمسين مقابل خمسين، ما أدى إلى جعل هذه المهمة أكثر من مهمة نظرية أمراً وارداً.

مع اقتراب نهاية الفترة الانتقالية، كنت أشعر بقدر كبير من الارتياح والرضا إزاء كل ما كنا قد أنجزناه وحول الفريق الذي كنا قد نجحنا في تشكيله. لم أكن قادراً على تصور جملة المحن والتحديات التي كنا سنواجهها معاً أو العلاقات التي كانت ستتوتر ـ وصولاً إلى نقطة الانقطاع بالنسبة إلى البعض ـ خلال الأعوام الثمانية القادمة.

الفصل العاشر

صياد

المسوّدة الأولى التي رأيتها عن فعاليات التنصيب كانت بعنوان "تقديراً لنائب الرئيس المنتخب تشيني". قيام أشخاص بقول أشياء إيجابية عني لمدة ساعة أو اثنتين بدا رائعاً، غير أنني طرحت فكرة أفضل: تكريم قدماء محاربي أمريكا. في 19 كانون الثاني/يناير بادرنا إلى جمع رجال ونساء كانوا قد خدموا في الحرب العالمية الثانية، وفي كوريا، وفي فيتنام، وفي عاصفة الصحراء في مركز سميث بجامعة جورج واشنطن، وبين أولئك الذين قدمنا لهم التحية كان نحو مئة ممن استحقوا وسام الشرف ونالوه. أحدهم، نيكولاس أورسكو، كان بمفرده قد أجهز على دشمة رشاشات ألمانية خلال معركة بولج، ثم كان، رغم إصابته، قد تقدم مهاجماً وأزال دشمة ثانية. كان قد حضر جميع حفلات التنصيب منذ تنصيب آيزنهاور، كما قرأت فيما بعد. قال: "كلها كانت رائعة. إلا أن هذا اليوم كان من بين الأكثر عظمة لأن الرئيس ونائب الرئيس ووزير الدفاع جاؤوا وصافحونا"[14]. مصافحة أيدي رجال مثل نيكولاس أورسكو كانت شرفاً لي أنا.

في صباح اليوم التالي اصطفّ رتل مؤلف من اثنتي عشرة سيارة في الشارع الضيق أمام بيتنا في ماكلين. خرج جيراننا من بيوتهم ليتمنوا لنا حظاً سعيداً ويودعوننا ونحن نغادر في الساعة الثامنة والدقيقة الخمسين، متوجهين إلى كنيسة القديس يوحنا، عبر حديقة لافاييت من جهة البيت الأبيض. وفقاً للبروتوكول، جلسنا، لين وأنا مع أفراد عائلتنا على المقعد الأمامي على اليسار

من الكنيسة المشيخانية التاريخية الصغيرة. وكان جورج بوش مع لورا وابنتيهما على اليمين. رتّلْنا وصلينا واستمعنا إلى الموعظة التي قدمها المحترم مارك كرايغ، راعي كنيسة آل بوش في تكساس. بعد انتهاء القداس، عدنا إلى موكب السيارات لقطع مسافة الدقيقتين إلى البيت الأبيض حيث كان مبرمجاً لنا أن نتناول القهوة مع الرئيس ونائب الرئيس الراحلين. ولكن موكبنا ظل واقفاً في مكانه أمام الكنيسة، بدلاً من الانطلاق بعيداً عن الحاجز. ثم توقف لفترة أخرى. كنا نجعل يوم التنصيب أشبه بتحليق طائرة بشكل دائري فوق مطار بانتظار إذن الهبوط.

انحنيتُ إلى الأمام في الليمو وسألت رئيس فريقي الأمني، توني زوتو: "ما الذي يجري؟" أجاب: "الرئيس كلنتون ليس جاهزاً، سيدي!" كنت أعرف أن الرئيس كلنتون يتأخر في النوم، غير أن احتمال تأخره في هذا اليوم بالذات كان صعب التصور. كانت الساعة تدق، وسواء أكان جاهزاً أم لا، لم يكن متاحاً له أن يبقى رئيساً بعد نحو ساعتين.

أخيراً وصلنا إلى البيت الأبيض، وانخرط آل بوش، وآل كلنتون، وآل غور، وآل تشيني في حديث موجز في أثناء ارتشافنا للقهوة في الغرفة الزرقاء. لين وأنا أمضينا وقتاً في زيارة هيلاري كلنتون، التي كانت مؤخراً قد أقسمت يمين عضوية مجلس الشيوخ عن نيويورك، وأثارت تشلسي كلنتون إعجابنا، كلينا، إذ كانت بالغة اللباقة والدفء.

في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والأربعين غادر موكبنا البيت الأبيض متوجهاً إلى الكابيتول. مع شروعنا في صعود جادة بنسلفانيا، عدت بالذاكرة إلى ما قبل ثلاثين سنة، إلى أيلول/سبتمبر 1968، حين كنت قد قطعت الطريق نفسها تقريباً سيراً على القدمين في أول أيام عملي زميلاً برلمانياً. والآن، ها أنا ذا، في جادة بنسلفانيا راكباً سيارة ليموزين سوداء طويلة قبيل موعد أداء القسم بوصفي نائب الرئيس السادس والأربعين للولايات المتحدة.

ركب معي آل غور إلى الكابيتول، وبدا مسترخياً في مزاج منشرح. نظر إلى ساعته وشرح كيف تعرضنا للتأخير بسبب انتظارنا لهم لأن كلنتون كان مشغولاً بتوقيع اعتذارات الدقيقة الأخيرة. ابتسم وتساءل بصوت مسموع: "ما

العدد الإضافي للأشخاص الذين يستطيع الإتيان على ذكرهم قبل حلول الظهر، برأيك؟!"

توقف موكبنا تحت رواق معمد على الواجهة الشرقية للكابيتول. التقيت لين التي كانت في السيارة مع تيبر غور، ومشينا في الرواق معاً إلى الغرفة إس - 106، حيث كنا سننتظر إلى أن يحين المشي إلى منصة التنصيب. حركاتنا في الكابيتول كانت مبرمجة بدقة وإحكام. يقول برنامج الصباح: "11:18: إعلان السيد تشيني والسيدة تشيني على باب المنصة. 11:20 : نائب الرئيس المنتخب يغادر غرفة الانتظار في طريقه إلى المنصة. 11:25 : إعلان وصول نائب الرئيس إلى باب المنصة".

من الصعب وصف المشاعر التي أحسست بها حين قال المنادي (العريف): "أيتها السيدات، أيها السادة، نائب الرئيس المنتخب ريتشارد بروس تشيني". تذكرت أبوَيَّ، لا أحد منهما عاش ليرى هذا اليوم. أمي، التي كانت أمينة سجلّات العائلة، كانت قد وثقت جميع أحداث العائلة المهمة لأعوام كثيرة، ملتقطة صوراً وملصقة قصاصات جرائد على صفحات دفاتر قصاصات العائلة. لو كانت على المنصة، لكانت مع آلة تصويرها، ويقيناً كانت ستشعر بقدر كبير من الاعتزاز. أما أبي فكان قليل الكلام وديمقراطياً كل حياته، إلى حين انقلابه من أجل التصويت لي في الانتخابات البرلمانية الأولية لعضوية الكونغرس. كان سيشعر بقدر هائل من الفخر - وسيستمتع، ربما، بضحكة عدم تصديق خفيفة - وهو يرى ابنه مؤدياً قسم نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية.

أربع أرائك جلدية بنية صُفَّت على شكل نصف دائرة بالقرب من المنصة لكل من جورج بوش، وبيل كلنتون، وآل غور، وأنا. كان الصباح بارداً ويمطر رذاذاً، وكانت ثمة مدافئ عند أقدامنا. لين، ولورا بوش، والفتاتان بوش كنّ جالسات خلفنا مباشرة. أما ماري وليز فكانتا جالستين، بعد صفي مقاعد، مع أم لورا بوش، ينّا ولش، وأبوي الرئيس برباره بوش والرئيس جورج أتش دبليو بوش.

إنجيل العائلة الذي كنا قد اخترناه للمناسبة كان عائداً إلى جدي، توماس هيربرت تشيني، الذي كان قد كتب على الصفحة الأولى بالقلم الرصاص: "تي

أتش تشيني، سومنر، نبراسكا 1895" كان إنجيلاً فكتورياً كبيراً جداً، من ذلك النوع الذي يمكن للمرء أن يرى أمه أو أباه عاكفاً على تلاوة آيات منه على مسامع العائلة كلها المتحلقة معاً حول الموقد. كان الإنجيل كبيراً جداً، في الحقيقة، إلى درجة أن بربارة بوش حين رأت ليز حاملة إياه في حضنها قبل مراسم القَسَم قالت: "هل أنتم جادون بشأن ذلك؟"

قبيل الظهر انضممت إلى رئيس المحكمة العليا وليام رينكويست على المنصة، رفعت يدي اليمنى، ووضعت يدي اليسرى على الإنجيل، ومحاطاً بزوجتي وابنتَيّ، أصبحتُ نائباً للرئيس. كانت لحظة مفعمة بالعواطف بالنسبة إلينا جميعاً، وقد صار أكثر عاطفية من جراء معركة إعادة الفرز والعد التي دامت سبعة وثلاثين يوماً. رأيت الدموع في عيون ابنتَيّ وشعرت بعواطفي أنا موشكة على الفيض. مررنا بانتخابات لم تكن شبيهة بغيرها، غير أننا ها نحن ذا هنا. وها هي ذي أمريكا تقوم مرة أخرى بعرض صورة نقلنا للسلطة سلمياً أمام العالم.

بعد غداء التنصيب في الكابيتول، انضممنا، لين وأنا، إلى موكب التنصيب في جادة بنسلفانيا، ثم نزلنا من السيارة ومشينا مسافة البلوكات القليلة الأخيرة إلى البيت الأبيض. مستمرين في ارتداء المعاطف، زرنا مكتبي الجديد في الجناح الغربي. كان عارياً. كان الأثاث قد اختفى، والسجاجيد مرفوعة، والجدران في طور ارتداء طبقة دهان جديدة. مع حلول اليوم التالي كان سيصبح جاهزاً لاستقبالي. قبل أربع وعشرين سنة، يوم 20 كانون الثاني/يناير 1977، كنت قد مشيت عابراً الجناح الغربي قبل ساعات من نقل السلطة إلى رئيس جديد. العودة من جديد كانت جميلة، مع الفريق الآتي لتولي السلطة هذه المرة. مكتبي الجديد كان مجاوراً للمكتب الذي كنت قد شغلته رئيساً لجهاز العاملين لدى الرئيس فورد وأنا في الرابعة والثلاثين فقط. أما الآن فقد قاربت الستين، وعلى حدّ قول أحد الموظفين، صرت أكبر شخص في الجناح الغربي.

في عيد ميلادي الستين أقامت عائلتي حفلة مباغتة لي في المكتب الاحتفالي لنائب الرئيس، مكان جميل في مبنى المكتب التنفيذي القديم. كل نائب

رئيس جديد يكتشف أن هناك دُرْجاً خاصاً في الطاولة بهذا المكتب. افتحه فتجد تحت صفحة من البلاستيك الشفاف (Plexiglass) تواقيع جميع نواب الرؤساء منذ هاري ترومان. وفوق هذه الطاولة قامت عائلتي، يوم الثلاثين من كانون الثاني/يناير 2001، بنشر هديتي الميلادية: خارطة مرسومة يدوياً تبين المعارك التي شارك فيها والد جدي صمويل فلتشر خلال الحرب الأهلية. وعلى امتداد السنوات الثماني من شغلي لمنصب نائب الرئيس، بقيت هذه الخارطة معلقة خلف طاولتي، محاطة بالعلم الأمريكي، وبأعلام توليّ لمنصبَيْ نائب الرئيس ووزير الدفاع، وعلم ولاية وايومنغ.

إضافة إلى كوني الشخص الأكبر سناً في الجناح الغربي، كنت أيضاً نائب الرئيس الوحيد الذي لم يكن الرئيس قادراً على طرده. وبوصفي نائباً للرئيس، وبما أنني انتخبت وأديت القسم، فقد اضطلعت بواجباتي الخاصة كمسؤول دستوريّ. كان ثمة واجبان فقط: خلافة الرئيس إذا ما بات عاجزاً عن إتمام فترته وتولي رئاسة مجلس الشيوخ حيث كنت متمتعاً بالصوت المرجِّح. فيما عدا ذلك، كان دوري معتمداً على جورج دبليو بوش. كان في وسعي تقديم النصح وحسب. وكان تأثير نصيحتي يعتمد أولاً وقبل كل شيء على علاقتي برئيس الجمهورية. في آخر المطاف لم يكن ما لدي من سنوات خبرة وما في تاريخي من مناصب أخرى شغلتُها أي تأثير أو وزن، إذا لم يكن الرئيس مهتماً بما لدي لأقوله.

منذ اليوم الأول أفصح بوش عن رغبته في أن أساهم في عملية الحكم. كان قد كرس قدراً هائلاً من التفكير، والوقت، والاهتمام لقضية ما كان نائب الرئيس سيفعله. إلى درجة أن الأمر أدى إلى خلق نوع من الترتيب الفريد في تاريخنا، حيث نائب للرئيس مضطلع بدور مهم في القضايا السياسية الرئيسية للعصر، ألا وهو ترتيب جورج بوش. على امتداد السنوات الثماني التي كنا معاً فيها، ظل وفياً لكلمته التي عنت اضطلاعي بدور رئيسي، وسأظل على الدوام أشعر بالامتنان من جراء ذلك.

أعود بالذاكرة إلى ما جعل العلاقة بيننا ناجحة، فتخطر ببالي جملة أمور.

أولاً، بيّنت منذ البداية أنني لم أكن راغباً في الترشح للرئاسة لفترة أربع أو ثماني سنوات. لم يكن الرئيس قلقاً بشأن احتمال اتخاذي مواقف معينة واهتمامي منصب على ما يمكن أن تحدثه من صدى لدى ناخبين في أيوا أو نيوهامبشاير. كذلك حرصت على حصر مناسبات ظهوري أمام الإعلام. عندما كنت رئيساً لجهاز العاملين في البيت الأبيض ووزيراً للدفاع، كنت قد أمضيت فترات طويلة من الوقت مزوداً أعداداً من المراسلات بمعلومات أساسية وعاقداً مقابلات صحفية، أما بوصفي نائباً للرئيس فقد اخترت أن أبقى في إطار هامش أضيق. في أكثر الأحيان كان الإعلاميون مهتمين بالاطلاع على المشورة التي زودت بها رئيس الجمهورية حول هذه القضية أو تلك، وكان هو بحاجة لأن يعلم حقيقة أنني لم أكن أخرج من المكتب البيضوي لإبلاغ الصحفيين ما قلته تواً.

يضاف إلى ذلك أنه منذ الفترة الانتقالية وصاعداً، كانت ثمة قصص إعلامية دائبة على تأكيد إمساكي بالزمام. تلك لم تكن قصصاً صحيحة، وكان من شأن المبالغة في البروز والإفراط في العلنية أن يرفدا تلك القصص. من المؤكد أنني أجريت فعلاً عدداً من المقابلات الصحفية الجديرة بالتذكر والمهمة، بما فيها واحدة مع تيم روسَّرْت يوم الأحد الذي أعقب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، إلا أنني صرت أقل قابلية للوصول إلى الصحافة بما لا يقاس، مقارنة بما كنته من قبل. وسرعان ما اكتشفت أن هذه لم تكن استراتيجية هادفة إلى تعزيز صورتي أو سمعتي، إذ كانت قيداً حرمني من فرصة الرد على الاتهامات الباطلة الموجهة ضدي. إلا أنني قررت آنذاك، وما زلت مؤمناً، أن أفضل طرق خدمة الرئيس والوطن كانت متمثلة بالاستغناء عن التصريح لوسائل الإعلام عند كل منعطف على الطريق.

حين تنشأ مشكلة بين رئيس ونائب رئيس، فإنها كثيراً ما تكون نابعة من صراع بين الأركان. تجنباً لذلك، قررنا دمج أركاننا في ميادين رئيسية. فماري ناتالين، مديرة الاتصالات عندي، كانت تعتمر قبعتين. كانت مساعدتي ومساعدة الرئيس. كان هذا صحيحاً أيضاً بالنسبة إلى الأمن القومي، حيث كان سكوتر ليبي حاملاً اللقبين كليهما. أما في الأمور القانونية، فإن مستشاري العام، ديفيد آدنغتون، كان يعمل في ظل تعاون وثيق مع المحامين العاملين في مكتب

مستشار البيت الأبيض يوماً بيوم. كاتب خطاباتي جون ماكونل، كان أيضاً أحد كبار كُتّاب خطب الرئيس. بقيت اجتماعات الأركان وعمليات التخطيط ممتازة المزاوجة والتوحيد. كانت هناك اختلافات، بالطبع، ولكن النظام كان يعمل على نحو جيد إلى حد كبير في معظم الوقت.

بعيد انتخابي، طلب كلٌ من رئيس مجلس النواب، دني هاسترت، ومَنْ كان موشكاً على أن يصبح رئيساً للجنة الطرق والوسائل، بيل توماس، مقابلتي. كان الثاني صديقاً قديماً وزميلاً. كلانا كان اختصاصي علوم سياسية قبل انتخابه في 1978، والآن كان هو على عتبة ترؤس إحدى أقوى اللجان في الكونغرس. كان ذلك موقعاً منطوياً على حقوق الوصول إلى بعض أفضل المجالات في الكابيتول. أخبرني الرجلان بأنهما يعرفان شغلي لمكتب في جانب مجلس الشيوخ من الكابيتول ولكنهما كانا يريانني شخصاً من مجلس النواب وأرادا أن يمكناني من مكتب في جانب هذا المجلس أيضاً. عرض علي بيل مكتبين لأختار أحدهما، ووقع اختياري على أتش - 208، القريب جداً من قاعة اجتماعات المجلس. وخلال الجزء الأكبر من أعوامي العشرة في الكونغرس، بقي هذا مكتب داني روستنكوفسكي، ولم يكن قد سبق لي أن رأيت داخله. والآن صار المكان لي.

حسبما أعلم، ما من نائب رئيس سابق أو لاحق كان عنده مكتب في طرف المجلس من الكابيتول، وقد استخدمته لعقد اجتماعات ولقاءات مع أعضاء مجلس لدى انشغالنا بنصوص تشريعية استثنائية. كذلك كنت أستضيف فيه وجبات عشاء بوفيتية قبل الخطابات الرئاسية الموجهة إلى الكونغرس، بما فيها خطاب حالة الاتحاد السنوي. فتدابير الأمن المحكمة التي تحيط بأي خطاب رئاسي تعني أن على أكثر أولئك الذين يجلسون في الغرفة أن يصلوا قبل الخطاب بساعات. لين وأنا درجنا على عادة دعوة الوزراء والقيادة الجمهورية في الكونغرس إلى العشاء في هذه المناسبات، وقبيل موعد بدء الخطاب كانوا يستطيعون أن يسجلوا أسماءهم ويجلسوا في مقاعدهم بقاعة المجلس. إلا أن هذا التقليد انتهى في 2006 حين نجح الديمقراطيون في استعادة التحكم

بالمجلس وصار تشارلي رانغل الرئيس الجديد للجنة الطرق والوسائل. طالب بالمكتب - كما كنت قد توقعت أن يفعل.

بدءاً بأول ثلاثاء بعد تولّيَ المنصب، يوم 23 كانون الثاني/يناير 2001، صرت أُدعى إلى غداء أسبوعي لمخططي السياسة الجمهوريين في مجلس الشيوخ على الهيل، وخلال أعوامي الثمانية كنائب للرئيس بقيت حريصاً على عدم التغيب عن هذا الغداء إذا لم أكن مسافراً. أدينُ بالشكر للشيوخ على كرمهم لأن مجلس الشيوخ ليس دائم الترحيب بنواب الرئيس، الذين هم أصحاب باع طويل في الفرع التنفيذي جنباً إلى جنب مع الفرع التشريعي. حين كان ليندون جونسون موشكاً على أن يصبح نائباً للرئيس، بادر إلى وضع خطة تقضي بتوليه رئاسة اجتماعات الكتلة الديمقراطية في مجلس الشيوخ فأثار حفيظة عدد كبير من زملائه. أحدهم أعلن للملأ: "لا علم لي بوجود أي حق يخول نائباً للرئيس أن يترأس بل حتى أن يحضر اجتماعات الشيوخ". في النهاية لم يتول جونسون أي رئاسة - بل ولم يكن يحضر أكثر الأحيان. وقد أوضح هاري رايد أن خلفي، السيناتور جو بايدن، لم يكن يلقى الترحيب - وهو أمر بالغ السوء[15]. وجدت أن هذه الجلسات مهمة على صعيد بناء العلاقات واجتراح التحالفات إضافة إلى توفير إنجاز أعمال معينة.

نادراً ما كنت أتكلم في وجبات غداء الكتلة، رغم أنني كنت أتفوه، أحياناً، ببضع عبارات مقتضبة، إذا كانت ثمة قضية ذات أهمية استثنائية على جدول الأعمال، أو طُلب مني التعليق من جانب قيادة الكتلة الجمهورية في مجلس الشيوخ. خلال الجزء الأكبر من الوقت، فضلت الاستماع، لا الدعوة إلى تأييد الإدارة. كنت أريد من الشيوخ الجمهوريين أن يروني حليفاً في الجناح الغربي، وأن يستمروا في دعوتي إلى جلساتهم الأسبوعية.

كانت العلاقات التي نسجتها مع مجلسي الكونغرس كليهما تعني أنني كنت على الأغلب الشخص الأول في البيت الأبيض الذي يسمع إذا ما حصل أي إشكال هناك. كان من شأني، مثلاً، أن أتلقى اتصالاً من رئيس المجلس دني هاسترت أو زعيم أغلبية مجلس الشيوخ ترنت لوت، يزودني بالخطوط العريضة إذا كان أي نص تشريعي بات على النار. كانت تلك طريقة ناجحة جداً، أكثر

الأحيان، لضمان بقاء البيت الأبيض والجمهوريين في البرلمان في الدائرة نفسها.

كُتب الكثير عن تأييدي لسلطة تنفيذية قوية، وصحيح أنني مؤمن إيماناً راسخاً بضرورة حماية صلاحيات الرئيس وامتيازاته، ولا سيما حين يكون الأمر متعلقاً بإدارة سياسة الأمن القومي. غير أنني عشقت المدة التي قضيتها في الكونغرس، وسأبقى دائماً أعد نفسي من أبناء المجلس. فاحترامي لتلك المؤسسة وتفهُّمي لمنهج عمل الكونغرس، بما فيه الضغوط التي يحس بها أعضاء أفراد، كان مهماً حين كنت أعمل من أجل وضع جدول أعمال جورج بوش التشريعي موضع التطبيق.

كنا بحاجة إلى كل صوت جمهوري لدى انطلاق الكونغرس الـ 107 في كانون الثاني/يناير 2001. لم نكن قد فزنا في أحد أكثر السباقات الرئاسية تقارباً في التاريخ وحسب، بل وكان مجلس الشيوخ معطلاً بخمسين جمهورياً في مواجهة خمسين ديمقراطياً. كان صوتي المرجح بوصفي نائباً للرئيس يمنح الجمهوريين الأكثرية. وكان ترنت لوت زعيم الأكثرية، وتوم داشل زعيم الأقلية يسعيان لترتيب يفضي إلى توزيع متناظر للمقاعد في اللجان، إلا أن كل لجنة كانت برئاسة أحد الجمهوريين.

شكل تامين الانفراج الضريبي أحد أهم وعود الحملة الانتخابية، واقترحنا إصلاحاً عابراً للطيف لما كان من شأنه أن يصبح التخفيض الضريبي الأكبر منذ عام 1981. كنا مؤمنين بأن الضرائب ينبغي أن تتقلص إلى الحدود الدنيا الممكنة، لا سيما إذا تعلق الأمر بعناصر القواعد الضريبية المؤثرة في الادخار والاستثمار، وفي التنمية الاقتصادية، وفي خلق فرص العمل. أردنا اختزال المعدلات على أرباح الرساميل، وفوائدها، وحصصها، إضافة إلى خفض المعدلات الإجمالية لضريبة الدخل بالنسبة إلى الشعب الأمريكي. كنا مؤمنين، مثل سائر المحافظين، بأن الضريبة العقارية يجب إلغاؤها أو اختزالها اختزالاً ملموساً. كنا نراها غير منصفة أساساً، لأنها تمثل ازدواجاً ضريبياً بالنسبة إلى المكلفين بتسديدها.

نظراً لوجود فائض ذي شأن في الموازنة، كان ثمة تأييد من الحزبين

لخفض ضريبي من حجم معين، إلا أن الديمقراطيين، خصوصاً في مجلس الشيوخ، أرادوا حزمة أصغر بكثير مما كنا نريده نحن. في الثالث من نيسان/أبريل 2001، أدليت بصوتي المرجح الأول وأوقفت المحاولة الديمقراطية الرامية إلى تقليص حجم التخفيضات الضريبية. وفي الخامس من نيسان/أبريل نجح صوتي المرجِّح في إعادة أموال إلى حزمة التخفيضات الضريبية المتعلقة بتخفيف غرامة الزواج. كذلك شاركت في المفاوضات مع جمهوريين وديمقراطيين في مجلس الشيوخ حول الحجم النهائي للحزمة. كنت جالساً في مكتب ترنت لوت يوم 4 نيسان/أبريل، فحملتُ محرمة عليها عبارة "مكتب زعيم الأكثرية"، أخرجت قلمي، وسجلت رقمين ممثلين لما كنا نريده ـ 1.6 تريليوناً ـ وما كان الديمقراطيون يطالبون به 1.25 تريليوناً. بين الرقمين دونت "1.425 تريليوناً" وطوقته بدائرة. في النهاية، نجحنا في تأمين 1.35 تريليوناً من الدولارات في باب الانفراج الضريبي لمصلحة الشعب الأمريكي. جاءت الحزمة متضمنة تخفيضاً ممرحلاً لتقليص الضريبة العقارية وصولاً إلى الإلغاء في 2010. وجميع التغييرات الضريبية مرت بوصفها جزءاً من عملية التسوية الخاصة بالموازنة، التي استثنت تلك التغييرات من إعادة التصديق، ولكنها اشترطت أيضاً موعداً لانتهاء مفعول الاستثناء.

ولأن التخفيضات الضريبية كانت ملزمة بالانتهاء في 2010، فقد جرى، لحسن الحظ تمديدها لعامين إضافيين. وعلى الرغم من أن الضريبة العقارية أُعيد فرضها من قبل الرئيس أوباما، فإن القانون الراهن يجيز إعفاء بمبلغ خمسة ملايين دولار، أكثر من سبعة أضعاف الإعفاء المسموح به قبل تحرك بوش.

في زحمة السجال حول التخفيضات الضريبية، بدا وكأن الجمهوريين قد يخسرون أكثرية الصوت الواحد التي كانوا يتمتعون بها. ففيما كنا عاكفين على مناقشة قرار الموازنة خلال ربيع 2001، أوضح سيناتور فيرمونت، جيم جفوردز، أنه راغب في تمويل زائد زيادة ملموسة لبرامج تعليمية خاصة. ومع أننا كنا نزيد موازنة التعليم، فإننا لم نكن نخصص المبالغ بالطريق التي كان جيم يريدها، وراح يهدد بالانتقال إلى الضفة الحزبية المقابلة، الأمر الذي كان من شأنه أن يمكن الديمقراطيين من السيطرة على مجلس الشيوخ.

كنت أعرف أن جيم كان عميق الاهتمام ببرنامج التعليم الذي طرحه، وقد ظل، رغم وصوله إلى حد الانتقال إلى الضفة الأخرى، ملتزماً بنا في عملية التصويت بالموافقة على حزمة التخفيض الضريبي النهائية. أعتقد، آخر المطاف، كان قرار انتقاله ذا علاقة برئاسة اللجنة التي كان توم داشل قد عرضها عليه أكثر من ارتباطه بأي شيء آخر. رئاسات اللجان في مجلس الشيوخ يتم تحديدها عادة وفقاً للقدم الخالص - أقدم أعضاء الأكثرية في أي لجنة يصبح رئيساً تقليدياً. غير أن دفع جفوردز إلى الانتقال كان بالغ الأهمية بالنسبة إلى الديمقراطيين، إلى درجة جعلت توم داشل يرفعه إلى صدر القائمة وينصبه رئيساً للجنة البيئة والأشغال العامة. ومع انقلابه الحزبي تعرضت كل رئاسات لجان مجلس الشيوخ لعملية انقلابية مع إمساك الديمقراطيين بزمام التحكم.

بذلنا جهوداً كبيرة لنمنع جيم من التحول، ولم نكن، بالتأكيد، مسرورين حين أخفقنا. غير أنني أعتقد، وأنا أنظر إلى الخلف الآن، أن انقلاب جفوردز ساهم فعلاً في انتصارنا في انتخابات 2002 النصفية. قام بتمكين الديمقراطيين من الإمساك بالزمام، لكن هامشهم كان بالغ الضيق فبقي إنجازهم الفعلي ضئيلاً جداً. وإخفاقهم في القيام بأي إنجاز فعلي ألحق الضرر بهم وساعدنا حين ذهب الناخبون إلى صناديق الاقتراع بعد عام ونيف فقط. كذلك كانت شعبية رئيس الجمهورية في استطلاعات الرأي مرتفعة، نحو 70 بالمئة، وحين جاءت نتائج الانتخابات النصفية، تبين أننا كنا قد زدنا اكثريتنا في المجلس بثمانية مقاعد وكسبنا مقعدين في مجلس الشيوخ، مستعيدين، إذن، تلك المؤسسة إلى السيطرة الجمهورية. المرة الأخيرة التي كان فيها أي حزب لرئيس الجمهورية فائزاً بمقاعد إضافية في مجلسي الكونغرس كليهما في الانتخابات النصفية الأولى في فترة ولايته كانت عندما كان فرانكلن ديلانو روزفلت رئيساً للجمهورية عام 1934.

في العام 2003 اقترح رئيس الجمهورية جولة كبيرة ثانية من التخفيضات الضريبية، ومرة أخرى بذلتُ قدراً كبيراً من الوقت لتأمين الأصوات اللازمة لتمريرها. ومع أننا كنا قد وسّعنا أكثريتنا في المجلس وأمسكنا بزمام مجلس الشيوخ، فإن المهمة لم تكن يسيرة. في حين أن جميع الجمهوريين كانوا مؤيدين

لأي تخفيض ضريبي، كان ثمة عدد ممن لم يرغبوا في السير قدماً مع رقم الـ 550 ملياراً من الدولارات الذي كان الرئيس يقترحه. كانوا متوجسين من العجز، وهو تخوف كنت أتفهمه عموماً. وقد نُقل عني أنني قلت في تلك الفترة إن "العجوزات لا تهم" ورحت أقتبس من رونالد ريغان تدعيماً للقضية، غير أنني كنت، في الحقيقة، أرى أن للعجوزات أهميتها. فقط كنت مؤمناً بأن من الضروري النظر إليها في سياق، من الواجب التنبه إلى حقيقة أن إنفاقه على الدفاع ساهم في إخراج الاتحاد السوفييتي من الحلبة، وساهمت تخفيضاته الضريبية في حفز إحدى موجات الازدهار الأطول استدامة ورسوخاً في تاريخنا، على الرغم من زيادات رونالد ريغان المسرحية المثيرة في الميزانية الدفاعية وتخفيضاته الضريبية التاريخية أدت بالفعل إلى دفع العجز من نسبة 2.7 بالمئة من إجمالي الناتج القومي في عام 1980 المالي إلى 6 بالمئة في عام 1983 المالي.

في 2003، والعجز بنسبة 1.5 بالمئة من إجمالي الناتج القومي فقط والاقتصاد في حالة ركود، بدت الحزمة الضريبية التي اقترحها الرئيس مبررة يقيناً بنظري، إلا أن السيناتورين أوليمبيا سْنو من ماين وجورج فوينوفيتش من أوهايو وجداها أضخم مما ينبغي. نظراً لحاجته إلى صوتيهما في أي قرار حول الميزانية أقدم تشاك غراسلي على القبول بسقف 350 ملياراً من الدولارات على الحزمة الضريبية، صفقة سارع زعيم الأكثرية بيل فريست إلى مباركتها.

غير أن أحداً لم يبلّغ قيادة المجلس بالأمر، وقد ثار غضبها الشديد حين باتت الصفقة مكشوفة. وإقرار المجلس لتخفيض ضريبي بمبلغ 550 ملياراً من الدولارات في التاسع من أيار/مايو لم يفعل شيئاً على صعيد التخفيف من الاستياء، لأن اجتماعاً بين مجلسي البرلمان كان وشيكاً. أراد قادة المجلس أن يعرفوا كيف يمكن عقد أي اجتماع حين يكون أحد قادة المجتمعين، السيناتور غراسلي، قد أقدم سلفاً على إعلان سقف؟ بادر الرئيس إلى دعوة جميع اللاعبين إلى شرب كأس على شرفة ترومان في 19 أيار/مايو، 2003. كان رئيس المجلس النيابي، دني هاسترت، أحد أولئك الذين يستمتعون بالمنظر البديع من الشرفة ذلك المساء، ومعه كل من رئيس لجنة الطرق والوسائل في المجلس، بيل توماس، وزعيم الأكثرية في مجلس الشيوخ، بيل فريست، ورئيس اللجنة المالية في

مجلس الشيوخ تشاك غراسلي. تحدث الرئيس عن خطته للتخفيض الضريبي، التي كان من شأنها أن تعجل عمليات اختزال الرسوم المبرمجة لسنوات قادمة وصولاً إلى إلغاء الضريبة الفردية على الحصص. كان الهدف هو حفز النمو الاقتصادي، وكان الرئيس يريد أن يتم الأمر بسرعة، مع حلول يوم الذكرى (الثلاثين من أيار/مايو) كحدٍّ أقصى.

ثم قام دني هاسترت، أحد أكثر الناس الذين عرفتهم توازن مزاج وسهولة تعامل، برفع صوته - وكان استياؤه من زملائه في مجلس الشيوخ جلي الوضوح. أشار على زعيم الأكثرية فريست بوجوب العزوف عن تعيين السيناتور غراسلي، إذ كان قد أقدم سلفاً على اتخاذ موقف، عضواً في الاجتماع الذي كان يتم بين مجلسي الكونغرس. ساد الصمت مع انشغال الجماعة على الشرفة بإحصاء عدد الهفوات التي كان هاسترت قد اقترفها. كانت ثمة، قبل كل شيء، زلة قيام المجلس النيابي بتوجيه مجلس الشيوخ إلى ما يتوجب عليه أن يفعله، مضاف إليها إهانة كل من يجرؤ على اقتراح حرمان رئيس لجنة المال في مجلس الشيوخ من مقعد في اجتماع (كونغرس) مخصص لبحث أحد القوانين الضريبية. ومن ثم كان رئيس لجنة المال في مجلس الشيوخ جالساً هناك تماماً بالطبع.

كنت أرى أن هاسترت كان يقوم بما هو أكثر من مجرد إطلاق سهم عبر القوس. كان قد اتصل في اليومين الأخيرين ليعلمني بأن أعضاء المجلس كانوا يقولون إنهم لن يذهبوا إلى أي اجتماع مع غراسلي. كانوا يفكرون بإعادة مشروع قانون يتضمّن رقماً أكبر إلى مجلس الشيوخ ومطالبة الشيوخ بأخذه أو تركه.

كان بيل فريست أيضاً قد اتصل معي. كان الشيوخ يزيدون من تشددهم جراء الاقتناع بأن المجلس كان يحاول "قطع" الطريق عليهم، كما قال، وكانت الخصومات الشخصية متصاعدة. فهل لي أن أتدخل وأسمسر على صفقة؟

كنت سعيداً بأن أفعل. كنت بالتأكيد متفهماً للمنافسات المؤسساتية الفاعلة، وكنت أعرف الناس المتورطين عن كثب. رئيس لجنة المال، غراسلي، ورئيس لجنة الطرق والوسائل في مجلس النواب، بيل توماس، بقيا عازفين عن الكلام.

كان ثمة تقرير عن أن اجتماعاً بينهما زادت حدته مما دفع توماس إلى الخروج من مكتبه. يبقى تشاك شخصاً واقعياً ومحترماً لا يزال مهتماً بتشغيل مزرعته في أيوا. أتذكر، أقله، مرة واحدة اتصلت فيها معه لأمسك به عبر الهاتف الخلوي وهو يقود جراره الزراعي. صحيح أن فيه قدراً من العناد، إلا أن هذا ظل يفيده في قواعده الانتخابية على امتداد الأعوام. أما توماس، الذي كان من بيكرزفيلد في كاليفورنيا، فيعشق التشريع، ويشحذ تفكيره كثيراً بخصوص المهمة. وبوصفه أكاديمياً سابقاً مثلي، فقد اشتُهر بحساسيته، إلا أننا كنا نعرف بعضنا منذ أن انتُخبنا كلانا عضوين في مجلس النواب منذ أكثر من ربع قرن وكان كل منا يستمتع برفقة الآخر.

قمت بزيارة لبيل في مكتبه الخاص بلجنة الطرق والوسائل بعد ظهر يوم 21 أيار/مايو 2003، وأمضينا بعض الوقت مع الذكريات. اتفقنا على أن ما كان ليصدق آنذاك في 1979 حين كنا من أعضاء الكونغرس الجدد أننا كنا سنجد نفسينا جالسين هنا في 2003، هو كرئيس للجنة الطرق والوسائل، شاغلاً أحد أقوى المواقع على الهيل، وأنا كنائب لرئيس الجمهورية. ثم قام بيل بإطلاعي على المرحلة التي وصل إليها المجلس في موضوع القانون الضريبي، بما في ذلك واقع وجود اهتمام كبير برؤية نوع من الخفض لأرباح الرساميل داخلاً في المشروع الأخير للقانون. تمثل اقتراح الرئيس باستئصال الضريبة الفردية على الحصص، ولكن بيل لم يكن يرى أن من شأن ذلك أن يمر مروراً سريعاً.

كان المجلس قد أقدم مُكْرهاً على خفض رقمه إلى 350 ملياراً من الدولارات وتوصّل إلى نوع من الصفقة التجريبية مع مجلس الشيوخ، إلا أن مشروع القانون كان أيضاً يتضمن مبالغ للإنفاق على مساعدات الدولة وصناديق اعتماد الطفل التي كان تشاك غراسلي يراها أسباباً تدعوه إلى تمرير قانون الكونغرس عبر مجلس الشيوخ. أدى ذلك إلى رفع سقف الرقم إلى 382 ملياراً من الدولارات، ما دفع الشيخ فوينوفيتش إلى الغضب، إذ رأى أن جوهر سقف الـ 350 ملياراً قد تعرض للانتهاك. أقنعته بالمجيء إلى مكتب لجنة الطرق والوسائل، وبعدما أطلقت عليه "الواشنطن بوست"، صواباً، اسم "لقاء متوتر"، كانت ثمة صفقة: تخفيضات ضريبية بمبلغ 320 ملياراً من الدولارات وعمليات اختزال

لرسوم أرباح الرساميل جنباً إلى جنب مع الرسم الفردي على الحصص إلى نسبة 15 بالمئة. أدى ذلك إلى ترك الباب مفتوحاً أمام الترضيات التي كان مجلس الشيوخ بحاجة إليها فآل الأمر كله من جديد إلى ما تحت سقف الـ 350 ملياراً من الدولارات.

انتقلت إلى مجلس الشيوخ للحصول على موافقة من الرئيس غراسلي وزعيم الأكثرية فريست والمساهمة في حل بعض التفاصيل في ذلك اليوم واليوم الذي تلاه. ومع حلول اللحظة التي جلست فيها على مقعدي رئيساً لمجلس الشيوخ في 23 أيار/مايو شعرت بأنني كنت قد أديت واجبي. وحين أدليت بصوتي المرجِّح لضمان مرور القانون، كنت واثقاً من أنني فعلت. في 28 أيار/مايو ذيّل الرئيس بوش مشروع قانون تسوية الخفض الضريبي الخاص بالوظائف والنمو لعام 2003 بتوقيعه فأصبح قانوناً.

تخفيضات حقبة بوش الضريبية ساهمت في النمو وخلق فرص العمل، وكنت سعيداً برؤيتها تُمدّد في كانون الأول/ديسمبر 2010 لعامين إضافيين. لو أقدمت إدارة أوباما على قلب المسار وترك المعدلات الضريبية ترتفع على نحو شامل، لكانت النتائج مدمرة.

خلال أسابيعي الأولى كنائب للرئيس تعين علي تأدية واجب آخر. في تشرين الأول/أكتوبر الماضي، ومع تباطؤ إيقاع الحملة، ظلت عائلتنا بمجملها طوال الوقت على الطرقات. بعد أحد الاجتماعات الليلية الحاشدة، تسلقت حفيدتي كيت ذات السنوات الست المقعد المجاور لمقعدي في طائرة الحملة. قالت: "إذا ربحت يا جدي هل ستأتي إلى المدرسة ولياً لأمري؟" سألتها: "شرط أن أكون رابحاً، أليس كذلك؟" ردت "نعم". تعين علي أن أعبّر عن إعجابي بصراحة الطفلة، فعقدنا صفقة، وذات صباح مثلج من شباط/فبراير كنت ولي أمر كيت. كان انطباعي أن جُلّ زميلات وزملاء كيت في الصف الأول كانوا أكثر اهتماماً بعناصر جهازي الأمني منهم بجَدِّ كيت الطاعن في السن، غير أنني لن أنسى أبداً تلك الابتسامة العريضة التي ارتسمت على وجهها حين ولجتُ باب غرفة الصف.

* * *

سرعان ما استقريت على روتين صباح مبكر لم يتعرض لأي تغيير ذي شأن خلال السنوات الثمانية في المنصب. نحو السادسة والنصف صباحاً كان المسؤول عن إطلاعي الموجز من وكالة الاستخبارات المركزية سيصل مصطحباً نسختي عن خلاصة إطلاع رئيس الجمهورية اليومية [PDP]، المتضمنة تقارير عن قضايا اليوم الاستخباراتية الأكثر حساسية. كنا نلتقي في المكتبة على الطابق الأرضي بمسكن نائب الرئيس، وفيما أكون عاكفاً على قراءة كتاب الإيجاز، كان الموجِز ينتظر، مستعداً للإجابة عن الأسئلة واستعادة الكتاب بعد انتهائي منه. كثيراً ما كان رئيس أركاني، سكوتر ليبي، ينضم إلي في هذه الجلسات. جل الأيام، بعد الحصول على نسختي الخاصة من الإيجاز الرئاسي اليومي وقراءتها، كنت أنضم إلى رئيس الجمهورية في إيجازه. إذا كنت مسافراً، أو في مكان سري، كان يتم، في أكثر الأحيان، إيجاز الرئيس في غرفة عمليات البيت الأبيض، مما كان يمكنني من الانضمام إلى الجلسة عبر التواصل الفيديوي الآمن.

خلال سنواتي نائباً للرئيس، حظيت بعدد من عناصر الإيجاز الممتازين جداً. حين كان يجري تعيين أحدهم، كنا نجلس معاً لاستعراض لائحة أمور كنت أهتمّ بمتابعتها. لذا فإن نسختي من الإيجاز الرئاسي اليومي سرعان ما توسعت إلى قسمين. كان القسم الأول صورة طبق الأصل لنسخة الرئيس. أما الثاني - وكنا نعطيه عنوان "فوق البيعة" - فكان يشتمل على أجوبة عن أسئلة كنت قد طرحتها أو موضوعات كان عناصر الإيجاز يعرفون اهتمامي بها. في بعض الصباحات كنت أسحب مادة أو أكثر من قسمي المعنون "فوق البيعة" وأبوح لعنصر الإيجاز بتقديري أن الرئيس بحاجة إلى الاطلاع عليها. في أوقات أخرى كنت أطرح أسئلة في الاجتماع مع الرئيس بالاستناد إلى بنود كنت قد رأيتها في "فوق البيعة". وأقله في إحدى المرات طلبت إعادة ترتيب المواد في مصنف الإيجاز اليومي الخاص بالرئيس حول أركان الأمن القومي سبق أن تقرر أن لا حاجة لأن يطلع عليها. من تجربتي، كانت الاستخبارات عنصراً استثنائي الأهمية بالنسبة إلى أولئك الذين هم في مواقع صنع القرار السياسي، وإذا رأى اختصاصيو الإيجاز ضرورة وجودها في الإيجاز الرئاسي اليومي، فإن من

الواجب أن تكون.

كنت قد أمضيت وقتاً مع قضايا استخباراتية خلال حياتي الوظيفية، بدءاً بفترة عملي رئيساً لأركان فورد، ثم حين كنت عضواً في لجنة الاستخبارات البرلمانية، ووزيراً للدفاع، بالطبع. أما حين أصبحت نائباً للرئيس، فقد كنت بعيداً عنها منذ ثماني سنوات، وشعرت بأهمية الارتقاء إلى مستوى السرعة المطلوبة. في الأيام الأولى من الانخراط في الإدارة، قمت بزيارة أقسام مختلفة من جملة الأجهزة الاستخباراتية مثل وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة استخبارات الدفاع، ووكالة الأمن القومي، ومكتب الاستطلاع الوطني. قدرت أن زيارة الناس في أمكنة عملهم تعبير عن الاحترام. وكنت أستطيع أن أراهم لفترات أطول عبر زيارة هذه الوكالة الاستخباراتية أو تلك شخصياً.

تمثل أحد التحديات التي واجهتنا مباشرة فور تَوَلّيّ المنصب بأزمة الطاقة في كاليفورنيا. كانت الولاية تعيش فترات تعتيم جزئي لافتقارها إلى أسباب توليد ما يكفي من الطاقة. على امتداد السنوات السابقة، كان اقتصاد كاليفورنيا قد نما بنسبة 34 بالمئة، ولم يكن قد تم إنشاء ولو محطة توليد طاقة واحدة. التشريعات البيئية المتشددة كانت تحبط أي إنشاءات جديدة بشكل استثنائي. كذلك، كانت الولاية قد عمدت، عبر سنوات، إلى فرض سقوف سعرية، ما أبقى شركات إنتاج السلع الاستهلاكية المتعرضة لزيادة ملحوظة في سعر الكهرباء عاجزة عن تحويل هذه الكلفة على المستهلكين.

صديقي القديم، آلان غرينسبان، الذي أصبح الآن رئيس الاحتياطي الفدرالي، كان قد دأب على تحذيرنا من أزمة كاليفورنيا الوشيكة منذ ما قبل التنصيب. والآن راح يفيد بأن من شأن نقص الطاقة في كاليفورنيا، التي تشكل 15 بالمئة من اقتصاد الولايات المتحدة أن يفضي إلى ركود وانكماش على النطاق الوطني العام. أصدرنا عدداً من الأوامر الطارئة القصيرة المدى التي ألزمت المرافق غير التابعة للدولة ببيع فوائضها إلى كاليفورنيا، غير أننا كنا أيضاً نعرف أننا بحاجة لمقاربة المشكلة الكبرى لسياسة الأمة الإجمالية فيما يخص الطاقة. ليس ثمة أي حلول بين عشية وضحاها. فنقص الطاقة كثيراً ما

يكون ابن سنوات، نتيجة حلول قصيرة النظر متركزة في الغالب على هذا البرنامج السياسي أو ذاك. كان لا بد لنا من تغيير ذلك.

في التاسع والعشرين من كانون الثاني/يناير 2001، أعلن الرئيس بوش عن تكليفي برئاسة فريق عمل لعلاج وضع الطاقة للأمة. وفي غضون ثلاثة أشهر ونيف - سرعة برق بالمعايير الحكومية - أطلقنا تقريراً بعنوان: "طاقة موثوقة، ورخيصة، وآمنة بيئياً لمستقبل أمريكا"، تضمن توصيات بـ "تحديث الحفاظ على الطاقة، وتحديث بنيتنا التحتية في مجال الطاقة، وزيادة مخزونات الطاقة، وتعجيل حماية بيئتنا وتحسينها، ومضاعفة أمن أمتنا في مجال الطاقة"[16]. إنه تقرير أفتخر به. أوصي به لكل من يتطلع إلى فهم تحديات أمريكا في مجال الطاقة حتى اليوم. كان للتقرير منتقدوه، إلا أنني طالما راودتني الشكوك بأنهم لم يقرؤوه. يقيناً يبدون غافلين عن الفصلين الثالث والرابع حول أهمية حماية البيئة وتحسين الصيانة.

أما جماعات أصدقاء البيئة الذين انتقدوا التقرير فهم في كثير جداً من الأحيان، وحسب خبرتي، ضد أي زيادة في إنتاج موارد تقليدية للطاقة. هم ضد التنقيب في جميع الأمكنة. لا يريدون استخراج الفحم من أي منجم. يبدون مؤمنين بأننا قادرون على الاعتماد على مصادر بديلة للطاقة، مثل الشمس أو الريح. برأيي - وهو رأي عكسه التقرير - لسنا، رغم وجوب المبادرة إلى تطوير مصادر بديلة، قادرين، آخر المطاف، على اجتراح معالجة ناجحة لمشكلاتنا الطاقية في المدى القريب، ولا على الاحتفاظ بقدرتنا التنافسية في الاقتصاد الكوكبي ما لم نسارع إلى إنتاج المزيد من الطاقة من منابع تقليدية، محلية.

في الوقت الراهن، ليس ثمة أي مصادر طاقة بديلة مؤهلة للتنافس اقتصادياً مع البترول والفحم وموارد تقليدية أخرى. صحيح أيضاً أننا اكتشفنا غير مرة أن تطوير موارد بديلة ينطوي أيضاً على عواقب بغيضة، غير متوقعة. فالدفع باتجاه استخراج الإثانول (الكحول الاثيلي) من الذرة، مثلاً، ما لبث أن تمخّض عن إحداث زيادة كبيرة في سعر هذه المادة (الذرة). وقد كان للأمر تأثير هائل على أولئك المعتادين على استخدام الذرة لأغراض غير الوقود - أغراض لم تكن مدعومة. مربو المواشي، مثلاً، وجدوا أنفسهم فجأة في مواجهة

أسعار مرتفعة ارتفاعاً ملحوظاً للأعلاف. كذلك رأينا عمليات الزحرجة (إزالة الأحراج) في أماكن مثل ماليزيا حيث يقوم المزارعون بقطع الأشجار لزراعة محاصيل مرشحة لأن تباع بأسعار أعلى في أثناء جنون ألوان الوقود الحيوي[17].

أولئك الذين يقفون في وجه إنتاج المزيد من الطاقة هنا في الوطن يشيرون أحياناً إلى الصيانة بوصفها بديلاً. صحيح أن الصيانة مهمة، كما بين التقرير، ولكنها ليست، بأي حال، كافية لمقاربة تحدياتنا الطاقية. وفي خطاب بتورنتو في نيسان/أبريل 2001 طرحتُ النقطة التالية.

> *من المؤكد الآن أن الصيانة جانب مهم من جوانب الجهد الكلي. إلا أن الحديث، حصراً، عن الصيانة، إن هو إلا تملص وهروب من قضايا صعبة. من شأن الصيانة أن تكون دليل فضيلة شخصية، غير أنها ليست قاعدة كافية وحدها لخُطَّة طاقية صحيحة، شاملة. لا بد لنا أيضاً من إنتاج المزيد.*

سارع المنتقدون إلى الانقضاض على هذا التصريح، ودون القيام باقتباس كل الكلام الذي قلته في أي من الأوقات، راحوا يتهمونني بإغفال أهمية الصيانة. وحين أنظر إلى التصريح، بعد انقضاء عشرة أعوام، أجدني مؤيداً لما جاء فيه مئة بالمئة.

وعلى الرغم من أن جميع أعضاء فريقنا، فريق عمل الطاقة، كانوا من موظفي الحكومة، فإننا التمسنا المشورة من آلاف الجهات من خارج الدوائر الرسمية، وبعد صدور التقرير بوقت غير طويل تقدمت أطراف عديدة، بما فيها السييرا كلوب (Sierra Club) والجوديشال ووتش (Judicial Watch)، بشكوى مطالبة إيانا بنشر قوائم بأسماء جميع أولئك الذين التقيناهم في أثناء عملنا. كذلك بدأ الديمقراطي هنري واكسمان، العضو المرموق في لجنة الإشراف وإصلاح الإدارة يطالب بالقوائم. ثم تورط مكتب المحاسبة العامة وطلب القوائم. رفضنا الاستجابة، لا لأننا أردنا إخفاء أي شيء. فكل توصية صادرة عنا كانت في متناول الأيدي، مثلها مثل النص التشريعي الذي طرحناه بالاستناد إلى التقرير. إلا أنني كنت مؤمناً، وقد دعمني الرئيس، بامتلاكنا الحق في التشاور مع

من يحلو لنا ـ ولسنا ملزمين بإطلاع الإعلام أو الكونغرس أو أي شخص آخر على هوية من كنا نتحدث معهم. إذا كان يتعين على أولئك الذين يأتون إلى البيت الأبيض لتقديم المشورة أو النصح أن يخافوا إقامة دعاوى حقوقية أو الاستدعاء من قبل لجان برلمانية، فإن من شأن ذلك أن يؤدي إلى إنزال ضربة موجعة بالمشورة التي يمكن لأي رئيس أو نائب رئيس أن يحصل عليها.

كان ثمة عدد كبير من الناس، بمن فيهم أشخاص في البيت الأبيض، رأوا أن علينا أن نكشف عن القوائم ببساطة. ونظراً لعدم وجود أي أسرار خطيرة كامنة فيها، كما زعم الزاعمون، لم يكن كل ما فعلناه إلا نوعاً من التسبب بوجع رأس سياسي فعلي لأنفسنا عبر رفض الإفصاح عن الأسماء. إلا أنني كنت أعتقد بأن شيئاً أكبر كان موضوع رهان: سلطة الرئاسة وقدرة كل من الرئيس ونائب الرئيس على أداء وظائفهما الدستورية.

كسبنا المعركة في آخر المطاف ـ على الهيل حين تخلى مكتب المحاسبة العامة (GAO) عن محاولاته الرامية إلى الحصول على الأسماء وفي المحكمة العليا الأمريكية حين حكم القضاة بأكثرية 7 مقابل 2 لصالحنا، مطالبين بإعادة القضية إلى محكمة المقاطعة. كان ذلك انتصاراً بالنسبة إلينا كما بالنسبة إلى نفوذ الفرع التنفيذي. للرئيس بوش فضل كبير لوقوفه معي حين كان كثيرون راغبين في أن نختار المخرج الميسر. أما فيما يخص تقرير الطاقة بالذات، فإن خصومنا ظلوا مستمرين في قطع الطريق على أي مقاربة أشمل لتحديات الأمة الطاقية، على الرغم من أن عدداً من التوصيات الواردة فيه قد تم اعتمادها لاحقاً إما عبر التشريع أو من خلال أوامر تنفيذية.

في أوائل أيار/مايو، قبل قيامنا بإماطة اللثام عن سياستنا الوطنية في مجال الطاقة ببضعة أسابيع، أعلن الرئيس بوش مبادرة أخرى كان قد طلب مني تولي متابعتها. كانت متعلقة بردودنا على احتمال استخدام أسلحة دمار شامل ـ كيماوية، أو بيولوجية، أو نووية ـ في هجوم يشن على وطننا. ومع العمل لحرمان أعدائنا من مثل تلك الأسلحة، كان لا بد لنا في الوقت نفسه من أن نبقى جاهزين، كما قال الرئيس "للدفاع عن أنفسنا ضد أي أذى يمكنهم أن يلحقوه بنا".

لبعض الوقت ظلت مشكلة انتشار أسلحة الدمار الشامل واحتمال نجاح إرهابيين في حيازة مثل تلك الأسلحة المدمرة هاجساً استثنائياً بالنسبة إليّ. ودليل التخطيط الدفاعي الذي أصدرته حين كنت وزيراً للدفاع في 1992 أدرج الحاجة إلى الحؤول دون مثل هذا الانتشار في خانة الأهداف الرئيسية للولايات المتحدة. وفي نيسان/أبريل 2001، حين سألني نيك ليمان من مجلة "النيويوركر" عن طبيعة الخطر الذي يتهدد الولايات المتحدة، قلت:

اعتقد أن علينا أن نكون أكثر حرصاً مما سبق لنا أن كنا في أي وقت مضى بشأن ما يعرف باسم الدفاع عن الوطن، بشأن هشاشة نظامنا في وجه جملة أنواع مختلفة من الهجمات. بعضها داخلي المنشأ، مثل حادثة أوكلاهوما سيتي. وبعضها الآخر بإيحاء إرهابيين من خارج الولايات المتحدة ـ تفجير برجي التجارة العالمية في نيويورك. ثمة مع الزمن احتمال حصول هجوم على الولايات المتحدة ذات يوم بأسلحة دمار شامل ـ جراثيم أو غازات، (أسلحة بيولوجية) أو عناصر كيماوية، بل وربما أسلحة نووية.

سألني ليمان بعد ذلك عما باستطاعتنا أن نفعل لاختزال تلك التهديدات. أجبته: "لا بد من امتلاك قدرات استخباراتية قوية جداً لاكتشاف التهديدات التي تواجهها الولايات المتحدة، والنجاح المأمول في إحباطها قبل توفر إمكانية إطلاقها". ثم أضفت: "تبقى الاستخبارات خطوط دفاعنا الأولى"(18).

عندما جئنا إلى السلطة كانت هناك كثرة من الأجهزة الفدرالية المكلفة بالتعامل مع عواقب أي هجوم ضد الولايات المتحدة بأسلحة دمار شامل. طلب الرئيس أن أتولى أنا عملية الإشراف على محاولة هادفة إلى دراسة النظام القائم جنباً إلى جنب مع توصيات صادرة عن عدد من فرق العمل التي كان قد سبق لها أن عاينت المسألة، وصولاً إلى اقتراح طرق من شأنها أن تمكننا من تحسين نوعية ردودنا.

أعضاء من جهازي، بمن فيهم سكوتر ليبي، والأميرال المتقاعد ستيف آبوت، وكارول كونتز، سبق لهم أن كانوا في جهاز العاملين معي في البنتاغون، باشروا مراجعة جملة دراسات كانت قد أُنجزت حول هذا الموضوع. وفي غضون شهرين، قدموا لي تقريراً يوصي بعدد من الخطوات الأساسية التي نستطيع أن

نخطوها لتحسين جاهزية الولايات المتحدة ونوعية ردها على أي هجوم بأسلحة الدمار الشامل. اشتملت اللائحة على اجتراح استراتيجية قومية للجاهزية ونوعية الرد ووضعها موضع التطبيق؛ وتحسين الإنذار الاستخباراتي حول أي هجوم بأسلحة الدمار الشامل؛ وتوضيح خطوط المرجعية الفدرالية على صعيد مكافحة الإرهاب والرد الطارئ بين وكالة إدارة الطوارئ الاتحادية وفرض القانون؛ وتوحيد جملة أجهزة الرد المحلية، والولايتية، والاتحادية؛ وتحسين تحري إرهاب الأسلحة البيولوجية وقدرة جهاز الصحة العامة على التصدي لمثل هذا الهجوم. وكان عمل جهازي في هذه القضايا يصب مباشرة في الجهود التي كنا نضطلع بها في أعقاب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، مثل استحداث وزارة للأمن الوطني لتنسيق مجمل أشكال الدفاع عن الوطن ذوداً عن الأمة.

منذ أيامي في الكونغرس حيث كنت مشاركاً في تمارين استمرارية الحكم، كنت واقفاً على مدى أهمية ضمان امتلاك خطة جاهزة لتعاقب القيادة وبقائها. كان من واجبنا أن نضمن عدم تمكين أي هجوم عدواني من قطع رأس حكومتنا. طلبت من مستشاري العام، ديفيد آدنغتون، أن يراجع الإجراءات الرسمية النافذة. ما الذي يجري، مثلاً، إذا مرض الرئيس أو بات فاقداً للأهلية؟ من الذي يجب إخطاره، وما الخطوات التي يجب اتخاذها لضمان بقاء الحكومة قادرة على مواصلة العمل غداة أي كارثة وطنية أو فعل حربي؟ ثمة أمور تعاونا، آدنغتون وأنا، على دراستها من قبل، وكنا، كلينا، مدركين لوجوب معالجتها قبل أن تكون أية أزمة ماثلة. في وقت مبكر من عام 2001، طلبت منه أن يتعاون تعاوناً وثيقاً مع مكتب مستشار البيت الأبيض لتوفير النصح والإرشاد مع مبادرة إدارتنا إلى إطلاق دراستها الخاصة.

وبعد بضعة أيام جاءني ديفيد مصطحباً مشكلة كان قد كشفها. جلس على كرسي قبالة طاولتي في مكتبي بالجناح الغربي، وقال: "سيادة نائب الرئيس، إذا أُصبتَ بعاهة شلّتْك، إذا أصبحتَ عاجزاً عن أداء واجباتك، ليس ثمة أي آلية يمكن اعتمادها لإزاحتك". وكان هناك مستوى ثانياً من التعقيد، كما بيّن، ذا علاقة بالتعديل الخامس والعشرين لدستور الولايات المتحدة. يقول نص التعديل: "ما إن

يبادر نائب الرئيس وأكثرية من كبار رسميي الوزارات التنفيذية أو من هيئة أخرى مثل الكونغرس إلى موافاة الرئيس المؤقت، حسب القانون، لمجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب ببيانهم الخطي المتضمن أن الرئيس عاجز عن ممارسة صلاحياته وأداء واجبات منصبه، حتى تناط بنائب الرئيس سلطات وواجبات المنصب بوصفه رئيساً مؤقتاً"(*). وأي نائب رئيس مطالب، من أجل تنفيذ التعديل الخامس والعشرين، بعبارة أخرى، إذا صرتُ عاجزاً، قد أقف في طريق إزاحة رئيس عاجز عن أداء واجباته - أو قد أصبح أنا رئيساً مؤقتاً عاجزاً. وأي من هذين الاحتمالين لم يكن خيراً بالنسبة إلى البلد.

فيما كنا، ديفيد وأنا، عاكفين على مناقشة الخلافة، كنت متنبهاً إلى صحتي. فإن لي تاريخاً طويلاً مع مرض الشريان التاجي، وعلى الرغم من أن الأطباء كانوا قد توصلوا إلى استنتاج يؤكد توفري على ما يكفي من القوة للاضطلاع بوظيفة نائب رئيس، لم أكن قادراً على أن أُسقط من الحساب احتمال أزمة أو سكتة قلبية خطيرة أخرى من شأنها أن تبقيني عاجزاً عن أداء الوظيفة. خطر مثال وودرو ولسن بالبال. كان قد تعرض لجلطة شلته خلال فترة السنة والنصف من رئاسته.

لم يكن المطلوب إلا طريقة لإزاحتي إذا ما صرت عاجزاً عن أداء واجبي، فأقدمت على الخطوة غير العادية المتمثلة بكتابة رسالة استقالة بوصفي نائباً للرئيس بعيد أدائي للقسم. وكان من شأن رسالة الاستقالة هذه أن تصبح نافذة، كما نص القانون الاتحادي، بعد إيصالها إلى وزير الخارجية. وأنا أوقع الرسالة، فكرت بإضافة توجيهات ذات علاقة بتوقيت تسليمها. كانت هذه، في آخر المطاف، استقالتي الموقعة، وبدا من الطبيعي أن أتولى تحديد الظروف التي في ظلها يمكن تقديمها. نصح آدنغتون بالعكس. توجس من أن تؤدي أي إضافات على الرسالة إلى تعكير المياه إذا ما تطلب الموقف استخدامها.

(*) نص الفقرة الواردة في التعديل الخامس والعشرين: ... عندما يبلّغ الرئيس رئيس مجلس الشيوخ المؤقت ورئيس مجلس النواب تصريحه الخطي بعدم وجود حالة عجز لديه، يستأنف القيام بسلطات ومهام منصبه ما لم يبلغ نائب الرئيس وغالبية الموظفين الرئيسيين في الوزارات التنفيذية أو أعضاء هيئة أخرى يحددها الكونغرس بقانون. عند ذلك يبتّ الكونغرس... أن الرئيس عاجز عن القيام بسلطان ومهام منصبه، ويستمر نائب الرئيس في تولي هذه السلطات والواجبات كرئيس بالوكالة....

بدلاً من ذلك، أخرجت ورقة من قرطاسيتي الرسمية مروّسة بعبارة "نائب رئيس الجمهورية" المطبوعة. دونت التاريخ ـ 28 آذار/مارس، 2001 ـ ثم كتبت ما يلي:

أنت، يا ديف آدنغتون، مكلف بتقديم الوثيقة المرفقة إلى رئيس الجمهورية جورج دبليو بوش إذا ما دعت الحاجة في أي وقت من الأوقات.

ـ ريتشارد تشيني

قلت: موافق، يا ديفيد؟!" وأنا أنظر إليه من فوق نظاراتي، مضيفاً: "لن أورد أي توجيهات محددة عن موعد وجوب إرسال هذه الرسالة". أشرت إليه، مستمراً في حمل القلم الذي كنت استخدمته لتوقيع الرسالة وقلت: "غير أن عليك أن تفهم شيئاً. هذا ليس قراراً يعود اتخاذه إليك. وهو ليس قراراً تتخذه لين. فالشيء الوحيد المطلوب منك فعله، إذا ما أُصبت بالعجز، هو إخراج هذه الرسالة من مكانها وتقديمها إلى الرئيس. وما إذا كان سيسلمها إلى وزير الخارجية إن هو إلا قراره هو، وحده هو دون سواه". رد ديفيد: "نعم، سيادة نائب الرئيس".

لم أكن أريد وضعاً تحاول فيه عائلتي أو باقة أركاني أن تقف في الطريق، إذا أصبحتُ عاجزاً وتمت المبادرة إلى إزاحتي من منصبي. الشخص الوحيد الذي كان يحق له أن يتخذ ذلك القرار هو رئيس جمهورية الولايات المتحدة. وكان هو الشخص الوحيد، عدا آدنغتون، الذي بحثت معه أمر الرسالة. رأيت أن من المهم أن يكون واقفاً على الأمر.

قام آدنغتون بطي الرسالة ووضعها في مغلفَيْ مانيلا من المغلفات الرسمية العائدة لحكومة الولايات المتحدة، أخذها إلى البيت، ووضعها في درج خزانته. كان قد اتخذ قراراً واعياً قضى بعدم حفظها في خزنته في العمل لأنه لم يرد أن يجد نفسه عاجزاً عن الحصول عليها في حال وقوع الأسوأ وصار البيت الأبيض مأزوماً. وحين داهم حريق بيته بعد بضع سنوات، لم ينقضّ ديفيد بعد إنقاذ عائلته إلا على شيئين: الملف الحاوي لوثائق العائلة وشهادات ولادة أفرادها والمغلف المتضمن رسالة استقالتي.

* * *

لعل أحد أكثر القرارات التي يتخذها أي رئيس جمهورية دواماً ورسوخاً هو اختيار مرشح لعضوية المحكمة العليا. فقضاة المحكمة العليا، المعينون مدى الحياة، يمكنهم أن يؤثروا في الحياة الأمريكية بعد خروج الرئيس الذي رشحهم من منصبه حقبة طويلة من الزمن. والمرة الوحيدة التي لاحظت فيها أي ترشيح لعضوية المحكمة العليا عن كثب ومن فوق كانت حين اختار الرئيس جيرالد فورد جون بول ستيفنز، الذي دامت عضويته مدة خمس وثلاثين سنة. إنه شخص رائع وقاض متمتع بقدر كبير من الاحترام، ولكن سِجِلّه في المحكمة بقي ليبرالياً متماسكاً باطراد. الشيء نفسه كان صحيحاً بالنسبة إلى القاضي ديفيد ساوتر، الذي عينه جورج أتش دبليو بوش. إنه رجل أحترمه، غير أنه بقي صوتاً قابل التنبؤ بليبراليته في المحكمة.

عند تولينا للسلطة لم نكن نعرف ما إذا كان سيحصل شغور في المحكمة العليا خلال فترتنا، إلا أن الرئيس بوش أراد أن يكون جاهزاً. أراد الشروع في عملية لاستعراض مرشحين محتملين، وبادرت إلى جمع فريق ضم كلاً من النائب العام جون آشكروفت؛ ومستشار البيت الأبيض آلبرتو غونزاليس؛ ورئيس جهاز العاملين (الأركان) آندي كارد؛ ورئيس جهاز العاملين عندي سكوتر ليبي؛ ومستشار رئيس الجمهورية كارل روف. وحين تولى غونزاليس منصب النائب العام، التحقت هارييت ميرز بركب الفريق بوصفها مستشارة البيت الأبيض. اضطلع غونزاليس وميرز بالدور القيادي في إعداد ملفات إيجاز كبيرة مشتملة على معلومات عن مرشحين محتملين تتضمن خبراتهم، وسجلاتهم، وأساليب حكمهم على قضايا مهمة، كما على صورهم في أذهان زملائهم القضاة. نشرنا شبكتنا على نطاق أوسع، بما مكنها من الإحاطة بكثيرين بدءاً بقضاة محاكم الاستئناف، مروراً بعد ذلك ببعض قضاة محاكم المقاطعات والأقاليم، وصولاً إلى عدد قليل من قضاة المحاكم الرسمية وبعض المحامين الذين لم يكن قد سبق لهم أن خدموا في سلك القضاء من قبل، إلا أن تركيزنا بقي موجهاً، يقيناً، نحو قضاة المحاكم الاستئنافية. ثمة عوامل أخرى أُخذت أيضاً في الحسبان، مثل عامل السن. كان من الأفضل، في حال التناظر في جميع الأمور الأخرى، اختيار من يكون في الخمسينيات بدلاً ممن في السيتينيات من العمر، لأن من شأن المرشح الأصغر، ببساطة، أن يخدم المحكمة فترة زمنية أطول.

حين أقدمت القاضية ساندرا داي أوكونور على التقاعد في الأول من تموز/يوليو 2005، استطعنا أن نتحرك بسرعة لاستدعاء بعض أبرز المرشحين الذين كنا قد درسنا أحوالهم من أجل إجراء المقابلات معهم. وعقدنا جلسات المقابلة هذه في مسكن نائب الرئيس وفي جناح الضباط بمطعم البيت الأبيض. قمنا بتغطية طيف واسع من الموضوعات مع كل مرشح، محاولين معرفة أكبر قدر ممكن من المعلومات لنتمكن من الوصول إلى تكوين فكرة جيدة عن نوعية القاضي الذي كنا سنحصل عليه. كانت السير مهمة لاعتقادنا بأنها كانت الدلائل الأفضل على الكيفية التي سيحكم بها أي قاضٍ في المستقبل.

وبعد إجراء المقابلة مع المرشحين، رفع فريقنا توصياته إلى رئيس الجمهورية، الذي أجرى مقابلات مع أوائل المتنافسين. العمل التمهيدي الذي كنا قد قمنا به مكّن الرئيس من تسمية القاضي جون روبرتس من محكمة استئناف الولايات المتحدة لدائرة العاصمة في أقل من ثلاثة أسابيع بعد إعلان تقاعد القاضية أوكونور.

فيما كانت تسمية روبرتس تأخذ طريقها عبر مجلس الشيوخ، توفي رئيس المحكمة العليا رنكويست، الذي كان يتصارع مع السرطان برباطة جأش. قرر رئيس الجمهورية سحب ترشيح روبرتس وإعادة ترشيحه لمنصب رئيس المحكمة العليا. وعندئذ بات الرئيس بحاجة إلى تسمية شخص آخر يملأ مقعد أوكونور.

كان التنوع في التعيينات، على صعيدي الجنس (نسبة النساء إلى الرجال) والأقليات، موضوعاً ذا أهمية كبيرة بالنسبة إلى جورج بوش. لم يكن ذلك مجرد كلام. فقد رأيت في مناسبات كثيرة كيف كان يطلب من فريق دائرة شؤون موظفي البيت الأبيض ترشيح أفراد يعكسون تنوع الأمة، وكان يعني ما يقوله. وحين وصل الأمر إلى ملء المنصب الثاني الشاغر في المحكمة العليا، فإن واقع كونه مقبلاً على استبدال المرأة الأولى التي كانت عضواً في المحكمة ساهم في التزامه بالاهتداء إلى مرشحة مؤهلة. قرر أن المرشحة الفضلى كانت امرأة يعرفها معرفة جيدة: مستشارته في البيت الأبيض، هارييت ميرز.

بنظري تحظى ميرز بقدر كبير من الإعجاب والاحترام. فهي محامية

ممتازة خدمت الرئيس بنجاح كسكرتيرة أركان ومستشارة البيت الأبيض. هي موهوبة، ومنظمة، وكفؤة، وجدية. إنها واقعية تماماً، صفة لا تحظى أحياناً بالاستساغة في واشنطن؛ إن العمل معها متعة حقيقية. إلا أنها لم تكن على لائحة المرشحين التي أنتجها فريقنا لموقع المحكمة العليا.

في أواخر أيلول/سبتمبر 2005، سحبني الرئيس جانباً في المكتب البيضوي لإطلاعي على قراره بشأن المرشحة الثانية. قال: "قد لا توافق على هذا يا ديك! إلا أنني قررت السير قدماً مع تسمية هارييت". أجبته: "حسناً، سيادة الرئيس! سيكون الترويج لها صعباً". غير أن القرار كان قراره هو، وانطلقتُ محاولاً ترويجها.

كانت لميرز مشكلة مع الليبراليين، مثلها مثل أي مرشح يطرحه الرئيس، غير أنها لم تحظ أيضاً بترحيب المحافظين لأن الأخيرين كانوا يشعرون، خطأً، أن على الرئيس أن يعين قاضياً ذا سجل مضمون على صعيد المحافظة القضائية. بصرف النظر عما بذلناه نحن في البيت الأبيض من جهد لإثبات أن هارييت كانت محافظة، بقينا عاجزين عن إقناع عدد ممن هم في صفنا.

فيما بعد عبّر الرئيس عن أسفه لإقحام صديقته في مثل هذه الفرامة. أدركت ميرز أن هذه لم تكن معركة نستطيع كسبها فطلبت سحب اسمها. وبعد بضعة أيام في 31 تشرين الأول/أكتوبر 2005، أقدم الرئيس بوش على تسمية القاضي صمويل آليتو لعضوية المحكمة العليا. وقد تم تثبيته في شهر كانون الثاني/يناير 2006.

يعود للرئيس بوش الفضل الحقيقي إن على صعيد نوعية العملية التي اجترحها لغربلة المرشحين وطينة الشخصين اللذين سماهما لعضوية المحكمة العليا - القاضيين جون روبرتس وصمويل آليتو. متذكراً أعوامي الأربعين هناك في واشنطن، من الإنصاف القول إن هذا كان النهج الأمثل لانتقاء مرشحي محكمة عليا سبق لي أن رأيته.

معاهدة الصواريخ البالستية المضادة، الموقعة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في 1972، وضعت حدوداً لعمليات بحث ونشر الدفاعات الصاروخية.

كانت المعاهدة مرجحة لكفة السوفييت. لم يكونوا قوة عظمى إلا بالإفادة من قدرتهم الهجومية، ومعاهدة الصواريخ البالستية المضادة، كانت تحول دون ذلك النوع من التطوير الدفاعي المؤهل لتحييد ذلك التفوق. سبق لنا أن كنا مستعدين لتوقيع تلك المعاهدة لأنها عُدت "عامل استقرار" في عالم الرقابة على التسلح العجيب أحياناً. لم يكن مسمار عجلة رقابة الحرب الباردة على التسلح إلا تدميراً متبادلاً مؤكداً، بمعنى امتناع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي عن إطلاق الضربة الأولى ليقين كل من الطرفين أنه كان سيتلقى ضربة جوابية مدمرة إن فعل. أي قدرة دفاعية كانت تؤدي إلى قلب فكرة التدمير المتبادل المؤكد، رأساً على عقب. كان لا بد للفريقين كليهما من أن يكونا في حالة من الهشاشة لتكون الفكرة فاعلة.

وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة، وجدت أمريكا نفسها في مواجهة تهديدات جديدة. عدد الدول المتوفرة على تكنولوجيا الصواريخ البالستية كان متنامياً، وبينها كانت أنظمة مارقة مستعدة لنقل وربما استخدام قدراتها. تعين علينا أن نكون قادرين على بناء منظومات مؤهلة لاعتراض أي صواريخ آتية إذا أردنا الحفاظ على أمن الوطن، غير أن معاهدة الصواريخ البالستية المضادة، لم تكن لتسمح لنا بذلك.

منذ وقت طويل كنت من الداعين إلى إلغاء هذه المعاهدة، وكان يحق لنا أن نفعل، إلا أنه صار واضحاً خلال الأشهر الأولى من إدارة بوش أن لوزارة الخارجية وجهة نظر أخرى. كان ثمة تخوف من أن يفضي الانسحاب من المعاهدة إلى تشكيل ضغط غير ضروري على علاقتنا مع روسيا، الأمر الذي جعل الوزير باول يجادل داعياً إلى عدم الوصول إلى الإلغاء والتفاوض حول إيجاد ثغرات في المعاهدة تمكننا من تطوير دفاعات صاروخية. كانت وزارة الخارجية متخلفة، بنظري. بدلاً من المساومة على سياسات وخطط في صف مصلحتنا القومية من منطلق التوجس إزاء احتمال إثارة غضب أمم أخرى، كان يتعين علينا أن نقوم بما يخدم أمننا على أفضل نحو، مع الاستمرار في بذل المحاولات الدبلوماسية الرامية إلى اجتذاب حلفائنا وشركائنا إلى صفنا.

خلال الحملة، كان الرئيس بوش قد وعد بتطوير الدفاعات ضد الصواريخ

ونشرها، وبقي وفياً لوعده. وبعد مشاورات مطولة شملت الروس وحلفاءنا الأوروبيين، اتصل مع فلاديمير بوتن في كانون الأول/ديسمبر 2001 لإبلاغه رسمياً عزمنا على الإلغاء بعد ستة أشهر. تبين أن جميع التحذيرات المرعبة حول احتمال رد الفعل الروسي السلبي كانت خاطئة. وافق بوتن على قرار الرئيس وطمأنه إلى أن أي رد فعل سلبي في روسيا سيبقى قابلاً للتحكم.

كان اللقاء الأول بين الرئيس بوش وبوتن في حزيران/يونيو 2001 خلال المناقشات الجارية حول معاهدة الصواريخ البالستية المضادة. بعد هذا اللقاء راح الرئيس بوش يكيل المديح لبوتن ويتحدث عن النظر إلى عينيه "والإحساس بروحه". تعرض الرئيس للانتقاد على ملاحظته، إلا أنني أظن أنها كانت تعكس الآمال المعقودة آنذاك على احتمال كون بوتن قائداً روسياً من نوعية مختلفة، كان سيضع أمته على طريق قدر أكبر من الحرية. يجب أن أقول لم أكن قط كثير التفاؤل بشأن بوتن. فحين نظرت إلى عينيه لم أر إلا عيني أحد عناصر الاستخبارات السوفييتية، الكي جي بي. لم أثق به ولا أزال، بيد أن من المعروف أنني لست ميالاً إلى الثقة بالقادة السوفييت.

قرار الرئيس بوش القاضي بإلغاء المعاهدة كان بالتحديد هو الشيء الصحيح الواجب فعله[19]. فنحن اليوم في مواجهة كوريا شمالية مسلحة نووياً عاكفة على إجراء التجارب لإنتاج صواريخ بالستية عابرة للقارات، وفي مواجهة إيران جاهدة لحيازة أسلحة نووية، وفي مواجهة صين مصرة على مضاعفة قدراتها. يعود الفضل إلى جورج دبليو بوش ـ كما إلى القيادة الممتازة لوزير الدفاع دون رامسفيلد ـ في أننا طورنا ونشرنا عدداً من منظومات اعتراض الصواريخ. ذلك هو السبب الكامن وراء كوننا أكثر أمناً.

فيما كنت مشغولاً بالتآلف مع نيابة الرئاسة، كنا، لين وأنا، مشغولين بالتآلف مع المسكن الذي كان سيصبح بيتنا لحقبة السنوات الثماني الآتية، مقر إقامة نائب الرئيس في مرصد الولايات المتحدة البحري. في الطقس الدافئ كانت حفيداتنا مولعات بالسباحة في البركة، وبقيادة سياراتهن العاملة على البطاريات في الممرات، وبالتجول في الفناء، متوقفات بين الحين والآخر للكلام مع عناصر

فرقة الجهاز السري نوي البدلات الرسمية في المحارس. وعند هطول الثلج كانت ثمة جملة من تلال التزلج. في جل العطل الأسبوعية، إذا بقينا في المدينة، كانت الحفيدات يبادرن إلى نشر أكياس نومهن على أرض غرفتنا ويغططن في النوم. كنا أيضاً نتقاسم بيتنا مع ثلاثة كلاب من نوع لابرادور: ديفي الذي مات ودُفن هناك في ظل شجرة سنديان جميلة؛ وجاكسون الذي جاء ليعيش معنا بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر؛ ونلسن الذي كان أميل إلى نوع من أنواع هدية عيد أمٍّ ضالة بالنسبة إلى لين، ولكنه سرعان ما احتل مكانة خاصة في قلوبنا جميعاً.

منزل نائب الرئيس كان مكاناً عظيماً لاستقبال الضيوف، وقد أحيينا عدداً كبيراً من المناسبات على امتداد الأعوام الثمانية. تناولنا العشاء مع بعض كبار خبراء العالم في شؤون الشرق الأوسط، مثل فؤاد عجمي وبيرنارد لويس؛ وأقمنا الحفلات تكريماً لمؤلفين ذائعي الصيت مثل ناثانييل فيلبريك، وجاي وينيك، وإدموند موريس، وديفيد ماكلو؛ وأحيينا سهرات مع مفكرين ومحللين عظماء مثل تشارلز كرواثهامر وفكتور ديفيس هانسون. وكانت لنا سهرة بالغة الخصوصية في حزيران/يونيو 2001 حين احتفلنا بالرئيس فورد وبتي. كان نائب الرئيس الأول الذي كان سيعيش في البيت إلا أنه صار رئيساً للجمهورية قبل أن تتمكن العائلة من الانتقال.

إحدى أوفر لحظاتي فخراً في مقر إقامة نائب الرئيس كانت 30 كانون الثاني/يناير، 2008، حين تمكنت من مباغته لين بحفلة إحياء للذكرى السنوية الخمسين لأول مواعيدنا الغرامية. تذكرت التاريخ، وإن كان سهل التذكر لأنه كان يوم ميلادي السابع عشر الذي خرجنا فيه معاً للمرة الأولى. بمساعدة سيسه رئيسة جهاز العاملين مع لين؛ وليز دني هانيله السكرتيرة الاجتماعية في منزل نائب الرئيس؛ ومولي أون سوبر مساعدة لين الخاصة؛ وآخرين كثر، استطعت تسريب العشرات من أصدقائنا في المرحلة الثانوية، إضافة إلى المطربة روني ميلساب، التي قدمت تسلية السهرة، إلى داخل المرصد دون أن تنتبه لين إلى شيء، أي شيء. كانت تلك حفلة استثنائية بالفعل.

حياتنا في المرصد كانت ممتعة وعلى هذه الدرجة من الفرح لأن شعبة

أركان البحرية الأمريكية كانت قد فرزت مساعدين للعمل هناك في المقام الأول. فهؤلاء الرجال والنساء الرائعين قمم حقيقية في الاحتراف. كثيرون منهم صاروا أشبه بأفراد من العائلة بالنسبة إلينا، وسنبقى ممتنين إزاء كل ما فعلوه.

الشعور نفسه كان يراودنا، لين وأنا، بالنسبة إلى عناصر الجهاز السري الذين تولوا حمايتنا وأفراد أسرتنا على امتداد ما يزيد عن ثماني سنوات. مسؤولياتهم وساعات مناوبتهم تضاعفت دراماتيكياً بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. عاشوا أياماً بالغة التوتر معنا، وأدوا مهمة شديدة الأهمية بتوفير الأمن، وبقوا في الوقت نفسه قادرين على التحلي باللطف والمزاج المرح.

بالغ الامتنان لهم أنا على امتلاكهم للحصافة الكافية من أجل تفهم مدى أهمية صيد السمك بالنسبة إلي إذ اختاروا كلمة "صياد" اسماً سرياً لي لدى الجهاز السري. وكانوا أيضاً موفقين حين أطلقوا على لين اللقب العظيم "مؤلف"، الذي ارتقت، يقيناً إلى مستواه. ففيما كنت أنا نائباً للرئيس، ألفت هي ستة من الكتب الأكثر رواجاً في تاريخ أمريكا للأطفال وأسرهم وتبرعت بأكثر من مليون دولار لأعمال الخير من ريعها.

على الرغم من انتخابنا في أحد أكثر الانتخابات ضيقَ هامشِ فوزٍ في تاريخ أمريكا، فقد كانت لنا، جورج بوش وأنا، إنجازات تشريعية كبرى في تلك الأشهر الأولى من تولينا للمنصبين. برنامج الرئيس التعليمي بات نافذاً، وخفضنا الضرائب والرسوم، واقترحنا خطة من أجل الطاقة للأمة. كذلك تعاملنا مع جملة من القضايا المهمة في السياسة الخارجية مع كل من الصين، وروسيا، وجهات أخرى في طول كوكب الأرض وعرضه. كانت لنا إنجازات كثيرة، بيد أن الامتحان الكبير لإدارتنا لم يكن قد حل بعد. ستبقى فترتنا في السلطة مطبوعة إلى حد بعيد بطابع هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر غير المسبوقة.

الفصل الحادي عشر

أمة في حالة حرب

ليلة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، أجلى الجهاز السري كلينا، لين وأنا، إلى كامب ديفيد، المكان الآمن بعيداً عن رئيس الجمهورية، تحسباً لوقوع هجمات أخرى. في صباح الأربعاء الواقع في 12 أيلول/سبتمبر، عدنا جواً إلى واشنطن، التي باتت عاصمة في حالة حرب، حيث كنت قادراً على حضور اجتماع لمجلس الأمن القومي في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين صباحاً. أخذت معي جرائد في الحوامة. كان عنوان "الواشنطن بوست" العريض: "الإرهابيون يختطفون أربع طائرات ركاب؛ اثنتان تدمران المركز العالمي للتجارة؛ وواحدة تضرب البنتاغون؛ والرابعة تتحطم". وكان عنوان "الواشنطن تايمز" كلمة واحدة: "يا للعار!"

مع أننا كنا قد عشنا ضباب الحرب في الساعات الأولى التي أعقبت الهجمات، فإن وفرة من الأمور باتت الآن واضحة؛ كنا قد هوجمنا من قبل عدو لا يعرف معنى الرحمة مستعد لذبح الأبرياء في محاولة منه لإركاع أمريكا. لم يكن هذا العدو قوة عسكرية تقليدية، بل عصابة إرهابيين اهتدوا إلى ملاذات آمنة حيثما استطاعوا وراحوا ينشطون على النطاق العالمي. كانوا قد ضربونا من قبل، محدثين حفرة بعمق خمسة طوابق في مركز التجارة العالمي بنيويورك عام 1993. كانت القاعدة قد هاجمت سفارتينا في كينيا وتنزانيا عام 1998، قاتلة المئات، بمن فيهم اثنا عشر أمريكياً. كان أسامة بن لادن قد أقدم شخصياً على اختيار منفذي عملية تفجير الباخرة الأمريكية "كول" في أحد الموانئ اليمنية

عام 2000. سبعة عشر فرداً من الطاقم قضوا نحبهم. خلال التسعينيات، كانت الولايات المتحدة قد تعاملت مع الهجمات الإرهابية بوصفها قضايا فرض قانون في المقام الأول، متهمة إياهم بالإرهابيين حين تستطيع، ومحاكمتهم، ومرسلة بعضهم إلى السجن. إلا أن تلك المقاربة لم توقف الهجمات. كانت القاعدة قد نجحت، للتو، في إنزال الضربة الأكثر تدميراً بوطننا في تاريخه.

كنا بحاجة إلى طريق جديدة نعتمدها للسير قدماً، قائمة على التسليم بحقيقة أننا في حرب. كان لا بد لنا من تعقب الإرهابيين حيثما كانوا، واستئصالهم قبل أن يتمكنوا من الهجوم. وكنا بحاجة إلى أن نحمِّل المسؤولية لأولئك الذين وفروا لهم الملاذ والدعم. وكما كان الرئيس قد قال في خطابه إلى الأمة مساء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر: "لن نميز بين إرهابيين نفذوا هذه الأعمال وآخرين يوفرون لهم المأوى".

في هذا النوع الجديد من الحرب، كان من شأن الاستخبارات أن تكون حاسمة. تعين علينا أن نعثر على الإرهابيين لنتمكن من الإجهاز على شبكاتهم. وعلينا أن نحول دون قيام آخرين بدعمهم. وكنا بحاجة إلى إعطاء أولوية عالية للتعرف على الشبكات والدول المتورطة في عمليات الإتجار بأسلحة الدمار الشامل حتى نتمكن من قطع الطريق على جهودها ومن الحؤول دون حيازة الإرهابيين لتلك الأسلحة. وعلى هول أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، فإن من شأن الهجوم التالي، إذا ما جاء منطوياً على أسلحة نووية أو بيولوجية، أسوأ بما لا يقاس، أكثر هولاً على نحو مضاعف أُسّياً (هندسياً).

في الاجتماع الصباحي لمجلس الأمن القومي، ناقشنا مهمات إدارة الأزمة، مقدرين تاريخ عودة الرحلات الجوية إلى استئناف رحلاتها، وتاريخ عودة حالة الاستنفار العسكري من مستواه المرتفع 3 إلى المستوى الأدنى 4. اتفقنا على إبقاء الدوريات الجوية القتالية محلقة فوق واشنطن ونيويورك، كما بحثنا أمر تقديم إيجاز للكونغرس حول التهديد المستمر.

كان اجتماع مجلس الأمن القومي بعد ظهر ذلك اليوم أكثر تركيزاً على ردّنا العسكري. كان الرئيس مصمماً على استخدام كل أدوات قوتنا الوطنية - القومية من أجل إلحاق الهزيمة بهذا العدو الجديد الذي بتنا نواجهه وتحميل

المسؤولية لأولئك الداعمين له. أكدتُ أهميةَ مطاردة الدول الراعية للإرهاب. ومن خلال عدها مسؤولة عن أفعال الإرهابيين، كنا سنبدأ بحرمان الإرهابيين من الملاذات الآمنة والقواعد التي ينطلقون منها في عملياتهم - فهم بحاجة إلى عنصرين للتآمر: التخطيط للهجمات وتنفيذها.

كنا واثقين من أننا كنا سنحصل على المساعدة في ما كان ينتظرنا من جهود. أعلن الناتو أنه مستعد، للمرة الأولى في تاريخه، لاستحضار المادة الخامسة من ميثاق الحلف، التي تقول إن أي هجوم على طرف هو هجوم على الجميع. ثمة دول أخرى كانت ستقف معنا في ردنا على هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، غير أن من المهم، كما قلت، ألا نسمح لمهمتنا أن تتحدد من قبل آخرين. كان من واجبنا أن نقوم بكل ما يلزم للدفاع عن أمريكا، وكنا بحاجة إلى شركاء ائتلاف يسيرون معنا على تلك الطريق. كان على المهمة أن تحدد التحالف وليس العكس. وقد بيّن الرئيس بوضوح أننا نفضل أن يكون معنا حلفاء، إلا أننا كنا في حرب، وإذا تعين على أمريكا أن تقف وحدها، فإنها ستفعل.

في اليوم التالي، يوم 13 أيلول/سبتمبر، قيل لنا إن هجوماً آخر على واشنطن العاصمة، يبدو وشيكاً، وأوصى الجهاز السري بانتقالي إلى كامب ديفيد، ما أدى إلى تغيبنا عن القداس في اليوم التالي بكاتدرائية واشنطن الوطنية وعن كلمات الرئيس البليغة حول الأسى والعدالة. بدلاً من ذلك، حضرنا يوم الجمعة، 14 أيلول/سبتمبر، قداساً تذكارياً صغيراً في كنيسة إفرغرين الصغيرة بكامب ديفيد. مع تسلل الضوء من سماء ملبدة عبر الشبابيك، انضممنا إلى أفراد من الوحدة العسكرية المتمركزة في كامب ديفيد للصلاة على أرواح المفقودين، وللدعاء من أجل التخفيف عن الذين يعانون، ولاستلهام الرشاد في طريق المستقبل.

لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم، بدأ أعضاء في مجلس الأمن القومي يصلون إلى الكامب من أجل عقد سلسلة اجتماعات كان الرئيس قد دعا إليها. دون رامسفيلد، وكولن باول، وكوندي رايس، وأنا، اجتمعنا لتناول وجبة العشاء ذلك المساء في هولي لودج، الذي كان المكتب الرئيسي في المنتجع الرئاسي لأعوام

كثيرة قبل تشييد لوريل لودج. كان الهولي هو المكان الذي عقدت فيه الاجتماعات في المرة الأولى التي زرت فيها كامب ديفيد بوصفي أحد أركان رامسفيلد الشباب في 1970. وخلال اجتماعنا نحن الأربعة مساء 14 أيلول/سبتمبر، تحدثنا عن التحدي الخطير المنتظر.

كنا بصدد إطلاق خطة سياسية جديدة جذرياً. لم نكن بصدد مجرد ملاحقة أفراد أو خلايا إرهابيين مسؤولين عن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. كنا عازمين على تفكيك شبكاتهم ومطاردة المنظمات، والدول، والناس الذين وفروا لهم الدعم. في 2011 هذه فكرة مألوفة، أما في 2001 فقد كانت جديدة كلياً، وكما جاء في كلامنا، رامسفيلد، وباول، ورايس، وأنا، في الهولي لودج تلك الليلة الباردة من أيلول/سبتمبر، فإننا أدركنا أن هذه الخطة من شأنها أن تصبح حرباً طويلة. ما كان ليكون أي انتصار يسير، سريع متبوع باستسلام عدو محدد. رأيت أن هذا كان صراعاً ستبقى أمتنا منخرطة فيه طوال الفترة الباقية من حياتي.

لدى اجتماع مجلس الأمن القومي صباح اليوم التالي، كان الموضوع، في المقام الأول، هو أفغانستان، حيث كانت قيادة القاعدة قد دبرت مؤامرة الهجمات على الولايات المتحدة ودربت أولئك الذين تولوا تنفيذها. فمنذ عام 1996، كانت أفغانستان خاضعة لسيطرة الطالبان، الذين كانوا قد فرضوا صيغة متطرفة من صيغ الإسلام على البلد، مغلقين مدارس البنات، ومانعين الموسيقى، ومنفذين إعدامات شنيعة. كان الطالبان قد لفتوا أنظار العالم مبكراً في 2001 بنسف اثنين من تماثيل بوذا التاريخية الأثرية العائدة إلى القرن الميلادي السادس في باميان الواقعة وسط أفغانستان من منطلق كونهما صنمين.

قام جورج تَنَتْ بوصف ما كانت وكالة الاستخبارات المركزية تستطيع إنجازه في أفغانستان بسلطتها المضاعفة وعملياتها السرية الموسعة، عبر التعاون مع تحالف الشمال، فريق مقاتلين شرسين ضد الطالبان. زعيم التحالف، أحمد شاه مسعود، كان قد اغتيل بأيدي القاعدة قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ببضعة أيام في محاولة من الطالبان لتقليص قدرة تحالف الشمال القتالية.

كذلك تحدث رئيس هيئة الأركان المشتركة الموشكة ولايته على الانتهاء، الجنرال هيو شلتون، طارحاً خطة عسكرية غير مكتملة الصوغ بعد. عرضت الخطة على الرئيس ثلاثة خيارات: سلسلة ضربات بصواريخ كروز، أو ضربات صواريخ كروز زائد حملة قصف، أو ضربات صواريخ كروز، وحملة قصف، وقوات أمريكية على الأرض في أفغانستان. أيّ من الخيارات الثلاثة لم يكن موفقاً. لم يكن واضحاً، مثلاً، طابع المهمة التي ستُكلف بها القوات على الأرض.

نحو الظهر، أعلن الرئيس فترة استراحة لبضع ساعات. عدتُ إلى مكتبي وطلبت من مقسم كامب ديفيد وصلي بليزابث غليك، زوجة جيرمي غليك، أحد أبطال رحلة الطيران الاتحادي 93. كان غليك هذا، الذي كان قد بلغ الحادية والثلاثين من العمر للتو، قد اتصل بزوجته من الطائرة. أخبرها بقيام مختطفين بالاستيلاء على الطائرة وقتلهم أحد الركاب. لم يكن جيرمي مستعداً للاستسلام دون قتال، وبادر مع بعض زملائه الركاب إلى تدبير خطة لاستعادة الطائرة. نطق بكلمات أخيرة موجهة إلى زوجته، أوصاها برعاية ابنتهما ذات الأشهر الثلاثة من العمر، ثم قال: "سننقض على المختطفين". وفي العراك الذي أعقب ذلك، ضحى الركاب الشجعان على متن طائرة الرحلة 93 بأرواحهم وأنقذوا أرواح أعداد كبيرة من الآخرين. ربما كانت الطائرة التي كانوا على متنها موجهة، حسب احتمالات قوية، للاصطدام بالكابيتول أو البيت الأبيض. وعلى الرغم من أن شيئاً لم يكن ليعزيها في هذه الأيام المرعبة، أردت أن أؤكد لليزابث غليك أن عمل زوجها الأخير كان مأثرة شجاعة وبطولة هائلة، مأثرة تقدرها الأمة حق قدرها.

لاحقاً فقط كنا سنعلم تفاصيل جميع أعمال البطولة التي تمت في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، بدءاً بركاب الرحلة 93، وصولاً إلى عمال الإنقاذ الذين اقتحموا مركز التجارة العالمي الملتهب، إلى العاملين الاتحاديين الذين أخرجوا زملاءهم من تحت أنقاض البنتاغون. من رحم يوم دفع كثيرين إلى الذهول أمام مشهد الشر في العالم خرجت زحمة لا تُعد ولا تُحصى من أفعال الخير والشجاعة المفعمة بنكران الذات.

عاود مجلس الأمن القومي الاجتماع من جديد بعد ظهر ذلك اليوم، ودار

الرئيس حول الطاولة، سائلاً كلاً منا عن آرائه حول طريق المستقبل، حول المطلوب عمله. كنت آخر المتكلمين. شدَّدْتُ على أن منع الهجوم التالي يجب أن يكون قمة أولياتنا. كان لا بد لنا من أن نطمئن إلى أننا لم نترك حجراً واحداً دون قلب على هذا الصعيد. كان من شأن التحسينات على إجراءات الفيزا، ومراقبة الحدود، وأمن الهجرة أن تكون حاسمة، وتعين علينا أن نفكر على نطاق أوسع. كان لا بد لنا من فعل كل شيء نستطيعه لمنع أولئك الذين يريدون إيذاءنا من التسلح بأسلحة الدمار الشامل.

كان أيضاً يتعين علينا أن ندرك أن الدفاع عن الوطن من شأنه أن يتطلب المبادرة إلى الهجوم. التعويل على الدفاع وحده لم يكن كافياً. لا يجوز تمكين الإرهابيين من امتلاك أكثر من فرصة واحدة لاختراق دفاعاتنا اختراقاً ترتبت عليه عواقب كارثية مدمرة. كان لا بد لنا من أن نتعقبهم حيثما يعيشون لخنق الهجمات قبل شنها.

ومع أننا كنا قد تطرقنا إلى العراق في وقت سابق من النهار، فإنني أخذت وقتاً الآن لأقول إن أفغانستان، حيث تدرب الإرهابيون وتآمروا، يجب أن تكون الأولى. كنت مؤمناً بأن من المهم أن تتم معالجة التهديد الذي كان العراق يشكله، ولكن بعد وضع خطة فعالة للإجهاز على الطالبان وحرمان القاعدة من أي ملاذ آمن في أفغانستان.

خلال أعوامي كوزير للدفاع، كنت قد رأيت ما كانت عملياتنا الخاصة قادرة عليه. أشار بول وولفويتز إلى أن أي استخدام للقوة الأمريكية في أفغانستان يجب أن يستفيد من أرباب عملياتنا الخاصة، وأيدته في الحض على توظيف هذه العمليات الخاصة على نطاق واسع. لم تكن إلا خياراً طبيعياً لاجتثاث العدو من أحد أصعب المناطق الجبلية وأكثرها وعورة في العالم.

في اليوم التالي، الأحد الواقع في 16 أيلول/سبتمبر، غادرت كامب ديفيد قبل التاسعة صباحاً، للقيام بزيارة قصيرة إلى ثكنة غرينتوب، أحد مرافق الناشيونال بارك غير البعيد عن المنتجع الرئاسي. كان تيم روسّرت من أخبار الإن بي سي منتظراً في قاعة الطعام لإجراء مقابلة معي لبرنامج "مع الإعلام" في ذلك

الصباح. كنت قد مررتُ بتجربة عرض روسّرت عدداً من المرات خلال الأعوام، ولكن ليس إطلاقاً في ظل ظروف شبيهة ولو من بعيد بالظروف السائدة الآن. كانت الأمة لا تزال في حالة ذهول من هول الصدمة. كان الناس يريدون معرفة النهج الذي كنا سنعتمده في الرد على الهجمات وكيف سنحول دون حصول هجمات أخرى. نحو تسعة ملايين مشاهد تابعوا برنامج "مع الإعلام" ذلك الصباح، أكثر من أي مرة سابقة أو لاحقة.

سألني تيم عن المداولات التي كان يعرف أنها جارية على قدم وساق في كامب ديفيد على امتداد الساعات الست والثلاثين الأخيرة. كان الرئيس قد قال على رؤوس الأشهاد إن أسامة بن لادن هو المشتبه به الأول، وتحدثت أنا عن القاعدة، وعن مدى اتساع نفوذها، وعن منظمات إرهابية أخرى، مثل الجهاد الإسلامي المصري، الذي يتقاسم مع القاعدة إيديولوجيتها. أراد تيم أن يعرف الخيارات التي كان الرئيس ينظر فيها للرد. لم أكن قادراً على التحديد، إلا أنني سجلت أن دولاً مثل أفغانستان يجب أن تدرك أن "توفير الملاذ للإرهابيين من شأنه أن يثير غضب الولايات المتحدة الكامل".

أكدت أهمية الاستخبارات في هذا النوع الجديد من الحروب. لم نكن لنستطيع الأمل في تحري الهجمات ومنعها، وفي تفكيك الشبكات، وفي الدفاع عن الأمة، دون اعتماد برامج استخباراتية محكمة. قلت لتيم إن علينا أن نفعِّل "الجانب المظلم، إذا شئت":

> *لا بد لنا من قضاء وقت في الظلال عبر مجاهل الاستخبارات. كثرة مما ينبغي عمله هنا سيتعين القيام به بهدوء، دون أي نقاش، من خلال توظيف مناهج وموارد متوافرة لدى أجهزتنا الاستخباراتية.*

وقد قلت: "نعم" حين طرح مسألة كون الأمر منطوياً على التعاون مع شخصيات دون مستوى الاستساغة. فاختراق الشبكات الإرهابية كان من شأنه أن يتطلب ذلك. قلت: "إذا بقيتَ مصراً على حصر تعاملك مع ذلك النوع من الناس المقبولين رسمياً، من الزبائن المشهود بطيبتهم، فإنك لن تتوصل إلى اكتشاف ما يقوم به الأشرار. علينا ألا نكبل أنفسنا. لا يجوز أن نقيد أيدينا".

تعليقاتي حول "الجانب المظلم" ظلت تُستغل من جانب النقاد عبر سنين للإيحاء بما هو لئيم. أنا لا أنظر إلى الأمر من ذلك المنظار. فقبل ما لا يزيد عن خمسة أيام كنا قد فقدنا نحو ثلاثة آلاف مواطن أمريكي. كان صحيحاً آنذاك، وهو صحيح الآن، أن الدفاع عن هذه الأمة والحيلولة دون حصول أي هجوم آخر يتطلبان بذل جهود ينبغي أن تبقى سرية، والقيام بعمل لا يتم إلا في الظلام، أحياناً مع أفراد لا يرقون إلى مستوى إثارة الإعجاب، وصولاً إلى إنقاذ أرواح أمريكية.

كذلك تحدثنا، تيم وأنا، ذلك الصباح عن المدة التي يُحتمل للحرب أن تستغرقها. قلت له إن من شأن هذه أن تكون عملية صراع طويلة الأمد، عملية تدوم أعواماً. تكلمنا عن أهمية اليقظة كما عن جبروت هذه الأمة العظيمة على صعيد مواجهة هذا التحدي وتحقيق الغلبة.

ختم تيم اللقاء باستعادة ذكرى الأب ميكال جاج، قسيس فوج إطفاء مدينة نيويورك. قضى الأب مايك نحبه تحت أنقاض مركز التجارة العالمي يوم 9/11 فيما كان يقيم الشعائر الأخيرة لأحد الإطفائيين الذين لبوا النداء أولاً. تحدث تيم عن الإطفائيين الذين حملوا جثمان مايك إلى مقر فوج الإطفاء وقاموا برفقة زملاء الأب مايك الفرنسيسكانيين بتلاوة صلاة القديس فرنسيس: "ليبارككم الرب ويحفظكم، وليطل بوجهه عليكم وليرحمكم". وأضاف تيم معقباً: "تلك هي طريقة نيويورك. تلك هي روح أمريكا". وقف فريق برنامج "مع الإعلام" وصفقوا لخاتمة المقابلة.

يوم الثلاثاء الواقع في 9/18، وَقّع رئيس الجمهورية قراراً مشتركاً كان الكونغرس قد اعتمده مجيزاً استخدام القوة العسكرية "ضد أولئك المسؤولين عن الهجمات الأخيرة التي شُنت على الولايات المتحدة". وفي يوم الجمعة من ذلك الأسبوع، انضممت إلى الرئيس والوزير رامسفيلد لمناقشة ما كان يمكن للقوة العسكرية أن تتخذه من صيغة. اجتمعنا في غرفة المعاهدات في الطابق الثاني من مسكن البيت الأبيض، الغرفة نفسها التي كانت قد جمعتنا، والد الرئيس وأنا، لمناقشة أمر تعييني وزيراً للدفاع قبل اثنتي عشرة سنة. الجنرال شلتون، رئيس

هيئة الأركان المنتهية ولايته، وخلفه الجنرال ديك ميرز، كانا، كلاهما، موجودين، إضافة إلى الجنرال تومي فرانكس آمر القيادة المركزية (السنتكوم)، والجنرال دل ديلي آمر قيادة العمليات الخاصة المشتركة للولايات المتحدة [JSOC]. فريق وزارة الدفاع كان عاكفاً على العمل منذ اجتماعاتنا في كامب ديفيد لتحسين خطته الحربية، وقد طرح فكرة مبتكرة: ربط قواتنا الخاصة بقوات من تحالف الشمال الأفغاني بطريقة تتيح فرصة الاستفادة القصوى من قدراتنا على صعيدي الاتصالات والتكنولوجيا. إذ من شأن قواتنا أن تكون قادرة، وهي تقاتل جنباً إلى جنب مع الأفغان، على استدعاء ضربات جوية على أهداف جرى تحديدها على نحو مشترك. كان من شأن هذ المقاربة أن تفضي إلى التوظيف الناجح لذخائرنا الذكية، الدقيقة التسديد. كنا سنضرب الأهداف المحددة على الأرض بدقة قاتلة.

سأل الرئيس كلاً من الجنرالين فرانكس وديلي عن الموعد المحتمل للبدء بالعمليات. أفادا الرئيس بجاهزيتهما في أي وقت يريده، مظهرين موقفاً مُلبّياً مثيراً للإعجاب. إلا أنني كنت أعرف من تجربتي في البنتاغون أن عوامل مختلفة تتدخل في اختيار أي تاريخ بدء مثالي. كذلك لم أر الإفصاح عن مثل ذلك النوع من المعلومات مناسباً ونحن جالسون مع الرئيس في غرفة كان الرئيس أبراهام لنكولن يعقد فيها اجتماعات الوزارة، فحاولت البحث عن مخرج. كنت أعرف، مثلاً، أننا متفوقون تفوقاً هائلاً في مجال القتال ليلاً. طرحت سؤالاً: "ألن يكون من الأفضل اختيار فترة غير مقمرة نظراً لتوفرنا على قدرات رؤية ليلية؟" سارع الجنرال ديلي إلى الرد قائلاً: "نعم، كلما كانت الليالي أكثر ظلمة كان تفوقنا في أفضل حالاته". وراح الجنرال فرانكس يشرح التفوق المأمول الفوز به عبر إدخال قوات خاصة في أفغانستان بالتزامن مع بدء العمليات الجوية. وبيّن أن من شأن هذا أن يستغرق وقتاً أطول. ما كنا لنستطيع البدء في غضون أيام كما كنا قادرين لو اقتصرنا على الهجمات الجوية وحدها. كان من شأن نقل قوات العمليات الخاصة إلى أوزبكستان، لتكون جاهزة لدخول أفغانستان، أن يستغرق أسبوعين، كما قال فرانكس. في أعقاب الحادي عشر من أيلول المباشرة بدت فترة الأسبوعين زمناً طويلاً، ولكن الرئيس ساير قادته العسكريين فيما كانوا يرونه.

* * *

خلال الجزء الأكبر من هذه المرحلة، كما عبر فترة طويلة من الوقت بعدها، كنتُ على الأغلب في "أمكنة غير مكشوفة". فوجئت بمدى كثافة اهتمام وسائل الإعلام بهذا الواقع. أفترض أن ذلك كان في جزء منه نتيجة عدم قيام الرؤساء ونواب الرؤساء بالعمل من منطلق افتراض الوجود في مكان واحد ينطوي على خطر، وواقع اعتمادنا تلك الطريقة جاء مخاطباً لهواجس ذلك الوقت. وكان كذلك قد أصبح نوعاً من اللعبة القائمة على تصور أمكنتي غير المكشوفة. أحد رسامي الكاريكاتور تخيل إحدى صوامع الصواريخ المهجورة، مجهزة بسرير، ومغسلة، وحبل غسيل. في برنامج "سهرة السبت الحية" قدم داريل هاموند نفسه متقمصاً شخصيتي في إحدى المغارات القريبة من قندهار الأفغانية. في الصفحة الهزلية أعلنت أني "فريق سحق الأفغان المؤلف من شخص واحد"، ثم رفعت قميصي لأعرض على الجمهور "قلبي الإلكتروني" الذي كان يحجبني عن الرادار.

لم يكن مكاني غير المكشوف، في الحقيقة، إلا مقر إقامة نائب الرئيس في بعض الأحيان ـ فقط لم نكن نخبر أحداً بوجودي هناك. في أوقات أخرى كان المكان مدينة أخرى غير واشنطن، لحضور مناسبة معينة. أحياناً كنا، الأركان وأنا، نعمل من بيتي في وايومنغ لفترات طويلة من الوقت. كنت أبقى غارقاً في بحر التأملات السياسية والتخطيطية وأنا خارج واشنطن بواسطة المؤتمرات الفيديوية البُعْدية الآمنة أو تكنولوجيا الـ [SVTS]. كنت أستطيع أن أنصب آلة شبيهة بحاسوب محمول كبير في أي مكان وأحضر اجتماعات جارية على قدم وساق في غرفة عمليات البيت الأبيض أو في أي مكان آخر حول العالم حيث يكون مشاركون آخرون متوفرين على التكنولوجيا نفسها.

كان مكاني غير المكشوف الأكثر تكرراً هو منتجع كامب ديفيد. لين وأنا أمضينا عدداً غير قليل من الأيام هناك، كما كان الأولاد والأحفاد أيضاً يأتون أحياناً. خلال فترة من التهديد المكثف نحو عيد جميع القديسين في 2001، قامت

حفيداتي بجلب بدلاتهن الخاصة بهذا العيد وقام العاملون في جهازي- ماري ناتالين، وديفيد آدنغتون، وسكوتر ليبي - بتقديم الحلوى في مكاتبهم، كما فعلتْ مساعدة لين، لورا تشادويك، وعناصر الجهاز السري الذين كانوا يشغلون المحارس.

من البداية، اصطحبنا كلبنا ديفي، وهو كلب لابرادوري أصفر بوزن مئة رطل، إلى كامب ديفيد. كان يعشق التجول في الممرات والغابة، ولم أتأخر في الاعتياد على أخذه معي إلى جميع الأمكنة. في أحد العطل الأسبوعية حين كان الرئيس قد برمج لأحد اجتماعات مجلس الأمن القومي في كامب ديفيد، ركبت إحدى عربات الغولف الموجودة في كامب ديفيد مع ديفي وذهبنا إلى لوريل لتناول وجبة الفطور. ركنت عربة الغولف، ومشينا، ديفي وأنا، مع الممر باتجاه مبنى لوريل ذي الأبواب الخشبية الكبيرة. كنت أحمل مصنف خلاصات ومواد إيجاز خاصة باجتماعات اليوم والجرائد الصباحية تحت إحدى ذراعي وفتحت الباب باليد الأخرى. ما إن دخلنا حتى وقعت عين ديفي على كلب رئيس الجمهورية، بارني، وهو كلب من النوع الاسكوتلندي، حتى أطلق مطاردة محمومة. في الحقيقة لم أستطع أن ألومه. فالكلب بارني لم يكن سوى حيوان أكبر بقليل من السناجب التي كان ديفي مولعاً بمطاردتها، إلا أننا لم نرد لأي أذى أن يحصل هنا. أسقطت أوراقي لأتمكن من الإمساك بديفي، الذي كان قد صار خلف المنعطف داخل غرفة الطعام. درت حول الزاوية نفسها لأجد بعض زوجات الوزراء اللواتي كن أيضاً مدعوات إلى كامب ديفيد لقضاء العطلة الأسبوعية. كانت جويس رامسفيلد، وآلما باول، وستيفاني تنت يتابعن مندهشات مطاردة ديفي حول مائدة الطعام لبارني المنطلق بسرعة البرق. في اللحظة نفسها تقريباً ظهر الرئيس. سأل: "ما الذي يجري هنا؟" بلهجة آمرة. لم يكن ذلك سؤالاً غير معقول. رأيت طبقاً من المعجنات على بوفيه الفطور، خطفت فطيرة، وصرخت: "ديفي، هاك وجبة!" أوقف مطاردته، فأمسكت به وأعدته إلى دوغوود، الكابين الذي كنا نازلين فيه: لين وأنا. لم يكن قد مضى وقت طويل وأنا هناك حين قُرع الباب. كان الطارق هو ضابط المنتجع. قال: "لقد جرى حظر دخول كلبك إلى لوريل، سيادة نائب الرئيس".

* * *

كان لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر تأثير لافت في اقتصاد الأمة. فقطاعات السفر الجوي، والسياحة، والتأمين تلقت ضربات موجعة. سوق السندات المالية بقيت مغلقة أربعة أيام عمل - أطول فترة تعطيل منذ عام 1933 - ثم هوت سبع مئة نقطة في اليوم الأول من إعادة افتتاحها. ومع شروعنا في التخطيط لردنا والتفكير الموسع بالحرب على الإرهاب، التمست المشورة من رئيس الاحتياطي الفدرالي آلان غرينسبان حول التأثيرات القصيرة والطويلة الأمد المحتملة للهجمات. جاء آلان إلى مقر إقامة نائب الرئيس يوم السبت الواقع في 22 أيلول/سبتمبر، للمشاركة في إحدى المناقشات الدورية التي كنا سنعقدها أثناء عملي نائباً للرئيس. قال ليس ثمة طريقة للتنبؤ الدقيق بالتأثير الإجمالي لحدث مثل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر في اقتصاد معقد مثل اقتصادنا. تحدث عن "نموذج المليون معادلة" الذي يدخل في الحساب عدداً هائلاً من العوامل التي لها تأثير اقتصادي. فجميع المعادلات المليونية التي تؤلف اقتصادنا تلقت ضربة كبيرة، حسب قوله. ومورداً أحد الأمثلة، تحدث عن نظام لائحة "في حال..." صناعيو أمريكا كانوا قد ابتعدوا عن الحفاظ على لوائح قطع كبيرة وباتوا، بدلاً من ذلك، معتمدين على نظام نقل درجة أولى، بما فيه النقل الجوي، للحصول على القطع عند احتياجهم إليها. وتأثير هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر في قطاع النقل الجوي مع تعطيل الرحلات الجوية فعل فعله السلبي الكبير في هذا النظام. شدد على وجوب انتشال النقل الجوي وتفعيله بأقصى سرعة ممكنة. اقترح أيضاً أن تضطلع الحكومة بمهمة حفظ أمن الخطوط الجوية، بما يساعد على اختزال بعض نفقات هذه الخطوط، ويعيد إلى الركاب الثقة على صعيد السفر جواً من جديد، وهذا أهم.

كنا نعلم أن الكونغرس كان قد ركّز على ما يمكن القيام به لحفز الاقتصاد في أعقاب الهجمات، وقال لي آلان إن لجنة المال في مجلس الشيوخ كانت قد طلبت منه جلسة استماع مغلقة معه ومع وزير الخزانة السابق روبرت روبن. توجس آلان من عدم إشراك وزير الخزانة بول أونيل. طلب مني أن أتصل بكبير الجمهوريين في لجنة المال بمجلس الشيوخ/ تشاك غراسلي، لأجل أونيل،

وفعلت.

أخيراً، قال آلان إنه من المهم بالنسبة إليه الحصول على إنذار مسبق، إن أمكن، عن أي عمل عسكري. عدت بالذاكرة إلى عاصفة الصحراء. لم يكن ثمة سوى شخص واحد كنت قد أطلعته من خارج فريق الأمن القومي في الأيام التي سبقت إطلاقنا للعمليات، وكان ذلك الشخص هو غرينسبان. كان قد جاء إلى مكتبي في البنتاغون، وكنت قد أخبرته عن التوقيت وعن طبيعة ما خططناه. استناداً إلى سنوات صداقتنا وعملنا معاً كنت واثقاً من أن آلان سيصون سر عمليتنا، وكنت مؤمناً بأهمية بقاء رئيس الاحتياطي الفدرالي، المسؤول عن صحة مؤسسات الأمة المالية، مطلعاً، بعيداً عن التعرض للمفاجآت. تحركت الآن من المنطلق نفسه ونحن بصدد التحضير لشن العمليات العسكرية في أعقاب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

في خطاب إلى الأمة عصر يوم 7 تشرين الأول/أكتوبر 2001، أعلن الرئيس بدء عملية "الحرية الدائمة". قال الرئيس: "بدأت القوات المسلحة الأمريكية توجيه ضربات ضد معسكرات تدريب القاعدة الإرهابية والمرافق العسكرية لنظام الطالبان في أفغانستان". كانت قد أُرسلت فرق عمليات السي آي إيه السرية سلفاً للتعاون مع تحالف الشمال وقوى معارضة أخرى. وكانت قوات العمليات الخاصة ستتوغل في ذلك البلد قريباً.

في اجتماع لمجلس الأمن القومي يوم 9 تشرين الأول/أكتوبر، أثار جورج تنت قلقاً حول قيام تحالف الشمال بالاستيلاء على كابول. كان من شأن الباشتون المسيطرين على جنوب أفغانستان ألا يرضيهم الخضوع لحكم قبائل من الشمال، كما قال تنت، مما قد يفضي إلى نشوب حرب أهلية. كنت أرى أن أي ذريعة تُساق لقطع الطريق على تحالف الشمال مضللة. فهدفنا كان متمثلاً بالإجهاز على القاعدة، وتفكيك الطالبان، والحيلولة دون بقاء أفغانستان قاعدة إطلاق عمليات إرهابية أخرى. وكما كنت أرى، فإننا كنا بحاجة إلى إنجاز هذه الأمور بسرعة، قبل حصول هجوم آخر على الوطن. كان ثمة ايضاً موضوع الطقس. بعد انتهاء جورج من مداخلته، أدليت بدلوي. ما إن يحل فصل الشتاء

حتى يلوذ تحالف الشمال بجحوره. إما أن نطلقه بسرعة أو أن نسلم بالانتظار حتى الربيع.

بتقديري كان لا بد لنا من تشجيع تحالف الشمال على التقدم. سألت: "هل ثمة أي أهداف طالبانية يمكننا ضربها من شأنها أن تجعل تحرك تحالف الشمال أيسر؟" صراحة، ظننت أن من غير الممكن أن تسقط كابول بسرعة كافية، إن على يد تحالف الشمال أو دونه. كان من شأن الأمر أن يكون رمز يوم جديد في أفغانستان.

كذلك كنا شديدي الاهتمام بإلقاء القبض على أسامة بن لادن. ما من أحد منا كان يؤمن بأن من شأن اعتقاله أو قتله أن يضع حداً للتهديد الإرهابي، إلا أنه كان زعيم المنظمة التي كانت قد شنت هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وكان من شأن وضعه في السجن - أو القبر - أن يشكل مؤشراً قوياً دالاً على تصميمنا. لا شك أن تعقُّبَه كان إحدى أولوياتنا. وقد كنت سعيداً حين سمعت، بعد سنوات من العمل الجاد والمخلص، أن معشر استخبارات الأمة وقوات عملياتنا الخاصة استطاعت يوم 1 أيار/مايو، 2011 أن تعثر على بن لادن وتقتله.

في الساعة الواحدة والدقيقة العاشرة من بعد ظهر يوم 18 تشرين الأول/أكتوبر 2001، صعدنا: لين وأنا إلى طائرة سلاح الجو رقم اثنين للقيام برحلة الدقائق الخمس والأربعين الجوية إلى مطار لاغارديا في نيويورك. كان من شأن ذلك أن يشكل زيارتنا الأولى لموقع هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر المعروف باسم الغراوند زيرو. كنا على متن الطائرة منذ قليل حين تلقى ليبي مكالمة على الطائرة. كانت ثمة نتيجة اختبار أولي مشيرة إلى هجوم بسم البوتولين (السمّ الوشقي) على البيت الأبيض. إذا ما جرى تأكيد النتيجة، فإن من شأنها أن تعني أننا، الرئيس وأنا، وأفراد جهاز العاملين في البيت الأبيض، وربما عشرات آخرين ممن تصادف وجودهم في أمكنة قريبة، تعرضنا لأحد أشرس السموم التي عرفها الإنسان. فغرام واحد من سم البوتولين موزعاً بالتساوي ومستنشقاً، قادر على قتل مليون نسمة. هناك مادة مضادة للسم إلا أنها لا

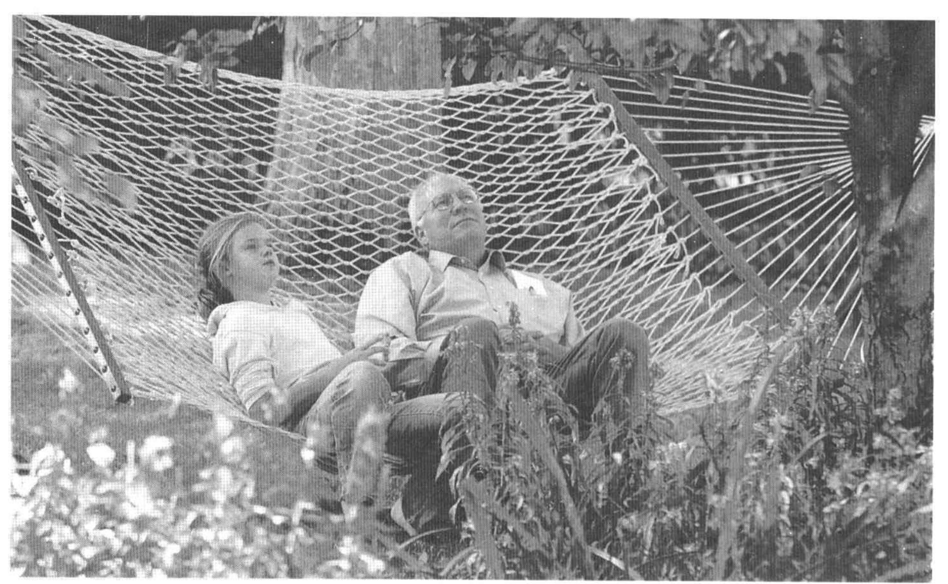
تعكس الشلل الذي يحدثه البوتولين، وإن كانت تحول دون تفاقمه أكثر.

هجمات الأسلحة البيولوجية على الوطن لم تكن مجرد مواد قصص خيال علمي. فهجمات الأنتراكس (الجمرة الخبيثة) الأولى المرسلة بريدياً كانت قد حصلت قبل ما لا يزيد على شهر. والحالة الأحدث - الأنتراكس المرسل بالبريد إلى مكتب الشيخ توم داشل على الكابيتول هيل - كانت قبل ثلاثة أيام. على تلك الخلفية شكل التقرير عن ضربة إيجابية بالبوتولين على البيت الأبيض إنذاراً تعين أخذه بقدر استثنائي الجدية بالفعل. حين هبطت طائرتنا في لاغارديا في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والخمسين للانتقال إلى حوامات متجهة إلى غراوند زيرو، طلبت من سكوتر ليبي أن يبقى في الطائرة، متابعاً الاتصالات الهاتفية، وحاصلاً على أكبر قدر ممكن من المعلومات.

مع وصول حوامتنا إلى مكان قريب من طرف مانهاتن الجنوبي، صار موقع الغراوند زيرو في ساحة الرؤية. شعرت بالغضب والحزن اللذين كنت قد شعرت بهما ليلة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر حين رأيت حطام البنتاغون للمرة الأولى. بالنظر من الجو كان التدمير صاعقاً. لم يكن تصميمي بحاجة إلى أي شحذ بعد الذي كنا قد عشناه، ولكن الدمار في الأسفل جعلني أحلم بأن تحين ساعة العدالة سريعاً. ومع ابتعاد الحوامة عن الغراوند زيرو، ألقيت نظرة على تمثال الحرية من بعيد. في يوم ساطع الشمس كما كان يوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كان التمثال هناك بما يمثله من حرية، شامخاً مرفوع الرأس في الميناء، مذكراً بطيبة أمريكا وقوتها.

التقيت رئيس البلدية رودي غولياني والحاكم جورج باتاكي للحصول على إيجاز عن جهود إعادة الإعمار الجارية على الغراوند زيرو، ثم زرنا المكان سيراً على الأقدام. جزء من الهيكل الفولاذي أسفل أحد برجي التجارة العالمية كان لا يزال واقفاً، ملوياً ومتفحماً، مصوباً نحو السماء. أمامه، كان حشد عمال إعادة البناء من مختلف أرجاء الوطن متجمعين. تحدثوا عن العودة إلى الموقع يوماً بعد يوم والانخراط في العمل إلى ما بعد حدود الإرهاق. تحدثوا عن التزامهم بالاستمرار حتى يتم إنجاز العمل. تجولت في المكان وشكرت الجميع.

كان ليبي ينتظر عودتي إلى فندق والدورف - أستوريا حيث كان مبرمجاً



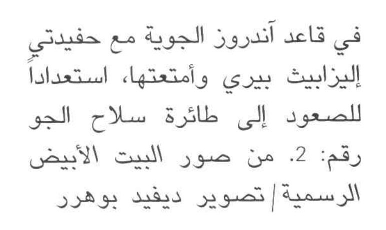
كبرى حفيداتي: كيت بيري، مستمتعة بيوم من أوائل الصيف على الشاطئ الشرقي لمريلاند. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر

مع حفيدي الأول: فيليب بيري، في مسكن نائب رئيس الجمهورية في ربيع 2006. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر



في مكتبي بالجناح الغربي مع حفيدتي، غريس بيري، وهي ترتدي زيها الاحتفالي تمهيداً ليوم التدشين عام 2007. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر





في قاعد آندروز الجوية مع حفيدتي إليزابيث بيري وأمتعتها، استعداداً للصعود إلى طائرة سلاح الجو رقم: 2. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



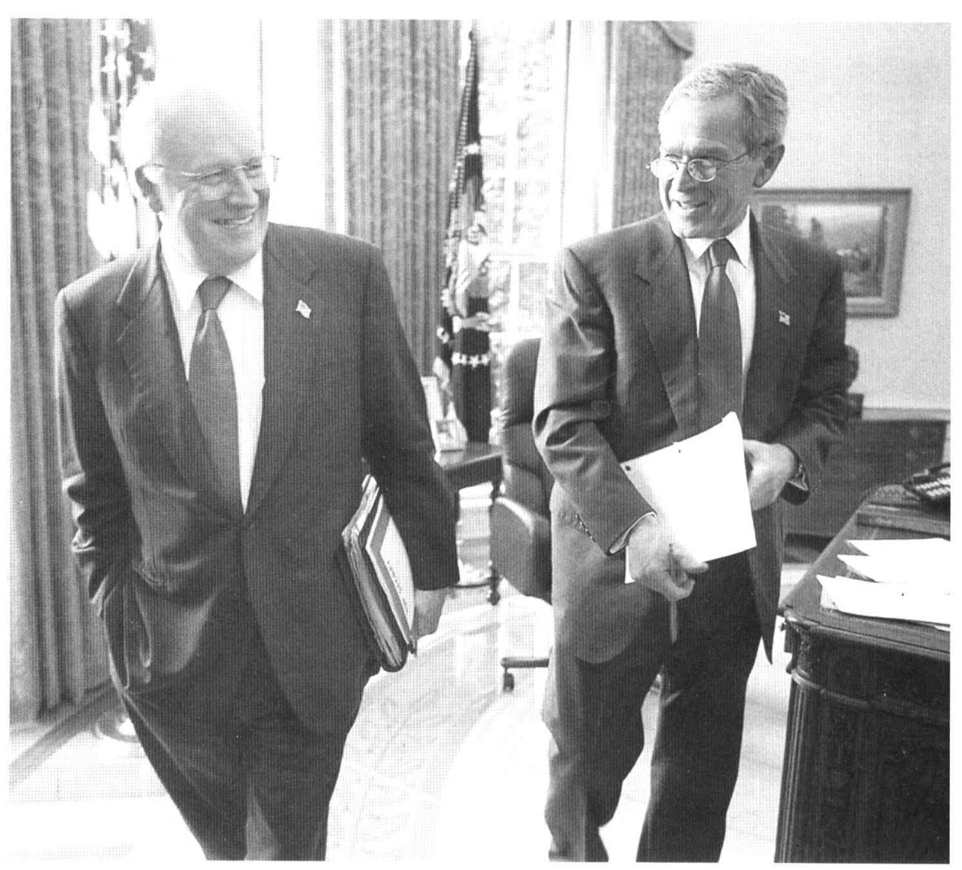
مصطحباً الحفيد سام في جولة على متن الحوامة مارين رقم: 2، العائدة لنائب الرئيس، مع كل من ماري وهيثر. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



مع حفيدتنا الجديدة، سارة لين، في ماكلين بفيرجينيا، ربيع 2011. تصوير ديفيد بوهرر



مع حفيدي حامل اسمي، ريتشارد، على متن طائرة سلاح الجو رقم: 2، صيف 2007. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر.



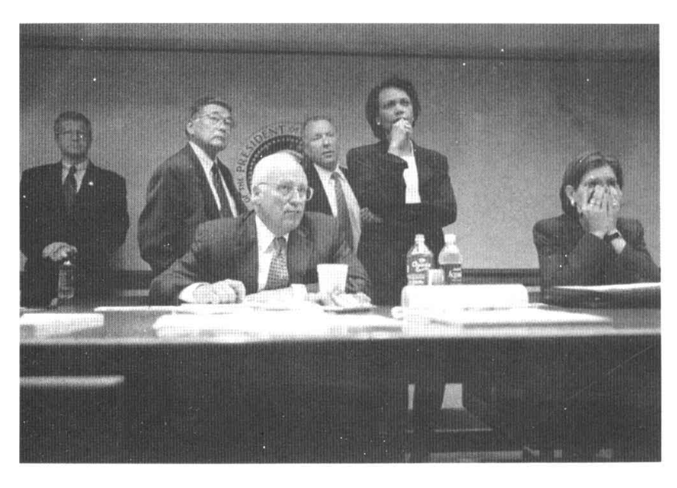
مع الرئيس بوش في المكتب البيضوي. عام 2000، قال لي جورج دبليو بوش إنه راغب في أن أكون نائباً للرئيس مضطلعاً بدور مهم في المساعدة على إدارة الأمة، وقد وفى بوعده خلال السنوات الثماني التي خدمنا فيها معاً. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر.



مع أعضاء من مجلس الشيوخ على درجات الرواق الشمالي للبيت الأبيض. بوصفي رئيساً لمجلس الشيوخ عملت جاهداً لتطوير علاقات مع زملائي الشيوخ وأعضاء مجلس النواب. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر



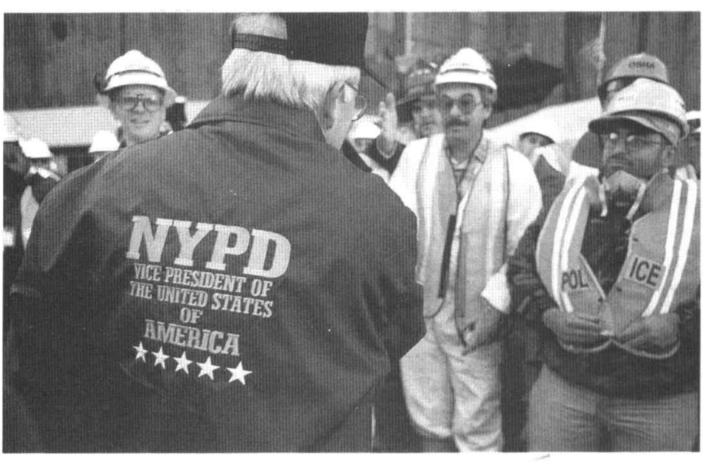
لدى إجلائي من مكتبي في الجناح الغربي من قبل عميل الجهاز السري، جيم سكوت، 2001/9/11. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر



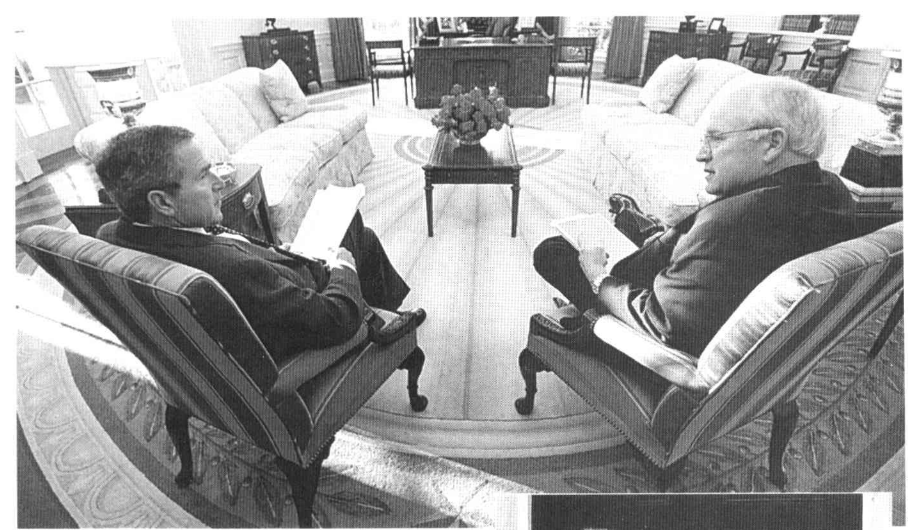
في مركز عمليات الطوارئ الرئاسي متابعاً انهيار البرج الثاني لمركز التجارة العالمي. وقوفاً خلفي: جوش بولتون، ونورم مينيتا، وسكوتر ليبي، وكوندوليزا رايس. أما ماري ماتالين فجالسة إلى يساري. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



عصر يوم 9/11 في مركز عمليات الطوارئ الرئاسي. لتوي انتهيت من إجراء مكالمة آمنة مع الرئيس اقترحت فيها أن يشرع في التفكير بالعودة إلى واشنطن. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



لقاء مع بعض عمال الإنقاذ الشجعان في الموقع "غراوند زيرو"، 2001/10/18. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



فوق: مع الرئيس بوش في المكتب البيضوي، آذار 2002. أطحنا بالطالبان للتو وطلب الرئيس مني أن أسافر إلى المملكة المتحدة والشرق الأوسط للتشاور مع الحلفاء. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر

إلى اليمين: خارج 10 دواننغ ستريت مع أحد أصلب حلفاء أمريكا في الحرب على الإرهاب، رئيس الوزراء طوني بلير. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر

تحت: في تل أبيب مع رئيس الوزراء آرييل شارون. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر





فوق: في الصحراء السعودية مع الملك عبدالله. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر

وسط: في رام الله، استعداداً للقاء أبو مازن مع اثنين من مستشاري السياسة الخارجية الرئيسيين: جون حنا وجمال هلال. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر



تحت: مع البابا يوحنا بولس الثاني في الفاتيكان كانون الثاني/يناير 2004. مع انتهاء لقائنا أخذ البابا يدي بيديه وقال: "ليبارك الله أمريكا!" من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر

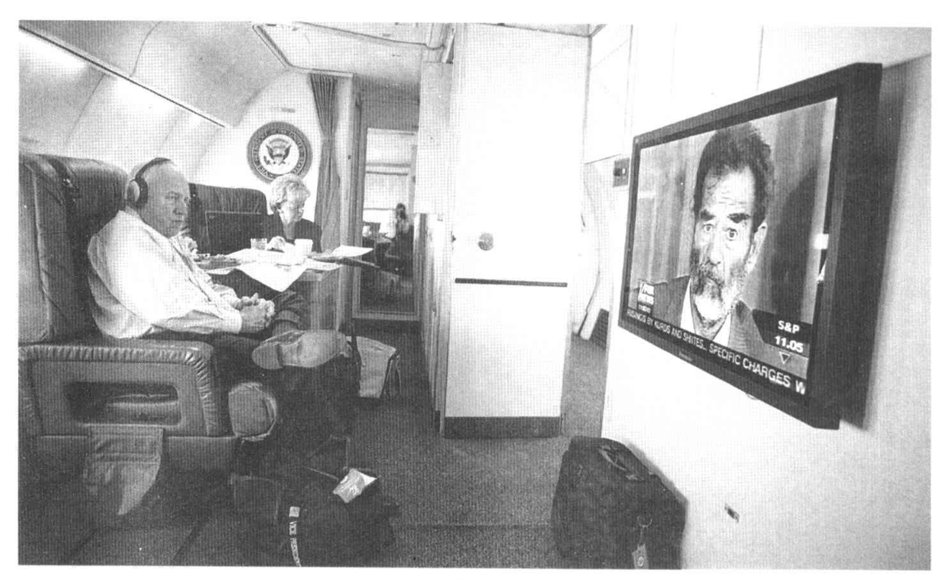
مع الرئيس الأفغاني حميد قرضاي في كابول، حفل أداء قسم أول رئيس جمهورية منتخب من البرلمان في أفغانستان، 19 /2005/12. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



مع دون رامسفيلد في مكتبه بالبنتاغون يوم 2003/4/8، قبل يوم واحد من تحرير بغداد. منذ لحظات كنا قد أنهينا اتصالاً آمناً مع الجنرال جيمي فرانكس. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



رئيسة الوزراء السابقة مارغريت تاتشر زارت البيت الأبيض في الذكرى السنوية الخامسة للحادي عشر من أيلول. حظيتُ بشرف مرافقتها في غرفة الخرائط حيث الخرائط التي كان الرئيس روزفلت يعود إليها خلال الحرب العالمية الثانية. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر



على طائرة سلاح الجو رقم: 2، 2004/7/1، متابعاً تغطية أخبار جلسات محاكمة صدام حسين ببغداد. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر



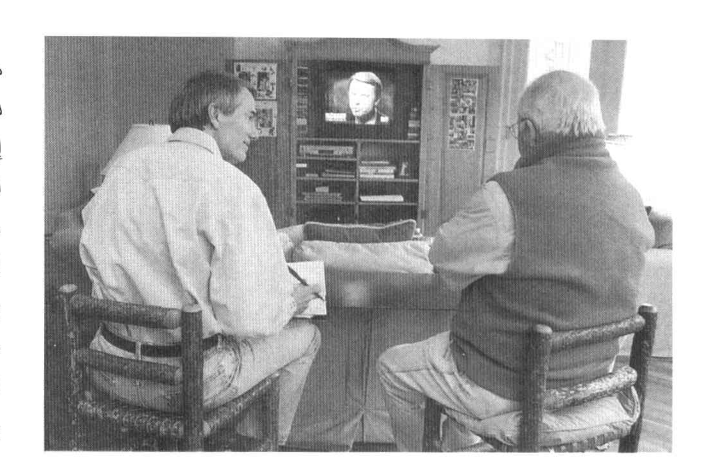
في بغداد مع رئيس الوزراء العراقي الجديد نوري المالكي، 2008/3/17. جمال هلال جالس بيننا متولياً مهمة الترجمة. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر



في ثكنة سبايشر في العراق، مع ثلاثة من الجنرالات الذين قادونا إلى النصر هناك. قائد قوات التحالف: الجنرال ديفيد بترايوس؛ ونائبه وخلفه: الجنرال راي أودرنو، والجنرال ستان ماكريستال الذي كان يتولى قيادة قواتنا للعمليات الخاصة؛ 2007/5/10. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



في قلعة ستيوارت، في جورجيا، 2006/7/21، معبراً عن الشكر لأفراد فرقة المشاة الثالثة وفرقة اقتحام لواء الحرس الوطني الجورجي الثامن والأربعين على خدماتهم في العراق. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



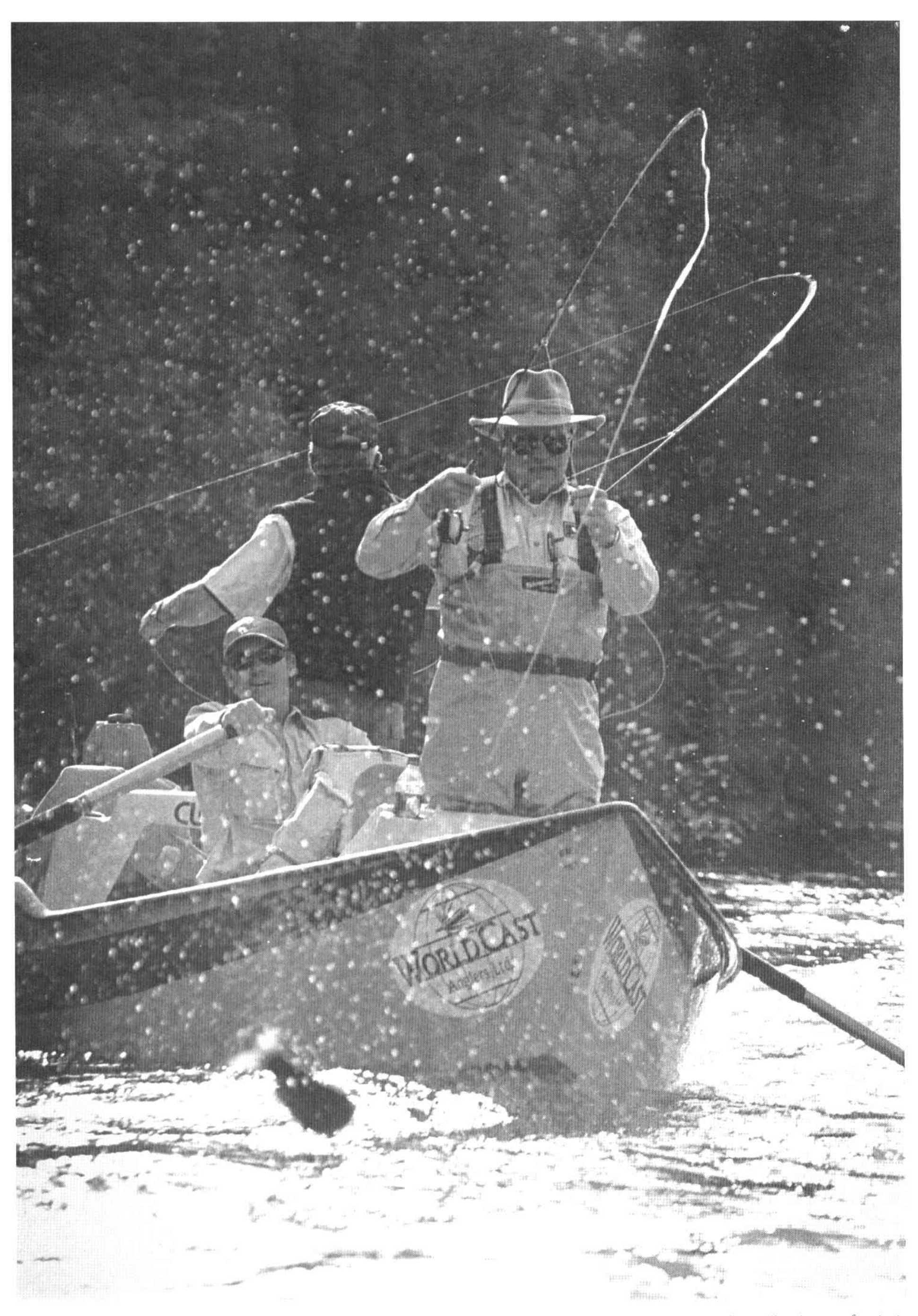
مع روب بورتمان الذي مثل دور جو ليبرمان وجون إدواردز في حواري النيابي الرئاسي في 2000 و2004، متابعين شريط فيديو لجون إدواردز في بيتنا بوايومنغ، صيف 2004، من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



في مسيرة الحملة مع لين في 2004. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهر



في أثناء أداء القسم كنائب لرئيس الولايات المتحدة في 20/1/2005، مع لين وماري وليز. صديقي الطيب رئيس المجلس دنّي هاسترت أدار عملية أداء القسم. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير سوزان شتيرنر



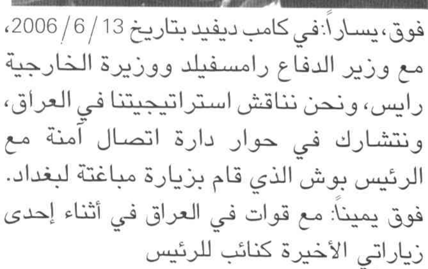
لعله أنجح اساليب الاستعداد للحوار: القيام برحلة صيد سمك في نهر سنيك في وايومنغ. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر



في أحد اجتماعات فريقنا الصغير بمكتب ستيف هادلي في الجناح الغربي، حيث كنا نناقش أهم قضايانا الأمنية وأكثرها حساسية خلال الفترة الثانية، مع وزير الدفاع بوب غيتس، ورئيس هيئة رؤساء الأركان بيت بيس، ومدير الاستخبارات القومية مايك ماكونيل، ونائب مستشار الأمن القومي جي دي كراوتش، ووزيرة الخارجية كوندي رايس، ومستشار الأمن القومي ستيف هادلي. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر



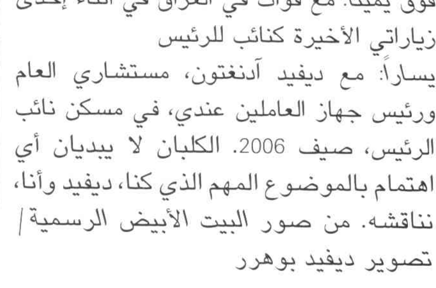




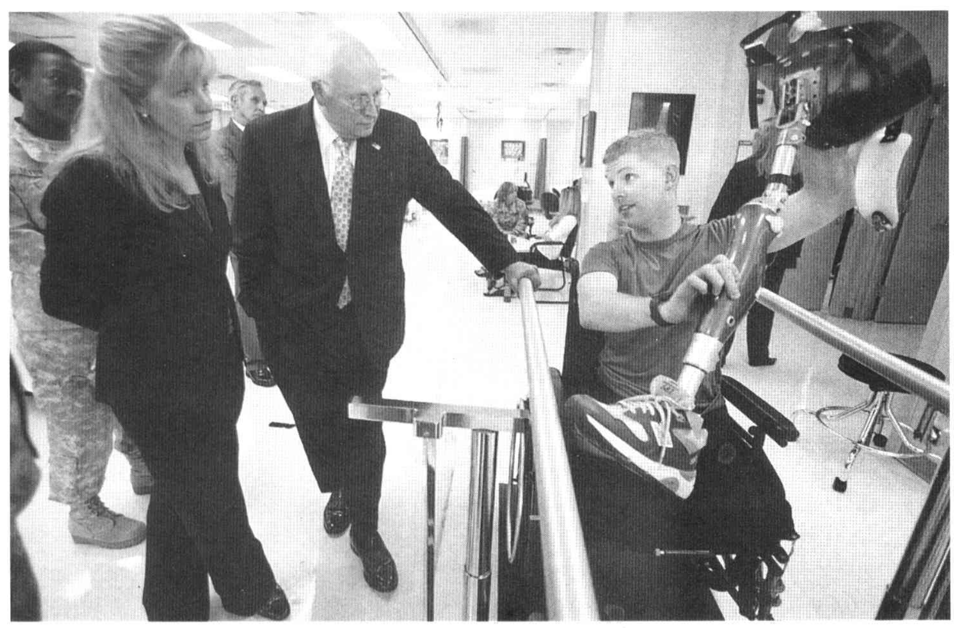
فوق، يساراً: في كامب ديفيد بتاريخ 13/6/2006، مع وزير الدفاع رامسفيلد ووزيرة الخارجية رايس، ونحن نناقش استراتيجيتنا في العراق، ونتشارك في حوار دارة اتصال آمنة مع الرئيس بوش الذي قام بزيارة مباغتة لبغداد.

فوق يميناً: مع قوات في العراق في أثناء إحدى زياراتي الأخيرة كنائب للرئيس





يساراً: مع ديفيد آدنغتون، مستشاري العام ورئيس جهاز العاملين عندي، في مسكن نائب الرئيس، صيف 2006. الكلبان لا يبديان أي اهتمام بالموضوع المهم الذي كنا، ديفيد وأنا، نناقشه. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



ليز وأنا مع الملازم الثاني البحري آندرو كينارد خلال زيارة لمركز والتر ريد الطبي التابع للجيش في حزيران/يونيو 2007. آندرو الذي جرح في الأنبار في العراق، في 2006، التحق بجامعة هارفارد لمتابعة الدراسة. إن أحد المقاتلين المرموقين الذين تشرفت بلقائهم والتعرف إليهم في أثناء اضطلاعي بمسؤوليات نائب الرئيس. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



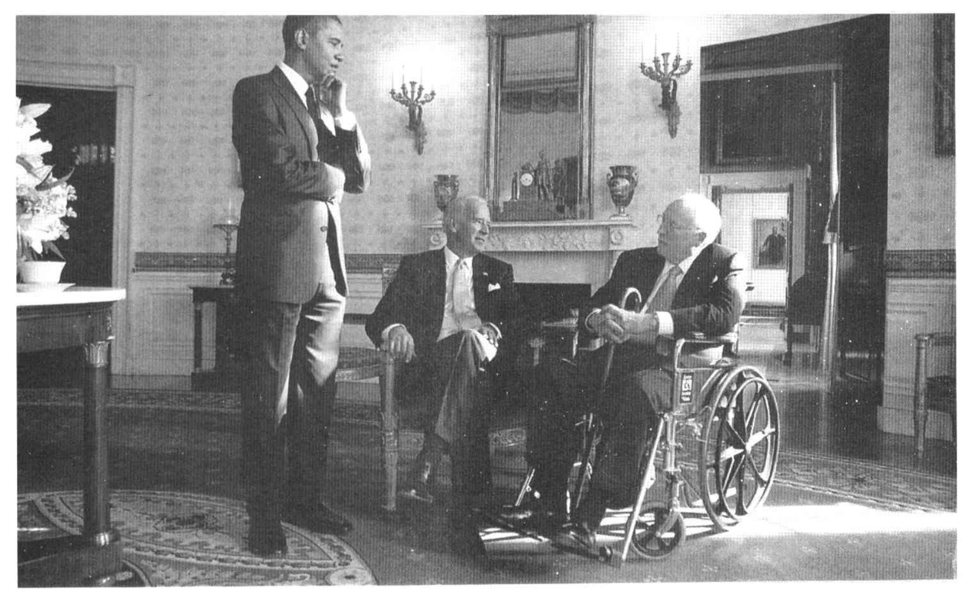
في قاعدة باغرام الجوية، في أفغانستان، 3/3/2008، معلقاً وسام النجمة الفضية على صدر المجندة مونيكا براون على شجاعتها في الاشتباك. وهذه المجندة هي المرأة الثانية التي تحصل على النجمة الفضية منذ الحرب العالمية الثانية. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



مع لين وليز وفيل، وحفيداتنا: كيت، وإليزابيث، وغريس، بالقرب من منزلنا في وايومنغ، مكاني المفضل على كوكب الأرض. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر

رحلة صيد في فلفورياس بتكساس، مع جيم بيكر والرئيس جورج أتش دبليو بوش. من صور البيت الأبيض الرسمية/تصوير ديفيد بوهرر





مع الرئيس المنتخب باراك أوباما ونائب الرئيس المنتخب جو بايدن صباح يوم التنصيب في 2009 في الغرفة الزرقاء بالبيت الأبيض. كنت مصاباً في ظهري من جراء الإرهاق الناجم عن نقل الصناديق والكراتين إلى بيتنا الجديد. قلت لبايدن: "انتبه يا جو هذا هو ما ستكون مصاباً به لدى انتهاء فترة ولايتك". من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر



مع لين وكلبنا اللابرادوري، ديفي، على شرفة مسكن نائب الرئيس ذات يوم أحد عيد فصح جميل. من صور البيت الأبيض الرسمية/ تصوير ديفيد بوهرر

أن أقدم كلمة افتتاح حفل عشاء الذكرى السنوية لمؤسسة ألفرد إي سميث في غضون ساعات قليلة. حدثني عن تحري حالتي سم بالبوتولين إيجابيتين على أحد أدوات استشعار البيت الأبيض. كانت الاختبارات جارية، كما قال، وكنا سنحصل على النتائج مع حلول ظهر اليوم التالي.

ارتديت ربطة العنق البيضاء والسترة المذيلة المطلوبتين لخطاب الأمسية فيما كان يجري إيصالي بالرئيس الذي كان في شنغهاي. ثم جلست أمام شاشة جهاز الفيديو الآمن ونقلت الأخبار إليه وإلى فريقه المرافق في الرحلة. "سيادة الرئيس، كنا نحن وآخرون كثر ربما معرضين". كنا سنعرف الحقيقة في غضون ثماني عشرة ساعة بعد الحصول على نتائج الاختبارات والتحاليل.

نزلت إلى العشاء، مثقلاً باحتمال حصول إصابة بسم البوتولين، أوصلت ملاحظاتي. كل من الرجال والنساء الموجودين في الغرفة ذلك المساء كان متأثراً، على نحو ما، بهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. كانت الذكرى طازجة في أذهاننا، وأنا أتحدث عن آيات الشجاعة، والكرم، والنبل التي كان الأمريكيون شهوداً عليها في مدينة نيويورك في أعقاب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. قطعت وعداً بأن يد العدالة ستمتد إلى أولئك المسؤولين "منهجياً، بلا استثناء، وعلى نحو كامل". ومع أن حملات عسكرية مرئية كانت ستتم، مثل تلك الجارية في أفغانستان، فقد كان من شأن جزء كبير من هذه الحرب ألا يكون بهذا القدر من الوضوح. مكرراً ما سبق لي أن كنت قد قلته لتيم روسّرت في ذلك الأحد الأول بعد الهجمات، تحدثت عن أهمية الاستخبارات:

> *نحن هنا نتعامل مع أشرار يعيشون في الظلام، دائبين على التخطيط لقدر لا يمكن تصوره من العنف والدمار. لسنا مخيرين؛ لا بد لنا من التصدي للعدو حيث هو. أحياناً ذلك يعني التعامل مع أناس قد لا يحلو للمرء أن يكون جاراً لهم. يجب أن نستخدم جميع الوسائل الموجودة بحوزتنا، وسنفعل بالتأكيد، من أجل ضمان حرية الشعب الأمريكي وأمنه.*

جاء الرد من الغرفة تصفيقاً مدوياً. كثيراً ما سمعت أشخاصاً من بلدان أخرى

يعلقون على الروح الوطنية الأمريكية، لا على نحو سلبي، بل بنوع من الدهشة والإعجاب إزاء كون عشقنا لبلدنا على هذه الدرجة من العمق والثبات. في تلك السهرة، تحدثت، مستحضراً الحرب الدائرة، باسم الجميع حين قلت: "نحن لا نحب وطننا أكثر إلا عندما يكون مهدداً".

بعد خطابي تلقيت معلومات إضافية عن إصابات البوتولين. أفاد النائب العام جون آشكروفت ومستشار الأمن القومي توم ريدج بأننا إذا كنا قد تعرضنا، لكانت الأعراض قد ظهرت علينا الآن. انقضت فترة ست وخمسين ساعة من إجراء الفحص الأخير. كنا جميعاً في حالة صحية جيدة، إذن بدا كما لو كنا قد نجونا، تحررنا من صنارة البوتولين.

غادرنا فندق ولدورف في موكب، وتوجهنا إلى مطار لاغارديا. كانت الاحتياطات الأمنية المتشددة تعني أن شرطة نيويورك [NYPD] كانت قد أغلقت جميع الشوارع المتصلة بخط سير الموكب، حاجزة حركة المرور أميالاً. أزعجني احتمال وجود عدد كبير من النيويوركيين المنزعجين. إلا أنني، فيما كان موكبي يشق طريقة عبر شوارع المدينة تلك الليلة، مسبوقاً بدراجات الشرطة وسيارات المرافقة المجهزة بالأنوار والأبواق، نظرت عبر نافذة الليمو لأرى شيئاً غير متوقع تماماً وبالغ الإثارة - كان النيويوركيون الذين أوقفت سياراتهم مصطفين على امتداد الشارع هاتفين ومصفقين تحية لنا.

تأخرت قوات عملياتنا الخاصة عن موعد دخول أفغانستان، من جراء الأجواء الغادرة في المقام الأول. جوبهت بوابل من المطر والثلج، بل وحتى من العواصف الرملية وهي تحاول التحليق بالحوامات فوق جبال تصل ارتفاعاتها إلى ستة عشر ألف قدم. في 19 تشرين الأول/أكتوبر 2001، دخل الفريق الأول المؤلف من اثني عشر رجلاً من مكان قريب من مزار الشريف في الشمال، ونجحت وحدة مؤلفة من مئتي جندي اقتحام في الاستيلاء على مطار، اسمه الرمزي رينو، في الجنوب، بالقرب من قندهار. أغارت فرقة عمليات خاصة أخرى على مجمّع للملا عمر، زعيم الطالبان. أحتفظ ببلوكة من مجمّعه قدمها لي بعض عناصر القوات الخاصة التي استولت على المجمع. إنها في

مكتبي بجانب بلوكة من البيت الذي قُتل فيه أبو مصعب الزرقاوي زعيم القاعدة في العراق، في حزيران/يونيو 2006. كلتاهما تذكران بالجهود الهائلة التي بذلتها القوات المسلحة الأمريكية من أجل جعل العالم مكاناً شديد الخطورة بالنسبة إلى الإرهابيين.

بعد أن وضعنا أقدامنا على الأرض الأفغانية وصارت قوات عملياتنا الخاصة متصلة بتحالف الشمال كما بجماعات معارضة أخرى، كنت قد توقعت أن تنطلق الأمور بسرعة أكبر، ورحت أتوجس عندما لم يحصل ذلك. في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر 2001، كان مجلس الأمن القومي قد عقد جلسة مطولة مع الجنرال فرانكس. شاركت في النقاش عبر التواصل الفيديوي الآمن من المكتب في اللوريل لودج. قلت: "إذا نظرنا إلى الوضع من منظار عسكري بحت يمكن القول إن الزمن في صفنا. فمواصلة العمليات ضد أهداف طالبانية ستؤدي إلى إضعافهم، وإدخال قوات خاصة مع بذل جهود إعادة تموين سيفضي إلى تعزيز قوة تحالف الشمال". ولكن الأمر كان عكس ذلك إذا تم النظر إليه في سياق استراتيجي أوسع، كما أكدت، ثم أضفت: "ليس الزمن في صفنا!" فكل يوم يمر دون أن تتجرع القاعدة ومؤيدوها كأس هزيمة كبرى، يشهد تنامياً للخطر الذي يتهدد الولايات المتحدة. في تلك اللحظة بالذات كنت أعمل من موقع غير مكشوف لأن هجوماً آخر كان وشيكاً كما قيل. من المؤكد أن المزيد من الهجمات كانت قيد التخطيط، ومن شأنها أن تكون حتى أكثر تدميراً. كنا نعرف أن القاعدة كانت دائبة على السعي من أجل الحصول على سلاح نووي، وكان من شأنها أن تعمد إلى شن حرب بيولوجية أو كيماوية. ثمة أشخاص ماتوا في الولايات المتحدة من جرثومة الأنتراكس. مبنى مكتب هارت في مجلس الشيوخ تم إغلاقه لأن الأنتراكس كان قد أُرسل بالبريد إلى الشيوخ. سألت الجنرال فرانكس: "ما الذي تحتاجونه كي تسرعوا؟" وطلب الرئيس من فرانكس العودة إلينا بأقصى سرعة ممكنة لإطلاعنا على ما يمكننا عمله للمساعدة.

في رحلته الأخيرة تحدث الجنرال فرانكس في عدد من البلدان الرئيسية في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. ما من زعيم زاره إلا ووجده شاعراً بضغط

الرأي العام، كما قال. لم نكن نبوح بقصتنا، في حين أن الجزيرة، شبكة القمر الصناعي العربية الجديدة نسبياً، كانت تضمن بث وجهات نظر القاعدة. وأضاف فرانكس بأننا سنستمر في التمتع بالتعاون المطلوب من الدول التي كان قد زارها، ولكن عدداً منها كانت راغبة في إبقاء تعاونها سراً.

ولدى التطرق إلى أفغانستان تحدث فرانكس عن نجاح التعاون مع وكالة الاستخبارات المركزية في استخدام طائرات البريداتور (دون طيار) وطوافات الشبح طراز إيه سي - 130 لتحري واستئصال أهداف قاعدية. وقد لاحظ أن جماعات المعارضة، لا سيما تحالف الشمال، كانت تعمل على نحو جيد إلا أنها باتت متعبة وبحاجة إلى الرعاية الطبية.

كذلك تحدث فرانكس عن الحملة الجارية لتدمير مجمّعات الكهوف الكبيرة التي يعيش ويختبئ فيها الطالبان. على لائحة أهدافه نحو 150 كهفاً، وأفاد بأن تقديراته هي أن هناك ألفاً. لاحظ أن الجهود الإنسانية التي كنا قد بدأناها بإسقاط الطعام والمؤن كانت تسير على نحو جيد وذات أهمية حاسمة. أخيراً، أدرج فرانكس أهدافه في الأيام السبعة التالية. كانت تلك مهمات على أصعدة تعزيز قدرتنا الاستخباراتية، وتزويد تحالف الشمال بما يلزم لمواجهة الطقس البارد، ومفاتحة القادة الإقليميين. وفي الحقيقة فإن ما كان سيحققه في الأسبوع لم يكن إلا انتصارنا الكبير الأول.

بدأت العملية مع وكالة الاستخبارات المركزية، وهي ذات صلات في أفغانستان عائدة إلى ثمانينيات القرن الماضي وتعرف بعض اللاعبين معرفة وثيقة. بادرت وكالة الاستخبارات المركزية إلى جمع ناشطينا الخاصين مع تحالف الشمال وقوى المعارضة الأخرى، وسرعان ما نجحت مجموعة من قواتنا الخاصة في السفر على ظهور الخيل مع الجنرال عبد الرشيد دستم ورجاله وطلب الدعم الجوي لتدمير مواقع الطالبان حول مزار الشريف. ومع فرار الطالبان، انضمت القوات الخاصة الأمريكية إلى هجمات الفرسان المتعقبة. تم طلب ضربات بي - 52 لفتح ممر خاص، وبعد سقوط مزار الشريف في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 2001، كانت قواتنا الخاصة على ظهور الخيل مع تحالف الشمال عند دخوله المظفر إلى مركز المدينة. أضفتْ قواتنا الخاصة على الانتصار الأول في الحرب

الأولى للقرن الواحد والعشرين رمزاً باقياً: رجل على ظهر حصان مسلح بالقدرة على استمطار قنبلة موجهة ليزرياً بوزن خمس مئة رطل.

بعد مزار الشريف كرت الأحداث بسرعة. ففي الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 2001، سقطت مدينة هراة بأيدي تحالف الشمال. أعقبتها كابول في 13، وجلالاباد في 14. أما قندهار المعقل الطالباني الأخير فلم تسقط حتى 7 كانون الأول/ديسمبر.

وفي شهر كانون الأول/ديسمبر هذا رعت الأمم المتحدة مؤتمراً في بون الألمانية لاختيار زعيم مؤقت لأفغانستان المحررة. وقع اختيار مندوبي المؤتمر على حميد قرضاي، وهو باشتوني كان قد قاتل ضد الطالبان في الجنوب. وقرضاي هذا الذي كان قد نشأ في أفغانستان وخدم لفترة وجيزة في الحكومة الأفغانية ما قبل الطالبانية، كان قد عاد إلى أفغانستان من باكستان ممتطياً دراجة نارية مع بدء حملة القصف. وبدعم من قواتنا قاد قرضاي القوات الباشتونية التي استولت على قندهار. وفي 22 كانون الأول/ديسمبر، جرى تنصيبه رئيساً للسلطة الأفغانية المؤقتة الجديدة.

في غضون ثلاثة أشهر ونيف، وبالتعاون مع تحالف الشمال وحلفاء في الجنوب، كنا قد أطحنا الطالبان وحررنا 25 مليوناً من البشر. كنا قد بدأنا نحرم القاعدة من قواعد التآمر والتدريب تمهيداً للهجمات ضدنا. كانت ثمة أيام صعبة بانتظارنا، ولكننا كنا، في نهاية عام 2001، قد أنجزنا أشياء كثيرة. وقد نجحنا في فعل ما فعلناه بالقوات الأمريكية التي لم يتجاوز تعدادها في أفغانستان الأربعة آلاف[20].

لدى شروعنا في التخطيط لعملياتنا العسكرية في أفغانستان، تخوف كثيرون من كوننا مباشرين مهمة أكبر وأكثر هولاً مما يمكن تصوره. بشهادة السوفييت، اشتهرت أفغانستان بكونها مقبرة الإمبراطوريات لأسباب وجيهة. فأي قوة مرشحة للانتصار هناك كان يتعين عليها أن تأخذ في الحسبان لا التضاريس الوعرة، غير المرحِّبة وحسب، بل واقع كون الأفغان من أشرس المقاتلين وأخشنهم في العالم. غير أننا، حين بادرنا إلى جهودنا، فعلنا ما فعلناه بقوات متفوقة كثيراً على تلك التي كان الاتحاد السوفييتي

قد نشرها في ثمانينيات القرن العشرين، وكنا نتمتع بتفوق تكنولوجي هائل. وكان في صفنا أيضاً ذلك النوع من التفكير الخلاق الذي تشجعه الحرية. فاستخدام وكالة الاستخبارات المركزية وقوات عملياتنا الخاصة لمزاوجة تكنولوجيتنا مع مقاتلين أفغان ما لبث أن تمخض عن إطاحة الطالبان في زمن لافت القصر. لعل الفرق الأهم تمثل بأننا كنا هناك لنحرر، لا لنحتل؛ لنعتق، لا لنضطهد الشعب الأفغاني.

إلا أن تلك لم تكن، بالطبع، نهاية المطاف، وها نحن ذا نجد أنفسنا بعد عشر سنوات مع نحو مئة ألف جندي أمريكي ما زالوا يقاتلون في أفغانستان، ما يوجب علينا أن نعترف بأن أي انتصارات مؤكدة وسريعة ربما هي نادرة، في الحرب التي نحن منخرطون فيها راهناً. بمقدار ما دفعتنا عاصفة الصحراء إلى توقع انتصارات سريعة، علّمتنا الدرس الخطأ.

نحن الآن بصدد مواجهة عدو مبعثر على أجزاء كثيرة من العالم ملتزم بشن هجمات مكلفة من حيث أعداد الضحايا من أي قاعدة يتمكن من الوصول إليها. وليس الامتحان الرئيسي في هذه الحرب هو المدى الزمني الذي يستغرقه نجاحنا في إنجاز عملية عسكرية محددة. فالامتحان الحاسم هو ما إذا كانت سياساتنا وخططنا، بما فيها عملياتنا العسكرية، فعالة في الدفاع عن أمتنا وحمايتها من المزيد من الهجمات. من الحاسم بالنسبة إلى ذلك الجهد الاعتراف بأن على هدفنا النهائي أن يتمثل بضمان تمكين قوات الأمن الأفغانية من امتلاك التدريب والتجهيز الكافيين للدفاع عن شعبهم وأرضهم. رسالتنا لن تكتمل حتى تصبح الحكومة والقوات المسلحة الأفغانيتين قادرتين، وحدهما، على الحؤول دون صيرورة دولتهم، من جديد، ملاذاً آمناً للإرهابيين.

لعل أهم الدروس التي يمكن استخلاصها، بنظري، من التجربة السوفييتية في أفغانستان في ثمانينيات القرن العشرين هو ما حصل بعد رحيل السوفييت. حولت الولايات المتحدة أنظارها إلى امكنة أخرى، فغاصت أفغانستان في أوحال الحرب الأهلية. وعدم الاستقرار الحاصل وما أعقبه من استيلاء الطالبان على البلد كان يعني أن أسامة بن لادن وإرهابيي القاعدة باتوا قادرين على الاهتداء إلى ملاذ آمن هناك. على امتداد تسعينيات القرن العشرين، تم تدريب آلاف

الإرهابيين في معسكرات القاعدة بأفغانستان التي صارت القاعدة التي انطلقت منها هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وحين أسمع صانعي قرارات سياسية يتحدثون عن الخروج من أفغانستان، أجدني راغباً في تذكيرهم بالعواقب المحتملة.

كانت إحدى الخطوات الأولى التي أقدمنا عليها بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لتعزيز دفاعات بلدنا هي خطوة ضمان تمرير مشروع قانون الوطن، الذي وقعه الرئيس ليصبح نافذاً في تشرين الأول/أكتوبر 2001. وهذا القانون الذي أُقر بأكثرية ساحقة من الحزبين كليهما في الكونغرس، نص على تمكين قوات فرض القانون، وضباط الاستخبارات، وعناصر أجهزة الأمن الوطني من تقاسم المعلومات عن أي تهديدات إرهابية محتملة. كذلك نص على السماح لضباط فرض القانون باستخدام أدوات طالما استُخدمت في تقصي حقائق الجريمة المنظمة ومحاربة الإرهابيين.

كذلك رأيت أن من المهم التأكد من قيام وكالة الأمن القومي (NSA)، المكلفة بجمع المعلومات الاستخباراتية عن الاتصالات الجارية بين خصوم أمريكا بكل ما يمكن القيام به لتعقب أحاديث الإرهابيين، فسألت جورج تنت عما إذا كانت الوكالة متوفرة على جميع الصلاحيات اللازمة. وعد تنت ببحث الأمر مع المدير الجنرال مايك هايدن، وبعد فترة وجيزة جاء الرجلان إلى مكتبي في البيت الأبيض. أفاد هايدن بأنه كان سلفاً قد أدخل عدداً من التعديلات على طريقة الوكالة في مجال جمع المعلومات[21]. وتلك التعديلات كانت ممكنة في ظل الصلاحيات النافذة للوكالة، إلا أن صلاحيات إضافية كانت مطلوبة من أجل تحسين تغطية البرنامج وفعاليته.

نص قانون الرصد الاستخباري الأجنبي لعام 1978 على تأسيس محكمة تلوذ بها الوكالة التماساً للموافقة على نشاطات معينة. أوضح هايدن أن أحد التحديات التي واجهها تمثل بأن بطء إجراءات المحكمة كان يؤدي إلى جعل ما ينبغي إنجازه بسرعة ورشاقة متعذراً. وقد قدم وصفاً لجملة النشاطات التي كان يستطيع الاضطلاع بها شرط توفر الصلاحيات الموسعة، فقلت له إننا سنفعل كل ما نستطيع فعله لتمكينه من الحصول على تلك الصلاحيات.

رفعت تقريراً إلى الرئيس عن الحديث الذي دار بيننا. وبموافقته، طلبت من ديف آدنغتون أن يتعاون مع الجنرال هايدن ومستشار الرئيس، ألبرتو غونزاليس، لاجتراح عملية حقوقية تمكننا من ضمان حصول وكالة الأمن القومي على التفويض الذي كان هايدن بحاجة إليه. بيّن الرئيس أن هذه الصلاحيات الجديدة كان يجب أن تحظى بمصادقة النائب العام، ووزير الدفاع، ومدير وكالة الاستخبارات المركزية، قبل أن يبادر إلى منحها. كذلك قال الرئيس إنه يريد إبقاء البرنامج تحت المراقبة وأمر بوجوب تجديده دورياً. كنا جيدي الإدراك لوجود نوع من التوازن المهم بين حماية الخصوصية من جهة وجمع المعلومات الاستخبارية من جهة ثانية. كان الرئيس راغباً في الاطمئنان إلى عدم توظيف البرنامج إلا عندما يكون مطلوباً للدفاع عن الأمة.

مع أن أجزاء من برنامج وكالة الأمن القومي تبقى مكتومة، بات الآن معلوماً أن عنصراً جوهرياً انطوى على اعتراض اتصالات مستهدفة إلى الولايات المتحدة ومنها والتنصت عليها حيثما توفر أساس معقول لاستنتاج كون أقله أحد طرفي الاتصال مرتبط بالقاعدة أو على علاقة مع إحدى المنظمات الإرهابية[22]. من الصعب تصور أي نوع اتصالات أكثر أهمية بالنسبة إلينا للاعتراض من وجهة نظر أمننا القومي من إرهابيين يهاتفون شخصاً موجوداً سلفاً في الولايات المتحدة. علق الجنرال هايدن قائلاً: "لو كان هذا البرنامج نافذاً قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لكنا، حسب تقديري المهني، قد تحرينا عن بعض ناشطي القاعدة منفذي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر في الولايات المتحدة ولكنا قد تعرفنا عليهم بوصفهم إرهابيين"[23].

في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر 2001، أقدم رئيس الجمهورية، بتوصية من مدير الاستخبارات المركزية ووزير الدفاع، مع تأكيد النائب العام لقانونية الأمر، على إجازة البرنامج للمرة الأولى. في وكالة الأمن القومي خطا الجنرال هايدن خُطوة إضافية. قام بدعوة المحامين الثلاثة الأكثر خبرة في الوكالة فوجدهم، كما قال، أكثر من مسلّمين بالبرنامج. كانوا داعمين له.

وبعد التفويض الأول، صار الرسميون أنفسهم، كل فترة ثلاثين إلى أربعين يوماً، مع تقويم استخباراتي طازج صادر عن وكالة الاستخبارات المركزية،

يرفعون التوصيات مع الشروح الحقوقية إلى الرئيس ملتمسين اتخاذ قرار حول مدى وجوب الاستمرار في تطبيق البرنامج الذي كان بالغ الحساسية ومكتوماً تماماً إلى درجة أن آدنغتون كان يحمل وثيقة التفويض في حقيبة مقفلة خاصة بالوثائق السرية المصنفة يدوياً إلى كل من الرسميين ذوي العلاقة.

كان من شأن البرنامج أن يتوقف إذا لم يقم الرئيس بإجازته كل خمسة وأربعين يوماً. كانت تلك مهمة مربكة شهرياً تأخذ وقتاً من كل من أجندات كبار المسؤولين، ثم تتطلب إيصال الوثيقة إلى الرئيس للتوقيع. ذات مرة لم تأتلف النجوم، وغادر الرئيس إلى آسيا قبل أن تكون الحزمة جاهزة لتوقيعه. طار آل غونزاليس وديف آدنغتون إلى كاليفورنيا لأخذ توقيع الرئيس، كي لا يتعرض البرنامج للتعطيل في أثناء غيابه.

رغبة منا في ضمان كوننا ملتزمين بالقانون نصاً وروحاً على نحو مطلق، كنا أيضاً شديدي الحرص على إطلاع الكونغرس على البرنامج. نظراً للهشاشة والحساسية المفرطتين للموارد الاستخباراتية والمناهج المعتمدة، كنا نقتصر على إطلاع الرئيس والعضو المرموق في مجلس النواب ولجنة استخبارات مجلس الشيوخ، وهي ممارسة اعتمدتها الإدارتان الجمهورية والديمقراطية عند التعامل مع برامج استخباراتية على هذه الدرجة من الحساسية. وهذا البرنامج كان أهم وأكثر سرية من أن يتم عرضه بإيجاز على اللجان كلها، الأمر الذي كان من شأنه، نظراً لدوران عضوية اللجان، أن تشيع الخلاصة بين العشرات. كان لا بد من الحصول على موافقة الرئيس شخصياً قبل إطلاع أي شخص على البرنامج من خارج وكالة الأمن القومي.

درجتُ على استضافة الإيجازات البرلمانية الدورية شخصياً، في مكتبي بالجناح الغربي عادة. كان مايك هايدن يتولى الريادة بتقديم معلومات تفصيلية حول آليات عمل البرنامج وأنماط المعلومات الاستخباراتية التي كنا نحصل عليها من هذا البرنامج.

في ربيع 2004، بعد أن كان النائب العام آشكروفت قد وافق على البرنامج بوصفه قانونياً ما يقرب من عشرين مرة[24]، ثمة محامون جدد في وزارة العدل أثاروا هواجس حول أحد جوانبه، وأعرب جيمس كومي، الذي كان قد أصبح نائباً

للنائب العام في كانون الأول/ديسمبر 2003، عن رغبته في عدم السير قدماً. وفي ضوء ذلك، بادرتُ في 9 آذار/مارس 2004 إلى عقد اجتماع مع معشر المهنيين المحترفين الذين كانوا مضطلعين بتنفيذ البرنامج في وكالة الأمن القومي مع محامي وزارة العدل الذين كانوا قد تحدثوا عن هواجس، أملاً في التوصل إلى مخرج يفضي إلى الاستمرار في جمع المعلومات الاستخباراتية التي نحن بحاجة إليها عن الإرهاب. قدم الجنرال هايدن خلاصة موجزة عن تفاصيل البرنامج، مسلطاً الضوء على قيمته ومؤكداً مدى حرص وكالة الأمن القومي على الالتزام بالقيود والحدود والضمانات. إلا ان محامي وزارة العدل بقوا، في النهاية، متمسكين بموقفهم.

ولأن استمرار البرنامج كان حاسماً، سارعت إلى عقد اجتماع إيجاز برلماني موسع يوم 10 آذار/مارس 2004، لبحث ما إذا كنا بحاجة إلى التماس صلاحيات تشريعية إضافية. جلس حول طاولة الاجتماعات الطويلة في غرفة الطوارئ رئيس مجلس النواب دني هاسترت، وزعيم الأقلية في هذا المجلس نانسي بيلوسي، وزعيم الأكثرية في مجلس الشيوخ بيل فريست، وزعيم الأقلية في مجلس الشيوخ توم داشل، ورئيس اللجنة البرلمانية المختارة للشؤون الاستخباراتية بورتر غوس، ونائبة الرئيس جين هارمان، ورئيس لجنة مجلس الشيوخ المختارة لشؤون الاستخبارات بات روبرتس، ونائب الرئيس جي روكفلر. أما زعيم الأغلبية البرلمانية توم ديلي فلم يكن حاضراً، ولكنه أُطلع لاحقاً.

بعد أن أنهى مايك هايدن مداخلته عن البرنامج، طرحت سؤالين محددين جداً وبالغي الوضوح على الحضور. قلت: "أولاً، يطيب لنا أن نعرف ما إذا كنتم مؤمنين بضرورة استمرار البرنامج". وافق الأعضاء بالإجماع دون استثناء على وجوب مواصلة تطبيق البرنامج. ثم سألت: "ثانياً، هل يتعين علينا أن نطرق باب الكونغرس طالبين تعديلاً لقانون مراقبة الاستخبارات الأجنبية (FISA) يفضي إلى منحنا تفويضاً برلمانياً إضافياً يمكننا من القيام بما هو ضروري؟" مرة أخرى، كان الرأي حول الطاولة إجماعياً. لم يرغب الأعضاء في جعلنا نلتمس تشريعاً إضافياً من أجل البرنامج. تخوفوا، كما فعلنا نحن، من أن يؤدي الذهاب إلى الكونغرس كله إلى المساومة على سرية البرنامج.

لاحقاً في اليوم نفسه، اتصل رئيس الجمهورية مع النائب العام، الذي كان

في مستشفى جامعة جورج واشنطن بالعاصمة واشنطن، وأوضح له أن البرنامج سيتعثر في غياب موافقة وزارة العدل. وعد النائب العام بتوقيع الوثائق، فطلب الرئيس من آندي كارد وآل غونزاليس أن يأخذوا الملف إليه. ذهب كارد وغونزاليس، ومعهما آدنغتون متأبطاً الوثائق السرية جداً بالسيارة إلى المستشفى، ودخل كارد وغونزاليس إلى الغرفة حيث وجدوا نائب النائب العام حاضراً سلفاً. على الفور تبين أن آشكروفت كان قد غير رأيه. أفاد بأنه لن يوقع الوثائق. ألمح أيضاً إلى أنه، بسبب مشكلاته الصحية، كان قد فوض نائب النائب العام كومي بجميع مسؤوليات منصبه. غادر كارد وغونزاليس وبين أيديهما جملة الوثائق غير الموقعة.

بعيد ذلك، راح المحامون يهددون بالاستقالة، كما فعل مدير مكتب التحقيقات الفدرالي بوب مويلر، الذي كان كومي قد أقنعه بوجود مشكلة. نفد صبري إزاء ما كان يحدث أمامي. كان البرنامج نافذاً منذ أكثر من عامين وكان النائب العام قد صادق عليه نحو عشرين مرة. والأهم من كل شيء هو أننا كنا في حرب وأن هدف البرنامج الوحيد كان الحصول على المعلومات الاستخباراتية الضرورية للدفاع عن الأمة. كان ثمة تذكير مأساوي بالتهديد الذي كان الإرهاب الإسلامي يمثله صباح اليوم التالي، يوم 11 آذار/مارس 2004، حين انفجرت عشر قنابل في جملة قطارات بمدريد الإسبانية، فقتلت 191 شخصاً وجرحت أكثر من 1500.

في مواجهة التهديدات بالاستقالة، قرر رئيس الجمهورية أن يغير برنامج وكالة الأمن القومي، وإن كان هو ومستشاروه واثقين من مرجعيته الدستورية على صعيد مواصلة تنفيذ البرنامج دون تغيير.

بعد بضعة أشهر علمنا أن مراسل "النيويورك تايمز"، جيمس رايزن، كان يعد لنشر مادة عن برنامج وكالة الأمن القومي. كان من شأن مثل هذه المادة ان تستنفر أعداءنا وتنبههم إلى البرنامج، بما يؤدي، بالنسبة إلينا، إلى مضاعفة صعوبة الاستمرار في جمع المعلومات الاستخباراتية المطلوبة. عن طريق بيان أن من شأن الجريدة أن تعرّض برنامج أمن قومي مهم للخطر، نجحت كوندي رايس ومايك هايدن في إقناع رايزن و"التايمز" بعدم نشر المادة. ولكن الجريدة ما

لبثت أن عاودت التهديد بالنشر في العام التالي، في كانون الأول/ديسمبر 2005. هذه المرة كان لدى رايزن كتاب موشك على النشر فيه عناصر من المادة، وكانت "النيويورك تايمز" راغبة في عرض الكتاب أولاً. راودنا ما يكفي من القلق إزاء الأذى الذي كان يمكن للنشر أن يلحقه بالبرنامج ما أدى إلى جعل الرئيس يجتمع، وجهاً لوجه، مع ناشر "التايمز" ورئيس تحريرها ليطلب منهما عدم نشر المادة. سلط الضوء على أن من شأن الكشف عن تفاصيل البرنامج أمام الملأ أن يلحق الضرر بقدرتنا على تعقب مكالمات الإرهابيين الهاتفية وقد يفضي حسب أقوى الاحتمالات إلى جعل أمر الحيلولة دون وقوع هجمات مستقبلية أكثر صعوبة بالنسبة إلينا. يوم 16 كانون الأول/ديسمبر 2005، نشرت "التايمز" المادة، دونما اعتبار لأي شيء، بقرار وصفه الرئيس بكلمة "مخجل". وافقته الرأي. يضاف إلى ذلك أنه بدا لي أن "النيويورك تايمز" كانت قد انتهكت الفقرة 798 من المادة 18 من الدستور الأمريكي، التي تحظر نشر معلومات (مصنفة) مكتومة عن الاستخبارات الاتصالاتية لأمريكا.

وبعد ستة أشهر نشرت "النيويورك تايمز" مادة أفسدت جهودنا الرامية إلى تعقب خطوط تدفق التمويل على الإرهابيين. كانت المادة المنشورة يوم 23 حزيران/يونيو 2006 تحمل عنوان: "البيانات المصرفية تتم غربلتها سراً لقطع الطريق على الإرهاب". أماطت المادة اللثام عن تفاصيل ذات علاقة ببرنامج سري لتعقب التعاملات المصرفية، الأمر الذي كان، بالطبع، تنويراً مرحَّباً به بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يحاولون الصيد. دافع محرر "التايمز" العام، بايرون كالامه، في البداية، عن قرار الجريدة الذي قضى بالنشر من منطلق أن البرنامج المصنف لم يكن في الحقيقة شديد السرية. وبعد قيام قراء "التايمز" بالإشارة إلى أن مادة "التايمز" كانت قد أكدت سرية البرنامج ناقض كالامه نفسه، وكتب يقول: "لا أظن أن المقال كان يجب أن يُنشر"[25].

غداة قصة رصد الإرهاب لجريدة "النيويورك تايمز"، قام آندي كارد باستضافة اجتماع في مكتبه حضرته مع عدد من فريق الاتصالات لدى الرئيس. كان مدير الاتصالات دان بارتلت يدفع بقوة باتجاه أن نكون أكثر جرأة في إطلاع الصحافة والجمهور على ما كانت تنطوي عليه هذه البرامج. وقال إن

الرئيس كان "يحمل عبئاً أثقل مما ينبغي" من جراء كل الفعاليات "السرية" الجارية على قدم وساق. مفهوم أن تكون وظيفة الرجل أن يهتم بصورة الرئيس، غير أن أسباباً مهمة كانت كامنة وراء سريتنا. كان ردي كما يلي: "اسمع يا دان، نحن لا نقوم بهذه الأشياء لنتسلى. نقوم بها لأننا في حرب. هذه البرامج - وإبقاؤها مكتومة - أمور بالغة الحساسية والحسم بالنسبة إلى الدفاع عن أمتنا". الرئيس وأنا وكل الآخرين الذين يخدمون في الإدارة مكلفون بمهمة واحدة: الدفاع عن الأمة، وإن تمخض ذلك عن قصص إعلامية سلبية.

برأيي، ليس برنامج رصد الإرهاب إلا أحد قصص النجاح المهمة في تاريخ الاستخبارات الأمريكية. فالسرعة التي استطاعت بها وكالة الأمن القومي اجتراحه ووضعه موضع التنفيذ، وجملة المشكلات التي حلتها هذه الوكالة مع الطريقة التي اعتمدتها في الحل، والاهتمام الحريص الذي حظي به موضوع ضمان الالتزام بالقانون والرقابة السليمة، والمعلومات الاستخباراتية التي تم جمعها، كل ذلك يجعل البرنامج أنموذجاً للعمل الهائل الذي يستطيع أن يفعله موظفو استخبارات أمتنا. وحين أعود بالذاكرة إلى كل ما أنجزناه في تلك الأشهر الأولى لفترة ما بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، فإن هذا البرنامج هو أحد الأشياء التي تشعرني بأسمى آيات الاعتزاز. أعرف أنه أنقذ أرواحاً وقطع الطريق على هجمات. لو تعين علي أن أعيد الكرّة، لما ترددت في التكرار للحظة واحدة.

بالقرب من بلدة مزار الشريف في أفغانستان ثمة قلعة سجن تعود إلى القرن التاسع عشر تحمل اسم قلعة جانغي. في تشرين الثاني/نوفمبر 2001، حين نجحت قوات تحالف الشمال بقيادة الجنرال عبد الرشيد دُسْتُم في اعتقال ثلاث مئة جندي من الطالبان والقاعدة، تم نقل هؤلاء الأسرى إلى القلعة. صباح يوم الأحد، في 25 تشرين الثاني/نوفمبر 2001، ذهب ضابطان من وكالة الاستخبارات المركزية إلى المجمّع لاستجواب السجناء، مجتمعين بمجموعة منهم في فناء مكشوف خارج الزنزانات. على نحو شبه مباشر، وجد أحد الضابطين، جوني مايكل سبان، نفسه مطوقاً. انقض عليه السجناء في هجوم غادر ولئيم "ممزقين لحمه بأظافرهم" كما قال شهود عيان، ومجهزين عليه بأسلحة كانوا

قد هرّبوها إلى الداخل. أصبح سبان الضحية القتالية الأمريكية الأولى في أفغانستان. أما رفيقه، وهو عميل لوكالة الاستخبارات المركزية، معروف باسم ديف فقط، فقد تمكن من الهرب في اليوم التالي. تطلب إخماد الشغب في قلعة جانغي يومين وقوة جوية أمريكية مكثفة[26].

كثيرون من أولئك الذين تم أسرهم في أفغانستان كانوا، بوضوح، قتلة دم بارد كان قد سبق لهم أن اقترفوا أفعال توحش شنيعة ورحبوا بأي قتال حتى الموت. تعين علينا أن نجد مكاناً آمناً نحتجزهم فيه بعيداً عن ساحات القتال. استقرار رأي موظفي وزارة الدفاع على أحد مرافق الاحتجاز في القاعدة البحرية الأمريكية بخليج غوانتانامو، في كوبا، حيث توفر لهم المكان والدعم. كان ذلك خياراً أملته في جزء منه مشورة صادرة عن وزارة العدل تضمنت أن من شأن إبقاء المحتجزين بعيدين عن أرض الولايات المتحدة أن يحول دون وصولهم إلى المحاكم الأمريكية. كذلك وفر احتجاز السجناء في غوانتانامو فرصة تجنب الهواجس التي كان من الممكن أن تنشأ من جراء إدخالهم إلى الولايات المتحدة.

في السنوات المنقضية منذ تم نقل أوائل المقاتلين إلى غوانتانامو، بقيت المرافق هناك وعناصر الخدمة الأمريكيين المكلفين بحراسة المحتجزين الهدف الثابت لطوفان هائل من الانتقادات غير المسوّغة الصادرة عن أناس لا علم لهم بالأوضاع الفعلية للمعسكر. إنه مرفق نموذجي ـ آمن، وأمين، وإنساني ـ حيث تتوفر للمحتجزين فرصة الإفادة من التلفزيون، والكتب، والجرائد، والأفلام السينمائية، ومما يختارونه من عدد من الألعاب الرياضية والنشاطات التدريبية، والقرآن، والطعام الصحي المنسجم مع معتقداتهم الدينية، ومن الرعاية الطبية[27]. لعله يوفر رعاية نموذجية أعلى مستوى من عدد كبير من السجون في بلدان أوروبية حيث أصوات انتقاد غوانتانامو هي الأعلى.

في أوائل الحرب على الإرهاب، صمم الرئيس بوش على أن قوات الولايات المتحدة المسلحة ستعامل المحتجزين، على الرغم من أنهم من القاعدة أو الطالبان غير مؤهلين ليُعدوا أسرى حرب خاضعين لاتفاقيات جنيف، كمسألة خطة وسياسة، معاملة إنسانية "بطريقة متطابقة مع مبادئ جنيف". وتلك بقيت خطتنا طوال فترة وجودنا في السلطة.

كثيراً ما يشير النقاد إلى القرار القاضي بعدم انطباق اتفاقيات جنيف على المحتجزين دليلاً على عدم احترامنا لتلك الاتفاقيات. يبدو لي أن القرار يؤكد العكس. إن اتفاقيات جنيف تهدف إلى توفير الحماية لأولئك الملتزمين بقوانين الحرب، ومن أهمها قانون إبقاء المدنيين آمنين. أما الإرهابيون فيتعمدون مهاجمة المدنيين، واضعين أنفسهم، إذن، خارج دائرة أولئك الذين حرصت جنيف على حمايتهم. أكثر من ذلك، حافز مهم للالتزام بقوانين الحرب يزاح إذا ما تم توسيع نطاق الحمايات ليصبح شاملاً أكثر المنتهكين شناعة. حين رفض الرئيس ريغان اقتراحاً بمد حمايات جنيف إلى الإرهابيين، لاحظ عن صواب أن من شأن ذلك أن "يقوض القانون الإنساني ويعرض المدنيين في الحرب للخطر"[28].

خلال فترة وجودنا في السلطة، ردت وزارة الخارجية على الانتقاد، لا سيما من أوروبا، عبر البحث عن طرق لإغلاق المرفق. في اجتماع بعد آخر ظللنا نناقش مسألة غوانتانامو. بقيت وجهة نظري على الدوام تؤكد أن المكان كان مرفقاً آمناً، وأميناً، وإنسانياً، وأن ليس عندنا بديل أفضل لاحتجاز إرهابيين خطرين. قمنا فعلاً بنقل عدد غير قليل من المحتجزين عبر غوانتانامو وأعدنا بعضهم إلى أوطانهم. ثم علمنا أن عدداً من المحتجزين الذين تم إطلاق سراحهم عادوا إلى سوح القتال، دائبين على محاربتنا نحن وحلفاءنا في الحرب على الإرهاب. لدى خروجنا من السلطة، كان المحتجزون الباقون في المعسكر من بين الأكثر سوءاً والأشد شراسة - ممن هم أخطر من أن يُتركوا وممن لم تكن أوطانهم مستعدة لاستعادتهم.

كانت هذه هي الخلفية التي انطلق منها الرئيس باراك أوباما حين أعلن في اليوم الثاني من تقلده المنصب اعتزامه إغلاق المرفق في غضون سنة. بادرت إدارته إلى رفع وتيرة الجهود الرامية إلى إطلاق سراح المحتجزين رغم العبرة التي كنا قد استخلصناها حول عودة إرهابيين تم إطلاق سراحهم إلى ممارسة الإرهاب، وكرر الرئيس عدداً من الانتقادات التي لا تصمد أمام المعاينة والتدقيق. زعم، مثلاً، أن غوانتانامو "ربما كان أداة التجنيد الأولى المستخدمة" من قبل القاعدة. لو كان ذلك صحيحاً، لتوقع المرء رؤية القاعدة دائبة على ذكر غوانتانامو صباح مساء، إلا أن استعراض أربع وثلاثين رسالة ومقابلة صادرة

عن قيادات القاعدة العليا خلال عامي 2009 و2010 يبين أن كلمة غوانتانامو لم تظهر سوى ثلاث مرات[29]. أوحى الرئيس أوباما أيضاً أن من الواجب إغلاق غوانتانامو لأنه يشوه صورة أمريكا في طول العالم وعرضه. غير أن غوانتانامو ليس هو من يلحق الأذى، إنهم منتقدو المرفق الذين يروجون الأكاذيب حوله. حتى لو سلَّم المرء، على سبيل الجدال، بذريعة الصورة وتشويهها، فإنني لست متعاطفاً كثيراً مع وجهة النظر القائلة بأن علينا أن نهتدي إلى نوع من البديل لغوانتانامو - وهو حل من شأنه أن يبقي الأمريكين أقل شعوراً بالأمن - لا لشيء إلا لأننا متوجسون حول صورتنا في الخارج.

في كل من الحروب الكبرى التي انخرطت فيها الولايات المتحدة درجنا على عادة احتجاز مقاتلين أعداء طوال مدة الصراع. هذه الحرب ليست مختلفة، إلا من حيث احتمال كون المدة أطول من أي حرب خضناها من قبل. مع اندلاع القتال في أفغانستان، أدركنا أن هناك احتمال مواجهة أوضاع تضطرنا إلى محاكمة محتجزين. محامو الإدارة استندوا إلى سوابق واضحة لاجتراح نظام هيئات عسكرية.

في 1942 قامت غواصة بإنزال فريق تخريب مؤلف من ثمانية نازيين على شواطئ فلوريدا ونيويورك. تم إلقاء القبض عليهم، وحوكموا من قبل هيئة عسكرية بتوجيه من رئيس الجمهورية فرانكلن ديلانو روزفلت، ودينوا. ستة من الثمانية أُعدموا. عبرت المحكمة العليا بالإجماع عن تأييدها لدستورية الأمر الصادر عن روزفلت القاضي بتأسيس الهيئات العسكرية.

في الثالث عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 2001، وقّع الرئيس بوش أمراً تنفيذياً، بالاستناد إلى أمر فرانكلن ديلانو روزفلت، قضى بتشكيل هيئات عسكرية لمقاضاة محتجزين معينين وقعوا في الأسر. كان المحتجزون مقاتلين أعداء أجانب مشتبكين في حرب ضد الولايات المتحدة. كانت الهيئات (المحاكم) العسكرية هي الجهة المناسبة لمحاكمتهم. ونظام المحاكم النافذة عندنا بموجب المادة الثالثة العادية لم يكن مناسباً لمحاكمة مقاتلين أعداء لعدد من الأسباب. لم تكن هذه المحاكم قادرة على توفير الضمانات على صعيد الأمن أو حماية

المعلومات السرية المصنفة التي تستطيع أي هيئة عسكرية توفيرها. يضاف إلى ذلك، أن مقاتلي العدو ليسوا متمتعين بالحقوق الممنوحة عبر نظامنا القضائي المدني للمتهمين الجناة. كنا نعرف أن الهيئات العسكرية هي المكان المناسب لهذه المحاكمات. وكنا نعرف أيضاً أن الأنموذج الذي رسّخه روزفلت كان قد حظي بالتأييد الإجماعي من قبل المحكمة العليا، وكان ذلك هو الأنموذج الذي وقع اختيارنا عليه.

مع أن الأمر الذي قضى بتشكيل الهيئات كان قد تم صوغ مشروعه بالتنسيق مع مكتب المستشار الحقوقي لوزارة العدل، قبل توقيعه من قبل الرئيس بثلاثة أيام، فإن النائب العام آشكروفت كان قد جاء إلى البيت الأبيض للتعبير عن القلق إزاء عدم رؤية أي دور للنائب العام. ولكن الهيئات العسكرية تبقى، كما يعكس تاريخها الطويل في أمريكا، نوعاً من ممارسة السلطة العسكرية على مقاتلي العدو وليست جزءاً من منظومة تطبيق القانون وفرضه. بالفعل، كان مكتب المستشار الحقوقي قد أكد أن الهيئات العسكرية يجب تفويضها من قبل رئيس الجمهورية بوصفه قائداً أعلى في أمر موجه إلى وزير الدفاع للتطبيق العسكري، مع حدود دنيا من إشراك وزارة العدل، التي لا تتحمل أي مسؤوليات عسكرية.

وكما تبين، فقد اعترضتنا أيضاً عوائق بيروقراطية في وزارة الدفاع، فتعرّض إطلاق الهيئات العسكرية لبطء شديد. في أعقاب عدد من القضايا القضائية مع تحرك تشريعي إضافي تم تأسيس نظام هيئات عسكرية هو النظام النافذ اليوم. أعتقد أنه يوفر أفضل منابر مقاضاة المقاتلين الأعداء للولايات المتحدة، وقد شرفني أن أرى إدارة أوباما مضطرة ولو بعد حين إلى إدراك ضرورة اعتماد طريقة التفكير نفسها.

في آذار/مارس 2002 أغارت قوات باكستانية على أحد بيوت القاعدة الآمنة في فيصل آباد الباكستانية وألقت القبض على إرهابي يدعى أبو زبيدة. وأبو زبيدة هذا، وهو أحد معاوني أسامة بن لادن، كان عضو القاعدة الأعلى مرتبة الذي كنا قد أسرناه حتى ذلك التاريخ. كان مصاباً إصابات بليغة في تبادل إطلاق النار

الذي أفضى إلى اعتقاله، وضباط وكالة الاستخبارات المركزية الذين كانوا يساعدون العملية الباكستانية رتبوا رحلة جوية خاصة لإحضار طبيب من الولايات المتحدة لتوفير الإسعاف العاجل لأبو زبيدة.

قدّم أبو زبيدة، على الرَّغْم من مقاومته، معلومات مفيدة في وقت مبكر جداً، كاشفاً، مثلاً، عن أن كبير مدبري الحادي عشر من أيلول/سبتمبر كان هو خالد الشيخ محمد. كذلك باح باسم خالد الحركي أو السري: مختار. ولكنه، بعد ذلك، ما لبث أن توقف عن الإجابة على الأسئلة، فبادرت وكالة الاستخبارات المركزية، مقتنعة بتوفره على معلومات كان من شأنها أن تفضي، ربما، إلى إنقاذ آلاف الأرواح، إلى استشارة وزارة العدل والبيت الأبيض حول ما يمكن القيام به لمتابعة استجوابه والتحقيق معه هو وغيره من المحتجزين ذوي القيمة العالية. عمدت وكالة الاستخبارات المركزية إلى تطوير لائحة من تقنيات الاستجواب المعززة التي كانت مستندة إلى برامج البقاء، والمراوغة، والمقاومة، والهرب المستخدمة لإعداد عناصر جيشنا من الرجال والنساء في حال التعرض للأسر، أو الاحتجاز، أو الاستجواب. قبل استخدام التقنيات مع أي إرهابيٍّ أرادت وكالة الاستخبارات المركزية أن تتولى وزارة العدل مراجعتها لإقرار انسجامها مع القانون، بما فيه جملة الالتزامات التعاهدية الدولية مثل شرعة الأمم المتحدة التي تحظر التعذيب. من عملية المراجعة تلك، التي استغرقت عدداً من الأشهر، خرجت جملة خيارات قانونية تفيد بشرعية التقنيات. جرى اعتماد البرنامج من قبل رئيس الجمهورية ومجلس الأمن القومي[30].

فعلت التقنيات فعلها. باح أبو زبيدة بمعلومات عن رمزي بن الشيبه، الذي كان قد ساعد مختطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وفي الذكرى السنوية الأولى لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، جرى اعتقال ابن الشيبه هذا بعد معركة بالمسدسات في الباكستان. وعند اعتقاله، كان عاكفاً على تدبير عملية لاستخدام طائرات رحلات جوية تجارية في هجمات انتحارية على مطار هيثرو ومنشآت أخرى في لندن.

المعلومات المأخوذة من أبو زبيدة وابن الشيبه قادت، بدورها إلى اعتقال خالد الشيخ محمد، الذي ما لبث، بعد استجوابه بتقنيات معززة، أن أصبح منبعاً

غزيراً للمعلومات. ثمة تقرير للسي آي إيه، تمت إماطة اللثام عنه بطلب مني، يسجل أن خالد الشيخ محمد كان "المصدر الأول للقاعدة". تبعاً لتقرير عام 2004 فإن خالد الشيخ محمد كان قد أصبح مفتاحاً لتوصل حكومة الولايات المتحدة إلى فهم مؤامرات القاعدة وشخصياتها:

> *تمخضت خلاصات الاستجواب من احتجازه ... عن تقارير سلطت الأضواء على سلسلة من المؤامرات، والقدرات، وهويات وأمكنة إقامة نشطاء القاعدة والمنظمات والشبكات الإرهابية ذات العلاقة. قدم معلومات عن عقيدة القاعدة الاستراتيجية، والأهداف المحتملة، وتأثير ضرب كل مجموعة أهداف، وعن أساليب الهجوم المعتمدة داخل الولايات المتحدة.*

في أحد الأمثلة قدم خالد الشيخ محمد معلومات أوصلتنا إلى خلية إرهابية في كراتشي الباكستانية. كان أعضاء الخلية متمتعين برعاية إرهابي يدعى حنبلي، مسؤول القاعدة في جنوب - شرق آسيا، تحضيراً لهم للقيام بعمليات ضد الولايات المتحدة، ربما العمل على ضرب أعلى مباني الساحل الغربي بطائرة مختطفة(31).

على الرغم من المعلومات الاستخباراتية الثمينة جداً التي كنا نحصل عليها عبر برنامج الاستجواب المعزز، كان ثمة، في 2005، نوع من التحرك على الكابيتول هيل (البرلمان)، بقيادة الشيخين (السيناتورين) جون ماكين وليندسي غراهام، لوقف البرنامج والمطالبة باعتماد دليل جيش الولايات المتحدة الميداني في سائر تحقيقات حكومة الولايات المتحدة. وكما شرح لي أحد محققي السي آي إيه فإن هذا الدليل لا يفيد إلا في استجواب جنود أعداء فارين من المعركة. "إذا رفض أحد المحتجزين الكلام فإنك تنتقل إلى الثاني فالثالث حتى تصل إلى ذلك الذي يبدي استعداداً للكلام". أما بالنسبة إلى محتجز من نمط خالد الشيخ محمد فإن الأمر مختلف. لم يكن يتكلم ولم يكن ثمة أحد شبيه يمكن الانتقال إليه. صوناً لسلامة الأمة كنا بحاجة إلى أن نجعله يتكلم، وقد حصل ذلك بعد تعريضه لبرنامج الاستجواب المعزز.

في محاولة للتوصل إلى نوع من الاتفاق مع ماكين وإفهامه مدى الأذى

الذي كان من شأن تعديله المقترح أن يتسبب به، بادرنا، مدير السي آي إيه وأنا، إلى لقائه في غرفة اجتماعات آمنة في الكابيتول وحاولنا إطلاعه على ماهية البرنامج والمعلومات الاستخباراتية الحساسة التي كنا قد حصلنا عليها. غير أن جون لم يرغب في سماع ما أردنا قوله. ما إن بدأنا حتى فقد أعصابه وخرج من الاجتماع خروجاً عاصفاً. خياره كان منطوياً على قدر غير قليل من الوزن لأنه كان أسير حرب، إلا أن رأيه عن البرنامج لم يكن، يقيناً، يحظى بالإجماع لدى زملائه من أسرى الحرب السابقين.

اكتشف العقيد الجوي ليو ثورسْنَس أنه كان قد مُنح وسام الشرف وهو سجين في فيتنام. وقد جاءه خَبَرُ حصوله على أرفع أوسمة الشجاعة في البلاد عبر النقر على جدار السجن. في يوم الذكرى عام 2009، كتب ثورسنس، الذي كان قد عُذب على أيدي الفيتناميين الشماليين أن الإغراق بالماء كان "قاسياً إلا أنه لم يكن تعذيباً". ومع أنه من مؤيدي الشيخ ماكين، فإنه يخالفه حول استخدام تقنيات معززة. يقول: "ما كنت لأتردد ثانية واحدة على صعيد الإفادة من الاستجواب المعزز، بما فيه الإغراق بالماء، إذا كان ذلك باباً لإنقاذ حياة أبرياء"[32].

والحائز على وسام الشرف العقيد باد داي كان قد أُسقط فوق فيتنام الشمالية، ثم استُجوب وعُذب. نجح في الهرب من معسكر اعتقاله ولم يكد يشق طريقه إلى المنطقة المنزوعة السلاح، حتى اعتُقل ثانية وعُذب. لبعض الوقت تقاسم داي زنزانته مع ماكين الذي هو معجب به، ولكنه حين سئل من قبل الكاتب مارك تيسن عن مدى كون الإغراق بالماء تعذيباً، أجابه قائلاً: "أنا من مؤيدي الإغراق بالماء. فهو ليس تعذيباً. التعذيب هو إلحاق الأذى". وحين سئل عما يريد قوله لضابط السي آي إيه الذي قام باستجواب خالد الشيخ محمد، أجاب داي: "لقد فَعَلْتَ الشيء الصحيح"[33].

منذ بداية برنامج الاستجواب المعزز، دأبت السي آي إيه على إطلاع أعضاء الكونغرس الرئيسيين على خلاصات التحقيقات وعلى ما كانت الوكالة تحصل عليه من معلومات[34]. لا أتذكر في أي من جلسات الإيجاز التي حضرتها أن عضواً واحداً اعترض على البرنامج أو حض على وقف استخدام

هذه الأساليب الشرعية، المجازة. ومع ذلك فإن الرأي البرلماني، في خريف 2005، لم يكن في صفنا. في إحدى وجبات غداء لجنة التخطيط الجمهورية في مجلس الشيوخ، تلك الوجبات التي كنت أحضرها بانتظام، تحدثتُ عن أهمية البرنامج. لم أستطع أن أكشف الكثير عن تقنيات الاستجواب المحددة. لم أكن قادراً على ما هو أكثر من حض زملائي على التسليم بأهمية البرنامج بالنسبة إلى أمننا القومي. تم إقرار تعديل ماكين بأكثرية 90 إلى 9. بطلب من الرئيس، كان ستيف هادلي قد حاول التفاوض على ما يكفي من المرونة في لغة التعديل بما يتيح لبرنامج السي آي إيه فرصة الاستمرار ولو مقلّماً. كان قد ضمن لغة ظننها قابلة لتعايش السي آي إيه معها، ولكن بورتر غوس ما لبث، بعد قرار التشريع، أن أبلغ ستيف بأنه كان قد بحث الأمر مع أولئك المضطلعين بتنفيذ البرنامج، واكتشف أنه سيتعين عليه أن يتوقف.

حين أصبح مدير وكالة الأمن القومي السابق مايك هايدن رئيساً لوكالة الاستخبارات المركزية في أيار/مايو 2006، قام بإعادة النظر في البرنامج وقرر أن صيغة من صيغه لا بد من إعادة إطلاقها من أجل حماية الوطن. غير أن المحكمة العليا سارعت في حزيران/يونيو 2006 إلى إصدار حكمها في قضية: حمدان ضد رامسفيلد. نص القرار على أن المادة العامة الثالثة في اتفاقيات جنيف التي تحظر أي سلوك "مهين ومذل" وتمنع "ألوان الإساءة إلى الكرامة الشخصية" منطبقة على المحتجزين. بدا القرار غافلاً عن اللغة الميسرة للمادة العامة الثالثة، التي تبين أنها منطبقة على "نزاعات مسلحة ذات طابع دولي". صحيح أن الحرب على الإرهاب دولية جداً، دولية وأكثر، نظراً لوقوعها عبر سلسلة طويلة من البلدان والقارات، إلا أن برنامج استجواب السي آي إيه بات بوضوح، لحظة إقدام المحكمة العليا على إصدار قرارها، بحاجة إلى سند حقوقي جديد كي يتواصل.

قرر الرئيس إماطة اللثام عن بعض جوانب البرنامج لإنقاذه. أعلن أنه كان سيبادر إلى سوق الإرهابيين الموجودين حالياً في سجن السي آي إيه إلى غوانتانامو للمحاكمة، وتقدم بمشروع نص تشريعي كان من شأنه أن يوفر موافقة برلمانية على تشكيل هيئات (محاكم) عسكرية ويبين بوضوح نوعية

الاستجواب الذي كان من شأنه أن يكون مسموحاً به في ظل قانون معاملة المحتجزين.

أقر الكونغرس قانون الهيئات العسكرية في تشرين الأول/أكتوبر 2006، وبعد بضعة أشهر، في تموز/يوليو 2007، وقع الرئيس أمراً تنفيذياً نص على اعتماد خطة طريق لبرنامج استجوابات السي آي إيه. في شهادة كانت عام 2007 أمام لجنة الاستخبارات المختارة بمجلس الشيوخ أوضح الجنرال هايدن الأسباب الكامنة للضرر الذي يسببه حصر استجوابات السي آي إيه بالطرق المعتمدة في الدليل الميداني للجيش:

> *لقد فرضنا قيوداً صارمة على محاولاتنا الرامية إلى انتزاع المعلومات في الأوقات المناسبة من المحتجزين ذوي القيمة العالية الحائزين على معلومات من شأنها أن تساعدنا على إنقاذ أرواح وتعطيل عمليات. من شأن حصر أدواتنا الاستجوابية بتلك المفصلة في الدليل الميداني أن يضاعف من احتمال تمكين أي محتجز ذي قيمة عالية وعزيمة صلبة من كتمان معلومات استخباراتية حاسمة، ذات حساسية زمنية من شأنها أن تفضي إلى الحؤول دون حصول هجوم كارثي وشيك.*

ثم اختتم هايدن كلامه قائلاً: "كان من شأننا أن نعود، من حيث الجوهر، إلى وضعية ما قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر".

وفي تشرين الأول/أكتوبر 2007 تحدث الرئيس عن الاستجواب المعزز في جامعة الدفاع الوطني. قال: "لقد أنجب هذا البرنامج معلومات استخباراتية بالغة الحساسية ساعدتنا على وقف عدد من الهجمات، بما فيها خطة لضرب معسكر المارينز الأمريكي في جيبوتي، وهجوم مدبر على القنصلية الأمريكية في كراتشي، ومخطط لاختطاف طائرة ركاب واقتحام برج المكتبة في لوس أنجلس في كاليفورنيا، ومؤامرة لتطيير طائرات ركاب واقتحام مطار هيثرو ومبان أخرى في مركز لندن". ثم أضاف الرئيس إن السؤال الذي يجب طرحه على المنتقدين هو التالي: "أي من الهجمات التي أتيت على ذكرها للتو كانوا يفضلون ألا نبادر إلى وقفها؟"

* * *

خلال يومين بعد تنصيبه، وقّع الرئيس باراك أوباما على أمر تنفيذي قضى بحصر الاستجوابات بدليل الجيش الميداني، معيداً إيانا إلى نمط ما قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. كان من الممكن نقض ذلك القرار، إلا أن الرئيس أوباما بادر أيضاً في غضون ثلاثة أشهر من توليه المنصب، إلى إطلاق المذكرات الحقوقية المفصّلة لجملة التقنيات التي كانت قد استُخدمت في برنامج الاستجوابات المعززة، للملأ، مما عنى أن من شأن إعادة اعتمادها، إذا ما حصل شيء من هذا القبيل في أي وقت، أن تكون ذات فعالية متضائلة من جراء إطلاعنا العالم - بمن فيه أعداؤنا - على أساليب كان من المحتمل أن نلوذ باستخدامها. وقد أصر على البوح بالمذكرات وكشف الغطاء عنها رغم احتجاجات مديره الحالي للسي آي إيه والمدراء الأربع السابقين لهذه الوكالة. كذلك أقدم على التصرف مع أنه أُبلغ، على ما يبدو، مباشرة من قبل أعضاء في جهاز السي آي إيه السري بأن من شأن إماطة اللثام عن هذه المعلومات أن تعرض ناشطينا في السي آي إيه للخطر[35].

زعم الرئيس أوباما أنه لم يكن يختزل أدوات أمريكا على صعيد خوض الحرب على الإرهاب لأنه كان يشكل بديلاً من برنامج الاستجوابات: "فريق استجواب المحتجزين من ذوي القيمة العالية" [HIG]. وعندما تم اعتقال عمر فاروق عبد المطلب يوم عيد ميلاد 2009 وهو عاكف على محاولة إشعال قنبلة كان يحملها في ثيابه الداخلية على متن طائرة خطوط نورثوست الجوية في الرحلة رقم 253، سئل دنيس بلير، مدير الاستخبارات القومية، عما إذا كان عبد المطلب قد تم استجوابه والتحقيق معه من قبل فريق (HIG). تبين أن ذلك لم يحصل. بعد أن كان الرئيس قد أوقف برنامج الاستجوابات المعززة وكشف النقاب عن التقنيات أمام الملأ بعدد من الأشهر، لم يكن البديل موجوداً. قرئ على عبد المطلب تنبيه ميراندا (لفت نظر المتهم إلى حقه في أن يبقى صامتاً وأن يطلب محامياً).

فيما كانت الإدارة تتحرك ببطء لاجتراح برنامج استجوابات للتحقيق مع الإرهابيين، بدت هذه الإدارة سريعة في المبادرة إلى فتح تحقيق مع موظفي

السي آي إيه الذين تولوا تنفيذ برنامج التحقيقات المعززة. ومع أن هؤلاء الضباط كانوا قد تعرضوا للاستجواب وبُرئوا من قبل محامي وزارة العدل المختصين، فإن النائب العام إريك هولدر راح يهددهم بالملاحقة القضائية. في أيار/مايو 2011، بعد أن نجحت الولايات المتحدة في تحديد مكان بن لادن وقتله، علمنا أن معلومات استخباراتية حصل عليها هؤلاء المستجوبون عبر برنامج الاستجوابات المعززة كانت قد ساعدتنا في الوصول إليه.

نظراً لكوننا في مواجهة نوع جديد من الأعداء في أولى حروب القرن الواحد والعشرين، بادرت إدارة بوش إلى تطبيق برامج ذات أهمية حاسمة بالنسبة إلى ضمان أمن الأمة. تعقبنا إرهابيين في ملاذات آمنة بأفغانستان وأجهزنا على نظام الطالبان الذي كان قد وفر الرعاية لأولئك الإرهابيين. عززنا قدرتنا على اعتراض الاتصالات الإرهابية وتعقب الأموال الداعمة للإرهابيين. وقمنا باجتراح برنامج لأخذ معلومات من إرهابيين محتجزين أدت إلى إنقاذ حيوات ومنع هجمات تالية. بعد أن دار دولاب الزمن عقب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وبدا خطر حصول هجوم جديد متراجعاً في أذهان الناس، تعالت أصوات انتقاد لما كنا قد فعلناه، وما من برنامج نال شجباً أقسى من الشجب الذي تراكم على إجراءات السي آي إيه على صعيد استجواب المحتجزين ذوي القيمة العالية. وفي زحمة السجال المحموم بدا وكأن بعض النقاط الأساسية تعرضت للإغفال. كان البرنامج آمناً، وشرعياً، وفعالاً. تمخض عن معلومات استخباراتية مكّنتنا من قطع الطريق على هجمات وإنقاذ أرواح أمريكية. وفوق كل شيء آخر، كان جزءاً من مشروع كبير وعمل واسع مكّننا، على امتداد سبع سنوات ونصف، من الحؤول دون حصول هجمات أخرى ضد الولايات المتحدة تكلفنا أعداداً كبيرة من الضحايا.

الفصل الثاني عشر

تحرير العراق

كان استعداد صدام حسين لاستخدام أسلحة الدمار الشامل معروفاً للقاصي والداني في طول العالم وعرضه. كان قد استعمل الأسلحة الكيماوية ليس ضد أعدائه وحسب، بل ضد شعبه بالذات. ففي 1988، في أثناء الحرب الإيرانية - العراقية، هاجم بلدة حلبجة الكردية بغازي الخردل والأعصاب، مزهقاً آلاف الأرواح البريئة. قرى بكاملها ماتت فيما كانت تمارس حياتها اليومية. أمهات قضين حاضنات أطفالهن الرضّع.

كان صدام عازماً على إغناء ترسانته بالأسلحة النووية، وبعد حرب الخليج في 1991، علمنا أن برنامجه لتطويرها كان أكثر تقدماً مما كنا قد اعتقدنا. تقدير أحد تقارير وكالة الطاقة الذرية الدولية رأى أن صداماً كان قادراً على حيازة سلاح نووي مع حلول أواخر 1992، لو لم تتعرض جهوده للإعاقة من جراء عاصفة الصحراء[36].

بعد حرب الخليج بادر مجلس الأمن الدولي إلى مطالبة العراق بإعلان التخلي عن مكونات برنامجه النووي جنباً إلى جنب مع أسلحته الكيماوية والبيولوجية إضافة إلى القدرة على إنتاجها. فقرار الأمم المتحدة رقم 687 ألزم صدام حسين بتدمير أي صواريخ بالستية ذات مدى أبعد من 150 ميلاً وبالسماح بنظام عمليات تفتيش ميدانية للتأكد من التزامه. كذلك قامت الأمم المتحدة بتوسيع نطاق برنامج عقوبات قاسية وشاملة.

غير أن قرارات مجلس الأمن بقيت ضئيلة الفعالية مع صدام. ثمة تخمين صادر عن الاستخبارات القومية في 1993 قدّر أن الدعم الدولي للعقوبات الدولية بات متآكلاً، ولكنه رأى أنها وإن ظلت على حالها، فإن صدام حسين كان "سيواصل إعادة تأسيس قوات العراق العسكرية التقليدية" و"سيتخذ خطوات لإعادة تركيب برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية"[37]. ففي أحد تقارير اللجنة المشتركة لاستخبارات الطاقة الذرية عام 1994، اتفقت مجموعة الأجهزة الاستخباراتية على أن "الحكومة العراقية مصممة على العمل سراً من أجل إعادة تأسيس برنامج أسلحتها النووية"[38].

في 1995 أقدم صهر صدام، حسين كامل المجيد، وأخوه صدام، مع عائلتيهما، على الهرب إلى الأردن. كان حسين كامل مسؤولاً عن أجزاء من برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية، والإفشاءات التي أعقبت هروبه دفعت المفتشين إلى الاقتناع بأن صداماً كان يخدعهم، ولا سيما حين تعلق الأمر بجهوده البيولوجية والنووية. نجح صدام في إغراء كامل وأخيه وعائلتيهما بالعودة إلى العراق ثم أوعز بقتل الأخوين، جنباً إلى جنب مع والدهما، وأختهما، وأولادهما، بعيد العودة[39].

في 1998 أصر صدام على مطالبة مفتشي الأسلحة الدوليين بوقف العمل ومغادرة العراق. رداً على ذلك أصدر الكونغرس قانون تحرير العراق الذي وقعه الرئيس كلنتون، ما جعل تغيير النظام في العراق خطة حكومة الولايات المتحدة، ووافق على تخصيص نحو 100 مليون دولار لتمويل جماعات المعارضة العراقية الساعية لإطاحة صدام.

وفي كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام أطلق الرئيس كلنتون عملية ثعلب الصحراء، حملة ضربات جوية لمدة أربعة أيام بهدف اختزال قدرات أسلحة صدام. قال كلنتون: "إذا تحدى صدام العالم وأخفقنا في الرد فإننا سنواجه تهديداً أكبر بكثير في المستقبل. ضعوا خطاً تحت كلماتي، سيقوم بتطوير أسلحة دمار شامل. وسينشرها، وسيستعملها."

كان ثمة تأييد من الحزبين كليهما للعملية. ومن الديمقراطيين الذين رفعوا أصواتهم يرد ذكر الشيخة نانسي بيلوسي، التي كانت عضواً في لجنة

الاستخبارات البرلمانية. قالت بيلوسي: "ما زال صدام حسين متورطاً في عملية تطوير تكنولوجيا تدمير شامل ما يشكل تهديداً لبلدان في المنطقة. وقد راوغ عمليات التفتيش عن الأسلحة وضللها." عدد من الشيوخ بمن فيهم الديمقراطيون جون كيري، وكارل ليفن، وتوم داشل، كتبوا إلى الرئيس كلنتون يدعونه بإلحاح إلى "اتخاذ خطوات ضرورية (منها، إذا لزم، ضربات جوية وصاروخية على مواقع عراقية مشبوهة) للرد بفعالية على التهديد المتمثل برفض العراق وضع حد لبرامجه الخاصة بأسلحة الدمار الشامل". أما الشيخ جو بايدن، الذي كتب في "الواشنطن بوست" قبل الضربات بشهرين، فلاحظ قصور أي سياسة تُبْقي صداماً في السلطة. كتب يقول: "في آخر المطاف، طالما بقي صدام ممسكاً بالدفة، فإن أي مفتشين لن يضمنوا الاستئصال الكلي لبرنامج أسلحة صدام حسين"، ولاحظ أن "الطريقة الوحيدة لإزاحة صدام هي عمل عسكري كبير، بقيادة الولايات المتحدة".

لم يجد صدام حسين عملية ثعلب الصحراء مقنعة. ففي 1999 بدأ يطلق النار على طائرات أمريكية وبريطانية كانت تطبق الحراسة على منطقتي الحظر الجوي في شمال العراق وجنوبه. كانت الولايات المتحدة مع كل من المملكة المتحدة وفرنسا قد أوجدت المنطقتين لمنع صدام من اضطهاد الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب. وفي الوقت نفسه كان صدام، كما كنا سنكتشف لاحقاً، يوظف برنامج النفط من أجل الغذاء، الهادف إلى خدمة شعب العراق، لمضاعفة ثروته الشخصية، ولرشوة آخرين، ولشراء تحسينات لمرافق منطوية على إمكانيات الاستخدام في مجال تطوير أسلحة دمار شامل[40].

في 1999 قدّرت مجموعة الأجهزة الاستخباراتية الأمريكية أن صداماً كان قد أعاد تفعيل برنامج أسلحته البيولوجية[41]. وفي عام 2000 تضمن أحد تقديرات الاستخبارات الوطنية حول تهديدات الأسلحة البيولوجية في العالم كله الحكم الجوهريّ التالي:

رغم الجهد الدولي المبذول منذ عقد كامل من الزمن من أجل نزع سلاح العراق، فإن معلومات جديدة توحي بأن بغداد قد واصلت ووسعت برنامج أسلحتها

البيولوجية عبر امتلاك قدرة واسعة النطاق، وفائضة، ومخفية لإنتاج عناصر أسلحة بيولوجية. نرى أن العراق ما زال يحتفظ بالقدرة على إنتاج العناصر المعلنة من قبل وربما هو يدأب على مواصلة تطوير عناصر جرثومية وسُمّية إضافية. يضاف إلى ذلك أننا نعتقد بأن لدى العراق منظومات إيصال أسلحة بيولوجية يمكن استخدامها لتهديد القوات الأمريكية والحليفة في منطقة الخليج العربي[(42)].

كذلك كان هناك كلام مطرد عن توفر صدام على الموظفين والبنية التحتية اللازمتين لأي برنامج أسلحة نووية وعن استمراره في الحصول على التكنولوجيات المنطوية على طاقة الاستعمال النووي أو غير النووي[(43)].

أحد التقارير الاستخباراتية الأولى الذي وصلنا، جورج بوش وأنا، في أواخر عام 2000 قبل أدائنا للقسم كان تقويماً واسع النطاق لنشاطات العراق ذات العلاقة بأسلحة الدمار الشامل. وعلى الرغم من أن التقرير نفسه يبقى مكتوماً (مصنفاً)، فإن العنوان يكشف أن: "العراق يدأب بثبات على متابعة تطوير قدرات أسلحة الدمار الشامل". كما في العقد الذي سبق كانت الأشهر السبعة والعشرين التالية ستشهد قرعاً مطرداً لطبول إنذار الاستخبارات عن التهديد المتمثل بصدام.

ومع الوصول إلى هذا التاريخ كان أيضاً قد تراكم ستة عشر قراراً صادراً عن مجلس الأمن الدولي بهدف التخفيف من الخطر الذي يشكله العراق. لم يَكُفّ صدام عن تكرار انتهاك تلك القرارات، متجاهلاً جملة الشروط المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل جنباً إلى جنب مع تلك المعطوفة على الإرهاب. كان القرار رقم 687، الصادر في 1991، قد أعلن أن على العراق ألا يمارس الإرهاب أو يدعمه، أو يفسح في المجال لنشاط منظمات إرهابية في العراق. إلا أن جهاز الاستخبارات العراقي (الآي آي إس [IIS]) حاول، في 1993، اغتيال الرئيس السابق جورج أتش دبليو بوش[(44)]، وظل هذا الجهاز على امتداد عقد التسعينيات متورطاً في هجمات إرهابية[(45)]. كان صدام قد وفر لعبد الرحمن ياسين، خبير صنع المتفجرات العراقي الذي أنتج القنبلة المستخدمة في الهجوم الأول على مركز التجارة العالمي سنة 1993، ملاذاً آمناً. كذلك آوى الفلسطيني أبو العباس،

الذي قاد عملية اختطاف سفينة آخيل لاورو في 1985 وقتل راكباً أمريكياً، كما آوى أبو نضال الذي كان قد قتل عدداً من المدنيين في هجمات على مكاتب تذاكر سفر شركة العال في مطاري روما وفيينا.

غداة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، بعد أن كانت الولايات المتحدة قد توغلت في أفغانستان تنفيذاً لعملية الحرية الدائمة، قام جورج تنت بإبلاغ لجنة الاستخبارات المختارة في مجلس الشيوخ عن "امتلاكنا لأدلة دامغة على وجود أعضاء من القاعدة في العراق، بمن فيهم بعض ممن كانوا في بغداد". كانت السي آي إيه متوفرة على "تقارير موثوقة" عن سعي القاعدة لإيجاد صلات في العراق تمكنها من الحصول على أسلحة دمار شامل. في هذه المرحلة كان صدام قد صار يدفع مبلغ 25000 دولار لأقارب كل انتحاري فلسطيني يفجر نفسه، وقد لاحظ المدير تنت أن "دعم العراق المتزايد للمتطرفين الفلسطينيين، مضافاً إلى المؤشرات المتنامية الدالة على وجود نوع من العلاقة مع القاعدة، يوحي بأن ارتباطات بغداد بالإرهابيين ستتضاعف، حتى في غياب أي عمل عسكري أمريكي"[46].

في شهادة له أمام مجلس الشيوخ عام 2003، لاحظ أيضاً أن العراق كان يوفر ملاذاً آمناً لأبو مصعب الزرقاوي، وهو إرهابي أردني المولد كان قد تدرب في أفغانستان وما لبث أن أصبح قائداً ذا شأن في منظمة القاعدة. كان قد وصل إلى العراق في 2002، وقضى بعض الوقت في بغداد، ثم تولى الإشراف على عدد من المعسكرات في شمال العراق الذي وفر ملاذاً آمناً لنحو مئتين من مقاتلي القاعدة الفارين من أفغانستان. وفي أحد تلك المعسكرات، وهو المعسكر المعروف باسم خورمال، قام عناصر الزرقاوي باختبار بعض السموم وبتدبير سلسلة هجمات لاستخدامها في أوروبا. ومن قاعدته في العراق قام الزرقاوي أيضاً في تشرين الأول/أكتوبر 2002 بإدارة عملية قتل موظف وكالة أمريكية للتنمية الدولية في الأردن يدعى لورنس فولي[47].

وخلال فترة ممتدة تقادماً إلى حرب الخليج الأولى ظلت مجموعة الاستخبارات الأمريكية تدأب على توفير تقويمات تفصيلية لجهود صدام حسين الرامية إلى تطوير أسلحة نووية، ومواصلة برامج أسلحة بيولوجية وكيماوية،

ودعم الإرهاب. فالتقويم الاستخباراتي القومي الذي استلمناه في 2002 كان استمراراً لتقويمات سابقة، وما كنا نقرؤه، الرئيس وأنا، في الخلاصات اليومية كان حتى "أكثر حزماً"، على حد ما كتب لاحقاً المدير تنت، رغم توازن أحكامه[48].

بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لم يكن أي رئيس أمريكي قادراً على تحمل مسؤولية تجاهل السيل المتواصل باطراد من التقارير التي كنا نحصل عليها عن التهديد الذي كان صدام حسين يشكله. كنا قد عشنا تجربة الهجمات غير المسبوقة على وطننا. ثلاثة آلاف أمريكي، منشغلين بمتابعة حيواتهم اليومية، كانوا قد قُتلوا. الرئيس وأنا كنا مصممين على بذل كل ما نستطيعه من جهد لقطع الطريق على أي هجوم آخر، وقد تعاظم تصميمنا قوة من جراء إدراك أن من شأن أي هجوم مستقبلي أن يكون حتى أكثر تدميراً. كان إرهابيو الحادي عشر من أيلول/سبتمبر مسلحين بتذاكر سفر جوي ومشارط فتح علب. أما الموجة التالية فكان من المحتمل أن تأتي مثقلة بأسلحة كيماوية، أو بيولوجية، أو نووية.

حين نظرنا إلى أطراف العالم في تلك الأشهر التي أعقبت الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لم نر مكاناً أكثر احتمالاً من عراق صدام حسين ليكون عقدة ترابط بين الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل. وبالإفادة من النظر إلى الخلف - حتى مع أخذ أن بعض المعلومات الاستخباراتية المستلمة كانت خاطئة في الحسبان - فإن ذلك التقويم لا يزال صحيحاً. ما كنا لنستطيع تجاهل التهديد أو تمني عدم وجوده، حالمين، بسذاجة، بأن نظام العقوبات المتداعي كان سيؤدي إلى احتواء صدام. إن أمن أمتنا وأمن جميع أصدقائنا وحلفائنا كان يدعونا إلى التحرك. فلبينا الدعوة.

الرئيس وأنا تحدثنا في خلواتنا عن العراق خلال الأسابيع التي أعقبت الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. كنت على علم بأن الوزير رامسفيلد كان قد أطلق عملية لمراجعة جميع خطط الحرب لدى وزارة الدفاع، وألمحت للرئيس أن من المفيد التأكد من أن رامسفيلد قد وضع في سلم أولوياته إمكانية القيام بعمل

عسكري ضد صدام حسين. كنت أعرف من تجربتي كوزير للدفاع خلال عملية عاصفة الصحراء أن التخطيط العسكري الجيد يستغرق وقتاً. وتوجيه رامسفيلد إلى جعل الجيش يبادر إلى تحديث خططنا الحربية العراقية كان أفضل سبل اطمئنان الرئيس إلى امتلاك جملة من الخيارات الفعالة، والموثوقة إذا ما دعت الضرورة إلى عمل عسكري. كذلك اقترحت أن تتم متابعة تخطيطنا في مقر القيادة المركزية بتامبا في فلوريدا. فالقيادة المركزية، السنتكوم، هذه تحت قيادة الجنرال تومي فرانكس، كانت مسؤولة عن الشرق الأوسط، بما فيه العراق، والتخطيط الذي ننجزه هنا أقل احتمالاً للتسريب من التخطيط الذي نقوم به في واشنطن.

في الثامن والعشرين من كانون الأول/ديسمبر 2001، كنت جالساً في مكتبي على الطابق الثاني من بيتنا في وايومنغ. خارج النافذة كان الثلج يغطي الأرض. أمامي على الطاولة كانت شاشة الاتصالات الفيديوية المتشعبة الآمنة التي مكنتني من المشاركة عن بعد في اجتماع سري مع الرئيس وأعضاء مجلس الأمن القومي الآخرين. لاجتماع ذلك الصباح، كان الرئيس في مزرعته بكروفورد التكساسية، مع الجنرال فرانكس. دون رامسفيلد كان ينضم إلى الاجتماع من بيته في تاوس النيومكسيكية؛ أما آخرون مختلفون، ومنهم كولن باول، وكوندي رايس، وجورج تنت، فكانوا ملتحقين بركب الاجتماع من العاصمة.

بعد التحدث حول الوضع الراهن في أفغانستان، تحول فرانكس إلى المداخلة التي كان قد أعدها عن العراق. الخطة الراهنة للحرب، "Op Plan 1003"، كانت، من حيث الجوهر، هي نفسها التي كنا قد اعتمدناها في 1991. كان مخططو وزارة الدفاع عاكفين على استعراضها من جديد، ولكنها بقيت متطلبة لما هو أكثر من أربع مئة ألف جندي؛ حشداً مكشوفاً جداً لمدة ستة أشهر؛ ولكنها أخفقت في أخذ التغيير الحاصل في العالم في الحسبان. جيش صدام، على هوله، صار نحو نصف ما كانه في حرب الخليج الأولى. صحيح أن جيشنا كان أيضاً أصغر حجماً، إلا أن قدراته قد تزايدت، بسبب التقدم الحاصل في الأسلحة الذكية والقدرة على التنسيق بين الضربات الجوية والعمليات العسكرية في المقام الأول. قدم فرانكس صورة بدايات خطة حرب تمت إعادة

تصورها، كان من شأنها أن تمكننا من التحرك أسرع مستهدفين على نحو متزامن جملة مراكز قوة داخل العراق. قام بعرض عدد من الفرضيات، إحداها قائمة على احتمال لجوء العراق إلى استخدام أسلحة دمار شامل ضد قواتنا، وقد تعين علينا أن نكون مستعدين لذلك. ولاحظ أيضاً أن من شأن أطراف أخرى في الحكومة الأمريكية أن تضطلع بأدوار مهمة إذا ما دخلنا حرباً ضد العراق. فوزارة الخارجية التي كانت قد تعاونت مع الأسرة الدولية لتأسيس الحكومة المؤقتة في أفغانستان، كان سيتعين عليها أن تبذل جهداً مماثلاً في العراق.

كنا جميعاً في الاجتماع مدركين للنجاح الذي حققناه للتو في أفغانستان بالاستناد إلى تعاون ناشطي السي آي إيه مع قوات العمليات الخاصة والمقاتلين الأفغان. حذر جورج تنت من احتمال كون العراق موضوعاً مختلفاً.

كنت أعلم أن نظام صدام حسين هدف صعب الاختراق، بيد أنني أردت التوصل إلى فهم أفضل لما كانت السي آي إيه قادرة على أن تفعله داخل العراق، فطلبت من تنت أن يرسم صورة موجزة. في الثالث من كانون الثاني/ يناير 2002، جاء تنت واثنان من كبار ضباطه، أحدهما مدير فريق عمليات العراق، إلى مكتبي في الجناح الغربي للاجتماع معي أنا وسكوتر ليبي. مدير فريق عمليات العراق، الذي بقي اسمه سراً، بدأ بسرد تاريخ وجيز لانخراط الوكالة بالعراق، بما فيه عملية خرقاء في أواسط التسعينيات كان صدام قد سحقها. ثم انتقل إلى نوع من مناقشة العبر التي كانت الوكالة قد استخلصتها من عملياتها العراقية. في صدر لائحته، أكد المدير أن من شأن العمل السري أن ينجز أشياء كثيرة، ولكنه عاجز وحده عن إطاحة صدام. فأي عمل سري ينبغي أن يكون جزءاً من خطة أمريكية شاملة، ولا بد لجميع عناصر تلك الخطة من أن تتركز على الهدف نفسه على نحو منسق. ثانياً، من المهم امتلاك فهم واضح لما نحن مستعدون لأن نفعله عسكرياً. من شأن التحرك السري أن يكون أكثر فعالية حين يكون مدعوماً عسكرياً. ثالثاً، لا بد من اجتراح عملية تضمن اتخاذ القرارات في الأوقات المناسبة. فنجاح العمليات أو إخفاقها ـ وما ينطوي عليه ذلك من أرواح بشرية ـ قد يبقى متوقفاً على تلقي أجوبة من صانعي القرار السياسي في واشنطن.

تمثلت إحدى أهم نقاط مدير الفريق بإلحاحه إلى إعادة الثقة بين الولايات المتحدة والشعب العراقي. فهذا الشعب كان لا يزال يذكر أننا كنا قد شجعناه على الانتفاضة خلال عملية عاصفة الصحراء ثم ما لبثنا أن تخلينا عنه فيما دأبت طوافات صدام الجوية على ذبح الآلاف وصولاً إلى إخماد الانتفاضة. فالشعب مسكون بالذعر من صدام وبالريبة إزاء وعودنا. حين حاول ضباط السي آي إيه تجنيد عناصر من داخل العراق، قوبلو في أكثر الأحيان بالشك حول مدى جديتنا في موضوع إطاحة صدام. إذا كنا نريد اجتراح برنامج عمل سري ناجح داخل العراق، فلا بد لنا من أن نقنع العراقيين بأننا نعني ما نقوله هذه المرة.

أضاف مدير الفريق أن هذه المهمة كانت تتعقد من جراء "استراتيجيتنا المتشعبة" - استراتيجية التعاون مع عقوبات الأمم المتحدة وعمليات تفتيشها، مع العمل في الوقت نفسه للسير في طريق تغيير النظام. أُخذت فكرته مأخذ الجد، وتم الترحيب بها، ولكن سياسة الخط المزدوج كانت متعمدة. فأفضل طرق إجبار صدام على الإذعان لمطالب الأمم المتحدة كانت إقناعه بأننا سنستخدم القوة إذا لم يبادر إلى مثل هذا الإذعان. كنت أدرك أن من شأن الاجتماعات، والقرارات، والمفاوضات الدولية أن توحي بعدم جدّية اعتزامنا استخدام القوة، غير أن أي بدائل لم تكن موجودة راهناً.

في الربيع طلب الرئيس مني أن أسافر إلى الشرق الأوسط. تمت البرمجة لزيارة اثني عشر بلداً في عشرة أيام لإجراء مناقشات حول طيف من القضايا، بما فيها ليس العمليات في أفغانستان وحسب، بل وجهودنا المتواصلة أيضاً في الحرب على الإرهاب الشاملة للعالم كله من أوله إلى آخره. خططت لمناقشة المراحل التالية من الحرب على الإرهاب، أي الحديث عن التهديد المتمثل بصدام حسين. وكنت مدركاً أيضاً لحقيقة أنني سأكون في كل محطة منخرطاً في الكلام عن النزاع الإسرائيلي العربي، الذي كان قد طُبع بعنف مرعب في فترة السنة والنصف الأخيرة.

كانت هذه رحلتي الأولى إلى ما وراء البحار نائباً للرئيس، كنت مدركاً لحقيقة أن منصبي كان مشفوعاً بشروط معينة من الطقوس والبروتوكول، غير

أنني طلبت اختزالها إلى الحدود الدنيا. سبق لي أن سافرت إلى جميع البلدان المدرجة في برنامجي باستثناء اليمن. كنت قد عرفت جل قادتها منذ ما يزيد على عقد، وعرفت أن من شأن التوظيف الأمثل للوقت هو إجراء حوارات صريحة ومباشرة مع هذه القيادات.

بدأت رحلتي بمحطة لندن لزيارة أحد أقرب وأفضل حلفاء أمريكا في الحرب على الإرهاب: رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير. أُكِنُّ قدراً هائلاً من الاحترام لرئيس الوزراء بلير. هو ليبرالي من حزب العمال وأنا محافظ من الحزب الجمهوري، ولم نتفق دائماً على الاستراتيجية والتكتيكات. غير أن أمريكا لم يكن لها حليف أعظم منه خلال فترة حكمنا. خطاباته عن الحرب كانت بعض الخطابات الأكثر بلاغة التي تشرفت بسماعها. استثنائياً أتذكر جلوسي على كرسي نائب الرئيس خلف المنصة في قاعة مجلس النواب (الممثلين) في تموز/ يوليو 2003 فيما كان رئيس الوزراء يخاطب جلسة مشتركة للكونغرس. كان يعرف أن المنتقدين في أمريكا كانوا يسألون عن سبب اضطرارنا لتولي قيادة تحرير العراق والتصدي للإرهاب، فجاء رده على النحو التالي: "لأن القدر وضعكم في هذا الموقع من التاريخ، هذه اللحظة من الزمن، والمهمة ملقاة على عاتقكم أنتم". غير أنه أضاف أن أمريكا لن تكون وحدها، واعداً: "سنكون معكم في هذه المعركة من أجل الحرية."

لدى لقائنا في آذار 2002 في 10 داوننغ ستريت، ناقشنا، رئيس الوزراء وأنا، جهودنا المتواصلة في أفغانستان، بما فيها خطط إعادة بناء الجيش الوطني الأفغاني، وتوسيع مهمة الناتو، وإشراك الأسرة الدولية أكثر بالمساهمة في إعادة بناء ذلك البلد المنكوب. أخبرت بلير بأن الرئيس لم يكن قد قرر بعد بشأن العمل العسكري ضد صدام حسين وبأننا راغبون في التشاور الواسع مع حلفائنا في أثناء تكشّف العملية. كذلك طلبت من رئيس الوزراء، كما فعلت مع قادة آخرين في هذه المرحلة، ألا يشك بالنتيجة إذا ما نشبت الحرب. كان الرئيس راغباً في أن يوضح دون أي لبس أننا سننجز المهمة إذا ما أقدم على اتخاذ قرار الذهاب إلى الحرب. من المؤكد أننا كنا سنطيح صدام حسين، سنستأصل الخطر الذي يمثله، وسنؤسس لنظام حكم تمثيلي.

ناقشنا أيضاً الاجتماع القادم للجامعة العربية في بيروت، حيث كان من شأن الموضوع أن يتركز على الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني. كان الإسرائيليون يهددون بمنع ياسر عرفات من مغادرة مجمّعه في رام الله للالتحاق بركب القمة. أخبرت رئيس الوزراء بأننا كنا نشجع الإسرائيليين على السماح لعرفات بالحضور، ولكننا كنا، إذا ما استمر في التحريض على العنف الفلسطيني وهو هناك، سنطالب إسرائيل بألا تمكنه من العودة إلى الضفة الغربية.

في الحقيقة، كنت متردداً في الاقتناع بقدرة عرفات على الاضطلاع، في أي من الأوقات، بدور الشريك في السلام. أظن أن الرئيس كان يشاطرني هواجسي. قبل أشهر قليلة فقط كانت فرق كوماندوس إسرائيلية قد أغارت على سفينة الشحن: كارين - إيه، في البحر الأحمر وضبطت أسلحة إيرانية الصنع موجهة إلى غزة بقيمة ملايين الدولارات. ومما لا شك فيه، حسبما أرى، أن عرفات وزملاءه كانوا خلف الصفقة. هاجسهم الفعلي كان متمثلاً بشحنة كارين - إيه من صواريخ الكاتيوشا ومتفجرات السي - 4، لا بالسلام.

ومع ذلك فقد أكّدتُ لرئيس الوزراء بلير أن الولايات المتحدة كانت، بدون شك ستبقى منخرطة في السعي للاهتداء إلى نوع من الحل للأزمة الإسرائيلية - الفلسطينية، بيد أننا لم نكن مستعدين لفعل ذلك على حساب الحرب ضد الإرهاب. لم أكن مضاهياً بلير في الوثوق بأن من شأن حل هذه الأزمة أن يفضي إلى نزع الفتيل من التهديد الإرهابي. كنت مقتنعاً، وما زلت، بأن من شأن الإرهابيين أن يهتدوا بكل بساطة إلى ذريعة أخرى لمواصلة الجهاد، لو أمكن حل الأزمة الإسرائيلية - الفلسطينية غداً.

في مؤتمر صحفي أعقب الجلسة، لم يبد رئيس الوزراء أي تردد في وصف التهديد الذي كان يمثله صدام حسين كما بينت أجهزته الاستخباراتية مثل نظيرتها عندنا، قائلاً:

> *دعونا لا نشك للحظة واحدة بأن صدام حسين قد حصل على أسلحة دمار شامل على امتداد فترة طويلة من الزمن. إنه القائد الوحيد في العالم الذي أقدم فعلاً على استخدام أسلحة كيماوية ضد شعبه بالذات. إنه انتهك ما لا يقل عن تسع قرارات صادرة عن مجلس الأمن الدولي حول أسلحة الدمار الشامل.*

ختم بلير تصريحه قائلاً: "ثمة تهديد يمثله صدام حسين وأسلحة الدمار الشامل التي صارت بحوزته لا تحتمل ولو ذرة شك". أضفت أننا، في ضوء ما كنا قد اطلعنا عليه عن جهود القاعدة الرامية إلى حيازة قدرات نووية، وبيولوجية، وكيماوية، كنا ملزمين بالتوجس الشديد "إزاء الزواج المحتمل، إذا شئتم، بين منظمة إرهابية مثل القاعدة وأولئك الحائزين على أسلحة الدمار الشامل، أو المتورطين في نشر معرفة صناعتها".

وبعد ظهر ذلك اليوم قمنا، لين وأنا، برحلة جانبية وجيزة زرنا فيها غرف حرب ونستون تشيرشل، مجمّع القبو الذي استخدمه رئيس الوزراء ومجلس وزرائه خلال الحرب العالمية الثانية. شكلت الغرف المتواضعة، بجدرانها المغطاة بخرائط صَفَّرها الزمن، آيات تذكير قوية بقيادة تشيرشل الشجاعة، كما بالقتال البطولي الذي خاضه الحلفاء ضد هتلر. تذكرت قراءتي الأولى لرواية تشيرتشل لقصة الحرب العالمية الثانية قبل نحو أربعين سنة حين كنت أعمل في ورشات تمديد شبكات الطاقة في وايومنغ نهاراً وأطالع مجلداته على مصباح كولمان ليلاً.

طرت من لندن إلى العاصمة الأردنية عمّان، للقاء الملك عبد الله الثاني. في حرب الخليج الأولى كان والد الملك عبد الله، المرحوم الملك حسين، قد وقف في صف صدام حسين، أما الآن فإن الأردن كان حليفاً لصيقاً في الحرب على الإرهاب. شكرت الملك على مساهمة الأردن في مكافحة الإرهاب ثم أطلعته على هواجسنا بشأن العراق، تلك الهواجس التي لم يفاجئه أيٌّ منها. كان جيران العراق شديدي الإحساس بالتهديد الذي كان صدام يشكله، إلا أنهم كانوا متخوفين من عواقب أي عمل عسكري. بيَّنْتُ أن العمل العسكري ليس وشيكاً، غير أن من الوارد أن يصبح ضرورياً. وإذا حصل، فلا بد له من أن يكون حاسماً، دون أي لبس حول المحصلة.

أخبرت الملك بأن هناك، إذا ما وصل الأمر إلى الحرب، عدداً من المسائل التي من الممكن أن نطلب مساعدة أردنية في حلها. وأشرت أيضاً إلى أن الرئيس كان شديد الحرص على التشاور معه في الأسابيع والأشهر القادمة. كنا واقفين

على حقيقة أن من شأن أي عمل عسكري أن ينطوي على جملة خطيرة من العواقب الاقتصادية والسياسية الجدية، وراغبين في بذل ما نستطيعه من جهد للتخفيف منها.

شدد الملك على ضرورة مضاعفة الجهود المبذولة على صعيد عملية السلام، وطمأنتُه إلى التزام الرئيس بوش، مشيراً إلى أنه قد أوفد الجنرال المتقاعد زيني إلى المنطقة للقيام بما يستطيعه لإعادة عملية السلام إلى السكة. علقت أننا، وإن لم نؤيد بعض العناصر الجوهرية في المبادرة التي أعلنها ولي العهد السعودي الأمير عبد الله حديثاً، مثل مطالبة إسرائيل بالعودة إلى حدود ما قبل 1967، نأمل في أن تتمكن المبادرة من فتح الطريق أمام الأطراف للعودة إلى طاولة المفاوضات. كذلك شددت على أننا، بصرف النظر عن كل شيء، غير قادرين على التساهل في موضوع التركيز على محاربة الإرهاب. المحاولات الرامية إلى بلوغ نوع من السلام الدائم بين الإسرائيليين والفلسطينيين متواصلة منذ ما يزيد على خمسين سنة دون تقدم ملموس. لسنا قادرين على تحمل إدارة حرب على الإرهاب وفقاً لبرنامج مشابه.

محطتي الثانية كانت شرم الشيخ، منتجع مصري على البحر الأحمر، للقاء حسني مبارك، الذي عرفته منذ سنوات كثيرة. كذلك عبّر مبارك عن هواجسه بشأن الأزمة الإسرائيلية ـ الفلسطينية، منبهاً، بيني وبينه، إلى أن العنف المتواصل كان يصب الماء في طاحونة المتطرفين في المنطقة ويشكل ضغطاً هائلاً على القادة العرب المعتدلين مثله. وعَدْتُه بنقل مخاوفه إلى الرئيس.

وحين ناقشنا موضوع العراق وما يمثله من تهديد للمنطقة، أوصلتُ ثانية رسالة أن الرئيس لم يكن بعد قد قرر القيام بعمل عسكري، وكان شديد الحرص على تلقي النصح والإرشاد من أصدقائنا. إذا وصل الأمر إلى الحرب، فإننا سنحتاج إلى مساعدات محددة من مصر مثل حق التحليق في المجال الجوي والدعم اللوجستي. رد الرئيس مبارك معبراً عن استعداده للنظر في مجمل بنود قائمة طلباتنا.

فريقي الأمني كان شديد القلق حول رحلتي الجوية التالية. كنا سنذهب إلى العاصمة اليمنية صنعاء، وكان ثمة تخوف استثنائي من قيام أحدهم باستخدام

صاروخ محمول على الكتف لإسقاط طائرتنا عند اقترابنا من الهبوط. قام الجهاز الأمني باجتراح خطة للتضليل. خلال الرحلة كنت أستقل طائرة 747 كبيرة هي عادة رديفة لطائرة سلاح الجو رقم واحد. كانت بجانبها صباح ذلك اليوم في مطار شرم الشيخ طائرة نقل عسكرية من طراز سي ـ 17 المستخدمة عادة في نقل معدات ثقيلة ووحدات عسكرية. لين وأنا، وصلنا إلى سلم طائرة الـ747، ولكن وحدها لين صعدت إلى الطائرة. أما أنا فمشيت، بصحبة مجموعة صغيرة من أعضاء الوفد، إلى ما بعد الـ 747 وتسلقنا السلم الخلفي لطائرة السي ـ 17.

لين مع الجزء الأكبر من الوفد، طارت على متن الـ 747 إلى عمان مباشرة، فيما توغلت أنا على متن السي ـ 17 في أجواء اليمن. زيادة في التضليل، قامت الطائرة 757 التي درجتُ على استخدامها بوصفها طائرة سلاح الجو رقم اثنين دخلت سماء مطار صنعاء قبلنا مباشرة متظاهرة بأنها موشكة على الهبوط، إلا أنها عادت إلى التحليق بدلاً من ذلك وطارت شمالاً إلى عُمان. نفذت طائرة السي ـ 17 مناورة بالغة المهارة لتجنب تهديدات قذائف الأرض ـ جو، فهبطنا بأمان في المطار. بدا الرئيس علي عبد الله صالح، الذي كان هناك للاستقبال، غير منزعج من وصولي غير الاعتيادي.

في هذه المحطة كما في محطات أخرى في المنطقة، كنت على دراية بأن لقادة عرب علاقات مع صدام وبأن بعضاً من كلامي قد يجد طريقه إليه. شعرت بأن المهم إسماع صدام تصميمنا على فعل كل شيء ممكن لإفهامه أن الرئيس مصمم على رؤية العراق مذعناً لقرارات الأمم المتحدة وإذا ما وصلت الأمور إلى الحرب فإن الولايات المتحدة ستنتصر.

طرت من اليمن إلى عُمان، حيث كان لي عشاء عمل مع السلطان قابوس، ذلك المضيف المرحب، الذي كان لبلده إسهام كبير في الحرب على الإرهاب. في اليوم التالي، يوم 15 آذار/مارس، قمت بزيارة بحّارة أمريكيين على ظهر يو إس إس ستنّيس في بحر العرب. كانت مقاتلات نفاثة تقلع من الظهر العملاق للحاملة ستنيس لتنفذ عمليات في أفغانستان، وتوفرت لي فرصة تقديم الشكر للشباب الأمريكيين الدائبين على أداء واجبهم الوطني ـ والحديث عما كان ينتظرنا. قلت: "هدفنا التالي هو منع الإرهابيين والأنظمة التي ترعى الإرهاب من تهديد أمريكا

أو أصدقائنا وحلفائنا بأسلحة الدمار الشامل؛ وقفت في صف الكافتريا وتناولت طعام الغداء مع بعض بحارة ستنيس. كما في كل المرات التي زرت فيها قواتنا، غادرتهم مفعماً إعجاباً بالتزام أفراد القوات المسلحة الأمريكية، رجالاً ونساء، وكفاءتهم. قلت للفريق الصحفي المرافق إن زيارتي للحاملة ستينس كانت واسطة عقد رحلتي - وكنت أعني ما أقوله.

محطتي التالية كانت الإمارات العربية المتحدة، حيث التقيت الشيخ زايد وبعض كبار معاونيه، بمن فيهم الشيخ محمد بن زايد، رئيس أركان القوات المسلحة الإماراتية آنذاك وأحد أكثر القادة في الشرق الأوسط بعد نظر وصراحة. ثم استأنفت الطيران لمقابلة ولي العهد السعودي الأمير عبد الله في جدة. كان الملك فهد لا يزال على قيد الحياة، ولكنه مقعد، وولي العهد كان هو الحاكم الفعلي للبلد. كنت قد التقيت الأمير عبد الله للمرة الأولى قبل اثنتي عشرة سنة حين كنت قد طرت إلى السعودية في أول يوم أحد بعد قيام صدام باجتياح الكويت لتأمين قواعد انتشار للقوات الأمريكية. وعلى الرغم من أنني لم أكن أتفق معه دائماً على الصعيد السياسي، كنت قد أصبحت واثقاً به ومحترماً إياه عبر السنين بوصفه رجلاً صريحاً، وصادقاً، وعميق الإيمان.

في ممارسةٍ كنا سنكررها عدداً كبيراً من المرات خلال السنوات الست التالية، تناولنا العشاء سوية مع أعضاء من جهازينا ثم انتقلنا إلى غرفة أخرى لعقد خلوة، بحضور مترجمي المحترف الموثوق جمال هلال فقط. بسطت أمام ولي العهد الأمير عبد الله التأثير الهائل لهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر في أمريكا. مع وجود ثلاثة آلاف ضحية، ما كنا لنستطيع انتظار قيام الإرهابيين بهجوم آخر ثم نبادر إلى التعامل معهم بعد الحدث. فكما كان رئيس الجمهورية قد قال، لم يكن انتظار تحقق التهديدات تحققاً كاملاً إلا إفراطاً في الانتظار. كان صدام، مع سعيه لحيازة أسلحة دمار شامل، وارتباطاته مع جماعات إرهابية، يشكل مصدر قلق كبير. كنا عازمين على التماس تسوية دبلوماسية ما، ولكن إذا لم ننجح في ذلك، فإنه سيتعين علينا أن نتحرك. وإذا ما اضطررنا لخوض الحرب، فإن الانتصار سيكون لنا نحن، كما أكدت لسمو ولي العهد.

كان ولي العهد قلقاً بشأن صدام ولكنه ظل متشككاً حول عمل الولايات

المتحدة العسكري. أراد الحصول على المزيد من الطمأنة إلى أننا كنا سنكمل الطريق، في الحقيقة. بطلب من رئيس الجمهورية نقلت دعوة إلى ولي العهد لزيارة الرئيس في مزرعته التكساسية، وعرضت عليه إحضار كل من وزير الدفاع دون رامسفلد ورئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال ريتشارد ميرز للقائه في تكساس لإطلاعه بإيجاز على ما كنا نخطط له قبل اجتماعه مع الرئيس. وقبل الأمير عبد الله العرض.

وكذلك أراد ولي العهد أن يتحدث عن المبادرة التي كان قد أطلقها لدفع عملية السلام. أخبرت ولي العهد بأننا رحبنا بالمبادرة، وأملنا أن تضفي زخماً على عملية السلام في القمة العربية القادمة ببيروت وبعدها. إلا أنني نبهت إلى أننا نرى عرفات مشكلة جدية. لم يكن عبد الله ساذجاً فيما يخص عرفات، إلا أنه كان يراه بوصفه زعيم الفلسطينيين وقائدهم، شخصاً لا بد من التعامل معه كشريك.

بعد ثلاث محطات في كل من البحرين، وقطر، وأخيراً الكويت، توجهت إلى إسرائيل. على الطريق دعوت إلى اجتماع في قاعة مؤتمرات الطائرة لمناقشة الوضع العربي ـ الإسرائيلي. ممثل وزارة الخارجية في الرحلة، معاون الوزير لشؤون الشرق الأدنى بيل بيرنز حاول إقناعي بلقاء عرفات. رأى أن من الخطأ بالنسبة إلى مسؤول أمريكي كبير أن يزور القدس ويكتفي بلقاء الإسرائيليين. أعضاء في فريقي- جون حنا، وإريك إدلمان، وسكوتر ليبي ـ اعترضوا على مثل هذا اللقاء. قالوا إن من شأن ذلك أن يفسر على أنه نوع من المكافأة لعرفات الذي لا يزال يتاجر بالإرهاب. في الحدود الدنيا، كان لا بد لموافقتي على لقائه من أن يكون، برأيهم، مشروطاً بمبادرة عرفات إلى حركة إيجابية ما.

طوني زيني مبعوثنا المكلف بمتابعة النزاع الإسرائيلي ـ العربي، كان ينتظرني على المدرج في تل أبيب، وقد تبادلنا الرأي في سيارتي حول عرفات. كان زيني دائباً على العمل من أجل إقناعه بالموافقة على خطوات أمنية أساسية على الطريق المفضية إلى وقف لإطلاق النار. سألته عن مدى تشكيل لقائي عرفات حافزاً له على التعاون. أجاب زيني بأن من شأن ذلك أن يفيد، فعرضت فكرة اللقاء مقابل موافقته على الشروط التي كان زيني قد طرحها. كان زيني واثقاً من أن اللقاء سيتم قبل الموعد المبرمج لمغادرتي في اليوم التالي.

تلك الليلة في فندق الملك داود، في غرفة مطلة على القدس القديمة، أبلغني رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون عن رغبته في مساعدة الجنرال زيني، وعن تطلعه إلى تأمين وقف لإطلاق النار وصولاً إلى العودة إلى المفاوضات. أفاد بأنه كان مستعداً لاختزال الحضور الإسرائيلي في الضفة الغربية، ولكنه كان يريد أن يبادر عرفات إلى اتخاذ خطوات من جانبه. لم يترك مجالاً للشك حول استعداده للرد على أي هجمات إرهابية جديدة بقبضة حديدية. كان شارون جندياً قديماً خشناً، قاتل في حرب عام 1948، وفي حرب السويس عام 1956، وفي حرب الأيام الستة عام 1967، وفي حرب يوم الغفران عام 1973. لم يكن ممن يلوكون الكلام، واقتنعت بأن السلام لن يحل آخر المطاف إلا عبر رجل قوي مثل شارون. كان من شأنه أن يتمكن من فرض صفقة صعبة، ولكن كلمته كانت ذات وزن - وكان سيدافع عن دولته ضد الإرهابيين والمتطرفين الذين لم يكونوا مهتمين بالسلام.

مع اقتراب ساعة مغادرتي لإسرائيل لم تكن ثمة أي موافقة من عرفات بعد. قلت سأكون أكثر من مستعد لأعود في الأسبوع التالي. كنت سأقوم برحلة خاصة للقاء عرفات إذا ما بادر إلى تلبية شروط زيني. بدلاً من ذلك، أَقْدَمَ انتحاري فلسطيني، بعد أسبوع من عودتي إلى واشنطن، في 27 آذار/مارس 2002، على تفجير نفسه في فندق بارك في نتانيا الإسرائيلية خلال الاحتفال بعيد الفصح اليهودي وقتل ثلاثين شخصاً. وفي الأيام التي أعقبت ذلك، أمر رئيس الوزراء شارون وحدات من الجيش الإسرائيلي بالتوغل في عمق الضفة الغربية لمطاردة المسؤولين.

ومن إسرائيل توجهت إلى تركيا، صديقة الولايات المتحدة منذ زمن طويل. فتركيا هذه كانت قد وقفت معنا في كوريا، وبوصفها منضوية تحت عباءة الناتو، ظلت حليفاً لا يقدر له ثمن في أثناء الحرب الباردة. لنا مرافق ومنشآت عسكرية رئيسية في قاعدة أنجرليك الجوية التي انطلقنا منها لتنفيذ عمليات خلال عاصفة الصحراء، وفي أعقابها، عندما وفرنا إغاثة إنسانية للاّجئين الأكراد في شمال العراق. ولكن في العام 2002، حدث تغيير مقلق، إذ إن زيارتي للقادة الأتراك، رغم ودّيتها، كانت مختلفة عن الزيارة التي قمت بها في عام 1990 عندما كنا

نبحث عن حلفاء لطرد صدام حسين من الكويت. والواقع أن جميع زياراتي للمنطقة اختلفت هذه المرة. فجميع أصدقائنا كانوا متوترين. ولكن شيئاً أعمق من ذلك كان يحدث في تركيا. في تشرين الثاني/نوفمبر 2002 كان حزب العدالة والتنمية [AKP] الإسلامي سيفوز بالأكثرية في البرلمان، موصلاً زعيم الحزب، رجب أردوغان، إلى منصب رئاسة الوزارة في شهر آذار/مارس التالي. كان البرلمان المنتخب حديثاً سيرفض طلبنا نشر فرقة المشاة الرابعة من جيش الولايات المتحدة عبر تركيا حين آن أوان البدء بالعمليات ضد صدام حسين، وكنا سنضطر، في النهاية، إلى إرسال الفرقة عبر الكويت.

عموماً، أظن أننا أخفقنا في فهم مدى ضخامة التحول الحاصل في تركيا. فمغزى وصول حكومة إسلامية إلى السلطة في أهم بلد حليف لأمريكا في دول الناتو تعرض، بمعنى من المعاني، للتعتيم بسبب جملة التحديات الأخرى التي كنا في مواجهتها. وتركيا اليوم تبدو في قلب عملية انتقالية بالغة الخطورة من حليفة أطلسية محورية وأساسية إلى دولة خاضعة لحكم إسلامي دائبة على تطوير علاقات مع بلدان مثل إيران وسورية على حساب علاقاتها مع الولايات المتحدة وإسرائيل.

مع اختتامي لرحلتي وتوجهي نحو واشنطن، رحت أفكر بما كنت سأقوله للرئيس. برأيي، كان يتعين على أمريكا أن تسعى لتحقيق ثلاثة أهداف عريضة في المنطقة على نحو متزامن: مواصلة الحرب على الإرهاب بصرامة، والتصدي للعراق على صعيد دعمها للإرهاب ومحاولتها حيازة أسلحة دمار شامل، وإدارة الصراع الإسرائيلي ـ العربي. لم أصدق زعم كثيرين القائل بأن النزاع الإسرائيلي الفلسطيني هو مسمار عجلة كل سياسة أمريكية أخرى في الشرق الأوسط. رأيت بدلاً من ذلك، منطقة معقدة، القضايا فيها متشابكة وغير قابلة للفصل والتصنيف في خانات معزولة. لم نكن متمتعين بترف التعامل معها بالتدريج والتتابع، منتظرين حل النزاع الإسرائيلي ـ العربي قبل معالجة التهديد الذي يشكله الإرهاب بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

كان من شأن دفع الإسرائيليين إلى تقديم تنازلات أمام سلطة خاضعة لتحكم ياسر عرفات الذي كنا نعرف أنه مؤيد، ومشجع، وممّول للإرهاب، أن

يعني ضلالاً. في الوقت نفسه بدا لي واضحاً أننا، إذا ما أصبح العمل العسكري ضرورياً في العراق، سنبقى بحاجة إلى دعم عربي، وأن من شأن مثل هذا الدعم أن يكون أيسر إذا ما استطعنا اختزال التوترات بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

في الرابع من نيسان/إبريل، 2002، عبر الرئيس عن القلق إزاء "تصاعد ضريبة الإرهاب"، وأعلن عن اعتزامه إعادة إيفاد وزير الخارجية باول إلى المنطقة للتركيز على النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. وفي الثاني عشر من نيسان/إبريل، وباول في الشرق الأوسط، عقد مجلس الأمن القومي اجتماعاً لمناقشة شروط اجتماع محتمل لباول مع عرفات. في منتصف النقاش، دخل أحد العاملين في جهاز مجلس الأمن القومي غرفة العمليات حاملاً نبأ وقوع تفجير انتحاري آخر في القدس. كان ثمة ستة قتلى وأكثر من مئة جريح.

ومع ذلك فإن الوزير باول قرر، في مؤتمر صحفي بإسرائيل، طرح فكرة عقد مؤتمر دولي حول القضية الإسرائيلية-الفلسطينية. لم يكن الرئيس قد وافق على هذا، وكانت الفكرة بائسة. فمنح عرفات موقعاً على المسرح العالمي لم يكن من شأنه إلا أن يشرعنه في لحظة كان يعلن فيها بوضوح أنه كان قد اختار طريق الإرهاب. قام الوزير باول بتكرار العرض مرة أخرى بعد بضعة أسابيع، مطلقاً تصريحاً مشابهاً في إيجاز صحفي بواشنطن مع بعض نظرائه الأوروبيين والأمميين (مندوبي الدول في الأمم المتحدة). حين سمعت ذلك اتصلت من على متن طائرة سلاح الجو رقم اثنين مع مستشارة الأمن القومي رايس وطلبت منها أن تبادر إلى تنبيه الوزير باول إلى أنه خرج مرة أخرى عن خط الرئيس السياسي. كنا جميعاً قد ناقشنا خطوات تالية في الشرق الأوسط مع الرئيس في البيت الأبيض ذلك الصباح ولم يكن قد فوض كولن بإعلان موافقتنا على المشاركة في أي مؤتمر دولي. لست متأكداً مما حدث بين كوندي وكولن، ولكن في اليوم التالي حين عقدت لجنة الرؤساء - مجلس الأمن القومي عدا الرئيس ـ اجتماعاً لبحث قضية الشرق الأوسط، بادر كولن إلى الاعتذار. قال إنه كان "قد تجاوز إيجازه"، وذهب إلى ما هو أبعد مما كان الرئيس يريده أن يفعل.

تمثل هاجسي، ونحن نناقش عملية السلام وخطوات تالية بكوننا جميعاً

بحاجة لأن نتذكر أن أولويتنا الأولى كانت كسب الحرب على الإرهاب. جادلت قائلاً إن من شأننا أن نستفيد من أي اتفاق إسرائيلي محدود أو مؤقت مرشح لإتاحة فترة من التهدئة وتمكين قيادة جديدة من البروز في الجانب الفلسطيني. غير أنه كان من المهم بشكل حاسم ألا نتورط في إطلاق مؤتمرات دولية عالية السقوف أو لقاءات قمم في التماس عبثي لاتفاق تسوية نهائية لم يُبْدِ عرفات أي استعداد لاحتضان أي شروط معقولة تجاهها. كان بيل كلنتون قد اقترف ذلك الخطأ في نهاية فترته الثانية مع سقف عال، وآمال كبرى، ومناورة رهانات عظيمة، داعياً عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي يهود باراك إلى كامب ديفيد لعقد سلسلة مباحثات ما لبثت أن أخفقت إخفاقاً مأساوياً وأفضت إلى الانتفاضة المتجددة. لم يكن ثمة أي مجال لتحمل تبعات تكرار تلك الخطيئة الكارثية إذا أردنا السير بنجاح في طريق الحرب على الإرهاب.

بالعودة بالنظر إلى الوراء، أعتقد أن رحلة باول إلى الشرق الأوسط في ربيع 2002 شكلت لحظة فاصلة في العلاقات بين وزارة الخارجية والبيت الأبيض. كان باول ونائبه، ريتشارد آرميتاج، يبدوان مقتنعين بأن الحقيقة التي مفادها أن البيت الأبيض أُجبر على سحب إعلان باول الخاص بمؤتمر شرق أوسطي هي نوع من الإهانة الشخصية للوزير. كنت قد بنيت عدداً غير قليل من العلاقات خلال السنوات الثلاثين منذ مجيئي الأول إلى واشنطن، وهذه الفترة التي بدأت أسمع فيها من عدد من المسؤولين الحكوميين الرفيعي المستوى السابقين والحاليين أن وزير الخارجية باول ونائب الوزير آرميتاج لم يكونا مخفقين في دعم سياسات الرئيس وحسب، بل كانا محتقرين لها على الملأ. كنت أعلم أن باول كان ملدوغاً من جراء التقارير الصحفية المؤكدة لعدم كونه وزيراً قوياً للخارجية، أما الآن فقد بدا كما لو أن عقدة ما قد قُطعت.

في ذلك الربيع جاءنا ضيف من جزء آخر من العالم؛ أعني نائب الرئيس الصيني، هو جينتاو. بروتوكولياً كنت أنا نظيره، وقمت أنا بدعوته إلى منزل الرئيس لتناول الغداء. بين جميع ولائم الغداء التي كنت قد استضفتها خلال الأعوام لضيوف كبار، ربما كان هذا الاجتماع قد تمتع بمرافقة الوفد الأمريكي

الأعلى مستوى. إلى جانبي على الضفة الأمريكية من المائدة كان كل من كولن باول، ووزير الخزانة بول أونيل، ووزير التجارة دون إيفانس، ووزير العمل إيلين تشاو، ومستشارة الأمن القومي كوندي رايس، ونائب وزير الدفاع بول وولفويتز.

كنت حريصاً على الاهتداء إلى طريقة تمكنني من الاستفراد بهو مما يمكننا نحن الاثنين من عقد نوع من الخلوة، من الحوار وراء الكواليس. كان قد مارس قدراً جامداً وحرفياً من الالتزام بنوع من النص المكتوب في جميع لقاءاته مع مسؤولين أمريكيين دون أي انحراف عن النقاط الواردة في ذلك النص. خطر لي أنه، إذا ما تسنى لنا نحن الاثنين أن نتحدث وحدنا، قد يرتخي فنستطيع الدخول في عملية أخذ وعطاء فعلية. تمثلت خطتي باصطحابه إلى المكتبة على الطابق الأول من مقر إقامتي بعد الغداء.

لم يكن الوفد الصيني وارداً في خطتنا. بعد لحظات من جلوسنا، هو وأنا، في المكتبة فتح الباب على مصراعيه واندفع إلى الداخل لي جاوكسينغ الذي هو مسؤول كبير في الحزب الشيوعي وقريب من رئيس هو: الرئيس جيانغ زيمين. كان قد تجاوز أركاني الذين حاولوا إفهامه بلباقة أن هذه كانت خلوة، وبات جالساً بيني وبين هو. صار واضحاً أن هذا كان هو العنصر المكلف برفع التقرير إلى السلطة العليا في بكين. لم يغير هو حرفاً واستمر يكرر الأجوبة المكتوبة نفسها التي كان قد سبق له أن أطلقها في لقاءات أخرى.

علاقاتي مع هو تخطت ذروتها من جراء زيارتي له بعد عامين حين كنت في الصين في أوائل سنة 2004. آنذاك كان هو قد ارتقى إلى منصب رئاسة الجمهورية، وكنت أنا حاملاً رسالة حساسة كان الرئيس بوش قد كلفني بإيصالها في خلوة رجل لرجل. اتفقنا على عقد اجتماع صغير بعد جلستنا الأوسع. ظننت أن الاجتماع جرى على ما يرام، وكنت قد أوصلت الرسالة دون وجود أي شاهد متطفل.

لدى خروجي من غرفة الخلوة فوجئت عندما علمت من أركاني أن الحديث الذي ظننته خاصاً كان بالفعل قد بُثّ إلى غرفة مجاورة حيث تحلق أركان هو حول مكبر للصوت للاستماع. من الواضح أن الصينيين ليسوا من هواة الخلوات.

* * *

جاء دون رامسفيلد وتومي فرانكس إلى البيت الأبيض في 10 أيار/مايو 2002، مع تقرير عن وضع عملية التخطيط العسكري. جزء من النقاش تركز على التوقيت. فلوجستيات أي عملية عسكرية كبيرة استثنائية التعقيد، ومع أننا كنا لا نزال نأمل بألا تكون الحرب ضرورية، كنا نتوجس من أن يبادر صدام إلى شن هجوم علينا وعلى حلفائنا قبل أن نتوفر على ما يكفي من القوات في الميدان. ما من أحد كان يريد التورط في نزاع في موعد من اختيار صدام لا من اختيارنا نحن.

كنت قلقاً بشأن عدد من الاحتمالات. كيف تعاملت خطتنا الحربية مع أسلحة الدمار الشامل؟ كيف كنا ننوي أن نقنع صدام حسين بضرورة الامتناع عن استخدام هذه الأسلحة؟ وما الاستعدادات التي كنا نقوم بها من أجل حماية قواتنا إذا فعل؟ إذا نجحنا في إعادة المفتشين إلى العراق، فإلى أي مدى سيكونون فعالين، برأينا؟ هل كنا قادرين على تطعيم الفرق بمفتشين أمريكيين؟ ما سبيل حرمان العراق من القدرة على إطلاق صواريخ سكود على إسرائيل، كما سبق لصدام أن فعل في حرب الخليج الأولى؟ ما الأسلوب المحتمل الذي كان صدام سيعتمده في الرد على تحركاتنا؟ ما الذي كان سيكلفنا الاضطلاع الفعال بالدفاع عن الأكراد ضد القوات العراقية المحتشدة في الشمال؟

عبر العملية كان من شأن الكونغرس أن يبقى بالغ الأهمية، وقد أردت الاطمئنان في حال اعتمادنا لاستراتيجية معينة، إلى أن يتم ضمان إطلاع أعضاء أساسيين على أسلوب إدارتنا للحرب إذا وقعت. كذلك كنا بحاجة إلى ضمان تفهم الكونغرس والجمهور الأمريكي لجملة العواقب المترتبة على بقاء صدام طليقاً دون ضوابط. فموارده النفطية الهائلة والعقوبات المتآكلة جعلت من الإخفاق في إخضاعه أو التحرك ضده أن يؤدي، ببساطة، إلى منحه وقتاً للسير قدماً في برامجه الخاصة بإنتاج أسلحة الدمار الشامل، وصولاً، ربما، إلى تطوير سلاح نووي.

خلال أيار/مايو كله وجزء كبير من حزيران/يونيو بقينا عاكفين على بحث

خطتنا إزاء الأزمة الإسرائيلية ـ الفلسطينية. في اجتماعات للجنة الرؤساء ومجلس الأمن القومي، بقيت مصراً على تجاوز عرفات. كان السِّجِلّ واضحاً في إيحائه، حسب وجهة نظري، بأن الرجل لم يكن قادراً على تشكيل طرف في السعي إلى تحقيق السلام.

تكللت حواراتنا في خطاب الروزغاردن للرئيس بتاريخ 24 حزيران/يونيو 2002، الذي دعت فيه الولايات المتحدة، للمرة الأولى، إلى انبثاق قيادة فلسطينية جديدة. قال الرئيس إن على الشعب الفلسطيني أن ينتخب قادة جدداً "غير متواطئين مع الإرهاب" إذا أراد الوصول إلى دولة مستقلة يستحقها. ودعا الإسرائيليين إلى الانسحاب إلى مواقعهم في العام 2000 مع قيام الفلسطينيين بتحسينات أمنية، وقال أيضاً إن "نشاط الاستيطان الإسرائيلي في المناطق المحتلة يجب أن يتوقف". كان ذلك خطاً جريئاً وشجاعاً ألزم أمريكا بقيادة فعالة مفضية إلى هدف السلام ـ ولكن شرط مبادرة الشعب الفلسطيني إلى اختيار قادة ينبذون العنف.

مع حلول صيف 2002 لم تكن مشكلة هجمات الإنتراكس (الجمرة الخبيثة)، التي كانت قد أتت بُعَيْد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، قد حُلّت بعد، وكنت قد تلقيت فيضاً من التقارير حول اهتمام الإرهابيين بالحصول على مواد بيولوجية وكيماوية خطرة. وفي اجتماعات الرؤساء كنا قد ناقشنا تهديدات قد تنشأ عن البرنامج الروسي السابق للأسلحة البيولوجية، سواء عبر مخزونات سائبة من أدوات الحرب الكيماوية أو عن طريق علماء عاطلين عن العمل. فالحرب في أفغانستان كانت قد مكنتنا من الوصول إلى مواقع في ذلك البلد بينت أن عمل القاعدة في مجال الأسلحة البيولوجية كان أكثر تقدماً مما كان يُشتبه[49].

كرسنا، أركاني وأنا، وقتاً غير قليل على التفكير بتدابير جوابية، مثل ما إذا كنا وكيف سنقوم بإنتاج، وتخزين، وإدارة لقاحات ضد الإنتراكس والجدري. ناقشنا التطعيم ضد تهديدات الإرهاب البيولوجي، وهو موضوع خلافي جداً، حتى حين يتم استخدامه مع قطاع جيد التحديد من الكتلة السكانية ـ مثل الجيش الأمريكي. لم يكن ثمة إلا استخدام محدود للقاح الإنتراكس خلال حرب

الخليج الأولى، وزعم المنتقدون أنه خاطر بآثار جانبية عكسية. كنت من أولئك الذين كانوا يؤمنون بأن المخاطرة جديرة بأن نقدم عليها، ولا سيما بالنسبة إلى جنود ذاهبين إلى قلب مناطق حيث كان تطوير الأسلحة البيولوجية قد تم الحديث عنه. غير أنه بدا لي أن علي أيضاً أن أتلقح إذا كان أفراد قواتنا المسلحة، رجالاً ونساء، ملزمين بالتصرف وفقاً لذلك الاعتقاد، فأخذت سلسلة اللقاحات.

كان الجدري هماً ليس لأنه مشوه وقاتل وحسب، بل لأن أمريكيين كثيرين لم يكونوا محميين. فالتلقيح الروتيني كان توقف في 1972 بعد استئصال المرض من الولايات المتحدة، ولكن حتى أولئك الذين كانوا قد لقحوا من قبل لم يكونوا، بالضرورة، آمنين لأن المناعة المكتسبة تتراجع بالتدريج.

خلال أشهرنا الأولى في المنصب، قام سكوتر ليبي وآخرون من أركاني بدراسة نتائج إحدى التجارب، تلك المعروفة باسم "شتاء مظلم" التي حاكت تأثير هجمة جدري على الولايات المتحدة. أدى فريق من الأمريكيين المرموقين أدوار أعضاء مجلس الأمن القومي، حيث تولى الشيخ الجورجي السابق سام نان أداء دور رئيس الجمهورية. السيناريو الذي اعتمدوه افترض حصول هجمات إرهابية بمرض الجدري على مدينة أوكلاهوما مع انتشار العدوى بسرعة في البلد وما بعده. على الرغم من الجهود الكبيرة التي يتركها المشاركون في التجربة، تعرض ستة عشر ألفاً للإصابة خلال أسبوعين مع سبعة عشر ألفاً آخرين يتوقع إصابتهم بالمرض في غضون الاثني عشر يوماً التالية. لم تكن هذه الأرقام إلا الدفعتين الأوليين من المصابين. أما في الدفعة الرابعة فقد قدر احتمال وصول الرقم إلى ثلاثة ملايين مصاب، مع موت ما لا يقل عن المليون[50].

إحدى المشكلات التي واجهت المشاركين في التجربة تمثلت بنقص اللقاحات، الأمر الذي كان حاصلاً بالفعل، في الواقع، في الولايات المتحدة في أوائل عام 2001. راح مكتبي يمارس الضغط على وزارة الصحة والخدمات الإنسانية لدفعهما إلى العمل على إنتاج المزيد من اللقاحات ووضع الخطط لتوزيعها. وفي تشرين الأول/أكتوبر 2001 أعلنت وزارة الصحة خططاً لزيادة المخزون الأمريكي من لقاحات الجدري إلى 300 مليون جرعة - واحدة لكل مواطن أمريكي.

في السابع عشر من تموز/يوليو 2002، طرت إلى أتلانتا مع سكوتر ومستشار أمني الوطني كارول كونتز، لعقد سلسلة تدوم يوماً كاملاً من الإيجازات في مراكز التحكم بالمرض والوقاية منه. التقيت خبراء الجدري في هذه المراكز، وجلت على مختبرات الإنتراكس عندهم، وحصلت على إيجاز عن التدابير المضادة للحرب البيولوجية. العاملون في المراكز، رجالاً ونساء، بمن فيهم المديرة الجديدة الدكتورة جولي غيربردنغ كانوا فريقاً مثيراً للإعجاب وكانوا يضطلعون بدور مهم في مكافحة الإرهاب خلال مدة وجودي في المنصب. كذلك وجدتني أخص الدكتور أنتوني فوتشي، رئيس المعهد القومي لأمراض الحساسية والمعدية، بقدر كبير من الاحترام لما يتمتع به من معرفة وحكمة. هو الآخر كان أحد أركان تحسين أمن الوطن في مواجهة خطر الهجمات البيولوجية.

في ختام زيارتي لمركز التحكم بالمرض والوقاية منه [CDC] تحدثت مع أعضاء من الجهاز مجتمعين في قاعة الاجتماعات. شكرتهم على المساهمة العظيمة التي كانوا يقدمونها على صعيد الدفاع عن الأمة. كنت أريد طمأنتهم إلى وجود مدافع عنهم في البيت الأبيض.

في الخامس من آب/أغسطس عقدنا اجتماعاً لمجلس الأمن القومي لمراجعة الصيغة الأخيرة لخطة الحرب. ظل تومي فرانكس يدأب على غربلة الخطة وتعديلها استهدافاً لتقصير فترات التمهيد. كنا جميعاً أكثر ارتياحاً بخطة لا تمنح صداماً وقتاً لتخطيط هجمات معاكسة وإعدادها. وفي مناقشة دارت حول التخطيط لما بعد الحرب، كان ثمة جدال وجيز حول المتطلبات العسكرية لعمليات أمن ما بعد الحرب. نظر الرئيس إلى مدير السي آي إيه تنت وسأله صراحة عن رد فعل الشعب العراقي المحتمل على إطاحة صدام حسين بالقوة العسكرية الأمريكية. لم يتردد تنت لحظة واحدة؛ رد مدير وكالة الاستخبارات المركزية قائلاً: "جل العراقيين سيبتهجون برحيل صدام حسين".

خلال جزء كبير من شهر آب/أغسطس بقيت أعمل من وايومنغ، حاضراً اجتماعات هنا في واشنطن عبر نظام الاتصالات الفيديوية المتشعبة الآمنة

[SVTS] المنصوب في مكتبي الكائن على الطابق العلوي. في العاشر من آب/ أغسطس خُطط لي أن أتحاور عبر هذا النظام مع وفد عراقي ضيف مؤلف من منفيين عراقيين مناوئين لصدام حسين. كانوا قد اجتمعوا في غرفة مؤتمرات كوردل هال المزخرف في مبنى المكتب التنفيذي القديم، على الضفة الأخرى من الشارع مقابل البيت الأبيض. جميعهم كانوا قد أخذوا أمكنتهم وراحوا ينتظرون ظهوري على الشاشة حين تسللتْ في غفلة من الجميع إلى داخل مكتبي حفيدتي إليزابت ذات السنوات الأربع من العمر. تمت استضافة العراقيين بمشاهد إليزابت وهي ترقص وتلعب في ثوب أميري وردي وتستعرض إيماءات وجهها متابعة أداءها المنعكس على الوصلة الفيديوية المزدوجة. سارع مرافقي الشخصي، برايان ماكورماك، إلى طردها قبل وصولي إلى المسرح. جلست أمام الكاميرا وجلس سكوتر ليبي خارج ساحة رؤية الكاميرا مباشرة. غافلاً عن الأداء الذي قد تم للتو، قلت للوفد: "تحياتي من وايومنغ. أنا هنا مع رئيس أركاني". فقط بعد اللقاء قام أحدهم بشرح السبب الكامن وراء رؤية العراقيين لما قلته مشحوناً بقدر كبير من الدعابة.

منذ كانون الثاني/يناير 2002 ظل سكوتر يدأب على حض وزارة الخارجية على العمل من أجل تجميع مجموعات المعارضة العراقية تمهيداً لنوع من المؤتمر الدولي للشروع في التخطيط لحكومة ما بعد صدام، ولكن مؤتمراً كهذا كان قد تأجل مرة بعد أخرى فيما كان الوزير باول ونائب الوزير آرميتاج يحذران من المبالغة في التشابك مع خصوم صدام. فهؤلاء كانوا، أو قيل عنهم: "خارجيون" كانوا قد غادروا العراق خلال حكم صدام وكان من شأنهم ألا يكونوا ذوي مصداقية لدى العراقيين الذين بقوا صامدين في البلد. لذا فإن من الضروري، حسب زعم وزارة الخارجية، عدم إشراكهم على نحو فعال بتخطيطنا لما بعد الحرب. فكرت ملياً بهذا التقويم وبعواقبه مرات كثيرة خلال السنوات منذ أن تابعت الخارجيين المزعومين يضطلعون بأدوار حاسمة في حكومة العراق الديمقراطية. فرئيس وزراء العراق اليوم، نوري المالكي، عاش في المنفى حتى سنة 2003، مثله مثل إياد علاوي الذي هزمه المالكي بفارق بسيط في انتخابات 2010 العامة.

فكرة عدم التعاون الوثيق مع خصوم صدام الموجودين في المنفى أدت إلى إعاقة عملنا وإبطائه. أعتقد أن أداءنا بعد إطاحة صدام كان من شأنه أن يكون أفضل لو كنا قد أوجدنا حكومة مؤقتة، مؤلفة من خارجيين وداخليين، جاهزة للإمساك بزمام الأمر لحظة سقوط صدام. كان من شأن هذا أن يضع العراقيين أمام مسؤولياتهم ويساهم في تجنب وصمة الاحتلال التي بدأنا نعيشها ونعاني منها في ظل سلطة التحالف المؤقتة.

إحدى المسائل التي طُرحت مبكراً وتكراراً في مناقشاتنا لنوع الحكم الذي كان سيأتي بعد صدام كانت مسألة ما إذا كنا ملتزمين بترسيخ نوع من النظام الديمقراطي في العراق أم لا. كنت مؤمناً بعدم وجود أي خيار آخر. كان سيتعين على أي حكومة مؤقتة أن تسلم بضرورة عقد انتخابات مبكرة، حرة، ونزيهة. راح المنتقدون من اليسار يتهمون الولايات المتحدة بمحاولة فرض الديمقراطية بقوة السلاح، إلا أنني أرى الأمر على نحو مختلف. إذا بادرت الولايات المتحدة إلى العمل العسكري وأزاحت صدّام حسين عن السلطة، فإن من واجبنا أن نضمن كون ما يلي عاكساً لقيمنا وإيماننا بالحرية والديمقراطية. كان من الأسهل بما لا يقاس أن نسارع إلى انتقاء رجل عراقي قوي آخر، صدام آخر، وإجلاسه على عروش القصور الصدامية، غير أن ذلك كان من شأنه أن يبقى متنافراً مع القيم الأمريكية، ومنافياً للأخلاق، بنظري.

في منتصف آب/أغسطس كتب مستشار الأمن القومي السابق برنت سكوكروفت تعليقاً في "الوول ستريت جورنال" حضنا فيه على عدم مهاجمة العراق. كتب برنت يقول: "لا جدال أن صداماً بشكل تهديداً"، مضيفاً إن صداماً هذا ظلم شعبه بالذات وكان قد شن حربين على دولتين جارتين. كذلك رأى سكوكروفت أن من المسلّمات أن صداماً حائز على أسلحة دمار شامل، ولكنه يظن أن من غير المحتمل، أن يقوم صدام بتزويد الإرهابيين بأسلحة دمار شامل، متغافلاً عن أن العراق كان سلفاً قد وفر ملاذاً آمناً، وتدريباً، ودعماً مادياً لجموع من الإرهابيين. تابع برنت كلامه ليجادل قائلاً إن بوسعنا التعويل على مجلس أمن الأمم المتحدة والمفتشين الدوليين على صعيد احتواء التهديد المتمثل

بصدام، متعامياً عن حقيقة أن صداماً كان قد تجاهل كثيراً من المرات الأمم المتحدة وقراراتها منذ أن كنا، برنت وأنا، نعمل قبل إحدى عشرة سنة في إدارة بوش الأب.

وأنا أقرأ مقال برنت، وجدتني مكتشفاً أنه عاكس لذهنية تنتسب إلى ما قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، تلك النظرة العالمية المنتمية إلى حقبة لم نكن قد شاهدنا فيها الدمار الذي كان يستطيع إرهابيون مسلحون بطائرات ركاب مختطفة أن يحدثوه. كان لا بد لنا من أن نفعل كل شيء نستطيع فعله لنضمن عدم تمكينهم من وضع أيديهم على أسلحة قادرة على قتل الملايين.

كان برنت قريباً جداً من والد الرئيس، وكنا، هو وأنا، صديقين صادقين منذ إدارة فورد. كانت له يد ورأي في ترشيحي لمنصب وزارة الدفاع في الإدارة البوشية السابقة. من الواضح أنه كان معارضاً بقوة لسياسات الإدارة البوشية الثانية وخططها، ولم يتردد في التعبير عن تلك التباينات على الملأ.

قيل لاحقاً إن برنت عبر عن اعتقاده بأنني كنت قد تغيرت منذ أن كنا نعمل سوية في الإدارة البوشية الأولى. ما كان قد حدث في الحقيقة تمثّل بأن العالم، نعم العالم كله، كان قد تغيّر، بعد هجوم على وطننا أزهق أرواح ثلاثة آلاف إنسان. كنا في حرب ضد أعداء إرهابيين يتعذر التفاوض معهم، أو ردعهم، أو احتواؤهم، كما يستحيل أن يستسلموا. لم يكن هذا عالم توترات القوتين العُظْمَيَيْنْ واتفاقاتهما الخاصة بالرقابة على التسلح، ذلك العالم الذي كان برنت قد خدم فيه.

خلال آب/أغسطس أصبحت قلقاً إزاء المبالغة في الإكثار من تأكيد إعادة مفتشي الأمم المتحدة إلى العراق. كان ثمة اقتراح طُرح في البيت الأبيض حول الدعوة إلى نوع من نظام تفتيش "اقتحامي" - جملة عمليات تفتيش بالغة التشدد قد تتمخض عن إطاحة صدام. طرحت مستشارة الأمن القومي رايس هذه الفكرة، وعكف الرئيس وطوني بلير على مناقشتها. أنا لم أشترها. بدت خيالية بنظري. فصدام حسين الذي كان قد واجه كل هذا الطوفان من أسوأ الويلات، لم يكن قابلاً للإطاحة من قبل فرق تفتيش دولية، مهما كانت قوة إصرارها.

رأيت أن من شأن عمليات التفتيش أن تتحول بسهولة فائقة إلى سبب لطمأنينة زائفة، سامحة لنا بأن نتوهم أننا كنا نفعل شيئاً ذا شأن حول التهديد الذي كان صدام يجسده، رغم عدم صحة ذلك في الحقيقة. قررت التطرق بقوة إلى القضية في خطاب ألقيته أمام قدماء محاربي الحروب الأجنبية في السادس والعشرين من آب/أغسطس 2002. قلت متوجهاً إلى الجمهور المجتمع في ناشفيل في تنيسي: إن صداماً كان قد "جعل خداع الأسرة الدولية علماً". استحضرت مدى المفاجأة التي أصابت المحللين بعد حرب الخليج حين اكتشفوا أنه ربما كان على مسافة عام واحد فقط من حيازة سلاح نووي، كذلك استشهدت بما كان قد حدث في ربيع 1995:

بالفعل كان المفتشون على حافة إعلان أن برامج صدام لتطوير أسلحة كيماوية وصواريخ بعيدة المدى كانت قد سويت تماماً وأغلقت. ثم، فجاة، هرب صهر صدام وبدأ يدلي بالمعلومات. في غضون أيام اهتدى المفتشون على مزرعة دواجن عراقية. كانت صناديق الوثائق وكميات كبيرة من الأدلة حول البرنامج العراقي الأكثر سرية للأسلحة مخبّأة هناك.

لاحقاً ما لبث المفتشون أن اكتشفوا أن صداماً كان قد خدعهم "حول مدى برنامجه الخاص بإنتاج الفي إكس [VX] أحد أخطر الكيماويات المعروفة" كما قلت. ولم يكن قد أغلق برامجه الصاروخية المحظورة، بل كان "قد واصل اختبار مثل هذه الصواريخ، حرفياً، تحت أنوف مفتشي الأمم المتحدة."

بعد الاطلاع على مثل هذا السجل، لم تكن أي عودة للمفتشين إلى العراق ضماناً لالتزام صدام بقرارات الأمم المتحدة، ولكنها كانت ستمنحه مزيداً من الوقت للتآمر والتخطيط وصولاً في آخر المطاف إلى حيازة "كل طيف أسلحة الدمار الشامل". شددت على الحاجة، في مواجهة مثل هذا التهديد، إلى التقدم بـ "عناية، وتأمل، وتشاور مع حلفائنا". وأضفت إن علينا أن نتذكر أن هناك، رغم كل الأخطار الماثلة أمامنا، جملة من الفرص أيضاً:

من شأن عراق، تم تحريره بمساعدتنا، أن يعود بلداً عظيماً من جديد. فالعراق

غني بموارده الطبيعية ومواهبه البشرية، وهو متوفر على طاقة غير محدودة لامتلاك مستقبل سلمي، مزدهر. من شأن غايتنا أن تجعل العراق قائماً على أساس وحدة إقليمية، وحكم ديمقراطي وتعددي، وأمة تحظى فيها حقوق الإنسان لسائر الجماعات العرقية بالاعتراف والحماية.

وختمت كلامي قائلاً إن جميع الطامحين إلى العدالة والكرامة في العراق، "يمكنهم أن يتأكدوا من أن لهم صديقاً وحليفاً متجسداً في الولايات المتحدة الأمريكية".

عندما اجتمع مجلس الأمن القومي في كامب ديفيد يوم السبت الواقع في 7 أيلول/سبتمبر 2002، كان أحد الموضوعات الذي كرسنا له قدراً غير قليل من الوقت هو خطاب رئيس الجمهورية القادم في الأمم المتحدة. كان سيذهب إلى هناك، حاذياً حذو رؤساء الجمهوريات في أكثر الأحيان، لافتتاح دورة جلسات الجمعية العمومية. كان لا بد لرئيس الجمهورية من أن يشير إلى أن مجلس الأمن كان قد أصدر ستة عشر قراراً هادفاً إلى إزاحة الخطر المتمثل بصدام. وحين أصر على تكرار انتهاكها، ردت الأمم المتحدة بالمزيد من القرارات. جادلت قائلاً: آن أوان مجابهة الأمم المتحدة، وإلقاء المسؤولية على المنظمة، وتسليط الضوء على حقيقة أن من شأن الأمم المتحدة أن تصبح غير ذات شأن إذا بقي مجلس الأمن غير مستعد لفرض عواقب على الانتهاكات. ما كنت أتمنّى ألا نفعله هو ما كنا قد فعلناه على امتداد الأعوام الاثني عشر الأخيرة - تبني قرار آخر إضافي بلا أي معنى، ببساطة.

كان موضوع القوة العسكرية يكمن في عمق الجدل حول الخطاب وقرارات الأمم المتحدة. لم يكن الرئيس قد اتخذ قراراً بعد، ولكن أحداً من مستشاري الرئيس لم يجادل، لا في هذا الاجتماع ولا في أي اجتماع آخر حضرتُه، ضد استخدام القوة العسكرية لإزاحة صدام عن السلطة. كما لم يجادل أحد قائلاً إن ترك صدام في السلطة، مع كل المخاطر والتكاليف المعطوفة على مثل ذلك المسار، خيار قابل للتطبيق.

بعد انتهائنا من اجتماع مجلس الأمن القومي، قام الرئيس باستضافة طوني بلير في مكتبه بلوريل لودج. انضممت إلى الرجلين، وتحدثنا عن ضرورة

إشراك الأمم المتحدة. كان بلير متشدداً. كان مستوعباً للرهانات والأخطار ومدركاً لمدى أهمية التحرك ضد صدام، كما كان واضحاً أنه سيبقى معنا مهما حصل - وكان من شأن ذلك أن ينطوي على حصول معارضة ضده من داخل حزبه.

جادل بلير قائلاً إن قراراً أممياً (صادراً عن الأمم المتحدة) ضروريّ من أجل بلوغ الحد الأقصى من التعاون الدولي. كان قوي الحجة، مقنعاً، وأنا تفهمت رغبة الرئيس في دعم صديقه. لم يكن ثمة أي التزام حقوقي يجبرنا على استصدار قرار ما، غير أن بعضاً في الولايات المتحدة وكثيرين غيرهم في أوروبا كانوا يشعرون بأن من شأنه أن يشرعن العمل العسكري، كذلك كان من شأن أي قرار أن يخاطب هواجسهم. أبلغ رئيس الجمهورية ضيفه رئيس الوزراء بأنه سيسير قدماً على طريق استصدار قرار ما.

كنت أعلم أن الرئيس أقل مني نفوراً من هذه الدوامة اللانهائية من عمليات التفتيش والتضليل في العراق، وفي الأيام التالية، أوصيت بتضمين القرار طلباً يلزم صداماً بأن يقدم في غضون ثلاثين يوماً بياناً يكشف فيه عن قدراته ومخزوناته على صعيد أسلحة الدمار الشامل. كان من شأن هذا أن يرسم خطاً، أن يحدد موعداً نهائياً لتقويم ما إذا كان التحرك ضد صدام مطلوباً لمرة واحدة وأخيرة.

مع تواصل العمل في الأمم المتحدة، كنا أيضاً عاكفين على التماس التفويض البرلماني لاستخدام القوة. عدد من أعضاء الكونغرس طلبوا قيام مجموعة الأجهزة الاستخباراتية بتقديم تقويم استخباراتي قومي، وثيقة عاكسة لنظرة متمتعة بإجماع وكالات الاستخبارات في الولايات المتحدة. الأحكام الواردة في التقويم الاستخباراتي القومي [NIE] كانت متجانسة مع الخلاصات التي كنا، الرئيس وأنا، نتلقاها. "لقد واصل العراق برامجه الخاصة بأسلحة الدمار الشامل في تحد لقرارات الأمم المتحدة وضوابطها" قال التقرير. "لدى بغداد أسلحة كيماوية وبيولوجية جنباً إلى جنب صواريخ ذات مديات تتجاوز حدود الأمم المتحدة؛ وإذا تركت دون لجم، فإن من شأنها أن تمتلك سلاحاً نووياً خلال هذا العقد". وأكثرية الأجهزة قدرت أن "بغداد بدأت إعادة تأسيس برنامجها النووي في موعد قريب من موعد رحيل مفتشي الأونسكوم [UNSCOM] في كانون

الأول/ديسمبر 1998"، و"إذا نجحت بغداد في الحصول على ما يكفي من المواد الانشطارية من الخارج فإنها قادرة على إنتاج سلاح نووي في غضون بضعة أشهر إلى سنة"[51].

كان قرار قيام العراق بإعادة تأسيس برنامجه النووي مستنداً في جزء منه إلى أنابيب ألمنيوم كان العراقيون قد طلبوها. جل أطراف الأسرة الاستخباراتية اعتقدت أنها كانت مخصصة لأجهزة الطرد المركزي اللازمة لتخصيب اليورانيوم. كانت ثمة وجهة نظر أقلية في التقويم الاستخباراتي، كما أكد المدير تنت لاحقاً، تقول إن الأنابيب كانت لغرض آخر، ربما لإنتاج صواريخ مدفعية. إلا أن ذلك لم يكن موقف السي آي إيه في ذلك الوقت، وفي 2002 تولى تنت إجراء عدد من جلسات الإيجاز مستخدماً الأنابيب. كان يمد يده إلى الأرض، ويحمل أنبوب ألمنيوم بطول لا يقل عن ثلاث أقدام، ويضعه على الطاولة. بوسيلة الإيضاح البالغة الإثارة هذه كان يشرع، بقدر كبير من الثقة بالنفس، في شرح الأسباب التي كانت تجعل الأنابيب دليلاً دامغاً على أن العراق كان دائباً على إعادة تركيب برنامج لتخصيب اليورانيوم.

في جلسة التمهيد للتصويت في الكونغرس عبّر أعضاء مختلفون عن مواقفهم، قال الشيخ جون كيري: "حين أقترع لأمنح رئيس الولايات المتحدة صلاحية لاستخدام القوة، إذا دعت الضرورة، من أجل تجريد صدام حسين من السلاح، فأنا أفعل ذلك لأنني مؤمن بأن وجود ترسانة قاتلة من أسلحة التدمير الشامل بيد المومأ إليه خطر وتهديد جدي، لأمننا." وألقت الشيخة هيلاري كلنتون خطاباً من على منبر مجلس الشيوخ، كان يمكنني أن ألقي أنا أجزاء منه. ومن الأسباب الداعية إلى تصويتها مع منح رئيس الجمهورية صلاحية الذهاب إلى الحرب كان، كما أعلنت، أن "صدام حسين طاغية عذب شعبه بالذات وقتله"، و"استخدم أسلحة كيماوية ضد أكراد عراقيين وضد إيرانيين" قاتلاً عشرين ألفاً". ولاحظت الشيخة كلنتون أن "التقارير الاستخباراتية" منذ مغادرة المفتشين للعراق في 1998 "تسلط الضوء على حقيقة أن صدام حسين ظل يعمل لإعادة بناء مخزونه من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، وقدرته الصاروخية، وبرنامجه النووي". وأتت على ذكر ارتباطه بالإرهاب، مشيرة إلى أنه "قام أيضاً

بتقديم المساعدة، والراحة، والملاذ لإرهابيين، بمن فيهم أعضاء في القاعدة". وجادلت أنه إذا ما تُرك صدام حسين دون لجم، فإنه "سيواصل مضاعفة قدرته على شن حرب بيولوجية وكيماوية"، و"سيظل يحاول تطوير أسلحة نووية".

جاء أحد أبلغ البيانات عن ضرورة إزاحة صدام على لسان الشيخ جاي روكفلر، نائب رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ. أقر الرجل بوجود "الدليل غير القابل للبس على أن صدام حسين عاكف بعدوانية على العمل لتطوير أسلحة نووية وقد يمتلك مثل هذه الأسلحة في غضون السنوات الخمس التالية". وقد أشار إلى أن "لحكومة صدام صلات مع عدد كبير من المنظمات الإرهابية الدولية التي لها خلايا هنا في الولايات المتحدة". وتحدث عن الدروس التي تعلمها بلدنا في أيلول/سبتمبر 2001، قائلاً:

> *تمخض الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عن تغيير العالم إلى الأبد. قد لا يعجبنا الأمر، ولكن هذا هو العالم الذي نعيش فيه. حين يكون خطر جدي مهدداً لحيوات أمريكيين، تقع علينا مسؤولية التحرك لمنعه.*

وبعد بضعة أشهر عمد الشيخ روكفلر في مقابلة له على قناة السي إن إن، إلى التوسع حول ارتباط صدام بالإرهاب، إذ قال: "حقيقة أن الزرقاوي مرتبط يقيناً بموت موظف الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية [لورنس فولي] وأنه قريب جداً من بن لادن، تؤكد دون أي ذرة شك، وعلى نحو مسرحي مثير، أن هناك، أقله، ارتباطاً جوهرياً بين صدام والقاعدة".

في العاشر من تشرين الأول/أكتوبر وافق المجلس على القرار القاضي بالتفويض باستخدام القوة في العراق بأكثرية 296 مقابل 133 صوتاً، أكثرية زائدة على أكثرية قرار عاصفة الصحراء في 1991 بستة وأربعين صوتاً. وبعيد منتصف الليل صادق مجلس الشيوخ على القرار بأكثرية 77 مقابل 23 صوتاً، هامش أوسع بكثير من نظيره بالنسبة على حرب الخليج.

في الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر، 2002، وافق مجلس الأمن بالإجماع على القرار 1441. نص القرار على منح العراق "فرصة أخيرة للإذعان لالتزاماته

الخاصة بالتجرد من السلاح"، وعلى المطالبة بتمكين مفتشي الأمم المتحدة من القيام بعملهم مباشرة ودون أي شروط، وعلى إلزام العراق بتقديم "بيان كامل عن جميع جوانب" برامج أسلحة الدمار الشامل ومنظومات الهجوم لديه. وفي السابع من كانون الأول/ديسمبر قدم العراق بياناً مؤلفاً من اثني عشر ألف صفحة، وصفه وزير الخارجية البريطاني: جاك سترو، بعد بضعة أسابيع بـ "كذبة مكشوفة"[52]. وساهم هانس بليكس السويدي، رئيس عملية التفتيش الأممية، في تدعيم تلك الفكرة حين رفع تقريره إلى مجلس الأمن في كانون الثاني/يناير. قال بليكس إن البيان العراقي كان بأكثريته "إعادة نسخ لوثائق سابقة" ومن البنود التي أخفق في الإتيان على ذكرها بند 6500 قنبلة كيماوية فيها نحو ألف طن من العناصر الكيماوية. وقد أشار إلى أن المفتشين حصلوا على ما يؤكد أن العراق كان قد حول الفي إكس [VX]، ذلك الغاز القاتل إلى سلاح، في تضارب مع الرواية التي كان العراق قد قدمها. ولاحظ بليكس أن "هناك مؤشرات قوية تؤكد أن العراق أنتج كمية أكبر مما أعلنها من الإنتراكس" (الجمرة الخبيثة) وليس ثمة أي دليل مقنع على تدمير شيء منه. وقال بليكس إن صواريخ كشفها العراق قد تم "اختبارها وتبين أن مداها يزيد على الـ 150 كيلو متراً المسموح به"، ولاحظ أن المفتشين اكتشفوا رؤوساً حربية كيماوية غير مسلحة كان العراق قد قَصَّر في التصريح عنها. كانت في دشمة حديثة نسبياً وربما وضعت هناك في غضون الأعوام القليلة الماضية[53].

حتى حين تكون مسألة الحرب والسلم على الطاولة، هناك قضايا أخرى لا بد من معالجتها والتعامل معها، وإحدى هذه القضايا تمثلت، مع نهاية عام 2002، بوزارة الخزانة. كان الرئيس قد عبر عن رغبته في إحداث تغيير. لم يكن بول أونيل موفقاً. شعرت ببعض المسؤولية لأنني كنت قد أوصيت به للمنصب. كنت قد عرفت أونيل خلال الإدارة الفوردية حين كان أحد كبار الموظفين المدنيين في مكتب الإدارة والموازنة. كان محلل ميزانيات ممتازاً، ونجماً حقيقياً في الإدارة الفوردية، وكان، بعد ذلك، قد ولج باب عالم الأعمال، حيث ما لبث أن أصبح مديراً تنفيذياً [CEO] مرموقاً لألكوا [Alcoa]. صديقي آلان غرينسبان كان أيضاً

عظيم الإعجاب والانبهار بأونيل وكان قد رأى احتمال صيرورته وزير خزانة ممتازاً.

بالعودة إلى الماضي، كانت المشكلات واضحة منذ البدايات. حين كنا عاكفين على السعي لاجتراح خطة إصلاح ضريبي وإطلاق حركة الاقتصاد من جديد، كثيراً ما كان أونيل يبدو مهتماً بسجل الحدث في الخزانة. كذلك كان قد كرس نفسه لمشكلة إيصال مياه نظيفة إلى أفريقيا ـ هدف مهم دون أدنى شك ـ ولكنه أنسب لأحد ملفات مدير الوكالة الدولية للتنمية منه لأجندة وزير الخزانة.

وكانت هناك مشكلات بنيوية. السياسة الاقتصادية كانت تدار من البيت الأبيض، واجتماعات القرارات الكبرى كثيراً ما كانت تعقد في غياب وزير الخزانة. كان يتعين على أونيل أن يطالب ـ كما فعل هانك بولسن لاحقاً ـ بالاشتراك في أي اجتماع في البيت الأبيض حول سياسة الاقتصاد والتخطيط له. ومن الجهة المقابلة، كان من الممكن لأحدنا، الرئيس أو أنا، أن يقول: "أين هو أونيل؟ علينا ألا نعقد هذا الاجتماع في غياب وزير الخزانة".

في السادس من كانون الأول/ديسمبر اتصلت مع أونيل؛ قلت له: "اسمع بول، لقد قرر رئيس الجمهورية أن يحدث تغييراً في فريقه الاقتصادي، وهو يريدك أن تلتقيه ليتمكن من التحدث معك شخصياً؛ بعد موافقته على المجيء إلى البيت الأبيض، أعاد بول الاتصال معي وألغى الموعد. ترك كتاب استقالته مع شخص كلفه بإيصاله وغادر المدينة.

في 21 كانون الأول/ديسمبر، والبيت الأبيض بات مزيناً لاستقبال أعياد الميلاد، عقدت مجموعة تضم جورج تنت، وكوندي رايس، وسكوتر ليبي، وآندي كارد، وأنا، اجتماعاً مع الرئيس في المكتب البيضوي لمراجعة مداخلة أعدتها وكالة الاستخبارات المركزية، السي آي إيه، حول أسلحة التدمير الشامل العراقية والتهديد المتمثل بصدام. على الرغم من أننا كنا حاصلين على تفويض برلماني وقرار أممي (من الأمم المتحدة)، فإننا كنا ندرك أننا سنضطر لتفسير التهديد الذي كان صدام يمثله للجمهور الأمريكي. كان نائب جورج تنت: جون ماكلوخلين، قد أعد المداخلة، وفيما كان عاكفاً على تقديمها بطريقة أكاديمية جافة،

لم ينفعل أحد منا كثيراً. عندما أنهى جون مداخلته، التفت الرئيس، وكان جالساً على أحد الكراسي أمام الموقد، إلى جورج، الذي كان على الصوفا إلى يمينه، وسأل: "ما مدى متانة قضيتنا فيما يخص أسلحة الدمار الشامل العراقية بالتحديد؟" رد تنت: "ضربة بالغة القوة، سيادة الرئيس. ضربة بالغة القوة".

كان الرئيس يريد بياناً أفضل. قال إن ما كان يتصوره هو نوع من الاتهام الموجه ضد صدام يكون أشبه بحكم قاطع في محاكمة معينة. ومن منطلق احتمال كون المحامين هم الأكثر أهلية لأداء الوظيفة، أمر كلاً من ليبي وهادلي باصطحاب مواد السي آي إيه المتوفرة عن صدام وتحويلها إلى مداخلة تسلط الأضواء بقوة على الأدلة التي تدينه.

وبعد عيد الميلاد طلب الرئيس من كولن باول تقديم شكوى ضد صدام في الأمم المتحدة. العمل الذي كان سكوتر وستيف قد قاما به، بالتنسيق مع ضابط سي آي إيه مفروز إلى مجلس الأمن القومي مع الإفادة من تقارير أسرة الأجهزة الاستخباراتية، رُفع إلى باول ليستخدمه وهو يقوم بإعداد ملاحظاته. اتصلت مع كولن، وأبلغته باحتواء الحزمة التي كان قد استلمها مواد جيدة، وشجعته على النظر إليها. قال باول وأفراد من أركانه فيما بعد إنهم أزاحوا وثائق ستيف وسكوتر جانباً وأمضوا عدداً من الأيام والليالي في السي آي إيه حيث تأكدوا شخصياً، مع جورج تنت، من صحة كل تفصيل من تفاصيل المعلومات التي دخلت في خطاب وزير الخارجية.

بعد بضعة أيام، جلس باول على كرسي الولايات المتحدة في مجلس الأمن، وجورج تنت خلفه، وقدم المرافعة ضد العراق. قال: "حضرات الزملاء، ما من بيان أطلقه اليوم إلا وهو مدعوم بأسانيد وحجج دامغة. ليست هذه مزاعم. ما نحن بصدد عرضه أمامكم إن هو إلا حقائق واستنتاجات مستندة إلى معلومات استخباراتية ثابتة".

لاحقاً، حين تبين أن جزءاً كبيراً مما قاله باول عن أسلحة الدمار الشامل كان خاطئاً، ما لبث الإحراج أن أدى، فيما أرى، إلى دفعه هو ومن حوله، نحو إلقاء اللوم على آخرين. بدا ليبي هدفاً استثنائياً لغضب الجماعة. شنوا هجوماً عنيفاً على المواد التي كان هو ومجلس الأمن القومي قد وفراها، مع التباهي في

الوقت نفسه بأنهم كانوا قد ألقوا بها في حاوية النفايات. وكما تبين فإن جزءاً كبيراً مما أصرّوا على استبعاده كان متركزاً على علاقات صدام بالإرهاب وانتهاكات حقوق الإنسان، اثنتين من التهم التي كانت ستصمد أمام اختبار الزمن.

يوم الأحد الواقع في 11 كانون الثاني/يناير 2003، بادرتُ، تنفيذاً لأمر الرئيس، إلى دعوة الأمير بندر، السفير السعودي بواشنطن، إلى مكتبي في الجناح الغربي لإطلاعه على تصورنا لعمليات عسكرية في العراق. قبل ثلاث عشرة سنة، كنا: كولن باول وأنا، قد أجرينا إيجازاً مشابهاً للأمير على الطاولة المستديرة في مكتبي في البنتاغون. أما هذه المرة فإن رئيس هيئة الأركان ديك ميرز ووزير الدفاع دون رامسفيلد هما اللذان اضطلعا بتلخيص رأينا وتفسير حاجتنا إلى مساعدة سعودية. فالقدرة على الانطلاق من قواعد في المملكة كان من شأنها أن تشكل بالنسبة إلينا عاملاً حاسماً في أي عملية داخل العراق.

كنت أعرف أن الأمير بندر كان متوجساً إزاء التزامنا بإيصال الأمر إلى نهايته، فتعمّدت، بموافقة الرئيس، أن أطمئنه. وكنت قد فعلت ذلك عشية عاصفة الصحراء، حين قدمت تعهدين للملك فهد. كنت قد قلت له إن الولايات المتحدة سترسل ما يكفي من القوات الأمريكية للدفاع عن السعودية ولتحرير الكويت، كما كنت قد أكدت له أننا، لدى إنجاز المهمة، سنعيد قواتنا إلى الوطن. وكنا قد وفينا بوعدينا.

ولكن صداماً كان قد نجا، وكان قد نجح، لمجرد نجاته، في تصوير نفسه على أنه المنتصر. ما من أحد من جيرانه كان يريد حدوث ذلك مرة أخرى. فمن شأن ذلك أن يجعله حتى أكثر خطراً. إذا كانت الولايات المتحدة عازمة على خوض أي عمل عسكري، فقد تعين علينا أن نضمن عدم بقاء صدام في السلطة.

قدم الجنرال ميرز إلى الأمير بندر صورة وافية عما كان يدور في أذهاننا. كان بندر الذي سبق له أن كان طياراً مقاتلاً، يفهم الاستراتيجية ويستوعب الرطانة، ولا شك أنه تأثر بالكلام الذي ترك لديه انطباعاً قوياً غير أنه أراد أن يعرف ما إذا كان سيتوفر أي مخرج لصدام. طمأنه دون إلى أن صداماً لم يكن

ليترك في السلطة. سأل بندر ثانية، سؤالاً مباشراً، قائلاً: "هل سينجو صدام هذه المرة؟ كنت قد استمعت بهدوء خلال الجزء الأكبر من جلسة الإيجاز، إلا أنني نطقت الآن وقلت: "تأكد يا بندر أن صداماً سيُقضى عليه لحظة شروعنا في الأمر!"

اقتنع بندر. أراد أن يكون قادراً على إبلاغ ولي العهد أنه كان قد سمع هذا مباشرة من فم الرئيس بوش، فما إن غادر مكتبي حتى نقلت رغبته إلى الرئيس الذي التقى بندر يوم الاثنين التالي.

عاد طوني بلير إلى واشنطن في آخر شهر كانون الثاني/يناير، مجادلاً أننا كنا بحاجة إلى قرار آخر من الأمم المتحدة. كنا نحن، كولن باول، وكوندي رايس، ودون رامسفيلد، وأنا، جميعاً، متفقين على أن هذه فكرة خاطئة. كنا قد نجحنا في استصدار قرار واحد، وما من أحد كان مؤمناً بحاجتنا إلى آخر من شأن الحصول عليه أن يبقى صعباً. كان وزير الخارجية الفرنسي دومينيك دوفيلبان قد أعلن سلفاً أن "لا شيء اليوم يبرر البحث عن عمل عسكري" ضد العراق. وكنت أيضاً متوجساً من أن يؤدي سعينا للحصول على قرار ثان وإخفاقنا في ذلك إلى توفير فرصة لمنتقدينا كي يتهمونا بالانفراد ـ مع أننا كنا، في الحقيقة، قد ركّبنا تحالفاً ضم عشرات البلدان. من المؤكد أن كثيرين كانت مساهماتهم بسيطة، إلا أن المغزى التاريخي لوجود بلدان أخرى عدا تلك الحليفة الدائمة مثل المملكة المتحدة وأستراليا، معنا كان بالغ الأهمية؛ أعني وجود بلدان مثل جمهورية التشيك، من الكتلة السوفييتية السابقة في التحالف. كذلك قدرت أن من شأن طرقنا باب الأمم المتحدة من جديد أن يوحي بأننا مترددون ولسنا على يقين، إلا أن بلير كان يرى استصدار قرار ثان ضرورة سياسية بالنسبة إليه في بلده. وعلى الرغم من أنه كان متمتعاً بهامش واسع في البرلمان، فإنه لم يكن واثقاً من زملائه العماليين، وبدا متخوفاً من احتمال ليس خسارة التصويت على الحرب وحسب، بل وحتى الإطاحة بحكومته. كانت بريطانيا حليفة رئيسية، وحين قرر الرئيس السعي لاستصدار قرار ثان، تفهمتُ أسبابه. غير أن جهودنا الرامية على حشد التأييد لهذا القرار كانت خائبة، وفي يوم الاثنين الواقع في 17 آذار/

مارس قمنا بسحب المشروع. تلك الليلة خاطب الرئيس الأمة ومنح صدام حسين مهلة ثمان وأربعين ساعة لمغادرة العراق.

في اليوم التالي، يوم الثلاثاء، فاز بلير في تصويته البرلماني. أكثرية من الأعضاء العماليين أيدوه، وقد حصل حتى على حصة أكبر من أصوات المحافظين. بطلب من البريطانيين، كنت قد اتصلت مع عدد من المحافظين، بمن فيهم دنكان سميث، زعيم المحافظين. كان، في هذه المسألة صخرة دعم لبلير.

يوم الأربعاء، فيما كانت العملية العسكرية جاهزة للانطلاق، أجريت اتصالات هاتفية مع سلسلة من القادة العالميين، مطلعاً إياهم على أن الدبلوماسية كانت قد وصلت إلى نهاية مسارها. مفكرتي تبين أنني تكلمت مع قادة مصر، وإسرائيل، وهنغاريا، وبلغاريا، ورومانيا، وكوريا الجنوبية. كان الرئيس السوري بشار الأسد أيضاً على لائحتي، ولكن الرد الذي جاء، عندما اتصل مكتبي بمكتبه، هو: "غير موجود".

في لحظة من لحظات سلسلة اتصالاتي الهاتفية دُعيت إلى المكتب البيضوي في الأسفل. كان فريق رئيس الجمهورية للأمن القومي مجتمعاً لسماع جورج تنت، الذي كان قد جاء لتقديم تقرير عن أن مصادر تابعة للسي آي إيه داخل العراق كانت تعتقد بأنها تعرف المكان الذي كان صدام حسين سيبقى فيه تلك الليلة. أفاد جورج بأن الوكالة تلقت روايات شهود عيان لقصة أن صداماً ونجليه كانوا في مجمّع معروف باسم مزارع الدرة ومن المحتمل أن يعودوا. في قلب دوامة من النشاط، مع معلومات جديدة واصلة آنياً وحشد الأركان والرؤساء داخلين وخارجين على عجل، تحدث وزير الدفاع رامسفيلد ورئيس هيئة الأركان المشتركة ميرز عن خياراتنا العسكرية. إذا كان صدام هناك، في الحقيقة، فقد توفرت لنا إمكانية توجيه ضربة قطع رأس في اللحظات الأولى من الحرب. غير أنه كان لا بد لنا من التحرك بسرعة، وكان ثمة أخطار. كنا سنحتاج إلى قصف المكان بقنابل خارقة للتحصينات، وكان ذلك يعني التحليق في أجواء قريبة من بغداد قبل تدمير الدفاعات الجوية.

توسعنا في مناقشة الإيجابيات والسلبيات، ثم ما لبث الرئيس أن أخرج الجميع من المكتب البيضوي، نظر إلي، وقال: "ما الذي ينبغي أن نفعله برأيك يا

ديك؟"، عبرت عن اقتناعي بضرورة الإغارة. إذا كانت الاستخبارات صحيحة، فقد توفرت لنا فرصة اختزال مدة الحرب اختزالاً ذا شأن عن طريق قتل صدام سلفاً. رأيت الأمر جديراً بالمخاطرة. أيدني الرئيس. طلب من الآخرين أن يعودوا إلى مكتبه وأمرهم بشن الهجوم. بعيد انتهاء المهلة المعطاة لصدام كي يترك العراق شنت اثنتان من طائرات الشبح، طراز إف ـ 117 غارة على مزارع الدرة.

في اليوم التالي وصلتنا تقارير تحدثت عن أن الضربة كانت مرشحة لأن تفعل فعلها. أفاد شاهد عيان بأن شخصاً يشبه صداماً سُحب من بين الركام وتُرك ممدّداً على نقالة في الهواء الطلق. إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى تبين أن جميع تلك التقارير الأولى كانت زائفة.

في الأيام والأسابيع الأولى من عملية الحرية العراقية كنت أتلقى إيجازات شبه يومية عن تقدمنا. كذلك كان تومي فرانكس يقدم المستجدّات فوراً بصورة منتظمة عبر حلقات الاتصالات الفيديوية المتشعبة الآمنة من مقر قيادته الميدانية المتقدمة في قطر. فعل ذلك صباح يوم الثلاثين من آذار/مارس، وكان الخبر مشجعاً. كانت حقول النفط قد تم الاستيلاء عليها سالمة، والمناطق الغربية من العراق لم تعد قاعدة لإطلاق الصواريخ ضد جيران العراق، وضرباتنا الجوية كانت تُلحق أضراراً ملموسة بالقوات العراقية. بتنا نتحرك من مطارات عراقية؛ وخورمال، معسكر القاعدة للسموم، جرى تدميره؛ والمؤن الإنسانية كانت تصل العراق. صارت قواتنا على مسافة ستين ميلاً من بغداد على جملة جبهات وهي لا تزال محتفظة بـ 90 بالمئة من قدرتها القتالية. القائمة تطول وتطول. ختم تومي كلامه قائلاً: "النظام مرتبك، وهو يعرف ذلك."

كان أحد أكبر هواجسنا احتمال قيام صدام بتركيز أفضل قواته حول العاصمة، واستخدام أسلحة كيماوية أو نووية ضد قواتنا، والعمل بعد ذلك على إيجاد قلعة لنفسه داخل بغداد. ساورنا القلق من الاضطرار إلى التعامل مع حصار للعاصمة كان من شأنه أن يشكل عبئاً باهظ التكاليف من الأرواح والإصابات. وتجنباً للغرق في وحول الطريق إلى بغداد بادر قادتنا إلى تنسيق وتنفيذ عملية قائمة على تأكيد السرعة. دخلوا في سباق إلى العاصمة. مثل

ملايين الأمريكيين كنت أتابع التقارير الإخبارية على التلفزيون ليلة بعد أخرى فيما الإعلاميون المفروزون مع القوات كانوا عاكفين على رواية قصة التقدم السريع نحو قلب نظام صدام.

في حلقة إيجاز عن سير الحرب في الثاني من نيسان/أبريل، تحدثت وزارة الدفاع عن أن الناس في النجف كانوا "يستقبلوننا بوصفنا محررين". وفي إيجاز يوم 5 نيسان/أبريل، دار الحديث حول "حشود تخرج إلى الشوارع للترحيب بنا". في التاسع من نيسان/أبريل، توغلنا في بغداد، كانت عبارة الختام "الوضع إيجابي جداً، حقاً إيجابي". عناوين عريضة في "الواشنطن بوست" تحدثت عن "قوات أمريكية تتحرك ظافرة في شوارع العاصمة، مرحب بها من قبل حشود غارقة في بحر من السعادة لرحيل النظام الظالم". قبل بضعة أسابيع كنت قد قلت لتيم روسرت في برنامج "مع الإعلام": "من وجهة نظر الشعب العراقي، أعتقد أننا سنلقى الترحيب، في الحقيقة بوصفنا محررين". بالتأكيد كانت ثمة أيام صعبة بانتظارنا، ولكن تقويمي كان صائباً. خلافاً للتأكيدات اللاحقة لمنتقدي الحرب جرى استقبالنا بوصفنا محررين حين حررنا الشعب العراقي من قبضة صدام.

مع التحسينات الطارئة على التكنولوجيا والمعدات، كانت قواتنا متمتعة بقدرات لم نكن نستطيع أن نراها إلا في الحلم خلال عاصفة الصحراء. وقواتنا البرية كانت قد حسنت قوتها القتالية وزادت من مدى أسلحتها ودقتها. كل من مقاتلينا الجويين كان الآن قادراً على إرسال قذيفة موجهة ليزرياً إلى الهدف وإصابته بنسبة مئة بالمئة مقارنة بـ 20 بالمئة فقط في عاصفة الصحراء حين لم نكن متوفرين إلا على نوع واحد من المركبات الجوية غير المأهولة. أما في عملية الحرية العراقية فكان عندنا عشرة أنواع مختلفة متدرجة من منظومات تكتيكية تمكن جنودنا من رؤية ما وراء التلة التالية إلى منظومات استراتيجية عاملة على ارتفاعات شاهقة.

في 1991 توفر لصدام الوقت اللازم لتحويل حقول النفط الكويتية إلى حرائق ملتهبة. أما في 2003 فإن قوات عملياتنا الخاصة تم إرسالها في وقت مبكر لحماية آبار النفط الست مئة في جنوب العراق. في أثناء عاصفة الصحراء

كان صدام قد أطلق عدداً من صواريخ سكود على إسرائيل والسعودية. أما في عملية الحرية العراقية فإن قوات العمليات الخاصة عندنا نجحت في السيطرة على منصات إطلاق الصواريخ في غرب العراق وحالت دون استخدامها.

الخطة التي ألفها الجنرال فرانكس والوزير رامسفيلد لتحرير العراق كانت جريئة، ومثيرة للإعجاب، وفعالة. فمن خلال التحرك بسرعة مذهلة، والتقدم بقوة صغيرة، وبدون أي قصف جوي تمهيدي، تم تحقيق مباغتة تكتيكية. وبما هو أقل من نصف القوات البرية وثلثي الطاقات المستخدمة في عاصفة الصحراء، تم بلوغ هدف أصعب بما لا يقاس في وقت أقصر وبإصابات أقل.

في التاسع من نيسان/أبريل، كنا، لين وأنا، في زيارة لمتحف يوم الإنزال في نيوأورلينز، متابعين التلفزيون في غرفتنا الفندقية قبل ذهابي إلى المسرح للكلام، رأينا تمثال صدام في قلب بغداد مرمياً أرضاً من قبل عراقيين وجنود مارينز أمريكيين. تأكدنا من أننا كنا نشاهد نهاية نظام صدام.

قبل سقوط التمثال مباشرة، قام بحار شاب بلف رأس صدام بعلم أمريكي. متابعاً ما كان يجري على التلفزيون تفهمت المشهد تماماً. جميعاً كنا نريد أن نرى علماً عراقياً هناك بسرعة، إلا أن قواتنا كانت قد أنجزت للتو انتصاراً عسكرياً مدهشاً. كانت قد فازت بحق غرس النجوم والشرائط أينما شاءت.

في آخر النهار، بعد العودة إلى البيت الأبيض كان ضيفي هو كنعان مكية، منشق عراقي كان قد تصدى لصدام حسين عقوداً من الزمن. وهو شخص لطيف، ناعم الكلام، كان قد عكف على توثيق فظاعات نظام صدام. كان ذلك لقاءً عاطفياً، ولن أنسى ما نسيت كلمات كنعان ذلك المساء. قال: "شكراً على تحريرنا!"

الفصل الثالث عشر

الاستخبارات والسياسة

خلال ربيع 2003، بدأت جملة روايات تظهر في الصحافة حول أن سفيراً أمريكياً سابقاً كان قد أوفد إلى أفريقيا في 2002 بعد أن كنتُ أنا قد طرحت أسئلة حول تقرير تحدث عن أن العراق كان قد حاول الحصول على اليورانيوم من النيجر. وتبعاً للمقالات قام السفير المغفل الاسم بإبلاغ السي آي إيه لدى عودته أن التقرير كان بلا أساس. حظي تقويمه باهتمام وسائل الإعلام لأنه بدا متناقضاً مع تصريح للرئيس بوش مؤلف من ست عشرة كلمة كان قد أطلقه في خطاب حال الاتحاد لعام 2003. كان قد قال: "لقد علمتِ الحكومة البريطانية أن صدام حسين حاول الحصول مؤخراً على كميات ذات شأن من اليورانيوم من أفريقيا".

فوجئت بالقصص عن السفير. قبل ما يزيد على العام بوقت غير قصير، قرأت أحد تقارير وكالة الاستخبارات الدفاعية عن احتمال محاولة العراق الحصول على اليورانيوم من النيجر، ففعلت ما كنت دارجاً على فعله في أكثر الأحيان وطلبت مزيداً من المعلومات. ما كان رأي السي آي إيه بالتقرير؟ ما مضاعفات الأمر بالنسبة إلى برنامج العراق النووي حسب رأي السي آي إيه؟ بعد بضعة أيام، نحو عيد الحب (يوم فالنتاين) لعام 2002، تلقيت مذكرة من السي آي إيه تقول إن لدى العراق مخزونات جاهزة من الكعكة الصفراء، أو مادة اليورانيوم الخام، كان قد جرى تأمين مئتي طن منها سابقاً من النيجر، ولكن هذه

المخزونات كانت في حاويات مختومة قامت الوكالة الدولية للطاقة الذرية بتفتيشها سنوياً. كانت هذه معلومة مثيرة للاهتمام لأنها تشير إلى أن صداماً إذا عزم على إعادة إطلاق برنامجه النووي، كان سيتعين عليه أن يحصل على اليورانيوم سراً - وكان ذا تاريخ مع النيجر. أفادت مذكرة منتصف شباط/فبراير بأن الوكالة كانت تسعى لتوضيح وتأكيد التقارير المتحدثة عن محاولات جديدة من جانب العراق للحصول على يورانيوم نيجري.

كان قد انقضى خمسة عشر شهراً ولم أكن قد حصلت على أي جواب من السي آي إيه، ومع ذلك فها أنا ذا أقرأ على صفحات الجرائد أن الوكالة كانت قد أوفدت شخصاً مكلفاً بمهمة إلى النيجر، سفيراً بلا اسم، كان عازماً على إيصال نتائج رحلته، تلك النتائج التي لم تصلني أنا قط، إلى عاملين في الإعلام، وكان هو يفعل ذلك لإلقاء نوع من ظل الشك على صدقنا. في كل سنوات عملي مع مجموعة الأجهزة الاستخباراتية - رئيساً لجهاز العاملين في البيت الأبيض، وعضواً في لجنة المجلس الاستخباراتية، ووزيراً للدفاع متولياً الإشراف على منظمات استخباراتية مثل وكالة الاستخبارات الدفاعية، ومكتب الرصد القومي، ووكالة الأمن القومي - لم يكن قد سبق لي قط أن رأيت شيئاً شبيهاً بهذا، وبعد أن كنت قد قرأت اثنتين من الروايات، رفعت سماعة الهاتف الآمن على طاولتي وضغطت على الزر الذي يوصلني مباشرة إلى مدير السي آي إيه جورج تنت في مقر قيادة الوكالة بلانغلي، وسألت حين رفع السماعة: "ما الذي يجري، بحق الجحيم يا جورج؟"

كان جورج مرتبك الصوت وبدا غير عارف أكثر مما أعرفه. أفاد بأنه لا هو ولا نائبه جون ماكلوخلين كانا على علم بأي مبعوث جرى إيفاده إلى النيجر. ولكنه أضاف حقيقة واحدة. قال إنهما علما أن زوجة الزبون الذي ذهب إلى النيجر "تعمل في الوحدة التي أوفدته". أكد جورج أنه سيصل إلى أصل القصة وفصلها وسيعود إلي. حركت رأسي يميناً ويساراً وأنا أعيد السماعة إلى مكانها. بدت الحكاية أشبه بحكاية هواة هناك في السي آي إيه.

في السادس من تموز/يوليو 2003، بادر السفير المتقاعد، جو ولسن، بعد أن مل الإهمال على ما يبدو، إلى كتابة تعليق في "النيويورك تايمز" بعنوان:

"ما لم أعثر عليه في أفريقيا". قال ولسن هذا إن السي آي إيه كانت، رداً على مطالبتي بالمزيد من المعلومات، قد أوفدته إلى النيجر، مسددة نفقاته، دون ثمن وقته، الذي تبرع به "مجاناً". ونتيجة لرحلته توصل، حسب قوله، إلى استنتاج أن قصة سعي العراق للحصول على اليورانيوم من النيجر كانت بلا أساس، وأكد أن السي آي إيه كانت قد أطلعتني على الأمر دون شك. ولملمة لأطراف الحكاية لاذ ولسن بإيراد تصريح الرئيس في خطاب حال الاتحاد واتهم الإدارة بتحريف المعلومات الاستخباراتية لتسويغ الحرب.

كثيراً ما أقتطع قصاصات من الجرائد، وذلك هو ما فعلته مع تعليق ولسن. دوّنت عدداً من الملاحظات على الهامش تعبيراً عن انزعاجي: "هل سبق لهم أن فعلوا مثل هذا النوع من الأمر من قبل؟ إرسال سفير [إلى أفريقيا] للإجابة على سؤال؟ هل نقوم عادة بإيفاد أشخاص مجاناً ليعملوا في خدمتنا؟ أم أن زوجته أرسلته على حسابها في رحلة متعة؟"

بعد نشر التعليق كان ثمة جدل داخل البيت الأبيض، وأقله نقاش واحد في المكتب البيضوي، حول ما إذا كان يتعين علينا أن نعتذر عن إيراد "الكلمات الست عشرة" في خطاب حال الاتحاد لرئيس الجمهورية. كانت السي آي إيه قد برّأت خطاب الرئيس؛ ولكن المدير تنت بات، بعد تسليط الأضواء على الكلمات، يقول إنهم لم يرتقوا إلى مستوى لائق من اليقين. اعتقد بعض كبار موظفي الرئيس أن من شأن مبادرتنا إلى إصدار نوع من الاعتذار أن يفضي إلى إطفاء القصة. عارضت الرأي بقوة. لم يكن أي اعتذار ليفيد إلا في صب الزيت على النار، كما لم يكن ثمة أي سبب يدعو للاعتذار طالما أن البريطانيين كانوا، في الحقيقة، قد تحدثوا عن أن العراق كان قد حاول الحصول على كمية ذات شأن من اليورانيوم من أفريقيا. "الكلمات الست عشرة كانت صحيحة".

من الجدير ذكره عند هذه النقطة في قصة معقدة أن الحكومة البريطانية، بعد أن قامت بغربلة ومعاينة معلومات ما قبل الحرب الاستخباراتية عن العراق، أكدت صحة التقارير. جاء في مراجعة بتلر أن "موظفين عراقيين زاروا النيجر في 1999، وتلقت الحكومة البريطانية معلومات استخباراتية من مصادر مختلفة كثيرة مشيرة إلى أن هذه الزيارة كانت بهدف الحصول على يورانيوم". لم

يكتف البريطانيون بالوقوف في صف استخباراتهم، بل وتوصلوا إلى استنتاج أن خطاب حال الاتحاد للرئيس بوش كان "جيد الأساس"[54].

تشكل عندي انطباع بأن الرئيس كان قد قرر عدم اللجوء إلى أي اعتذار علني، ما فاجأني بعد بضعة أيام حين أقدمتْ مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس على إبلاغ فريق البيت الأبيض الإعلامي ما يلي: "ما كنا لندخل العبارة في الخطاب لو كنا قد عرفنا ما بتنا نعرفه الآن". تمثلت النتيجة بالحريق الذي كنت قد تنبأت به. مباشرة أرادت وسائل الإعلام أن تعرف هوية المسؤول. فجأة بات جهاز عاملي البيت الأبيض غارقين في مراجعة مسودات خطاب حال الاتحاد لرئيس الجمهورية، مستعرضين جملة الاتصالات مع السي آي إيه حول الخطاب، ومدققين معاينة خطابات سابقة لاكتشاف طريق تسلل الكلمات الست عشرة إلى الخطاب. بادر جورج تنت أولاً، وتبعه ستيف هادلي، نائب مستشارة الأمن القومي، لاحقاً، إلى إصدار تصريحين تضمنا موافقة على تحمل المسؤولية. كان ذلك وضعاً مثيراً للسخرية ـ ولا سيما في ضوء حقيقة أن الكلمات الست عشرة كانت "جيدة الأساس" حسب كلام البريطانيين.

فيما بعد أدركت رايس أنها كانت قد اقترفت خطأ جسيماً بإصدار اعتذار علني. جاءت إلى مكتبي، وجلست على الكرسي المقابل لطاولتي، واعترفت دامعة بأنني كنت على صواب. ولكن الضرر كان، للأسف، قد حصل. كان جورج تنت شديد الغضب لاضطراره إلى الاعتذار. كتب لاحقاً معترفاً بـ "أن علاقاتي مع الإدارة تغيرت إلى الأبد" بعد الكلمات الست عشرة. وكما روى تنت القصة في كتابه أيضاً، فيما كان لا يزال يتذاكى في تقديم نوع من الاعتذار، قام كولن باول بدعوته إلى بيته في ماكلين وقال له إن في البيت الأبيض أشخاصاً يحاولون سحب البساط من تحته وأنني أنا، ديك تشيني، كنت على رأس هؤلاء، رغم بقائه ـ بقاء تنت ـ حائزاً على التأييد والدعم في البيت الأبيض[55].

لم يكن ذلك صحيحاً. كنت داعماً قوياً داخل البيت الأبيض لما كان تنت والسي آي إيه يحاولان فعله. وحين طَفَتْ على السطح بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر اقتراحات داعية إلى تشكيل فريق شبيه بهيئة وارن للتحقيق في الإخفاقات الاستخباراتية، كنت قد جادلت معارضاً الفكرة قائلاً إن من شأن الأمر

أن يتحول بسهولة مفرطة إلى نوع من مطاردة الساحرات وأن ما يتعين علينا فعله هو التركيز على منع الهجوم التالي. وفيما يخص الكلمات الست عشرة لم أكن قد رأيت أن على جورج أو أي شخص آخر أن يعتذر، لا سيما بعد اطلاعي على ما صدمني بوصفه واقعاً مثيراً لقدر غير قليل من الضجيج. وعلى الرغم مما كان جو ولسن يقوله في الصحافة، فإنه كان قد عاد من أفريقيا بمعلومات مؤكدة لصحة الكلمات الست عشرة. كان قد تحدث مع محققي السي آي إيه عن حديث كان قد أجراه مع رئيس وزارة سابق من النيجر، قال إنه كان في العام 1999 قد التقى وفداً عراقياً لمناقشة موضوع "توسع العلاقات التجارية" بين العراق والنيجر. وبما أن مادة التصدير الرئيسية في النيجر هي اليورانيوم الخام، فإن رئيس الوزراء افترض أن العراقيين كانوا يريدون شراء الكعكة الصفراء[56].

في الرابع عشر من تموز/يوليو، 2003، كتب بوب نوفاك زاوية أضفى فيها على زوجة ولسن، فاليري بلامه، ثوب "عميلة" سي آي إيه وأوحى بأنها ربما رشحته للرحلة إلى النيجر. بعيد ذلك، كما علمت لاحقاً، بادرت السي آي إيه إلى لفت نظر وزارة العدل إلى احتمال كون فضح نوفاك لمكان عمل زوجة ولسن انتهاكاً للقانون الجنائي، ثم بادرت الوكالة إلى تقديم طلب رسمي لإجراء تحقيق جنائي. فيما بعد حدثني جورج تنت عن وجود ما يقرب من أربع مئة تقرير عن انتهاكات جنائية محتملة ذات علاقة بمعلومات سرية مصنفة قيد الانتظار في وزارة العدل، مرتبطة على الأغلب بالإعلام الذي لم تكن وزارة العدل تواقة للاشتباك معه. ولكن هذه الإحالة كانت ذات علاقة بالبيت الأبيض، وثمة شخص سرّب نبأ إلى أندريا ميتشل من الإن بي سي نيوز التي قالت في 26 أيلول/سبتمبر 2003 إن "السي آي إيه قد طلبت من وزارة العدل التحقيق في اتهامات تفيد بأن البيت الأبيض خالف القوانين الاتحادية إذ كشف هوية إحدى مستخدماته السريات انتقاماً من زوج هذه المرأة، الذي هو سفير سابق أقدم علناً على انتقاد زعم الرئيس بوش غير المسنود أن العراق كان قد حاول الحصول على يورانيوم صالح لصنع أسلحة من أفريقيا".

أي إحالة جنائية كانت قصة كبيرة على أي حال، لكنني لم أستطع إلا أن ألاحظ أننا جعلناها أكبر. عبر الاعتذار كنا قد زودنا مراسلين من أمثال ميتشل

بأساس يستندون إليه ليقولوا إن الرئيس كان على خطأ، مع أنه لم يكن. وسرعان ما تطورت عبارة "على خطأ" إلى "كذب" وكان جو ولسن يدأب، بطبيعة الحال، على دفع مسار القصة قدماً. "أكد" لمراسلَيْن أن السي آي إيه كانت قد أوصلت تقريره إلى مكتبي وقال لهما إن الإدارة كانت "على علم بأن قصة النيجر كانت كذبة مكشوفة"[57]. ألف كتاباً، وظهر في مجلات، وواصل الفبركة، زاعماً نيابة عن حملة الشيخ جون كيري الرئاسية، مثلاً، أن "تقريره" كان قد فضح "الكذب" في خطاب الرئيس بوش عن حال الاتحاد[58]. الشيخ بات روبرتس رئيس اللجنة المختارة لشؤون الاستخبارات في مجلس الشيوخ، سجل في تقرير اللجنة لعام 2004 أن ولسن اعترف، أقله مرتين، لأركان اللجنة بأنه استند "إما إلى تجارب سابقة غير ذات علاقة أو لم يستند إلى أي معلومات على الإطلاق" فيما يخص بعض مزاعمه. كتب روبرتس يقول: "إما عمداً أو نتيجة الجهل، قدم السفير السابق إلى الشعب الأمريكي، كما إلى العالم، إذن، رواية لأحداث كانت غير دقيقة، وغير مسنودة، ومضلِّلة"[59].

في الثلاثين من أيلول/سبتمبر، 2003، أعلنت وزارة العدل عن أنها قد بدأت تحقيقاً. أصر النائب العام جون أشكروفت على رفض القضية ونأى بنفسه عنها، فبادر نائب المدعي العام جيمس كومي إلى الاضطلاع بمتابعة المسألة. قرر تعيين مستشار قانوني خاص واختار باتريك فيتزجيرالد، وهو أحد أصدقائه القدامى، كان مدعياً عاماً أمريكياً لمنطقة إيلينوي الشمالية، للتحقيق في القضية وربما تقديم دعوى بشأنها. تم تعيين فيتزجيرالد في الثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر، 2003.

من بين الأشياء الكثيرة التي ينبغي أن تدعو أي شخص عاقل إلى التوقف عند مجمل هذه القصة المحزنة أن باتريك فيتزجيرالد كان يعرف منذ البداية هوية ذلك الذي سرّب المعلومة عن زوجة ولسن إلى بوب نوفاك. كان المسرِّب هو نائب وزير الخارجية ريتش آرميتاج، الذي قال لوزارة العدل إنه كان قد سرب المعلومة إلى نوفاك، ولكنه أخفى ما كان قد فعله عن البيت الأبيض. كان آرميتاج سيعترف لاحقاً بأنه قد أخبر الإعلامي بوب وودورد عن استخدام زوجة ولسن.

وبالفعل فإن من الممكن سماع آرميتاج على شريط تسجيل بوب وودورد المؤرخ في الثالث عشر من حزيران/يونيو، 2003 وهو يسرب واقع أن زوجة ولسن عملت لدى السي آي إيه أربع مرات منفصلة[60].

رغم معرفته بدور آرميتاج، أنفق فيتزجيرالد أكثر من سنتين على إجراء ما أطلقت عليه "الواشنطن بوست" اسم "تحقيق مطول بلا جدوى". فخلال النصف الثاني من 2003، وعام 2004 كله، وجزء لا بأس به من 2005، أنتج أفراد جهاز عاملي البيت الأبيض سلسلة طويلة من علب الوثائق، وخضعوا لاستجواب مكتب التحقيقات الفيدرالي، وسيقوا إلى المحاكم، وتكرر التحقيق معهم حول هذه الأحداث.

في هذه الأثناء، بقي آرميتاج صامتاً، هناك في وزارة الخارجية. ويؤلمني أن أسجل، أن رئيسه كولن باول حذا حذوه، نعم كولن باول الذي كان آرميتاج قد أخبره بأنه كان هو - أي آرميتاج - مصدر نوفاك في الأول من تشرين الأول/أكتوبر 2003[61]. بعد أقل من أسبوع، في السابع من تشرين الأول/أكتوبر 2003، كان هناك اجتماع لمجلس الوزراء. بعد الاجتماع دخل الإعلام لالتقاط صور، وكان ثمة أسئلة حول الذي كان قد سرب معلومة أن زوجة ولسن كانت تعمل لدى السي آي إيه. نفى الرئيس علمه، ولكنه عبّر عن رغبته في معرفة الحقيقة. عائداً بالذاكرة إلى الماضي، أُدركُ أن أحد الأشخاص القليلين في العالم الذين كان يمكنهم أن يبوحوا بالحقيقة، أعني كولن باول، كان جالساً بجانبه ملتصقاً به.

شاركت في جلستين مطوّلتين مع المستشار القانوني الخاص. كانت الأولى في مكتبي بالجناح الغربي في أيار/مايو 2004. أما الثانية فتمت في جاكسون هول في وايومنغ، في آب/أغسطس 2004. جرت الجلسة الثانية تحت القسم بما جعل شهادتي قابلة للتقديم إلى هيئة المحلفين. قام فيتزجيرالد باستجواب الرئيس بالذات في المكتب البيضوي.

بعد ذلك كله، لم يبادر المستشار القانوني الخاص إلى توجيه اتهام لأي كان بتسريب معلومة عن زوجة ولسن. كانت التهمة الوحيدة الموجهة ضد رئيس جهاز العاملين عندي، سكوتر ليبي، أحد أكثر الناس الذين سبق لي أن التقيتهم

كفاءة، وذكاء، واستقامة. كان ليبي قد عمل معي في وزارة الدفاع، حيث أُعجبت كثيراً بأدائه. وكنت قد سُررت حين وافق على ترك ممارسته الناجحة للمحاماة ليلتحق بالعمل في البيت الأبيض كرئيس لجهاز العاملين ومستشار أمن قومي لدى نائب رئيس الجمهورية. كانت له أياد بيضاء بالنسبة إلي كما بالنسبة إلى الأمة.

في الثامن والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر 2005، حوكم سكوتر بتهمة واحدة على صعيد إعاقة العدالة، وتهمتين على صعيد الحنث باليمين، وتهمتين أخريين في مجال تقديم بلاغ كاذب. في 2007، خلال فترة سجال علني عالي النبرة مشحونة بالغضب حول الحرب في العراق، جرت محاكمة ليبي في المحكمة الاتحادية بواشنطن العاصمة. دين بأربع تهم، لم تكن أي منها مستندة إلى تسريب اسم فاليري بلامه أو استخدامها من قبل السي آي إيه إلى الإعلام. كانت التهم دائرة بدلاً من ذلك حول ما تذكّره ليبي عن مكالمة هاتفية كان قد أجراها مع تيم روسّرت من الإن بي سي نيوز في 2003. لم تكن المسألة ما إذا كان موظف عام قد سرب نبأ استخدام السي آي إيه لبلامه إلى أحد المراسلين. كان المستشار القانوني الخاص قد ترك ذلك الموضوع خلفه وراح يركز على ما إذا كان أحد المراسلين، روسّرت، قد أتى على ذكر اسم زوجة ولسن على مسامع موظف عام، أي ليبي. أنكر الأول، روسّرت، إتيانه على ذكر الاسم. أما الثاني، سكوتر، فأكد أن الأول كان قد فعل.

كنت مؤمناً بأن سكوتر كان بريئاً ولم يكن جائزاً، بالمطلق، اتهامه، بله الحكم عليه. ما لم يكن مفاجئاً هو أن يختلف رجلان مشغولان حول ما دار في مكالمة هاتفية كانت قبل أشهر. حتى إذا قرر المرء أن أحد الطرفين كان أكثر دقة من الآخر، فلم يكن من الصائب الإصرار على أن الرواية الأخرى كانت كاذبة بدلاً من عطفها على نوع من النسيان أو إخفاق الذاكرة. خلال المحاكمة كانت ثمة أمثلة كثيرة لشهود نسوا أحداثاً مهمة، إلا أن مصائرهم لم تُعلق على دقة تذكرهم[62].

سبق لي أن تابعت أعمال مستشارين قانونيين خاصين مكلفين بالتحقيق مع شخصيات عامة تطول وتطول وتتسبب بقدر كبير من الأذى الإنساني، حتى

حين كانت تخفق في الاهتداء إلى جريمة كامنة في العمق. ما إن يتم تعيين مستشار مستقل أو خاص، حتى تنشأ ضغوط لاتهام أحد بشيء ما. فبدون مقاضاة وحكم، من الصعب جداً تسويغ كميات الوقت ودولارات دافع الضرائب المصروفة ـ وهي هائلة. في ظل قانون المستشار القانوني المستقل القديم أو في حال مستشار خاص متمتع بكامل صلاحيات مدعي عام الولايات المتحدة، كما كان باتريك فيتزجيرالد، ليس ثمة أي قيود زمنية، ولا أي حدود تختص بالموازنة، أو أي رقابة وإشراف. لا يلبث المرء أن يجد نفسه، وبسرعة كبيرة، أمام منظمة غير خاضعة للمحاسبة مسلحة بكل ما لدى الدولة من سلطة وجبروت تتولى مهمة ملاحقة موظفين عامين.

في 1992، بعد تحقيق دام ست سنوات وإنفاق ما يزيد على أربعين مليوناً من الدولارات، قام المحامي المستقل في قضية إيران ـ كونترا، لورنس والش، بتوجيه الاتهام إلى وزير الدفاع الأسبق كاسبار واينبرغر بجريمة عدم ذكر ملاحظات كانت مدونة في ملف محفوظ في مكتبة الكونغرس. خرج والش على الناس بهذا الاتهام عشية انتخابات 1992 الرئاسية المحمومة. في الشهر التالي علقتُ عبر برنامج "مع الإعلام" أن اتهام واينبرغر لم يكن إلا "محاكاة ساخرة". ومسجلاً واقع أنني كنت كبير البرلمانيين الجمهوريين في المجلس في لجنة إيران ـ كونترا، أشرت إلى أن واينبرغر كان ضد عملية إيران ـ كونترا. ثم أضفت: "الآن، بعد انقضاء ستة أعوام على الحدث... وبالاستناد إلى قصبة واهية جداً، يحاول المدعي العام الخاص، الذي لم يتمكن بعد من تجريم أحد بالفعل، والذي أنفق ملايين الدولارات، أن يقاضي كاب واينبرغر". وختمت كلامي عاداً الاتهام "عدواناً".

بعد انتخابات 1992 كنت من الذين تشاور معهم الرئيس جورج أتش دبليو بوش حول إصدار صكوك عفو لصالح أفراد متورطين في إيران ـ كونترا. قام باستدعائنا، جيمس بيكر وأنا، إلى مكتبه الخاص المجاور للمكتب البيضوي في الأيام الأخيرة من عام 1992 وطلب رأينا. كلانا، جيم وأنا، أيدنا فكرة العفو. كنت مؤمناً بأن الأفراد المعنيين كانوا أخياراً ولم يخطر ببالهم أنهم كانوا على خطأ. لم يكونوا إلا موظفي سي آي إيه وإدارة وجدوا أنفسهم أمام جبروت المحامي

المرافع المستقل، وفي مثال واينبرغر، من الواضح أن السياسة دست أنفها. كانت صكوك العفو الشيء الصحيح، ولم يتردد الرئيس في إصدارها عشية أعياد ميلاد 1992، واضعاً حداً للقضية.

قام الرئيس جورج دبليو بوش بتعديل حكم سكوتر منعاً لإيداعه السجن. رغم تقدير ذلك، كنت أشعر بقوة أن سكوتر كان يستحق عفواً، وقد تطرقت إلى الموضوع في مناسبات كثيرة مع الرئيس. تحدثنا عما كان والد الرئيس قد فعل قبل تركه المنصب، وتشكل لدي انطباع بأن الرئيس كان متفقاً معي حول ضرورة العفو عن ليبي رغم عدم إعطائه وعوداً. كانت لنا اجتماعات صغيرة مع فريق من كبار أعضاء الجهاز في المكتب البيضوي عشية أعياد الشكر والميلاد في 2008 لمناقشة قضايا كانت معلقة وصكوك عفو كانت ستصدر بالمناسبة. قال الرئيس إنه يخطط لإصدار أوامر العفو الأكثر إثارة للجدل في موعد أقرب من نهاية عهده.

قبيل خروجنا، جورج دبليو بوش وأنا، من منصبينا مباشرة، تناولنا آخر وجبات غدائنا الخاصة، وأخبرني بأنه غيّر رأيه حول إصدار دفعة إضافية من صكوك العفو. لم يكن ليحصل أي مزيد على هذا الصعيد، بمعنى عدم وجود أي عفو عن ليبي. شعرت بقدر عميق من الاستياء. كنت أتفهم أن أي عفو عن ليبي لم يكن مرشحاً ليحظى بالترحيب لدى وسائل الإعلام السائدة، وكان من شأنه أن يشكل خدمة قصيرة الأجل لأولئك المحيطين بالرئيس الحريصين على توليد إعلام إيجابي عن أيامه الأخيرة في الرئاسة. أما على المدى الطويل، حيث تحتسب الأفعال الصحيحة، فإن جورج دبليو بوش كان، من وجهة نظري، يقع في خطأ فادح. قلت له: "سيادة الرئيس، اسمح لي أن أصْدُقَك القول: إنك تترك رجلاً طيباً جريحاً على أرض المعركة".

أقدم جورج بوش على اتخاذ قرارات شجاعة عندما كان رئيساً، وإلى اليوم أقول بيني وبين نفسي: ليت العفو عن سكوتر ليبي كان واحداً من تلك القرارات.

يوم السبت الواقع في 13 كانون الأول/ديسمبر 2003، طرت إلى نيويورك لحضور مناسبة سياسية لجمع التبرعات. مع هبوط طائرة سلاح الجو رقم اثنين

في مطار ستيوارت الدولي في نيوبورغ نحو الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين من بعد الظهر قيل لي إن عليّ أن أتصل مع الرئيس بوش. تم الاتصال في الساعة الثالثة والدقيقة الثالثة والأربعين من بعد الظهر، وقال الرئيس: "يبدو أننا ألقينا القبض على صدام حسين، يا ديك". شرح أن عناصر من فرقة المشاة الرابعة العاملة قرب تكريت، بالتعاون مع وحدة عمليات خاصة متخصصة بمطاردة أهداف عالية القيمة، كانوا قد سحبوا رجلاً بدا صداماً من جحر عناكب صغير. كنا نعرف أن لصدام بدائل جسدية ما جعلنا نتحلى بالحذر رغم أن هذا الرجل كان يحمل وشمات وندوباً مناظرة لتلك المعروفة على جسم صدام. قال لي الرئيس إن الأسير كان يجري سوقه إلى بغداد تحت حراسة مكثفة.

ما إن أقفلت الخط حتى اتصل دون رامسفيلد. قال إن السجين تم التعرف عليه من قبل أحد الشهود بوصفه صداماً، وكانت ثمة خطط لمقارنة حمض السجين النووي بالحمض النووي لأحد نجلي صدام القتيلين. إذا لم يتسرب نبأ اعتقال صدام، فإن إعلاناً، كما قال، سيصدر صباح اليوم التالي في الساعة السابعة بتوقيت العاصمة.

كان اعتقال صدام إنجازاً كبيراً. في اليوم التالي خلال مؤتمر صحفي في بغداد، حين أعلن بول بريمر، رئيس سلطة التحالف المؤقتة قائلاً: "أمسكنا به!" ببساطة، قفز صحفيون عراقيون واقفين مطلقين الهتافات مصفقين وقد غمرهم الفرح. كنا نأمل أن يؤدي احتجاز صدام إلى إقناع الشعب العراقي وطمأنته إلى أنه ونظامه البعثي لن يعودا.

إلا أننا لم نكن بعد قد اهتدينا إلى مخزونات الأسلحة الكيماوية والبيولوجية التي كنا قد اعتقدنا بأن صداماً يحوز عليها.

بعد تحرير العراق كنا قد شكلنا فريق مسح العراق، منظمة مؤلفة من خبراء أسلحة أمريكيين وبريطانيين وأستراليين، كُلفوا بتحري مخزونات وبرامج صدام ذات العلاقة بأسلحة الدمار الشامل. ديفيد كاي الذي كان قد شارك في عملية البحث عن أسلحة محظورة في العراق بعد حرب الخليج الأولى، اختير لقيادة

الفريق. كان يقدم تقاريره إلى جورج تنت مباشرة، وخلال عام 2003 ظل كاي يوافينا بمعلومات حديثة عن سير العملية.

في أواخر تموز/يوليو جاء كاي إلى البيت الأبيض ليطلعنا على استقصائه. عبر عن الثقة بأنه سيعثر على أسلحة دمار شامل وأكد وجود برامج بحوث ذات علاقة بأسلحة كيماوية وبيولوجية. كان واثقاً من العثور على أسلحة كيماوية، إلا أنه لم يكن على الدرجة ذاتها من الثقة بشأن مخزونات الأسلحة البيولوجية. فآثار أي برنامج أسلحة بيولوجية كانت صغيرة جداً وسهلة الإخفاء أو الإزالة.

في تشرين الأول/أكتوبر، حين مَثُل كاي أمام لجنتي الاستخبارات في مجلسي الكونغرس، أفاد بأن فريق مسح العراق كان، رغم عدم العثور بعد على "مخزونات أسلحة"، قد اكتشف "عشرات النشاطات ذات العلاقة ببرامج أسلحة دمار شامل وكميات ذات شأن من المعدات التي أخفاها العراق عن الأمم المتحدة خلال عمليات التفتيش التي بدأت في أواخر 2002" بما فيها "شبكة مختبرات وملاجئ سرية داخل جهاز الاستخبارات العراقي تشتمل على معدات خاضعة للرقابة الدولية وقابلة للاستخدام لمتابعة بحوث الأسلحة الكيماوية والبيولوجية" مع "مجمّع مؤلف من مختبر وسجن، ربما للاستخدام من أجل إجراء اختبارات لمواد الحرب البيولوجية على البشر، كان الموظفون العراقيون العاملون من أجل التحضير لعمليات التفتيش الدولية قد أُمروا صراحة بألا يبوحوا بشيء للأمم المتحدة"[63].

ولكن كاي ما لبث، لدى استقالته في كانون الثاني/يناير 2004، أن أفاد بأنه لم يعد يأمل أن نتمكن من العثور على مخزونات أسلحة دمار شامل. لم ينكر التهديد الذي كان العراق يمثله. قال: "أظن بالفعل أن ما كشفناه خلال عمليات التفتيش جعل من العراق مكاناً ربما كان أخطر مما كنا نظنه في الحقيقة حتى قبل الحرب"[64]. كذلك أفاد كاي بأن صداماً كان عازماً على متابعة نشاطات إنتاج أسلحة دمار شامل، وهو استنتاج تردد صداه في تقرير خلفه تشارلز دولفر. فبرأي الأخير "كان صدام يريد إعادة خلق قدرة العراق على صعيد أسلحة الدمار الشامل... بعد رفع العقوبات"[65]. اقتبس دولفر كلام الدبلوماسي العراقي طارق عزيز حول أن صداماً كان سيعيد إطلاق برامج أسلحة

دمار شامل، بدءاً بالبرنامج النووي، بعد العقوبات ولاحظ أن صداماً كان قد تعمد الاحتفاظ برجال ونساء ممن لهم خبرة على هذا الصعيد. كذلك كانت لديه بنية تحتية ثنائية الاستخدام جاهزة للاستخدام من أجل إعادة تأسيس برنامج أسلحة بيولوجية وإنتاج أسلحة كيماوية في غضون أشهر(66).

غير أن أي مخزونات أسلحة دمار شامل لم تكن موجودة. ذلك كان هو النبأ المدوي الكبير، وقد جاء مع بداية عام الانتخابات الرئاسية. يبدو أن الديمقراطيين لم يريدوا الإقرار بأنهم هم أيضاً كانوا قد تبنوا معلومات استخباراتية باطلة وعولوا عليها. قرروا، بدلاً من ذلك، أن يحمّلونا مسؤولية "تضليل" البلد، مسؤولية "الكذب" على الأمة وجرها إلى الحرب. كان هذا أكثر آيات النفاق سماجة، لأنهم كانوا قد أُطلعوا على المعلومات الاستخباراتية - وتوصلوا إلى الاستنتاجات التي كنا نحن قد توصلنا إليها ذاتها. فحين أقدم جون كيري على اتهام الرئيس بالاتجار بـ "ما ليس صحيحاً" كان مذنباً تحديداً بما كان يتهم به الرئيس.

جزء من الهجوم استهدفني على نحو خاص. قيل إنني مارست الضغط على محللي السي آي إيه لدفعهم إلى المبالغة بالتهديد الذي كان صدام يمثله. لم يكن ذلك اتهاماً منطوياً على أي معنى، لأن الأحكام التي توصلتْ إليها السي آي إيه كانت من حيث الجوهر هي نفسها المنتَجة من قبل الوكالة إبان سنوات كلنتون. ثمة أجهزة استخبارات في بلدان أخرى كانت قد توصلت إلى استنتاجات مشابهة. كان تصويري بوصفي نائب الرئيس كليّ الصلاحيات قد أصبح نوعاً من الرياضة الإعلامية خلال فترة ولايتي، غير أن أياً من صيغ هذه القصة بما فيها حتى أكثرها عدوانية لم توح بأن نفوذي يصل إلى جهازي الاستخبارات البريطاني الإم - 16 (M16) والألماني البي إن دي (BND).

بدا الاتهام نابعاً من زياراتي للسي آي إيه التي بدأت مع شروع جورج تنت وبعض كبار المحللين في إطلاعي على المستجدات، وسرعان ما توسعت العملية لتشمل خبراء إقليميين أو مباحث أدنى مرتبة. كنا نتحلق حول طاولة اجتماعات حيث كان تنت أو نائبه يتوليان تقديم الموضوعات والمحللين. ثم كنت أنا أطرح أسئلة وتتاح للمحللين فرصة الإدلاء بدلائهم. وجدت هذه الجلسات

استثنائية القيمة، وأعتقد أن المحللين، الذين كثيراً ما يعملون ساعات طويلة في الظل بعيداً عن صانعي القرار السياسي، كانوا مثلي في نظرتهم إلى الجلسات.

هيئة روب ـ سيلبرمان ولجنة مجلس الشيوخ المختارة لشؤون الاستخبارات أنتجا تقارير مذيلة بتوقيع الحزبين عن إخفاقات استخباراتنا فيما يخص مخزونات أسلحة الدمار الشامل، وتوصلتا، كلتاهما، إلى استنتاج أنه لم يكن ثمة أي تسييس للاستخبارات أو أي ضغط من صانعي القرار السياسي. دأب تقرير روب ـ سيلبرمان، في الحقيقة، على حض "صانعي القرار السياسي على فحص المحللين ومساءلتهم". كنت أطرح أسئلة صعبة، لا شك في ذلك. وقد طرحت أعداداً كبيرة منها. كنت أدفع بقوة للحصول على معلومات من شأنها أن تساعدنا على اجتراح خطط وسياسات تمكننا من ضمان عدم تعرض أمريكا للهجوم من جديد. ولو لم أكن مثابراً كما كنت، لما كنت مضطلعاً بمسؤولياتي ومؤدياً واجباتي بوصفي أحد كبار الرسميين. وفي ضوء ما تكشف لاحقاً، مثل جملة الأخطاء الواردة في تقويم 2002 للاستخبارات القومية حول أسلحة الدمار الشامل العراقية، أقول: ليتني كنت أكثر قسوة.

أحد خطوط الاستجواب التي اتبعتها كان معطوفاً على العلاقة بين القاعدة وصدام. كان من المهم أن نعرف مدى الترابط الذي كان قائماً غداة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كما كان كثيرون إضافة إليّ أنا يرون. سأل الشيخ إيفان بايه، في جلسة استماع سرية، ما لبث جزء منها أن أُعلن للملأ، عن ارتباطات عراقية مع القاعدة. أجاب جورج تنت في رسالة مؤرخة يوم 7 تشرين الأول/أكتوبر 2002 بلائحة تضمنت النقاط التالية:

- لدينا تقارير مدعومة عن صلات على مستويات عالية بين العراق والقاعدة تعود إلى ما قبل عقد.
- ثمة معلومات ذات مصداقية توحي بأن العراق والقاعدة بحثا موضوع الملاذ الآمن وعدم الاعتداء المتبادل.
- منذ عملية الحرية الدائمة لدينا أدلة دامغة على حضور أعضاء من القاعدة في العراق، بمن فيهم بعض ممن هم في بغداد.
- تصلنا تقارير ذات مصداقية عن سعي قادة من القاعدة لإقامة صلات في العراق مع أشخاص قادرين على تمكينهم من الحصول على قدرات أسلحة

> دمار شامل. كذلك بينت التقارير أن العراق كان قد وفر فرص التدريب لأعضاء من القاعدة في مجالات إنتاج السموم والغازات وتصنيع المتفجرات التقليدية [67].

رغم مثل هذه البيانات الصادرة عن أعلى المستويات في الوكالة، اكتشفت أن السي آي إيه كانت أحياناً تبدو مترددة في استخدام كلمتي القاعدة والعراق في الجملة نفسها. ففي أوائل 2003، مثلاً، تلقيت تقريراً استخباراتياً عن نشاطات جماعة الجهاد الإسلامي المصرية في العراق. تضمن التقرير، مثلاً، وصفاً لبيوت آمنة كان يجري تأسيسها في بغداد. ولكن جماعة الجهاد، تنظيم أيمن الظواهري، الرجل الثاني بعد أسامة بن لادن، كانت مع حلول هذا التاريخ قد اندمجت بالقاعدة، مما دفعني إلى سؤال محدّثي عما إذا لم يكن أكثر صواباً، نظراً للاندماج الحاصل، عطف النشاطات الواردة في التقرير على القاعدة بدلاً من جماعة الجهاد الإسلامي. استغرق مجيء الجواب عدداً من الأسابيع، ولكنني أُبلغت أخيراً بأن الاسمين قابلان للتناوب. أقر تنت على الملأ بأن الجماعة والقاعدة غير "قابلتين لتمييز" إحداهما عن الأخرى [68]، إلا أن التقارير الاستخباراتية الناجزة ظلت تشير إليهما بوصفهما كيانين منفصلين.

وكما لاحظ جورج تنت وآخرون منذ ذلك التاريخ، فقد كان ثمة نوع من النزاع داخل السي آي إيه بين محللي الإرهاب، الذين كانوا ينظرون إلى التقارير ويحكمون بأن هناك نوعاً من العلاقة بين صدام والقاعدة، وبين خبراء الشرق الأوسط الإقليميين، الذين لم يكونوا يصدقون احتمال وجود أي ترابط بين صدام العلماني وبن لادن الإسلامي المتطرف. ولطالما ساورني الشك حول كون هذا الصدع هو السبب الكامن وراء خروج السي آي إيه علينا بعبارة "لا مرجعية، أو توجيه، أو تحكم". كان خبراء الإرهاب يعكفون على إصدار أحكامهم المؤكدة لوجود نوع من الارتباط بين صدام والقاعدة، إلا أن صاحب مرتبة أعلى في الوكالة كان يعمد بعد ذلك، إرضاء للمحللين الإقليميين، إلى العزف على وتر لحن أن ليس لصدام "أي مرجعية، أو توجيه، أو تحكم". باتت العبارة شعاراً سهل التناول بالنسبة إلى منتقدي الإدارة، لأنها بدت قائلة إن صداماً لم يكن مسؤولاً

عن الإرهاب في حين كنا نحن نؤكد أنه كان. كانت الوقائع والحقائق في صفنا. لم يكن مضطراً للتحكم بالقاعدة كي يكون منتهكاً لقرارات الأمم المتحدة التي حظرت على العراق توفير ملاذات آمنة للإرهابيين. لم يكن مضطراً ليكون ذا مرجعية بالنسبة إلى القاعدة - أكثر من الطالبان - كي يكون منتهكاً لعقيدة بوش، التي كانت تقول، بكلمات الرئيس، إن "أي دولة تستمر في إيواء الإرهاب أو دعمه ستُعد من قبل الولايات المتحدة دولة معادية".

حين ظهرت في برنامج "مع الإعلام" يوم الأحد التالي للحادي عشر من أيلول/سبتمبر، سألني تيم روسّرت عما إذا كان لدينا أي دليل يعطف صدام حسين أو العراقيين على هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. أجبته: "لا". غير أن جورج تنت ما لبث أن زودني، بعد فترة وجيزة، بمعلومات توحي بالاحتمال: تلقت وكالة السي آي إيه تقريراً يؤكد أن محمد عطا، قائد مختطفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كان قد اجتمع مع ممثل لجهاز الاستخبارات العراقية في براغ قبل الهجمات. لاحقاً تم إطلاعي على صورة قيل إنها ملتقطة في براغ وأن من المحتمل بقوة أن يكون صاحب الصورة هو محمد عطا. وهكذا فقد أتيت، لدى جلوسي أمام تيم روسّرت في التاسع من كانون الأول/ديسمبر 2001، على ذكر تقرير تضمن "تأكيداً قوياً" لمعلومة أن عطا كان قد ذهب إلى براغ والتقى مسؤولاً كبيراً في المخابرات العراقية. ذهب كولن باول، بعد إطلاعه على المعلومات نفسها، كما يبدو، حتى إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ قال لوولف بليتزر في برنامج "نشرة متأخرة" على شاشة السي إن إن: "يقيناً تلك الاجتماعات حصلت".

في صيف 2002، بعد أن قيل لي إن قصة لقاء محمد عطا في براغ بدأت تتهافت، بدأت أغير تصريحاتي. قلت لتيم روسّرت في الثامن من أيلول/سبتمبر إن الاجتماع "لم يتأكد بعد". في العام التالي، مجارياً ما كانت السي آي إيه تقوله في تقاريرها، قلت لتيم: "لم نستطع قط أن نتقدم ولو خطوة صغيرة على ذلك الخط، لا على صعيد تأكيد المعلومة ولا على دحضها. لا نعرف ونقطة على السطر". كنت حذراً فيما قلته - وشعرت بالخيبة حين كتب المدير تنت لاحقاً،

وكان على خطأ، أنني بقيت أزعم أن القصة "تأكدت إلى حد بعيد" بعد أن بدأت السي آي إيه تشك فيها.

كذلك خاب أملي يوم 2 حزيران/يونيو 2004، حين قام تنت بمفاتحة الرئيس، مورداً أسباباً شخصية، عن اعتزامه ترك المنصب. سرعان ما بادرت لجنة مجلس الشيوخ لشؤون الاستخبارات إلى إصدار تقرير ظن كثيرون أنه كان يتضمن انتقاداً، وساورني الشك بأن ذلك تسلل إلى تفكيره. كان الرئيس قد احتفظ بتنت عندما تولى الرئاسة، لفتة أيدتها. عبر جملة الأخطاء الاستخباراتية خلال فترة ولاية تنت، بقينا، الرئيس وأنا، واقفين معه. لكن أن يلوذ هو بترك الموقع مع تلبد الأجواء، بله في منتصف حملة رئاسية، بدا ظلماً للرئيس، الذي كان قد وضع ثقته في جورج تنت.

طالما كانت العلاقة بين صناع القرار السياسي من ناحية والعاملين في مجموعة الأجهزة الاستخباراتية من الناحية المقابلة مطبوعة بالتعقيد واللبس. فالمعلومات الاستخباراتية الخاطئة في عملية خليج الخنازير أثارت حفيظة الرئيس كنيدي وما لبثت أن أفضت إلى استقالة مدير السي آي إيه آلن دالاس. وافتضاح النشاطات الاستخباراتية البغيضة أخلاقياً خلال الحقبة الفيتنامية تمخض عن لجنتي بايك وتشيرتش البرلمانيتين والكشف العلني عن بعض أكثر أسرار السي آي إيه حساسية. في أثناء التحقيقات الجارية بشأن مبيعات الأسلحة السرية لإيران وتحويل الأرباح إلى مساعدة لمناضلي الكونترا في نيكاراغوا في ثمانينيات القرن العشرين، ثمة محترفو استخبارات مخلصون دائبون على القيام بما كانوا يرونه صحيحاً أو بما كان يفترض فيهم أن يقوموا به ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم أهدافاً لمحام مرافع مستقل، دون أن يجدوا إلا القليل من صانعي القرار السياسي مستعدين للدفاع عنهم. لدى النظر إلى الأمر نظرة طويلة المدى، من السهل اكتشاف الأسباب الكامنة وراء صيرورة الطرفين كليهما حذرين مسكونين بالريبة كل منهما تجاه الآخر.

ما نطلبه من مجموعة أجهزتنا الاستخباراتية في عالم اليوم متزايد التحدي باطراد. قارنه، مثلاً، بمهمتهم خلال الحرب الباردة. ما كان مهماً آنذاك لم يتمثل

بأي نشاطات أفراد إلى حد كبير. كان السوفييت يشكلون تهديداً عسكرياً هائلاً، بمعنى حشود من الفرق والدبابات، ومن المدافع والصواريخ، ومن الأشياء التي يستطيع المرء أن يعدها لأنها غير قابلة للإخفاء عن أعين الأقمار الصناعية - حتى آنذاك لم نكن نحصل دائماً على ما هو دقيق من المعلومات لأن العمل الاستخباراتي يبقى شأناً بالغ الوعورة. أما المستلزمات الاستخباراتية للحرب على الإرهاب فهي مختلفة كلياً وأكثر صعوبة بما لا يقاس من بعض النواحي. من العسير جداً تحري وتعقب تسعة عشر رجلاً مجهزين بمشارط علب عازمين على قلب طائرات إلى صواريخ موجهة إلى مباني ومنشآت. كانت التكنولوجيا في صفنا خلال الحرب الباردة، أما الآن فإن الوضع بات مقلوباً من بعض النواحي. من الممكن الآن أن يقوم فرد أو حفنة من الأفراد بحيازة الوسائل التكنولوجية - قنبلة قذرة أو إنتراكس (جمرة خبيثة) تم قلبها إلى سلاح - لإزهاق أرواح حشود كبيرة.

المعلومات الاستخباراتية التي تحدثت عن امتلاك صدام مخزونات من أسلحة الدمار الشامل كانت خاطئة، وهذا الإخفاق الاستخباراتي كان له تأثير على التخطيط والسياسة في أعوام لاحقة من إدارتنا. غير أنني كنت أُقدّر مدى ضخامة المهمة الملقاة على عاتق المجموعة الاستخباراتية على صعيد السعي للتنبؤ بالشوط الذي كان نظام كتوم، مارق قد قطعه في برامجه السرية البالغة الحساسية.

تبقى الاستخبارات، بطبيعتها بالذات، عملية مفرطة الصعوبة، ونادراً ما يسمع الجمهور عن أي نجاحات استخباراتية - وقد كان منها أمثلة كثيرة، كثيرة جداً، لا سيما في الحرب على الإرهاب. أُكِنُّ قدراً كبيراً من الاحترام لأولئك الرجال والنساء الذين يخدمون أمتنا عبر الأجهزة الاستخباراتية الأمريكية. ثمة الآلاف والآلاف منهم ينطلقون إلى العمل يومياً ملتزمين بفعل ما يستطيعون فعله للدفاع عن الأمة ضد أعدائها، ويبقى التزامهم ثابتاً دون اهتزاز بصرف النظر عن الحزب الذي يمسك بدفة الحكم. لقد نجح عملهم في إنقاذ أعداد لا يحصرها إحصاء من الحيوات الأمريكية.

* * *

ثلاث مرات قبل انطلاق حملة الـ 2004 عرضت على الرئيس أن يشطب اسمي من على البطاقة الجمهورية. كنت قد أصبحت الشخص الذي يتلقى وابلاً من الهجمات الصادرة عن منتقدي الإدارة، ونظراً لجملة التحديات التي كنا نواجهها في الحرب على الإرهاب، على نحو استثنائي، كان من المهم بشكل حاسم أن تتم إعادة انتخاب جورج بوش. وإذا كان الرئيس بوش يشعر بامتلاك حظ أوفر للفوز مع شخص آخر قريناً له، فقد أردت إشعاره بأنه متوفر على كامل الحرية لإحداث التغيير.

في المرتين الأوليين طرحت إمكانية أن ينظر في استبدالي، تجاوز الطرح دون أن ينبس ببنت شفة. لذا بادرت من جديد إلى إثارة الأمر مؤكداً الجدية التي يجب أن تطبع تقليبه للموضوع. افترقنا وعكف على إعمال الفكر بالمسألة. وبعد بضعة أيام جاءني ليقول إنه يريد أن أكون معه في السباق مرة أخرى. شرّفني أن أفعل. راكمنا سجلاً من الإنجازات في فترتنا الأولى من وجودنا في المنصب كنت فخوراً بعرضها أمام الشعب الأمريكي.

لدى عكوفي على التفكير بالقضية التي كنا سنبسطها أمام الناخبين في انتخابات الـ 2004، وجدت من المفيد العودة إلى ما كانه العالم حين أمسكنا بدفة الحكم في كانون الثاني/يناير 2001. في غفلة منا، كان التخطيط للحادي عشر من أيلول/سبتمبر يجري على قدم وساق، قاطعاً شوطاً كبيراً. كان المختطفون قد جُندوا، والتمويل قد تأمن، والتدريب مستمر، وبعض المختطفين وصلوا سلفاً إلى الولايات المتحدة. في أفغانستان كانت حركة الطالبان متحكمة بالجزء الأكبر من البلد وتوفّر قاعدة عمليات وملاذات آمنة رئيسية للقاعدة. كانت معسكرات التدريب خلايا نحل، وعشرون ألف إرهابي تخرجوا في المعسكرات بين 1996 والحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001.

كانت الباكستان في حالة من التوتر الشديد. مشكلات كبيرة شكلت عبئاً على العلاقات الأمريكية ـ الباكستانية. قبضة الرئيس برويز مشرف على زمام السلطة كانت مهزوزة، وكان ثمة متعاطفون مع القاعدة في مراكز حساسة من حكومته. الحركة الإسلامية المتطرفة في الباكستان كانت قوية، ومناطق من البلاد

كانت تؤوي قواعد عمليات عائدة للقاعدة. كان استقرار الباكستان يشكل هاجساً ضاغطاً بقوة. لو نجح المتطرفون في الإمساك بزمام الأمر، لصاروا متحكمين أيضاً بترسانة البلاد النووية.

في العراق، بقي صدام حسين قابضاً على السلطة. كان قد أشعل حربين وأنتج أسلحة دمار شامل. ما لبث أن استخدمها ضد الأكراد والإيرانيين. كان يوفر الملاذ الآمن والدعم المالي لإرهابيين ويقدم خمسة وعشرين ألفاً من الدولارات لذوي كل انتحاري فجر نفسه في إسرائيل. نظامه كان الأكثر دموية في القرن العشرين مع ارتباط محتمل خطر بإرهابيين وقدرة على إنتاج أسلحة دمار شامل.

في 2001، كان أبو البرنامج النووي الباكستاني، عبد القدير خان، مشغولاً ببيع تكنولوجيا ومعدات أسلحة نووية إلى رتل من الدول المارقة مثل إيران، وكوريا الشمالية، وليبيا. وقد كان الدكتاتور الليبي معمر القذافي زبون خان الأكبر.

وعلى امتداد عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، كان الإرهابيون قد استخلصوا درسين خطيرين من رد أمريكا الضعيف على هجمات سابقة - على سفارتنا وثكنات المارينز في بيروت، وعلى وحداتنا في الصومال، وعلى مركز التجارة العالمي في 1993، وعلى مرافق التدريب العسكري في الرياض، وعلى أبراج المجمع السكني في الخبر، وعلى سفارتينا في أفريقيا الشرقية، وعلى الباخرة كول. بداية اعتقد الإرهابيون أنهم قادرون على إنزال الضربات وهم محصنون، وأن الاحتمال الوارد هو أن يبقى رد الولايات المتحدة هزيلاً، غير ذي تأثير. ثانياً، استنتجوا أن من شأن قيامهم بتوجيه الضربات إلى مقتنيات أو مجموعة موظفين أمريكيين أن يفضي إلى إحداث تغيير في سياستنا أو إلى انسحابنا وانكفائنا.

في عام 2004 بدا العالم مختلفاً كثيراً. هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر كانت قد غيرت كل شيء. كنا قد عززنا دفاعنا عن الوطن، بما في ذلك إدخال تحسينات على دفاعاتنا ضد الأسلحة البيولوجية، واستحدثنا وزارة الأمن الوطني. كنا أيضاً قد دأبنا على تعقب شبكات الإرهابيين المالية، ورفعنا مستوى قدراتنا الاستخباراتية، وانتقلنا إلى الهجوم، مطبّقين العقيدة البوشية.

كنا قد أزحنا الطالبان عن مواقع السلطة في أفغانستان، وقتلنا أو اعتقلنا المئات من مقاتلي القاعدة. صار أسامة بن لادن ونوابه هاربين، ما أدى إلى شل قدرة القاعدة على التخطيط لهجمات ضد الولايات المتحدة. ثمة حكومة جديدة كانت قد تأسست في أفغانستان، ودستور قد كُتب، وانتخابات رئاسية ستجرى في خريف 2004. مستويات العنف تدنت، والجيش حقق تقدماً، وقوات الأمن الأفغانية تنامت، ونحن كنا نواصل تعاوننا الوثيق مع حميد قرضاي ومع الحكومة الأفغانية. بدت أفغانستان على مسار إيجابي.

في الباكستان كان الرئيس مشرف قد تحالف مع الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وصار يوفر دعماً مهماً لعملياتنا في أفغانستان. كان الباكستانيون قد ساعدونا على اعتقال أو قتل المئات من إرهابيي القاعدة في الباكستان، بمن فيهم العقل المدبر للحادي عشر من أيلول/سبتمبر: خالد الشيخ محمد.

في بغداد لم يعد صدام حسين في السلطة. ونجلاه رحلا عن العالم. أما هو ففي السجن. كنا قد أقمنا حكومة مؤقتة، ونقلنا السلطة، وبدأنا تدريب قوات أمن عراقية مرشحة للاضطلاع بمسؤوليات متعاظمة. ومع أن عملاً كثيراً كان باقياً، فإن العالم كان أكثر أمناً، بوضوح، بعد إطاحة صدام. تابع الزعيم الليبي معمر القذافي فعل الولايات المتحدة في أفغانستان واستعداداتها بالنسبة إلى العراق وقرر ألا يكون التالي. ونحن نقتحم العراق، تلقينا رسالة تقول إن القذافي قد يكون مستعداً للتخلي عن برنامجه النووي. رسميو استخبارات أمريكيون كبار تعاونوا مع نظراء بريطانيين لإجراء مفاوضات دامت تسعة أشهر مع الليبيين. ثم، بعد ستة أيام من إلقاء القبض على صدام، أعلن القذافي اعتزامه تسليم جميع مواد أسلحة الدمار الشامل الموجودة بحوزته. ما لديه من أجهزة طرد مركزي، وهكسوفلوريد اليورانيوم، وتصاميم أسلحة، ومواد ذات علاقة، شُحنت إلى الولايات المتحدة. صارت ليبيا خارج الدائرة النووية نتيجة لعمل الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق.

في الباكستان، مرة أخرى من جراء العمل الهائل لمحترفي الاستخبارات عندنا، كان عبد القدير خان قد وُضع خارج نطاق النشاط العملي. كنا قد أجهزنا

على شبكته. وفي الرابع من شباط/فبراير 2004، كان قد ظهر على شاشة التلفزيون الباكستاني واعترف بجملة نشاطاته اللاشرعية على صعيد نشر السلاح النووي. بات رهن الاعتقال المنزلي، وكنا قد وضعنا حداً لأحد أسوأ ناشري تكنولوجيا السلاح النووي في العالم.

أخيراً، بات الإرهابيون في طول العالم وعرضه يفهمون الآن أن الولايات المتحدة مستعدة لضرب أولئك العازمين على إيذائنا. كنا قد فعلنا هذه الأشياء كلها - وأبقينا الشعب الأمريكي بمنأى عن هجوم آخر.

في العاشر من أيار/مايو 2004، ذهبنا، الرئيس بوش وأنا، إلى البيت الأبيض لمشاهدة صور كانت قد نُشرت مؤخراً للملأ، جنباً إلى جنب مع صور أخرى كانت لا تزال محجوبة، لجنود أمريكيين يسيئون معاملة محتجزين عراقيين في سجن أبو غريب. كانت الصور بالغة الإزعاج. كان السلوك الموثق بالصور قاسياً ومشيناً وغير عاكس، بالتأكيد، لسياسة الولايات المتحدة. كان وزير الدفاع رامسفيلد قد أدلى بشهادته أمام لجنتي القوات المسلحة في مجلسي الشيوخ والنواب قبل بضعة أيام من زيارتنا إلى البنتاغون. اعتذر، وأقر بالمسؤولية الكاملة، ووعد بعملية تقصي حقائق وتحقيقات شاملة. كان أيضاً قد حاول الاستقالة في الخامس من أيار/مايو. كان مؤمناً بوجوب المحاسبة، وبوجوب جعل أحدهم يدفع الثمن، ولأن السلوك كان قد حصل في حظيرته هو، فقد سارع إلى موافاة رئيس الجمهورية بخطاب استقالته. لم يقبل الرئيس الاستقالة.

مع انتهاء اجتماعنا في البنتاغون في العاشر من أيار/مايو، طلب دون رؤية الرئيس على انفراد، وكما أبلغني الرئيس بوش بعد عودتنا إلى البيت الأبيض، فإن دون حاول أن يستقيل مرة ثانية قائلاً إنه مصمم هذه المرة. طلب مني الرئيس أن أتحدث معه، وأن أبين له مدى حاجتنا إليه، وأن أقنعه بالبقاء.

في اليوم التالي، يوم الثلاثاء، بعد الغداء الأسبوعي للجنة التخطيط في مجلس الشيوخ بالكابيتول، توجهت إلى البنتاغون للتحدث مع دون. في أثناء عبور موكبي البوتوماك، عدت بالذاكرة إلى ما قبل ثلاثين سنة حين كان جيري فورد في 1975 قد أوفدني إلى رامسفيلد لإقناعه بقبول منصب وزارة الدفاع.

بالتأكيد لم يخطر ببالي آنذاك أنني كنت سأقوم، بعد خمسة رؤساء جمهورية، بحضه على عدم الاستقالة من ذلك المنصب ـ المنصب الذي كنت أنا قد توليته لفترة بين التاريخين.

اقتعدت كرسياً حول الطاولة الدائرية الصغيرة التي كنت قد استخدمتها لعقد الجلسات الليلية لكبار الأركان حين كنت وزيراً. كان دون بجانب الطاولة الواقفة التي أبقاها قرب النافذة. عبّرت له عن تفهمي لسبب تقديمه لكتاب الاستقالة، مضيفاً أنه كان على خطأ هذه المرة. كنا في زحمة حرب ضد عدو بالغ الشراسة وشديد التصميم، وكان من شأن مغادرته للمركب أن تؤدي إلى تقويض مخططاتنا في العراق وأفغانستان. أبلغته إيماني بأن من شأن استقالته أن تلحق ضرراً جدياً، غير قابل للإصلاح ربما، ورجوته أن يعيد النظر. في النهاية، وافق على البقاء.

في آخر المطاف نال أولئك المسؤولون عن شناعات أبوغريب جزاءهم، سُرحوا، ولوحقوا قضائياً حيثما لزم. كان ثمة ما يزيد على العشرة من التحقيقات المستقلة التي تناولت سياسة الاحتجاز تحت إشراف رامسفيلد، وأي منها لم يتوصل إلى ما يشير إلى أن سوء المعاملة كان نتيجة إيعاز، أو تفويض، أو تواطؤ مع مرجعيات عسكرية أو مسؤولين كبار في وزارة الدفاع[69]. لعل ما أثار أكبر آيات الأسف عندي حول أبوغريب هو التركيز الذي حصل على مجموعة صغيرة نسبياً ممن كانت أفعال، بل فعلات، أفرادها صارخة التناقض مع الالتزام العميق والدائم بالواجب والشرف، ذلك الالتزام الذي لمسته غير مرة لدى جميع منتسبي الجيش الأمريكي من الرجال والنساء. فالإساءة الداعرة التي أقدمتْ على اقترافها تلك الحفنة من الجنود شكلت لطخة باقية على صورة أمريكا، ولكن هذه الحفنة لا تمثل بلدنا أو الذين يدافعون عنه من رجال ونساء.

كان أول خطاب سياسي رئيسي لي في حملة الـ 2004 بمكتبة رونالد ريغان الرئاسية في مدينة سيمي فالي في كاليفورنيا. كانت السيدة ريغان استثنائية النبل واللباقة، وكان الجمهور ودياً، وفي اليوم السابق ليوم إلقائي لخطابي، كان الشيخ جون كيري قد زودني ببعض المواد الفائقة الجودة. لدى سؤاله عن

اعتراضه على قانون بمبلغ 87 مليارأً من الدولارات لتوفير دعم مادي لقواتنا، أجاب: "فعلياً أنا أدليت بصوتي مؤيداً لمبلغ الـ 87 مليارأً من الدولارات قبل أن أصوت معترضاً عليه". اقتبست العبارات حرفياً وأوردتها على مسامع الجمهور، كاد البيت يطير إلى السماء - كما كان يحصل كلما كررت العملية.

لم أسافر كثيراً في 2004 كما كنت قد فعلت في 2000، لأنني كنت هذه المرة صاحب منصب متفرغ له، غير أن الأمر كان أمراً عائلياً حين أقوم بالحملة في أوقات الفراغ، خارج ساعات العمل. كانت لين تسافر معي، وابنتي ماري، المسؤولة عن حملتي، كانت معنا جل الوقت. أما ليز التي أنجبت مولودها الرابع، وحفيدنا الأول فيليب، في تموز/يوليو فلم تكثر من السفر خلال الصيف، إلا أنها تولت إدارة تحضيري لمناظرة مرشحي نيابة الرئاسة. درجنا على عادة اصطحاب حفيداتنا الثلاث. كيت التي كانت في العاشرة رمت كرة البيسبول الأولى للألتونا كيرف، فريق بيسبول ثانوي في بنسلفانيا؛ وغريس، ذات الأعوام الأربعة، ظلت في مقدمة الحافلة خلال الرحلات وكانت تهتف عبر مكبر الصوت: "أربع سنوات أخرى!"؛ وإليزابيث، وهي في السابعة من العمر، بقيت مرتدية زي الحصّادة المتجهمة في عيد جميع القديسين. في محطات الحملة لذلك اليوم قدمناها بوصفها خطة جون كيري للصحة.

أحد الأمكنة التي تحدثتُ فيها كان محلات كابيلا، مخزن أدوات وملابس رياضية، في الإيست غراند فوركس في مينيزوتا. عقدنا اجتماع مجلس بلدي أمام حشد من الأغنام الجبلية المحشوة، والأفضل من كل شيء، توفرت لي فرصة لشيء من التسوق بعد الاجتماع. لاحقاً اكتشفت، رغم أن الحدث كان عظيماً، أننا كنا في الموقع الخطأ. كانت القيادات الأعلى لحملة بوش - تشيني تريدنا أن نقتحم سوق وسائل إعلام الفارغو التي تغطي شمال غرب مينيزوتا، ولكن تشوشاً في اللوجستيات أرسلنا إلى سوق وسائل إعلام غراند فوركس - ومحلات كابيلا - بدلاً من الفارغو. غير أنني استمتعت بالمحطة وفترة التوقف من البداية إلى النهاية، ولست متأكداً ما إذا كان أحد في مقر قيادة الحملة قد تصور أننا كنا قد عقدنا اللقاء في مكان يبعد عن المكان المفترض مسافة ثمانين ميلاً - ربما عرفت قيادة الحملة ما حصل ولكنها لم تقل لي شيئاً.

لدى التحضير لمناظرة مرشح نيابة الرئاسة الديمقراطي، الشيخ جون إدواردز من نورث كارولينا، أعدت تجميع فريقي المتخصص بالإعداد للمناظرات مع اضطلاع عضو الكونغرس الأوهاوي، روب بورتمان، مرة أخرى بدور شريكي في الجدال. كل التركيبة المحيطة بإدواردز مدعومة بمهارته كمحامٍ جعلتني أتوقع خصماً جباراً عندما تقابلنا في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر 2004، بجامعة كيس وسترن ريزيرف في كليفلاندية. عدت من جولتنا ذلك المساء شاعراً أنه لم يبذل جهداً ذا شأن تحضيراً لأهم حدث يمكن لأي منا أن يشارك فيه خلال حملة الـ 2004.

كان ثمة موضوع واحد من الواضح أنه كان قد خطط له بعض الشيء. بعد منتصف المناظرة بقليل، سألنا مدير المناظرة: غْوَنْ إيفل عن اقتراح رئيس الجمهورية عن فرض حظر على تزاوج المثليين. افتتح إدواردز جوابه على النحو التالي: "دعني أقول أولاً إنني أظن أن نائب الرئيس وزوجته يحبان ابنتهما. أظن أنهما يحبانها كثيراً جداً. ولا يمكن للمرء إلا أن يعبر عن احترامه لواقع أنهما مستعدان للكلام عن حقيقة كونهما أبوين لابنة سحاقية، حقيقة أنهما يحتضنانها. إنه أمر رائع. وهناك ملايين الآباء والأمهات الذين يحبون أولادهم". ثار غضبي من رده. ما الذي أعطاه الحق في إطلاق بيانات عن عائلتي؟ ولكنك لا تريد أبداً أن يتسلل الزبون الآخر إلى ما تحت جلدك، ما جعلني أكظم غيظي وأضبط أعصابي. حين سألني إيفل عما إذا كنت راغباً في الرد، قلت: "حسناً، يا غون، دعني أولاً أبادر، ببساطة، إلى تقديم الشكر للشيخ على الكلمات اللطيفة التي تفوه بها عن عائلتي وابنتنا. أقدر ذلك عالياً جداً". قال غون: "ذلك كل شيء؟" قلت: "ذلك هو".

تمثل خطي المفضل في الهجوم على إدواردز بتسميته: "الشيخ راحل" [السيناتور غان Senator Gone]، وهو اللقب الذي أضْفَتْه عليه جريدة مسقط رأسه منذ أن كان مفرط تكرر الغياب عن اجتماعات مجلس الشيوخ. وتابعت ملاحظاتي قائلاً:

بوصفي نائباً لرئيس الجمهورية، أنا رئيس مجلس الشيوخ، المسؤول عن رئاسة

الجلسات. أجدني هناك في مجلس الشيوخ معظم أيام الثلاثاء حين يكون مجلس الشيوخ في دورة انعقاد. المرة الأولى التي التقيتك فيها كانت حين صعدت إلى خشبة المسرح الليلة.

لاحقاً اكتشفت أن طريقي كانت قد تقاطعت مع طريق إدواردز مرة من قبل، في فطور صلاة في مركز المدينة بالعاصمة عام 2001. إلا أن من الواضح أن لقاءنا لم يترك انطباعاً ذا شأن كما لم يعدِّلْ من اتهامي له: بقي هذا الزبون أقل من شيخ عضو في مجلس الشيوخ.

استمتعت بالاستماع إلى التعليقات الصادرة بعد المناظرة. كريس ماتيوز من الإم إس إن بي سي [MSNBC] الذي يحمرّ وجهه ويبدأ بالصراخ لدى مجرد ورود اسمي، كال لي مديحاً، إذ رأى المناظرة بين تشيني وإدواردز اشتباكاً بين مدفع هاوزر ومسدس ماء. ولم يكن مايك بارنيكل من "البوسطن هيرالد" أقل لطفاً. قال مايك إن الشيء الوحيد الذي فاجأه تمثل بـ "حقيقة أن ديك تشيني لم يبادر، في نهاية المناظرة، في نهاية الدقائق التسعين إلى الالتفات نحو إدواردز ليقول له: 'بالمناسبة، هات مفاتيح السيارة أيضاً!'"

وفي المناظرة الرئاسية بعد أسبوع طرح مدير الحوار، بوب شيفر، من السي بي إس (CBS) على جون كيري سؤالاً: "هل تعتقد أن المثلية الجنسية خيار؟" رد كيري قائلاً: "كلنا خَلْق الله، يا بوب، أظن أنك لو كنت تطرح السؤال على ابنة ديك تشيني التي هي سحاقية لكانت قد قالت لك إنها كما كانت، إنها كما كانت قد وُلدت".

بات واضحاً أنه كانت ثمة محاولة منسقة دبرتها حملة كيري إدواردز تهدف إلى تذكير المشاهدين بأن ابنتي ماري سحاقية، وإلى إقحامها في المناظرة وفي الحملة. لا أتذكر مثالاً آخر لمرشح رئاسي يحاول توظيف ابنة أو ابن الخصم من أجل تحقيق كسب سياسي. لاحقاً في ذلك المساء حين سأل كريس والس من فوكس مديرة حملة كيري، ماري بث كاهيل، عن التعليق، أجابت إن ابنتي كانت "صيداً سهلاً".

استشاطت لين غضباً. لم تكن واردة في لائحة المتحدثين في اجتماع ما بعد المناظرة الذي كنا نحضره، إلا أنها سارعت إلى اقتحام المنصة وأعطت

جون كيري ما استحقه. قالت: "الشيء الوحيد الذي أستطيع استخلاصه هو أنه ليس إنساناً له علاقة بالخير والطيبة. أتحدث بوصفي أماً. يا لها من مسخرة سياسية بالغة السماجة والوقاحة!" كانت على صواب مئة بالمئة، وقلت للجمهور إنني كنت سعيداً بالتأكيد لوجودها معنا.

ردود أفعال أكثرية الأمريكيين كانت شبيهة برد فعلنا. ما العلاقة بين الموقف من زواج المثليين والتماهي مع هذا الحزب أو ذاك، مع الحزب الجمهوري أو الحزب الديمقراطي؟ رؤية مرشح رئاسة منحدر إلى مثل هذا الدرك الفاضح من الانتهازية لم تكن توحي بأي قدر من الثقة. تمخض الحدث، في الحقيقة، عن نتيجة معكوسة، وحققت حملة بوش ـ تشيني قفزة صاعدة في استطلاعات الرأي. بدأنا جميعاً نشير إلى ما حصل بعبارة "وثبة ماري تشيني".

ختمنا الحملة بدورة كبرى عرَّجْتُ على وسكونسن، وميتشيغان، وبنسلفانيا، وأوهايوا، وآيوا، ونيومكسيكو، وهاواي، وكولورادو، ونيفادا، وأخيراً جاكسون في وايومنغ في اليوم الأول من تشرين الثاني/نوفمبر، حيث استقبلنا هنغار مطار مزدحم بالأصدقاء. في اليوم التالي اقترعنا، لين وأنا، في مركز فوج الإطفاء القريب من بيتنا بجاكسون وانطلقنا عائدين إلى واشنطن، العاصمة. استطلاعات الخروج كانت سيئة؛ سيئة جداً في الحقيقة، إلى درجة أنني عرفت أنها كانت زائفة. كنت واثقاً من الفوز.

لم نحتفل بانتصارنا تلك الليلة، بل بعد ظهر اليوم التالي بدلاً من ذلك، في قاعة مبنى ريغان. مؤيدو بوش ـ تشيني الزاعقون كانوا معلقين على الدرابزينات، بل ربما حتى على العوارض الخشبية. كنا قد فزنا بأكثرية 51 بالمئة من الأصوات الشعبية مقابل 48 بالمئة لكيري وإدواردز، و282 صوتاً انتخابياً مقابل 251. يوم الأربعاء الواقع في الثالث من شهر تشرين الثاني/نوفمبر، عام 2004، كان يوماً جميلاً جداً.

مع تأهبنا لولوج باب الفترة الثانية، بات واضحاً أن الرئيس كان يريد إحداث جملة من التغييرات الكبيرة في مجموعة الموظفين. ومع أنني كنت ميالاً إلى عدم الانخراط في قضايا الموظفين إلا بقدر أقل نسبياً مقارنة بما كنت قد فعلت في

بداية تولينا للإدارة، فإن إحساساً قوياً بضرورة إحداث تغييرات رئيسية في فريق الأمن القومي كان يراودني. وجود وزير جديد للخارجية كان في صدر الأولويات.

كما الرئيس، كنت قد اعتقدت أن كولن باول كان من شأنه أن يصبح وزيراً فعالاً وناجحاً للخارجية. طالما كنت معجباً بمواهبه وكنت شخصياً قد اخترته حين عينه جورج أتش دبليو بوش رئيساً لهيئة الأركان المشتركة. كان ممتازاً في ذلك المنصب. غير أن الأمر جاء مختلفاً حين صار في وزارة الخارجية. شعرت بقدر استثنائي من خيبة الأمل إزاء الطريقة التي اعتمدها في التعامل مع الخلافات السياسية. مرة بعد أخرى سمعت أنه كان ضد الحرب في العراق. ما زلت، بالفعل، أسمع ذلك إلى اليوم. إلا أنني لم أسمعه معترضاً ولو مرة واحدة في أي اجتماع. بدا وكأنه كان يرى أن الطريقة المناسبة للتعبير عن وجهات نظره تمثلت بانتقاد سياسة الإدارة على مسامع أناس من خارج الحكومة. كنت آسفاً في 1992 حين أفضى انتخاب بيل كلنتون إلى وضع حد لعلاقتي العملية مع باول في البنتاغون، أما حين أقدم الرئيس بوش، بعد انتخابه في 2004، على قبول استقالة باول، رأيت أن ذلك كان هو الأفضل.

في كانون الأول/ديسمبر 2004 سافرنا، لين وأنا، إلى أفغانستان لحضور حفل تنصيب حميد قرضاي، كأول رئيس للأمة منتخب ديمقراطياً. قبل الاحتفال، تناولنا طعام الفطور مع القوات الأمريكية المتمركزة في قاعدة باغرام الجوية، خارج كابول. حين تحدثت مع الحضور، من رجال ونساء، تأملت حقيقة أننا كنا نلتقي ذلك الصباح في دولة كانت للتو قد أجرت أول انتخابات في تاريخها الممتد خمسة آلاف سنة:

قبل ما لا يزيد عن ستة أشهر كانت الأمم المتحدة قد حَلُمَتْ بقيام ستة ملايين ونصف المليون من الأفغانيين بتسجيل أسمائهم للاقتراع. وصل الرقم إلى عشرة ملايين، وفي يوم الانتخاب، حضروا إلى اثنين وعشرين ألف مركز اقتراع في طول البلاد وعرضها. قريباً من أحد هذه المراكز، تحدث أحد ضباط قوات التحالف عن مشاهدته صفاً بطول ميلين من الناس، يمشون جميعاً باتجاه أقلام الاقتراع. وتحدث عن مسنين يسيرون على أقدامهم وآخرين منقولين في

عربات تجرها الماعز، وعن ذوي أطراف اصطناعية يسيرون على عكازات، وعن أمواج من البشر متدفقة نحو أقلام الاقتراع، وبعد ذلك، في وقت متأخر من السهرة، عن راشدين مندفعين بسرعة للالتحاق بركب المقترعين في الرتل الطويل قبل حلول الموعد النهائي.

كان وقتاً يحمل في طياته وعوداً كبيرة وآمالاً عظيمة في أفغانستان، وقد شكرتُ الجنود والطيارين الأمريكيين في باغرام على الدور الهائل الذي كانوا قد اضطلعوا به في الدفاع عن أمريكا وتأمين الحرية للشعب الأفغاني.

بعد بضع ساعات وصلنا، لين وأنا، إلى قصر أفغانستان الجمهوري، الذي كان لا يزال يحمل آثار سنوات القتال التي عاشها الأفغان. اجتمعنا، قرضاي وأنا، لبحث العمليات العسكرية الجارية وسعيه لتأليف حكومة جديدة. في مؤتمرنا الصحفي، بعد اللقاء مباشرة، عبر الرئيس عن امتنانه للشعب الأمريكي قائلاً:

كل ما حققناه في أفغانستان - أعني الأمن، والانتخاب، وإعادة البناء، والحياة التي يعيشها الأفغان اليوم في ظل السلم، والأطفال المتوجهين إلى المدارس، والأعمال التجارية، وحقيقة أن أفغانستان باتت عضواً يحظى بالاحترام في الأسرة الدولية - نابع من المساعدة التي قدمتها الولايات المتحدة لنا. فلولا ذلك العون، لكانت أفغانستان قد بقيت في قبضة الإرهابيين - مدمرة، وفقيرة، وذات أطفال محرومين من المدارس أو الحصول على التعليم. نحن شديدو الامتنان، باللغة البسيطة التي نعرفها، لشعب الولايات المتحدة الأمريكية على تمكيننا من الوصول إلى هذا اليوم(70).

بعد المؤتمر الصحفي توجهنا، لين وأنا، نحو مبنى آخر في المجمع الرئاسي لحضور حفل التنصيب بالذات. دخل الرئيس قرضاي مع آخر ملوك أفغانستان، الشيخ المسن محمد ظاهر شاه، الذي كان مقيماً في المنفى. كان الاحتفال مهيباً وساراً في الوقت نفسه. بعد الصلوات والأدعية كانت ثمة أناشيد وأغانٍ صدحت بها حناجر تلميذات مدارس ارتدين أثواباً مطرزة زاهية الألوان. وحين قام قرضاي، ملتفاً بمعطفه الأخضر والأزرق، ليخطب دوت عاصفة من التصفيق الحماسي. أحد الرسميين بين حشد الأفغانيين المقلنسين ميزني. صبغة الله مجددي، رئيس اللويا جيرغا [البرلمان الأفغاني]، ذلك المجلس الذي كان قد أقر

دستور 2003 الأفغاني، تذكّر أننا كنا قد التقينا قبل ثمانية عشر عاماً. ففي 1986، كان مجددي أحد المجاهدين المنخرطين في محاربة السوفييت، وأنا كنت عضواً في لجنة الاستخبارات بالمجلس. كنا قد تناولنا العشاء معاً في مكان قريب من ممر خيبر، وها نحن الآن، بعد ثماني عشرة سنة، موظفان غزا الشيب شعر رأسيهما.

بعد قضاء أعياد الميلاد في وايومنغ مع العائلة، غادرنا، لين وأنا، الولايات المتحدة ثانية، إلى كراكوف البولونية هذه المرة. كنت على رأس الوفد الأمريكي المدعو للمشاركة في احتفالات إحياء الذكرى السنوية الستين لتحرير معسكري الموت في آوشفيتز وبيركيناو. كانت الحكومة البولونية قد دعت عدداً من قادة العالم، بمن فيهم الرئيس الروسي فلاديمير بوتن، إلى كراكوف لحضور احتفالات إحياء الذكرى.

فيما كنت جالساً في اجتماع مع الرئيس البولوني، ألكساندر كواسنيوفسكي في قلعة فافل مساء ما قبل بدء الاحتفالات قام أحد الأركان بإحضار رسالة. قرأها كواسنيوفسكي ثم ترجمها لي. لم يكن الرئيس بوتن، الذي كان مبرمجاً أن يلتقي كواسنيوفسكي، قد غادر موسكو بعد. بدا وكأنه لن يحضر اللقاء.

كثيرون قدروا أن فظاظة بوتن كانت محسوبة ومقصودة. فالبولونيون كانوا عازمين على السير في طريق الاستقلال، ولم تكن موسكو سعيدة بذلك. ومن أخطاء البولونيين، من وجهة نظر موسكو، كان دعم الثورة البرتقالية في أوكرانيا، التي كانت قد اندلعت حين كان المرشح الرئاسي المدعوم من موسكو قد حاول سرقة الانتخاب. حشود في ساحة الاستقلال بكييف كانت قد فرضت اقتراعاً جديداً، وكان مرشح إصلاحي يدعى فكتور يوشنكو قد خرج منتصراً. طالما آمنتُ بأن على الولايات المتحدة أن تضطلع بدور أكثر فعالية على صعيد دمج أوكرانيا ودول سوفييتيه سابقة أخرى بالغرب، وانتهزتُ فرصة وجودي في كراكوف لعقد خلوة غير معلنة مع يوشنكو، الذي كان وجهه لا يزال يحمل ندوب إحدى محاولات الاغتيال التي كان أحدهم - بدفع من الروس كما تقول الشائعات - قد دس له سم الديوكسين.

في اليوم التالي، وقد كنا مجتمعين في مسرح يوليوس سلوفاتشكي المزخرف العائد إلى القرن التاسع عشر في مدينة كراكوف القديمة إحياء لأولى مناسبات إحياء ذكرى تحرير أوشفيتز، لم يكن بوتن قد وصل بعد. لم يكن هناك حين جاء دوره للكلام. أعطى البولونيون دوره ليوشنكو، وتواصل البرنامج بخطابات موشاة بمقاطع تذكارية من الموسيقى. بعد نحو 45 دقيقة من بدء الاحتفال، حصل هرج ومرج عند الباب الجانبي للمسرح. اندفع عدد من عناصر الأمن الروس المكتنزين، متبوعين بالرئيس بوتن، الذي مشى إلى الجناح الأيسر وصعد مباشرة إلى خشبة المسرح. ومتجاهلاً حقيقة أن شخصاً آخر كان يتكلم، بدأ يوجه ملاحظاته عازماً، فيما بدا، على إفهام مضيفيه البولونيين مدى قلة احترامه لهم. متابعةُ سلوكه في ذلك اليوم ذكّرتني بالأسباب الكامنة وراء تمتع قيادة روسيا بهذا القدر الهائل من الكره من قبل جيرانهم كما وراء كوننا على صواب في توسيع الناتو وعرض العضوية على دول كانت عميلة للاتحاد السوفييتي السابق مثل بولونيا ورومانيا.

حفيدتي كيت ذات السنوات العشر كانت قد طلبت مرافقتنا في هذه الرحلة. شرحنا لها أن من شأن النظر إلى شر الهولوكوست [المحرقة] وجهاً لوجه أن يكون بالغ الصعوبة، إلا أنها قالت إنها كانت تعرف ذلك ولكنها أرادت أن تأتي بإصرار. في المسرح ذلك اليوم بكراكوف، كان ثمة عدد غير قليل ممن نجوا من الهولوكوست. كانت كيت واحدة من حفنة أطفال صغار، قبل بدء الاحتفال وقعت عين إحدى النساء على كيت الجالسة مع ابنتنا ليز. جاءت عبر المسرح، قدمت نفسها، وسألت كيت عن عمرها. ثم أخرجت من جزدانها صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود. صورة أطفال صغار في البيجامات المخططة لنزلاء أوشفيتز. مشيرة إلى إحدى البنات الصغيرات في الصورة، قالت: "هذه البنت الصغيرة هي أنا" حين كنت في العاشرة من العمر. أرادت أن تدلي بشهادتها، أرادت أن تطبع صورة مأساة الهولوكوست في ذهن شخص صغير السن كي لا يلفها النسيان. واثق أنا أن كيت لن تنسى.

في صيف 2005 كنا في بيتنا بجاكسون في وايومنغ، حين تمخض الإعصار

كاترينا عن تسوية المنازل بالأرض في الخامس والعشرين من آب/أغسطس. بعد أربعة أيام، صباح يوم 29 آب/أغسطس، بعد استجماع زخمه في خليج المكسيك، عاد الإعصار كاترينا إلى الانقضاض ثانية على لويزيانا. مركز الإعصار مر بنيوأورلينز على مسافة أربعين ميلاً، محدثاً قدراً هائلاً من الدمار على امتداد شواطئ الخليج في الميسيسيبي. أوحت التقارير الأولى بأن نيوأورلينز كانت قد نجت من أسوأ غوائل الإعصار وبقيت الأرصفة البحرية صامدة. لم يكن ذلك صحيحاً؛ فمع الساعات الأولى من يوم الثلاثاء الواقع في 30 آب/أغسطس بدأنا نسمع أن الأرصفة لم تكن صامدة. شاركت عبر الاتصالات الفيديوية المتشعبة الآمنة في حلقة إيجاز عن أضرار الإعصار في الساعة السادسة والنصف بتوقيت وايومنغ يوم 31 آب/أغسطس وأدركت أن الوضع كان أسوأ بكثير مما سبق لنا أن توقعناه في أي وقت. سارعت إلى الانطلاق عائداً إلى واشنطن صباح اليوم التالي.

حتى قبل كارثة الإعصار، كان رئيس الجمهورية قد وقّع إعلاناً بفرض حالة الطوارئ. أكثر من أربعة آلاف عنصر حرس وطني بقيادة حكام الولايات تم نشرهم؛ وكالة إدارة الطوارئ الاتحادية كانت قد أعدّت سلفاً مخزونات أغذية وماء إضافة إلى فرق للإنقاذ؛ كان حرس السواحل الأمريكي عاكفاً على استدعاء تعزيزات من مختلف أنحاء البلاد ويجهز حواماته للقيام بعمليات البحث والإنقاذ. إلا أن إخفاق الأرصفة كان يعني أن الحاجة تدعو إلى المزيد. ثمانون بالمئة من نيوأورلينز صار مغموراً بالماء الذي أصبح بعمق يتراوح بين ست أقدام وعشرين قدماً. الألوف ممن لم يجلوا قبل اجتياح الإعصار لاذوا بقبب الأسطح ومركز اجتماعات نيوأورلينز، حيث لم تكن كميات كافية من الغذاء والماء متوفرة. أعمال النهب وحالات العنف بدأت تطفو على السطح.

أراد الرئيس نشر عشرات الآلاف من القوات المسلحة الأمريكية مباشرة، ولكن ذلك كان يستدعي تخويلها سلطة تطبيق القانون، بطلب رسمي من حاكمة ولاية لويزيانا كاثلين بلانكو يستند إليه الرئيس لإضفاء الصفة الاتحادية على التعامل مع الإعصار كاترينا، ولكن بلانكو رفضتْ أن تقدّم الطلب، ما أبقى الرئيس مع خيار التحرك خلافاً لرغبتها وإعلان لويزيانا في حالة عصيان مسلح

لتوفير فرصة إدخال القوات. ذلك هو الشرط الذي يفرضه قانون لجنة الحشد (Posse Comitatus) العائد إلى عام 1878، يجعل إعلان حالة عصيان مسلح ضرورياً إذا كان الجيش الأمريكي سيُستخدم من أجل فرض القانون الداخلي. من المفهوم أن الرئيس كان ضد الإقدام على الخطوة المتطرفة المتمثلة بتولي التحكم بولاية معينة دون قبول حاكمها، إضافة إلى أنه كان يواجه مقاومة من قادة البنتاغون الذين كانوا ضد إرسال جنود مدربين للقتال من أجل استعادة النظام الداخلي. غير أن الفكرة كانت أن الحرس الوطني، وهو غير خاضع لقانون لجنة الحشد، كان يستطيع التعاون مع سلطات الولاية والنواحي على صعيد الاضطلاع بمسؤولية فرض القانون. وكانت تلك فكرة ناجحة، فكرة فعلت فعلها.

بعيد إعلان الرئيس، أخبرني آندي كارد بأن الرئيس كان يفكر بتشكيل فريق عمل على مستوى رفيع للإشراف على جهود الإغاثة ويريد معرفة ما إذا كنت مستعداً لرئاسته. كان ردي إيجابياً شرط اضطلاع فريق العمل بمسؤولية فعلية. كان سيتعين على الفريق أن يعين أشخاصاً ويطرد آخرين وأن يقتحم الأمور ويضمن الإنجاز. لم أتأخر في إدراك أن فكرة فريق العمل كانت قد نبعت من أركان الاتصالات وتعمدت وضعي في موقع لم يكن، في المقام الأول، إلا رمزياً. كان المقصود أن أبقى رئيساً صورياً دون القدرة على فعل أي شيء على صعيد أداء الإدارات والأجهزة الاتحادية ذات العلاقة. لم يكن هذا قابلاً لأن يفيد. كان من شأنه أن يخلق ضياعاً، فأطلعت كارد على عدم حماسي. ونُسي الأمر.

بطلب من الرئيس سافرت إلى ساحل الخليج يوم 8 أيلول/سبتمبر للاطلاع مباشرة على الوضع. لين وأنا سافرنا أولاً إلى غولفبورت الميسيسيبية، حيث صعد مايكل تشيرتوف، وزير الأمن الوطني الاستثنائي الكفاءة، إلى طائرة سلاح الجو رقم اثنين ليقدم لنا تقريراً موجزاً، ثم رافقنا إلى مركز الحرس الوطني حين كان يجري تنسيق الرد الطارئ. التقينا عدداً من رسميي الولاية والنواحي، بمن فيهم الحاكم هالي بربور، ثم مشينا في الشارع الثاني لحي غولفشور. لم يكن شيء قد بقي من بعض البيوت سوى أكوام غير منتظمة من الأخشاب. بيوت أخرى كانت لا تزال واقفة، وقد تحدثنا مع عائلات كانت مشغولة بتكنيس الركام وببذل أقصى الجهود الممكنة لإنقاذ ما تستطيع إنقاذه. دعانا

أحدهم إلى منتجعه المبني بالطوب الأحمر. صحيح أن الماء كان قد تراجع، ولكن الخراب كان هائلاً. غير أنه كان متأكداً من أنه سينجح في إصلاح كل شيء وسيستأنف العيش في بيته. الشعور الذي خرجت به من غولفبورت كان إحساساً بالخراب مشفوعاً بنوع من التصميم على إعادة البناء والانطلاق من جديد. بدت هذه العاطفة متدفقة من الأعلى، حيث كان بربور، وهو حاكم رابط الجأش صامد، يعالج مضاعفات الكارثة بفعالية وكفاءة.

محطتنا الثانية كانت الباخرة "آيوو جيما" للاستماع إلى إيجاز من أدميرال حرس السواحل تاد آلن، الذي كان، بعد قليل، سيتولى المسؤولية عن مجمل جهود الإغاثة ذات العلاقة بإعصار كاترينا. كان، وبحق، فخوراً بأداء حرس السواحل. فأفراد الحرس كانوا ينقذون أشخاصاً متعلقين بأشجار، وبقوارب، وعلى سطوح المباني. في النهاية، كانوا قد أنقذوا ما يزيد على ثلاثين ألفاً من الأرواح.

طرنا على متن إحدى الحوامات محلقين فوق رصيف حاجز مطل على حي نيوأورليانز التاسع، حيث رأينا دماراً كاملاً. على مد النظر كان الماء الآسن النتن يغطي كل شيء عدا قمم البيوت. التقينا الفريق روس أونوريه، من أبناء لويزيانا، قائد فريق العمل المشترك الخاص بالإعصار كاترينا، الذي كان يزاوج المرجعية والقدرة مع تعاطف صادق مع ما كان أشقاؤه اللويزيانيون يعانون منه. وكان يعرف كيف يتدبر الأمور. اصطحبنا، لين وأنا، في سيارته الهمفي عبر مركز نيوأورليانز إلى موقع كان يقوم فيه أفراد حرس السواحل بتحميل أكياس رمل عملاقة - كل منها بحجم الصوفا - وينقولونها بالحوامات في محاولة لسد الفجوات الحاصلة في الأرصفة الحاجزة (السدود).

تعرضنا في الإدارة البوشية لوابل من الانتقادات العنيفة بسبب أسلوبنا في التعامل مع إعصار كاترينا، ولا شك أننا كنا قادرين على التعامل مع الأمور بطريقة أفضل. وقد كتب الرئيس بوش أنه كان يجب عليه أن يرسل القوات الأمريكية في وقت أبكر، وربما هو على صواب، ولكن من شأن ذلك، حسبما أرى، أن يؤدي بسهولة مفرطة إلى إبقاء مرجعيات الدولة وسلطاتها سائبة. إلى اليوم لست واقفاً على السبب الذي دعا الحاكمة بلانكو إلى رفض المطالبة برد

اتحادي على الإعصار. وقد كنت واثقاً من أنها اتخذت قراراً حكيماً حين صممت في 2007 على عدم الترشح من جديد لشغل منصب حاكمية لويزيانا.

من المهم أيضاً الاعتراف بأن كثيرين - منهم مايك تشيرتوف، وتاد آلن، وروس أونوريه - قاموا بأعمال جبارة في أعقاب إحدى أسوأ الكوارث الطبيعية التي سبق لها أن ضربت الولايات المتحدة. ومن أولئك الذين لا بد من التنويه بجهودهم الرئيس جورج بوش. ففي الأيام، والأسابيع، والأشهر التي أعقبت الإعصار كاترينا، كرس شخصياً مئات الساعات لا لضمان رد اتحادي فعال وحسب، بل ولمد يد العون إلى أولئك الذين كانوا بحاجة لمعرفة أن حكومتهم مهتمة بهم.

مع اقتراب عام 2005 من نهايته، كان الجيش الأمريكي وشركاؤنا في التحالف المتعدد الجنسيات قد حققوا إنجازات عظيمة. كنا قد أطحنا بواحد من أسوأ الحكام الدكتاتوريين في العالم. كنا قد ألقينا القبض على صدام. كنا قد أعدنا المسؤولية عن العراق إلى العراقيين، الذين كانوا، خلال الاثني عشر شهراً اللاحقة، سيعقدون ثلاثة انتخابات عامة، وسيجترحون دستوراً، وسينتخبون برلماناً ورئيساً للوزراء. كانت قواتنا قد اعتقلت وقتلت عدداً كبيراً من قادة العصيان المسلح ووفرت الأمن للشعب العراقي حين أدلى أبناؤه بأصواتهم وبدؤوا يبنون صرح نظام ديمقراطي.

في تخطيطنا العائد إلى ما قبل الحرب لفترة ما بعد الحرب كنا قد تخوفنا من عدد من الاحتمالات الخطرة التي أخفقت في التحقق. لم يقدم صدام على استخدام أسلحة دمار شامل. والحرس الجمهوري لم يصمد دفاعاً عن بغداد مجبراً قواتنا على فرض حصار طويل أو قتال شوارع من بيت إلى بيت. ولم يتمكن صدام من إشعال حرائق في حقوله النفطية أو من ضرب إسرائيل بالصواريخ.

ثمة أشياء أيضاً أخفقنا نحن في توقعها. بالاستناد إلى تقارير استخباراتية، اعتقدنا أننا كنا قادرين على التعويل على الشرطة العراقية على صعيد حفظ السلم وتوفير الأمن. تبين أن ذلك لم يكن صحيحاً. فالشرطة كانت المؤسسة

الأقل جدارة بالثقة والأكثر تعرضاً للاختراق بين سائر مؤسسات المجتمع العراقي. كذلك توهمنا أننا سنكون قادرين، فور الإطاحة بالقيادات البعثية العليا من حكومة صدام حسين، على إعادة الأمور إلى مجاريها ووضعها على السكة السليمة بسرعة نسبية، إلا أننا ما لبثنا أن اكتشفنا أن كثيرين كانوا معتادين على عدم التصرف إلا إذا تلقوا أوامر من جهات عليا مما أدى إلى بقائهم مشلولين. حدثوني عن مصنع للأحذية لم يكن قد دُمر خلال الحرب. وكان لا يزال متوفراً على كميات كبيرة من المواد والمؤن اللازمة لاستئناف العمل كما على عمال تواقين لمتابعة الإنتاج. ومع ذلك ظل المصنع مقفلاً. وحين سئل صاحب المصنع عن سبب توقفه عن العمل، أجاب بأن أحداً لم يخبره بأنه يستطيع أن يطلق العملية الإنتاجية. غير أن الأسوأ من ذلك هو أن المجتمع كله كان قد تعرض لمعاملة بالغة الوحشية على امتداد ثلاثين سنة. ومن الإنصاف الإقرار بأننا بالغنا في استسهال عملية إعادة بناء مجتمع متضعضع ومهشّم.

كذلك قللنا من تقدير المدى الذي بلغه الشيعة على صعيد تعرضهم لخذلان الولايات المتحدة بعد عاصفة الصحراء. كنا في 1991 قد شجعناهم على الانتفاض ضد صدام. وحين فعلوا، قام صدام بذبح الآلاف منهم ونحن لم نبادر، في أكثر الأحيان، إلى فعل شيء لمساعدتهم. كانوا خائفين، وهم على حق، من أن نتخلى عنهم من جديد.

كُتبت أشياء كثيرة عن الحوارات الداخلية التي دارت عندنا في الفترة التي تولت فيها سلطة التحالف المؤقتة إدارة العراق. أميل إلى الظن بأن الإدراك المؤخر في هذا المجال هو عشرون على عشرين. كان لدينا أشخاص استثنائيو الموهبة يدأبون على العمل الجاد في بغداد - على الصعيدين العسكري والمدني - من أجل إنجاز مهمة بالغة التعقيد والصعوبة. لم يصيبوا في الأوقات كلها. نحن أيضاً هنا في واشنطن لم نكن دائماً على صواب. ربما كنا، مثلاً، قادرين على تجنب انطباع وجود احتلال أمريكي لو بادرنا، من البداية، إلى تشكيل حكومة عراقية مؤقتة.

ما إن كنا قد نقلنا السيادة في حزيران/يونيو 2004، حتى بتنا نتطلع إلى ركائز سياسية، مثل إجراء الانتخابات واعتماد الدستور، من منطلق الإيمان بأنهما

كانا سيفضيان إلى اختزال مستويات العنف. ومع إمساك العراقيين بزمام حكم بلدهم، اعتقدنا أن الإرهابيين والمتمردين كانوا سيجدون صعوبة في مواصلة القتال. كان سيتم النظر إليهم بوصفهم أناساً متورطين في مهاجمة العراقيين الذين كانوا، ببساطة، يحاولون إدارة بلدهم. وحين تزايد العنف، توهمنا أن العدو كان يلفظ أنفاسه الأخيرة موجهاً ضرباته اليائسة، باذلاً محاولات أخيرة لزرع الرعب والدمار قبل أن ينجح عراق ذاتي الحكم في جعل مثل هذه الهجمات عبثية بلا جدوى، بل وحتى ذات نتائج معكوسة. ذلك كان سياق تعليقي في 2005 حين قلت إن المتمردين "يلفظون أنفاسهم الأخيرة". كنت مؤمناً بأنهم كانوا يفعلون.

في نهاية المطاف، لعل من المهم أن نتذكر أن المسؤولية الأساسية عن العنف وإراقة الدماء في العراق بعد التحرير يقع على أولئك الذين أوجدوهما - أعني الإرهابيين وأولئك الذين كانوا يدعمونهم: القاعدة وإيران في المقام الأول. كان الإرهابيون وداعموهم أعداء مصممين بالغي القسوة وعدم الرحمة، ملتزمين بإنزال الإصابات الجماعية في صفوف المدنيين العراقيين والعسكريين الأمريكيين. أرادوا خلق فوضى، وكسر إرادتنا، وإجبارنا على الرحيل. في كانون الثاني/يناير 2004 كانت القوات الأمريكية قد ألقت القبض على مراسل القاعدة الذي كان ينقل رسالة من أبو مصعب الزرقاوي إلى قادة القاعدة. تضمنت الرسالة تفصيلاً لخطة الزرقاوي الرامية إلى إثارة العنف الطائفي بين السنة والشيعة في العراق عبر "استهداف رموز [شيعية] دينية، وسياسية، وعسكرية وضربها" وصولاً إلى "جر الطرفين إلى حرب طائفية". وتابع الزرقاوي يقول: "مقاتلة الشيعة هي الطريق المفضية إلى إقحام الأمة في أتون الاقتتال". كذلك أوضح مدى خوف القاعدة من الديمقراطية، إذ كتب أنه حين "يصبح أبناء هذه الأرض هم السلطة ... فإننا لن نعود متوفرين على أي ذريعة. عندئذ لن يبقى أمامنا خيار سوى حزم أشيائنا والبحث عن أرض أخرى".

رفض الشيعة الانجرار إلى العنف الطائفي على امتداد عامين كاملين. ثم مع بزوغ فجر يوم 6 شباط/فبراير 2006، تمخضت التفجيرات عن نسف القبة الذهبية لجامع الإمام العسكري في سامراء، وهو أحد المواقع المقدسة لدى

المسلمين الشيعة. وكان للتفجير الذي خطط له الزرقاوي التأثير المقصود، إذ ألهب مشاعر الشيعة وأدخل البلد في أتون صراع طائفي أعمق. مدركة أن العراق كان الجبهة المركزية للحرب على الإرهاب، ظلت القاعدة مصممة على تحقيق الانتصار. تعين علينا أن نقرر ما إذا كنا سنظل متمسكين باستراتيجية قائمة على إلقاء المسؤولية على عواتق العراقيين فنبادر إلى سحب قواتنا، أم كنا، نحن أيضاً، سنقاتل كي ننتصر.

الفصل الرابع عشر

الطفرة

غادرتُ منزلي في سانت مايكل المريلاندية، مبكراً يوم الاثنين الواقع في 12 حزيران/يونيو 2006، في سفرة لمدة خمسين دقيقة على متن الحوامة إلى كامب ديفيد. كان فريق الأمن القومي سيعقد اجتماعاً لمراجعة استراتيجيتنا الحربية في العراق، ومع ظهور مطار كامب ديفيد في الأفق، قمت باستعراض بعض المسائل التي كنا بحاجة إلى مقاربتها: هل ثمة أي مزيد نستطيع أن نقوم به لإلحاق الهزيمة بالتردد المسلح؟ هل نحن بحاجة إلى إرسال قوات إضافية؟ هل العراقيون مقتنعون بأننا سنصل بالأمر إلى نهايته؟ ما الثمن الذي يتطلبه الانتصار؟

في قاعة الاجتماعات بلوريل لودج جلسنا جميعاً إلى ضفة واحدة من الطاولة في مواجهة شاشات فيديو على الحائط حيث بدأ الجنرالان جون أبي زيد وجورج كيسي والسفير زلمان خليلزاد الإيجاز بمستجدّات عملياتنا على الأرض في العراق. كنا قد خطونا خطوة كبيرة يوم 7 حزيران/يونيو، حين نجحت القوات الأمريكية في تحديد مكان أبو مصعب الزرقاوي، قائد القاعدة في العراق، وقتله. كان الجنرال ستان ماكريستال قد اجترح وحدة عمليات خاصة ممتازة تولت مهمة تعقب كبار ناشطي القاعدة وتفكيك الشبكات الإرهابية. كان عناصر ماكريستال يتعقبون الزرقاوي منذ بعض الوقت حين تلقوا معلومات أفادت بإقامته في أحد البيوت القريبة من بعقوبة العراقية. قامت طائرة إف ـ 16 بإسقاط

قنبلتين عيار خمس مئة رطل على البيت وقتلت الزرقاوي. بعد الهجوم، أغارت القوات الأمريكية على سبعة عشر موقعاً آخر في بغداد وحولها، حيث عثر على معلومات استخباراتية ثمينة.

كان هذا نبأ ساراً. كان الزرقاوي، الذي كان قد وجد ملاذاً في العراق بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، قد تولى قيادة حملة عنف في العراق - عمليات اختطاف، وأخذ رهائن، وتفجيرات انتحارية، وقطع رؤوس على شاشات التلفزيون - ومع نسف الجامع في سامراء، كان قد شن عملية إراقة دماء طائفية محمومة. شكل قتله إنجازاً مهماً، إلا أنني وأنا أصغي إلى إيجاز أبي زيد وكيسي عن عملياتنا، ظل هاجس واخز يؤرقني. كانا ينفذان استراتيجية قائمة على تحديد النجاح بوصفه نقلاً للمسؤولية إلى العراقيين، وكان ثمة خطر الوقوع، في بيئة باتت ملأى بالعنف، في خطأ الانسحاب المبكر الذي لم يحن وقته - قبل أن يصبح الجيش وجهاز الشرطة العراقيان قادرين على الدفاع عن بلدهما السيد وضمان أمنه.

كنا في مواجهة جملة استثنائية التعقيد داخل العراق. في قلب جزء كبير من إراقة الدماء كانت ثمة استراتيجية القاعدة، التي قامت على قتل أكبر عدد ممكن من الشيعة والأمريكيين - على نحو أفضل كلما كان أقسى وأكثر وحشية، بما يؤدي إلى إجبار الشيعة على الرد فيأتي ردنا نحن بالرحيل وسط دوامة التعطيل والشلل! بادر السنّة المستاؤون، خوفاً على مستقبلهم في عراق يحكمه تحالف بين الشيعة والأكراد وتوجساً من إصرار الشيعة على توظيف نفوذهم في الحكومة للانتقام الطائفي، إلى الالتحاق بصفوف حركة التمرد المسلح. راحوا يشاركون في عمليات قتل أمريكيين وأفراد قوات أمن عراقية، بالإضافة إلى مدنيين عراقيين. ومع تمادي العنف واستمراره، باتت الميليشيات الشيعية المتزايدة الفعالية، تستهدف السنة وتتقاتل فيما بينها صراعاً على السلطة. عشرات الآلاف كانوا قد أصبحوا جنوداً في ميليشيات جيش المهدي الذي كان خاضعاً لتحكم مقتدى الصدر الذي هو قائد شيعي معاد لأمريكا. كانت قواتنا قد نجحت في إنزال ضربة موجعة بقدرات ميليشيات الصدر خلال اشتباكات في النجف وكربلاء في 2004، ولكنه ما لبث، هو وجيشه، أن بادر، بعد تحويل جامع

الإمام العسكري إلى ركام، إلى المساهمة على نحو ملموس ومؤثر في أعمال العنف بالعراق.

كان الإيرانيون يؤدون دوراً بالغ السوء، موفرين الدعم لعدد من الميليشيات الشيعية، بما فيها ميليشيا مقتدى الصدر. ففيلق الحرس الثوري الإيراني، بالتعاون أحياناً مع حزب الله اللبناني، تولى تدريب وتجهيز جيش المهدي إضافة إلى "جماعات خاصة" شيعية موالية لإيران. دأب الإيرانيون على توظيف هذه المجموعات لتهريب جميع أنواع الأسلحة، بما فيها الصواريخ، ومدافع الهاون، وبنادق القنص، والقذائف الخارقة المتفجرة، إلى داخل العراق. وهذه القذائف التي تستخدم شحنات معدّلة، كانت قادرة على اختراق دروع عرباتنا كما كانت مسؤولة عن موت المئات من جنودنا.

فلول من نظام صدام كانت لا تزال فعالة ومتحركة بنشاط من سورية في المقام الأول. فنخبة صدام البعثية كانت قد فرت من البلاد ومعها ملايين لا تُعد ولا تُحصى من سيولة النظام النقدية حين بدأت القنابل تنهمر على بغداد، وراحت - هذه النخبة - من ملاذها في دمشق، توظف الأموال لتمويل التمرد المسلح وتنظيمه.

مقاتلون عرب من بلدان أخرى تدفقوا على العراق، عبر سورية في المقام الأول، لخوض الجهاد. كثيرون من هؤلاء المقاتلين جاؤوا جواً إلى دمشق، حيث استقلوا حافلات ونُقلوا إلى الحدود السورية - العراقية. عقدنا عدداً كبيراً من المناقشات الداخلية حول مدى معرفة الحكومة السورية بالأمر أو مدى تيسيرها لعمليات التدفق هذه. وجهة نظري أنا كانت تقول باستحالة نقل الآلاف من الإرهابيين بالحافلات من دمشق إلى الحدود السورية دون موافقة الحكومة السورية، نظراً لطبيعة النظام السوري. وما إن كان هؤلاء الإرهابيون يصبحون داخل العراق حالمين بالموت في سبيل الله حتى كانوا يسارعون إلى ارتداء الأحزمة الانتحارية الناسفة واستهداف القوات الأمريكية والعراقية إضافة إلى المدنيين العراقيين. قاموا بتفجير العبوات الناسفة في الأسواق، وفي الجوامع، وفي المدارس، متطلعين إلى قتل أكبر عدد ممكن من الناس.

كلٌّ من الجماعات المختلفة كان يحاول قطع الطريق على تأسيس حكومة

عراقية منتخبة ديمقراطياً مؤهلة للحياة عبر مهاجمة القوات الأمريكية، والشعب العراقي، وأهدافٍ أخرى، بما فيها بنية الطاقة التحتية للبلاد. عن طريق نسف خطوط الأنابيب، مثلاً، كانوا يأملون في خلق المزيد من الفوضى وحرمان العراق من المواد اللازمة للنهوض واستئناف السير من جديد. هذا العدو المعقد والقابل للتكيف والتلون كان عازماً على إلحاق هزيمة استراتيجية كبرى بالولايات المتحدة من خلال طردنا من العراق وتحويل ذلك البلد إلى ملاذ آمن للإرهاب غارق في بحر من الفوضى والعنف.

بعضهم كان قد بات يرى أن الانتصار مستحيل. عضو الكونغرس جاك مورتا، وهو ديمقراطي قوي من بنسلفانيا، أعلن أننا قد أصبحنا "عاملاً محفّزاً للعنف"، وقال إن ساعة استعادة قواتنا إلى الوطن قد دقت. والشيخ الماساتشوستسي جون كيري، الذي شبه العراق بفيتنام وزعم أننا عاجزون عن الفوز عسكرياً، حذا حذوه. بادر إلى صوغ مشروع اقتراح يدعو إلى انسحاب القوات الأمريكية مع حلول نهاية عام 2006.

كنت راسخ الثقة بقدرتنا على الانتصار وثابت القناعة بأن أمننا القومي متوقف على ذلك. خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين كنا قد كررنا الرد بضعف أو حتى العزوف كلياً عن الرد، بل كنا أحياناً قد تقهقرنا، أمام الهجوم. كان الإرهابيون قد باتوا مؤمنين بأن قتل ما يكفي من الأمريكيين من شأنه أن يفضي إلى تغيير سياسة أمريكا. كان الضعف والتخاذل يشجعان العدو على المزيد من الهجوم.

غير أن المسار الذي اعتمدناه لم يكن ناجحاً. كان المفروض أن نقوم بتدريب قوات عراقية مؤهلة للاضطلاع بالمهمة كي نتمكن نحن من الانسحاب، إلا أن العنف كان يتزايد، ولا سيما في بغداد، ولم يبد العراقيون جاهزين للصمود وحدهم. وعندما جاء الجنرال كيسي إلى واشنطن في منتصف تموز/ يوليو، بعد القيام، سلفاً، بسحب لواء واحد ومع خطط لإخراج أربعة ألوية أخرى مع حلول نهاية العام، كنت متطرفاً في ارتيابي. لم نكن قادرين، ببساطة، على التخلي عن المسؤولية، وعلى إدارة الظهر، وإعلان الانتصار. تعين علينا أن

ننتصر أولاً، وإلا فكنا نخاطر بخلق عراق متحول إلى مصدر تهديد للولايات المتحدة كما لحلفائنا لسنوات قادمة.

في هذه الأثناء تقريباً زارني هنري كيسنجر في مكتبي بالبيت الأبيض، كما كان قد فعل بقدر من الانتظام منذ أن توليت نيابة الرئاسة. حديثنا غطى طيفاً من الموضوعات، بما فيها كوريا الشمالية، وروسيا، وأوروبا، بيد أن هنري بدأ بالعراق وحذّر من الديناميكيات السياسية لسحب القوات. متذكراً تجربته مع فيتنام قال كيسنجر: "ما إن يبدأ المرء بالعملية حتى يتدفق سيل طلبات الديمقراطيين بلانهاية". لن تعود المسألة مسألة انتصار، بل مسألة مدى السرعة التي نتحلى بها في الانسحاب. ثم أضاف: "الانسحابات أشبه بالفستق المملح، ما إن تبدأ في تناوله حتى تصبح عاجزاً عن التوقف".

خلال فصل الصيف العنيف لعام 2006، خاضت قوات العراق والتحالف عمليتين عسكريتين بهدف ضمان أمن بغداد. عملية "معاً إلى الامام واحد" في حزيران/يونيو، وعملية "معاً إلى الامام اثنان" في آب/أغسطس، كانتا، كلتاهما، بقيادة قوات عراقية مع وحدات تحالف مضطلعة بأدوار الدعم والمساندة، من أجل تطهير أحياء بغداد الأكثر عنفاً وعزل المتطرفين لدى القيام بتوفير خدمات وبنى تحتية أساسية. في السابع عشر من آب/أغسطس قدم الجنرال كيسي، عبر الاتصال الفيديوي الآمن من العراق، إيجازاً إلى مجلس الأمن القومي. جل المجموعة التقوا في غرفة روزفلت لأن تجديدات كانت تجري على قدم وساق في غرفة عمليات البيت الأبيض. أما أنا فحضرت عبر الاتصال الفيديوي الآمن من وايومنغ. تحدث كيسي عن أن القوات الأمريكية المشاركة كانت قد اضطلعت بدور فعال جداً وكان أداؤها جيداً وأفاد بأننا سنرى تحسناً مستمراً لدى قوات الأمن العراقية. وقال كيسي إنه يتوق إلى أن يصبح قادراً على إحالة أمن بغداد على العراقيين مع حلول نهاية عام 2006.

احترمت الجنرال كيسي، ولكنني لم أستطع رؤية الأساس الذي استند إليه في تفاؤله. كان العنف متواصلاً - بل وكان سيتصاعد في الأشهر التالية، في الحقيقة، على نحو مسرحي مثير. فالأحياء التي كانت قد طُهِّرت، كان يتم التسلل إليها من جديد، وعمليتا "معاً إلى الأمام" كانتا ستعدان خائبتين. سألت عما

نستطيع فعله لاختزال الهجمات واقترحت النظر في اضطلاع القوات الأمريكية بدور أكبر. هذه كانت فكرة دأب الجنرال كيسي على مقاومتها لأنه هو والجنرال أبي زيد، جنباً إلى جنب مع بعض القيادات المدنية في البنتاغون، كانوا، إلى حد كبير، يفترضون أن القوات الأمريكية كانت عامل استفزاز يلهب نار التمرد المسلح ويزيد العنف سوءاً. ظل هؤلاء يجادلون مؤكدين كمون الحل في "رفع أيدينا عن مقعد الدراجة الهوائية" وإحالة المسؤولية على العراقيين بأقصى سرعة نستطيعها.

في الرابع والعشرين من آب/أغسطس، 2006 دعوت العقيد ديريك هارفي، وهو ضابط استخبارات جيش متقاعد، إلى مقر إقامة نائب الرئيس، لأستمع منه إلى تقرير موجز. كان العقيد هارفي آنذاك يعمل في وكالة استخبارات الدفاع وكان واحداً من أفضل المصادر عن طبيعة العدو الذي نحن في مواجهته. كان قد أمضى وقتاً طويلاً وهو يعمل في العراق، عاكفاً على دراسة التمرد المسلح وشبكاته. بقي مستشاري للأمن القومي، جون حنا، على اتصال مع ديريك الذي ظل يزوده بمستجدّات دورية لي عن الوضع على الأرض في العراق. كان ديريك قد أسمعني تقارير موجزة عدداً غير قليل من المرات خلال الأعوام السابقة كما كان قد زود مجلس الأمن القومي بتحليله المعمق. وفيما كنا مشغولين بالبحث عن طريق إلى الأمام، شعرت بأن من شأن تقويمه لأسباب التمرد وللدور الذي يلعبه عناصر سابقة في نظام صدام، أن يشكل مفتاحاً لفهم الأسلوب الذي يتعين علينا اعتماده لتغيير استراتيجيتنا وصولاً إلى هزيمة العدو.

لدى انشغالي بالبحث عن بدائل لاستراتيجيتنا الراهنة، ظللت أسمع عن العقيد أتش آر ماكماستر، أحد محاربي حرب الخليج الأولى القدماء. كان قد كوفئ بنجمة ذهبية على قيادته لمعركة مدرعات 73 شرقاً الشهيرة في الصحراء الجنوبية الشرقية بالعراق. كان ماكماستر ووحدته قد دمروا عدداً من وحدات الحرس الثوري العراقي دون تكبد أي إصابات بالمقابل. كذلك كان ماكماستر قد سجل نجاحاً لافتاً في الحرب التي كنا منخرطين فيها حالياً. ففي 2005، وهو قائد فوج الفرسان المدرع الثالث، قد نجح في استعادة الاستقرار إلى بلدة تَلْعَفَر

حيث كان السنة يختطفون الشيعة ويقتلونهم، والشيعة كانوا يتركون جثث السنة مقطوعة الرؤوس في الشوارع. بمبادرته الخاصة، كان ماكماستر قد استخدم استراتيجية مكافحة تمرد تقليدية، عازلاً المتمردين عن أهل البلدة وموفراً الأمن مع مساعدة السكان المحليين على تأسيس مؤسسات سياسية واقتصادية.

طلبت إيجازاً من العقيد ماكماستر، وجاء الرجل إلى مقر إقامة نائب الرئيس في الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر 2006. انضم إلي ماكماستر الجندي البارع المثقّف، الحائز على شهادة دكتوراه في التاريخ، في المكتب على الطابق الرئيسي لمنزل نائب الرئيس وقدم لي تقويمه للمنعطف الذي وصلت إليه الأمور في العراق ولما يتعين عمله للكسب.

قال ماكماستر: على الرغم من نجاح العدو في إشعال نار الفتنة والعنف الطائفيين، فإننا استطعنا أن نحقق تقدماً هائلاً، شرط ألا نتسرع في الانسحاب من بعض المناطق الحساسة. ألح الرجل على ضرورة تجنب شرك اعتبار تسليم زمام الأمر إلى العراقيين غاية بحد ذاتها. لا بد لنا، بدلاً من ذلك، من تحديد جملة الشروط التي نريد بلوغها قبل نقل السلطة. ويتعين على هذه الشروط أن تشتمل على إلحاق الهزيمة بحركة التمرد المسلح في أي منطقة نقرر نقلها، بما يضمن سير عملية التنمية الاقتصادية والسياسية قدماً ويؤمن امتلاك الجيش العراقي وجهاز شرطة الحدود القدرة الكافية للاضطلاع بعمليات أمنية مستقلة مستدامة. كان لا بد من ترسيخ سيادة القانون، وتمكين الشرطة العراقية من فرضه. من الحاسم أيضاً أن تغدو سلطات الإدارة المحلية مؤهلة لتلبية حاجات السكان الأساسية.

كان سِجِلُّ مسار ماكماستر مشجعاً، وحجته كانت رؤيوية ومقنعة. كذلك كنت على علم بأن الاستراتيجية التي قدّم وصفها كانت قيد الدراسة والتطوير من قبل أحد ألمع العقول في الجيش. ففي كانون الثاني/يناير 2006، خلال فترة تَوَقُّف في فورت ليفنوورث في كنساس، كنت قد زرت الجنرال ديفيد بترايوس، جنرال جيش بثلاث نجوم مع شهادة دكتوراه من جامعة برنستون. حصل بترايوس على أعلى الدرجات من عدد كبير من الأشخاص، بمن فيهم دون رامسفيلد وبول وولفويتز، نائب رامسفيلد في وزارة الدفاع آنذاك. كان بترايوس

عائداً للتو من العراق حيث كان مسؤولاً عن تدريب قوات الأمن العراقية وبصدد بدء العمل لتنقيح ومراجعة دليل الجيش في الحرب على التمرد المسلح. بعد أن أنهى بترايوس كتابة "الدليل"، وصلتني مسودة، وكانت واضحة ومقنعة مثل بترايوس نفسه. أدركت أن تغيير المهمة في العراق لتأكيد محاربة التمرد المسلح كان من شأنه أن يتطلب قدراً أكبر من الحضور العسكري الأمريكي، إلا أنني رأيت أن الفكرة جديرة بقدر جدي من الدراسة والتدقيق.

عَمَلُ العقيد ماكماستر، في تلعفر، كان قد أثار إعجاب رئيس هيئة الأركان المشتركة بيت بيس الذي بادر إلى استعادته مع عدد من العقداء إلى واشنطن في مهمة لمدة تسعين يوماً للانكباب على نوع من التفكير الخلاق وصولاً إلى رفع توصيات إلى هيئة الأركان المشتركة بشأن ما هو منتظر مستقبلاً في العراق. صار الفريق يُعرف باسم مجلس العقداء وكان يعمل داخل البنتاغون لاجتراح استراتيجية انتصار.

في ذلك الخريف، كان ثمة، على الأقل، ثلاث عمليات مراجعة أخرى لخطتنا وسياستنا قيد الإنجاز. بتوجيه من الرئيس، كان نائب مستشار الأمن القومي، جي دي كراوتش يشرف على عملية لستيف هادلي جمعت موظفين كباراً من وزارتي الخارجية والدفاع، ومن الأركان المشتركة، ومن المجموعة الاستخباراتية، ومن مجلس الأمن القومي لإجراء مراجعة من أجل تزويد رئيس الجمهورية بتوصيات على نحو مباشر. كان جون حنا وروبرت كارم يمثلان مكتبي في العملية. خارج الحكومة، كان جنرال النجوم الأربعة ونائب رئيس أركان الجيش السابق جاك كين وفرد كاغان- أستاذ جامعي سابق لمادة التاريخ العسكري في وست بوينت- يعملان في معهد الأمريكان إنتربرايز بواشنطن العاصمة، وهو أحد معاهد البحث، لوضع مقترح لاستراتيجية محاربة التمرد المسلح وطفرة القوات. وفريق دراسة العراق المؤلف من الحزبين الذي أوجده الكونغرس، كان عاكفاً على العمل منذ آذار/مارس لطرح مقاربة جديدة.

لم يكن العنف المتزايد في العراق يكتفي بإثارة قلق فعلي في واشنطن، بل كان أيضاً يمارس ضغطاً ملموساً على علاقاتنا مع الحكومة العراقية الجديدة. فرئيس الوزراء نوري المالكي وقادة شيعة آخرون كانوا يعتقدون أن العنف

الصادر عن الميليشيات الشيعية لم يكن، ببساطة، سوى رد على هجمات سنية - كان الأمريكيون، كما لاحظ، قد أخفقوا في منعها. كنت أعرف أن عراقيين كثيرين كانوا يرون الأمريكيين متمتعين بما يكفي من القوة التي تمكننا من أن نفعل كل ما يحلو لنا، وعدم إيقافنا للهجمات كان من شأنه، إذن، أن يعني وجود سبب معين! وإلا هل كان المالكي يرى أننا كنا قد صدّقنا رواية السنة التي كانت تقول إن الميليشيات الشيعية كانت هي العدو الأول في العراق؟

ناقشنا هذه الفكرة مطولاً في اتصالنا الفيديوي الآمن يوم 21 تشرين الأول/أكتوبر مع فريقنا في بغداد. إذا كنا عازمين على إشراك العراقيين بالقتال ومساعدتهم على امتلاك الثقة بالنفس والمبادرة إلى تحمل المسؤولية عن الإدارة كما عن أمنهم الخاص، فقد تعين علينا أن نتجنب أي شقاق مع حكومة المالكي. كان لا بد لنا من التعاون الوثيق جداً مع جماعة المالكي، ونحن نتولى مهمة تدريب قواتهم ونساعدهم على ما ينبغي أن يكون جهداً مشتركاً. وافق الجنرال كيسي على أننا كنا بحاجة إلى مواصلة إدارة العلاقة مع الشيعة بعناية فائقة.

وبعد عشرة أيام، في 31 تشرين الأول/أكتوبر 2006، بعد أن أنهينا، الرئيس وأنا، إيجازينا الصباحيين في المكتب البيضوي، قال لي الرئيس: "هل لي أن أكلمك لثانية، يا ديك؟" نزلنا إلى الرواق الصغير المفضي إلى غرفة الطعام الخاصة حيث كنا تناولنا وجبات الغداء الأسبوعية. قال الرئيس: "قررت أن أحدث تغييراً في الدفاع، وأنظر إلى بوب غيتس لإحلاله محل رامسفيلد". كان يطلعني على قراره؛ لم يكن يستشيرني. فهو يعرف وجهة نظري، لأنني كنت قد جادلت مرتين معارضاً إبدال رامسفيلد. بعد انتخابات 2004 مباشرة، حين أعاد النظر بمجلس الوزراء كله وقرر إبعاد باول عن الخارجية، كان أيضاً قد فكر بإزاحة رامسفيلد عن الدفاع. أكدت أن رامسفيلد كان يقوم بعمل جبار، كان ينفذ سياسة الإدارة وخطتها، وكان من شأن استبداله أن يوحي بنوع من عدم الرضا عن الاستراتيجية التي كان الرئيس نفسه قد وضعها. كنت قد سقت الحجج ذاتها في 2005 حين طرح الموضوع من جديد.

هذه المرة لم يبق الرئيس منتظراً بعد إطلاعي على حقيقة أنه كان قد

اتخذ قراره. دار إلى الوراء وخرج من الباب بسرعة. كان يعرف أنني كنت سأعارض، وأفترض أنه لم يكن راغباً في سماع الحجج التي كان يعرف أنني كنت سأسوقها.

بنظري كان دون رامسفيلد وزير دفاع رائعاً. كان أكثر مباشرة في الانخراط بإدارة المبنى من أي نظير سابق أو لاحق. كان شغوفاً بإنجاز المهمات. ربما لم يكن متمتعاً بأفضل أسلوب إنساني للمعاملة في العالم، ولكنه أحد أكثر من سبق لي أن عرفتهم كفاءة. أغنى المنصب بقدر واسع من الخبرة، وبطاقة لانهائية، وبولاء شامل للرئيس. كان مستعداً للجدال بحماسة وقوة دفاعاً عما يؤمن به، ولكنه كان يبادر، لحظة اتخاذ الرئيس لأي قرار، إلى أخذ التحية برشاقة والمسارعة إلى التنفيذ.

كان واضحاً، مع ذلك، أن الرئيس رأى أن الساعة قد دقت لتوجيه جوقة جديدة من الأعين على الوضع في العراق، ولم أر أن دون كان سيعارض. كان قد جاءني في آذار/مارس للاطمئنان إلى معرفتي بأنه كان مستعداً لفعل أي شيء كان يستطيعه للمساهمة في ضمان كسبنا للحربين في العراق وأفغانستان. كان شديد التحديد معي ـ كان مستعداً ـ حسب قوله ـ للتنحي لحظة يرى الرئيس أن عليه أن يفعل.

يوم الأحد، 5 تشرين الثاني/نوفمبر، كنت أعمل في غرفة العائلة العلوية بمقر إقامة نائب الرئيس حين تلقيت مكالمة من الرئيس. قال إنه كان قد عرض منصب وزير الدفاع على بوب غيتس، وكان الأخير قد قبل العرض. سألني الرئيس: "هل تحب أن تكون الشخص الذي يبلغ دون، أم يتعين علي أن أكلف جوش بولتن بإجراء الاتصال؟" قلت: "أنا سأفعل ذلك، سيادة الرئيس. أنا مدين بجملة هائلة بكثرتها لدون ما يوجب أن يسمع النبأ مني".

حين اتصلت به وأخبرته بأن الرئيس كان قد قرر أنه يرغب في إحداث تغيير في الدفاع، تعامل دون مع الأمر تعامل المحترف الأنموذجي الذي يجسده، قائلاً: "أوكي، وصلت الرسالة". ثم كرر شيئاً كان قد قاله لي من قبل، إنه كان عاكفاً على التفكير جدياً بالاستقالة إذا نجح الديمقراطيون في أخذ أحد مجلسي الكونغرس في الانتخابات القادمة. أضاف: "سهام الانتقاد الموجهة إلي كثيرة؛

تفوق الحدود المعقولة" كان متوجساً من الاضطرار، إذا ما فاز الديمقراطيون في أي من المجلسين، إلى تبديد وقته كله مدلياً بالشهادات مبرراً جملة القرارات الصادرة خلال السنوات الخمس والنصف الماضية، بدلاً من التركيز على التحديات التي كنا لا نزال نواجهها. كان أمامنا عمل استثنائي الأهمية يتعين علينا القيام به، وكان دون قلقاً من احتمال تمخض بقائه عن إضعاف قدرتنا على إنجازه.

في وقت متاخر من بعد ظهر 9 تشرين الثاني/نوفمبر، اجتمعنا، الرئيس، وستيف هادلي، والوزيرة رايس، وأنا، في مسكن البيت الأبيض لإجراء نقاش معمق حول المسار المقبل في العراق. عقدنا حواراً موسعاً غطى المضاعفات الكوكبية بالنسبة إلى الولايات المتحدة كما إلى حلفائنا إذا ما أخفقنا في إيصال الأمور إلى خواتمها. قبل يومين، في 7 تشرين الثاني/نوفمبر، كنا قد خسرنا أكثريتنا الجمهورية في مجلسي النواب والشيوخ، وتحدثنا أيضاً عن البيئة السياسية الأمريكية والرسالة المنبثقة عن السجالات العلنية حول الحرب وجملة المداولات الجارية على قدم وساق في مجموعة دراسة العراق.

استعرضتُ سلسلة من الأحداث الحديثة التي تخوفتُ من احتمال إيحائها للعراقيين بأن الأمريكيين كانوا قد فقدوا الإرادة لإيصال الأمر إلى نهايته. كانت الصحافة دائبة على تصوير الخسارة الجمهورية في الانتخابات النصفية كما لو كانت استفتاءً على سياسة العراق. رئيسة المجلس الجديدة نانسي بيلوسي، وزعيم الأكثرية الجديد في مجلس الشيوخ هاري رايد، كانا شديدي الوضوح حول اعتزامهما ممارسة الضغط من أجل سحب القوات الأمريكية من العراق. كان الشيخ جو ليبرمان قد تعرض، من حيث الجوهر، للتطهير من الصفوف الديمقراطية بسبب تأييده للحرب. كانت استطلاعات الرأي الأمريكية قد انخفضت فيما يخص العراق وباتت تبين بقدر غير قليل من الاطراد أن هناك أكثرية معارضة لأي عمل عسكري متواصل هناك. وكان الرئيس قد أعلن مغادرة دون لوزارة الدفاع. هذه الأحداث كلها كانت تترك انطباعاً لدى أي متابع بأن من المحتمل بقوة أن يكون الأمريكيون مستعدين لأن ينأوا بأنفسهم عن العراق. كنت

شديد القلق، ولا سيما بشأن الطريقة التي كان العراقيون، الذين كانوا يريدون أن تقف أمريكا معهم في تأمين بلدهم، سيعتمدونها في قراءة هذا كله. بقيت على اتصال مع عدد من العراقيين الذين كانوا يواصلون مضاعفة التعبير الصريح عن القلق إزاء الوضع الأمني وتصميم أمريكا على الانتصار.

صباح اليوم التالي حين عقدنا مؤتمرنا الفيديوي الآمن الأسبوعي مع قادتنا العسكريين وسفيرنا في العراق، طرح الرئيس على السفير خليلزاد سؤالاً عن المزاج هناك. أفاد زال بأن الناس كانوا متخوفين من أن تكون أمريكا بصدد الإعداد للرحيل. وقد أكد بعضاً من أسوأ هواجسي عن الوضع.

كنت أيضاً قلقاً إزاء الرسالة التي كنا نوجهها إلى جنودنا وأسرهم. فهم القاعدة الأهم من أي طرف آخر وكانت هذه هي المرة الأولى التي تم إلزام جنودنا فيها بحرب غير ذات شعبية منذ إيجادنا للقوة المشكلة بأكملها من متطوعين. كانت معنوياتهم ومعنويات عائلاتهم حاسمة، ومع تصاعد الانتقادات، تعين علينا أن نكون واضحين وضوحاً مطلقاً، داخلياً وعلى الملأ، بشأن عدم استعدادنا للمساومة على رسالتنا الأساسية لأسباب سياسية. ثمة ثقة مقدسة بين جنودنا وقادتهم المدنيين، وبصرف النظر عن الصوت المرتفع لانتقادنا في وسائل الإعلام وعن شراسة الهجوم الذي كان الديمقراطيون يشنونه علينا، تعين علينا أن نتذكر ما كان مهماً: تكليف قواتنا بمهمة هي قادرة على تنفيذها قتالاً وصولاً إلى الانتصار في العراق.

مع حلول خريف 2006 كنا قد فقدنا 2500 أمريكي شجاع في أفغانستان والعراق. لو اعتمدنا استراتيجية قائمة على محاربة التمرد المسلح وضاعفنا من حجم قواتنا، لاندفعت وحداتنا نحو معاقل العدو، خارجة من قواعد عملياتها المتقدمة. الاحتكاك المتزايد مع العدو كان هو السبيل الوحيد للانتصار، غير أن جنرالاتنا كانوا واضحين: من شأن هذه الاستراتيجية الجديدة أن تتمخض عن إصابات أكثر، أقله في المدى القريب. لعل دفع وحدات أمريكية إلى ما بين شدقي الأذى هو القرار الأصعب الذي يمكن لأي قائد أعلى أن يتخذه، وفيما كنت أفكر بنوع من الزيادة، التي كان من المحتمل أن يقدم عليها جورج دبليو بوش قريباً، تذكرت جنودنا وعائلاتهم والامتنان العميق الذي تدين به أمتنا لهم. على امتداد

نيابتي الرئاسية، التقيت عدداً كبيرا من عائلات من سقطوا. في أغلب الأحيان إن لم يكن كلها، ظلت رسالتهم، عبر المهم غير القابل للتصور، متمثلة بما يلي: لا تجعلوا موت ابننا عبثاً! أنجزوا المهمة!

جنودنا يتفهمون، أفضل من سياسيينا في واشنطن أحياناً، السبب الكامن وراء قتالنا. أتذكر زوجة أحد أفراد إحدى وحدات عملياتنا الخاصة أنها قالت لي إن زوجها كان، في كلٍّ من مهماته، يحمل رقعة من فوج إطفاء مدينة نيويورك - كان يقاتل من أجل أولئك الذين كانوا قد ماتوا في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. مهمات زوجها كانت سرية، ولم يكن قادراً على البوح بها، غير أنها عبرت عن تمنيها التواصل مع جميع زوجات وأحباء عناصر الإطفاء ورجال الشرطة وجميع الذين قُتلوا في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لإبلاغهم أن زوجها وآلافاً آخرين كانوا يطاردون الإرهابيين المسؤولين عن تلك الهجمات ويجهزون عليهم.

كثيرون من جنودنا الجرحى كانوا يعالجون في مركز الجيش الطبي المعروف باسم مركز والتر ريد بواشنطن العاصمة. لم أخرج من زياراتي إلى المركز إلا وأنا عميق التأثر، على نحو تبقى الكلمات عاجزة عن التعبير عنه، بشجاعة المقاتلين وإخلاصهم المتفاني. في مرات لا تحصى، ولدى سؤالهم عما إذا كان هناك شيء نستطيع أن نفعله من أجلهم، كان طلبهم الوحيد متمثلاً بتمكينهم من العودة إلى وحداتهم.

ثمة منظمات مثل بيت الآباء تقوم بعمل رائع على صعيد توفير الدعم ومكان الإقامة لعائلات هؤلاء الجنود. فديانا بودمان، زوجة وزير الطاقة سام بودمان، كرست نفسها لضمان تمكين الشباب والشابات الذين تحسنت حالتهم بما يكفي لمغادرة المستشفى ولو لفترة وجيزة من إيجاد أمكنة يأوون إليها وأشياء يرونها. جرى تكريمنا، لين وأنا، عن طريق تمكيننا من دعوتهم إلى المرصد البحري. استمتعنا بالمشاوي [الباربكيو] وبعض الموسيقى الريفية والغربية الرائعة. مطربون مثل تشارلي دانييلز ورودوني آتكنز كانوا يرون إحياء مثل هذه المناسبات امتيازاً، وكان الشعور نفسه يراودنا ونحن نستضيفهم.

يبقى المقاتلون الجرحى مثالاً للنوعية الممتازة والعظيمة لجميع الرجال والنساء الذين تتألف منهم القوات المسلحة الأمريكية. إنهم القوة المقاتلة الأعظم - والقوة الأعظم إلى الأبد - التي سبق للعالم أن عرفها في أي وقت. وعلينا ألا نغفل لحظة واحدة عن حقيقة أنهم السبب الكامن وراء كوننا، وملايين كثيرة غيرنا في طول العالم وعرضه، نعيش اليوم بحرية.

فريق دراسة العراق برئاسة لي هاملتون وجيم بيكر المشتركة، جاء إلى البيت الأبيض لإطلاعنا بإيجاز على تقريره. بادر هاملتون، الذي كنت قد عرفته منذ تزاملنا في المجلس، إلى افتتاح الكلام. قال إن هدف الفريق تمثل بتقديم توصية حول طريقة تتيح فرصة الوصول إلى نوع من تقليص التزامات أمريكا تجاه العراق مع الزمن دون وضع برنامج زمني محدد. تحدث عن تحويل دور القوات الأمريكية بما يجعله أكثر تركيزاً على التدريب. أشار إلى ضرورة خلق شروط تمكن العراقيين من اللقاء فيما بينهم، إضافة إلى بذل جهود دبلوماسية واسعة في المنطقة. صديقي جيم بيكر تكلم ثانياً. أكد على ضرورة تحول الجهد العسكري من محاولات لإخماد العنف الطائفي إلى مهمة تدريب، وتجهيز، ودعم قوات عراقية. عبر عن إيمانه بضرورة إطلاق مبادرة دبلوماسية جديدة منطوية، حتماً، على التحدث مع السوريين والإيرانيين.

ثم جاء دور أعضاء آخرين في الفريق وتكلموا، مع إلحاح عدد غير قليل منهم على إعادة إطلاق عملية السلام الإسرائيلية - الفلسطينية. بادر تشاك روب، وهو شيخ ديمقراطي سابق من فيرجينيا وممن حاربوا في فيتنام، إلى تأكيد أهمية عدم الانسحاب مباشرة وأثار احتمال حصول زيادة إذا قررنا الحاجة إليها. وحين تكلم صديقي الوايومنغي آل سيمبسون قال إن الفريق مدرك للفرق بين لجنة ترفع توصيات - ولو لجنة ممتازة كهذه - وبين من هم في السلطة الملزمين باتخاذ قرارات. وأضاف إنه يصلي من أجلنا.

قدرت العمل الذي كان هذا الفريق المؤلف من الحزبين قد فعله. كان قد أخذ مسؤولياته مأخذ الجد وبذل جهداً كبيراً للخروج بتوصيات حصيفة. إلا أنني تشوشت وأنا أصغي إلى مقترحاتهم كما عند قراءة التقرير لاحقاً. المكان الوحيد

الذي ظهرتْ فيه عبارة انتصار في الوثيقة كانت متعلقة بانتصار للقاعدة. لم تكن هذه استراتيجية لكسب الحرب.

مع أننا جميعاً كنا نعرف أن العراقيين كانوا سيُضطرون، في آخر المطاف، إلى النهوض والمبادرة إلى تحمل مسؤولية تأمين أمن أمتهم بأنفسهم، فإن فريق دراسة العراق أخفق في إدراك المخاطر الكامنة بالنسبة إلى الولايات المتحدة إذا سارعنا إلى الانسحاب قبل أن يصبح العراقيون قادرين على الدفاع عن أنفسهم. أدى تركيز التقرير على المصالحة السياسية والاهتداء إلى تسويات سياسية لمشكلات الأمة إلى إغفال أهمية ضمان بيئة يمكن للمصالحة أن تتم فيها وللاتفاقات السياسية أن تتحقق في إطارها. خاب أملي أيضاً إزاء اقتراحات الفريق فيما يخص إيران وسورية. أوصى الفريق بأن نبادر إلى إطلاق نوع من الحوار مع كل من هاتين الدولتين، مشدداً على أن أياً منهما لم تكن لها مصلحة في رؤية عراق غارق في الفوضى - في حين أن كلاً من إيران وسورية كانتا، كلتاهما، تعملان جاهدتين للتشجيع على ذلك بالتحديد.

صباح اليوم التالي عقدنا اجتماع الإيجاز المخابراتي في المكتب البيضوي أبكر من المعتاد لأن الرئيس ورئيس الوزراء طوني بلير كانا سيتناولان الفطور في الساعة الثامنة، متبوعاً بمؤتمر صحفي مشترك. مع لملمة الإيجاز الاستخباراتي لذيوله، دخل أحد العاملين حاملاً ورقة عليها ملاحظات الرئيس الافتتاحية للمؤتمر. عادة لم أكن أدس أنفي في أي مسودات خطب للرئيس، إلا أن نظرة سريعة على هذه أدت إلى رفع علم أحمر. كنت قد اطلعت على نسخة أبكر وكانت متضمنة كلمة انتصار. أحدهم كان قد حذفها.

لبعض الوقت كان كل من مدير الاتصالات دان بارتلت ورئيس جهاز العاملين جوش بولتن، عاكفين على الجدال حول وجوب عدم إيراد كلمة "انتصار" من قبل الرئيس. كانا يريان الأمر نظيراً للدفاع عن الثبات على الخط. تخوفا من سماع الإعلام للكلمة والمسارعة إلى كتابة أن الرئيس لم يكن قد استوعب معنى رسالة الانتخابات النصفية التي كنا قد خسرناها للتو. كانا قلقين من احتمال إفضاء الأمر إلى قصص تؤكد "عناد" الرئيس، وإصراره على "عدم سماع الكلمة". كررا الإلحاح على مبادرتنا، كرمى لعين البصريات، إلى تسليط

الأضواء على حقيقة أننا كنا قد غيرنا الاستراتيجية - وأن ذلك كان يعني شطب الإشارات إلى "الانتصار".

لم أوافق. أمننا القومي كان متوقفاً على الانتصار في العراق. تلك كانت، ببساطة، هي الحقيقة، وكان لا بد للرئيس من أن يكون واضحاً حول الأمر. كذلك فكرت بجنودنا وعائلاتهم، وما كانوا سيقولونه لدى سماع ملاحظات الرئيس. لم يكن بوسع القائد الأعلى أن يقحم الرجال والنساء في أتون الخطر والأذى إذا لم نكن نحارب كي ننتصر.

رافعاً ورقة الملاحظات المقترحة، قلت: "سيادة الرئيس، لا تستطيع أن ترفض الكلام عن الانتصار. من شأن ذلك أن يشكل مؤشراً صارخاً دالاً على أنك لم تعد مؤمناً بالانتصار". مباشرة فهم الرئيس، وبعد بضع ساعات حين أطل مع رئيس الوزراء بلير، قال: "نحن متفقون على أن الانتصار في العراق مهم؛ إنه مهم بالنسبة إلى الشعب العراقي، ومهم بالنسبة إلى أمن الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، ومهم بالنسبة إلى العالم المتحضر". ما كان أوضح من ذلك ممكناً!

في الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم اجتمع مستشارو الرئيس الأساسيون للأمن القومي في غرفة الاجتماعات الآمنة في مبنى المكتب التنفيذي القديم، على الضفة الأخرى من الجادة التنفيذية الغربية مقابل البيت الأبيض لبحث موضوع العراق. دار بيننا، الوزيرة رايس وأنا، سجال قاس. جادلت هي بقولها إن العراق يعيش تجربة نوع من العنف الطائفي الذي يتعين على القوات الأمريكية أن تنأى بنفسها عنه، وألا تكون بين الطرفين. لا بد لقواتنا من أن تبتعد، كما قالت، وألا تشتبك إلا إذا رأت مذبحة بأم العين، نوعاً من العنف الذي كان قد حدث في 1995 حين أقدمت القوات الصربية على ذبح آلاف البوسنيين في سربرينيتسا. أما أنا فلم أر ذلك واقعياً. كنت أرى أن علينا أن نبقى منخرطين بفعالية واندفاع في القتال، وأن المحصلة شديدة الأهمية بالنسبة إلينا بما لا يتيح لنا فرصة النأي بالنفس، والتفرج، ببساطة، على قيام العراقيين بحسم الأمر.

مع حلول صباح اليوم التالي، حين اجتمعنا في غرفة روزفلت حول هذا الموضوع مع الرئيس، كان جزء كبير من التمايز بين وجهة نظر الوزيرة رايس ووجهة نظري قد تم تخطيه. فبدلاً من خيارين مرسومين بإيجاز للرئيس، قدم

أركان مجلس الأمن القومي ما أطلقوا عليه اسم: "إجماع ناشئ". كانوا يتبعون ممارسة لإدارة آراء متضاربة كانت رايس قد ابتكرتها وأطلقتها حين كانت مستشارة أمن قومي. لم يسبق لي قط أن كنت شغوفاً بتلك الممارسة، إلا أنني كنت استثنائي الحرص على وجوب تزويد الرئيس فيما يخص مسألة العراق بخيارات واضحة، لا بتدابير قائمة على أنصاف الحلول، لا بتوصيات سياسية قائمة على توزيع الاختلاف حصصاً.

أدليت بدلوي. قلت: "هذه الأمور التي ناقشناها الليلة الماضية ليست خيارات. لقد تم طمس الفرق هنا". كان ثمة فرق كبير بين ترك العراقيين يحلون المشكلة بالقتال والاستمرار في الاشتباك لدحر العدو، ولاحظت أن من شأن السعي إلى الاهتداء إلى نوع من الموقع الوسط القائم على المساومة، نوع من الرأي الذي يرضي جميع من هم على الطاولة، أن يفضي، في الحقيقة، إلى التمخض عن سياسة غير مفهومة ويتعذر تطبيقها بوصفها استراتيجية عسكرية.

تابع رئيس هيئة الأركان المشتركة بيت بيس الكلام مسلطاً الضوء على الاقتراح الداعي إلى عدم انخراط القوات ما لم تكن ثمة مذبحة ببشاعة تلك التي حصلت في سربرينيتسا. طرح سؤالاً: "كيف أكتب ذلك في أمر موجه إلى القوات؟ هل أقول: لا تطلقوا النار إلى أن تقتنعوا بأن المشهد صار شبيهاً بسربرينيتسا؟ ذلك لا يستقيم. إما نحن في الأمر أو نحن خارجه. إما نحن منخرطون في العملية أو لسنا منخرطين في أي عملية".

أراد الرئيس أن يسمع من خبراء خارجيين ويطلع على آرائهم حول مقاربة استراتيجية للعراق، فاجتمع عدد منهم في المكتب البيضوي بعد ظهر يوم 11 كانون الأول/ديسمبر. جنرال الأربع نجوم المتقاعد باري ماكّافري، الذي كان قد لعب دوراً كبيراً في عاصفة الصحراء كقائد لفرقة المشاة الـ 24، كان موجوداً. وواين داوننغ الذي هو متقاعد أربع نجوم سبق له أن درّس في وست بوينت كان عضواً آخر في الفريق. حين كنت وزيراً للدفاع، كان هو قائداً لقيادة العمليات الخاصة المشتركة المشرفة على قوات عملياتنا الخاصة في طول العالم وعرضه. عدد غير قليل من الخبراء المدنيين كانوا أيضاً في الاجتماع، بمن فيهم

إليوت كوهن وستيفن بيدل. كانت المجموعة موحدة بشأن اجتراح توصية متضمنة مسار عمل. نائب رئيس أركان الجيش المتقاعد، جاك كين، كان الأكثر صراحة وصاحب المفهوم الأفضل تطوراً. أقر كين بأن العراق كان في أزمة، وأننا كنا بعيدين عن الاضطرار للاعتراف بالهزيمة. أفاد بأن بغداد كانت هي المفتاح، وتعين علينا أن نبقي قواتنا في الأحياء على مدار الساعة. أصر أيضاً على وجوب عدم الانشغال بالميليشيات الشيعية. قال: "هذه ليست هي القضية". كنا بحاجة لأن نبقي طاقاتنا متركزة على هزيمة القاعدة والمتمردين السنة، الذين كانوا يشكلون جوهر المشكلة الأمنية في العراق كله.

بعد انتهاء اللقاء مع الرئيس، عاد جاك إلى مكتبي، وانضم إلينا فرد كاغان أستاذ التاريخ العسكري الذي كان جاك يعمل معه. تمثلت فكرتهما الأساسية بإحداث نوع من النقلة إلى استراتيجية محاربة عصيان مسلح، حيث يكون التركيز الأول على حماية السكان، لأن تعاون هؤلاء والمعلومات الاستخباراتية التي يستطيعون توفيرها كانا من عوامل النجاح الحاسمة. في ظل هذه الاستراتيجية كانت القوات ستتولى ضمان أمن بغداد عبر ضرب مناطق مستهدفة، وفرض طوق، ثم الانتقال من بيت إلى بيت لاعتقال العناصر المعادية وتوقيفهم. كانت قواتنا ستبقى في الأحياء على مدار الساعة (7/24) دون العودة ليلاً إلى قواعد العمليات المتقدمة الكبيرة والمعزولة أحياناً. زيادة القوات إضافة إلى كثرة الظهور وتكرر الاحتكاك مع السكان كان من شأنها، باعتقاد كين وكاغان، أن توحي بأننا منخرطون للانتصار وباقون حتى إلحاق الهزيمة بالعدو.

لم تكن الإضافة المجردة للمزيد من القوات، دون هذا التغيير في الاستراتيجية، مؤهلة لجلب أي انتصار، إلا أن هذه الاستراتيجية الجديدة ما كانت لتحقق أي نجاح دون المزيد من القوات. ولبلوغ الزيادة، اقترح كين وكاغان تعجيل نشر قوات مستعدة للذهاب إلى العراق ثم تأخير إعادة بعض القوات إلى الوطن بما يحقق طفرة توصل إلى وجود ما لا يقل عن سبعة ألوية في بغداد. أوصيا أيضاً بإرسال فرقة مارينز مقاتلة موازية تقريباً للواء آخر إلى إقليم الأنبار الذي هو أحد معاقل التمرد المسلح السني.

كنا سنتعاون أيضاً تعاوناً وثيقاً مع القوات المحلية، ضامنين تفهمها

لحقيقة أننا، حتى بعد أن تكون العملية القتالية منتهية، كنا سنترك بعض القوات لتأمين المنطقة وحفظ النظام. مساعدة القوات العراقية على الصمود في هذه المناطق إلى أن تصبح قادرة على التحرك دوننا كان من شأنها أن تكون كثيفة القوة البشرية، وهو أحد الأسباب التي جعلت تحقيق نوع من الطفرة أمراً حاسماً. كذلك كان من شأن الطفرة أن تمنحنا قدرة إضافية على التعجيل بفعالية القوات العراقية وتحسينها.

كان كين وكاغان متوفرين على خطة متكاملة: استراتيجية جديدة وطريقة تطبيقها. في اليوم التالي قدمت وصفاً بالخطوط العامة أمام الرئيس لما كانا يقترحانه ولما كانا يعتقدان أنه قابل للتطبيق، ما أفضى بنا إلى حديث حول هيئة الأركان المشتركة. كانت الهيئة على علم بوجود مراجعة استراتيجية قيد الإنجاز وكلام عن نوع من الطفرة، وكانت متوجسة من احتمال انطوائها على تأثير سلبي في الجاهزية الإجمالية للقوات وفي معنويات الوحدات. غير أنه كان من الواضح إلى حد كبير أن أسوأ الأشياء بالنسبة إلى معنويات الجنود تمثل، كما لاحظ الرئيس، بخسارة الحرب.

كان الرئيس مبرمجاً للقاء رؤساء الأركان في البنتاغون في اليوم التالي، يوم 13 كانون الأول/ديسمبر، وقلت له إن من المهم، حسبما أرى، إجراء نقاش معمق. ركبنا سوية، مع ستيف هادلي، ودخلنا عبر بوابة النهر، وبعد انعطافتين إلى اليسار، كنا في غرفة القادة العديمة النوافذ، الدبابة [التانك].

بادر الجنرال بيس إلى افتتاح اللقاء، ملخصاً توصيات رؤساء الأركان. تمثل تأكيدهم بتوسيع عمل الولايات المتحدة الاستشاري، بما يؤدي إلى نقل التركيز الأمريكي إلى تطوير قوات الأمن العراقية وصولاً إلى التحكم العراقي. علق الرئيس: "لعل السؤال هو متى تنتقلون إلى تقديم النصح. أنتم لا تريدون التعجل بالأمر". أجاب بيس قائلاً: "إن الجنرال كيسي لم يكن يرى أن من شأن القوات العراقية أن تنهار إذا ما انتقلنا الآن".

ثم تدخلت. أكدت أهمية الانتصار في العراق وقلت إن خطة رؤساء الأركان بدت ملقية عبئاً على كاهل الشعب العراقي كما على أكتاف قوات الأمن العراقية في وقت ليس أي من الطرفين مستعداً فيه لحمل مثل هذا العبء. قلت: "إننا

نبقي المزرعة رهينة بأيدي قوات الأمن العراقية"، وأردت أن أعرف سبب استعدادنا لفعل ذلك، رغم أهمية الانتصار في العراق. وسألت: "ألن يكون من الأفضل أن نقدم على اندفاعة كبرى بقواتنا نحن لإنجاز المهمة؟" تحدثت كذلك عن عواقب الخسارة، وعن مدى مساهمتها في نسف استقرار المنطقة كلها وزرع الرعب في قلوب المعتدلين الذين وقفوا في صفنا في بلدان مثل أفغانستان والباكستان. أضفت "بغتة ستغدو صداقة الولايات المتحدة بالغة الخطر. ثمة رهان مرعب على ركوب هذا".

كانت المقاومة التي سمعناها، الرئيس وأنا، ذلك اليوم لنوع من الطفرة، في جزء منها أحد نتاجات مهمة رؤساء الأركان كما نص عليها قانون غولدووتر - نيكولز لعام 1986. فذلك التشريع كان من حيث الجوهر يبعد رؤساء الأركان عن أعمال القتال في الحرب ويحملهم مسؤولية بناء قواتنا المسلحة وتدريبها. رؤساء الأركان لا يقودون قواتنا إلى الحرب، وهم ليسوا حلقة في سلسلة القيادة. هم يتولون إعالة القوة، وإعدادها، وتدريبها، وتجهيزها، أما بعد ذلك فيتم تحويلها إلى القائد القتالي الذي يضطلع بمهمة خوض الحروب وكسبها. وهكذا فإنك حين تذهب إلى "الدبابة" وتتحدث مع رؤساء الأركان تكتشف أنهم مكلفون بمسؤوليات تتجاوز ما يحدث على الأرض في بغداد. هم متركزون أيضاً على دعم وإدامة جاهزيتنا العسكرية الإجمالية. كان من شأن إحداث طفرة قوات في العراق أن يجعل ذلك أكثر صعوبة.

لن يتخلف رؤساء الأركان، بطبيعة الحال، إذا ما كلفهم الرئيس بمهمة معينة، عن أداء التحية برشاقة وتنفيذ المهمة. غير أن من واجبهم أن يلفتوا النظر إلى العواقب، فيكون الرئيس بحاجة إلى سماع حججهم كي يتمكن من استيعاب الصفقات.

كان المتحدث الأكثر حذلقة باسم وجهة نظر رؤساء الأركان ذلك اليوم في الدبابة هو الجنرال بيت شوماخر، كان شوماخر خريج جامعة وايومنغ حيث كان يلعب كرة القدم ومنتسباً إلى نادي فيلق تدريب ضباط الاحتياط، وكان من عناصر عملية الصحراء رقم واحد، تلك المحاولة المخفقة في 1980 لإنقاذ الرهائن الأمريكيين في إيران. بعد ذلك أصبح جزءاً من فرق العمليات الخاصة

الأصلية التي شُكلت رداً على ذلك الإخفاق. كانت لي يد في عملية استدعائه من التقاعد إلى تولي رئاسة أركان الجيش وكان ناجحاً جداً.

مع حلول نهاية عام 2006، كان هاجس شوماخر متمثلاً باحتمال مبالغتنا في تأكيد القوة. على أساس يومي كان يتعامل مع عمليات انتشار طويلة، وعمليات انتشار متعددة الأطراف، وما كان ذلك يعنيه بالنسبة إلى الجنود وعائلاتهم. كان يواجه تحديات ذات علاقة بالتجنيد والاحتفاظ جنباً إلى جنب مع حشد من المشكلات الأخرى المترتبة على عملياتنا الجارية على قدم وساق في العراق وأفغانستان. يضاف إلى ذلك أننا كنا في هذه النزاعات قد نشرنا احتياطيين أفراداً وأعضاء حرس وطني لملء الشواغر في أفغانستان والعراق. وكان هذا يعني أن أعضاء رئيسيين كانوا منشورين سلفاً فلم يعودوا في متناول اليد حين كانت ساعة نشر وحدات الاحتياط والحرس ككل تدق. لم نبق متوفرين على ذلك النوع من وحدات الاحتياط والحرس التي كنا قد توقعنا وجودها.

وتيرة العمليات فرضت أيضاً أعباء ثقيلة على المعدات. فسيارات الهمفي، مثلاً، كانت تقطع نحو ثمانية آلاف ميل في السنة خلال مناورات زمن السلم. أما الآن فإن بعضها كان يساق أربعين ألف ميل سنوياً. أضف إلى ذلك حقيقة أن الهمفي لم تُصمم قط لتكون عربة مدرعة. جرى تصميمها أساساً لتكون عربة ناعمة الجانب متعددة الأغراض للجيش، ولكن خطر العبوات الناسفة البدائية في العراق ما لبث أن اضطرنا إلى تصفيح عدد كبير منها لحماية الجنود. سيارة همفي بلا تصفيح تزن نحو 6500 رطل، وذلك هو الوزن الذي صُممت قطعها لتحمله. وحين قمنا بالتصفيح أضفنا ثلاثة إلى أربعة آلاف رطل إلى الوزن. كان الاستهلاك والاهتراء ذا شأن، وكان ذلك يعني أكلافاً إضافية ذات شأن أيضاً على صعيد إصلاح المعدات وإبدالها.

حين جادل الرؤساء قائلين إن الوقت الحالي لم يكن وقت إحداث طفرة قوات، أظن أن ذلك الجزء من هدفهم كان منصباً على إفهام الرئيس بأن من شأن إصدار الأوامر بإحداث طفرة قوات أن يعني المسارعة إلى توظيف استثمارات أكبر على نحو ملموس في جيشنا. نقطة تم استيعابها جيداً إذ أقدم

الرئيس في موازنته التالية على إيراد التمويل اللازم لزيادة حجم كل من الجيش وفيلق المارينز.

إحدى الحجج التي ساقها الرؤساء ولم تقطع شوطاً بعيداً كانت الفكرة التي تقول بعدم جواز نشر المزيد من القوات في العراق لحاجتنا إلى الاحتفاظ بقوة احتياطية ننشرها في حال وقوع أحداث غير متوقعة في مكان آخر من العالم. لم يقتنع الرئيس. قال لهم إن أولويته هي كسب الحرب التي نخوضها، لا القعود والتردد توجساً من حرب مستقبلية محتملة ما.

خلال هذه الفترة، أضفى جاك كين منظوراً مهماً على مسألة ما تستطيع قواتنا أن تتحمله ومدى قدرتنا على دفع رؤساء الأركان إلى العمل. كان يعرف أن من شأنهم أن يبقوا مشغولي البال إزاء الضغط على القوات، ولكنه أشار أيضاً إلى أنك في أي حرب كونية شاملة على الإرهاب، تفعل ما يتعين عليك أن تفعله كي تنتصر. إذا تعين عليك أن تبادر إلى عمليات نشر لمدة خمسة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً أو إلى أوامر متواصلة للقوة كلها أو لمضاعفة القوة، فافعل كل ما يتعين عليك أن تفعله، لأن الشيء الوحيد الذي لا تستطيع أن تتحمله هو أن تتجرع كأس الهزيمة. بالاستناد إلى سبع وثلاثين سنة من الخدمة في الجيش وإلى تجربته نائباً لرئيس الأركان، كان بالنسبة إلي شخصياً مرجعاً حقيقياً ومنبعاً للحكمة. كان لنصيحته وزن كبير. نظرته القائلة بالإمكانية المطلقة لفعل ما يتعين فعله دون تمزيق القوة قطعت شوطاً طويلاً نحو إعطائنا وآخرين من صانعي القرار السياسي شعوراً بأن إحداث طفرة كان قابلاً للتنفيذ.

أراد الرئيس منح وزير الدفاع الجديد، بوب غيتس، فرصة لزيارة العراق ولقاء الجنرالين كيسي وأبي زيد قبل أي إعلان عام لاستراتيجية حرب جديدة ما. وبعد عودة غيتس من العراق، اجتمع مجلس الأمن القومي في مزرعة الرئيس بكروفورد يوم 28 كانون الأول/ديسمبر 2006. شرح بوب أن الجنرال كيسي قد وافق على إحداث طفرة، ولكنه لا يريد أكثر من لوائين، مع ألوية إضافية على

الخط للنشر إذا دعت الحاجة. بدا هذا نوعاً من الحل الوسط الذي كنا دائبين على محاولة تجنبه، وقرر الرئيس معارضته.

مع الوصول إلى هذا المنعطف قرر الرئيس تعيين قيادة عسكرية جديدة في العراق. كان سيجعل الجنرال كيسي رئيس أركان جيش ويعين الجنرال ديفيد بترايوس بدلاً منه. رأيت أن بترايوس كان خياراً ممتازاً، خياراً جامعاً بين الصلابة، والذكاء، والكفاءة. كان جاك كين، الذي لا يمدح بالمجان، أكبر المعجبين به. كان الرجلان صديقين حميمين منذ 1991، حين كانا يتوليان الإشراف على إحدى مناورات التدريب في فورت كامبل في كنتاكي، حيث أدت طلقة طائشة إلى إصابة بترايوس في صدره. بقي كين بجانبه، مرافقاً إياه على متن إحدى الحوامات إلى مركز فاندربلت الطبي في ناشفيل، حيث قام جراح قلب يدعى بيل فريست - وهو الذي كان سيصبح لاحقاً زعيم أكثرية في مجلس الشيوخ - بإجراء عملية جراحية له دامت نحو ست ساعات.

أوضح بترايوس حاجته إلى خمسة ألوية. ذلك هو ما فعله الجنرال الذي كان الرئيس موشكاً على تسميته ثانياً في القيادة، بالعراق، راي أودرنو، وهو جنرال ثلاث نجوم جدي، لامع، كان سيتولى تنفيذ الاستراتيجية الجديدة. وكان سينضم إلى بترايوس وأودرنو في العراق سفير جديد استثنائي المواهب يدعى رايان كروكر.

في العاشر من كانون الثاني/يناير 2007، أعلن الرئيس في إحدى خطبه الموجهة إلى الأمة أنه كان عازماً على إرسال عشرين ألفاً إضافياً من الجنود - خمسة ألوية - إلى العراق، والجزء الأكبر من هذه القوة كان سيتوجه إلى بغداد. كذلك كان عاكفاً على زيادة القوات الأمريكية في الأنبار، معقل القاعدة في العراق، أربعة آلاف جندي. كانت الألوية ستنتشر تدريجياً بحيث يحل فصل الصيف قبل بلوغنا ذروة قوتنا.

قرار الرئيس كان استثنائي الشجاعة في مواجهة طبول النقد التي كنا نواجهها من خارج الإدارة. ففي 17 كانون الأول/ديسمبر 2007، كان وزير الخارجية السابق كولن باول قد قال إن أمريكا كانت "موشكة على خسارة العراق" وأن أي "طفرة زيادة لم تكن قابلة للدوام". وبعد خطاب الرئيس بأيام،

أعلن الشيخ الجمهوري تشاك هاغل الطفرة "تبديداً لقواتنا وتبديداً لثروتنا"، وأضاف الشيخ باراك أوباما أن من شأن الطفرة، طفرة زيادة القوات، أن تضاعف من تفاقم العنف الطائفي بدلاً من حله.

وبعد شروع القوات الإضافية في الوصول إلى بغداد، راح المنتقدون يعلنون أن الطفرة قد أخفقت. لعل من الأكثر قابلية للتذكر أن الشيخ هاري رايد قال في نيسان/أبريل 2007: "هذه الحرب ضاعت، وطفرة الزيادة لا تحقق شيئاً". ومع أن أعضاء من حزبه بالذات كانوا يرون أنه قد تجاوز الحدود بإعلانه هزيمة أمريكا، فقد كان ثمة، يقيناً، نوع من ليّ الأيدي على جانبي المسار، ولا سيما في صفوف أعضاء مسكونين بهاجس إعادة الانتخاب ومتوجسين من إخفاقنا في رؤية النتائج بما يكفي من السرعة.

داخل البيت الأبيض والبنتاغون، ثمة مسؤولون كبار راحوا يبحثون عن طرق لاسترضاء الكونغرس وخطب ود وسائل الإعلام المناهضة. وعلى الرغم من أن الرئيس كان قد وقع للتو أمر إحداث الطفرة، فإن بعضاً من مستشاريه كانوا قد بدؤوا سلفاً بالكلام عن إعادة، أقله، لواء واحد إلى الوطن مع حلول نهاية هذا العام. لم تكن تلك إلا توصية سياسية، على طلاق كلي مع الوضع على الأرض الذي كان سيتطلب بقاء ألوية الطفرة حتى موعد متقدم في 2008، برأي الجنرالين بترايوس وأودرنو.

صباح الثلاثاء الواقع في 22 أيار/مايو، نشرت "الواشنطن بوست" تعليقاً لديفيد أغناتيوس بعنوان: "بعد الطفرة: تقوم الإدارة بالترويج لمقاربة جديدة في العراق". اقتبس التعليق كلاماً لرسميي إدارة حول الحاجة إلى تنقيح السياسة لاجتذاب تأييد الحزبين ولأخذ واقع أن الطفرة قد لا تتمخض عن الاستقرار الذي كنا قد عقدنا الآمال عليه في الحسبان. قلقت كثيراً عندما قرأت المادة، وأثرت الموضوع مع الرئيس في المكتب البيضوي. قلت: "سيادة الرئيس، بصرف النظر عن هوية مسرِّب مثل هذه المعلومات إلى الإعلام، أراه مسيئاً إساءة بالغة إليك أنت كما إلى قواتنا على الأرض في بغداد". لا يجوز لنا أن نوحي بأن سياستنا الحربية كانت مفصلة لأغراض سياسية، مركبة لاحتواء عناصر لا لشيء إلا لأنها مرشحة لاجتذاب دعم ديمقراطي. وأضفت أن من غير الجائز أن نخذل قادتنا،

عبر الإيحاء بأن من شأن استراتيجيتهم أن تخفق حتى قبل وصول القوات إلى حيث يجب أن تصل. قلت: "علينا أن نصوّب هذا ولا سيما مع جنرالاتنا في الميدان. يجب أن يكونوا متأكدين من أنهم يتمتعون بالدعم والتأييد الكاملين من جانب الرئيس وكبار موظفيه ومن أننا لن نبادر إلى سحب أي قوات قبل استكمال إنجاز المهمة".

بعد وقت غير طويل جاء ستيف هادلي إلى مكتبي؛ دخل وأغلق الباب. أخبرني بأنه كان هو المصدر الذي استند إليه أغناتيوس، وبأنه كان قد فاتحه بتوجيه من الرئيس. جعلني ذلك أحبس أنفاسي للحظة، لكنني ما لبثت أن رأيت أن من الخير أيضاً أنني لم أكن قد عرفت. ربما كنت أقل إصراراً على الدفاع عن قضية يجب الدفاع عنها بقوة. لم نكن في وقت يحتمل الرسائل الملتبسة.

قبيل السابعة صباحاً من يوم السبت الواقع في 26 أيار/مايو 2007، استقليت طائرة سلاح الجو رقم اثنين للقيام بسفرة جوية قصيرة إلى نيويورك، حيث كنت مبرمجاً للإدلاء بملاحظات في احتفالات التخريج بالأكاديمية العسكرية الأمريكية. كانت صحف اليوم منشورة على الطاولة في حجرتي، وفيما كنت أستعرض عناوين الصفحات الأولى، تمكنت مادة بقلم ديفيد سانغر في "النيويورك تايمز" من لفت نظري. جاء في المادة: "يقال إن البيت الأبيض عاكف على بحث تقليص القوات القتالية في العراق بنسبة 50 بالمئة في الـ 2008". وبلغة موضحة أن أشخاصاً رئيسيين داخل الإدارة كانوا مصادر المعلومات الواردة في المقالة، قامت المادة ببسط خطة للإدارة متضمنة البدء بالانسحاب قبل الموعد الذي يراه القادة الميدانيون مناسباً بمدة غير قصيرة مع إحداث "تقليص كبير للمهمة التي كان الرئيس بوش قد وضعها أمام الجيش الأمريكي عندما أمره في كانون الثاني/يناير باستعادة السيطرة على بغداد وإقليم الأنبار". كانت تلك قصة كبيرة أخرى موحية بأن طفرة الزيادة في القوات - التي لم تكن ناجزة بعد - لم تكن لتنجح. كذلك كانت القصة تشير إلى أن الإدارة كانت تتراجع من جراء التعرض "لضغوط سياسية متنامية".

بعد بضع ساعات تحت سماء زرقاء موشاة ببعض السحب ساهمت في تقديم عدد من الدبلوماسيين إلى خريجي وست بوينت لعام 2007 من الطلاب

الشباب المثيري الإعجاب من المدرسة الحربية. كان شعار الدورة: "تذكر دائماً! لا تستسلم أبداً!" وجدتني حالماً بأن نكون نحن في واشنطن قادرين على الكلام بمثل هذا الوضوح.

في الثلاثين من أيار/مايو، نحو اختتام اجتماعنا الفيديوي الآمن الأسبوعي مع فريقنا في العراق، طرح الرئيس على كل من سفيرنا الجديد رايان كروكر والجنرال بترايوس سؤالاً عما إذا كانا راغبين في إضافة أي شيء قبل إغلاق الدارة. بادر الجنرال بترايوس، وكان في ذلك صاحب فضل، إلى إثارة قضية تقارير صحفية موحية بأن الإدارة كانت ترى احتمال إخفاق الطفرة وتبحث عن طرق لإعادة القوات إلى الوطن في وقت مبكر. قال بترايوس إنه ومعه الجنرال أودرنو كانا قابعين هناك في بغداد عاكفين على قراءة هذه التقارير ومحدقين أحدهما بالآخر عبر الطاولة، ومتسائلين عما كان يجري هنا في واشنطن. كان من شأن طرح موضوع القصص الإعلامية أن يكون عاصفاً، وقد فعله بترايوس بطريقة مباشرة ولكن بعيدة كلياً عن روح المجابهة. طريقة صحيحة مئة بالمئة.

كان الرئيس ضحية بعض المشورات الخائبة الصادرة عن أولئك الرسميين المطالبين بتسوية حل سياسي وسطيّ لاستراتيجيتنا العراقية. رأيت أن من شأن قضائه لبعض الوقت مع جاك كين أن يساعد. وفي يوم الخميس الواقع في 31 أيار/مايو، حين كنت مبرمجاً لتناول وجبة غدائي الأسبوعية الدورية مع الرئيس، اقترحت اصطحاب جاك، وطلبت من ستيف هادلي أن ينضم إلينا هو الآخر.

كانت سفرات جاك إلى العراق متكررة، وكان ثمة نوع من الترتيب غير الرسمي بيني وبينه يقضي بأن يعرج على مكتبي بعد العودة من أي رحلة. أردت الاطمئنان إلى تمكينه من امتلاك الفرصة المناسبة لإيصال المعلومات التي كان يرى أن على الرئيس أن يطلع عليها. وبسبب المقاومة المتمادية داخل البنتاغون والقيادة المركزية لاستراتيجية الطفرة، أردت أيضاً تمكين أفكار الجنرال بترايوس وهواجسه من الوصول إلى آخر حلقات سلسلة القيادة.

كان جاك عائداً للتو من رحلته الثانية إلى العراق بعد تولي الجنرال بترايوس لزمام الأمر، ونحن حول المائدة في غرفة طعام الرئيس الخاصة، بدأ جاك كلامه معبراً عن اعتزازه بمدى جودة نوعية قواتنا. قال إنها كانت القوة

العسكرية الأكفأ والأقدر في التاريخ، وهي راسخة الإيمان بما كانت دائبة على فعله. ومع أن من شأن قرار الرئيس القاضي بإحداث طفرة قوات أن يعني عمليات انتشار أطول مدى، وفترات بُعْد عن الأهل والوطن أوسع، ومعدلات إصابة أعلى مبدئياً، فإن الإحساس بالواجب والالتزام والكفاءة الخالصة بين صفوف القوات كان ممتازاً.

قال جاك إن العدو كان في 2006 ممسكاً بزمام المبادرة، أما الآن فنحن أصحاب الزخم والممسكون بزمام المبادرة بفضل الطفرة. أشار إلى ما كان يحصل في الأنبار بين شيوخ السنة. كانوا يشكلون فرقهم الخاصة التي باتت تعرف باسم "مواطنون محليون مهتمون" [CLCs]، ويتعاهدون مع الأمريكيين على محاربة القاعدة. أحد الأسئلة الأولى التي كان هؤلاء يطرحونها على قواتنا تمثل بالتالي: "هل أنتم هنا للبقاء هذه المرة؟" وما إن صدقوا أننا كنا سنبقى، حتى بادروا إلى القتال معنا لاستعادة الأمان والأمن إلى بلداتهم.

أفاد كين بأن الطفرة كانت تفعل فعلها، إلا أن تسريبات شبيهة بتلك المنشورة في "النيويورك تايمز" في العطلة الأسبوعية السابقة لم تكن مفيدة. بنظر القيادة العسكرية في الميدان كانت مثل هذه القصص تبدو رموزاً دالة على أن المدنيين كانوا عاكفين على التمهيد لسحب الفيش (القابس). أوضح الرئيس أن جهازه كان، ببساطة، يعمل على خيارات، يبحث عن طرق للتعامل مع المشكلة السياسية المنتصبة في وجهنا على الهيل [هناك في الكونغرس على التلة]. ولاحظ ستيف أن هناك، رغم أن الرئيس كان للتو قد فاز في معركة تمويل الحرب عبر التهديد بالفيتو، تخوفاً من احتمال نجاح الديمقراطيين في تمرير تدابير أخرى قادرة على تكبيلنا. ذلك هو السبب الكامن وراء وجوب بقائنا جاهزين مع خطة جديدة، توجه جديد.

علقت قائلاً إن من شأن الكلام عن أي "توجه جديد" أن يكون مكلفاً، له ثمنه. لا يستطيع المرء أن يقترح تغييراً في الاستراتيجية بواشنطن دون أن يترك تأثيراً على قواتنا في الميدان.

قال جاك إن ما يحرك جنرالات مثل بترايوس وأودرنو هو الواجب. لقد كلفهما الرئيس بمهمة. طلب منهما أن يحدثا طفرة، وأن يوسعا الانتشار، وأن

يلحقا الهزيمة بالمتمردين. ذانك الجنرالان يؤديان تلك المهمة انطلاقاً من الشعور بالواجب. وقد يسمعان الآن من أشخاص هنا في واشنطن، أشخاص لا تحلو لهم السياسة أو الخطة، وقد يسمعان انتقادات وشكوكاً من أعضاء كونغرس زائرين. غير أنه كان من المهم بشكل استثنائي ألا يسمعا ذلك من قادتهما المدنيين. أكد جاك أهمية بقاء سلسلة القيادة محكمة الحبك وسائرة قدماً على طريق إنجاز المهمة. ثم أضاف إن قواتنا في ميادين القتال لم تكن لتتأثر كثيراً بالكلام عن "خطة ب"، إلا أن من شأن الأمر، بالنسبة إلى كبار قادتنا، أن يكون مزعجاً إذا أدى إلى جعلهم يظنون أن القيادة المدنية فقدت الثقة بالمهمة.

بعد أسبوع واحد أعلن الوزير غيتس عن سحب ترشيح بيت بيس لفترة ثانية في رئاسة هيئة الأركان المشتركة. ترشيحه الذي كان ينبغي أن يكون روتينياً، جرى سحبه بعد أن طلب الوزير غيتس من الرئيس الديمقراطي للجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، كارل ليفن الميتشيغاني، استطلاع آراء شيوخ ديمقراطيين آخرين وإعلامه عن الموقف من الترشيح. ومن غير المستغرب أن ليفن رد قائلاً إن جلسات استماع التثبيت ستكون متركزة على السنوات الأربع الأخيرة من الحرب. قرر غيتس سحب الترشيح بدلاً من الدخول في حرب. وحين وقع اختياره على الأدميرال مايك مولن ليكون الرئيس التالي لهيئة الأركان المشتركة، فإن الأمر كان يعني أن على غيتس أن يزيح جانباً اختيار الأدميرال إد غيامباستياني لمنصب نائب الرئيس، لأن شغل ذينك المنصبين لم يكن مناسباً من قبل فردين من السلاح نفسه. لذا فإن قرار غيتس القاضي بعدم خوض معركة دفاعاً عن بيت بيس ما لبث أن تمخض عن فقدان الضابطين الرائعين اللذين كانا قد خدما الأمة بشرف وأمانة خلال زمن الحرب. يا لها من ضرورة بائسة!

في واحدة من زياراتي الأولى لمستشفى والتر ريد لقضاء بعض الوقت مع مقاتلينا، كنت قد دعوت بيت بيس إلى مرافقتي. قضينا أحد الصباحات معاً منتقلين من غرفة إلى أخرى، وكان ثمة جسر عاطفي بين بيت وأولئك الجنود والمارينز الشباب، جسر لم يسبق لي قط أن رأيت مثله عند أي ضابط كبير

آخر. ارتباطه مع هؤلاء الشباب إضافة إلى ما يكنه لهم من إعجاب واحترام هائلين كانت جميعاً ـ الارتباط، والإعجاب، والاحترام ـ بالغة العمق والصدق وقد استعادها أضعافاً.

كنت قد التقيت الأدميرال غيامباستياني للمرة الأولى عندما كنت عضواً في لجنة استخبارات المجلس وكان هو قائد غواصة مهماً. كان إد استثنائي الذكاء ومتطرف النجاح على صعيد التعامل مع القيادة المدنية والعسكرية في البنتاغون قد نجح عبر حياة عملية زاخرة بالنجاح في الحفاظ على قدر شديد الواقعية من التواضع. أصاب غيتس كبد الحقيقة في حفل وداع الأدميرال غيامباستياني حين علق قائلاً إن إد كان قد اجترح فناً من المزاوجة بين التميز والتواضع.

ليتني استطعت القتال للحفاظ على الصفتين!

كنت على متن طائرة سلاح الجو رقم اثنين متوجهاً جواً إلى واشنطن يوم الأحد الواقع في 8 تموز/يوليو، عندما تلقيت مكالمة من ستيف هادلي. كان الرئيس قد استدعى ستيف إلى واشنطن من إجازة عائلية حسب رواية ستيف. وقد أفاد أنه مع كل من دان بارتلت، وإد غلّسبي، وكارل روف، وجوش بولتن، كانوا قد عقدوا سلسلة اجتماعات بطلب من الرئيس لمحاولة اجتراح تغيير في الاستراتيجية لتهدئة المعارضة المتنامية على الهيل (في البرلمان). كنت في وايومنغ بمناسبة عيد الرابع من تموز/يوليو [عيد الاستقلال الأمريكي] فيما كانت الاجتماعات متواصلة، ولكنني لست واثقاً من أنني كنت سأُدعى إليها ولو كنت في المدينة، لأنني كنت شديد المعارضة لإدخال أي تعديلات تشذيبية تخفيفية على الطفرة من أجل خطب ود الديمقراطيين. لم يكن هذا هو الوقت غير المناسب بالمطلق للإيحاء بأننا كنا مترددين ومتأرجحين وحسب؛ بل كانت هذه سياسة خائبة، لعبة سياسية بائسة. في محاولة منا لاسترضاء الخصوم، كنا سنستعدي المؤيدين الداعمين المتفهمين للرهانات واستبعادهم، مع أن شراء قلوب الديمقراطيين كان، في آخر المطاف، متعذراً. بكل بساطة، كانوا سيطالبون بالمزيد من الانسحابات.

صباح اليوم التالي، التقطت نسختي من "النيويورك تايمز" لأجد في

الصفحة الأولى قصة أخرى بقلم ديفيد سانغر، معنونة هذه المرة بعبارة: "في البيت الأبيض: تصاعد السجال حول الانسحاب من العراق". بدأت المقالة بالقول إن "موظفي البيت الأبيض يخافون من تعرض الركائز الأخيرة للدعم السياسي بين جمهوريي مجلس الشيوخ لاستراتيجية الرئيس بوش للتداعي والانهيار من حولهم". ثم تحدثت عن أن بعض المعاونين باتوا الآن ينصحون الرئيس بـ "إعلان خطط لمهمة محددة بقدر أكبر بكثير من الضيق للقوات الأمريكية بما يفضي إلى إتاحة الفرصة لنوع من الانسحاب الممرحل، مع أن الرئيس وحاشيته كانوا ذات يوم يرون أن من شأن القرارات حول الطفرة أن تنتظر إلى ما بعد قيام الجنرال بترايوس والسفير كروكر بوضع تقرير منتصف أيلول/سبتمبر حول مدى نجاح الاستراتيجية وفاعليتها.

وفيما كنا جالسين في المكتب البيضوي بعد بضع ساعات بانتظار جلسة الاتصالات اليومية، لم يبادر أحد إلى تحدي مضمون المادة، على الرغم من وجود تخمينات حول هوية المسرِّب. طرحت فكرة أن الفريق كان يقع في خطأ سوء فهم موقف الكونغرس. لم أكن أرى الوضع كئيباً كما كانوا يرونه. عدت إلى مكتبي واتصلت مع ترنت لوت، كرباج (نائب زعيم الأقلية) الجمهوريين في مجلس الشيوخ، الذي لم يكن متشائماً على الإطلاق. عبر لوت عن اقتناعه بأن الصحافة دأبت على المبالغة في تضخيم الصدع الحاصل بين الجمهوريين والرئيس. لم يكن الوضع قريباً من الإنذار بكارثة كما صورته "النيويورك تايمز". ثم قال إنه كان بحاجة إلى القيام بإحصاء كرباج رسمي قبل موافاتي بجواب ثابت وسليم عن سؤال عدد الجمهوريين الذين كنا نستطيع التعويل عليهم في أي تصويت على الحرب في العراق. أفادني بأنه كان سينصب الأفخاخ ثم يعود إلي.

بعد ظهر ذلك اليوم، فيما كانت مناقشات البيت الأبيض للاستراتيجية متواصلة، عدت ثانية إلى طرح فكرة أن من شأن المساومة والبحث عن نوع من الحلول الوسط الآن، قبل أن تُتاح لبترايوس فرصة رفع تقريره، أن يكونا من ضروب الحماقة. بكل بساطة، كان الديمقراطيون سيضعون كل التنازلات التي نقدمها في رصيدهم وسيسارعون بعد ذلك إلى المطالبة بالمزيد.

كذلك حظيت بزيارة ممتعة ومثيرة للاهتمام من هنري كيسنجر في ذلك اليوم. أفادني كيسنجر بأن اثنين من الشيوخ الجمهوريين كانا قد عادا إليه وسألاه عما إذا كان سيتخذ موقفاً علنياً من العراق، موقفاً مغايراً لموقف البيت الأبيض، لإعطاء الجمهوريين شيئاً يذيلونه بتواقيعهم. قال إنهما كانا قد قالا له إن نحو عشرة من الشيوخ الجمهوريين كانوا جاهزين لاحتضان موقف جديد شرط أن يكون مختلفاً عن رأي البيت الأبيض ويحظى بتأييد هنري. كان هنري قد رفض الفكرة من أساسها، وبقي مصراً على تأييد سياسة الرئيس.

في اليوم التالي، الثلاثاء الواقع في 10 تموز/يوليو، 2007، حضرت غداء لجنة السياسة الجمهورية الأسبوعي في مجلس الشيوخ، وكان العراق هو موضوع الكلام. كان جون ماكين عائداً للتو من العراق وقدم مداخلة ممتازة عن سبب كوننا على الخط الصحيح وعن مدى أهمية الثبات على هذا الخط. حين أنهى كلامه طُلب مني أن أعلق ببضع كلمات. ممارستي المألوفة كانت الاكتفاء بالاستماع في وجبات الغداء هذه، ولكنني قررت أن أتكلم نظراً لضخامة الرهانات على السجال حول حرب العراق والإشارات الدالة على وجود نوع من عدم الرضا بين صفوف الشيوخ الجمهوريين. رددتُ صدى تقويم جون القائم على وجوب الاستمرار في دعم بترايوس. تحدثتُ عن عواقب الإخفاق بالنسبة إلى الولايات المتحدة كما بالنسبة إلى حلفائنا وعن تكاليف أي انسحاب أو تراجع هروبي قبل الأوان، كذلك كررتُ تأكيد نقطة أننا لا نستطيع، بضمير مرتاح، أن نساوم على ما نحن متأكدون من أنها سياسة صحيحة لمجرد التعرض لضغوط سياسية.

في ذلك المساء، قمنا، لين وأنا، باستضافة عدد من الشيوخ الجمهوريين الأساسيين على العشاء في مقر إقامة نائب الرئيس. ترنت وتريسيا لوت كانا موجودين، وسحبني ترنت جانباً. كان قد نَفَّذ إحصاءه الكرباجي وقال: "ستكون على ما يرام من حيث الأصوات. أظن أننا نستطيع كسبهم جميعاً". توجس من احتمال خسراننا سبعة أو ثمانية أصوات جمهورية، ولكنه لم يستطع أن يرى الديمقراطيين حاصلين على الأصوات الستين المطلوبة لقطع الطريق على أي قرصان يحاول السطو على هذا التدبير أو ذاك الذي يمكنهم أن يطرحوه لتكبيلنا أو تغيير استراتيجيتنا.

ومع انتهاء العشاء، مشى زعيم الأقلية الجمهورية ميتش ماكّونيل باتجاهي. وميتش هذا كان أحد أكثر الجمهوريين إحساساً بالقلق. كان يستعد لإعادة الانتخاب كما كان قد أخبر الرئيس بحاجته إلى بدء نوع من الانسحاب لتجنب التمرد الجماعي من جانب شيوخ جمهوريين. قال ماكّونيل: "اسمع يا ديك! ربما كنتُ مخطئاً. قل للرئيس بأن من المحتمل بقوة أن نكسب هذه الأصوات والحفاظ على الشيوخ الجمهوريين خلال شهر تموز/يوليو". وكان من شأن ذلك أن يوصلنا إلى عطلة آب/أغسطس ثم إلى أيلول/سبتمبر حيث من المبرمج لديفيد بترايوس ورايان كروكر أن يدليا بشهادتيهما. ذلك هو كل ما كنا بحاجة إليه.

شهادتا الرجلين: السفير كروكر والجنرال بترايوس أمام الكونغرس استغرقتا ست عشرة أو سبع عشرة ساعة يومي العاشر والحادي عشر من أيلول/سبتمبر، 2007. أنجزا مأثرة هائلة، مقدِّمين تقويماً صادقاً، دون أي تجميل أو تزيين، عن الوضع في العراق. تحليا بقدر ملحوظ من المهنية والكفاءة في مواجهة بعض الهجمات الحزبية الكثيفة، لا سيما من جانب شيوخ كانوا يشمرون عن سواعدهم لدخول سباق الترشيح الرئاسي الديمقراطي.

وبعد بضع ليال، فيما كان الرئيس يتأهب لمخاطبة الأمة لتلخيص التقدم الذي كان بترايوس وكروكر قد قدما تقريراً عنه، وجدتُني مرة أخرى متدخلاً في عملية صوغ نص الخطاب. على الرغم من أن استراتيجية الرئيس القائمة على طفرة الزيادة كانت نوعاً من نفض اليد من تقرير بيكر - هاملتون، فإن ستيف هادلي كان قد أقحم إشارة إلى الفريق في الخطاب. وأنا متأكد من أن ستيف كان يرى أنه كان يعمل لاجتراح نوع من الإجماع، ولكن مسعاه لم يكن ينطوي على أي معنى. قلت: "سيادة الرئيس، لا تستطيع التنويه ببيكر - هاملتون. عنوان استراتيجيتنا هو: بترايوس - كروكر، لا بيكر - هاملتون". وافقني وشطب التنويه.

نظراً للمعارضة التي أبداها سياسيون من جهة والجمهور من جهة ثانية ضد إرسال المزيد من القوات إلى العراق، كان جورج بوش جريئاً حقاً حين أمر باعتماد استراتيجية جديدة وبإحداث طفرة في القوات لتنفيذها. جاءت الأشهر العشرة التالية لتصادق على صواب قراره. نجحت قواتنا، جنباً إلى جنب مع العراقيين، في إلحاق الهزيمة بالعصيان المسلح، وفي إنزال ضربة قاسية

بالقاعدة، وفي خلق بيئة آمنة تمكّن العملية السياسية العراقية من الشروع في الترسخ. وحين ينظر المؤرخون إلى الخلف، فإنهم سيرون قرار جورج بوش شامخاً ومتألقاً بوصفه قراراً أحدث تغييراً بالنسبة إلى الملايين وأدى إلى وضع التاريخ على سكة أفضل.

حين أعود بالذاكرة إلى الخلف، إلى السبب الذي جعل الطفرة تحقق مثل هذا النجاح، أكتشف أن الفضل الأول في هذا النجاح يعود إلى قواتنا في الميدان، إلى عسكريينا في الجيش الأمريكي من الرجال والنساء، الذين ضحى بعضهم بأرواحهم في سبيل تأمين هذا الانتصار لأمتنا. فالعقداء الذين تولوا قيادة هذه القوات وكانوا بين أوائل من أدركوا مدى أهمية محاربة التمرد، جديرون بقدر هائل من الثناء، مثلهم مثل الجنرالات الذين قادوهم إضافة إلى دبلوماسي أمريكي هائل الدهاء. كان الجنرال ديفيد بترايوس الاستراتيجي الرؤيوي الحصيف. متمكناً من ناحية المعرفة على صعيد عقيدة مكافحة التمرد المسلح، تولى القيادة في واحدة من أحلك فترات العراق وقلب الأمور رأساً على عقب من جراء تصميمه على الانتصار. أما الجنرال راي أودرنو، قائد الفيلق المتعدد الجنسيات في العراق تحت قيادة بترايوس، فتبنى العقيدة البترايوسية وأضفى عليها الصفة العملياتية. ظل دائباً على تصميم وقيادة سلسلة متزامنة ومتواصلة من العمليات الهجومية التي حرمت العدو من أي مكان يختبئ فيه. وقد كان الجنرالان بترايوس وأودرنو متمتعين بدعم لا يُقدَّر له ثمن من جراء العمل الذي لم يكن يعرف معنى التعب للسفير رايان كروكر، سفير الولايات المتحدة في العراق بين عامي 2007 و2009. ما كانت الطفرة لتنجح لولا جهود كروكر التاريخية التي نجحت في المزاوجة بين الاستراتيجيتين الدبلوماسية والعسكرية وفي التعاون مع الحكومة العراقية لاجتراح علاقة جديدة بين أمتين سيدتين.

أخيراً، لم يكن ما أنجزناه في العراق ليغدو ممكناً لولا عمل الجنرال ستان ماكريستال وجهود قوات العمليات الخاصة في أمريكا. فما تحلى به هؤلاء من مهارة وشجاعة زاد من خطر أن يكون المرء قائداً للقاعدة في العراق على نحو مطرد. فقوات العمليات الخاصة الأمريكية هي بين القوات المقاتلة الأكثر إقداماً

التي سبق للعالم أن عرفها في أي من الأزمان، وقد شرفني أن أنضم إلى بعض أفرادها في حفل عشاء عام 2008. فراعي أبرشية هذه القوات، وهو شاب من وايومنغ، قال ما يلي في صلاته الابتهالية:

> *نحن، أيها الرب جنود احترفوا التصويب. ليت عالمنا يهتدي إلى سلطة الإيمان! ليت أمتنا تدرك مدى قوة الخدمة القائمة على نكران الذات! وليت أعداءنا يستمرون في استساغة القوة التي لا مهرب منها للحرية!*

لست على علم بمثال أعظم لآية الخدمة القائمة على نكران الذات من قوات العمليات الخاصة الأمريكية. ذات يوم، حين ستغدو كتابة التاريخ الكامل لهذه الفترة ممكنة، سوف يقف جميع الأمريكيين على مآثر مساهمات هذه القوات في قضية الدفاع عن حريتنا وعن نمط حياتنا.

الفصل الخامس عشر

النكسة

في خريف 2006، فيما العنف بالعراق كان لا يزال متصاعداً، أقدمت كوريا الشمالية على إجراء تجربتها النووية الأولى، مفجرة قنبلة في موقع تجارب بونغيه، على بعد نحو مئتين وأربعين ميلاً شمال - شرق بيونغيانغ. عندما تم تحري الانفجار كان الوقت مساء يوم الأحد، 8 تشرين الأول/أكتوبر، في واشنطن العاصمة. صباح اليوم التالي وقف الرئيس بوش أمام الكاميرات في غرفة الاستقبال الدبلوماسية لشجب التجربة وإطلاق تحذير قائلاً:

> *يبقى النظام الكوري الشمالي أحد الرواد العالميين على صعيد نشر تكنولوجيا الصواريخ، بما في ذلك نقلها إلى إيران وسورية. ونقل الأسلحة أو المواد النووية من كوريا الشمالية إلى دول أو كيانات غير دولتية سيُعد تهديداً خطيراً للولايات المتحدة، وسنرى كوريا الشمالية مسؤولة مسؤولية كاملة عن عواقب مثل هذه الفعلة.*

وبعد ستة أشهر وصلتنا تقارير استخباراتية عن أن تهديداً كهذا قد تجسد مادياً على الأرض. وقد أُطلعت على تفاصيل الأمر ذات عصر في منتصف نيسان/أبريل 2007، بمكتب ستيف هادلي، مستشار الأمن القومي. كنت جالساً على أحد كراسي جناح ستيف الأزرق الكبير وكان هو على يساري. رسميان إسرائيليان كانا على الأريكة إلى يميني. سحب مائير داغان، مدير الموساد (جهاز

الاستخبارات الإسرائيلي)، حزمة مواد من حقيبته ونشرها على طاولة القهوة أمامنا. وعلى امتداد الساعة التالية انشغل داغان بعرض سلسلة من الصور لمبنى في الصحراء السورية بمكان يُدعى الكبر. كانت تلك صور مفاعل نووي.

ثمة صور إضافية، كانت المجموعة الاستخباراتية ستنشرها على الملأ لاحقاً، أظهرت أجزاء رئيسية لمفاعل قيد البناء، وفتحات أنابيب عمودية في الأعلى لقضبان التحكم وإعادة التزويد بالوقود، ووعاء مفاعل خرساني مسلح ذا بطانة فولاذية. صور الأقمار الصناعية بينت أنابيب جر الماء من الفرات لعملية التبريد. كان السوريون قد حاولوا إخفاء ما كانوا يفعلونه، فأقاموا المنشأة في أحد الوديان، مما جعلها غير مرئية من الأرض، وبنوا جدراناً غير ضرورية وسقوفاً زائفة كي لا يتضح غرض المنشأة من الجو. ولكن الاستخبارات الإسرائيلية كانت تعرف حقيقة الأمر: ثمة كان مفاعل نووي مبرّد بالغاز، ومعدل بالغرافيت.

جاءت مفاتيح مهمة لحل لغز الغرض المطلوب من المفاعل مما لم تكشفه الصور. لم يكن ثمة أي خطوط طاقة خارجة من المنشأة، ولا أي مرافق تحويل لا بد من وجودها لو كان الهدف هو توليد الكهرباء. لم تكن المنشأة قريبة من أي شبكة لنقل الطاقة.

ما كان الإسرائيليون، وأجهزة استخباراتنا نحن لاحقاً، قد شاهدوه شبيه بشكل مدهش بالمفاعل الكوري الشمالي الموجود في موقع يونغبيون، على مسافة ستين ميلاً شمال بيونغيانغ، الذي كان الكوريون الشماليون يستخدمونه لإنتاج البلوتونيوم اللازم لصنع الأسلحة النووية. كان المفاعل السوري مشابهاً من ناحيتي الحجم والطاقة. وجنباً إلى جنب كانت الصور تبين الأنابيب العمودية في المفاعل السوري مرتبة على نحو مذهل الشبه بنظيرتها في يونغبيون. وواقع كون الكوريين الشماليين هم الوحيدين الذين كانوا قد بنوا مثل هذا المفاعل المبرد بالغاز، والمعدل بالغرافيت، خلال السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة، كان يشير إليهم بوصفهم مصدر ما كان السوريون عاكفين على إنشائه في الصحراء.

وفقاً لأحد البيانات الوجيزة الصادرة عن أحد كبار مسؤولي الاستخبارات الأمريكية، من شأن "التعاون النووي المستدام بين كوريا الشمالية وسورية أن

يكون قد بدأ في وقت مبكر يعود إلى عام 1997". كانت ثمة سلسلة زيارات قام بها مسؤولون كوريون شماليون كبار من يونغبيون إلى سورية قبل البدء بالبناء في الكبر عام 2001، إضافة إلى اتصالات لاحقة، حسب إفادة المجموعة الاستخباراتية. وفي إيجاز جرى توفيره للإعلام يوم 24 نيسان/أبريل 2008، شرح مسؤول استخباراتي أمريكي كبير الوضع قائلاً:

> *في 2002، كان موظفون كوريون شماليون يعكفون على تدبر معدات لأحد المواقع السرية في سورية. وفي العام نفسه، حاولت كوريا الشمالية اجتراح أحد مكونات مفاعل مبرد بالغاز نظن أنه كان مخصصاً للموقع السوري. ثمة منظمة نووية كورية شمالية ورسميون سوريون منخرطون في البرنامج النووي السري تحدثت التقارير عن تورطهم في عملية شحن من كوريا الشمالية ربما إلى الكبر في 2006.*

وعلى امتداد عدد غير قليل من السنوات الأخيرة كنت قد أُطلعت على تقارير استخباراتية عن موظفين ذوي علاقة ببرنامج كوريا الشمالية النووي ممن تكررت زياراتهم لدمشق، وكنت قد طرحت أسئلة. هل يتعاون الكوريون الشماليون والسوريون في مجال التكنولوجيا النووية؟ نحن على علم بأن الكوريين الشماليين يساعدون السوريين في ميدان تكنولوجيا الصواريخ البالستية. كيف نستطيع أن نعرف ما إذا لم يكونوا يقدمون مساعدة نووية أيضاً؟ كنا نعتقد أن الكوريين الشماليين قدموا هيكسافلورايد اليورانيوم، الذي هو عنصر أساسي يمكن استخراج اليورانيوم المخصب منه، إلى الليبيين أيضاً. فما المانع من أن يفعلوا الشيء نفسه مع السوريين؟

بقيت الأجوبة التي حصلت عليها غير نهائية. ظللت أسمع أن ليس ثمة "أي دليل" على وجود تعاون نووي. مصغياً إلى داغان وهو يسرد قصة المفاعل في الكبر في ذلك العصر من نيسان/أبريل في الجناح الغربي، أدركت أن ليس ثمة أي غياب لأدلة، بل هناك أدلة دامغة جداً بالفعل[71].

إضافة إلى المعلومات عن المنشأة، كانت هناك أيضاً صور لبعض الأشخاص المنخرطين. ثمة صورة ملتقطة في سورية بينت رجلاً مسؤولاً عن

منشأة تصنيع وقود المفاعلات النووية في يونغبيون الكورية الشمالية واقفاً بجانب رئيس هيئة الطاقة الذرية السورية. وهناك صورة أخرى ظهر فيها الموظف الكوري الشمالي نفسه في وفد بلده إلى المحادثات السداسية الأطراف ـ تلك التي أطلقناها في 2003 بوصفها محاولة تعددية لدفع الكوريين الشماليين إلى التخلي عن برنامجهم النووي. من الملفت حقاً ـ حتى بالنسبة إلى الكوريين الشماليين ـ أن يكون أحد أعضاء الفريق الكوري الشمالي المفاوض مشغولاً، إذا لم يكن على طاولة المفاوضات، بنشر التكنولوجيا النووية في سورية.

أدى اكتشاف المفاعل إلى إيقاد نار سجال سياسي وتخطيطي معمق داخل البيت الأبيض حول ما ينبغي لردنا أن يتخذه من صيغة. كان الإسرائيليون يطلبون أن نشن غارة ندمر فيها المنشأة، فكرة كنت مؤيداً لها. كنت مؤمناً بأن من شأن ضربة عسكرية أمريكية موجهة إلى المفاعل أن تبعث برسالة مهمة لا إلى السوريين والكوريين الشماليين وحسب، بل وإلى الإيرانيين الذين كنا دائبين على السعي للتوصل معهم إلى اتفاق دبلوماسي يضع حداً لبرنامجهم النووي. فتوجيه ضربة أمريكية إلى المفاعل السوري كان سيبين أننا جادون حين نطلق التحذيرات ـ وقد دأبنا على فعل ذلك لسنوات ـ ضد انتشار ونشر التكنولوجيا النووية إلى هذين البلدين. كانت المنشأة السورية معزولة عن أي مركز سكاني مدني، كما كان هدفاً واضحاً مميزاً في الصحراء [البادية] الشرقية. من المؤكد أننا كنا متوفرين على القدرة على إزالتها بسهولة، وكان من شأن ذلك أن يقطع شوطاً طويلاً على طريق تذكير خصومنا بأننا لسنا مستعدين، كما كان الرئيس قد قال: "لأن نتيح لأخطر أنظمة الحكم في العالم فرصة تهديدنا بأكثر الأسلحة تدميراً". كنت مؤمناً بأن من شأن دبلوماسيتنا أن تمتلك فرصاً أوفر بما لا يقاس على صعيد التحلي بالفعالية إذا ما تم إفهام الكوريين الشماليين والإيرانيين أنهم في مواجهة احتمال عمل عسكري إذا ما أخفقت الدبلوماسية.

أكثر نقاشاتنا حول مفاعل الكبر تمت في الاجتماعات الأسبوعية للفريق الصغير التي كان ستيف هادلي قد بدأ يستضيفها في مكتبه خلال الفترة الثانية. كانت الجلسات شبيهة بوجبات الفطور الأسبوعية التي كان برنت سكوكروفت يستضيفها حين كان مستشار الرئيس جورج أتش دبليو بوش للأمن القومي مع

وزير الخارجية جيم بيكر ومعي أيضاً. أما جلسات هادلي فكانت أوسع، مع حضور كل من رئيس هيئة الأركان المشتركة، ومدير الاستخبارات الوطنية ـ القومية، ورئيس السي آي إيه، إضافة إلى الوزيرين رايس وغيتس، وهادلي، وأنا. كنا نجتمع من دون الموظفين الإداريين ونعقد بعض أفضل المناقشات السياسية لأيامنا في المنصب. كنا نتداول الأفكار ونتحاور دون الخوف من احتمال تسرب مداولاتنا، كما كان يحصل أحياناً عند وجود آخرين في الغرفة.

في أحد اجتماعات مكتب هادلي في ربيع 2007، بادر معارضو أي عمل عسكري، لدى انشغالنا بمناقشة خيارات ردٍّ ما على اكتشاف المفاعل السوري، إلى التعبير عن الرأي الذي يقول إن من شأن أي ضربة أمريكية أو إسرائيلية أن تتمخض عن حرب إقليمية أوسع. في الوقت نفسه، كان هناك قلق إزاء احتمال إقدام السوريين على أعمال انتقامية ضد القوات الأمريكية في العراق. حسب وجهة نظري أنا لم يكن ثمة أي أساس متين لهذه الهواجس. كنت مؤمناً بأن أخطار السماح للمشروع النووي الكوري الشمالي ـ السوري بالسير قدماً كانت أكبر بكثير من احتمال حصول نزاع أوسع. لعل أسوأ الحصائل كانت تلك المتمثلة بتمكين السوريين من أن يصبحوا قوة نووية من جراء الامتناع عن التحرك.

جزء كبير من نقاشنا تركز على المعلومات الاستخباراتية البائسة التي كنا قد تلقيناها عن مخزونات العراق من أسلحة الدمار الشامل. تلك التجربة جعلت بعض كبار صانعي القرار السياسي شديدي التردد إزاء اعتماد خيارات صارمة على صعيد التعامل مع المنشأة السورية. وجدت ذلك مؤسفاً. في هذا المثال لم يكن ثمة أي شك حول ما كنا نشاهده في البادية السورية، بالاستناد إلى معلومات آتية من الإسرائيليين وصادرة الآن عن أجهزتنا الاستخباراتية، أنه كان مفاعلاً نووياً سرياً، يتم إنشاؤه من قبل دولتين خطيرتين.

عدت بالذاكرة إلى تاريخ الحرب العالمية الثانية. كانت الاستخبارات الأمريكية قد أخفقت في التكهن بالهجوم الياباني المباغت على بيرل هاربور في 1941. بعد بضعة أشهر، حين تلقى الأدميرال تشستر نيميتز، قائد أسطول المحيط الهادي، معلومات استخباراتية عن توجه الأسطول الياباني نحو ميدواي،

تحرك دون تردد. كان بوسعه أن يسأل عن دقة المعلومات الاستخباراتية أو أن يتجاهلها، استناداً إلى الخطأ الحاصل في بيرل هاربور، ولكنه لم يفعل. سارع إلى إرسال ما كان متبقياً من أسطول المحيط الهادي الأمريكي لاعتراض اليابانيين، فأغرق أربعة من حاملاتهم الجبهوية، وعكس اتجاه مسار الحرب في المحيط الهادي. لو رفض الأدميرال نيميتز أن يتحرك من منطلق التحذيرات الاستخباراتية في أعقاب الإخفاق الاستخباراتي في بيرل هاربور، لربما كانت محصلة الحرب في المحيط الهادي مختلفة كثيراً. كنت أخشى من أن نكون واقعين في مثل ذلك الخطأ في هذه القصة. على الرغم من أن الأدلة حول المفاعل النووي السوري كانت دامغة، فإن إخفاق المجموعة الاستخباراتية بشأن العراق كان لا يزال يفعل فعله، ويمارس تأثيره، في الأسلوب الذي نلوذ به لاتخاذ القرار.

في غدائنا الأسبوعي الخاص بتاريخ 14 حزيران/يونيو 2007، تحدثنا، رئيس الجمهورية وأنا، عن خطر الانتشار النووي. لاحظت أن ذلك كان لا يزال أكبر تحدياتنا الأمنية الطويلة الأمد. من الواضح أنه كان التهديد الأساسي المنتصب في وجه الوطن. منذ تولي المنصب كنا قد حققنا تقدماً لافتاً على صعيد وقف انتشار تكنولوجيا الأسلحة النووية إلى دول مارقة أو منظمات إرهابية. كنا قد أطحنا بصدام حسين مع التهديد الذي كان يمثله. وكانت ليبيا قد سلمت برامجها، بتشجيع، في المقام الأول، من رؤية ما حصل لصدام. وكنا قد فككنا شبكة عبد القادر خان، التي كانت منبع مراكز طرد مركزي، واليورانيوم الخام، وتصميم أسلحة لكل من ليبيا، وكوريا الشمالية، وإيران. غير أن زخم برنامج كوريا الشمالية بقي مستمراً. تقول التقديرات إن الكوريين الشماليين متوفرون على بلوتونيوم يكفي لتصنيع ستة إلى اثني عشرة رأساً نووياً، وقد أجروا تجربتهم النووية الأولى أمام أعيننا. وكانوا قد اعترفوا بامتلاك برنامج لتخصيب اليورانيوم الذي هو مسار ثان للحصول على المواد اللازمة لصنع السلاح النووي، وكانوا قد قاموا، حسب اعتقادنا، بتزويد ليبيا بعنصر أساسي في عملية التخصيب ـ مادة الهيكسافلورايد. ونحن الآن بتنا أيضاً نعرف أنهم عاكفون على إيصال التكنولوجيا النووية إلى السوريين.

كانت الصورة عن إيران أفضل. لديهم برنامج قوي قيد العمل قائم على تكنولوجيا الطرد المركزي لتخصيب اليورانيوم. أشارت التقديرات إلى احتمال امتلاكهم لثلاثة آلاف جهاز طرد مركزي قيد العمل مع حلول نهاية 2007.

كانت سورية وإيران، وكلتاهما دائبتان على تطوير قدرات نووية، اثنتين من دول العالم الرائدة على صعيد رعاية العنف ضد مصالحنا. كانت سورية ميسِّرة لتدفق المقاتلين الأجانب على العراق حيث كانوا يقتلون جنوداً أمريكيين. وكانت إيران دائبة على توفير المال والسلاح للغرض نفسه بالتحديد، إضافة إلى تزويد الطالبان في أفغانستان بالسلاح. والطرفان، كلاهما، متورطان في دعم حزب الله في مساعيه الرامية إلى تهديد إسرائيل وزعزعة استقرار الحكم اللبناني. وهما تشكلان تهديداً كبيراً لمصالح أمريكا في الشرق الأوسط.

قلت للرئيس إننا بحاجة إلى استراتيجية أفضل وأكثر عدوانية لمواجهة هذه التهديدات، وأنا مقتنع بأن من شأن تدمير المفاعل في البادية السورية أن يشكل خطوة أولى مهمة. وكان الرئيس جيد الإدراك لجملة الأخطار الماثلة أمامنا وعبّر عن رغبته في سماع المزيد من جميع مستشاريه لدى قيامه بالنظر في الخطوة التالية بشأن سورية. اجتمعنا في الغرفة البيضوية الصفراء على الطابق الثاني من البيت الأبيض في الساعة السادسة والنصف من مساء يوم السبت الواقع في 17 حزيران/يونيو 2007.

كان السؤال الأول: ما مدى نجاح الاستخبارات؟ قال مايك ماكونيل مدير الاستخبارات الوطنية المحترف جداً: "إنها بالجودة المطلوبة". ولاحظ أن لدى المجموعة الاستخباراتية "ثقة عالية" حول كوننا بصدد مفاعل نووي.

ناقشنا مسارين محتملين للرد. مسار دبلوماسي قائم على إثارة ضجة حول المفاعل، والذهاب إلى الأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية، والعمل على حشد نوع من الإجماع الدولي لإجبار السوريين على إغلاق المفاعل. كنت متشككاً. فسِجِلّ الأمم المتحدة والوكالة الدولية على صعيد إجبار الدول المارقة على التخلي عن برامجها النووية لم يكن ناصعاً، ولم يكن ثمة ما يدعوني لتصديق أن من شأن هذه المقاربة أن تنجح هنا. أما الخيار الثاني، الذي كنت مؤيداً له، فقد كان عسكرياً: أن نبادر إما نحن أو الإسرائيليون إلى إزالة المنشأة من الوجود.

بعد يومين اثنين كان رئيس وزراء إسرائيل إيهود أولمرت في العاصمة لعقد لقاءات. شاركت في غدائه مع الرئيس، حيث طلب رئيس الوزراء أن يراني على نحو منفصل أيضاً. كان نازلاً في بليرهاوس، على الضفة الأخرى من جادة بنسلفانيا مقابل البيت الأبيض، وانضممت إليه هناك على العشاء في 19 حزيران/يونيو 2007. بعد العشاء أخرجنا أعضاء الحاشيتين وعقدنا خلوة مطولة. كان شديد التركيز على كل من التهديد الذي تمثله إيران من ناحية وعلى المنشأة النووية السورية من ناحية ثانية. فوجود مفاعل نووي سري في سورية كان يشكل تهديداً وجودياً لإسرائيل، كما كان الانتشار الكامن في إنشائه تهديداً مباشراً لأمن أمريكا القومي. ألح أولمرت على وجوب قيام الولايات المتحدة بعمل عسكري لتدمير المنشأة وأوضح أن إسرائيل ستتحرك إذا لم نفعل نحن.

وفي جلسة أخرى لاحقاً في ذلك الشهر بحضور أكثرية أعضاء مجلس الأمن القومي، دافعت من جديد عن فكرة القيام بعمل عسكري أمريكي ضد المفاعل. لم يكن الأمر ليقف عند حدود جعل المنطقة والعالم أكثر أمناً، بل كان من شأنه أن يسلط الضوء على مدى جديتنا فيما يخص حظر الانتشار. كان من شأنه أن يعزز صدقيتنا في ذلك الجزء من العالم بما يعيدنا إلى حيث كنا في 2003، بعد قيامنا بالإجهاز على الطالبان، والإطاحة بنظام صدام، ودفع القذافي إلى تسليم برنامجه النووي، إلا أنني كنت طائراً يغرد وحده في السرب. فبعد انتهائي من الكلام سأل الرئيس: "هل ثمة أحد هنا يتفق مع نائب الرئيس؟" لم ترتفع ولو يد واحدة في الغرفة كلها. كنت قد بذلت ما استطعت بذله من جهد، وأنا لست واثقاً من أن رأي الرئيس كان سيتغير لو كان الآخرون قد أيدوني. كان قد قرر أن ينصح إسرائيل باعتماد الطرق الدبلوماسية. سأل الرئيس عن رد الإسرائيليين المحتمل على مثل ذلك القرار. عبرت الوزيرة رايس عن اقتناعها بأن الإسرائيليين سيوافقون على العرض الدبلوماسي. رأت أن رئيس الوزراء أولمرت كان سيتبنى فكرة إعلام الأمم المتحدة والسعي لحشد تحرك متعدد الأطراف لإغلاق المنشأة.

صارحتُ الرئيس قائلاً إن الإسرائيليين سيدمرون المفاعل في الكبر إذا لم نفعل نحن. فإيهود أولمرت الذي كنت قد خبرته منذ سنوات، كان يعني ما قاله

حول الإقدام على التحرك. كذلك تذكرت سنة 1981، حين تجاهل الإسرائيليون الرأي العام العالمي وشنوا غارة جوية على مفاعل الأزيرق في العراق.

في منتصف تموز/يوليو قام الرئيس بطلب رئيس الوزراء أولمرت على الهاتف لإبلاغه رغبتنا في اعتماد الطريق الدبلوماسية. شاعراً بخيبة الأمل، أجاب أولمرت قائلاً إن من شأن ذلك ألا يكون مناسباً لإسرائيل. لم يكن ليستطيع أن يضع مصير إسرائيل بين أيدي الأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية. وكان الوقت ينفد. كان لا بد من تدمير المفاعل قبل أن "يسخن"، قبل أن يتم شحنه بالوقود النووي، وإلا فإن احتمال حدوث تلوث إشعاعي ذي شأن كان وارداً.

تحت جنح الظلام، بتاريخ 6 أيلول/سبتمبر 2007، قامت طائرات إف - 15 إسرائيلية باختراق المجال الجوي السوري وفي غضون دقائق كانت فوق الهدف في الكبر. صور الأقمار الاصطناعية بينت لاحقاً أن الطيارين الإسرائيليين أصابوا هدفهم بدقة. لم تكن ثمة أي حفرة عدا عن حفرة المكان الذي كان المفاعل قائماً فوقه.

في الأيام التي أعقبت الضربة، طلبت الحكومة الإسرائيلية ألا نبوح بما كنا نعرفه عن الهدف الذي قصفوه في الصحراء [البادية]. كانوا يعتقدون بأن من شأن انطلاق مناقشات علنية واسعة النطاق عن المنشأة النووية أو واقع كون الإسرائيليين قد وجهوا الضربة، أن يجبر الرئيس السوري بشار الأسد على الرد، مطلقاً نزاعاً أوسع. غير أن الرسالة الخاصة الموجهة إلى السوريين والكوريين الشماليين كانت بالغة الوضوح: لم تكن إسرائيل مستعدة لأن تتحمل مثل هذا التهديد. اتفقنا حول الحفاظ على السرية بشأن المنشأة وعملية الإجهاز عليها في المدى القريب.

كذلك قرر الأسد أن يبقى صامتاً. ثمة وفد كوري شمالي جاء إلى سورية بعد الهجوم، ربما لتقديم النصح حول ما يجب القيام به بعد الحدث، وفيما بعد قام السوريون بهدم مبنى المفاعل، وغطوا الموقع بالأتربة، وشيّدوا بنياناً معدنياً فوقه[72].

على المدى القصير، كان من الممكن لما كان قد حدث في الصحراء أن

يبقى سراً. غير أننا جميعاً في مجلس الأمن القومي كنا نعرف الحقيقة: كان الكوريون الشماليون قد أوصلوا التكنولوجيا النووية إلى سورية، إحدى أشرس دول العالم الداعية للعنف تجاهنا. كان الكوريون الشماليون والسوريون ينتهكون بوضوح الخط الأحمر المرسوم من قبل الرئيس بوش في التاسع من تشرين الأول/أكتوبر، في أعقاب تجربة كوريا الشمالية النووية الأولى.

عند وصولنا إلى السلطة، كان لدى الكوريين الشماليين نمط راسخ من أنماط السلوك. كانوا مستعدين للاتفاق حول مواقعهم النووية، ولوضع المكاسب المترتبة عن الاتفاق في جيوبهم، وللمبادرة بعد ذلك إلى استئناف برامجهم ذات العلاقة بالأسلحة. كانوا بارعين في لعبة حافة الهاوية ـ لعبة خلق المشكلات، وتهديد الجيران، وتوقع الحصول على الرشوة مقابل العودة إلى حلبة التعاون. عادة كانت اللعبة قد بقيت ناجحة. ففي 1994، حين كان بيل كلنتون في البيت الأبيض، وافقوا على تجميد برنامجهم الخاص بإنتاج البلوتونيوم مقابل الحصول على نصف مليون طن متري من نفط الوقود سنوياً ومفاعلين من نمط لا يمكن استخدامه بسهولة لإنتاج مواد صالحة لإنتاج الأسلحة. غير أنهم اتبعوا، في السر، طريقاً أخرى. في 2002، بعد أن كان الكوريون الشماليون قد حصلوا على ملايين الأطنان المترية من نفط الوقود وبعد صيرورة العمل لبناء مفاعل الكبر جارياً على قدم وساق، ثمة وفد أمريكي واجههم بالأدلة المؤكِّدة لخداعهم، وقد اعترفوا بأنهم كانوا عاكفين على اجتراح طريقة أخرى لإنتاج أسلحة نووية ـ عن طريق تخصيب اليورانيوم.

حين أقدم الرئيس بوش عام 2003 على إطلاق مباحثات سداسية الأطراف شاملة لكل من الولايات المتحدة، وكوريا الجنوبية، واليابان، والصين، وروسيا، كان الهدف هو كسر نمط الخداع والمراوغة هذا. تمثلت الفكرة بالابتعاد عن المفاوضات الثنائية التي كانت قد أخفقت في الماضي وبالعمل على جر دول أخرى إلى دائرة العملية السياسية، دول ذات مصلحة في منع كوريا الشمالية من تطوير أسلحة نووية. كانت الصين استثنائية الأهمية لتمتعها، بوصفها شريان حياة كوريا الشمالية الاقتصادية، بنفوذ كبير على حكومة كوريا الشمالية

المعزولة. كنا نعرف أن الصينيين كانوا متوجسين من اللااستقرار الإقليمي الذي كان يمكن أن ينشأ من وجود كوريا شمالية مسلحة نووياً، نظراً لاحتمال بدء دول مثل اليابان وغيرها بالشعور بالحاجة إلى السير على الطريق نفسها.

غير أننا كنا، مع حلول عام 2006، واضحي التقهقر المنزلق إلى النمط القديم. ثمة إشارة مبكرة جاءت في آخر شهر تشرين الأول/أكتوبر، بعد ثلاثة أسابيع فقط من قيام كوريا الشمالية باختبار سلاح نووي. معاون وزير الخارجية كريستوفر هيل، الذي كان على رأس وفدنا إلى المباحثات السداسية، قرر المشاركة في لقاء خاص دام ست ساعات مع مبعوث كوري شمالي يدعى كيم غيه غوان في بكين. وكما كان هيل يعرف جيداً فإن سياسة الرئيس بوش كانت قائمة على اعتماد مقاربة إقليمية لبرامج كوريا الشمالية النووية، بما يفضي إلى ممارسة ضغط مشترك تمارسه عدة دول كي يجدي، إلا أن الكوريين الشماليين ظلوا يطالبون الولايات المتحدة بالاجتماع معهم لوحدهم، بطريقة كانت قد أثبتت أنها مجدية بالنسبة إليهم في الماضي. مخالفاً توجيهات الوزيرة رايس، أقدم هيل، عازلاً حلفاءنا الستة، على إلزام اليابانيين والكوريين الجنوبيين، بعيداً عن المفاوضات، ومقدِّماً إلى الكوريين الشماليين ما لا يمكن عده إلا مكافأة على سوء السلوك. وبعد شهرين ونصف قام معاون الوزير هيل والوفد الأمريكي، بموافقة الوزيرة رايس، بعقد لقاء ثنائي مع الوفد الكوري الشمالي في برلين. مساء السادس عشر من كانون الثاني/يناير 2007، أحيا الأمريكيون حفل عشاء فاخراً، وقدموا كميات كبيرة من المشروبات الكحولية، ورفعوا فيضاً من الأنخاب الودية. أفاد أحد أعضاء الوفد بـ "أننا أزلنا كل الحواجز لأننا أردنا أن نبين أننا جادون وصادقون"[73]. كان الكوريون الشماليون قد تجاوزوا أحد ألمع الخطوط المتلألئة - كانوا قد اختبروا سلاحا نووياً - وكنا نحن نستضيفهم على موائد ولائم فاخرة.

ما هو أسوأ كان على الطريق إذ ظل هيل ورايس يقدمان التنازل إثر التنازل إلى الكوريين الشماليين ويتعاميان عن تصرفاتهم الشنيعة. من متابعة المسار الذي كانت وزارة الخارجية تعتمده، استنتجتُ أن دبلوماسيينا كانوا قد أصبحوا أسرى الرغبة في عقد صفقة، أي صفقة، مع الكوريين الشماليين حتى

فقدوا القدرة على رؤية الهدف الحقيقي المتمثل بإجبار الشمال على التخلي عن أسلحته. إلا أنني لا أظن أن الرئيس بات، في أي وقت، غافلاً عن الهدف النهائي. سمعته غير مرة يسأل رايس وهيل عما إذا كنا حقاً على مسار يفضي إلى تجريد الشماليين من السلاح النووي. من المؤسف أن الطمأنات التي كان يحصل عليها لم تكن تعكس الواقع.

سلسلة طويلة من إخفاقاتنا الدبلوماسية كانت ستتكرر على أساس خطة عمل وافق عليها أطراف المباحثات السداسية في شباط/فبراير 2007. نصت الخطة على مبادرة الكوريين الشماليين إلى وقف العمليات في يونغبيون واستقبال مفتشي الأمم المتحدة في غضون ستة أيام مقابل خمسين ألف طن من نفط الوقود. كانت كوريا الشمالية ستقدم بعد ذلك بياناً كاملاً عن جميع برامجها النووية، وستعطل مرافقها الموجودة، وستحصل بالمقابل على 950 ألف طن من نفط الوقود. كانت الولايات المتحدة ستبدأ أيضاً بشطب كوريا الشمالية من قائمة الدول الراعية للإرهاب وبإلغاء العقوبات المفروضة بموجب قانون الإتجار مع العدو.

في الاجتماع الثاني لمباحثات الأطراف الستة، في آذار/مارس 2007، لعب الكوريون الشماليون اللعبة نفسها التي كان قد سبق لهم أن كرروا لعبها كثيراً بقدر كبير من النجاح. خرجوا من دائرة المباحثات ورفضوا استئناف المشاركة ما لم يتم الإفراج عن الرصيد الكوري الشمالي البالغ 25 مليوناً من الدولارات المجمد في أحد بنوك ماكاو. كان المبلغ قد جُمِّد في أيلول/سبتمبر 2005، حين اتهمت وزارة الخزانة الأمريكية مصرف بانكو دلتا آسيا بأنه "إحدى مؤسسات غسيل الأموال الأولى"، بسبب قيامه بتداول النقد الأمريكي المزوّر في كوريا الشمالية وغسيل الأموال لاستخدامها في نشاطات إجرامية كورية شمالية، بما فيها الاتجار بالمخدرات. كان التوصيف يقضي أساساً بمنع البنك من القيام بأي تعاملات دولية بالنقد الأمريكي. وكان الكوريون الشماليون يطلبون المبلغ قبل موافقتهم على المشاركة في أي مفاوضات نووية.

حضت وزارة الخارجية على تلبية الطلب وراحت تبحث عن ذرائع لضمان

إعادة الأرصدة إلى الكوريين الشماليين. إلا أن محاولاتها تعثرت وتعقدت حين سارعت بنوك دولية إلى رفض تحويل المبالغ، خشية الوقوع في شرك التعامل مع تبادل ينطوي على أرصدة محظورة. أخيراً، وافق أحد البنوك الروسية على الانخراط، وقام بنك الاحتياط الاتحادي بنيويورك بإرسال المبلغ برقياً إلى أحد الحسابات الكورية الشمالية في البنك الروسي. ومع حلول شهر حزيران/يونيو 2007، كان الكوريون الشماليون بضغطنا على البنوك ذات العلاقة، قد حصلوا على 25 مليوناً من الدولارات المحظورة بوصفها أرصدة محظورة مجمدة تم إرسالها برقياً. وبعد أن قبضوا المال قالوا إنهم سيقومون بتغطية منشأة يونغبيون - التي كان يُفترض أن يكونوا قد فعلوه قبل شهرين.

مع حلول منتصف آب/أغسطس، كنا قد علمنا منذ أربعة أشهر أن الكوريين الشماليين متورطون في إيصال التكنولوجيا النووية إلى السوريين. وعلى الرغم من ثقتي بأن الإسرائيليين كانوا سيجهزون على المنشأة، فإن شيئاً لم يكن قد حصل بعد، كما لم نكن قد خرجنا بأي استراتيجية ناجحة لتفعيل المعرفة الموجودة بحوزتنا عن مفاعل الكبر. تمثلت مقاربة الوزيرة رايس بعدم التركيز على وجود المفاعل حرصاً على المباحثات السداسية. وعلى الرغم من أن المفاعل ظل يسخر من المباحثات ويجعل منها أضحوكة حتى ذلك التاريخ، فإن منطقها كان يقول إن من شأن المزيد من المباحثات أن يتعرض للتعطيل إذا ما أصبحت المنشأة السورية معروفة للملأ. كان الرئيس سيسافر عما قريب إلى أستراليا لحضور اجتماعات التعاون الاقتصادي الآسيوي - الباسيفيكي السنوية، حيث كان سيقابل الرئيس الصيني هو جينتاو، فرجوته أن يطرح موضوع المفاعل الكوري الشمالي - السوري في حديث من القلب إلى القلب. كان الصينيون قادرين على ممارسة قدر أكبر من الضغط الذي مارسوه حتى الآن، وكان من شأن إطلاعهم على النتائج المحتملة للإخفاق في وقف البرنامج النووي الكوري الشمالي أن يحفزهم. غير أن الرئيس لم يقتنع.

كان يُفترض في الكوريين الشماليين تقديم بيان كامل عن سائر نشاطاتهم النووية مع حلول نهاية عام 2007، ولكنهم لم يفعلوا، ولدى بحثنا لعدم التزامهم بموعد نهائي آخر، جادلت الوزيرة رايس قائلة إن بيان كوريا الشمالية النهائي

غير ملزم بالإتيان على أي ذكر لموضوع تخصيب اليورانيوم. ومع أن الكوريين الشماليين كانوا قد اعترفوا ذات مرة بوجود برنامج كهذا ومع أننا كنا نعرف بوجوده، فإنها شددتْ على حضنا على عدم مطالبتهم بالإعلان عنه.

لم أستطع أن أرى كيف أمكن لبيان كاذب صادر عن كوريا الشمالية أن يدفع إلى الأمام عملية التدمير الكامل، القابل للمعاينة وغير القابل للارتداد لبرنامج كوريا الشمالية النووي، الذي طالما كان الهدف المعلن للإدارة البوشية. لعل العكس هو ما حصل، إذ كنا، ونحن نمنحهم فرصة التهرب من الاعتراف ببرنامج التخصيب لديهم فيما كان يُفترض أن يكون بياناً كاملاً، نساعدهم على إخفاء ما كانوا يفعلونه. ولزيادة الطين بلة، كنا نطلق وعوداً بمكافأة نفاقهم.

غير أن الوزيرة رايس بقيت مصرة على النظر إلى بيان كوري شمالي متعلق فقط ببرنامج البلوتونيوم عندهم بوصفه "خطوة أولى". قالت أن ليس ثمة ما يدعو إلى القلق بشأن برنامجهم الخاص بتخصيب اليورانيوم، لأن النظير الكوري الشمالي كان، في حديث جانبي مع كريس هيل، قد اعترف بهذا البرنامج. لم يكن ثمة أي محضر رسمي لهذا الحديث، ولكن مجرد أنه كان قد جرى كان يعني، برأي الوزيرة، أن لا شيء يلزم الكوريين الشماليين بإيراد برنامج تخصيب اليورانيوم في بيانهم الختامي.

يا لها من مقاربة للرقابة على التسلح! مقاربة لم يكن قد سبق لي أن خبرتها من قبل. لم يقف الأمر عند مجرد قبولنا ببيان زائف، بل كان يتجاوزه إلى افتراض أن علينا أن نطمئن لأن الطرف المقابل كان قد همس بنوع من الإقرار بزيف البيان في أذن كريس هيل. كررت الوزيرة طمأنة الرئيس راجية إياه ألا يقلق، لأن كل شيء رائع، في حين أن الأمر لم يكن كذلك.

في كانون الأول/ديسمبر 2007 لم يكن قلقي مقصوراً على وضعنا بالنسبة إلى كوريا الشمالية. كنا في مواجهة عدد من التحديات الحساسة في ميدان السياسة الخارجية في الوقت نفسه الذي كان يشهد تضاؤل قدرة الرئيس والإدارة على التصدي لها وحلها. وهذه ظاهرة طبيعية تتعرض لها أكثرية

الإدارات لدى وصولها إلى نهاية فترتها في المنصب: أي قابلية الرئيس للقيام بأشياء كبيرة تتناقص أسبوعياً تقريباً مع العام الأخير من رئاسته.

كان الإيرانيون دائبين على مواصلة جهودهم النووية، وعلى الرغم من أننا كنا حريصين على الاهتداء إلى نوع من الحل السياسي، فإن الرئيس أوضح بما لا يترك مجالاً للبس أن جميع الخيارات كانت مطروحة وأننا غير مستعدين للتسليم بوجود إيران مسلحة نووية. غير أن قائدنا في الشرق الأوسط، الأدميرال فوكس فالون كان، في غضون الأشهر القليلة الأخيرة، قد أدلى بحديث مسجل انتقد فيه ما وصفها بتعليقات "حربية" من واشنطن على أنها "غير مفيدة" وأوحى بعدم وجود أي تخطيط لأي خيار عسكري قيد الانجاز(74). ثمة دبلوماسي أجنبي يعمل في واشنطن قال لي بعد بضعة أيام: "إذا كنتم عازمين على رفع الخيار العسكري عن الطاولة، ألم يكن بوسعكم، أقله، أن تجعلوا وزيرتكم للخارجية تفعل ذلك؟" فالناس كانوا يتوقعون صدور مثل هذه البيانات عن مسؤولين كبار في القمة، وأضاف "غير أن قائد القيادة المركزية هو الذي يفعل، أمر لافت بالفعل". وفالون هذا كان سيلوذ بالاستقالة بعد إطلاق تعليقات مشابهة مرة أخرى في أوائل عام 2008.

وقبل بضعة أشهر كنت، في أثناء وجود الوزير غيتس والوزيرة رايس في زيارة إلى السعودية، قد تلقيت اتصالاً هاتفياً مذعوراً من أحد أعضاء الوفد المرافق لهما في الزيارة. من الواضح أن الوزير غيتس كان للتو قد أبلغ الملك بأن الرئيس الأمريكي سيُحاكَم إذا ما أقدم على أي عمل عسكري ضد إيران. لم يكن الرئيس قد قرر نوعية الخطوات القادمة بالنسبة إلى إيران، ولم يكن مناسباً أن يبادر مسؤولون كبار إلى الإيحاء، إما على الملأ أو مع حلفاء مهمين، بأن خياراته كانت محدودة. تعين علينا أن نقول للسعوديين إن الوزير غيتس كان يعبر عن رأيه الخاص دون أن يعكس السياسة الأمريكية. ساهمتْ تصريحات مثل تلك الصادرة عن غيتس وفالون في نزع الفتيل من زخمنا وفي إقناع الحلفاء والأعداء بتواضع جديتنا على صعيد التصدي للتهديد. وما لبث ذلك أن تمخض، بدوره، عن جعل أي حل دبلوماسي أكثر صعوبة.

في الثالث من كانون الأول 2007، أقدم مدير الاستخبارات الوطنية على رفع السرية عن استنتاجات أساسية من تقويم استخباراتي قومي جديد حول إيران. جاء الحكم الرئيسي الأول في التقرير مشدداً على ما يلي: "نؤكد بقدر كبير من الثقة أن طهران بادرت، في خريف 2003، إلى وقف برنامجها الخاص بالسلاح النووي". بمجرد الانتقال إلى الهامش يستطيع المرء أن يرى أن المجموعة الاستخباراتية كانت تعني بعبارة "برنامجها الخاص بالسلاح النووي": "تصميم إيران للسلاح النووي ومحاولات التسلح والعمل السري المتعلق بتحويل اليورانيوم وتخصيبه". لم يحلُ للمجموعة أن تعاين جهود التخصيب المعلنة ذات الشأن لدى إيران في بيانها الافتتاحي المسرحي المثير(75).

أوحى تقويم الاستخبارات القومية [NIE] بوجود ثلاثة أجزاء لعملية صنع أي سلاح نووي: تصميم السلاح، وتحويل المواد النووية إلى أسلحة، وإنتاج المادة النووية ـ سواء أكانت بلوتونيوم أو يورانيوم مخصب. وحكم التقرير التقويمي أن إيران كانت قد أوقفت النشاطين الأولين، القابلين للاستئناف بسهولة، وكانت قد حققت "تقدماً ذا شأن" في الثالث، بما فيه "نشاطات تخصيب طرد مركزي معلنة". غير أن التوصل إلى هذا الفهم كان يتطلب قراءة متأنية ومدققة، ومن المؤكد أن هناك عدداً ولو ضئيلاً من القراء المدققين، ولا سيما في وسائل الإعلام. قرئ التقرير بوصفه عامل طمأنة لنا داعياً إيانا إلى الكف عن القلق بشأن برنامج إيران النووي.

فيما بعد أدلى مدير الاستخبارات القومية، مايك ماكّونيل، بشهادة قال فيها إنه كان سيقدم الاستنتاجات الأساسية على نحو مختلف لو تعين عليه أن يعيد الكرة(76). من الواضح أن التقرير التقويمي كان قد قدّم انطباعاً زائفاً. وقصة إنتاج تقويم الاستخبارات القومية الخاص بإيران في 2007 كانت في جزء منها انعكاساً لتأثير مستمر لاستخبارات خائبة كنا قد حصلنا عليها عن مخزونات العراق من أسلحة الدمار الشامل. فبعد اتهامات تسييس الاستخبارات التي ملأت الأجواء بدءاً من العام 2003، بات صانعو القرار السياسي مترددين على صعيد المطالبة بالتدقيق أو الإيحاء بأن تقديم التقرير أو تركيبه كانا مضلِّلين. حين تم إطلاعي على التقرير قبيل نشره مباشرة، ضمنت وجود اثنين من الأركان معي،

ولم أكثر من الكلام. هذه كانت الطريقة الضامنة لتجنب الاتهام بممارسة الضغط على أحد. إلا أنها ليست طريقة ناجحة في ممارسة السياسة.

بعد نشر التقرير، سمعتُ من قادة في العالم العربي تعبيراً عن اعتقادهم بأن التقرير إما كان قد أُعد بتوجيه من جورج بوش كي لا يكون مضطراً للقيام بعمل عسكري، أو تم تركيبه وفبركته من قبل وكالة سي آي إيه معارضة، غير موالية، لضمان عدم إقدام الرئيس على أي عمل عسكري. لم يكن أي من الاحتمالين صحيحاً، غير أن مثل هذه التصورات تسيء إلينا. وقد ساهم التقرير التقويمي هذا في الحيلولة دون قيامنا بالنظر في طيف كامل من الخيارات كما كان يتعين علينا أن نفعل لولا طمأنات التقرير.

كانت الوزيرة رايس قد صممت على أنها كانت ستحصل ليس فقط على صفقة مع الكوريين الشماليين قبل تركنا للسلطة، بل كانت أيضاً ستتوصل إلى اتفاق بشأن قضايا الوضع النهائي على صعيد حل المشكلة الإسرائيلية ـ الفلسطينية ذات العمر المديد. ومع أن ذلك جدير بالثناء كهدف نبيل، فإن أياً من طرفي النزاع أو أحداً من خبراء كثيرين لم يكن يرى الأمر ممكناً خلال الوقت الباقي لنا في الإدارة، نظراً لجملة القضايا المعقدة، وللضغائن المتجذرة، وللعنف المتواصل، وللحكومة الخاضعة لحماس في غزة. يضاف إلى ذلك أن إطلاق أي محاولة كبيرة كان من شأنه أن يفعل فعله في سلسلة طويلة من الأولويات السياسية الأخرى. إصرار الوزيرة على إطلاق مبادرة سلمية متعددة الأطراف قادها إلى الاعتقاد بأنها كانت مضطرة إلى إشراك السوريين وإجلاسهم إلى الطاولة. وكان هذا يعني التعامي عن جهودهم الرامية إلى امتلاك مفاعل نووي في السر. كما كان يعني غض الطرف عن المقاتلين الأجانب الذين كانوا يعبرون الحدود من سورية إلى داخل العراق ويقتلون جنوداً أمريكيين. أما أنا فكنت أرى أن من الضروري تحميل السوريين مسؤولية ومحاسبتهم، لا ملاطفتهم برسالة شخصية من الوزيرة رايس تدعوهم فيها إلى الالتحاق بركب مؤتمر آنابوليس لسلام الشرق الأوسط.

قيام الوزيرة رايس بمد يدها إلى الرئيس السوري بشار الأسد جاء في لحظة صعبة بالنسبة إلى شعب لبنان، ففيما كان هذا الشعب عاكفاً على العمل

لتشكيل حكومة منتخبة ديمقراطياً، تعرّض لضغوط هائلة من سورية، التي كانت قد احتلت لبنان على امتداد نحو ثلاثين سنة. وبعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري في 2005، ثمة انتفاضات شعبية كانت قد دفعت سورية إلى سحب قوتها، ولكن سلسلة من تفجيرات السيارات المفخخة والاغتيالات التي استهدفت سياسيين ومثقفين مناوئين لسورية في لبنان بقيت مستمرة. في الوقت نفسه كانت إيران متمادية في الانخراط في المسألة اللبنانية، عبر اضطلاعها، في المقام الأول، برعاية حزب الله، الذي ظل أعضاؤه يطالبون بحصة متزايدة باطراد في الحكم. وفي تموز/يوليو 2006، اندلعت الحرب بين إسرائيل ولبنان، بعد قيام حزب الله بإطلاق الصواريخ على إسرائيل، وعبور الحدود، والاشتباك، وأخذ جنود إسرائيليين رهائن. كان حزب الله قد نجا من الحرب، ومع حلول نهاية 2007 بات نجم الحزب، جنباً إلى جنب مع نجمي حليفه السوري وراعيه الإيراني، صاعداً في لبنان. كان باستطاعتنا أن نفعل أشياء أكثر بكثير مما فعلناه على صعيد دعم التطلعات الديمقراطية للشعب اللبناني والمساهمة، إذن، في التصدي للتفوق الإقليمي المتعاظم لكل من إيران وسورية، لو لم تكن محاولة غير واقعية لحل النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني قد استهلكت هذا القدر الكبير من اهتمامنا وانتباهنا.

يضاف إلى ذلك أننا كنا لا نزال، ونحن على عتبة العام الأخير من إدارتنا، مثقلين بأعمال كثيرة لا بد لنا من القيام بها في أفغانستان والباكستان. ففي أفغانستان كانت ثمة حاجة متواصلة لبذل جهود دبلوماسية كبيرة على صعيد دعم محاولات حميد قرضاي الرامية إلى توسيع دائرة سلطة الحكومة المركزية وصولاً إلى بسطها على البلد كله كما في محاربة الطالبان. كذلك كنا مطالَبين بأشياء كثيرة في الباكستان، حيث كان الجنرال مشرف قد وفر دعماً أساسياً، ولكن قبضته على الحكومة ذات الولاءات الملتبسة أحياناً كانت تتزايد وهناً باطراد.

أما العراق فقد بدأ ببث أنباء سارة. طفرة الزيادة في حجم القوات والتحول إلى اعتماد استراتيجية قائمة على محاربة العصيان المسلح، كانا يبعثان رسائل موحية بالنجاح. كان الأمن قد بدأ بالعودة إلى أجزاء كبيرة من البلاد بما فيها

بغداد. ولكن المكاسب كانت، كما لاحظ الجنرال بترايوس، "هشة، وسريعة العطب، وقابلة للارتداد". كان لا بد لنا من مواصلة القتال والسير قدماً بجهودنا الرامية إلى مساعدة الشعب العراقي وصولاً إلى تمكينه من تعزيز تقدمه السياسي. علاقتنا مع العراقيين كانت تتطور، من علاقة تحكّم كامل بالبلد إلى علاقة تتولى فيها معاهدات أساسية مهمة ضبط الروابط بين أمتينا السيدتين. كنا عاكفين على صوغ اتفاقية معينة بوضع القوات [SOFA]، كانت ستحكم علاقاتنا العسكرية، إضافة إلى اتفاقية إطار استراتيجية كانت ستشكل الأساس الراسخ لعلاقاتنا الدبلوماسية، والأمنية، والاقتصادية. وهاتان الاتفاقيتان اللتان كانتا ستؤسسان للعلاقات الأمريكية مع العراق لسنوات عديدة قادمة، كانتا جديرتين بأعلى مستويات الاهتمام الدبلوماسي. كان من شأنهما أن يسلطا الأضواء على أحد أبرز وأهم مآثر رئاسة جورج بوش، تحرير العراق، والتأسيس لنظام ديمقراطي حقيقي في العالم العربي.

في الرابع من كانون الثاني/يناير 2008، دخل مدير الاستخبارات الوطنية مايك ماكّونيل، إلى المكتب البيضوي لتقديم الإيجاز الاستخباراتي الصباحي. فاجأنا باصطحابه ثلاثة محللين، خبراء في شؤون كوريا الشمالية. ثمة اجتماع مجلس أمن قومي حول ذلك الموضوع كان مبرمجاً في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثين، وكما فهمت فيما بعد، كان هناك نوع من الاشتباك والسجال حول كمية المعلومات الاستخباراتية التي كان يجب وضعها في متن المذكرة المرسلة إلى أعضاء مجلس الأمن القومي سلفاً. كانت وزارة الخارجية شديدة الحرص على إبقائها في الحدود الدنيا، ما دفع ماكّونيل، على ما بدا، إلى الإتيان بآخر ما توصل إليه التفكير حول موضوع كوريا الشمالية وعرضه على الرئيس مباشرة. قام الرئيس بوش باعتصار المحللين، مسدداً سهامه على سؤال مركزي: ما مدى احتمال تخلي الكوريين الشماليين عن أسلحتهم النووية نتيجة المفاوضات الجارية على قدم وساق عبر المحادثات السداسية؟ لم يكن الخبراء متفائلين.

انتقلنا من المكتب البيضوي إلى غرفة العمليات المجددة حديثاً، حيث كان

اجتماع مجلس الأمن القومي في حالة انعقاد. غرفة التكنولوجيا المتطورة كانت مزدحمة. جميع المقاعد المحيطة بالطاولة وتلك المسندة إلى الجدار الخارجي كانت مشغولة. تجاهل الرئيس جدول الأعمال واندفع إلى الداخل مقتحماً. موجهاً أسئلته إلى كريس هيل، الذي كان جالساً بجانب الجدار خلف الوزيرة رايس، قال الرئيس: "ما وضع المباحثات؟ هل ستفضي إلى تخلي الكوريين الشماليين عن أسلحتهم؟" تدخلت رايس للإجابة قائلة: "حصلت على هذا". ثم راحت تؤكد أهمية إقناع الكوريين الشماليين بجدوى تفكيك المفاعل الموجود في بيونغيانغ، وبذل ما نستطيعه من جهد للوصول إلى ذلك. أضافت إنها خطوة أولى، مجرد خطوة أولى.

ثم خاطبني الرئيس مستفهماً. قلت إن الكوريين الشماليين لم يكونوا ملتزمين بما هو مترتب عليهم في الصفقة. ظلوا إلى الآن يرفضون الاعتراف بنشاطهم في مجال تخصيب اليورانيوم. أنكروا حقيقة إيصالهم عملية الانتشار إلى سورية. إذا كان البيان الذي يقدمونه كاذباً، ونحن نقبله، فإننا لن نحقق أي شيء سوى مساعدة الكوريين الشماليين على إخفاء نشاطهم النووي. أضفت إنني متأكد من أن وزارة الخارجية كانت تعمل باجتهاد لخدمة القضية، ولكنني متوجس بشكل متزايد من أن المباحثات السداسية لم تعد الآن إلا وسيلة مناسبة للكوريين الشماليين من أجل إخفاء ما كانوا عاكفين على القيام به من نشاط، أما نحن فلم نكن نكتفي بالتواطؤ وحسب، بل كنا في الواقع نكافئهم على ذلك مقدمين لهم سلسلة طويلة من المكاسب والتنازلات ثمناً لمواعيد أخيرة منسوفة، لم يتم الالتزام بها، وبيانات كاذبة. ذكّرت الحضور بأن من شأن العمل الذي كان الكوريون الشماليون يقومون به في سورية أن يصبح معلوماً للملأ لاحقاً، وكان سيتعين علينا، عندئذ، أن نفسر تعامينا.

وبعد ذلك بادرت إلى طرح السؤال الذي رأيته جوهرياً في مفاوضاتنا قائلاً: "هل من الدقيق القول إنه لن يتم الكف عن إضفاء عنوان دولة إرهابية على كوريا الشمالية ولن يكون أي إلغاء لعقوبات قانون الإتجار مع العدو إلى أن يتقدم الكوريون الشماليون ببيان كامل وشامل عن برامجهم؟" أجاب الرئيس: "بالتأكيد المطلق". عزفت الوزيرة رايس على الوتر نفسه. تابعت الضغط: "أظن

أن إخفاقهم في الإقرار بالتورط في إيصال الانتشار إلى السوريين من شأنه أن يكون قاتلاً لأي صفقة". وافقت الوزيرة رايس، ولو على مضض كما بدا. أما الرئيس فأكد أن ذلك كان هو موقفه.

كانت رايس قد انشغلت بمحاولة إقناع الرئيس بأن من شأن العملية التي كانت هي وكريس هيل يتوليانها أن تفضي إلى جعل الكوريين الشماليين يتخلون عن أسلحتهم النووية. أما أنا - وأولئك الذين استمع إليهم الرئيس من أرباب الخبرة الاستخباراتية ذلك الصباح في المكتب البيضوي - فكان رأينا أنه لم يكن لدينا شيء نستطيع أن نعرضه عليهم من قبيل التنازلات يكون موازياً لأسلحتهم النووية من حيث القيمة بالنسبة إليهم. كنت مؤمناً بأن الطريقة الوحيدة لتفعيل الدبلوماسية تتمثل بقدرتنا على إقناع الصينيين وشركاء المباحثات السداسية الآخرين وإفهامهم بأننا قد وضعنا حداً للعب وبتنا جديين إلى الحدود القصوى فيما يخص التهديد الماثل أمامنا جميعاً.

بعد بضعة أيام، ألقى جاي لفكوفيتز، مبعوث وزارة الخارجية لشؤون حقوق الإنسان في كوريا الشمالية كلمة معهد الأمريكان إنتربرايز قال فيها: "من الواضح وضوحاً متزايداً أن كوريا الشمالية ستبقى في وضعها الراهن حين ترحل الإدارة الحالية بعد سنة". وأضاف إن كوريا الشمالية "ليست جدية حول نزع السلاح في الوقت المناسب" و"لا يبدو سلوكها سلوك حكومة راغبة في الانضواء تحت الخيمة لاتقاء البرد". في اليوم التالي أصدرت وزارة الخارجية تصريحاً نأت فيه بنفسها عن ملاحظات لفكوفيتز، قائلة إنه كان مبعوث قضايا حقوق الإنسان لا "شخصاً مخولاً بأن ينطق باسم المباحثات السداسية". ولكنه بدا لي أنا ذا قدر لافت من المرجعية.

في آخر الشهر، ألقى معاون الوزيرة هيل كلمة في كلية آمهرست ما جعلها تبدو كما لو كانت تشير إلى اعتزامنا شطب أي برنامج كوري شمالي ذي علاقة باليورانيوم. قال هيل: صحيح أن كوريا الشمالية حصلت على أنابيب ألمنيوم "لبناء أجهزة طرد مركزي" ولكننا "رأينا أن هذه الأنابيب ليست مستخدمة في برنامج الطرد المركزي":

سبق لنا أن أوفدنا دبلوماسيين أمريكيين لمعاينة هذه الأنابيب المصنوعة من الألمنيوم والأغراض التي تستخدم من أجلها فعلاً. عملياً تولى دبلوماسيون أمريكيون، أناس مثلي أنا، نقل هذه الأنابيب الألمنيومية في حقائبهم للتأكد من أن هذا هو الألمنيوم الحقيقي الذي كان الكوريون الشماليون قد اشتروه لهذا الغرض، وقد تبين في النهاية أنهم لا يستخدمونها لتخصيب اليورانيوم.

أغفل هيل حقيقة أن الأنابيب التي أحالها الكوريون الشماليون كانت تحمل آثار يورانيوم مخصب تخصيباً عالياً[77].

في شهادته أمام مجلس الشيوخ في الأسبوع التالي اعترف هيل بأن الكوريين الشماليين كانوا قد ابتاعوا مكوِّنات رئيسية لتخصيب اليورانيوم، ولكنه أكد مرة أخرى أنهم كانوا قد عرضوا علينا نماذج لاستخدامهم تلك العناصر المكوِّنة لأغراض غير نووية. قال هيل: "سيتم القيام بالمزيد من العمل حول الأمر بما يمكننا من أن نقول بوضوح في منعطف ما في المستقبل إننا قادرون على نفي احتمال امتلاكهم لأي برنامج قيد العمل لتخصيب اليورانيوم". كان من شأن بلوغ تلك المحطة أن يثبت أنه مستحيل، على أي حال. وبعد أشهر، حين بدأ الكوريون الشماليون يوافوننا بوثائق ذات علاقة بنشاطاتهم في مفاعل البلوتونيوم في يونغبيون، كانت الوثائق نفسها حاملة لآثار يورانيوم عالي التخصيب[78].

شهد الربيع فترة بدا فيها كما لو كنا قادرين على الخروج عن السكة التي كانت رايس وهيل قد وضعانا عليها. كان هيل في جنيف يفاوض حول ما كان البيان الكوري الشمالي سيتضمنه، وقام ستيف بجلب مسودة للغة المقترحة إلى المكتب البيضوي في أثناء لقائنا الصباحي يوم 14 آذار/مارس 2008. عبر الرئيس عن عدم رغبته في رؤيتها. قال: "لن أوقع أي شيء حتى يكون نائب الرئيس قد ذيّله بتوقيعه. راجعه مع ديك. حين يكون سعيداً بها، سأكون أنا سعيداً بها".

عاد ستيف إلى مكتبي، وعاينّا الوثيقة. قلت: "اسمع يا ستيف، هذه لن تمّر، إنها لا تفي بالغرض، نقطة على السطر". تضمنت قيام الولايات المتحدة بتقديم معلومات عن مواصلة كوريا الشمالية تخصيب اليورانيوم وبذل الجهود

الرامية إلى بناء مفاعل نووي في سورية. وكانت تقول إن الكوريين الشماليين يعبرون عن تفهمهم للهواجس - لا عن إقرارهم بعمليات التخصيب والنشر، بل عن تفهمهم لاحتمال كون الفكرة مزعجة لنا. بأي من المقاييس، لم يكن هذا البيان الشامل والكامل الذي كان الكوريون الشماليون قد التزموا بإعلانه، الأمر الذي دفع رايس وهيل، على ما ظننت، إلى تسمية الوثيقة "رسالة جانبية" وراحا ينصحان بعدم نشرها على الملأ.

متخوفة من أن يؤدي الأمر إلى نسف المباحثات السداسية، كانت الوزيرة رايس مستمرة أيضاً في الإصرار على إبقاء ما كنا نعرفه عن المفاعل النووي السوري ذي المنشأ الكوري الشمالي من حيث البناء بعيداً عن النشر العلني، بعد الفترة التي كان الإسرائيليون قد عبروا عن قلقهم بوقت طويل. كانت ناجحة في تأخير أحد الإعلانات لعدد من الأشهر. إلا أن رسميي مخابرات كبار أقدموا في نيسان/أبريل، أخيراً، على عقد إيجاز تضمن سرد قصة الكبر كاملة مدعمة بأشرطة الفيديو.

ومع حلول أواخر أيار/مايو كانت رايس قد قررت أن عليها أن تذهب إلى بيونغيانغ للقاء الرئيس الكوري الشمالي كيم يونغ إيل. في أحد لقاءات مجموعتنا الصغيرة في مكتب ستيف هادلي، أفاد ستيف بأن الرئيس كان قد طلب منه التماس آراء المجموعة حول هذه الفكرة. جادلت كوندي قائلة إننا أمام خيار بين إلغاء وصمة الإرهاب وإرسالها شخصياً إلى بيونغيانغ إذا كنا نريد إبقاء الكوريين الشماليين على طاولة المباحثات السداسية. سأل ستيف عما إذ كان لدى أحد منا أي رد أو تعليق على هذا الاقتراح. رفعت يدي؛ متأكد أنا أن ستيف لم يفاجأ. قلت إن هذا لم يكن مقدراً له إلا أن يشكل أنموذجاً آخر من نماذج الرد على رفض كوريا الشمالية الالتزام بتعهداتها عن طريق تقديم تنازل وقائي آخر استباقياً. أشرت إلى أن الكوريين الشماليين لم يقدموا بعد بياناً شاملاً وكاملاً عن نشاطاتهم النووية، والآن، بغتة، ها نحن ذا متلهفون على إرسال وزيرة خارجيتنا إلى بيونغيانغ، أليس كذلك؟ إنها فكرة بائسة. من شأن خيار أفضل أن يتمثل بالإصرار على إجبارهم بالوفاء بالتزاماتهم.

طلب ستيف تعليق وزير الدفاع غيتس الذي لم يكن مع أو ضد. ثم دعا

رئيس هيئة الأركان الأدميرال مايك مولن، الذي كان قابعاً في كرسيه، مصغياً إلى كل هذا ورأسه بيده، إلى إبداء الرأي. لم ينبس الأدميرال ببنت شفة، بل اكتفى بالإشارة إلي، مؤكداً تأييده لما عبرت عنه من رأي. أظن أن عدداً منا كانوا قد بدؤوا يملون إعادة خوض المعارك نفسها في اجتماع بعد آخر حيث كنا، على ما بدا، ملزمين بالتصدي لمقاربة مضلِّلة ومضلَّلة صادرة عن وزارة الخارجية.

أنهى ستيف الاجتماع وقال إنه مع كوندي سينقلان وجهات نظر الفريق إلى الرئيس. بعد فترة قصيرة، كنت جالساً في مكتبي، حين دخل الباب أحد كبار مستشاري الرئيس حاملاً نسخة من عدد تلك الأسبوع لمجلة "ويكلي ستاندارد". كانت قصة الغلاف تحمل عنوان: "في كرسي القيادة: كوندوليزا رايس ونفض اليد من العقيدة البوشية". واضعاً إصبعه على عنوان الغلاف، قال المستشار الكبير: "هاك سبب آخر لوجوب عدم ذهاب كوندي إلى كوريا الشمالية".

بعد بضعة أيام تناولنا، الرئيس وأنا، غداءنا الأسبوعي، وفيما كنا جالسين في فنائه المرصوف الخاص، شجعني على مواصلة تحدي الخطة والسياسة اللتين كنت أراهما خاطئتين. لم يعبر عن اتفاقه معي ولكنني أظن أنه كان مؤمناً بأن من شأن السجالات أن تفضي إلى محصلة أفضل على صعيد آليات اتخاذه للقرار. وأنا لم أكن، على أي حال، أنوي التوقف عن الجدال. كنت أخشى من كوننا سائرين نحو التصادم.

في السادس والعشرين من حزيران/يونيو قدّم الكوريون الشماليون بياناً إلى الصينيين أخفق في وصف أي من برنامج تخصيب اليورانيوم أو نشاطهم على صعيد النشر والنقل. بل ولم يتضمن البيان وصفاً شاملاً لنشاطاتهم البلوتونيومية. ورغم هذا، فإن الرئيس بوش، في غضون ساعات، كان في الروز غاردن يعلن وقف العمل ببنود قانون الإتجار مع العدو ويلفت نظر الكونغرس إلى اعتزامه شطب كوريا الشمالية من لائحة الدول الراعية للإرهاب.

خاب أملي، وليس لمجرد اختلافي مع الرئيس. كانت تلك دعوته هو. إلا أن السيرورة والقرار الذي جاء بعدها كانا يبدوان شديدي البُعْد عن الطريقة

الحصيفة التي كنت قد عهدته متمسكاً بها في اتخاذ القرارات في الماضي. قال الرئيس إننا سنوظف الأيام الخمسة والأربعين التالية - فترة إخطار الكونغرس قبل الإقدام رسمياً على شطب الكوريين الشماليين من قائمة الإرهاب - لاجتراح بروتوكول "شامل وصارم" للتأكد من صحة البيان الكوري الشمالي. وأنا أستمع إلى ملاحظات الرئيس وتعليقاته تساءلت عن الطريقة التي كنا سنعتمدها، بالتحديد، في مسألة التأكد من صحة ما كنا نعرفه سلفاً بأنه بيان كاذب.

في السابع والعشرين من حزيران/يونيو 2008، تعمد الكوريون الشماليون استدعاء الكاميرات التلفزيونية وفجروا برج تبريد المفاعل النووي في يونغبيون. كانت تلك تكنولوجيا خمسينيات القرن العشرين، أداة هم قادرون على التخلي عنها بسهولة. حتى ذلك المنعطف كانوا قد أنتجوا من البلوتونيوم ما يكفي لإنتاج كمية وافرة من الأسلحة، إضافة إلى أنهم كانوا، كما كان مدير الرئيس أوباما للاستخبارات الوطنية سيؤكد لاحقاً، متوفرين على عملية تخصيب يورانيوم قوية قيد العمل والنشاط قادرة أيضاً على إنتاج مواد لصنع أسلحة نووية.

وبعد شهرين اثنين، حين رأت كوريا الشمالية أننا لم نكن قد شطبناها من لائحة الإرهاب في الوقت المناسب، وبما يكفي من السرعة، أعلنت للملأ أنها قد أوقفت عملية تفكيك مجمع يونغبيون. وبعد ذلك بثلاثة أسابيع، أعلنت بيونغيانغ عن استئنافها لإعادة تفعيل المنشأة وبدأت إعادة وصل المعدات التي كانت قد أُزيحت في وقت سابق من العام.

في التاسع من تشرين الأول/أكتوبر 2008، اجتمعنا، الوزيرة رايس، وستيف هادلي، وأنا، مع الرئيس في المكتب البيضوي لمناقشة بروتوكول التحقق من الصوابية الذي كان كريس هيل يفاوض بشأنه. وأنا أصغي أدركت أنه لم يكن ثمة بالفعل، رغم إصرار الرئيس على بروتوكول "شامل وصارم" قبل بضعة أشهر، أي اتفاق مكتوب على الإطلاق. كانت هناك وثيقة كان الصينيون قد طرحوها، وثيقة راحت رايس تطلق عليها عنوان بروتوكول التحقق، إلا أن الكوريين الشماليين لم يكونوا، في الحقيقة، قد وافقوا على الوثيقة. كانت ثمة أيضاً ملاحظات معينة كان كريس هيل قد دونها عن أحاديث سبق له أن كان قد أجراها مع نظيره الكوري الشمالي، ملاحظات كان يُفترض فينا الآن أن نراها

جزءاً من بروتوكول رسمي. وفي لقاء جامع للوكالات والإدارات في ذلك الأسبوع، قامت وزارة الخارجية بتوزيع ورقة وقائع شارحة لموضوع أن "اتفاقاً حول تدابير التحقق قد تم صوغه وتنظيمه في وثيقة مشتركة بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية كما تمت إعادة تأكيده عبر قدر موسع من التشاور". في الحقيقة لم تكن ثمة أي وثيقة مشتركة ـ أمامنا ملاحظات كريس هيل لا أكثر ولا أقل.

بحثاً عن طريقة لتفسير الوضع، بادرت رايس إلى القول: "سيادة الرئيس، ليست هذه إلا الطريقة التي تعتمدها الدبلوماسية في العمل أحياناً. لا يتم الحصول دائماً على اتفاق مكتوب". جاء الكلام مضلِّلاً مئة بالمئة، بعيداً بعد السماء عن الأرض عما كانت الوزيرة عاكفة على فعله، إذ كانت تحض الرئيس، في غياب أي اتفاق، على التظاهر بوجود مثل هذا الاتفاق ـ مع دولة مسلحة نووياً، وراعية للإرهاب نعرف أنها كاذبة حول برنامجها النووي وعمليات نشرها للتكنولوجيا النووية بإيصالها، أقله، إلى دولة أخرى.

قال الرئيس: "انظري يا كوندي، أجدني فقط بحاجة إلى المزيد من الوقت حول الأمر. لا بد لي من أن أفكر به". سألها ستيف هادلي عما إذا كانت تستطيع أن تزود الرئيس بورقة يقرؤها على أنها خلفية للاقتراح. هل هناك ما كان يستطيع مراجعته؟ قالت "لا"، رغم أنها كانت جالسة على الأريكة ومشغولة بقراءة وثيقة تتضمن وصفاً للاتفاق المزعوم.

طفت قضية اليابان على السطح. كنا نعرف منذ بعض الوقت أن الحكومة اليابانية كانت شديدة الاستياء من احتمال إقدامنا على الشطب من لائحة الإرهاب. كان اليابانيون قلقين، لا سيما بشأن مواطنين يابانيين، كثير منهم أطفال، كانوا قد خُطفوا من قبل الكوريين الشماليين قبل عقود. كنت قد التقيت مع بعض أسرهم خلال رحلتي إلى آسيا في 2007، وقصص الأطفال المفقودين كانت ساحقة للقلب. والآن بات اليابانيون يتصورون احتمال إقدامنا على شطب كوريا الشمالية من لائحة الإرهاب دون حل هذه المسألة، وكان دبلوماسيو اليابان قد قاموا تكراراً بمراجعة مستشارتي للأمن القومي، سامانثا رافيتش، وغيرها من أركان الأمن القومي عندي. كذلك كان اليابانيون منزعجين من استعدادنا الظاهر

لتصديق ما يقوله الكوريون الشماليون، للثقة بهذا النظام المارق. أنكرت الوزيرة رايس وجود أي اعتراض من جانب اليابانيين وأبلغت الرئيس أنهم اكتفوا بمجرد طلب تأجيل لمدة أربع وعشرين ساعة ليتمكنوا من "معالجة وضعهم السياسي". لم يكن هذا دقيقاً. لاحقاً في ذلك اليوم وصلتني رسالة من سفيرنا في اليابان، توم شيفر، كنت سأمررها إلى الرئيس. وتوم شيفر هذا، الذي كان أحد شركاء الرئيس حين كان مالكاً لتكساس رينجرز، كان قد بات متزايد القلق إزاء سياستنا الكورية الشمالية وكان الآن يقدم تقريراً عن اليابانيين الذين وجدوا "اقتراح التحقق" مرفوضاً بالصيغة المقدمة. كذلك قام شيفر بإيراد تحذير صادر عن رئيس وزراء اليابان: نظراً لما يزخر به التاريخ الكوري الشمالي من نفاق، فإن من الجوهري أن يتم جعل أي اتفاق مع الكوريين الشماليين خطياً.

فيما كان اجتماع التاسع من تشرين الأول/أكتوبر 2008، موشكاً على الانتهاء، حاول ستيف هادلي أن يستعيد بعض الانضباط لمسار تقدمنا. قال: "ثمة، يا كوندي، بعض الأسئلة التي تحتاج إلى أجوبة قبل أن نتمكن من السير قدماً". تمثل أحد الخيارات التي ناقشناها بإعادة كريس هيل إلى بيونغيانغ للحصول على ضمانات مكتوبة. ما المانع من الحصول على اتفاق سليم وصحيح، إذا كان هذا الاتفاق بالغ الأهمية وكانت الوزيرة رايس راسخة الثقة بالتعهدات الكورية الشمالية؟ لم تكن راغبة في أن تفعل ذلك. وقد تبين أنها لم تكن ملزمة.

في اليوم التالي، يوم 10 تشرين الأول/أكتوبر، بلغني أن الرئيس كان قد وافق على السماح للوزيرة رايس بتوقيع الوثيقة المتعلقة بشطب كوريا الشمالية من لائحة الإرهاب، الأمر الذي نفذته في 11 تشرين الأول/أكتوبر. كانت تلك لحظة مثقلة بالحزن لأنها بدت نوعاً من التبرؤ من العقيدة البوشية وقلباً رأساً على عقب لفيض من الإنجازات التي كنا قد حققناها في مجال حظر الانتشار النووي خلال الفترة الأولى من رئاستنا. كان الرئيس على صواب حين أقدم على شجب المقاربة الخائبة للحقبة الكلنتونية. وها نحن ذا الآن مقبلون على احتضانها.

ومع حلول نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر أعلن الكوريون الشماليون أن

"التحقق" سيبقى محصوراً بموقع مفاعل البلوتونيوم في يونغبيون. وفي 12 تشرين الثاني/نوفمبر أعلنوا أن المفتشين لا يستطيعون أن يأخذوا أي تربة أو نماذج نفايات نووية من الموقع. ثم في الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر، أوضح الكوريون الشماليون أنهم لا يشعرون بأنهم ملزمون بأي "اتفاق شفهي" كان هيل يظن أنه توصل إليه معهم وأن المفاوضات وصلت إلى طريق مسدود، وباتت مجمدة. ثمة مقالة في "الواشنطن بوست" صباح اليوم التالي تضمنت ما يلي: "رسميون أمريكيون يعترفون الآن بأن أكثرية الاتفاقات المزعومة المعلنة قبل شهرين لم تكن إلا تفاهمات شفهية بين هيل ونظرائه الكوريين الشماليين"[79]. لم تكن تلك ساعتنا الأروع.

وجدتني قادراً على رؤية الكوريين الشماليين ضاغطين على زر إعادة لف شريط الفيلم في منتصف كانون الثاني/يناير، قبيل قيام الرئيس أوباما بأداء القسم الرئاسي، حين طالبوا الولايات المتحدة بتطبيع العلاقات معهم قبل أن يباشروا دراسة التخلي عن أسلحتهم النووية:

- في نيسان/أبريل 2009 اختبروا صاروخ تايبودونغ 2 البالستي العابر للقارات.
- في أيار/مايو 2009 اختبروا سلاحاً نووياً ثانياً.
- في أيلول/سبتمبر 2009 أعلنوا عن وصولهم إلى المراحل الأخيرة من عملية تخصيب اليورانيوم وتحويل البلوتونيوم إلى سلاح.
- في آذار/مارس 2010 قامت غواصة كورية شمالية بقصف مركب كوري جنوبي بصاروخ طوربيد، وقتلت ستة وأربعين بحاراً.
- في تشرين الثاني/نوفمبر 2010 استضافوا وفداً أمريكياً زائراً لإطلاعه على برنامجهم لتخصيب اليورانيوم، كاشفين ألفي جهاز طرد مركزي غازي في منشأة يونغبيون، وهو موقع مفاعل بلوتونيوم قديم كنا متركزين عليه.
- في تشرين الثاني/نوفمبر 2010، بعد أيام من الكشف عن عملية الطرد المركزي عندهم، أطلق الكوريون الشماليون وابلاً من قذائف المدفعية

على إحدى الجزر الكورية الجنوبية قاتلين اثنين من المارينز واثنين من المدنيين الكوريين الجنوبيين.

- وفي شباط/فبراير 2011، قال مدير الاستخبارات القومية، جيم كلابَّر، في شهادته أمام لجنة الاستخبارات المختارة بمجلس الشيوخ إن الكوريين الشماليين امتلكوا، فعلاً، منشأة تخصيب يورانيوم في يونغبيون، في بوح "يؤيد تقويم داعمي الولايات المتحدة بأن جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية دائبة على متابعة حيازة نوع من قدرة تخصيب اليورانيوم".

يضاف إلى ذلك أن كلابَّر قال إن "من المحتمل أن تكون جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية (DPRK)، نظراً لمدى القدرة والتقدم اللذين حققتهما، قد ظلت دائبة على متابعة التخصيب فترة مطولة من الوقت. وإذا كان الأمر كذلك فإن هناك احتمال أن تكون قد أنشأت منشآت أخرى ذات علاقة بتخصيب اليورانيوم على أراضيها".

وكما سبق لي أن لاحظت من قبل، فإننا حققنا إنجازات كثيرة في فترتنا الرئاسية الأولى على صعيد إبطاء انتشار المواد والتكنولوجيا النوويتين. وفيما كنا منخرطين في التعامل مع كوريا الشمالية، لا سيما خلال عامي 2007 و2008، كان يحلو للرئيس أحياناً أن يشير إلى أحد تلك الإنجازات - دفع الليبيين إلى تسليم موادهم النووية - ويتطلع إلى اليوم الذي يصل فيه الكوريون الشماليون إلى "لحظتهم القذافية". ذلك هو ما كنا جميعاً نحلم به، ولا أعتقد أن الرئيس نفسه قد كَفَّ يوماً عن النظر إلى ذلك بوصفه الهدف. إلا أنني أظن أن الوزيرة رايس ومعاونها هيل قد فعلا. فبالنسبة إليهما صار الاتفاق، على ما يبدو، هو الهدف، وما لبثنا أن وصلنا إلى نكسة في جهودنا المتعلقة بحظر الانتشار النووي.

في أوائل 2001 كان الرئيس قد قارب الأمر مقاربة صائبة تماماً حين قرر أن يرسم مساراً جديداً للتعامل مع كوريا الشمالية وقام بجعل بلدان أخرى، ولا

سيما البلد الأهم، الصين، جزءاً من المفاوضات. أما عندما بدأ دبلوماسيونا يلتقون ثنائياً مع الكوريين الشماليين من جديد، في تعارض مع توجيهاتهم أحياناً، فقد تم تحييد الصين جوهرياً، مثلها مثل حلفائنا في اليابان وكوريا الجنوبية. أضعنا عدداً من الفرص المهمة لاستخدام نفوذنا من أجل جعلهم يضطلعون بدور بناء أكثر. لا شك أن تحدي برنامج كوريا الشمالية النووي كان أحد أكثر التحديات التي واجهناها خلال فترتيْ رئاستنا صعوبة وتعقيداً. ليت الرئيس كان قد تلقى خدمة أفضل من وزارة الخارجية في إدارته، فيما كنا عاكفين على العمل للوقوف في وجه هذا التحدي.

قصة دبلوماسيتنا مع كوريا الشمالية، ولا سيما في الفترة الثانية من رئاسة بوش، تحمل في طياتها عبراً ودروساً مهمة يتعين على القادة والدبلوماسيين الأمريكان في المستقبل أن يتعظوا بها. لعل العبرة الأولى هي ضرورة عدم إضاعة الهدف. على هذا الصعيد كان الرئيس قد بين أن هدفنا كان متمثلاً بإجبار الكوريين الشماليين على التخلي عن برنامجهم الخاص بالأسلحة النووية. إلا أن وزارة الخارجية راحت ترى، مع انطلاق المفاوضات، أن الهدف النهائي إن هو إلا جعل الكوريين الشماليين يوافقون على شيء ما، أي شيء في الحقيقة. وذلك الخطأ ما لبث أن جر دبلوماسيينا إلى الرد على عناد كوريا الشمالية ونفاقها بتنازلات مطردة التعاظم، بما تمخض عن تشجيع النفاق وامتلاك الوجهين. وقد أفضى الأمر بهم في آخر المطاف إلى التوصية بقبول اتفاق قاصر عن تحقيق هدف الرئيس بل وعائد به القهقرى. مقاربة رونالد ريغان في قمة ريكيافيك مع غورباتشوف في 1986 تشكل أنموذجاً ناجحاً بالنسبة إلى قادة المستقبل، لم يكن الرجل شديد التهالك في طلب أي اتفاق كي يقبل بما كان يستطيع الحصول عليه. لم يكن مستعداً للتنازل عن حق أمريكا في امتلاك منظومات دفاعية ضد الصواريخ، وحين رفض السوفييت التسليم بذلك، أنهى المباحثات.

وهذا يقودنا إلى الدرس الثاني وذي العلاقة. لا تتحقق الدبلوماسية الأنجح إلا عندما تفاوض أمريكا من موقع قوة. وإذا تذكرنا أن هدفنا النهائي هو الهدف

الجوهري المتمثل بالخلاص من لوثة الأسلحة النووية ونحن مستعدون لإدارة الظهر بدلاً من الإذعان لاتفاق جزئي، وخادع، وضار، فإننا نكون في موقع أقوى بكثير. في الوقت نفسه، إذا فهم خصومنا أننا لن نساوم على أي مبادئ أساسية ومستعدون لاستخدام القوة العسكرية عند الضرورة، فإن احتمال أدائهم على نحو مفيد حول طاولة التفاوض يكون أكثر وروداً. ذلك هو ما جعلني أجادل قائلاً إنه كان علينا نحن أنفسنا أن نتحرك لتدمير المفاعل النووي الذي شيده الكوريون الشماليون في البادية السورية. كان من شأن ذلك أن يبعث برسالة لا لبس فيها إلى كل من السوريين، والإيرانيين، والكوريين الشماليين تقول صراحة إننا لن نطيق انتشار التكنولوجيا النووية. ومثل هذه الرسالة كان من شأنها، بدورها، أن تشجع تلك الدول على انتهاز فرصة التوصل إلى نوع من الاتفاق الدبلوماسي بدلاً من المخاطرة بعمل عسكري. وتأثير العمل العسكري الأمريكي تجلى بوضوح، مثلاً، حين تابع معمر القذافي الولايات المتحدة وهي تحرر العراق فسارع إلى الاتصال معبراً عن الرغبة في نفض يديه من برنامجه الخاص بالأسلحة النووية.

أما العبرة الثالثة فلعلها جعلُ الخطوط الحمراء تعني، بالضرورة، شيئاً. ففي أعقاب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، قام الرئيس بوش باجتراح خطة حظر انتشار فعالة ما لبثت أن تمخضت عن نتائج. كرسنا أنفسنا لمنع الإرهابيين والدول الراعية للإرهاب من حيازة أي أسلحة دمار شامل. وحين أقدم الكوريون الشماليون على اختبار سلاح نووي في تشرين الأول/أكتوبر، أنذرهم الرئيس بوش قائلاً إننا سنعدهم مسؤولين مسؤولية كاملة عن أي انتشار أو نقل، ولا سيما إلى دول مثل سورية وإيران. وبعد ستة أشهر، كان علينا، حين اكتشفنا أنهم كانوا متورطين في النشر أو النقل إلى سورية، أن نحملهم المسؤولية ونحاسبهم، ولكننا لم نفعل. لذا فإن من شأن الدرس بالنسبة إلى دول مارقة أخرى أن يكون، للأسف، عدم وجود ما يدعوها للقلق إزاء أي تهديدات صادرة عن أمريكا. فحين لا ترقى أفعالنا إلى مستوى أقوالنا، يغدو العمل الدبلوماسي أصعب بكثير، ويصبح احتمال إحساس هذه الدول الراعية للعنف بالقدرة على تحدي إرادة الولايات المتحدة مع الإفلات من العقاب أكثر وروداً في آخر المطاف.

رابعاً، لا بد للدبلوماسية الفعالة والناجحة من التحلي بالتفكير استراتيجياً. هذا بالتحديد هو ما فعله الرئيس حين أصر في 2001 على السعي لإشراك الصينيين بجهودنا الرامية إلى إقناع الكوريين الشماليين بالتخلي عن برنامجهم النووي. كذلك قمنا بإدخال كل من الروس، واليابانيين، والكوريين الجنوبيين إلى الحلبة. رأى الرئيس أن كوريا الشمالية معزولة سلفاً وخاضعة لعقوبات واسعة إلى درجة كادت تُبْقي الولايات المتحدة عاجزة وحدها عن ممارسة ضغط قابل للتمخض عن نتيجة. غير أن مقاربة تعددية شاملة للصين كان من شأنها دون شك أن تتوفر على قابلية ممارسة الضغط على بيونغيانغ. إلا أننا بددنا فرص تشجيع الصينيين على الاضطلاع بدور أفضل وبنّاء أكثر. مباشرة في أعقاب التجربة النووية الكورية الشمالية في تشرين الأول/أكتوبر 2006، مثلاً، انزعج الصينيون، ولا سيما لأن بيونغيانغ لم تعلمهم بالتجربة إلا قبل ساعة واحدة فقط. كان علينا أن نوظف لحظة الزخم لجمع شركائنا في المباحثات السداسية - وعلى رأسهم الصينيون - من أجل ممارسة ضغط حقيقي على الكوريين الشماليين. ثمة لحظة زخم حدود قصوى أخرى كانت حين اكتشفنا وجود المفاعل النووي الذي كان الكوريون الشماليون عاكفين على بنائه في سورية. مرة أخرى، كان علينا أن نبادر فوراً إلى أخذ المعلومات إلى الصينيين ومباشرة التعاون معهم لاجتراح خطة استراتيجية لبلوغ هدفنا. بدلاً من ذلك وقعنا، بسبب تصميم معاون الوزيرة كريس هيل على إجراء مباحثات ثنائية مع الشمال، في خطأ استبعاد الصينيين بما ضمن عدم استعدادهم لأن يكونوا شركاء فعالين بالنسبة إلينا كما كان ينبغي أن يكونوا.

خامساً، لا يكون موقف أمريكا في العالم معززاً وقوياً إلا حين نكون واقفين مع الحلفاء. في هذا المثال، أخفقنا في فعل ذلك، إذ انزلقنا، بدلاً من ذلك، إلى زلة استبعاد حليفين رئيسيين - اليابانيين والكوريين الجنوبيين - حين انخرطنا في تعاطياتنا الثنائية مع الشمال. كذلك كان الإذعان لـ "اتفاق" خاطئ أساساً ينطوي على معنى أننا أدرنا ظهرنا لقضية ذات أهمية بالغة الحساسية بالنسبة إلى اليابانيين، كنا قد التزمنا بالمساعدة على حلها: قضية إعادة الأطفال المفقودين.

أخيراً، تتطلب الدبلوماسية الناجحة أن يعكف دبلوماسيونا على دراسة تاريخنا بعمق واستخلاص الدروس والعبر منه. وعلى هذا الصعيد، كان التاريخ الحديث مع كوريا الشمالية دليلاً ناجحاً للاهتداء إلى السلوك السليم. وقع الكوريون الشماليون الإطار المتفق عليه في 1994 أيام الإدارة الكلنتونية وراحوا مباشرة ينتهكون بنود الاتفاق، مطالبين بالتعويضات وباحثين عن طرق لاستخدام المفاوضات وسيلة ابتزاز للولايات المتحدة. بتنا الآن نعرف أن الشمال كان دائباً بنشاط على تخصيب اليورانيوم ونشر التكنولوجيا النووية بإيصالها إلى السوريين رغم كونه أحد طرفي الإطار المتفق عليه. اعتمد الكوريون الشماليون في تعاملهم معنا، مع إدارتنا الجمهورية، السلوك ذاته وما لبثوا أن أخرجوا من جعبتهم من جديد جميع تهديداتهم وطلباتهم لطرحها أمام الإدارة الأوبامية. لقد تعلموا، عبر إدارتين جمهورية وديمقراطية، أن هذه طريقة ناجحة في التعامل مع أمريكا؛ طريقة قابلة للتمخض عن تنازلات يقدمها الغرب تنازلاً بعد آخر فيما يواصلون هم تطوير الأسلحة النووية. أرجو أن يبادر رئيس ووزير خارجية قادمان إلى كسر الحلقة. وهذا أمر استثنائي الأهمية لأن على الولايات المتحدة أن تكون ممسكة بزمام القيادة في مجال حظر الانتشار النووي، كما في ميادين كثيرة أخرى. إذا لم نسارع نحن إلى الحفاظ على الاستقرار، فإن من سيفعلون ذلك هم قلة.

وبمعنى أوسع يبقى التاريخ مهماً أيضاً. في أي إدارة، جمهورية كانت أم ديمقراطية، ثمة نزوع لدى وزارة الخارجية نحو تقديم تنازلات وقائية إلى لاعبين أوغاد أملاً في إحداث تغيير في سلوك هؤلاء الأوغاد. كثيراً ما تساءلت عن الدروس أو الأمثولات التاريخية التي يمكن لزملائي في وزارة الخارجية أن يكونوا مستندين إليها حين أقدموا على تأييد مثل هذه السياسات. لو كانوا قادرين على الإشارة إلى شيء، أي شيء، ليقولوا: "هاكم المناسبة التي نجحت فيها مثل هذه السياسات في الماضي"، لحاولت، ربما، أن أنظر إلى جهودهم نظرة مغايرة. ولكن المحزن هو أن التاريخ صريح وواضح. فالسياسات والخطط التي تتعامى عن السلوك الخطر الذي يعتمده خصومنا أو تكافئه ليست ناجحة. والتنازلات المقدمة من جراء اليأس جرياً وراء أمل سرابي ساذج بأن الطغاة سيردون بالمثل لا تساهم في تعزيز أمن الولايات المتحدة.

الفصل السادس عشر

نهايات

وفقاً للدستور، نائب الرئيس رئيس أيضاً لمجلس الشيوخ، وفي الأيام الأولى من تاريخ البلاد، كان ذلك يحمِّل نائب الرئيس مسؤوليات كثيرة حقاً يضطلع بها. فنائب الرئيس الأول، جون آدمز، شارك حتى في حوار حول قضايا مطروحة على مجلس الشيوخ، وإن التزم الهدوء بعد أن أبلغه أحد الأصدقاء بأن مداخلته المطولة تثير امتعاضاً. في زماني أنا، كان موقع رئيس مجلس الشيوخ قد تقلص كثيراً حتى بات صوتاً ترجيحياً - وظيفة لا يستهان بها. فقدرتي على الإدلاء بذلك الصوت أعطت الأمريكيين التخفيض الضريبي البوشي الذي ما زالوا يتمتعون به وأنا أخط هذه الأسطر.

في 2008، وجدت شيئاً آخر أستطيع فعله بوصفي رئيساً لمجلس الشيوخ. بدأ الأمر كله حين أقدمتْ محكمةُ الاستئناف الأمريكية لدائرة العاصمة بنقض حظر ناحية كولومبيا على الأسلحة الفردية. في قرار بليغ كتبه القاضي لورنس سيلبرمان، رأت المحكمة أن حق حمل السلاح المضمون بالتعديل الثاني هو حق فردي وأن حظر السلاح الفردي الصادر عن العاصمة جاء انتهاكاً لذلك الحق. كانت المحكمة العليا قد وافقت على الاستماع إلى الدعوى وبادرت وزارة العدل إلى إعداد مداخلة بصفة وسيط، الأمر الذي لم يكن مفاجئاً، ولكن الموقف الذي اتخذته الوزارة لم يكن متوقعاً. بدلاً من تأكيد قرار محكمة الاستئناف، راحت وزارة العدل تجادل أنه كان أوسع مما ينبغي وطالبت المحكمة العليا بإعادة

الدعوى إلى محاكم أدنى. بدا الموقف متنافراً مع موقف الرئيس السابق من التعديل الثاني، كما كان، يقيناً متضارباً مع وجهة نظري.

ذات مساء من أوائل شباط/فبراير تلقى ديفيد آدنغتون مكالمة من مكتب الشيخ كاي بيلي هاتشيسون. أحد العاملين أبلغ آدنغتون أن عدداً من أعضاء مجلس الشيوخ كانوا عاكفين على إعداد مداخلة بصفة وسيط دعماً لقرار دائرة العاصمة ويتساءلون عما إذا كنت، بأي من الأحوال، مستعداً للتوقيع. قام آدنغتون بطلب إرسال نص المداخلة، وقرأه، ثم اتصل ليرى ما أودّ فعله. لم يكن ذلك قراراً صعباً. ذيلت الكلام بتوقيعي مضافاً إلى تواقيع خمسة وخمسين سناتوراً و250 نائباً، بوصفي "رئيس مجلس شيوخ الولايات المتحدة: ريتشارد بي تشيني".

حين وصلت المذكرة إلى المحكمة، شكل واقع أنني كنت قد شاركت خبراً ذا شأن. تمخض الأمر عن موضوع للصفحة الأولى في "الواشنطن بوست" بعنوان: "تشيني يصطف مع الكونغرس في الاعتراض على حظر العاصمة للسلاح: نائب الرئيس ينشق عن الإدارة". رئيس أركان البيت الأبيض جوش بولتن لم يكن سعيداً. جاء إلى مكتبي ليبلغني أنه كان يريد إبلاغ آدنغتون بأننا كنا قد اقترفنا "مخالفة قضائية". لم أكن متأكداً من معنى العبارة غير أنني طلبت من جوش أن يكون ضيفي أنا. بقي آدنغتون، وهو دائم الحرص على حماية مؤسسة نيابة الرئاسة، مستمعاً ثم شرح لجوش، بابتسامة، وأنا متأكد من ذلك، أنه كان يعمل مع نائب الرئيس، لا عند رئيس أركان الرئيس، وأن مهمات نائب الرئيس في مجلس الشيوخ كانت شأناً يخص نائب الرئيس.

جل الآخرين في الجناح الغربي بدوا سعداء. فباري جاكسون، الذي كان قد حل محل كارل روف بوصفه مستشار الرئيس السياسي، قال إنه كان مسروراً من رؤية اتخاذي موقفاً حازماً على صعيد تأييد التعديل الثاني. لم يفاتحني الرئيس ولو بكلمة حول الموضوع. لا أعرف حتى اليوم ما إذا كان قد قاطع موقف وزارة العدل أم ترك الأمر لجوش بولتن. إلا أن ذلك كان خطأ. لم يكن ثمة ما يدعونا إلى التراجع عن دعمنا القوي للتعديل الثاني. ووافقت المحكمة العليا على ذلك، مؤكدة صوابية قرار محكمة الاستئناف بتاريخ 26 حزيران/

يونيو، 2008. وفيما بعد علق القاضي أنتونين سكاليا مازحاً أن المحكمة لم تهتد إلى كيفية الحكم، إلى أن "ظهرت مداخلة نائب الرئيس" وللرب الحمد.

في الساعة الثالثة تماماً من بعد ظهر يوم الخميس الواقع في 20 آذار/مارس 2008، حطت حوامتي على أرض قاعدة باغرام الجوية، الواقعة على مسافة سبعة وعشرين ميلاً إلى الشمال من كابول. وقاعدة باغرام هذه، التي أنشئت بداية في أثناء الغزو السوفييتي، هي اليوم إحدى أكبر القواعد الأمريكية في أفغانستان. انضممت إلى بعض جنودنا لتناول العشاء في ذلك المساء. كثيراً ما كنت أشارك في احتفالات إعادة التطويع أو منح المكافآت لدى قيامي بالزيارات إلى القوات في الميدان. كان من دواعي الفخر أن تتاح للمرء فرصة رؤية جنودنا الشباب على خطوط الجبهة رافعين أيديهم أداء لقسم تأييد دستور الولايات المتحدة والدفاع عنه. في حفلات الجوائز كثيراً ما كان يطلب مني تعليق الأوسمة وتثبيتها على صدور الجنود الذين كانوا قد أبدوا شجاعة وجرأة أنموذجيتين تحت وابل النار، ما من احتفال شاركت فيه بوصفي نائباً للرئيس كان أكثر جدارة بالتذكر من عشاء قاعدة باغرام الجوية في ذلك المساء.

في الخامس والعشرين من نيسان/أبريل 2007، كانت الاختصاصية مونيكا براون، ذات الأعوام التسعة عشر من العمر، وهي طالبة طب في الجيش من ليك جاكسون التكساسية، تسافر غسقاً في رتل بمنطقة باكتيكا الأفغانية، حين اصطدمت العربة التي خلفها بعبوة ناسفة بدائية، فأُصيب الجنود الخمسة الذين كانوا في العربة جميعاً بجروح بليغة. على الفور صار الرتل تحت وابل من نيران أسلحة خفيفة. دون تردد، قفزت براون مع رقيب مفرزتها، الركن جوزيه سانتوش، من عربتهما وهُرعا إلى الخلف حيث الهمفي الملتهبة. وفيما كانت عربات الرتل تحاول المناورة لتوفير الغطاء لبراون كي تتمكن من الاهتمام بالجرحى، بدأ المتمردون يطلقون قذائف الهاون. وتحت القصف الكثيف، نجحت براون، دون أن تهتم بسلامتها الخاصة، في نقل الجرحى إلى إحدى العربات لإبعادهم قليلاً عن أرض المعركة وطلبت من جنود آخرين مساعدتها على توفير الاستقرار لهم وإعدادهم للإخلاء. أحد الجنود الجرحى، الاختصاصي جاك

بودامي، قال عنها ما يلي: "من شأن القول إنها أحسنت التصرف أن يكون إجحافاً. كانت رؤيتها مدهشة حقاً وهي كاملة الهدوء، رابطة الجأش، عاكفة على العناية بشبابنا رغم كل ما كان يدور حولها. بين جميع الأطباء الذين كانوا معنا من أول العام إلى آخره كانت الحائزة على القدر الأكبر من ثقتي".

على شجاعتها، صارت الاختصاصية براون المرأة الثانية، فقط الثانية منذ الحرب العالمية الثانية، الفائزة بالنجمة الفضية. بعد تلاوة قصة مأثرتها، قمت بتثبيت الميدالية على صدر الاختصاصية براون. كان قادتها مصطفين بالقرب منها، ولم تكن ثمة أي عين جافة بين سائر عيون هؤلاء. لاحظت أن عيني عميل الاستخبارات الرئيسي المرافق لي، بات كولدول، كانتا أيضاً دامعتين. همس بشيء في أذن معاونه العميل الخاص ديل بوتيلو، وغادر قاعة الطعام، مكلفاً ديل بالمهمة. كان بات قد كوفئ بالنجمة الفضية في فيتنام حين كان هو الآخر في التاسعة عشرة من العمر. وكما شرح ديفيد آدنغتون للاختصاصية براون، فإن مشاهدة جندي أمريكي شاب آخر في منطقة قتال وهو يفوز بالمكافأة ذاتها كان أمراً مشحوناً بالعاطفة على نحو مفهوم بالنسبة إلى كولدول. حين عاد إلى داخل القاعة، مشت براون إليه وعانقته. تقاسما ميثاقاً مخترقاً للأجيال.

بعد بضعة أيام من الأعمال التي أدت إلى إكساب الاختصاصية براون نجمتها الفضية، نقلها الجيش تنفيذاً لأنظمته التي تحظر على النساء المشاركة في مهمات قتالية. بوصفي وزيراً للدفاع ونائباً للرئيس كنت قد أيدت الحظر المفروض على النساء في الوحدات القتالية. إلا أن جنديات مثل مونيكا براون بتن يجدن أنفسهن، على نحو متزايد، على خطوط الجبهة، وآيات بطولاتهن جعلتني أفكر بتعديل ذلك النظام الذي لا بد له من أن يعكس الطبيعة المتبدلة لحرب القرن الواحد والعشرين حيث لم يعد سهلاً دائماً التميز بين قتاليّ وغير قتاليّ، بين جبهة ومؤخرة. قائد براون نفسه أفاد بما يلي عنها: "طبيبنا النظامي كان في إجازة آنذاك. كان عندنا أطباء آخرون لنختار من بينهم، إلا أن براون أثبتت لنا أنها كانت أكثر تأهيلاً تقنياً من أي من نظرائها". رأيت أن انتزاعها من وحدتها كان خطأ[80].

* * *

هذه الزيارة في آذار/مارس، 2008، كانت رحلتي الرابعة إلى أفغانستان كنائب للرئيس. فمنذ إطلاق عملية الحرية الدائمة في تشرين الأول/أكتوبر 2001، كان جيش الولايات المتحدة، وشركاؤنا في التحالف، والشعب الأفغاني قد حققوا إنجازات كثيرة، مطيحين بنظام الطالبان، وحارمين القاعدة من القواعد التي كانت قد خططت منها هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ومعتقلين أو قاتلين أعداداً كبيرة من قيادات القاعدة العليا. كان الشعب الأفغاني قد انتخب رئيساً للجمهورية وبرلماناً. كانت الولايات المتحدة وحليفاتها قد وفرت مليارات الدولارات مساعدات اقتصادية لدعم القيادة الأفغانية الجديدة وجهودها الرامية إلى بناء دولة حرة، وآمنة، وذات سيادة.

على الرغم من جملة هذه الإنجازات، رحنا، مع حلول عام 2006، نرى نزوعاً مثيراً لقدر كبير جداً من القلق. فالعنف المتضائل عبر أشهر الشتاء مع قيام الطقس بجعل القتال صعباً، زاد زيادة لافتة في فصلي الربيع والصيف، وصار كل عام يجلب معه هجمات أكثر من العام الذي سبقه. منظمتا القاعدة والطالبان كانتا قد عادتا إلى احتلال مواقع حصينة، وكان الرئيس بوش، في نهاية عام 2006، قد أمر بزيادة حجم القوات من 21,000 إلى 31,000 في غضون عامين.

في أوائل 2007، كنت قد سافرت إلى المنطقة للتباحث مع الرئيسين قرضاي ومشرّف. اصطحبت نائب مدير السي آي إيه، ستيف كابس، إلى الباكستان في 2007، وناقشنا مع مشرف موضوع المناطق القبلية على الجانب الباكستاني من الحدود مع أفغانستان، تلك المناطق التي كانت منظمتا الطالبان والقاعدة، كلتاهما، تستخدمانها لإعادة التجمع والتسلح قبل عبور الحدود لاستئناف الهجمات. كان مشرف قد حاول اجتراح نوع من الصفقة يوافق فيها على منع القوات الباكستانية من التدخل في المناطق القبلية المدارة اتحادياً إذا وافق الزعماء القبليون على حرمان القاعدة والطالبان من الملاذات الآمنة. لم تكن

الصفقة ناجحة. وعلى الرغم من أن مشرف واصل التعبير عن تأييد جهودنا في اللقاءات الخاصة، فإن التزاماته تعرضت لقدر متزايد باطراد من عدم الترجمة إلى أفعال من جانب حكومته.

غادرتُ إسلام آباد يوم 26 شباط/فبراير، وطرتُ إلى قلب قاعدة باغرام الجوية. بعيد الهبوط، ثار إعصار عنيف، أدى إلى جعل طيراني مسافة الأميال الثلاثين إلى كابول متعذراً. لأسباب أمنية لم أكن أستطيع الذهاب براً بالسيارة. تعين علي إما إلغاء لقائي مع قرضاي أو تمضية الليل في باغرام، آملاً أن يصحو الجو مع الصباح. ونظراً لأهمية العلاقة البالغة الحساسية، فإن حذف اللقاء من برنامج الرحلة لم يكن خياراً.

صباح اليوم التالي، كنت أستعرض مواد إيجازي الصباحي، حين سمعت دوي انفجار - شديد ولكن من الواضح أنه بعيد بعض الشيء. سارع الجهاز السري إلى إدخالي في ملجأ خرساني، ثم ما لبثت أن علمتُ أن انتحارياً كان قد فجر نفسه على البوابة الأمامية، قاتلاً ثلاثة وعشرين جندياً بينهم أمريكيون. لاحقاً ادعت منظمة الطالبان مسؤوليتها وقالت إنها كانت تستهدفني. وبصرف النظر عما إذا كان الادعاء صحيحاً أم لا، فإن الهجوم نفسه كان، على نحو مأساوي، مثالاً أنموذجياً للعنف الحاصل في أفغانستان.

حين التقيت قرضاي في كابول، عبّر الرجل عن امتنانه للدعم الأمريكي. حدثني عن الوقت الذي كان قد أمضاه لاجئاً، يعيش في أحد المخيمات بالباكستان، متنقلاً عبر الحدود، محاولاً إقناع الزعماء القبليين بضرورة إطاحة نظام الطالبان. أفاد بأن السؤال الذي كان هؤلاء يطرحونه دائماً: "هل الأمريكيون معكم؟" وقال قرضاي إن زعماء القبائل كانوا سيباشرون القتال حين علموا أنهم كانوا قادرين على الاستناد إلى دعمنا لهم. عبر الرئيس الأفغاني عن شعوره بأن قرار الرئيس بوش القاضي بزيادة حجم القوات إضافة إلى تخصيص ما يقرب من 11 ملياراً من الدولارات كمساعدات إعادة بناء إضافية إشارة بالغة الوضوح بأننا كنا معه. إلا أن قرضاي لم يكن متحرراً من صعوبات بعضها من صنعه وأخرى كثيرة من منابع مختلفة.

كان ثمة أسباب غير قليلة لجملة التحديات الجدية التي كنا ولا نزال

نواجهها في أفغانستان. أولاً، تتضافر جملة عوامل: جغرافيا البلاد، وتاريخها، ومجتمعها القبلي، وفقرها المتطرف لتجعلها مكاناً عصياً على الحكم. ثانياً، إنها المنتجة الأكبر للهيروين في العالم، ملبية وحدها الطلب في أوروبا. فصناعة الخشخاش تتمخض عن سيولة نقدية هائلة تمول أمراء الحرب وتشجع الفساد. ثالثاً، الفقر المدقع يجعل بناء دولة ذات سيادة، وحرة، وآمنة، أصعب بكثير من نواحٍ عديدة بالنسبة إلى العراق، حيث تتوفر احتياطيات نفطية تزيد على مئة مليار من البراميل. في الأشهر الأخيرة كان ثمة اكتشاف ذو شأن من الرواسب المعدنية في أفغانستان. آمل أن يتمكن هذا الاكتشاف ذات يوم من توفير الموارد التي تحتاجها أفغانستان لتزدهر. رابعاً، نهجنا التعددي في العمل بأفغانستان يبقى منطوياً على نقاط قوة من ناحية ومواطن ضعف من ناحية أخرى في الوقت نفسه. كنا محظوظين بعدد كبير من الحلفاء الشجعان في صفنا، بيد أن بعض قواعد الاشتباك المفروضة من قبل الحكومات الوطنية جعلت التعويل عليهم في المنعطفات الخطرة صعباً. أتذكر كلام عقيد شرح لي استياء قوات أمريكية إزاء تحليق طائرة ميراج فرنسية واحدة فقط للاضطلاع بمهمة توازي تحليقاً غير مسلح حين طلبت ضربات جوية.

من المعلوم أيضاً أن ترتيبات كنا قد وافقنا عليها في 2002 لتوزيع مسؤوليات إعادة البناء أثبتت أنها أقل نجاحاً مما كنا قد توقعنا. ثمة حكومات أخفقت في مواصلة الاضطلاع بالتزاماتها، ما أدى إلى بقاء قطاعات كبيرة من عمليات إعادة البناء غير منجزة أو غير ممولة.

أخيراً، ولعله الأهم، ثمة مشكلة الباكستان. جدير بنا أن نتذكر أن الباكستان كانت، قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، إحدى ثلاث حكومات فقط في العالم معترفة بالطالبان. رسمياً أقدم مشرف على بتر تلك الروابط، وقد تعاون الباكستانيون معنا في إلقاء القبض على بعض أهم القادة في الحرب على الإرهاب، بمَن فيهم خالد شيخ محمد وأبو زبيدة. إلا أن قطاعاً إسلامياً متطرفاً كبيراً وناشطاً من السكان كان حانقاً على تعاون الباكستان مع الولايات المتحدة، وما لبث مشرف أن أصبح هدفاً لمحاولات اغتيال. نجا من محاولتين في غضون أحد عشر يوماً في كانون الأول/ديسمبر من عام 2003. كان ثمة أيضاً، في قلب

الحكومة الباكستانية، أشخاص مستمرون في دعم الطالبان، ما أدى، بين أمور أخرى، إلى تعطيل جهود تطهير المناطق القبلية. كذلك كان للقاعدة، هي الأخرى، أنصارها المتعاطفون معها، كما يبدو بقاء أسامة بن لادن في أبوتاباد نحو ست سنوات أمراً ذا معنى.

بعد زيارتي لمشرف في 2007، تعرض موقعه لقدر متزايد من الوهن. أقدم على إزاحة رئيس المحكمة العليا الباكستانية، الأمر الذي أدى إلى تدفق آلاف المحتجين على الشوارع. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، قام بتعليق الدستور الباكستاني وأعلن الحكم العرفي (أحكام الطوارئ). ألغى ذلك في 15 كانون الأول/ديسمبر، واعداً بالذهاب إلى انتخابات حرة ونزيهة. ثم، في 27 كانون الأول/ديسمبر 2007، تم اغتيال رئيسة الوزراء السابقة بناظير بوتو، التي كانت قد عادت إلى الباكستان لتولي قيادة حزبها في الانتخابات البرلمانية. وفي العام التالي تمت إزاحة مشرف ديمقراطياً. خلفه آصف علي زرداري زوج بناظير المرمل.

ظلت جهودنا في أفغانستان متعثرة جراء تعرضها لتعطيل وإعاقة الملاذ الآمن الذي كانت الباكستان توفره لمنظمتي الطالبان والقاعدة. قمنا برفع مستوى استخدامنا للطائرات المسلحة غير المأهولة [بدون طيار] وقد طلب رئيس الجمهورية من فريق الأمن القومي عنده إجراء مراجعة للوضع في أفغانستان، شبيه بما كنا قد فعلناه في العراق عام 2006. نتائج المراجعة، التي استُكملت بعد انتخابات 2008، دعت إلى توفير المزيد من الموارد والتركيز على محاربة العصيان المسلح. طلب الرئيس من ستيف هادلي أن يفاتح الجنرال جيم جونز، نظيره الجديد في الإدارة الأوبامية، ليحدثه عن المراجعة ويبلغه أننا نستطيع إما نشر النتائج للملأ أو تمريرها دون ضجيج إلى الفريق الجديد ليتمكن من توظيفها دون تدخل السياسة. طلب الجنرال جونز تمرير التقرير بهدوء، ففعلنا. في ضوء ذلك، فوجئت بعض الشيء في العام التالي حين سمعت رئيس أركان أوباما، رام إيمانويل، يؤكد أننا كنا قد تركناهم دون خطة[81].

في أغلب الأحيان، بقيت جهودنا في أفغانستان متمتعة بدعم جناحي السياسة الأمريكية: الجمهوري والديمقراطي. فالديمقراطيون المدمنون على

معارضتنا في كل خطوة نخطوها في العراق، كانوا يقفون في صفنا بالنسبة إلى أفغانستان. في لقاء استضاف فيه الرئيس كبار موظفي الأمن القومي وقادة الكونغرس، تحدث زعيم الأكثرية ستني هوير معبراً عن دعمه القوي قائلاً: "جميعاً نستطيع أن نتفق معكم على هذا. هذا ما يجب أن نكون مركزين جهودنا عليه؛ إنه المكان الذي شهد انطلاق الحرب على الإرهاب".

شكرته على تأييده، إلا أنني لاحظت أننا ما كنا لنستطيع أن نتوقع خوض هذه الحرب وكسبها لو رأينا أفغانستان بوصفها الجبهة المشروعة الوحيدة. أضفت: "الحدود الوطنية لا تعني شيئاً، ببساطة، بالنسبة إلى الإرهابيين". أتيت على ذكر مثال الإرهابي الذي كنا قد ألقينا القبض عليه مؤخراً والذي كان عراقي المولد وأمضى عدداً من سنوات التدريب في أفغانستان. ثم سافر إلى تركيا وهو الآن في أحد معتقلاتنا هناك بأفغانستان. كذلك أوردت مثال أبو مصعب الزرقاوي الذي كان أردني المولد، مديراً لأحد معسكرات التدريب على الإرهاب في أفغانستان لسنوات، والذي كنا قد قتلناه، آخر المطاف، في العراق. ببساطة شديدة لم تكن عبارات: "نحن معكم في أفغانستان، ولكننا لن نخوض هذه الحرب الكونية في أي مكان آخر، التي بدا أن عدداً من الديمقراطيين يطلقونها" ذات معنى على أي من الصعيدين الاستراتيجي أو العملياتي.

طفرة الزيادة التي قضت بإرسال 33,000 جندي إلى أفغانستان في آخر عام 2009 بأمر من الرئيس أوباما كانت بدعم من الحزبين الديمقراطي والجمهوري كليهما. بعد ذلك بدأنا نقطع أشواطاً لافتة على طريق إلحاق الهزيمة بالطالبان في أفغانستان الجنوبية، وكان قادتنا قد خططوا لتوفير قوات إضافية عبر موسم قتالي ثانٍ بما كان يمكنهم من تركيز جهودهم على ضرب معاقل الطالبان والقاعدة في الجزء الشرقي من البلاد. غير أن تلك الخطة باتت الآن في خطر. ففيما كنت عاكفاً على تأليف هذا الكتاب في صيف 2011، بادر الرئيس أوباما إلى الإعلان أنه سيكون مع حلول أيلول/سبتمبر 2012 قد سحب 33,000 جندي من أفغانستان. سيكون مشغولاً بسحبها في منتصف موسم القتال في العام التالي.

ليس ثمة، على ما يبدو، أي منطق عسكري خلف البرنامج الزمني الذي

أعلنه الرئيس. لعل التوقيت مستند، بالأحرى، إلى روزنامة ذات علاقة بالانتخابات الرئاسية في العام القادم. فالرئيس أوباما يبدو عازماً على إخراج طفرة الزيادة في القوات من الحلبة قبل توجه الأمريكيين إلى أقلام الاقتراع.

من شأن الاستراتيجية الأوبامية أن تكون منطوية على عواقب مدمرة، لا في أفغانستان وحسب بل عبر المنطقة كلها. فالناس الذين كانوا مستعدين لتقديم أرواحهم والمخاطرة بحيواتهم عندما اختاروا التعاون مع أمريكا والتصدي لمنظمة الطالبان وغيرها من التنظيمات الإرهابية سيبادرون الآن إلى إعادة النظر بتحالفهم مع القوات الأمريكية. من المحتمل أن يعمد أعضاء في حلف الناتو إلى سحب قواتهم بوتيرة حتى أسرع من الولايات المتحدة. ستتعرض قابلية الولايات المتحدة للتأثير في الأحداث عبر المنطقة كلها في أمكنة مثل الباكستان، والعراق، وإيران، لقدر لافت من التضاؤل والانكماش.

لا يسعني إلا أن أجري نوعاً من المقارنة مع جورج بوش في 2007. حين أقدم الرئيس بوش على إحداث طفرة زيادة القوات في العراق جوبه بقدر لافت من الضغوط لإجباره على عكس المسار، ولكنه تابع السير في طريق مواجهة المعارضة، مضاعفاً حجم القوات الأمريكية وصولاً إلى تطبيق استراتيجية محاربة التمرد المسلح التي مكنتنا من الانتصار. لم يسمح للاعتبارات السياسية الداخلية بالتدخل في مسؤولياته بوصفه قائداً عاماً.

كنا، الرئيس بوش وأنا، قد جئنا إلى المنصب ملتزمين بأطروحة أن تقليص الضرائب وتمكين الأفراد والمؤسسات من استعادة المزيد من الأموال كانت الطريقة المثلى لتشجيع النمو الاقتصادي. نجحنا في تأمين جولتين كبريين من التقليصات الضريبية، الأولى في 2001 والثانية في 2003، وكانتا قد ساهمتا في حفز النمو وخلق فرص العمل. وهذا الإنجاز كان استثنائي البروز على خلفية هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، التي تركت تأثيراً بالغ السلبية على الاقتصاد، إضافة إلى التكاليف اللاحقة لخوض الحرب على الإرهاب والحفاظ على أمن الأمة.

كنا أيضاً ملتزمين بضغط الإنفاق - مهمة كان أداؤنا فيها أحياناً أفضل من

أداء آخرين. لعل أحد الابتكارات التي استحدثناها مع بداية الإدارة هو فريق مراجعة الموازنة الذي توليت رئاسته. لم يكن الوزراء سعداء دوماً حين كانوا يسمعون من مكتب الإدارة والموازنة ما كانت حصتهم ستشكل في السنة، وكان الفريق المؤلف من رئيس أركان البيت الأبيض، ومدير مكتب الإدارة والموازنة، وأنا المكان الذي كانوا يستطيعون مراجعته للاستئناف. كان عمل الفريق جيداً ولم يكن ملزماً بالإكثار من الاجتماعات، ولا سيما بعد أن تمخض استئناف أحد الوزراء عن خفض أرقام ميزانية وزارته.

من المحتمل للجدل الدائر حول أسباب أزمة 2008 المالية أن يطول. محللون كُثر ممن قرأت لهم أو تابعتهم على شاشات القنوات التلفزيونية أجدهم متطرفي التبسيط، أكثر اهتماماً بإبراز الأوغاد - المصرفيين الجشعين وناسفي الضوابط المتهورين - منهم بمحاولة التوصل إلى فهم سليم. لعل التحليل الذي وجدته استثنائي العمق هو رأي الأقلية الوارد في تقرير مساءلة الأزمة المالية لعام 2011. ففي هذا التقرير يقوم عضو الهيئة كيث هَنَسي ودوغلاس هولتز - إيكن ونائب رئيس الهيئة بيل ثوماس بالإشارة إلى جملة معقدة من العوامل، بما فيها نوع من الطفرة في أسعار البيوت جاءت مترافقة بطفرة في الإقراض الرهني. مقتنعين بأن أسعار البيوت كانت ستستمر متصاعدة بقي الدائنون والمدينون على حد سواء مستعدين للانخراط في اتفاقات الرهن التي لم تكن قابلة لأن تدوم. تمثلت الفكرة بأن من شأن نمو سندات البيوت أن تمكن المشترين من إعادة التمويل في قروض هم قادرون على حملها لفترة طويلة. جرى تشجيع مقرضي الرهن استثنائياً على اختزال المخاطرة الكامنة في العملية لأنهم باعوا الرهونات ولم يتحملوا، آخر المطاف، الخسائر التي أنتجوها هم[82].

كيانان خاضعان لرعاية الحكومة، فاني ماي وفردي ماك، جنباً إلى جنب مع شركات في القطاع الخاص قامت بدمج رهانات، كثير منها عالي الخطر، في سندات مدعومة بالرهانات. وضعت وكالات التسليف هذه السندات في مراتب أعلى مما تستحق وأخفق حشد أكبر مما ينبغي من المؤسسات والمستثمرين في المساءلة بالقدر المطلوب واللازم من المثابرة والاجتهاد. ثمة مؤسسات بالغت في

المراهنة على سندات الرهن، وحين انفجرت فقاعة الإسكان تكبدت خسائر هائلة. ومثل هذه الخسائر، مصحوبة بالتفعيل المكثف، أوصلت بنك الاستثمار المعروف باسم بير ستيرنز إلى حافة الإفلاس في آذار/مارس 2008. وافقت مؤسسة جي بي مورغان أن تتدخل وتحوز بير ستيرنز، ولكن فقط بعد موافقة وزير الخزانة هانك بولسون، عاملاً مع تيم غيثنر، رئيس بنك الاحتياط الاتحادي في نيويورك، وبن بيرنانكه، رئيس الاحتياط الاتحادي، على قرض بمبلغ 30 ملياراً من الدولارات كجزء من الصفقة.

عملاق الرهن فاني ماي وفردي ماك كانا أيضاً يعانيان. منذ سنوات ظل آلان غرينسبان يحذر من المخاطرات التي كانا يقدمان عليها والسقط المحتمل. بنوك البلدات الصغيرة في طول أمريكا وعرضها دأبت على الاحتفاظ بأوراق صادرة عن فاني ماي وفردي ماك لتلبية حاجتها من رأس المال. وكان من شأن إخفاق فاني وفردي أن يجر وراءه إخفاقاً منهجياً. تبين أيضاً أن سندات فاني وفردي المستندة إلى الرهن كانت متداولة في أرجاء العالم من قبل مستثمرين مؤمنين بأنها مضمونة من جانب حكومة الولايات المتحدة. إخفاق فاني أو فردي كان، إذن، سيفضي إلى أزمة دولية. في 2003، كانت الإدارة قد اقترحت تشريعاً، عرقله بارني فرانك، الرئيس الديمقراطي للجنة المصارف البرلمانية، كان من شأنه أن يصلح هاتين المؤسستين وعززت الضوابط الحكومية لنشاطاتهما. ثم اقترحنا تشريعاً مشابهاً مرة أخرى، وتمت إعاقته من جديد من قبل مؤيدي فاني ماي وفردي ماك وأنصارهما، لا سيما في الكتلة الديمقراطية على الكابيتول هيل.

أخيراً، في تموز/يوليو 2008، والأزمة المالية على الباب، ثمة تشريع ينص على التنظيم تم اعتماده، وما لبث أن تمخض عن معاينة متأنية ودقيقة لحسابات فاني وفردي. وزير الخزانة، بولسون، أوصى بوضع المؤسستين تحت وصاية الحكومة، وافق رئيس الجمهورية على التوصية، وفي 7 أيلول/سبتمبر أمسكت الحكومة بزمام التحكم.

غير أن أي نهاية للأزمة لم تبد منظورة. مؤسسة ليمان برذرز، وهي مؤسسة مالية أمريكية أخرى، كانت على حافة الانهيار، وتعين أن نقرر ما إذا كنا سنتدخل ونبقيها عائمة. تمثل المفتاح بالاهتداء إلى طرف راغب في الشراء،

ولكننا ما لبثنا أن اكتشفنا عدم وجود طرف كهذا. أعلنت ليمان الإفلاس في 15 أيلول/سبتمبر 2008. بعضهم ساق تهمة أن ترك ليمان تهوي كان خطأ جسيماً تمخض بطريقة ما عن إحداث الأزمة المالية، ولكن أي طريقة قانونية، قابلة للتنفيذ من أجل إنقاذ ليمان لم تكن متوفرة كما قال هانك بولسون. يضاف إلى ذلك أن أحداث أيلول/سبتمبر 2008 تعاقبت بسرعة كبيرة بما كان يحول دون استفراد حدث واحد وحده كعامل تعجيل لها.

في نهاية أسبوع إخفاق ليمان، وافقت مريل لينتش أن يشتريها بنك أمريكا يوم الثلاثاء التالي، للحيلولة دون انهيار المجموعة الدولية الأمريكية [أمريكان أنترناشيونال غروب (AIG)]، تلك المؤسسة التأمينية والمالية الدولية العملاقة التي كانت قد ضمنت الالتزامات المدعومة رهنياً. تدخل الاحتياطي الاتحادي بقرض بلغ 85 ملياراً من الدولارات، مقابل انتقال ملكية نحو 80 بالمئة من أسهم المجموعة الدولية الأمريكية إلى الحكومة الأمريكية.

كان واضحاً أن ما كنا نواجهه كان يتطلب أكثر من عمليات تدخل فردية، لا سيما بعد أن بات واضحاً أن أسواق التسليف الأمريكية بدأت تغلق أبوابها. شركات عملاقة تحتل مراتب مصداقية عالية، مثل جنرال إلكتريك، كانت عاجزة عن تلبية متطلباتها القصيرة المدى من السيولة. أحد صناديق سوق النقد "كسر الدولار" - كان عاجزاً عن إعادة دولار واحد على الأقل مقابل كل دولار موظف. والتشعبات كانت شاملة للاقتصاد من أوله إلى آخره. كثيراً ما يتحدث الناس عن الفرق بين وول ستريت ومين ستريت، إلا أن الاعتماد كان يغدو مشكلة بالنسبة إلى الجميع من الجنرال الكتريك إلى امرأة الأعمال الحائزة على ترخيص ماكدونالد. كانت هذه الأزمة مرشحة للتأثير لا على المدراء التنفيذيين الكبار وحسب، بل والمتقاعدين المعتمدين على عصبة الأربعمئة وواحد. تذكرت جد أبي، صمويل فلتشر تشيني، الذي خسر في 1896 مسكنه مع ما حوله من أرض حين لم يستطع أن يقترض. وفكرت بجدي أنا الذي خسر كل شيء تقريباً حين أفلس مصرفه في بداية أزمة الكساد الكبرى. ما كانت الولايات المتحدة تواجهه في أيلول/سبتمبر 2008 بدا مرشحاً لتدمير الأمريكيين في سائر مجالات الحياة كما كان الكساد الكبير قد فعل.

كان البلد محظوظاً إذ توفر لرئيسه مثل هذا الفريق الاقتصادي المميز لتولي معالجة الأزمة التي واجهتنا. فإيدي لازير، رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين، كان مفكراً مبدعاً دائم التقدير والإدراك الكامل، ولا سيما في الوضع غير المسبوق الذي تصدينا له. بن بيرنانكه، رئيس الاحتياطي الاتحادي، كان ذا حضور هادئ وعميق التفكير. كان من خريجي مدرسة أزمة الكساد الكبير، وحين كان يصرح أن الوضع الذي كنا فيه قد يكون حتى أسوأ من ذلك، كان الناس يصغون إلى ما كان يقوله. فكرت أنه كان مؤهلاً للاضطلاع الفعال جداً برئاسة مجلس المستشارين الاقتصاديين، وحين قابلته في أثناء بحثنا عن رئيس للاحتياطي الاتحادي ليتولى الأمر بعد ترك آلان غرينسبان، كان قد أثار إعجابي. بل وقد كان إعجابي به حتى أكثر في أثناء الأزمة عام 2008. ربما كان مزاجه الهادئ قد حجب جملة التحركات الجريئة جداً التي كان قد ألزم الاتحادي بها لانتشالنا من الهاوية. فالدور الذي لعبه لم يحظ عموماً، حسب ما أرى، بما استحقه من تقدير.

أما وزير الخزانة هانك بولسون فكان ذا حضور مدوٍّ أضفتْ عليه تجربتُه بوصفه الضابط التنفيذي الأول لغولدمان ساشس معرفة عملية بوول ستريت ما كان أحد آخر في الإدارة يضاهيه بها. بقيت تلك المعرفة قيمة لا تقدر بثمن مع تراكم المشكلات مشكلة بعد أخرى. صُعقت أيضاً وأنا أتابع بولسون وهو يعمل بهول العبء الجسدي الذي كانت الأزمة تلقيه على كاهله. وقد وصف في الكتاب الذي ألفه لاحقاً كيف أن عدم النوم كان يجعله يعاني من عدد من حالات الغثيان الجاف يومياً. أحياناً كان ينهض واقفاً في الاجتماعات خشية تشنج ظهره إذا عاد إلى الجلوس. ومهما كانت التحديات التي واجهها في إدارة غولدمان ساشس - وقد كان آية للنجاح هناك - فإن التعامل مع أزمة مؤثرة في الأمة والعالم كان أكبر.

أتذكر نفسي متأملاً مدى رسوخ الرئيس في أثناء المحنة الاقتصادية كلها. بقي ثاقب البصيرة وناجحاً جداً في التعامل مع الضغوط. تعامل بفعالية مع بعض أصعب المشكلات التي سبق لأي رئيس أن واجهها وأعقدها.

يوم الخميس الواقع في 18 أيلول/سبتمبر كنت مسافراً حين كان فريق

الرئيس الاقتصادي مبرمجاً ليقدم خطة الإنقاذ التي كان قد اجترحها. هاتفني كل من مساعد الرئيس للتخطيط الاقتصادي كيث هنسي، وكبير مستشاري التخطيط الداخلي عندي نيل باتيل، وأنا على متن طائرة سلاح الجو رقم اثنين لإطلاعي على التفاصيل: ضمان ودائع سوق المال، ومبادرة لاستعادة السيولة إلى سوق الأوراق التجارية من الاحتياطي الاتحادي، ومسمار العجلة: خطة شراء 700 مليار دولار من السندات المدعومة رهنياً، تلك السندات التي تهدد مؤسسات رئيسية وتتسبب بشل الاعتماد. طالما كنت من أنصار إبقاء التدخل الحكومي في القطاع الخاص عند حدود دنيا. ما كنا نتحدث عنه الآن كان التدخل الأكبر في تاريخ الجمهورية، وكنت مؤيداً قوياً. قلت لهنسي إنه كان يستطيع أن يبلغ الرئيس أنني خلف الحزمة وقد كررت تأكيد الموقف في لقاء خاص مع الرئيس في المكتب البيضوي صباح اليوم التالي. لم يكن ثمة أي خيار آخر.

كنت أعلم أن الكونغرس كان سيتصدى لمثل هذه الخطة. فالجمهوريون الذين كانوا ينتظرون معارك إعادة انتخاب قاسية لم يكونوا تواقين للإدلاء بأصوات من شأنها أن تبدو انتشالاً للوول ستريت تحديداً في لحظة كانت تشهد تعرض أعداد كبيرة من أعمال المين ستريت لأضرار بالغة. حين تم إقرار قانون شركة ضمان الودائع الاتحادية في 1991، فإنه تضمن لغة كان من شأنها أن تسمح بحقن رئيسي لأرصدة على نحو مباشر في النظام المصرفي بموافقة رئيس الجمهورية، ووزير الخزانة، وأكثرية مجلس الاحتياطي الاتحادي، في حال تعرض تماسك نظامنا المالي للخطر. إلا أن بن بيرنانكه ما لبث أن أوضح أنه كان سيشعر بقدر أكبر من الارتياح لو تم الحصول على موافقة البرلمان، فانطلقنا للعمل من أجل ضمان مثل هذه الموافقة من الكونغرس.

كان بولسون ناجحاً جداً في التعامل مع ديمقراطيي الكونغرس وقد أمضى وقتاً طويلاً مع الرئيسة بيلوسي، ورئيس لجنة المصارف البرلمانية بارني فرانك، وزعيم الأغلبية ستني هوير محاولاً وضع الحزمة في سلة واحدة. جمهوريو المجلس شعروا بالاستبعاد وسرعان ما غضبوا وراحوا يرفضون الانخراط في أي اجتماعات مع الوزير بولسون. تلقيت مخابرة من زعيم الأقلية في المجلس جون بويهنر الذي طلب مني المجيء إلى الهيل لإطلاع الجمهوريين على الموقف.

يوم الثلاثاء الواقع في 23 أيلول/سبتمبر غادرت الجناح الغربي في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين متوجهاً إلى الكابيتول. كنت مصطحباً كلاً من كيث هنسي وكيفن وارش، أحد أعضاء مجلس مدراء الاحتياطي الاتحادي. عندما دخلنا قاعة الاجتماعات الكبرى في الكابيتول، كان مؤتمر جمهوريي المجلس قد اجتمع سلفاً وقد خصني الحضور باستقبال حار جداً. عبروا عن الدعم نفسه حين ودعوني بالحماسة ذاتها لدى مغادرتي. ولكن عدداً من الأعضاء أوضحوا، فيما بين لحظتي الوصول والمغادرة، بما لا يترك مجالاً للشك أنهم لم يكونوا مستعدين لتأييد برنامج إغاثة الأصول المرتبكة (TARP)، كما كان قد بات يعرف، البالغ 700 مليار من الدولارات. برزت مشكلات كثيرة، لكن أكبرها تمثلت بكوننا قد سمحنا بإعطاء الحزمة عنوان "كفالة الوول ستريت" ما ترك انطباعاً بأننا كنا نعطي قطط الوول ستريت السمان أموال دافعي الضرائب بدلاً من السعي للحيلولة دون حصول انهيار مالي شامل. بالإضافة إلى ذلك، لا أظن أننا كنا قد نجحنا في تبصير الجمهور حول مدى هول العواقب المحتملة في حال القعود عن المبادرة. صديق قديم وعضو من تكساس يدعى جو بارتون وقف في اجتماع الكتلة وراح، بعد المبالغة في كيل المديح لي شخصياً، ينتقد برنامج الإغاثة انتقاداً شديداً. أفادني بأنه كان قد تلقى أكثر من أربعة آلاف مكالمة في مكتبه الإقليمي حول هذه القضية وأربع مكالمات فقط تضمنت حضاً له على تأييد مشروع القانون. تجربته كانت أنموذجية عما كان أعضاء جمهوريون آخرون يواجهونه، وقد تفهّمتُ شعورهم وشعور دوائرهم الانتخابية بالإحباط. أعداد مفرطة الضخامة من الناس لم تكن تولي إلا قدراً مفرط الضآلة من الاهتمام لجملة المخاطر المنتظرة - حيث كان دافعو الضرائب قد باتوا الآن عالقين بالصنارة. غادرت الجلسة وأنا أقدر أن احتمال تصويت خمسين جمهورياً معنا كان سيعني أننا محظوظون لو جرى التصويت في ذلك اليوم.

عدت إلى الهيل بعد بضع ساعات لحضور اجتماع غداء الشيوخ الجمهوري الأسبوعي. كانت ثمة معارضة لبرنامج إغاثة الأصول المرتبكة في مجلس الشيوخ أيضاً. فالشيخ جيف سسيونز من ألاباما، وهو مؤيد صلب عادة

للإدارة، بادر إلى رفع الصوت بقوة ضد مشروع القانون. إلا أننا كنا متوفرين أيضاً على بعض الدعم، إذ تناوب بعد سسيونز كل من جود كريغ من نيوهامبشاير، وتوم كوبورن من أوكلاهوما، ومايك إينزي من وايومنغ، وكيت بوند من ميسوري على الكلام متحدثين جميعاً عن السبب الكامن وراء الأهمية البالغة لمشروع القانون. بقيت جالساً بصمت. في آخر المطاف بلغ عدد الشيوخ الذين تكلموا معبرين عن التأييد ستة، في حين لم يكن هناك إلا تصريح سلبي واحد. قررت أن لا حاجة لأي كلام من جانبي.

في الرابع والعشرين من أيلول/سبتمبر 2008، أعلن المرشح الرئاسي الجمهوري جون ماكين عن تعليقه لحملته الرئاسية والعودة إلى واشنطن من أجل التعامل مع الأزمة المالية. بكل صراحة كانت تلك حركة فاجأت كثيرين منا في البيت الأبيض. بعد كل شيء لم يكن هناك شيء ذو شأن يمكن لجون بالفعل أن يقوم به، وبدا أمر الإعلان عن تعليق الحملة والعودة إلى واشنطن دون إيضاح ما يمكن إنجازه منطوياً على قدر غير قليل من المخاطرة. إلا أننا كنا نريد الفوز لماكين، وحين طلب من الرئيس عقد اجتماع للقيادة الكونغرسية في غرفة مجلس الوزراء بالبيت الأبيض لمناقشة الأزمة المالية، لم يتردد الرئيس في تلبية الطلب. قام الرئيس بدعوة الشيخ أوباما، خصم ماكين، وطلب منه الحضور أيضاً. ما تكشف ذلك اليوم في الجناح الغربي ربما كان فريداً في حوليات المباريات الرئاسية الأمريكية.

كان قادة الكونغرس مجتمعين حين دخلنا، الرئيس وأنا، إلى غرفة مجلس الوزراء من المكتب البيضوي. دار يميناً إلى مقعده، محيياً أشخاصاً في طريقه. ودرت أنا يساراً لأحتل مقعدي عبر الطاولة قبالته. لم يكن قد مضى على وجودي هناك سوى بضع دقائق حين اقترب الشيخ أوباما للمصافحة والتحية. تلك كانت لفتة حصيفة، وقد بدا بالغ الارتياح ورابط الجأش. بادر الرئيس إلى دعوة رئيسة المجلس بيلوسي إلى افتتاح الجلسة باسم الديمقراطيين، وحاولت هي، بدورها، أن تذعن لزعيم الأكثرية في مجلس الشيوخ، هاري رايد، الذي قال: "سيادة الرئيس، لقد قررنا أن يكون الشيخ أوباما متحدثاً باسمنا جميعاً". أحال

رايد المنصة على الشيخ أوباما، في خطوة نجحت مباشرة في جعل المرشح الرئاسي الديمقراطي نظيراً لأكبر القادة في الغرفة - وألبسته ثوب الند لرئيس الجمهورية. كان أوباما بليغاً بقوله إن علينا إقرار مشروع القانون، مؤكداً مدى جدية الوضع، وعارضاً تقديم كل تأييد كان يستطيع تقديمه. وَخَزَ الجمهوريين قليلاً على ترددهم، وخزاً لم يكن كافياً للاستفزاز، غير أنه كفى لإعادة الكرة إلى ملعبنا.

حين التفت الرئيس إلى الشيخ ماكين داعياً إياه إلى الكلام، اعتذر. شكل الأمر مفاجأة لأنه هو الذي كان قد دعا إلى الاجتماع في المقام الأول. وبعد قيام عدد من الأشخاص بالتعبير عن آرائهم، وكانت سلبية بأكثريتها، عاد الرئيس إلى ماكين. هذه المرة نطق، ولكن باسمه فقط. كان نقيضاً صارخاً لأوباما، الذي كانت كلماته مشحونة بمرجعية ونفوذ جميع الديمقراطيين في الغرفة. لم يضف الشيخ ماكين شيئاً ذا معنى. كان سبب عودته إلى واشنطن ورغبته في عقد اجتماع للقيادة الكونغرسية غامضاً كلياً. غادرتُ غرفة مجلس الوزراء عند انتهاء الاجتماع متوقعاً للبطاقة الرئاسية الجمهورية أن تكون في مشكلة.

دأبنا، الرئيس وأنا، على إبقاء خطوط الهاتف مشغولة عبر مواصلة الاتصال مع أعضاءٍ أفراد من الكونغرس، محاولين إقناعهم بأهمية هذا النص التشريعي. نجحت في حث عضوة الكونغرس برباره كوبن، الوايومنغية الوحيدة في المجلس، على تبني فكرة تأييد المشروع. بالطبع، كانت موشكة على التقاعد ولم تكن مضطرة للانشغال بإعادة الانتخاب. إلا أنني كنت سعيداً بأن أبلّغ الرئيس حصولي على مئة بالمئة من التمثيل الوايومنغي في المجلس. أما هو فلم يكن قد زحزح أياً من ممثلي تكساس؛ لعله وضع غير مألوف. وحين جرى التصويت في 29 أيلول/سبتمبر، لم نحصل إلا على 65 صوتاً جمهورياً، وهُزمت سلة برنامج إغاثة الأصول المرتبكة من جراء عدم حصولها إلا على 205 أصوات مقابل 228 صوتاً. تدهورت مؤشرات الأسهم بعد ظهر ذلك اليوم 777 نقطة، ضاربة الرقم القياسي في الهبوط في غضون يوم واحد.

مشروعات القوانين ذات العلاقة برفع الدخل الحكومي (الريع) يتعين عليها أن تنطلق من المجلس (مجلس النواب لا مجلس الشيوخ). ولأن هذا المجلس

كان، للتو، قد أجهز على سلة مشروعات برنامج الإغاثة، كنا بحاجة للبحث عن طريقة تمكننا من الانطلاق من مجلس الشيوخ، حيث كنا واقفين على حقيقة تمتعنا بالتأييد. كنا قادرين على توظيف مشروع قانون ضريبي سبق له أن مر بالبرلمان كمسوِّغٍ لتكرار المحاولة. رؤية مؤشر الأسهم والسندات يهوي نحو ثمانمئة نقطة كانت ذات تأثير في عدد من الأعضاء الذين كانوا قد اقترعوا سلبياً في الجولة الأولى. أدى الأمر إلى تسليط الضوء على التكاليف الفعلية لفقدان الثقة بالقطاع المالي الأمريكي وإلى فرض ضرورة التحرك. يوم الأربعاء الواقع في الفاتح من تشرين الأول/أكتوبر، أقر مجلس الشيوخ تشريعاً كان من شأنه توفير إمكانية شراء الأصول المضطربة، ووافق عليه المجلس يوم الجمعة الواقع في الثالث من الشهر بأكثرية 263 مقابل 171 صوتاً. بعيد الاقتراع بالموافقة بادر كل من الوزير بولسون، والرئيس بيرنانكه، ورئيس الاحتياطي الاتحادي النيويوركي غيثنر، إلى التوصية بتوظيف 250 مليارًا من دولارات برنامج الإغاثة في عمليات حقن رساميل في جسم النظام المصرفي. وافقتُ على هذه المقاربة. كنا في مواجهة وضع حيث كان يمكن لقيمة الأصول المضطربة أن تصل إلى أرقام لا تقل عن 5 تريليونات من الدولارات، ولم نكن راغبين في المخاطرة باختفاء 700 مليار من الدولارات دون تأثير. بالمقابل، إذا وضعنا دولاراً واحداً في هذا البنك أو ذاك، فإن من شأن تلك المليارات أن تؤدي إلى مضاعفة المبلغ عشر مرات لتعظيم تأثير المال.

بقيت سلة تشريعات برنامج الإغاثة سجالية مثيرة للجدل، وكانت بالفعل قضية استخدمها مرشحون ناجحون كثر ضد برلمانيين كانوا قد أيدوا، في انتخابات 2008 العامة. ولكن من الواضح الآن، وأنا عاكف على كتابة هذه الأسطر في 2011، أن برنامج إغاثة الأصول المضطربة كان آية في النجاح. فبرأي أستاذ الاقتصاد روبرت ساموليسون، تمكنت الخزينة، سلفاً، من استعادة ما يقرب من مبلغ 244 مليارًا من الدولارات من أصل الـ 245 مليارًا الموظفة في البنوك. وتتوقع الخزينة أن تسجل في آخر المطاف ربحاً إجمالياً من قسم برنامج الإغاثة من التوظيفات المصرفية يصل إلى نحو 20 مليارًا من الدولارات[83].

في غضون أسابيع قليلة بعد إقرار برنامج الـ 700 مليار من الدولارات

أبلغتنا جنرال موتورز أنها ما كانت لتنجو وتبقى على قيد الحياة لولا التدخل الحكومي الوازن. كانت ثمة لغة في تشريع برنامج الإغاثة مؤهلة لتمكيننا من توظيف جزء من الأرصدة لتغطية حزمة ديون لشركات السيارات، إلا أنني بقيت متحفظاً إزاء الأمر. في وقت مبكر من أيامي في الكونغرس، كنت قد عارضت ضمان الـ 1979 لقرض كرايزلر، وكنت قد واصلت عبر حياتي البرلمانية معارضتي الفلسفية لكفالة أي شركات أو صناعات. كنت مؤمناً بأن تدخلنا في القطاع المالي كان مبرراً، لأن الحكومة الاتحادية كانت مسؤولة عن صون قوة اقتصادنا وقابليته للحياة، بما في ذلك كل من نظامينا المالي والنقدي. وتوفير ما يكفي من الدعم لتجنب انهيار نظامنا المصرفي كان عملاً لا يقوى على القيام به سوى الحكومة الاتحادية. ولكن الشركات في القطاع الخاص يجب الحكم عليها، بعد أخذ كل الأمور بنظر الاعتبار، في السوق، وفقاً لآليات السوق. والعمل على إقحام الحكومة في أمر شركات القطاع الخاص لم يكن، بنظري، موقفاً صائباً.

أزمة الجنرال موتورز حلت في نهاية إدارتنا وفي غضون أسابيع قليلة من نقلنا للسلطة إلى فريق أوباما ـ بايدن. قرر الرئيس ألا يتدخل في عملية سحب قابس شركة جنرال موتورز ونحن على عتبة الخروج. أراد أن يمنح الفريق الجديد وقتاً ليقر خياراته السياسية ما جعله يقترح حزمة قصيرة الأجل لإبقاء شركة الجنرال موتورز عائمة إلى أن تكون الفرصة قد توفرت للإدارة الجديدة من أجل مراجعة الوضع. ومع أنني كنت متفهماً للذريعة، فقد كنت ميالاً إلى تفضيل عدم تورط الحكومة ما أدى إلى أن أُصاب بخيبة أمل ـ لكن دون مفاجأة ـ حين أقدمت الإدارة الأوبامية على زيادة التدخل الحكومي في صناعة السيارات زيادة لافتة بعيد تولي السلطة.

بعد الانخراط المكثف في حملة الدعاية عبر عدد كبير من الدورات الانتخابية السابقة ـ أعني جملة الحملات النصفية والرئاسية ـ وجدتني، من حيث الجوهر، نائياً بنفسي عن حملة الـ 2008. صحيح أنني لم أكن سعيداً بالتعرض للتحييد، غير أنني تفهمت المنطق الكامن وراء الأمر. يقيناً كان ثمة نوع من الملل أو السأم من ثنائي بوش ـ تشيني بين صفوف الناخبين بعد ثمان سنوات، وكانت

حملة ماكين حريصة على أن تنأى بمرشحها عن البيت الأبيض وعن جملة سياساتنا وخططنا. تمخض هذا عن عدد من لحظات الحرج والارتباك. فبعد شروع استطلاعات الرأي المتابعة للحملة في الانحدار، مثلاً، تخلى فرسان الحملة عن إطلاعنا على نتائج الاستطلاعات. كان الأمر يعني أيضاً أن الشعب الأمريكي لم تتوفر له فرصة سماع نوع من الدفاع الصلب عن سياساتنا، ولا سيما فيما يخص الحرب على الإرهاب. ومع أن الشيخ ماكين كان مؤيداً صلباً لما كنا نفعله في العراق وأفغانستان، فإنه لم يبادر إلى الدفاع عن برنامجنا الخاص برصد الإرهاب وتعقبه بالقدر نفسه من الحماسة، وكان معارضاً لبرنامج الاستجواب المعزز. كنت أظن أن وجهات نظر الشيخ أوباما في هذين المجالين كانت مضللة، وساءني ألا يرد أحد على هذا التضليل في الطرف المقابل.

نظراً لعدم انخراطي في الحملة الانتخابية، توفر لي قدر أكبر من الوقت أكرسه للأنشطة الأخرى، مثل إظهار الاهتمام بحفيدين كانا قد وُلدا منذ الانتخابات الرئاسية الأخيرة: ريتشارد بيري، المولود الخامس لليز وزوجها فيل، وسام، مولود ماري وشريكها هيثر بو. كذلك صرت قادراً على أن أكون مفيداً بالنسبة إلى حفيداتي. في آب/أغسطس 2008 تلقيت اتصالاً من ليز، التي كانت تلتمس خدمة. سألتْ: "ما رأيك بطلب لقاء مع يوناس برذرز غداً؟" أجبتها بسؤال: "مع من؟" راحت تشرح لي أن فرقة موسيقية معروفة باسم يوناس برذرز كانت تصور فيلم إعلان خدمة عامة في البيت الأبيض. بناتها الثلاث، اللواتي كن من المهووسات إعجاباً باليوناس برذرز، كن قد سمعن عن التسجيل وسألن عما إذا كان بوسعهن الحضور والمتابعة. كانت ليز قد اتصلت مع أحد الأصدقاء في مكتب السيدة الأولى، ولكنها لم تفلح في الحصول على المساعدة المطلوبة بحجة عدم وجود شواغر. ذلك كان هو السبب الذي دعاها إلى مكالمتي.

قالت ليزَ: "كن واثقاً من أن حفيداتك سوف يضعنك في خانة أهدأ وألطف جد في التاريخ، إذا مكنتهن من لقاء اليوناس برذرز". غير أن شباب الفرقة كانوا، على ما بدا، ذوي شعبية غير عادية ما أدى إلى بقاء الطريقة الوحيدة للحصول على الفرصة المطلوبة للحفيدات متمثلة بأن أتقدم أنا شخصياً بالطلب. وعلى

الرغم من أنني لم أكن متأكداً مما أورط نفسي فيه، فقد كنت مستعداً للمخاطرة إذا كان من شأن ذلك أن يسعد حفيداتي. استدعيت مساعدتي دبي هايدن وطلبت منها أن تتصل بمكتب السيدة بوش وتقول لهم إنني راغب في لقاء بعض الأشخاص المعروفين باسم يوناس برذرز، وأضفت: "وسأكون بحاجة إلى بعض السير".

في اليوم التالي، ساعدتني حفيداتي الغارقات في بحر من الفرح على تمكين اليوناس برذرز وأسرتهم من رؤية الجناح الغربي. كان أعضاء الفرقة شباباً لطفاء، ومهذبين، ومثيرين للإعجاب، أخفوا أي مفاجأة ربما شعروا بها لدى سماعهم بأن ديك تشيني كان راغباً في لقائهم.

في شهر أيلول/سبتمبر، ذهبنا، لين وأنا، في رحلة جولة شملت سلسلة محطات في عدد من الجمهوريات السوفييتية السابقة، بما فيها جورجيا. وصلنا إلى العاصمة تفليس يوم 4 أيلول/سبتمبر بعد أسابيع قليلة من عقد مفاوضات هادفة إلى وضع حد للنزاع بين جورجيا وروسيا. تركزت الحرب بداية على جمهوريتين "منفصلتين" داخل جورجيا: أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا. والإقليمان، رغم أنهما جزءان من جورجيا جغرافياً، يؤويان كتلتين روسيتين كبيرتين من السكان وظلا دائبين على تأكيد استقلالهما. وفي آب/أغسطس قامت قوات أوسيتيا الشمالية، تحت قيادة الجنرالات الروس، بإطلاق النار على قرى جورجية في أوسيتيا الجنوبية. وكان الرئيس الجورجي: ميخائيل شاكاشفيلي قد أمر بالرد، الأمر الذي بدا موفراً للزعيم الروسي فلاديمير بوتن الذريعة التي كان يتوسلها لإطلاق عملية عسكرية عدوانية ضد الجورجيين.

بعد التحرك أولاً لهزيمة القوات الجورجية داخل الجمهوريتين، بدأت القوات الروسية تزحف إلى قلب جورجيا بالذات، إلى غوري أولاً، وهي عقدة مواصلات رئيسية، ثم باتجاه تفليس. تحرك الروس بنوع من السرعة الشديدة الإيحاء بخطة تقدم لافت، تاركة انطباعاً بأن بوتن كان عاكفاً على التخطيط لمثل هذا الهجوم منذ بعض الوقت. ذلك، مضافاً إلى أن الرد الروسي كان يفوق كثيراً ما كان مطلوباً لو كان الهدف هو مجرد توفير الحماية للروس في أوسيتيا الجنوبية

وأبخازيا، أوحى لي كما لعدد غير قليل من الآخرين أن بوتن كان عازماً على إعادة تأكيد النفوذ الروسي في الجمهوريات السوفييتية السابقة.

لبعض الوقت، كان ثمة قدر متصاعد من التوتر بين الحكومة في موسكو وحكومة الرئيس شاكاشفيلي في تفليس. لم يخفِ الأخير، وهو شخص كان قد تابع دراسته في الولايات المتحدة وأراد توجيه جورجيا نحو الغرب، وجهة نظره الداعية إلى وجوب التحاق جورجيا بركب حلف الناتو. أما بوتن فرأى هذا تهديداً مباشراً لروسيا داخل ما كان يعدها دائرة نفوذ روسية.

لدى مناقشتنا لهذه التطورات في اجتماعات مجلس الأمن القومي في الأيام التي أعقبت الغزو الروسي مباشرة، اقترحت أن الحاجة تدعو إلى أن ننظر إلى الأمر بوصفه أكثر من موضوع استقلال أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا. لم تكن المسألة سوى مسألة دأب بوتن المتواصل على عكس الاتجاه منذ عشرين سنة وقَلْبه. بات الآن متوفراً على القوات والثروة - من النفط بالدرجة الأولى - اللازمتين للشروع في إعادة فرض النفوذ الروسي لا في جورجيا وحسب، بل عبر كل "الجوار القريب"، في بلدان مثل مولدوفا، وأوكرانيا، والدول البلطيقية، وجمهوريات آسيا الوسطى السابقة. ومما قيل إنه كان قد عبّر عن اعتقاده بأن زوال الاتحاد السوفييتي كان "الكارثة الجيوسياسية الأكبر في القرن"، ذلك الاعتقاد الذي كان شديد التناقض مع اعتقادي ووجهة نظري أنا. فأنا رأيت انهيار الاتحاد السوفييتي بوصفه الخطوة الأعظم على طريق تحرر البشرية في الأعوام الستين الأخيرة. وفي تحليلي للوضع، وجدت أن بوتن يريد إعادة عقارب الساعة إلى الوراء والقيام بكل ما يمكن فعله من أجل استعادة سطوة روسيا ونفوذها.

بعيد الغزو الروسي لجورجيا، كانت بولونيا قد وافقت على استضافة أجهزة اعتراض صواريخ، أحد أجزاء المنظومة الدفاعية التي كنا قد صممناها لاعتراض الصواريخ المنطلقة من الشرق الأوسط ومنعها من ضرب أي من أوروبا أو الولايات المتحدة. ثمة رسميون عسكريون روس كبار أبلغوا الحكومة البولونية أن من شأن سيرها قدماً في عملية نشر منظومة الدفاع الصاروخية أن تحوِّل بولونيا إلى هدف نووي. وكان التشيك قد وافقوا على استضافة المكوِّن

الراداري للمنظومة الدفاعية، ولكن الروس بادروا، نحو موعد الإعلان عن الاتفاق، إلى اختزال كميات النفط المسالة إلى جمهورية التشيك.

كنت على الدوام أشعر في أثناء تعاملاتي مع بوتن أن من المهم عدم نسيان خلفيته المهنية. كان الرجل من جهاز الكي جي بي السوفييتي وأفعاله بوصفه زعيم روسيا ظلت، من نواحٍ كثيرة، تعكس تلك الحقيقة. ثمة أستاذ اقتصاد روسي، درج عل العمل لدى بوتن ثم ما لبث أن اختلف معه، وصف الوضع لي بالعبارات التالية: "ما من نظام دكتاتوري متسلط إلا ويتوفر على أجهزة أمنية. ولكن روسيا اليوم هي الدولة الأولى التي أصبحت فيها الأجهزة الأمنية هي الدولة". وفي حين أن أمريكا وأوروبا الغربية كانتا قد انتقلتا إلى ما بعد انقسامات الحرب الباردة، فإن بوتن بدا متطلعاً إليها بشغف، حالماً بها بنوع من الحنين الماضوي[84].

في أثناء زيارتي لجورجيا، عبرت عن التأييد الأمريكي لسيادة جورجيا. أعلنت كذلك أن الولايات المتحدة كانت عازمة على تقديم ما قيمته ملياراً من الدولارات كمساعدات اقتصادية وإنسانية. وقبل العودة إلى الولايات المتحدة، حضرت ندوة آمبروستي، وهي ندوة اقتصادية سنوية تعقد في إيطاليا، حيث شجبت الغزو الروسي لجورجيا وأساليب روسيا الفظة في تعاملها مع كل من بولونيا وجمهورية التشيك. وقد قلت إن الوقت قد حان لتمكين كل من جورجيا وأوكرانيا من الالتحاق بركب حلف الناتو وتصبحا عضوين في هذه الحلف[85].

ساءني وأُصبت بخيبة أمل حين رأيت إدارة أوباما في أشهرها الأولى تُقْدِم على اتخاذ قرار يقضي بوقف مشروع الدفاع الصاروخي في كل من بولونيا وجمهورية التشيك. أشك في أن يكون الروس قد مارسوا النوع ذاته من الضغط، الذي سبق لهم أن مارسوه علينا، على هذه الإدارة. سرني أن أسمع خَلَفي نائب الرئيس جو بايدن يعبّر عن تأييده لفكرة انضمام جورجيا وأوكرانيا إلى عضوية حلف الناتو، غير أن التقدم على طريق بلوغ ذلك كان بطيئاً على نحو محبط.

في النهاية، لا بد لنا من أن نبين للروس كما لأصدقائنا وحلفائنا أننا سنكون متحلين بالإقدام والجرأة على صعيد العمل لتوسيع حدود العالم الحر وأن على الحكومة الروسية أن تختار. يجب على روسيا أن تدرك أنها لا تستطيع

أن تواصل الإفادة من جني ثمار اقتصاد عالم حر مع الإصرار في الوقت نفسه على ابتزاز حكومات أخرى، محاولة استخدام القوة العسكرية للعمل أحايناً على إعادة رسم حدود سيادية، وسجن كل من يشكل تهديداً لقيادة بوتن. من جانبنا نحن، يجب أن نحرص على عدم تمكين رغبتنا في رؤية روسيا متغيرة من تلوين تحليلنا لما هو حاصل على الأرض بالفعل. ففي 1982، حين صار يوري آندروبوف أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفييتي، أتذكر ورود تقارير تحدثت عن كونه يحب موسيقى الجاز ويشرب الويسكي [بدلاً من الفودكا] في إشارة إلى كونه إصلاحياً. وبالمثل فإن البعض من محللي الشؤون الروسية المتخصصين راحوا، حين قام فلاديمير بوتن بنقل السلطة إلى ديمتري مدفيديف، يؤكدون ظهور بشائر بزوغ فجر يوم جديد زاخر بالشفافية، والانفتاح، والالتزام المتعاظم بالإصلاح والديمقراطية. لم يكن ما قيل عن آندروبوف صحيحاً، كما لم يكن صحيحاً ما تم الترويج له بالنسبة إلى مدفيديف. علينا أن نتحلى بالحذر حول ذلك الذي نعلق عليه آمالنا.

في الثاني والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، انضممنا، لين وأنا، إلى الرئيس بوش ولورا لحضور حفل العشاء المقام في مقر الإقامة الرئاسية بالبيت الأبيض على شرف المحكمة العليا. كانت أمسية بالغة الخصوصية. قام الرئيس ولورا باصطحاب الجميع في جولة على الطابق الثاني من المسكن. كانا دليلين مثيرين للإعجاب وكانا، كلاهما، قد أمضيا وقتاً طويلاً وثميناً وهما عاكفان على دراسة تاريخ البيت وشاغليه السابقين. سبق لي أن كنت في الغرف مرات كثيرة من قبل، غير أنني كنت على الدوام أتعلم شيئاً جديداً لدى التحاقي بجولة يرودها الزوجان بوش. كانا يمشيان من غرفة إلى أخرى ويصفان كلاً منها - هذه غرفة نوم لنكولن، تلك غرفة نوم الملكة، - مع بيان الشكل الذي كان البيت يعكسه في إدارات سابقة.

على امتداد السنوات القليلة الماضية كانت لنا اعتراضات جدية على عدد من قرارات المحكمة العليا، لا سيما لأنها كانت ذات علاقة بالحرب على الإرهاب. ولكن تلك النزاعات لم تكن طافية على السطح في هذه الأمسية. كانت تلك أمسية

بالغة الروعة، أمسية مزينة بالروح الرفاقية، وقد نطق فيها القاضي جون بول ستيفنز باسمنا جميعاً حين هنأ الرئيس على قيامه بتعيين عظيمين في المحكمة - القاضيين روبرتس وآليتو. رفعت لين نخباً خاصاً على شرف لورا في أثناء العشاء، شاكرة إياها على كل ما كانت قد فعلته لاستعادة وصيانة جمال البيت الأبيض وكامب ديفيد. أضافت لين بأننا استثنائيو الامتنان لها على عملها في كامب ديفيد، الذي كثيراً ما كان "مأوانا غير المعلن".

في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر 2008، انتُخب باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة. اتصلت بالشيخ جو بايدن، وهنأته، وعرضت عليه استعدادي للقيام بأي شيء أستطيع القيام به للمساعدة على تيسير انتقاله إلى تولي المنصب. كنا، لين وأنا، سعيدين لاستضافة نائب الرئيس المنتخب وزوجته جيل في المرصد البحري. جلسنا معهما في المنشأة التي كانت ستصبح عما قريب منزلهما وعرّفناهما على بعض الناس المرموقين العاملين في المكان.

بوصفنا إدارة، عملنا جهدنا لإدارة عملية انتقالية ميسرة. كنت طرفاً في عدد من عمليات الانتقال المشابهة عبر السنوات، قادماً ومغادراً، وهذه كانت الأفضل بين ما كنت قد رأيت. أظن أننا جميعاً في طرفي هذه العملية الانتقالية كنا مدركين لطبيعة الرهانات. فبالنسبة إلى أمة منخرطة في حرب، كان من المهم أهمية استثنائية وضع الحرتقة السياسية جانباً وتسليم السلطة والخطط بنعومة. غير أنني لست متأكداً من نواحٍ معينة أن من الممكن إعداد هذا أو ذاك لتولي منصب معين. أحد أركاني في الأمن القومي، إريك إدلمان، الذي كان يعمل معاوناً لوزير الدفاع في الشؤون السياسية لدى انتهاء فترة إدارتنا، أبرز مدى التغيير الحاصل في تسارع القضايا التي كان يتعين على صانع القرار السياسي أن يتصدى لها يومياً. بعض هؤلاء الآتين إلى السلطة كانوا قد خدموا أيام كلنتون، ومع أن أي خبرة كانت مفيدة، فإن مجرد حجم وسرعة القرارات كانا قد تعاظما أسّياً (هندسياً) منذ ذلك الوقت. ولعل أفضل ما كنا نستطيع فعله هو تقديم المساعدة، وتوفير الخلاصات، والمخاطرة ربما بتسريب القليل من النصائح همساً في هذه الأثناء.

قرر جوش بولتن استضافة جلسة فريدة لرئيس أركان البيت الأبيض الجديد، رام إيمانويل، في أسابيعنا الأخيرة في الإدارة. قام جوش بجمع كل رؤساء الأركان السابقين الأحياء، نحو اثني عشر شخصاً. ثمة كان رامسفيلد، وهوارد بيكر، وجاك واطسون، وجون سنونو، وليون بانيتا، مع آخرين، وتحلقنا حول الطاولة في المكتب الذي كان قد آوانا جميعاً في وقت من الأوقات. بالتناوب طلب منا جوش أن يقدم كل واحد منا إلى رام أفضل نصائحه. إلى اليوم كانت ثمة، بالطبع، سنوات من القصص عن كوني العبقري الشرير [فاوست غوته] المتحكم بالإدارة البوشية من خلف الكواليس، ما جعلني، حين جاء دوري، أنصح رام قائلاً: "افعل كل ما هو ممكن لضمان إبقاء نائب الرئيس تحت السيطرة، ملجوماً". كان ذلك أحد أفضل تعليقاتي.

كانت ثمة سلسلة طويلة من حفلات الوداع على امتداد الأسابيع التالية، إذ عكفنا على تقديم الشكر إلى عدد كبير من الذين كانوا قد بذلوا جهوداً كبيرة في خدمتنا نحن وفي خدمة الوطن طوال الأعوام الثمانية الأخيرة. إحدى المجموعات التي كانت قد عملت في الظل بعيداً عن الأضواء تمثلت بالوحدة الطبية في البيت الأبيض. على مدى ثماني سنوات ظل الدكتور لويس هوفمان بجانبي. أمضى ساعات لا يحصرها عد في غرف الإسعاف، وعلى الطائرات، وفي الفانات. كان قد أمضى فترات طويلة من الوقت في المقصورة الخلفية لإحدى قوارب الصيد دون أن يكون خارجاً لممارسة هواية الصيد. سنبقى، عائلتي وأنا، وافري الامتنان لليو على صداقته كما على كل ما فعله من أجلنا. بادرنا، الرئيس وأنا، إلى جمع فريق في الروزغاردن [الحديقة الوردية] لحفلة وداع أخيرة بعد الانتخابات. وضع الرئيس الأمر في هذا الإطار: "جميعاً كنتم عظماء، نقطة على السطر. كنتم صانعي معجزات، بالفعل. حين اخترت نائب الرئيس لم يخطر ببالي قط أنه كان سينجو، ولكنكم نجحتم في إنجاحه، وفي إنقاذه وتمكينه من العبور". ومع أنني كنت متوفراً على قدر أكبر من التفاؤل، فإنني لم أكن قادراً على الاعتراض على امتنانه للأطباء.

كان صباح العشرين من كانون الثاني/يناير، 2009، بارداً ومشمساً. التحقنا بركب الأزواج، بايدن، وبوش، وأوباما في البيت الأبيض لإحياء حفلة القهوة

الصباحية التقليدية التي تسبق مراسم التنصيب. كنت على كرسي بعجلات، بعد إجهاد ظهري بنقل الصناديق والعلب في أثناء العطلة الأسبوعية، ولدى تبادلنا التحية، خَلَفي جو بايدن وأنا، في ذلك الصباح، حذرته: "انتبه يا جو. لعل هذا ما أنت معرض لجنيه مع انتهاء فترتك!" ثم انطلق موكبنا في جادة بنسلفانيا إلى الكابيتول، وانتقلت إلى مقعدي على منصة التنصيب. وأنا أنظر إلى الحشود الغفيرة المتزاحمة في ذلك الصباح، عدت بالذاكرة إلى أيامي الأولى بواشنطن في 1968. كنت قد وصلت بعد أشهر من تعرض قطاع من المدينة لالتهام ألسنة اللهب، غارقاً في بحر من أحداث الشغب العنصرية التي أعقبت مقتل الدكتور مارتن لوثر كنغ، الابن. أما الآن فها نحن ذا، أمريكيون موحدون، مشغولون بتنصيب رئيسنا الأمريكي - الأفريقي الأول. لم يكن باراك أوباما مرشحي، وسأعارض بقوة فيما بعد عدداً كبيراً من القرارات التي اتخذها كرئيس، إلا أنني، مثل أكثرية الأمريكيين، كنت أشعر بقدر هائل من الفخر والاعتزاز في ذلك الصباح إزاء الطابع التاريخي لهذه اللحظة.

ما كان بوسعي قط أن أتصور حين جئت إلى واشنطن للمرة الأولى أنني كنت سأغادرها نائباً للرئيس بعد هذا العدد الكبير من الأعوام. استعرضت كل ما كنت قد رأيته وما كنت جزءاً منه على امتداد فترة زمنية شهدتْ فيها أمريكا قدراً هائلاً من التغيير والأسى، والفرح والانتصار. وعلى الرغم من كل أحداث الحياة التي ملأت تلك السنوات الأربعين، فإنها بدت عابرة كما لو كانت رفة جفن.

الطريق التي مشيتها كانت في جزء منها من صنع ظروف ولادتي. لا أعني أنني ولدت في عائلة قوية ذات امتيازات؛ لم أكن كذلك. إلا أنني ولدت أمريكياً، نعمة، بالتأكيد إحدى أكبر نعم الحياة. كنت محظوظاً بأبوين أحباني وعلماني أهمية التضحية والاجتهاد. ثمة فرص - وفرص ثانية - ميزتني، فرص من النوعية التي قد لا تتوفر إلا في أمتنا العظيمة. صباح يوم التنصيب مع دوران الدولاب وحلول وقت رحيلنا فكرت أخيراً بأحفادنا. لا أستطيع أن أتصور جميع الفرص التي ستتوفر لهم والأساليب التي ستتكشف عبرها حيواتهم. هم أيضاً متوفرون على نعم المحبة وجملة الفرص والحريات التي لا توفرها سوى أمريكا، وعندهم جد سيكون مراقباً ومتابعاً بقدر كبير من الاهتمام والشغف.

خاتمة

بعد ظهر يوم 20 كانون الثاني/يناير 2009، فيما كان الرئيس يستعد للمغادرة متوجهاً إلى تكساس، قدّمته إلى مؤيدين كانوا قد احتشدوا في قاعدة آندروز الجوية قائلاً إن سنوات خدمتي الثماني معه كانت شرفاً خاصاً. كان قد وفر جملة الفرص التي مكنتني من الانخراط في أحداث بالغة الأهمية، ولدى استعراضي لما كنا قد أنجزناه، لم يكن أي شيء أكثر أهمية من المحافظة على الأمة آمنة بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر المدمرة. في غمار تلك الحرب، كان قائداً مرموقاً، مستعداً لاتخاذ قرارات صعبة ومصدر إلهام لآخرين على صعيد التحلي بالتصميم المطلوب لخوض الحرب ضد نوع جديد من الأعداء. كان قائداً طبيعياً وصريحاً، رئيس جمهورية شد من عزمنا جميعاً بإيمانه. قليلون ممن عاشوا تجربة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر سينسون، طوال حياتهم، ذلك اليوم من أيلول/سبتمبر حين وقف على أرض الحدث، غراوند زيرو، ووعد قائلاً: "أولئك الذين هدموا هذه المباني سرعان ما سيسمعون عنا".

كان قد اتخذ قرارات معينة لم أكن موافقاً عليها، ولكنه كان قد منحني شرف الإصغاء الكريم إلى وجهات نظري، الأمر الذي لم يكن، بالطبع، مضطراً لأن يفعله. التاريخ زاخر بأمثلة نواب رؤساء تم إبقاؤهم بعيدين عن مركز السلطة. وقد عرفت عدداً منهم، في الحقيقة، شخصياً. ولكن جورج دبليو بوش كان، في البداية، قد قال إنني سأشكل طرفاً في الحكم والإدارة. وقد كان ـ كما كنت على يقين بذلك ـ رجلاً عند كلمته.

بالنسبة إلينا نحن المحتشدين في قاعدة أندروز الجوية يوم 20 كانون الثاني/ يناير جميعاً، كان الحدث من النوع الذي يتمم زمناً من حيواتنا ويشير إلى أن زمناً آخر قد بدأ. باستثناء مراسل أو اثنين من مخضرمي جيش الإعلام، من المؤكد

أن الزوجين تشيني كانا الوحيدين في قاعدة أندروز عصر ذلك اليوم القادرين على تذكر أنهما كانا في المكان نفسه لوداع رئيس آخر قبل ثلاثين سنة. آنذاك كانت ابنتانا صغيرتين، وكان الرئيس الذي كنت أعمل معه قد أُبعد بقوة الأصوات الانتخابية عن المنصب. الآن لدى ليز وماري أطفال يخصونهما وهذه المرة كان الرئيس يغادر لدى انتهاء ولايته، بعد ثمانية أعوام في المنصب.

من المؤكد أن لتولي منصب نيابة الرئاسة مكاسبها، إلا أنني أحببت أن أبدأ من النقطة التي انطلقتْ منها عائلتنا في حياة طبيعية. تدبرت سيارة جديدة، وكانت العودة إلى القيادة من الأمور الجيدة. أردت تولي القيادة بنفسي طوال الطريق إلى وايومنغ، تماماً كما كنت قد فعلت آنذاك في 1993 بعد ترك البنتاغون، إلا أن لين لم تر ذلك رأياً على درجة عالية من العظمة. حصلتُ على جهاز بلاكبيري، وبدأت بشيء من المراسلة الإلكترونية، بل وأرسلت نصاً أو اثنين. بدلاً من الإيجازات الاستخباراتية التي كنت دارجاً على بدء نهاري بها، تعين علي أن أعود إلى تدبر أمري في مجال الحصول على الصحف الصباحية. وما لبث أن تبين أنها كانت ولا تزال ملأى بالقصص والتعليقات المنتقدة لسجل إدارة بوش على صعيد الأمن القومي. استطعت قراءة هذا كله والقبول به بصمت، ولكن إلى حين فقط.

في يومه الكامل الثاني في المنصب، أقدم الرئيس أوباما على توقيع أمر تنفيذي يقضي بإغلاق منشأة الاعتقال الموجودة في خليج غوانتانامو الكوبية في غضون سنة واحدة. أمر كذلك بوضع حد لاستخدام تقنيات الاستجواب المعزز، وكل هذا تماشياً مع تعهداته الكثيرة المتكررة والمطلقة حول الأمر على امتداد حملة الـ 2008 الانتخابية. بوصفه مرشحاً كان قد أصر على وضع القضية في قالب الضرورات الدستورية، والقيم الأمريكية الأساسية، ومعايير حقوق الإنسان الأولية - بنبرة موحية في كثير من الأحيان بأننا في الإدارة البوشية لم نكن آبهين بأي من هذه الأمور، بل ومصرين، في الحقيقة، على انتهاكها. وبالفعل فإن الشيخ أوباما لم يكن قد جوبه بأي اعتراض أو تحد إزاء مثل هذه التأكيدات أيام السباق الرئاسي. فخصمه، الشيخ ماكين، كان، في الحقيقة، متفقاً في الرأي مع أوباما حول بعض الأمور الحاسمة. ولم يكن أول أولويات جون، على أي حال، سوى الإساءة إلى سمعتنا نحن الاثنين، الرئيس بوش وأنا، ليبقى طليقاً في صوغ الانتخاب بطريقته

الخاصة. شخصياً، شعرتُ بأن دفاعاً مباشراً من قبلنا، كلينا، الرئيس وأنا كان من شأنه أن يكون أفضل من عدم الرد المطلق عبر البيت الأبيض، غير أنها كانت حملة جون وكان يستحق أن تتوفر له فرصة إدارتها بالطريقة التي أرادها.

ولكن إحساسي الغريزي كان يوحي بترك الانتقاد يمر في تلك الأيام الأولى من الإدارة الأوبامية. غير أن الموضوع ظل يطفو على السطح، ودأب الرئيس وأعضاء إدارته على إطلاق التأكيدات حول البرنامج وقيمته، تلك التأكيدات التي كانت باطلة. تذكرت وثيقتين بالتحديد كنت قد اطلعت عليهما بوصفي نائباً للرئيس. كانتا تقريرين صادرين عن السي آي إيه، تتضمن أولاهما توصيفاً لما كنا قد حصلنا عليه من معلومات من خالد شيخ محمد بعد إخضاعه لاستجواب معزز. وكانت الثانية تتحدث عن الدور المحوري الذي كان التحقيق مع المعتقلين قد لعبه في معركتنا ضد القاعدة. وقد بدا لي أن الشعب الأمريكي يجب أن يطلع على الحقائق عن المعلومات الاستخباراتية التي فزنا بها - والهجمات التي نجحنا في قطع الطريق عليها - عبر البرنامج، إذا كان لا بد من امتلاكه فرصة حوار غني قائم على الاطلاع والمعرفة حول سياسات مكافحة الإرهاب، ولا سيما برنامج الاستجواب المعزز، لدى إدارة بوش.

أردت إلقاء نظرة أخرى على الوثائق، فتوجهت في 31 آذار/مارس، 2009 إلى المحفوظات (الأرشيفات) القومية بمركز مدينة العاصمة، وراجعتها في غرفة مطالعة آمنة. كان التقريران كما تذكرتهما تماماً، وملأت استمارة طلبت فيها رسمياً رفع السرية عنهما. قبل حصولي على أي رد، قرر الرئيس رفع السرية عن مجموعة أخرى من الوثائق. وهذه الأخيرة كانت هي المذكرات الصادرة عن وزارة العدل في إدارة بوش مفسِّرة المنطق الحقوقي المؤيد للاستجواب المعزز والمفصلة أيضاً للأساليب الاستثنائية المعتمدة. وفي الوقت نفسه تقريباً، أطلق الرئيس أوباما ونائبه العام إريك هولدر، إشارة احتمال تعرض المحامين الذين أعدوا هذه المذكرات وضباط الاستخبارات الذين تولوا إجراء عمليات الاستجواب المعزز للعقوبة المسلكية أو حتى المحاكمة الجرمية - الجنائية.

صُعقت إزاء إقدام الإدارة الجديدة ولو على مجرد التفكير بمعاقبة موظفين شرفاء كانوا قد نفذوا سياسات وخطط إدارة بوش القانونية وضمنوا أمن البلد.

وانتابني أيضاً قلق عميق حول الأسلوب الانتقائي المعتمد في رفع السرية عن معلومات بالغة الحساسية ونشرها على الملأ. للتو كانت الإدارة قد كشفت أمام العالم، بمن فيه من أعدائنا، مناهج استُخدمت في استجواب معتقلين ظُن أنهم متوفرون على معلومات عن هجمات لاحقة. ومع ذلك فإن المعلومات الواردة في المنكرتين اللتين كنت قد طلبتهما - المفصَّلتين لجملة ما كنا قد حصلنا عليه من معلومات، وسلسلة الهجمات التي كنا قد منعناها بفضل برنامج الاستجواب المعزز - كان يتم الحفاظ على سريتهما. بعد قيام الرئيس أوباما بإطلاق سراح المنكرات الحقوقية ببضعة أيام، جاءني الرد من مدير وكالة الاستخبارات المركزية، السي آي إيه، ليون بانيتا، وهو زميل وصديق منذ أيامي في البيت الأبيض. كتب بانيتا يقول إن طلبي قد رُفضتْ تلبيته.

كنت قد خططت لمحاضرة حول ثلاث قضايا ليوم الخميس الواقع في 21 أيار/مايو في معهد المشروع الأمريكي، الأمريكان إنتربرايز، وهو أحد مراكز البحوث في واشنطن العاصمة، وقد كنت على علاقة معه منذ زمن طويل. وفي يوم الاثنين من ذلك الأسبوع أعلن البيت الأبيض أن الرئيس أوباما سيلقي أيضاً خطاباً في ذلك اليوم - الخميس - في التوقيت نفسه تقريباً. لم يكن هذا الخطاب، باعتقادي، إلا لقطع الطريق على محاضرتي، ولكنني كنت سعيداً بإزاحة توقيت محاضرتي إلى الخلف ما أدى إلى تمكينه من إلقاء خطابه أولاً. تمثلت النتيجة بما أطلقت عليه وسائل الإعلام: "مبارزة بالخطابات".

كرر الرئيس أوباما في خطابه تأكيد تعهده بالتزام "ضرورة" إغلاق غوانتانامو في غضون عام واحد، مضيفاً أن المرفق "ربما" كان قد أدى إلى "تفريخ أعداد أكبر من الإرهابيين في طول العالم وعرضه مقارنة بالأعداد التي تم احتجازها فيه منذ افتتاحه". ومما قاله بالفعل إن "تكاليف إبقائه مفتوحاً، بأي من المعايير، تفوق بما لا يقاس جملة المضاعفات والتعقيدات التي ينطوي عليها إغلاقه". وعن مسألة الاستجواب المعزز قال أوباما: "على نحو مطلق أرفض تأكيد أن هذه هي الوسيلة الأفضل للاستجواب". وأطلق عنوان "التعذيب" على التقنيات التي كنا قد أوجزناها. وراح الرئيس يشرح أن مثل هذه المناهج كانت كلها خارجة من رحم "تجربة" الإدارة السابقة، مقابل ثمن غير مقبول على

الصعيد الوجداني كما في مجال القيم الأساسية لبلدنا: "أولئك ليسوا نحن، وليسوا أمريكا".

وحين جاء دوري، بادرت إلى استحضار الأيام التالية للحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وأتيت على ذكر التصميم المطلق للإدارة البوشية على ضمان عدم تعريض أمتنا لأي يوم رعب مشابه مرة أخرى. ومفتاح تأمين ذلك كان متمثلاً بالاستخبارات، ونحن وفرنا لضباط استخباراتنا الأدوات والصلاحيات القانونية التي كانوا بحاجة إليها للتوصل إلى المعلومات، التي لم يكن بعضها معروفاً إلا من قبل الإرهابيين الأكثر سوءاً، عبر الاستجواب الخشن أو القاسي، إذا دعت الحاجة. لم يكن لعمليات الاستجواب أي غرض سوى الفوز بمعلومات محددة كان من شأنها أن تنقذ أرواحاً أمريكية وقد تمخضت، بالفعل، عن مثل هذه المعلومات. دعوت من جديد إلى إطلاق سراح المذكرتين اللتين كانتا ستؤكدان صحة ما قلته.

لم يكن وصف ما كنا قد ركّبناه ببرنامج للتعذيب إلا "وصماً لمهنيين مخلصين نجحوا في إنقاذ أرواح أمريكية ووضعاً لعصابة من الإرهابيين والقتلة في خانة ضحايا بريئة"، كما قلت. واعترضت أيضاً على الزعم القائل إن القيم الأمريكية قد تم هجرها، أو حتى المساومة عليها، في الحرب على الإرهاب قائلاً:

> *على هول ما قد خسرناه في هذا الصراع، لم تخسر الولايات المتحدة قط مُثُلها الأخلاقية. وحين يجري إضفاء ثوب الأخلاق على أناس عُرفوا باسم إرهابيين ذوي قيمة عالية، أستطيع طمانتكم إلى حقيقة أنهم لم يكونوا لا ضحايا ولا أبرياء. أما أولئك الذين سألوهم وحصلوا على أجوبة: فإنهم تصرفوا تصرفاً سليماً، جعلوا وطننا أكثر أمناً، وأمريكيون كثر هم على قيد الحياة اليوم بفضلهم.*

عبر حياتي السياسية المديدة كنت شاهداً على سياسيين يلونون بالتلال لدى تعقد الأوضاع، محاولين أن ينأوا بأنفسهم عمن هم على الأرض عندما تبدأ مذكرات الاستدعاء بالوصول. لم أكن مستعداً للتخلي عن موظفي خدمة عامة شرفاء متحلين بالاستقامة. بل على النقيض من ذلك، وضعت رفع الصوت دفاعاً عنهم في خانة الامتياز والشرف.

بعد عامين، وأنا عاكف على الكتابة في ربيع 2011، أجدني سعيداً إذ أشير إلى أن "ضرورة" الرئيس أوباما لإغلاق غوانتانامو ما لبثت أن تحولت إلى لزوم إبقائه مفتوحاً. أما المذكرتان اللتان طلبتهما فقد تم إطلاق سراحهما لاحقاً. وهما موجودتان على الإنترنت، وقد استندت إليهما في تأليف هذا الكتاب[86].

في الأول من أيار/مايو 2011، أعلن الرئيس أوباما أننا كنا قد حددنا مكان ابن لادن وقتلناه في أحد المجمعات أو ما شابهه خارج إسلام آباد الباكستانية. عبر سنوات من العمل المجدّ المبذول من قبل محترفي الاستخبارات والجيش، استطعنا تحديد مكان الإرهابي الأكثر مطلوبية في العالم. كان اليوم عيداً بالنسبة إلى جميع الأمريكيين، وللرئيس أوباما فضل إصدار الأمر الذي قضى بتحرك قواتنا الخاصة واقتحامها استناداً إلى المعلومات الاستخباراتية. لا بد له من أن يكرم جميع الأمريكيين الشجعان الذين ساهموا في جعل الأمر ممكناً، بمن فيهم عناصر برنامج استجواب السي آي إيه من رجال ونساء الذين حصلوا على بعض المعلومات الاستخباراتية التي استندنا إليها للاهتداء إلى مخبأ ابن لادن. فهم لا يستحقون أن يكونوا أهدافاً لاستجوابات متمادية ومحاكمات محتملة. بل هم جديرون بأن يكافؤوا بالأوسمة.

اشتباكي مع الرئيس في ربيع 2009 لم يكن إلا انعطافة غير متوقعة. كان ثمة عدد كبير من القادة الجمهوريين الأصغر سناً ممن لا يترددون إزاء استئناف حمل الرسالة والدفاع عن القضية، ولم أكن متطلعاً قط إلى أن أبدو خصم باراك أوباما الرئيسي. وكنت أيضاً مشغولاً بكتاب يتعين عليَّ أن أسير به قدماً إضافة إلى عدد من الاهتمامات الأخرى غير القابلة للتأجيل.

تمثل أحد تلك الهموم بانعطافة جديدة في بعض المشكلات الصحية القديمة. كنت قد عشت حياة ركض مدهشة منذ تعرضي لأزمتي القلبية الأولى في 1978. وعلى امتداد المسيرة من بدايتها كنت قد أفدت من تقدم البحوث والتكنولوجيا الطبية - كما من أطباء عظماء. فبعد أزمتي القلبية عام 2000 نصح طبيبي اختصاصي القلب الدكتور جوناثان راينر من مستشفى جامعة جورج واشنطن في واشنطن العاصمة بتثبيت جهاز آي سي دي في صدري. وهو جهاز يعيد نبضات القلب إلى إيقاعها الطبيعي عند الضرورة. لم يخفق قلبي على امتداد

السنوات الثماني التي أمضيتها في المنصب، ولكن كل شيء صار غائماً فيما كنت أُخرج السيارة خلفياً من كراج بيتنا في وايومنغ قبيل أعياد ميلاد عام 2009. سرعان ما تدخل الجهاز وفعل فعله. ولولا ذلك لتولى شخص آخر مهمة رواية القصة.

ومع حلول صيف 2010 صرت سريع الانزلاق إلى الإخفاق القلبي. نصح الدكتور راينر بتثبيت جهاز مساعد في البطين الأيسر (LVAD)، وهو جهاز ضخ أساساً يعمل بالبطارية ويساعد القلب على دفع الدم إلى أطراف الجسم. دخلت مستشفى فيرفاكس في فولز تشيرتش الفيرجينية المتوفر على نظام مميز للجهاز المساعد، في السادس من تموز/يوليو لإجراء عملية جراحية بعد يومين، إلا أن وضعي تدهور بسرعة ما أدى إلى دفع الأطباء إلى اتخاذ قرار بالتدخل الجراحي مباشرة. وفي عملية جراحية ليلية طويلة جرى زرع الجهاز المساعد في البطين الأيسر.

لم تكن تلك عملية جراحية سهلة وبقيتُ في غرفة العناية المكثفة عدداً من الأسابيع. حظيت باهتمام طبي بالغ الروعة مشفوعاً بقدر هائل من الحب والرعاية من جانب كل من لين، وليز، وماري. يبقى العقل شيئاً مدهشاً، وفي أثناء الأسابيع التي أمضيتها غائباً عن الوعي، حلمت حلماً مطولاً، أكثر حيوية من أي حلم سبق لي أن رأيته، عن مكان جميل في إيطاليا. كان المكان في الريف، غير بعيد إلى الشمال من روما، وقد بدا كما لو كنت هناك بالفعل. ما زلت قادراً على وصف الفيلا التي قضيت فيها الوقت، والممرات الحجرية الصغيرة التي مشيتها للحصول على فنجان قهوة أو رزمة جرائد. كانت تلك إقامة مطولة وسعيدة أفضل بكثير من الوعي والانتباه اليومي إلى المكان الذي كنت فيه بالفعل وما كان حاصلاً حقيقة.

عطلتي الإيطالية انتهت نحو لحظة خروجي من جهاز التهوية وعيناي متركزتان على وجه طبيب كان ينادي باسمي. حين لاحظ شروعي في استعادة الوعي، راح يقول: "ما شعورك، سيد تشيني؟ يبدو أنك بخير". كنت أعرف ما يكفي لأشك فيما قاله وأخشى ألا أكون قد أطلقت رداً على المستوى المطلوب من التهذيب واللطافة. غير أن ردي الأقرب إلى الفظاظة لم يتمخض إلا عن ضحكة من جانب الطبيب وجميع الآخرين الموجودين في الغرفة. كنت على طريق العودة.

مثل كثيرين يتعرضون لمرض مهدد للحياة ويعودون إلى الشمس من جديد، لم أستطع أن أطرد احتمال أن يكون الحظ، أو إرادة الحياة عندي، كانت قد فعلت ما هو أكثر مهارة من الأطباء، على صعيد إخراجي من المحنة. متأكدٌ أنا يقيناً أن قضيتي حظيت بفيض من الدعوات والصلوات الصادقة. ففي اتصال هاتفي مع صديقَيَّ القديمين جون وماري تورنر في وايومنغ، طلبتْ ليز إشعال شمعة لي. قال لها جون: "سنفعل ما هو أكثر من الصلاة. سنملأ السماء بالدعوات!"

كانت أمامي خيارات طبية معينة لا بد من الإقدام عليها في المستقبل، أما الآن فلا أشكو من شيء. أصبحت معتاداً على الأدوات الغريبة المختلفة التي تصاحبني على الدوام، وأنا دائب على العمل والسفر. خرجت إلى الصيد مرة أو اثنتين وأخطط لرحلة صيد سمك. استراتيجيتي المقبلة هي افتراض وفرة من الأيام السعيدة والجميلة في المستقبل. منذ أن كنت في السابعة والثلاثين من العمر حين علمت بوجود خلل شريان تاجي عندي، ظل موقفي متمثلاً بوضع جميع الرهانات على مستقبل طويل الأمد، وقد نجحت حتى اللحظة. ولكن، مهما كان عدد الأيام المنتظرة، أجدني على يقين راسخ حول مدى عظمة الحظ الذي لازمني إذ عشت هذه السنوات التي عشتها. لقد بلغت السبعين من عمري، وأي إنسان يستطيع أن ينظر إلى الخلف نحو الأشياء التي رأيتُها والأشخاص الذين عرفتُهم لا يحق له أن يشكو.

في زماني، عرفت أشخاصاً بل وقُدمتْ لي التحية من قبل أشخاص مُنحوا حيوات أقصر وأعطوا خدمة أكبر لوطنهم. يا له من امتياز أن أكون قد عشت هذا الجزء الكبير من حياتي المهنية بصحبة أفراد القوات المسلحة الأمريكية من رجال ونساء. أيام الشباب، ثم بعد عمر كامل من جديد، توفر لي مكان في الغرفة لدى التحاور حول قضايا عظيمة وحسم مسائل كبرى. تلك الفرصة كانت أكثر مما توقعته حين توجهت إلى واشنطن قبل ما يزيد على أربعين سنة. وما أسعدني إذ كنت برفقة لين، وليز، وماري في تلك الرحلة، ومع أحفادي الآن. ثمة حفيدة سابعة التحقت بركبنا الآن: سارة لين ابنة ماري وهيثر، حبيبة جدتها المفضلة. لقد عايشتُ أناساً ممن حققوا إنجازات كبيرة ينغمسون في شؤون العالم على حساب عائلاتهم، ما أدى إلى حرمانهم من أحد أروع تجارب الحياة.

بوصفنا عائلة تقاسمنا العمل، والأفراح، والضحك، والنكسات، والنجاحات، ما يجعلني إنساناً بالغ الامتنان.

إيماني راسخٌ بأمريكا وبدورها في العالم. معاركنا السياسية معقدة، وحادة، وقاسية أحياناً، غير ان النظام، رغم ذلك كله، متوفر على طريقة لإنتاج أفعال جريئة ملأى بالرحمة حين تمس الحاجة. صمدنا في وجه الشر وتحدينا التاريخ بطريقة نكران الذات التي اعتمدناها في هذا الصمود. بدلاً من السعي إلى إمبراطورية، سعينا إلى توفير الحرية لآخرين.

كان ثمة نحو عشرة أجيال منذ تأسيس الوطن، وكل من هذه الأجيال كان ناجحاً في التغلب على تحديات كبرى. وكل ما رأيته في زماني ينبئني بأننا نحن أيضاً سننجح ـ غير أن ذلك ليس حتمياً. نسمع تحذيراً متين الأساس بعد آخر من أننا نعيش بما هو أكثر من مداخيلنا، غير أننا لم نبد الإرادة السياسية اللازمة لتغيير ذلك. هناك يكمن خطر لا علينا نحن وحسب بل وعلى أجيال قادمة نثقل كواهلها بطرق لم تخطر لأسلافنا على بال. والتكنولوجيات التي يسّرت حيواتنا ـ بل وأنقذت حياتي أنا بالذات ـ منطوية أيضاً على وجه سلبي قاتل. على الدوام كان القتل سهلاً على الأشرار، ولكن من الممكن الآن أن تتمكن حفنة صغيرة من الأوغاد من القتل على نطاق يتعذر تصوره. لعل هذا خطر يسهل نسيانه وإبعاده عن الذهن، ولكنه يبقى خطراً لا نستطيع، بكل بساطة، أن نغفل عنه.

أعتقد أن المفتاح يكمن في اختيار قادة جديين ومتحلين باليقظة والحذر، وفي الإصغاء إلى الرجال والنساء الذين يريدوننا أن نحمّلهم مسؤوليات مناصب رفيعة ونرى ما إذا كانوا يقولون ما يظنون أننا نريد سماعه أم هم مشغولون بالقضية الوطنية الأكبر. ليس سهلاً دائماً أن يتجاوز المرء خط الوعود السارة، ولكن الخير الأكبر يبقى عظيماً بالنسبة إلى أمريكا. لسنا بلداً مثالياً، ولكن مُثُلنا التأسيسية، التي هي صحيحة وصادقة، مكنت الطاقة الإنسانية من الظهور والإبداع من الازدهار على نحو لم يسبق للأرض أن شهدت مثله. إننا محظوظون جداً لأننا أمريكيون. ومن واجبنا دون أي لبس أن نورّث الأجيال الصاعدة هذه الأمة العظيمة، بإمكانياتها دون نقصان.

شكر وعرفان

ابنتي ليز كانت معاونتي والمديرة التنفيذية لفريق هذا الكتاب. ظل العمل معها مبعثاً للفرح. تقديري عميق لنشاطها وحماستها للمشروع، ولموهبتها، ومعرفتها، وروح الدعابة والمزاح لديها. نعمة نادرة أن يتوفر ما يدعو لقضاء كل هذه الساعات من الوقت الممتاز لإخبار ابنتك عن حياتك وعملك. زوجتي لين وابنتي ماري تعرفان قصتي وهما كاتبتان من نوي الباع الطويل، ما أدى إلى جعل مقترحاتهما التحريرية ذات قيمة لا يقدر لها ثمن.

نجحت ليز في تشكيل فريق مرموق لمساعدتها. روبرت كارم، الذي عمل في فريق الأمن القومي عندي حين كنت نائباً للرئيس قام بعمل نجومي ممتاز في مجالات البحث، والتحرير، وروز الوقائع، إضافة إلى تفوقه في إبقائي مطلعاً على آخر قضايا الأمن القومي الراهنة. تولت ألكساندرا يوناني، وهي خريجة حديثة في معهد فيرجينيا للتكنولوجيا، مهمة إبقائنا، جميعاً، منظمين، وقد أشرفت على جزء كبير من روز الوقائع، وأبدت قدرة على مراوغة مهمات بالغة التعقيد بمزاج بارد ومتماسك كان يكذب عمرها. وجيم سين، الذي عاش عبر عدد غير قليل من فصول هذا الكتاب، كان عنصراً لا يقدر بثمن في الإجابة على الأسئلة ـ لا سيما، حول أيامي في الكونغرس ووزيراً للدفاع. ذاكرته وقدرته على الاهتداء إلى وثائق مختفية حالياً كانتا مثيرتين لقدر فريد من الإعجاب. تولى جون ماكّونيل وماتيو سكلّي، وهما اثنان من أفضل كتبة الخطب الذين سبق لي أن رأيتهم، توفير مساعدة قيمة لهذا الكتاب ويسرني أن أشكرهما على كل إضافاتهما. وإني أشكرهما أيضاً على مساعدتهما عبر السنوات. في خُطَبي كنائب للرئيس، كانا يساعداننا على التقاط جوانب حاسمة لزمن تاريخي. كان فرانك

غانون، الذي التقيته للمرة الأولى في أثناء الإدارة النيكسونية وهو راوية قصص رائع، صاحب يد حكيمة وثابتة لدى انشغالي بهذا الكتاب. جلب معه خبرة العمل على مذكرات سابقة إضافة إلى معارف وذكريات عما كانت عليه واشنطن في السنوات الأولى المضطربة لعقد سبعينيات القرن العشرين. كذلك أريد أن أتقدم بالشكر إلى بيتر لونغ الذي عمل مساعداً لي في معهد المشروع الأمريكي (أمريكان أنتربرايز) وكان طرفاً مهماً في فريق الكتاب؛ وإلى كارا جونز، وهو ضابط بحري سابق وطالب خريج في جونز هوبكنز، الذي ساعد كثيراً في البحث وروز الوقائع لفصلي وزارة الدفاع ونيابة الرئاسة؛ وإلى ويل سبايخر، الذي قام أيضاً بتوفير المساعدة في مجال روز الوقائع في المراحل المبكرة للمخطوطة. كذلك وفرت فكتوريا كوتس مساعدة بحثية جوهرية، ولا سيما لفصلي نيكسون وفورد من الكتاب.

في المحفوظات الوطنية (الأرشيف الوطني) حظي عملُنا بقدر هائل من المساعدة من جانب نانسي سميث وستيفاني أوريابور، على صعيد الإجابة على الأسئلة، وتحصيل الصور، وتعقب المعلومات في المكتبات الرئاسية. كذلك قدم كريستيان سي غوس في مكتبة جيرالد آر فورد الرئاسية وأستاذ التاريخ دونالد ريتشي في جهاز المكتب التاريخي لمجلس الشيوخ الأمريكي، مساعدات بحثية ذات شأن. يطيب لي أن أشكرهما، ومثلهما بيل ليري في مجلس الأمن القومي الذي ساهم في مراجعة وتيسير عمليات الإجازة الخاصة بهذا الكتاب.

عاشت ماري ماتالين هذا المشروع منذ ابتدائه ومساهماتها أكثر من أن تحصى. جميعاً نقدر مشورتها الحصيفة وصداقتها. كذلك أشعر بالامتنان لكارا آهرن، التي مدت يد المساعدة في إدارة حملتي لنيابة الرئاسة في 2004، ثم عادت لتساهم في الإشراف على الأحداث والسفر معي. مرة أخرى عادت لتصبح عضواً رئيسياً في فريق تشيني.

ثمة عدد من الأشخاص راجعوا نسخاً أولية لأجزاء من هذا الكتاب وكانت لهم اقتراحات مفيدة كثيرة. حتى عندما لم آخذ بنصيحتهم، كثيراً ما تم حفزي على إعادة النظر والكتابة من جديد، وإني أشعر بالامتنان على الإلهام الذي وفره كل من ديفيد آدنغتون، وإيريك إدلمان، وجون حنا، وسكوتر ليبي، وتيري أودونيل،

ونايل باتل، وسامانثا رافيتش، وبيت وليامز، وبول وولفويتز. عدد كبير من الصور المنشورة في الكتاب التقطها ديفيد بوهرر، مصور نيابة رئاسة الجمهورية عبر ثماني سنوات، وأنا شاكر له لا على عمله المدهش وحسب بل وعلى مساهمته في الإشراف على عملية انتقاء الصور لكتاب "في زماني". كذلك أعبر عن تقديري لمساعدة بيت وليامز على مساعدته لنا في اختيار الصور. ويبقى ديفيد كنرلي الذي أخذ لقطات بالغة الروعة في لحظات انعطافية من حيواتنا على امتداد سنوات كثيرة، ذا تمثيل جيد في هذا الكتاب وأنا مدين له بالامتنان على موهبته وصداقته.

يسعدني أن أتقدم بالشكر إلى معهد المشروع الأمريكي (أمريكان إنتربرايز)، الذي لي معه تاريخ طويل من الارتباط، كما إلى رئيسه المرموق والرؤيوي آرثر بروكس على فيض المنابر التي وفرتها المنظمة على امتداد السنين للحوار حول قضايا السياسة الأكثر أهمية في عصرنا. لين وأنا، كلانا، شاعران بالامتنان لكريستينا آليغريتي على اهتمامها بتفاصيل إدارة مكتبنا في معهد المشروع الأمريكي. ما زالت دبي هايدن، التي كانت تعمل معي في البيت الأبيض، مستمرة في مد يد العون على صعيد إبقاء حياتي منظمة. كذلك اضطلع غاس آنيس بدور مهم في بقائي منظماً عبر عملية تأليف هذا الكتاب.

كان بوب بارنت ممثلاً بارعاً لدى مبادرتنا إلى إطلاق هذا المشروع، وقد أفدنا من مشورته الحصيفة عند كل خطوة على الطريق. يطيب لي أيضاً أن أتوجه بالشكر إلى الفريق الاستثنائي الذي يعمل في دار نشر سايمون آند شُستر، بدءاً بالمديرة التنفيذية كارولين رايدي، التي كان اهتمامها بهذا المشروع واضحاً من اليوم الأول. أما محررنا المرموق، ميتشل آيفرز، فقد قام بسلسلة من الرحلات إلى واشنطن لقراءة المخطوطة وإدخال عدد من التعديلات التحريرية. كذلك كانت مساهمات لويز بورك، وأنتوني زيكّاردي، وجنيفر روبنسون، وجان آن روز قد جعلت العمل مع سايمون آند شُستر فرحاً خالصاً. كذلك أُقدّر جهود كل من سالي فرانكلن، وآل مادوكس، وتوم بيتونياك، وليزا ليتواك، ومايكل ناغين، وناتاشا سايمونز.

في أثناء انخراطي بالحملة الانتخابية الخاصة بمنصب نائب الرئيس مع تولي المنصب، كنت محظوظاً بوجود عدد من المساعدين الموهوبين والمخلصين. ابنتي ماري كانت الأولى في قائمة هؤلاء عبر حملة الـ 2000. أما برايان ماكّورماك، وجن فيلد، وتشارلي دوركين، ولوسي توتوايلر فقد تولوا، جميعاً هذا الموقع في أثناء نيابتي للرئاسة. أريد أن أشكرهم على عملهم الذي لم يكن يعرف معنى التعب مضطلعين بكل مهمة كُلفوا بها. كذلك راغب أنا في التعبير عن شكري لصديق العمر رون ووكر، الذي صعد إلى الطائرة معنا في العام 2000 وساعدنا على إعادة إيقاف حملتنا على قدميها.

رحت أرى أنه من غير المألوف توجيه الشكر إلى الفرق الطبية على مساعدتها، إلا أن من شأن الإخفاق في فعل ذلك، في حالتي أنا، أن يشكل إغفالاً جدياً. كثيرُ الامتنان أنا للأطباء في مستشفى جامعة جورج واشنطن على رعايتهم الهائلة عبر السنين، وأريد أن أتوجه بشكر خاص إلى كل من الدكتورين جوناثان راينر وجيهان البيومي. أما الدكتور ليو هوفمان فقد جال على العالم معي عدداً غير قليل من المرات حين كنت نائباً للرئيس ويسرني أن أشكره هو والدكتور سين أوميرا والفريق الموجود في الغارديان (المرصد) على مدار الساعة (7/24) الذي زودني بقدر بالغ الجدوى من الإرشاد. مدين أنا أيضاً لفريق العمل في مستشفى إينوفا فيرفاكس بفولز تشيرتش الفيرجينية، خاصاً بالذكر كلاً من الدكتور شاشناق ديساي، والدكتور نلسون بورتون، والدكتور آنتوني رونغوني، والدكتور جيسون فورلكيس، والمنسقين لوري إدواردز، وتوني إليوت، وكارولين روزنر.

لين وأنا كنا محظوظين بنعمة عائلة ملأى بالحب، حيث الجميع: الأبوان من الطرفين، والإخوة، وأختي وبنتانا، وأحفادنا، وأنا، يرون هذا الكتاب هدية لهم بلا استثناء. كذلك نجدنا، لين وأنا، شاعرين بالامتنان لعدد كبير من الأصدقاء الذين تقاسمنا معهم حياتنا في وايومنغ، وواشنطن، وفي العالم طولاً وعرضاً. كثيرون ورد ذكرهم في هذا الكتاب، ولكن بقدر مفرط من الإيجاز العاجز عن عكس مدى امتناننا، فيسرني، إذن، أن أختم بالتعبير عن التقدير للجميع والاعتراف بما انطوى عليه دعمهم من معاني نبيلة. سعيدان نحن بنعمة التمتع بمثل هؤلاء الأصدقاء.

الهوامش

جميع الخطوط كانت شغالة منذ 26 حزيران/يونيو، 2011

(1) مواعيد كثيرة رُكبت للحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وثمة تباين بينها. المواعيد الواردة في المدخل مقتبسة من تقرير لجنة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر (نيويورك:دبليو دبليو نورتون آند شُسْتر، 2004)، من ملاحظات دونتُها في ذلك اليوم لين تشيني، ومن ذكرياتي أنا.

(2) فدرال ريجستر، ج: 36، عدد 220، 13/11/1971، ص: 21789.

(3) آلن جي ماتوسوف، اقتصاد نيكسون: طفرات، وانكماشات، ودولارات، وأصوات (لورنس: مطابع جامعة كنساس، 1998)، ص: 231.

(4) أوراق رامسفيلد، مذكرة لدون رامسفيلد من ديك تشيني، 8/7/1975.

(5) أوراق رامسفيلد، مذكرة للرئيس من دونالد رامسفيلد وريتشارد تشيني، 24/10/1975.

(6) ريك آتكنسون، الحملة الصليبية: القصة التي لم تُرو لحرب الخليج العربي (نيويورك: شركة هوتون ميفلين، 1993)، ص: 64.

(7) كايث بين، الردع في العصر النووي الثاني (لكسنغتون: مطابع جامعة كنتاكي، 1996)، ص: 83 – 84.

(8) المصدر السابق.

(9) كولن باول، رحلتي الأمريكية (نيويورك: راندوم هاوس، 1995)، ص: 541

(10) للاستزادة عن دليل الـ 1992 ووضعنا الدفاعي في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، انظر فصلين لبول وولفويتز وإيريك إدلمان في أوقات ملتبسة: السياسة الخارجية الأمريكية بعد جدار برلين و9/ ١١، تحرير بي لفلر وجفري دبليو ليغرو (إيثاكا: مطابع جامعة كورنيل، 2011).

(11) رونالد براونشتاين "إحباط محاولة تغيير قوية"، لوس انجلس تايمز، 1/8/2000.

(12) ماري تشيني، الآن جاء دوري: حياة سياسية تؤرخها كريمة صاحبها (نيويورك: طبعات ثرشهولد، 2006)، ص: 64.

(13) كارل روف، شجاعة وعواقب: حياتي محافظاً في الحرب (نيويورك: طبعات ثرشهولد، 2010)، ص: 193.

(14) ليندا دي كوزارين، "استضافة الرئيس لأبطال الأمة"، إعلام القوات الأمريكية، 23/1/2001.

(15) روبرت إيه كارو، سنوات ليندون جونسون: معلم مجلس الشيوخ (نيويورك: ألفريد إيه كنوبف، 2002)، ص: 1038.

(16) فريق خطة تنمية الطاقة القومية، الخطة القومية للطاقة: طاقة جديرة بالثقة، مناسبة الكلفة، وسليمة بيئياً لمستقبل أمريكا، 16/5/2001.

(17) مايكل غرانفالد، "كذبة الطاقة النظيفة"، التايم، 27/3/2008.

(18) نيكولاس ليمان "الرجل الهادئ: صعود ديك تشيني المكتوم إلى موقع قوة غير مسبوق"، النيويوركر، 7/5/2001.

(19) انظر ريتشارد بي تشيني، ملاحظات على عشاء مؤسسة التراث إحياء للذكرى السنوية الخامسة والعشرين

لمبادرة الدفاع الاستراتيجي للرئيس ريغان، 2008/3/11.

(20) دوغلاس جي فايث، الحرب والقرار: داخل البنتاغون فجر يوم الحرب على الإرهاب (نيويورك: هاربر كولنز، 2008)، ص: 88.
(21) مايكل في هايدن، خطاب في النادي الوطني للصحافة: ما الذي كانت الاستخبارات الامريكية ولا سيما وكالة الامن القومي تفعله دفاعاً عن الامة، 2006/1/23.
(22) للاستزادة عن برنامج رصد الإرهاب، انظر مايكل في هايدن، شهادة أمام لجنة الاستخبارات المختارة في مجلس الشيوخ، 2006/5/18.
(23) هايدن، محاضرة في النادي الوطني للصحافة.
(24) رسالة من شانن كوفن، مستشار نائب الرئيس، إلى السيناتور باتريك ليهي، 2007/8/20؛ إجازات البرنامج مؤرخة في 10/4، 11/2 و2001/11/30؛ 1/9، 3/14، 4/18، 5/21، 6/24، 7/30، 9/10، 10/15، و2002/11/18؛ 1/8، 2/7، 3/17، 4/22، 6/11، 7/14، 9/10، 10/15 و9/ 2003/12؛ 2004/1/14.
(25) بايرون كالامه، "بيانات مصرفية: اعتراف رسمي بالخطأ"، النيويورك تايمز، 2006/10/22.
(26) إلكس بري "داخل المعركة في قلعة جانغي" التايم، 2001/12/1.
(27) توماس جوسلين، "غوانتانانو الحقيقي: ما رايته في افضل منشاة اعتقال أمريكية للإرهابيين"، ويكلي ستاندرد، 2009/12/28.
(28) رونالد ريغان، رسالة إلى مجلس الشيوخ مرفقة ببروتوكول لاتفاقيات جنيف 1949، 1987/1/29.
(29) توماس جوسلين، "ليس غوانتانامو أداة القاعدة الأولى للتجنيد" ويكلي ستاندرد، 2010/12/27.
(30) حول اعتقال أبو زبيدة واستجوابه، انظر: جورج دبليو بوش، خطاب إلى الامة، 2006/8/6؛ مايكل في هايدن، تصريح سري للتسجيل أمام لجنة الاستخبارات المختارة في مجلس الشيوخ، 2007/4/12 (جرى رفع السرية عنه منذ ذلك التاريخ)؛ جورج تنت، في قلب العاصفة: سنواتي في السي آي إيه (نيويورك: هاربر كولنز، 2007)، ص: 145 – 147 و241 – 243.
(31) وكالة الاستخبارات المركزية، "خالد شيخ محمد: مصدر بالغ الأهمية عن القاعدة"، 2004/7/13.
(32) مارك إيه ثيسن، مغازلة الكارثة: كيف حفظت السي آي إيه أمريكا آمنة وكيف يقوم باراك أوباما باستدعاء الهجوم الثاني (واشنطن، العاصمة: ريجنري ببليشنغ ، ص: 159 – 160.
(33) ثيسن، مغازلة الكارثة، ص: 158 و 162.
(34) هايدن، تصريح للتسجيل، 2007/4/12.
(35) إيفان توماس، "لماذا يبتسم هذا الجاسوس؟" النيوزويك، 2009/5/16.
(36) الوكالة الدولية للطاقة الذرية، تطبيق قرار مجلس أمن الامم المتحدة الخاص بالعراق، 1996/8/12.
(37) مدير الاستخبارات المركزية، تقويم الاستخبارات القومية، "آفاق العراق: صدام وما بعده"، كانون الثاني/ ديسمبر 1993.
(38) مقتبس في تشارلز إس روب ولورنس أتش سيلبرمان، الهيئة الخاصة بالقدرات الاستخباراتية للولايات المتحدة فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل، تقرير مرفوع إلى رئيس الولايات المتحدة، 2005/3/13، الجزء الأول، ص: 54.
(39) تشارلز دويلفر، تقرير شامل عن المستشار الخاص لمدير الاستخبارات المركزية حول أسلحة الدمار الشامل العراقية، الجزء الاول.
(40) دويلفر، تقرير شامل، ج: 1.
(41) تصريح مدير الاستخبارات المركزية جورج تنت حول تقويم الاستخبارات الوطنية لعام 2002 لبرامج أسلحة الدمار الشامل العراقية المتواصلة، 2003/8/11.
(42) مقتبس في لجنة الاستخبارات المختارة في مجلس الشيوخ، تقرير عن المجموعة الاستخباراتية الأمريكية حول التقويمات الاستخباراتية للعراق، 2004/7/7، ص: 144.

(43) لجنة الاستخبارات المختارة في مجلس الشيوخ، تقرير حول ما إذا كانت البيانات العلنية بشأن العراق والصادرة عن موظفي الحكومة الأمريكية مؤيدة بمعلومات استخباراتية، 2008/6/5، ص: 6 – 7.

(44) وكالة الاستخبارات المركزية، "العراق: بغداد تحاول اغتيال الرئيس السابق بوش"، 1993/7/12.

(45) لجنة الاستخبارات المختارة في مجلس الشيوخ، تقرير عن استخبارات ما قبل الحرب، 2004/7/7.

(46) رسالة من جورج تنت إلى بوب غراهام، 2002/10/7، محضر برلماني، 2002/10/9، ص: إس 10154.

(47) جورج تنت، شهادة أمام لجنة الاستخبارات المختارة بمجلس الشيوخ 2003/2/11؛ لجنة الاستخبارات المختارة بمجلس الشيوخ، تقرير عن استخبارات ما قبل الحرب، ص: 337 و353؛ تنت، في قلب العاصفة، ص: 350 – 354.

(48) تنت، في قلب العاصفة، ص: 370؛ انظر أيضاً روب – سيلبرمان، تقرير....، ص: 14.

(49) روب – سيلبرمان، تقرير، ص: 267 – 270.

(50) تارا أوتول، ومير مايكل، وثوماس انغلسبي، "ضوء ساطع على 'شتاء بارد'" أمراض سريرية معدية، ج: 34، عدد: 7، 2002/4/1، ص: 972 – 983.

(51) مجلس الاستخبارات الوطنية، تقويم الاستخبارات الوطنية، "برامج العراق المتواصلة في مجال أسلحة الدمار الشامل"، تشرين الأول/أكتوبر 2002. كانت لدى معاون وزير الخارجية لشؤون الاستخبارات والبحوث وجهة نظر أخرى مؤكدة أن صداماً لم يكن متوفراً على "أي مقاربة شاملة متماسكة، على الرغم من قيامه ببذل، على الأقل، محاولة محدودة لصون حيازة قدرات ذات علاقة بالأسلحة النووية" ما أبقى التكهن بموعد امتلاكه للقدرة على حيازة السلاح النووي مستحيلاً.

(52) "بريطانيا: بيان عن العراق 'كذب مكشوف'" الأسوشيتد برس، 2002/12/18.

(53) هانس بليكس، تحديث لعمليات التفتيش، 2003/12/27.

(54) لجنة مستشاري مجلس الشورى، مراجعة الاستخبارات حول أسلحة الدمار الشامل، 2004/7/14، ص: 123 – 125.

(55) تنت، في قلب العاصفة، ص: 469.

(56) لجنة الاستخبارات المختارة بمجلس الشيوخ، تقرير عن استخبارات ما قبل الحرب، ص: 43 – 46.

(57) سبنسر أكرمان وجون بي جوديس، "الضحية الأولى"، نيو ريببليك، 2003/6/30.

(58) حديث شبكة حملة كيري، 2003/10/29.

(59) لجنة الاستخبارات المختارة بمجلس الشيوخ، تقرير عن استخبارات ما قبل الحرب، ص: 445.

(60) مايكل جي سنفن، "بزعم الصحفيين كانت معلومات عملاء السي آي إيه معروضة مجاناً"، أسوشيتد برس، 2007/2/13؛ ثمة تسجيل بوب وودورد لمقابلة آرميتاج على أحد مواقع الإنترنت.

(61) ديفيد جونستون، "بوح مسرب يطرح أسئلة"، النيويورك تايمز، 2006/9/2.

(62) حول قضية الذاكرة في محاكمة ليبي، انظر ستان كروك، " 'صيد سهل' يضفي سحراً على التشويهات ويؤبد الخرافات" الوورلد أفيرز، أيلول/سبتمبر – تشرين الأول/أكتوبر 2010.

(63) وكالة الاستخبارات المركزية، تصريح ديفيد كاي حول تقرير التقدم النصفي حول نشاطات فريق مسح العراق، 2003/10/2.

(64) مقابلة مع ديفيد كاي، نشرة نهاية الأسبوع، الإذاعة الوطنية العامة، 2004/1/25.

(65) دويلفر، تقرير شامل، ج: 1.

(66) دويلفر، تقرير شامل، ج: 1.

(67) رسالة من جورج تنت إلى بوب غراهام، 2002/10/7، محضر برلماني، 2002/10/9، ص: إس 10154.

(68) تنت، شهادة أمام لجنة الاستخبارات المختارة بمجلس الشيوخ، ص: 78.

(69) دونالد رامسفيلد، معروف وغير معروف: مذكرات (نيويورك: سنتينل، 2011)، ص: 552.

(70) ستيفن إف هايس، "حاضر عند الإنشاء: مع ديك تشيني لدى تنصيب رئيس أفغانستان المنتخب الأول"، الويكلي ستاندرد، 2004/12/20.

(71) المعلومات والاقتباسات عن مفاعل الكبر النووي والتعاون السوري ـ الكوري الشمالي مقتبسة من: "إيجازات أساسية مع موظفين أمريكيين كبار حول مفاعل سورية النووي السري وتورط كوريا الشمالية"، 2008/4/24.

(72) المصدر السابق.

(73) مايك تشينوي، الانصهار: القصة الداخلية لأزمة كوريا الشمالية النووية (نيويورك: مطابع سانت مارتن، 2008)، ص: 318.

(74) ديمتري سيفاستوبولو، ودانييل دومبي، وآندرو وارد، "ضربة أمريكية لإيران 'ليست قيد الإعداد'" الفاينانشال تايمز، 2007/11/12.

(75) مدير الاستخبارات الوطنية، تقويم الاستخبارات الوطنية، "إيران: نوايا وقدرات نووية"، تشرين الثاني/ نوفمبر 2007.

(76) انظر مارك مازيتي، "رئيس الاستخبارات يقول إن القاعدة تحسّن قدرتها على ضرب الولايات المتحدة"، النيويورك تايمز، 2008/2/6، ومايكل ماكونيل، تقويم التهديدات السنوي ـ شهادة أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، 2008/2/27.

(77) غلن كسلر، "آثار يورانيوم على أنابيب كورية شمالية" الواشنطن بوست، 2007/12/21.

(78) غلن كسلر، "بيانات جديدة عن قدرة كوريا الشمالية النووية" الواشنطن بوست، 2008/6/21.

(79) غلن كسلر: "كوريا الشمالية لا توافق على أي عقد مكتوب؛ تأكيدات سابقة جرى نقضها كما تقول الولايات المتحدة"، الواشنطن بوست، 2008/12/12.

(80) أوصاف واقتباسات ذات علاقة بنجمة مونيكا براون الفضية.

(81) ريتشارد بي تشيني، خطاب لمركز سياسة الأمن والتخطيط له، 2009/2/21.

(82) "تصريح انشقاقي من عضوي الهيئة كايث هنسي ودوغلاس هولتز ـ ياكن، ونائب رئيسها بيل ثوماس"، تقرير التحقيق حول الأزمة المالية، كانون الثاني/يناير 2011، ص: 411 – 439.

(83) روبرت جي ساموبلسون، "لماذا نجح برنامج إغاثة الأصول المرتبكة؟"، النيوزويك، 2011/3/28.

(84) ريتشارد بي تشيني، ملاحظات في مؤتمر 2006 في فيلنوس، 2006/5/4.

(85) ريتشارد بي تشيني، ملاحظات في ندوة آمبروسيتي، 2008 /9/6.

(86) وكالة الاستخبارات المركزية، "خالد شيخ محمد مصدر بالغ الأهمية عن القاعدة"، 2004/7/13؛ وكالة الاستخبارات المركزية، "إفادات معتقلين محورية بالنسبة إلى الحرب ضد القاعدة"، 2005/6/3.

▪ تولى منصب وزارة الدفاع في إدارة جورج دبليو بوش (الأب) وأشرف على عمل الجيش الأمريكي إبان عملية عاصفة الصحراء في أثناء المنعطف التاريخي لانتهاء حقبة الحرب الباردة.
▪ كان مديراً تنفيذياً لهاليبورتون، تلك المؤسسة التي تملك 500 شركة مع حشد من المشروعات والعاملين في طول كوكب الأرض وعرضه.
▪ كان نائب الرئيس الأول في القرن الواحد والعشرين. متعاوناً مع جورج دبليو بوش (الابن) منذ بداية الحرب العالمية على الإرهاب، كان تشيني- وبقي- داعياً جهير الصوت إلى اتخاذ جميع الخطوات الضرورية للدفاع عن الأمة.

يجسد تشيني شاهد العيان على التاريخ من أعلى المستويات، شاهد الماضي والحاضر. يتحدث عن ولوجه بوابات البيت الأبيض يوم 9 آب (أغسطس) 1974 بعد استقالة ريتشارد نكسون بساعات قليلة، ليباشر العمل في الهيئة المضطلعة بمسؤولية الانتقال إلى إدارة فورد؛ يقدم تشيني لوحة تصور زمناً مثقلاً بأزمة وطنية بعد ربع قرن من الزمن حين كان، في 11 أيلول (سبتمبر) في ملجأ البيت الأبيض وأمر بإسقاط طائرة ركاب مختطفة إذا لم تغير مسارها.

بآفاقه الفريدة المتركزة على حقبة بالغة الخطورة من التاريخ الأمريكي، سيكون كتاب **"في زماني"** تنويرياً. وبوصفه تاريخاً حميماً وشخصياً، سيفاجئ، ويدهش، ويلهم. يبقى ديك تشيني صاحب رؤيا سياسية نافذة لا بد من أخذها في الاعتبار بقدر غير قليل من الإعجاب لأمانتها، وحكمتها، وجرسها الموسيقي.

من المؤكد أن كتاب **"في زماني"** هو حقاً الكلمة الأخيرة، والقول الفصل، عن حقبة سياسية يتعذر تصديقها، كلمة أطلقها رجل عاش في الحقبة وساهم في رسم تخومها- بشجاعة ودون مساومة.

كان **ديك تشيني** نائب الرئيس السادس والأربعين للولايات المتحدة (2001-2009).

«ومع تحليق مروحية المارينز رقم: 2، استطعنا رؤية البنتاغون. كان المبنى مضاء لأن فرق الإنقاذ كانت لا تزال تعمل، وكان الدخان متصاعداً. عكفتُ النهار كله على مشاهدة صور المركز العالمي للتجارة والبنتاغون على شاشة التلفزيون. الاطلاع المباشر على موقع الهجوم جعلني أدرك مدى هشاشة الولايات المتحدة أمام الأخطار التي تتربص بأمريكا...

وما كانت أولى حروب القرن الواحد والعشرين لتقف عند حدود نزاع دولة ضد دولة، جيش ضد جيش. كان من شأنها أن تشكل، أولاً وقبل كل شيء، حرباً ضد إرهابيين يعملون في الظل، لا يخافون أي ردع، ومستعدين لاستخدام أي سلاح يستطيعون أن يحصلوا عليه من أجل تدميرنا».

من الديباجة

نائب الرئيس والسيدة تشيني على متن حوامة المارينز رقم: 2، حوامة نائب الرئيس، لدى مغادرة مرج البيت الأبيض الجنوبي إلى موقع لم يكشف عنه، مساء 11 أيلول (سبتمبر) 2001.
(تصوير ديفيد بوهرر– البيت الأبيض)

